تقـــديم

تتشرف هيئة تحرير مجلة كلية الاداب بنشر طائفة جديدة من البحوث العلمية التى تقدمت بها مجموعة من اعضاء هيئة التدريس في مختلف اقسام الكليـــة .

ولقد راعت الهيئة في نشرها أن تكون الاقسام العلمية ممثلة في هــذا العدد ، قــدر المستطاع ، الا اذا كان القسم يمتلك اصدارا خاصا به كقســم اللغات الاوربية بجميع فروعه . لذلك احتوى العدد بحوثا في الدين والاداب واللغات والاثار والتاريخ والجغرافية وغيرها .

وانه لمن اعمق مشاعر الفرح ان نجد لدى اساتذتنا هذه الوفرة في الانتاج ، وهي وفرة كما يبدو من واقع الحال ، غير مخلة بالنوع ، فضلا عن ان البحوث عالجت قضايا علمية اساسية يتطلبها مجتمعنا ، سواء على مستوى القطر أم على مستوى الامة العربيــة جمعاء .

ومما يجب ذكره في هذا المجال ، ان هذا العدد يصدر ، والسنة الدراسية قد شارفت على نهايتها ، وان المعاهد العلمية على ابواب عطلة الصيف ، وبذلك يكون هــذا العدد السادس والعشرون ، قد ختم العام الدراسي ٩٧٨ / ١٩٧٩ وسجل له هذا الخلود ، خلود العلم والمعرفة من خلال البحث العلمي الرصين.

ونحن على يقين بان الاساتذة الافاضل ، سيباشرون عاما دراسيا جديدا وفي حقائبهم بحوث علمية جديدة متطورة ، تثرى مكتبتنا الجامعية وتغني فكرنا العربي الاصــيل .

ولا يفوتنا بهذه المناسبة أن نشير الى الدعم القوى الذى تلقاه مجلتنا من لدن المسؤولين العلميين والاداريين في اصدار اعداد بشكل مستمر ومنتظــم ، كما لا يفوتنا ان نشكر ادارة المطبعة رقم ٢ والمشرفين عليها والفنيين القائمين على الطبع ، لما بذلوه معنا من تعاون وجهــد كبيرين في اصدار المجلة بالصــورة التي بين يدى القارىء الكريم . وهذا ان دل على شيء فانما يدل على مــدى استجابة عمالنا وموظفينا لتوصيات قيادتهم السياسية الحكيمة ، وعلى ترسم خطا الرفيق المناضل صدام حسين رئيس مجلس قيادة الثورة رئيس الجمهورية.

والله هــو الموفــق الى ســواء السـبيل .

هيئــة التحريــر

النسخ في القرآن

د . رشدي عليان
كلية الاداب جامعة بغداد

تلخيص وتقديم :

مواكبة الاحداث ، ومسايرة المتغيرات ، سنة التشريع الاسلامي ، يتضح ذلك جليا في نزول القرآن المجيد على النبي الكريم مفرقا في أوقات مختلفة ، وأماكن متعددة في أكثر من ثنتين وعشرين سنة .

وفي التدرج في التشريع الذي دأب عليه الدين الاسلامي ، مراعاة لمصالح الناس في دنياهم ، وعدم تكليفهم بما يشق عليهم مرة واحدة سواء بالفعل أو بالترك . حتى تتهيأ النفوس الى تقبل التشريع الجديد ، ومثاله : تحريم الخمر ، حيث لم يشرع تحريمها ابتداء ، لأنها كانت متأصلة في النفوس ، فكان أن بدأ الله ببيان ما فيها من ضرر وإثم ، يجدر بالعاقل أن يتجنبها ، ثم نهى عن الصلاة في حالة السكر ، فنبذها المسلمون أثناء النهار ، حتى لا يفجأهم وقت الصلاة وهم سكارى ، وفي المرحلة الثالثة جاء التحريم العام .

ويتضح ذلك ايضا في النسخ حيث شرعت بعض الاحكام بنص من القرآن أو السنة ، ثم نسخت نسخا كليا أو جزئيا .

وعملية النسخ تقتضي « منسوخا » وهو الحكم المقرر سابقا و « ناسخا » وهو الدليل اللاحق و « نسخا » وهو رفع الحكم السابق بالدليل اللاحق .

والدليل هو « وحي الله » سواء كان متلوا أو غير متلو ، فيشمل الكتاب والسنة .

والنسخ غير البداء ، لأن البداء هو الظهور بعد الخفاء وفي مجال الرأي ، هو أن يظهر للانسان رأي جديد لم يكن معلوما له من قبل ، واما في النسخ فان المنسوخ يكون معلوما انه سوف ينسخ ، لذا فالبداء غير جائز في حق الله بخلاف النسخ .

والذي يقبل النسخ في التشريع الاسلامي هو الجانب المتطور من احكام المعاملات ونحوها ، أما الجانب الثابت كالعقائد والاحكام الكلية فهو ثابت ولا يقبل النسخ ، وكذلك الاحكام الدالة على التأبيد كقول الرسول الكريم « الجهاد ماض الى يوم القيامة » .

والناسخ لابد أن يكون في قوة المنسوخ أو أقوى منه في الدلالة .

والنسخ قد يقع في القرآن الكريم بأن ينسخ حكم أو نص ثبت بالقرآن أو بالسنة بنص قرآني آخر ، وقد يقع في السنة بأن ينسخ حكم أو نص ثبت بالسنة بنص حديثي آخر ، أما نسخ القرآن بالسنة فهو محل خلاف ، وموضوع بحثنا هو القسم الاول أي النسخ في القرآن .

تعريف النسخ في اللغة والاصطلاح :

١ ـ النسخ في اللغة :

يطلق النسخ في اللغة على عدة معان :

أ ـ النقل ، ويراد منه نقل الشيء من موضع الى موضع ، يقال : نسخ زيد الكتاب ، اذا نقله الى كتاب آخر حاكيا للفظه وخطه[١] ، ونسخ النحل اذا نقله من خلية الى اخرى ، ومنه قوله تعالى : « انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون »[٢] والمراد نقل الاعمال الى الصحف أو من الصحف الى غيرها[٣] .

---

١ ـ الزركشي : البرهان جـ ٢ ص ٢٩ ، والسيوطي : الاتقان جـ ٢ ص ٢٠ .
٢ ـ الجاثية : ٢٩ .
٣ ـ الزرقاني : مناهل العرفان جـ ٢ ص ٧٠ ، وابن منظور : لسان العرب ، باب الخاء فصل النون .

ب ـ الازالة ، ويراد منه رفع الشيء والاحلال محله ، يقال : نسخت الشمس الظل ، اذا ازالته وحلت محله ، ونسخ الشيب الشباب ، اذا ازاله وحل محله ، ومنه قوله تعالى : « فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته »[٤] .

جـ ـ الابطال ، ويراد منه رفع الشيء من غير ان يقيم له بدلا ، يقال : نسخت الريح آثار القوم ، اذا ابطلتها وعفت عليها .

٢ ـ النسخ في الاصطلاح :

عرف العلماء النسخ بتعاريف كثيرة ، لعل اشدها اختصارا ووضوحا تعريفه بأنه : « رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر عنه » ويسمى الحكم المرفوع « بالمنسوخ » ويسمى الدليل الرافع « بالناسخ » ويسمى الرفع « بالنسخ » .

شرح التعريف[٥] :

رفع : جنس في التعريف ، يخرج عنه ما ليس برفع كالتخصيص ، فانه لا يرفع الحكم ، وانما يقصره على بعض افراده ، ومعنى رفع الحكم ، ابطال العمل به ، وقطع تعلقه بافعال المكلفين .

الحكم الشرعي : قيد ، خرج به المباح بحكم العقل ببراءة الذمة ، كرفع اباحة فطر رمضان بايجاب صومه ، فانه لا يسمى نسخا ، لأنه رافع لبراءة الذمة منه قبل التكليف بحكم العقل .

والحكم الشرعي هو : خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين اقتضاء أو تخييراً أو وضعا .

---

٤ ـ الحج : ٥٢ .

٥ ـ الزرقاني : مناهل العرفان جـ ٢ ص ٧٢ ، والشوكاني : ارشاد الفحول ص ١٧١ ، وعبدالوهاب خلاف : علم أصول الفقه ص ٢٥١ .

بدليل شرعي : قيد ، خرج به رفع الحكم الشرعي بدليل عقلي ، وذلك كسقوط التكليف عن الانسان بموته أو بجنونه ، فان سقوط التكليف عنه بمثل هذه الاسباب يدل عليه العقل .

والدليل الشرعي هو : وحي الله مطلقا سواء كان متلوا أو غير متلو ، فيشمل الكتاب والسنة .

متأخر عنه : قيد ، خرج به ما لو جاء الدليل مصاحبا للحكم فانه عندئذ لا يسمى نسخا ، وانما بيانا وتخصيصا اذ يشترط في الدليل الناسخ ان يأتي متأخرا عن الحكم المنسوخ .

النسخ والبداء :

البداء في اللغة الظهور بعد الخفاء ، يقال بدا الشيء يبدو ، اذا ظهر ، وأبديته ، اظهرته ، ومنه قوله تعالى : « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون »[6] .

وجاء في القاموس ، بدا له في الامر بدوا ، وبداء ، وبداوة : أي نشأ له فيه رأى[7] .

تقول العرب فلان ذو « بدوات » معناه اصحاب آراء تظهر[8] ، ومنه قوله تعالى : « ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الأيات ليسجننه حتى حين »[9] ، أي ظهر لهم في يوسف رأى جديد ، وهو سجنه سجنا مؤقتا .

ومعنى البداء في الاصطلاح لا يخرج عن معناه في اللغة فهو ان يستصوب المرء رأيا ثم ينشأ له رأى جديد لم يكن معلوما له ، والبداء يعنى « تغيرا في أمر لم يكن متوقعا »[10] .

---

٦ ــ الزمر : ٤٧ .
٧ ــ الفيروز أبادى : القاموس المحيط .
٨ ــ عبدالزهرة البندر : نظرية البداء ص ٢٥ .
٩ ــ يوسف : ٣٥ .
١٠ــ عبدالزهرة البندر : نظرية البداء ص ٣٩ .

وعليه فالنسخ غير البداء ، لأن في النسخ يكون معلوما ان المنسوخ سوف ينسخ قبل ظهور الناسخ ، فالله سبحانه : « يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور »[11] . أليس هو القائل : « ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم ، الا في كتاب من قبل أن نبرأها »[12] .

اذن : فالبداء غير جائز على الله لما يلزمه من سبق الجهل وحدوث العلم وهذا غير جائز في حقه تعالى[13] .

جاء في رواية عن الامام جعفر الصادق ــ رض ــ : « من زعم أن الله عز وجل يبدو له في شيء لم يعلمه بالامس فابرأوا منه »[14] .

واما النسخ فجائز عقلا ، وواقع فعلا في القرآن الكريم ، ومن امثلته التي لا ينازع فيها أحد ، نسخ التوجه الى بيت المقدس في الصلاة الى التوجه الى المسجد الحرام ، قال تعالى : « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره »[15] .

النسخ والتخصيص :

قد يشتبه النسخ بالتخصيص[16] في بعض صوره كما في نسخ بعض افراد العام[17] وتخصيصه من جهة ان الحكم فيهما يكون مقصورا[18] على بعض افراد العام ، ولذا وضع الاصوليون فروقا بينهما وهي :

١١ـ غافر : ١٩ .
١٢ـ الحديد : ٢٢ .
١٣ـ الزرقاني : مناهل العرفان جـ ٢ ص ٧٦ ـ ٧٧ .
١٤ـ المحقق الخوئي : البيان ص ٤١٣ وقد أشار الى البحار جـ ٢ ص ١٣٦ .
١٥ـ البقرة : ١٤٤ .
١٦ـ التخصيص قصر العام على بعض أفراده .
١٧ـ العام لفظ وضع للدلالة على أفراد غير محصورين على سبيل الاستغراق والشمول ، سواء كانت دلالته على الشمول بلفظة ومعناه بأن كان بصيغة الجمع كالمسلمين والمسلمات والرجال والنساء ، او كانت بمعناه فقط كالرهط ، والقوم ، والجن ، والانس ، ومن ، وما ، انظر : الدكتور مصطفى زيد : النسخ في القرآن جـ ١ ص ١١١ .

١ ـ ان النسخ يرد على العام والخاص ، اما التخصيص فلا يرد الا على عام . لانه قصر العام على بعض افراده ، ولذا فان النسخ يزيل حكم المنسوخ ولا يعتبر حجة بعد نسخه ، اما التخصيص فتبقى حجيته رغم قصره على بعض افراده[١٩] .

٢ ـ النسخ ابطال الحكم بعد ثبوته اي ان الناسخ يخرج من اللفظ ما قصد به الدلالة عليه ، ولهذا شرط فيه ان يكون متأخرا عن المنسوخ فلا يجوز ان يسبقه أو ان يقترن به ، اما التخصيص فيشترط ان يكون مقارنا للعام في نزوله ، في ارجح الآراء .

٣ ـ ان العام المنسوخ بعض افراده يصبح قطعيا في دلالته على الباقي بخلاف العام الذي لحقه التخصيص فان دلالته على الباقي تكون ظنية .

٤ ـ ان النسخ لا يكون الا بالكتاب أو السنة ، اما التخصيص فيكون بهما وبغيرهما كالحس والعقل[٢٠] .

حكمة النسخ :

اقتضت سنة التدرج في التشريع نسخ بعض الاحكام التي وردت في القرآن أو السنة ببعضهما نسخا كليا أو جزئيا في وقت الرسالة ، مراعاة لمصالح الناس في دنياهم ، وعدم تكليفهم بما يشق عليهم مرة واحدة سواء بالفعل أو بالترك ، حتى تتهيأ نفوسهم الى تقبل الحكم الشرعي ، فتكون الاحكام المتقدمة تمهيدا للحكم الاخير ، ومثاله ما وقع في تحريم الخمر حيث لم يشرع تحريمها ابتداء لانها كانت متأصلة في النفوس[٢١] .

١٨ـ محمد مصطفى شلبي : اصول الفقه الاسلامي ص ٥٣٧ .

١٩ـ الزرقاني : مناهل العرفان جـ ٢ ص ٨١ ، والدكتور صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن ص ٢٦٣ .

٢٠ـ نفسهما .

٢١ـ الزرقاني : مناهل العرفان جـ ٢ ص ٩١ ـ ٩٢ .

فكان ان بدأ سبحانه ببيان ما فيها من ضرر واثم يجب على العاقل ان يتجنبه ، قال تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما اكبر من نفعهما »[٢٢] . ثم منع قربان الصلاة في حالة السكر ، فانقطع المسلمون عن شربها اثناء النهار خوفا من ان يدخل عليهم وقت الصلاة وهم سكارى ، واقتصروا على شربها اثناء الليل وبعد الفراغ من الصلاة ، قال تعالى : « يا ايها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون »[٢٣] ثم في المرحلة الثالثة جاء التحريم العام وبيان انها رجس من عمل الشيطان ، قال تعالى : « انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه »[٢٤] .

وهكذا نجد التشريع الالهي راعى جانب المصلحة التي تدفع الحرج عن العباد فتدرج في التشريع[٢٥] ، ومثاله ايضا ما حدث في تحريم الربا حيث بين اولا ما في الصدقة من الخير وما في الربا من انه لا يربو عند الله ، ثم بين ان الربا كان سببا في تحريم بعض الطيبات على اليهود ، ثم نهى عن اكل الربا اضعافا مضاعفة « يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا اضعافا مضاعفة » وهو ما كان شائعا بينهم ، ثم جاء التحريم العام واعلان الحرب على المرابين .

وكذلك قد يشرع الحكم لظروف خاصة اقتضته ، فعندما تزول هذه الظروف يبطل الحكم ، كنهى النبي ـ ص ـ عن ادخار لحوم الاضاحي عندما وفدت وفود المسلمين الى المدينة ، فلما سافرت الوفود قال ـ ص ـ : « انما نهيتكم عن ادخار لحوم الاضاحي لاجل الدافة الا فادخروا »[٢٦] .

٢٢ـ البقرة : ٢١٩ .
٢٣ـ النساء : ٤٣ .
٢٤ـ المائدة : ٩٠ .
٢٥ـ بدران ابو العينين بدران : اصول الفقه ص ٤٣٧ ، والدكتور مصطفى زيد : النسخ في القرآن ج ٢ ص ٨٣٧ .
٢٦ـ محمد مصطفى شلبي : اصول الفقه الاسلامي ص ٥٣٩ .

شروط النسخ :

يشترط في النسخ عدة شروط منها ما يكون في الحكم المنسوخ ومنها ما يكون في الدليل الناسخ وهي :

١ ــ ان يكون المنسوخ حكما شرعيا عمليا ثابتا بنص غير مؤقت ولا مؤبد ، متقدما في النزول عن الناسخ ، وليس كليا .

وبناء على هذا فان النسخ يكون في الامور التي تتضمن احكاما عملية من احكام العبادات أو المعاملات أو الحدود ، ولا يجوز نسخ الاحكام العقلية والاخبار المحضة ، وآيات الوعد والوعيد لانها تحتمل الصدق والكذب لذاتها ، ونسخها تكذيب للمخبر بها ، والشارع سبحانه منزه عن الكذب ، كما لا يجوز نسخ الاحكام الاعتقادية لانه لا يتصور فيها توارد الامر والنهي على مسألة واحدة اذ هي ثابتة في جميع الشرائع الالهية ، وسبب النسخ لا يعقل فيها ، سواء اكان هو التدرج في التشريع ، ام كان هو اختلاف المصالح واقتضاؤها احكاما جديدة ، ولا يجوز نسخ الاحكام الكلية اذ الكليات ثابتة عادة ، وانما تتغير الفروع ، وقد ثبت هذا بالاستقراء . كما لا يجوز نسخ الاحكام الدالة على التأبيد كقوله ـ ص ـ : « الجهاد ماض الى يوم القيامة » ولا يجوز ايضا نسخ الحكم المؤقت ، لانه ينتهي بانتهاء وقته ، دون حاجة الى النسخ[٢٧] .

٢ ــ ان يكون الحكم الناسخ خطابا من الشارع معادلا للمنسوخ في درجة ثبوته ودلالته ، وفي ايجاب العمل بمقتضاه ، أو اقوى منه متراخيا في النزول عن المنسوخ[٢٨] ، متضادا معه ومناقضا له .

٢٧ــ نفسه ص ٥٤١ ، والدكتور مصطفى زيد : النسخ في القرآن جـ ١ ص ١٨٠ ــ ٢٠٤ .

٢٨ــ محمد مصطفى شلبي : اصول الفقه الاسلامي ص ٥٤١ ، والدكتور مصطفى زيد : النسخ في القرآن جـ ١ ص ١٨٠ ــ ٢٠٤ .

ويترتب على هذا ان النسخ قاصر على عصر الرسالة الذي يتنزل فيه الوحي ، فلا يجوز نسخ حكم بعد عصر الرسالة ، سواء باجماع ام بقياس ، لان النص ان كان قطعيا فلا ينعقد الاجماع على خلافه ، فاذا اجمعوا فلا بد ان يستندوا الى دليل ، وبهذا الدليل يكون النسخ بالنص لا بالاجماع . واذا ثبت حكم بنص أو اجماع فلا ينسخ بقياس ، لان الناسخ له لابد ان يكون معادلا له ، أو اقوى منه ، والقياس ليس كذلك ، ولا ينسخ حكم بخطاب انزل قبله ، ولا نسخ عند عدم التعارض بين الحكمين[٢٩] .

الناسخ :

الاصل العام في النسخ ان النص لا ينسخ الا بنص في قوته أو اقوى منه ، والدليل القطعي في دلالته لا ينسخ الا بقطعي الدلالة مثله .

فنصوص القرآن الكريم تنسخ بمثلها ، اي ان النص القرآني ينسخ بنص قرآني مساو له في الدلالة ، واجاز اكثر العلماء نسخ القرآن بالسنة المتواترة أو بالسنة المشهورة لانها قطعية لقربها من المتواترة ، ولانهما على الراجح وحي من الله تعالى ، والقرآن وحي ، ولا مانع من نسخ الوحي بمثله[٣٠] .

وقد منع الشافعي ـ رض ـ نسخ القرآن بالسنة مستدلا بقوله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها »[٣١] فاخبر الله تعالى ان نسخ القرآن وتأخير انزاله لا يكون الا بقرآن مثله « واذا

٢٩ـ بدران ابو العينين بدران : اصول الفقه ص ٤٣٥ . والدكتور مصطفى زيد : النسخ في القرآن ج ١ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٨ .

٣٠ـ شرح البدخشي ومعه شرح الاسنوي ج ٢ ص ١٧٩ ، والنحاس : الناسخ والمنسوخ ص ٢٦١ ، والدكتور صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن ص ٢٦١ .

٣١ـ البقرة : ١٠٦ .

بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل »[٣٢] فلا يكون لأحد من خلقه ان يزيل ما اثبته بفرضه ، وانما هو المزيل والمثبت لما شاء منه جل ثناؤه[٣٣] .

اما نصوص السنة المتواترة فيصح ان ينسخ بعضها بعضا ، وكذلك تنسخ السنة المتواترة بالسنة المشهورة لانها مساوية لها في الثبوت والدلالة ، كما وتنسخ السنة بالقرآن ، ولا تنسخ بخبر الآحاد لانه اقل منها .

اما خبر الآحاد فانه ينسخ بخبر الاحاد لانه مساو له وينسخ بالسنة المتواترة والمشهورة وبالقرآن لانهما اقوى منه .

وعلى هذا لا ينسخ نص قرآني أو سنة متواترة أو مشهورة بخبر الآحاد أو بالاجماع أو بالقياس لان الاقوى لا ينسخ بما هو اقل منه قوة[٣٤] .

نماذج من وقائع النسخ في القرآن :

١ ــ فرض الله على نبيه قيام الليل بقوله : « يا أيها المزمل قم الليل الا قليلا، نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه »[٣٥] ثم نسخ فرضيته بقوله في آخر السورة نفسها[٣٦] . وقد انزل بعد نزول اولها بسنة : « ان ربك يعلم أنك تقوم ادنى من ثلثي الليل ، ونصفه ، وثلثه ، وطائفة من الذين معك . والله يقدر الليل والنهار ، علم ان لن تحصوه فتاب عليكم ، فاقرءوا ما تيسر من القرآن . علم أن سيكون منكم مرضى ، وآخرون يضربون في الارض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون في سبيل الله ، فاقرءوا ما تيسر منه ، واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ،

٣٢ــ النحل : ١٠١ .

٣٣ــ الزركشي : البرهان جـ ٢ ص ٣٢ ، والنحاس : الناسخ والمنسوخ ص ٢٦١ والدكتور مصطفى زيد : النسخ في القرآن جـ ١ ص ١٨٠ ــ ٢٠٨ ، والدكتور صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن ص ٢٦١ ــ ٢٦٢ .

٣٤ ــ الدكتور مصطفى زيد : النسخ في القرآن جـ ٢ ص ٨٠٨ ــ ٨١٦

٣٥ ــ المزمل: ١ ــ ٣

٣٦ ــ الدكتور مصطفى زيد : النسخ في القرآن جـ ٢ ص ٨١٧ وعبدالرحمن محمد العتائقي : الناسخ والمنسوخ ص ٨١

واقرضوا الله قرضا حسنا ، وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا واعظم أجرا ، واستغفروا الله ، إن الله غفور رحيم »[٣٧] .

٢ ـ فرض الرسول الكريم صيام يوم عاشوراء على المسلمين كما جاء في الحديث الصحيح الذي اخرجه البخاري عن عائشة ـ رض ـ قالت : « كان عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية ، وكان النبي ـ ص ـ يصومه ، فلما قدم المدينة صامه وامر بصيامه ، فلما نزل رمضان ، كان رمضان الفريضة وترك عاشوراء ، فكان من شاء صامه ومن شاء لم يصمه » .

ثم نسخ[٣٨] بقوله تعالى ـ كما اشار الحديث الى ذلك : « شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه »[٣٩] .

٣ ـ بعد فرض الجهاد على المسلمين دفاعا عن عقيدتهم الحقة ، أوجب الله عليهم الصمود عند لقاء العدو ، وتوعد المنهزمين بالخلود في نار جهنم ، حتى لو كان عدد الاعداء يفوق عدد المسلمين بعشرة أضعاف ، بقوله : « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم مائة يغلبوا الفا من الذين كفروا بانهم قوم لا يفقهون »[٤٠] . ثم خفف الله عن المسلمين ، واذن لهم بالانسحاب ترقبا لجولة اخرى ، اذا كان عدد الاعداء اكثر من عدد المسلمين[٤١] ، بقوله : « الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا فانَ يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم الف يغلبوا الفين بأذن الله ، والله مع الصابرين »[٤٢] .

---

٣٧ ـ المزمل : ٢٠
٣٨ـ البقرة : ١٨٥ .
٣٩ـ الانفال : ٦٥ .
٤٠ـ عبدالرحمن محمد العتائقي : الناسخ والمنسوخ ص ٥٢ .
٤١ـ الانفال : ٦٦ .
٤٢ـ الانفال : ٦٧ .

اهم مصادر البحث

١ ـ الزركشي : بدر الدين محمد بن عبدالله

البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط : ٢ ، عيسى البابي الحلبي ، مصر .

٢ ـ السيوطي : جلال الدين عبدالرحمن

الاتقان في علوم القرآن ، المكتبة الثقافية ، بيروت سنة ١٩٧٣ .

٣ ـ الزرقاني : محمد عبدالعظيم

مناهل العرفان في علوم القرآن ، طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، مصر .

٤ ـ الشوكاني : محمد بن علي

ارشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الاصول ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩٣٧م .

٥ ـ ابن منظور : محمد بن مكرم

لسان العرب ، ط ١ سنة ١٣٠٣ هـ .

٦ ـ الصالح : د. صبحي

مباحث في علوم القرآن ، ط ٤ و ١٠ دار العلم للملايين ، بيروت

٧ـ الغزالي : ابو حامد محمد

المستصفى من علم الاصول ، ط ١ سنة ١٩٣٧ مطبعة مصطفى محمد .

٨ ـ عبدالباقي : محمد فؤاد

المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ، دار مطابع الشعب ، مصر .

٩ ـ العتائقي : عبدالرحمن بن محمد

الناسخ والمنسوخ ، حققه وعلق عليه عبدالهادي الفضلي ، ط ١ مطبعة الآداب ، النجف ١٩٧٠ .

١٠ـ زيد : د. مصطفى

النسخ في القرآن ، ط ١ سنة ١٩٦٣ دار الفكر العربي .

١١ـ البندر : عبدالزهرة

نظرية البداء عند صدر الدين الشيرازي ، ط ١ ، مطبعة النعمان ، النجف ١٩٧٥ .

نشوء وتطور علم الاجتماع الاشتراكي

The Origin and Evolution of Socialist Sociology

بقلم : الدكتور احسان محمد الحسن
مدرس علم الاجتماع في كلية الآداب
بجامعة بغداد

مقـــدمة

بعد منتصف هذا القرن اعارت المجتمعات الاشتراكية انتباهها الى اهمية علم الاجتماع نظرا لحاجتها اليه في دراسة طبيعة وتطور ومشاكل المجتمع المعاصر خصوصا بعد تشعب مؤسساته وتعقد علاقاته الاجتماعية وتزايد تفاعله مع المجتمعات الانسانية الاخرى . وقد انعكست الاهمية البالغة التي اعطتها حكومات الدول الاشتراكية الى علم الاجتماع في تأسيس معاهد واقسام علم الاجتماع في كثير من جامعاتها واكاديمياتها العلمية لتتولى عملية التدريس والقيام بالبحوث الاجتماعية ذات الطابع النظري والميداني ، وفي زيادة عدد الكتب والمجلات العلمية المتخصصة في نشر الابحاث والمقالات الاجتماعية ، وفي محاولات العلماء المتكررة بتجديد مركز ومكانة علم الاجتماع بين العلوم الاجتماعية الاخرى كعلم الاقتصاد ، القانون ، علم النفس ، الانثروبولوجيا التاريخ ، علم اللغات ... الخ . واخيرا اعتماد بعض الدوائر والمؤسسات الحكومية كأجهزة الاحصاء والديمغرافيا ، وزارات الزراعة والصناعة والتجارة الداخلية ، دوائر العمل والشؤون الاجتماعية ، دوائر الاسكان والضمان الاجتماعي ، المحاكم الشرعية ، السجون ، المستشفيات ... الخ . على معاهد البحوث الاجتماعية لتزويدها بالمعلومات والحقائق والارقام المتعلقة بالظواهر

والتفاعلات الاجتماعية التي تخص نطاق عملها الوظيفي لكي تسند قراراتها وسياستها على هذه المعلومات والحقائق[1] .

وارتفاع مكانة علم الاجتماع في الدول الاشتراكية خلال فترة الستينات لم تحدث الا بعد تبدل سياسات هذه الدول وتبدل سياسات الاحزاب الماركسية اللينينية ازاء مسألة العلاقة بين علم الاجتماع والمادية التاريخية الدايلكتيكية[2] . فخلال عهد ستالين كانت الاحزاب الشيوعية تعتقد بان علم الاجتماع هو جزء من المادية التاريخية وان المادية التاريخية يمكن ان تحل محله ، لذا ليس هناك حاجة لدراسته والتخصص فيه . الا انه بعد انتهاء فترة حكم ستالين وبعد تعقد المجتمع الاشتراكي وزيادة مشاكله الاجتماعية والحضارية نتيجة لآثار التحضر والتصنيع والتحديث الشامل أيقن العلماء ورجال السياسة على حد سواء بان المادية التاريخية هي فلسفة ايدولوجية وطريقة علمية عامة للدراسة والبحث فقط ، بينما دراسة المجتمع دراسة علمية دقيقة تهدف الى تحليل اجزائه التركيبية مع تشخيص عوامل استقراره وتحوله ومعرفة اسباب ونتائج مشاكله الاجتماعية هي دراسة تقع خارج نطاق اختصاص المادية التاريخية ، ودراسة يجب ان يهتم بها علم الاجتماع[3] . لذا برز علم الاجتماع لياخذ دوره الفعال والمهم في المجتمع ، ومن هنا ظهرت المؤسسات العلمية والمهنية التي تهتم بتنظيم واجباته وفعالياته التي تنحصر تارة في التدريس والبحث الاجتماعي العلمي وتارة اخرى في رسم فحوى وابعاد السياسةالاجتماعية (Social Policy) والتخطيطالاجتماعي (Social Planning)

---

1. Hegedus, Andras. Sociology in Hungary-An article submitted to the 6th World Congress of Sociology in Evian 1966.
2. Tokei, Ferenc. The Crisis of Dogmatism and Marxism, Uj Iras, No. 6. P. 99.
3. Mandic, Oleg. The Marxist School of Sociology, an article written in Marxism and Sociology, edited by P. Berger, New York, 1969, P. 53.

وبعد فصل علم الاجتماع عن المادية التاريخية وتأسيس معاهد واقسام خاصة بالتدريس والبحث الاجتماعي ادرك علماء الاجتماع في الدول الاشتراكية اهمية تكوين علم اجتماع اشتراكي يختلف بطبيعته ونظرياته وقوانينه واهدافه واهميته عن علم الاجتماع البرجوازي الموجود في دول اوربا الغربية وفي الولايات المتحدة الامريكية • لذا تحملت مراكز ومؤسسات البحوث الاجتماعية في الدول الاشتراكية مسؤولية رسم الاطار الفكري والنظري لعلم الاجتماع الاشتراكي ومهمة خلق وتوليد الفرضيات والنظريات والقوانين الاجتماعية الكونية الجديدة التي تثبت مكانه العلم الجديد من جهة وتفسر طبيعة المؤسسات الاجتماعية والعلاقات الانسانية على اختلاف انواعها من جهة اخرى • اضافة لدراستها دوافع وحوافز السلوك الاجتماعي وشرح العلاقة بين عملية الصراع الاجتماعي والتغير الاجتماعي مع بحث اسباب ونتائج وحلول المشاكل الاجتماعية والحضارية التي تجابه المجتمع الاشتراكي(٤) • ومن اول المحاولات التي اهتمت بتكوين الهيكل النظري لعلم الاجتماع الاشتراكي محاولة تعريف علم الاجتماع تعريفا علميا دقيقا ومحاولة تحديد المصطلحات العلمية التي يستعملها هذا العلم خصوصا وان هناك اختلافا كبيرا بين المصطلحات العلمية التي يستعملها علم الاجتماع الاشتراكي والمصطلحات العلمية التي يستعملها علم الاجتماع البرجوازي • من اشهر التعاريف العلمية لعلم الاجتماع والمتفق عليها من قبل علماء الاجتماع الاشتراكي التعريف الذي ينص بان علم الاجتماع هو العلم الذي يدرس عمليات ونتائج التفاعلات والعلاقات المشتركة بين الجوانب المادية والاقتصادية والجوانب الشعورية والاديولوجية التي تنعكس في الظواهر والمؤسسات الاجتماعية التي يتكون منها المجتمع • ويعتقد علماء الاجتماع الاشتراكي بان حصيلة التفاعل بين العوامل المادية والاديولوجية في المجتمع يكون ما

---

4. Kulcsar, Kalman. The past and present of Hungarian Sociology, an article written in the Sociological Review Monograph, England 1972, P. 15.

يسمى بقوانين علم الاجتماع التي يستفاد منها في تفسير ودراسة الظواهر والعلاقات والمشاكل الاجتماعية . وعلم الاجتماع الاشتراكي لا يستعمل نفس المصطلحات العلمية التي يستعملها علم الاجتماع البرجوازي ، فهو لا يستعمل اصطلاح المؤسسة الاجتماعية (Social Institution) بل يستعمل اصطلاح النظام الأجتماعي الفرعي (Sub-Social System) ولا يستعمل أصطلاح التحول الاجتماعي (Social Change) بل يستعمل اصطلاح الصراع والتحول الثوري (Conflict and Revolutionary Change)، ولا يستعمل اصطلاح المنزلة الاجتماعية (Social Status) ، بل يستعمل أصطلاح الاحوال الاجتماعية (Social Conditions) ، ولا يستعمل اصطلاح الطبقة الاجتماعية (*) (Social Class) بل يستعمل اصطلاح الجماعة المهنية (Professional Group) ، ولا يستعمل اصطلاح الدور الاجتماعي (Social Role) بل يستعمل اصطلاح (مركز الفرد بالنسبة لقوى الانتاج) ، ولا يستعمل اصطلاح القوة الاجتماعية (Social Power) بل يستعمل اصطلاح (مركز الفرد بالنسبة لنظام تقسيم العمل) وهكذا [٥] . بعد هذه المقدمة التي توضح بشكل مختصر ظهور وطبيعة علم الاجتماع الاشتراكي نود ان نبحث في هذه المقالة العلمية ثلاثة مواضيع اساسية تتعلق بنشوء وتطور علم الاجتماع الاشتراكي الا وهي تاريخ تطور علم الاجتماع الاشتراكي ، الطريقة العامة التي يستعملها علم الاجتماع الاشتراكي في الدراسة والبحث ، واخيرا علاقة علم الاجتماع الاشتراكي بعلم الاجتماع البرجوازي .

ظهور علم الاجتماع الاشتراكي (The Rise of socialist sociology)

يهدف هذا القسم من البحث عرض المراحل التاريخية التي مرت بها المدرسة الاشتراكية لعلم الاجتماع منذ بداية نشوءها اي منذ ظهور بيان

---

5. Hegedus, Andrasand Markus, Maria. The Principal Trends and Development of Marxist Sociology in Socialist Countries, Kortars Budapest 1968, No. 12.

الحزب الشيوعي لماركس وانجلز في عام ١٨٤٨ [٦] . وظهور المدرسة الاشتراكية لعلم الاجتماع كان في نفس الفترة الزمنية التي ظهر فيها علم الاجتماع البرجوازي في أوربا الغربية ، غير ان الظروف التي مهدت لظهور المدرستين كانت مختلفة بل ومتناقضة خصوصا وان غاية المدرسة الاشتراكية لعلم الاجتماع هي خدمة مصالح الطبقات الكادحة والمسحوقة ، في حين كانت ولا تزال غاية المدرسة البرجوازية لعلم الاجتماع خدمة ودعم مصالح الطبقات البرجوازية التي تسيطر على ملكية وادارة وسائل الانتاج . ظهر علم الاجتماع البرجوازي في نهاية النصف الاول من القرن التاسع عشر وكان ظهوره يعتمد على وجود ظروف اجتماعية وسياسية مناسبة . فالحركة الاجتماعية الاصلاحية التي قام بها عمال النسيج في مقاطعة لاينز بانكلترا عام ١٨٣١ ، وحركة الاعتراض السياسي في انكلترا التي طالب فيها العمال بتحسين ظروفهم المعاشية والاجتماعية وبحق التصويت البرلماني عام ١٨٣٤ هي حركات اجتماعية سياسية تشير الى درجة الغليان التي انتابت الطبقة العمالية في بريطانيا نتيجة تعرضها للمساوىء الاجتماعية والاقتصادية التي رافقت الثورة الصناعية . اعتقدت الطبقة العمالية في انكلترا آنذاك بان الطبقة البرجوازية أي الطبقة التي تسيطر على قوى واجهزة الانتاج هي الطبقة المسؤولة عن سوء احوالها المعاشية والاجتماعية والثقافية . لذا طالبت باعلان التمرد والعصيان ضدها بغية اجبارها على انهاء سيطرتها وجبروتها واستغلالها [٧] . وفي الوقت ذاته ايقنت الطبقة الرأسمالية في انكلترا بان استعمال القوة والعنف واساليب القهر والتعسف الاجتماعي ضد الطبقة العمالية لارغامها على الطاعة والاستسلام ليس من صالحها . لذا فكرت بايجاد علم يدرس طبيعة وظروف العلاقات الاجتماعية بينها وبين الطبقة البروليتارية وفي نفس الوقت يكشف اسباب التوتر وعدم

---

6. Marx, Karl and Engels, F. The Manifesto of the Communist Party, 1848, London, 1875.

7. Engels F. The Conditions of the working class in England, 1844, Moscow, 1974, P. 66.

الطمأنينة التي اجتاحت المجتمع الرأسمالي بعد تصنيعه وتحضره[٨] . وهذا العلم هو علم الاجتماع الذي حاولت الطبقة الرأسمالية في انكلترا والدول الغربية الاخرى كفرنسا والمانيا وايطاليا والولايات المتحدة الامريكية الاستفادة من نتائج دراساته وابحاثه في معالجة الموقف الاجتماعي والسياسي المتأزم ، الذي خلقته الاضطرابات والقلاقل العمالية ، وبالتالي تهيئة المناخ الملائم لغرض سيطرتها على الوضع واعادة شرعية نفوذها واستغلالها الطبقي . اذاً ظهور علم الاجتماع البرجوازي في هذه الفترة من الزمن كان منسجما مع مخططات وطموحات الطبقة البرجوازية التي توقعت من العلم الجديد ان يزودها بالدراسات والمقترحات والافكار الرامية الى تهدئة الوضع الاجتماعي المضطرب وبالتالي تأمين اغراضها وطموحاتها الحاضرة والمستقبلية[٩] .

وفي الوقت ذاته اهتم قادة وموجهي وفلاسفة الفكر الاشتراكي الذين كانوا يدافعون عن حقوق واماني ابناء الطبقة العمالية في المجتمع الرأسمالي بمشكلة الاستغلال الطبقي وعدم وجود المساواة والعدالة الاجتماعية . وحاول هؤلاء جميعا كشف الحقائق الاساسية التي تكمن خلف عدم الاستقرار والهيجان الذي عم المجتمع الرأسمالي خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر وايجاد السبل العادلة والمشروعة التي تأمن تحقيق الاستقرار والرفاه الاجتماعي للطبقة العمالية . اذاً كان هناك تناقضا واضحا بين اديولوجية الطبقة البرجوازية واديولوجية الطبقة العمالية ، فالاديولوجية العمالية او البروليتارية كانت تستهدف تغيير نمط العلاقات الاجتماعية بين العمال واصحاب العمل وانهاء حالة الاستغلال والقهر الاجتماعي الذي تعرضت اليه الطبقة العمالية . ومثل هذه الدراسة استلزمت ربط الحاضر بالماضي لكشف العوامل التاريخية التي سببت ظهور العلاقات الاجتماعية غير المتكافئة بين الطبقتين ثم

---

8. Gouldner, A. W The Coming Crisis of western Sociology, London, 1971, PP. 105—106.

9. Mandic, Oleg, The Marxist School of Sociology, P. 48.

اقتفاء نمط هذه العلاقات واستخراج القوانين الكونية التي تحكمها في المستقبل[10] . وقد ظهرت هذه الافكار لاول مرة في بيان الحزب الشيوعي الذي اصدره كارل ماركس وفردريك انجلز في عام ١٨٤٨ وفي كتاب ظروف الطبقة العاملة في انكلترا عام ١٨٤٤ الذي اصدره انجلز عام ١٩٤٥ . ثم ان هذه الافكار تبلورت فيما بعد وكونت الفلسفة التاريخية المادية الدايلكتيكية التي تفسر مسألة الصراع الطبقي الاجتماعي ومسألة العلاقة بين العامل المادي والعامل الاديولوجي ، ومسألة الثورة الاجتماعية ومستقبل الانسانية[11] .

ان المصالح الطبقية المتناقضة التي دافع عنها كل من فلاسفة وعلماء الفكر البرجوازي وفلاسفة وعلماء الفكر الاشتراكي كانت المصادر الاساسية التي غذت علم الاجتماع البرجوازي وعلم الاجتماع الاشتراكي بالحقائق والمعلومات التي يعتمدها هذين العلمين . الا انه بعد ظهور مدرسة علم الاجتماع الرأسمالي ومدرسة علم الاجتماع الاشتراكي بعد منتصف القرن التاسع عشر تفرعت منهما عدة مدارس خصوصا بالنسبة للمدرسة الاولى . فقد تفرعت المدرسة البرجوازية لعلم الاجتماع الى مدارس اجتماعية كثيرة ومختلفة كالمدرسة الموضوعية ، المدرسة الوظيفية ، المدرسة السيكولوجية ، المدرسة البايولوجية ، المدرسة الشكلية ، ولكل من هذه المدارس طريقتها العلمية في البحث والدراسة ، أفكارها ، نظرياتها وقوانينها . غير ان جميع هذه المدارس تتفق في مبادىء واحكام مشتركة منها اهمية الفرد بالنسبة للجماعة ، ضرورة دراسة المجتمع دراسة سكونية اي دراسة مؤسساته الاجتماعية في نقطة زمنية معينة ، واخيرا ضرورة التركيز على الحياة السيكولوجية للافراد وقت دراسة المؤسسات والمنظمات الاجتماعية . كما ان المدرسة الاشتراكية لعلم الاجتماع هي المدرسة الاخرى التي انقسمت الى مدارس فرعية ، الا ان جميعها تعتقد بتعاليم وافكار ماركس وانجلز الاجتماعية وتعتمد الطريقة التاريخية المادية

---

10. Ibid., P. 40.

11. Ibid., PP. 41—42.

في الدراسة وتقصي الحقائق مع وجود فوارق جزئية بينها في الاسلوب والتفكير والغـــاية[١٢] •

اما تطور علم الاجتماع الاشتراكي في الدول الاشتراكيه فقد تأثـر بالظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي احاطت بهـذه الـدول قبل الحرب العالمية الثانية • ففي الاتحاد السوفيتي مثلا لم يكن هناك علم اجتماع وقت اندلاع الثورة الروسية عام ١٩١٧ ما عدا بعض الكتابات ذات المغزى والمفهوم الاجتماعي والفلسفي التي قام بها لينين والتي انعكسـت في كتاب « من هم اصدقاء الشعب » وكتاب « كيف يحـارب الشـعب الديمقراطيين » وكتاب « كيف يحارب الشـعب الديمقراطيين الاجتماعيين » وكتاب « ظهور الرأسمالية في روسيا » • وبعد نجاح ثورة اكتوبر الاشتراكية لعام ١٩١٧ ودخول الافكار الماركسية الى روسيا اصبح علم الاجتماع يحتل مركزا مرموقا نظرا لاعتقاد كل من ماركس ولينين باهمية هذا العلم في تفسير عمليات تطور التراكيب الاجتماعية وتفسير حقيقة الواقع والوجود الاجتماعي • لذ لم يعتقد قادة الاتحاد السوفيتي في ذلك الوقت خصوصا لينين بان علم الاجتماع يخرج عن المبادىء الاساسية للفلسفة الماركسية او يتناقض مع تطبيق الاشتراكيـــة • وخلال فترة العشرينات ظهر بوخارين (Bukharin) ، احـــد النظريين الماركسيين ، بعد دراسته وتعمقه في بعض المواضيع الاجتماعية المهمة كظهور الطبقة المثقفة في روسيا ، الاهمية الاجتماعية للتقاليد ، تطور الحضارة المعاصرة •••• الخ • وفي عام ١٩٢٢ نشر بخارين كتابه الموسوم نظرية المادية التاريخية الذي حاول فيه تفسير التغير الاجتماعي من خلال تطبيق مبـدأ التوازن الطبيعي والميكانيكي للقوى الاجتماعية • وقد قادته هذه الدراسـة الى الخروج عن المبادىء الاساسية للماركسية ، غير انه كان يعتقد بان هناك اوجه شبه كثيرة ومتعددة بين علم الاجتماع والمادية التاريخية الى درجة بان

---

12. Hegedus, Andras. Contemporary Bourgeois Sociology and social Reality, Budapest, 1961, PP. 57—59.

علم الاجتماع والمادية التاريخية هما موضوعان متطابقان • رفض ستالين جميع النظريات والمفاهيم التي طرحها بوخارين نظرا لتناقضها مع النظرية الماركسية والخروج عن مبادئها وقبل فقط فكرة بخارين التي تطابق علم الاجتماع مع المادية التاريخية [١٣] • وطيلة الفترة الستالينية لم يفرق العلماء ورجال السياسة بين علم الاجتماع والمادية التاريخية وذلك اولا لسيطرة الاجواء البيروقراطية المشحونة بالتيار الديكتاتوري الفردي الذي انعكس في شخصية ستالين التي رفضت الاعتراف بعلم الاجتماع رفضا مطلقا • وثانيا ان علم الاجتماع لم يكن معروفا في روسيا ولم يتمتع بالمنزلة العلمية المستقلة التي تمتعت بها العلوم الاخرى • لهذا لم يوجد هناك من يدافع عن استقلاليته ويعرف الرأي العام السوفيتي بماهيته وطبيعته واهدافه والفوارق الاساسية بينه وبين المادية التاريخية • وتحت ظروف كهذه انعدم دور علم الاجتماع في دراسة المجتمع وحلت محله المادية التاريخية التي اخذت تدرس النواحي المختلفة المتشعبة للحياة الاجتماعية دراسة سطحية • كما اعتبر علم الاجتماع من العلوم البرجوازية التي ليس لها مكانا بين العلوم الماركسية • واستمرت هذه الحالة في الاتحاد السوفيتي لغاية انتهاء عهد ستالين في اوائل الخمسينات •

اما علم الاجتماع في هنكاريا فله تاريخه الطويل الحافل بالقضايا والاحداث التي أثرت فيه ورسمت معالمه الخاصة والعامة • فقد تأسست اول جمعية للعلوم الاجتماعية في هنكاريا عام ١٩٠١ [١٤] ، وظهر عدد من علماء الاجتماع الهنكار كاليك بولكار (Elek Bolgar) الذي ألف عددا من الكتب الاجتماعية التي تهتم بدراسة نشوء وتطور علم الاجتماع الهنكاري والمواضيع الاساسية التي كان مهتما بها ، ونشر العديد من المقالات الاجتماعية العلمية في مجلة القرن العشرين التي وضحت الاسلوب والمنهج البايولوجي

---

13. Ziherl, B. Historical Materialism and Contemporary Sociology, an article written in "Our Reality", Belgrade, 1954.

14. Kulcsar, Kalman, Past and Present of Hungarian Sociology, P. 5.

الذي اعتمده علم الاجتماع الهنكاري في ذلك الوقت . وهناك العالم روبرت براون (Robert Braun) الذي تخصص في ميدان السوشوغرافي (Sociography) اي وصف الحياة الاجتماعية للمجتمعات المحلية والمؤسسات . فقد قام هذا العالم بأجراء دراسات مسحية ووصفية متعددة لعدد من القرى والارياف الزراعية الكائنة في جنوب شرق هنكاريا . وقد وضحت هذه الدراسات طبيعة سيكولوجية الطبقة الفلاحية في هنكاريا واثرها في العمل والانتاج الزراعي[١٥] . ومقارنة القرى الزراعية الهنكارية من ناحية اساليب معيشتها وايكولوجيتها الطبيعية والاجتماعية ومشاكلها مع القرى الزراعية في غرب اوربا والولايات المتحدة الامريكية . كما ظهر في الوقت ذاته عدد اخر من علماء الاجتماع الهنكاريين الذين طغت على كتاباتهم الاجتماعية الاساليب الفلسفية والسياسية في العرض والتحليل . وقد اهتم جميع هؤلاء بدراسة مسائل وقضايا اجتماعية كثيرة ومعقدة اهمها مسألة الاقليات العنصرية والحضارية التي تعيش في هنكاريا ، مسألة حق التصويت السياسي لمجموع الشعب ومسألة دور الثقافة والتعليم في تطوير المجتمع .

وقد تعرض علم الاجتماع الهنكاري الى النكسة والهبوط بعد فشل الثورة العمالية الاشتراكية لعام ١٩١٩ والتي شارك في تنفيذها عدد كبير من علماء الاجتماع الهنكار البارزين مثل اوسكار يازي (Oscar Jaszi) الذي اضطر بعد فشل الثورة الى الهجرة الى الولايات المتحدة الامريكية ، وكارلمنهايم (K. Mannheim) الذي هاجر الى المانيا ومنها الى انكلترا ، ويوجين فاركا الذي هاجر الى الاتحاد السوفيتي ، وميشيل بولاني (Michel Polanyi) الذي هاجر الى الولايات المتحدة الامريكية ، وجورج لوكاش الذي هاجر الى المانيا .... الخ . وبعد فشل الثورة منعت الحكومة الهنكارية التي كانت تسيطر عليها العناصر اليمينية والرجعية

---

15. Braun, Robert, The Psychology of the Village, Budapest, 1913, P. 48.

نشر المقالات الاجتماعية وحرمت اصدار عددا من المجلات العلمية التي كانت تنشر المقالات الاجتماعية لعلماء الاجتماع الهنكار • وخلال فترة ما بين الحربين اقتصرت معظم الكتابات الاجتماعية الهنكارية على الدراسات السوشوغرافية التي اهتمت بوصف اسلوب حياة ومشاكل المجتمع القروي • وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية اعارت السلطات الهنكارية اهتمامها بعلم الاجتماع لمساعدتها في التغلب على آثار الحرب المدمرة التي تعرض اليها الشعب الهنكاري ، فأسست قسم علم الاجتماع في جامعة بودابست عام ١٩٤٦ الذي ترأسه البروفسور الكسندر شاندر صولوي **(Alexander Szalai)** ليتولى تدريب المتخصصين في علم الاجتماع واجراء البحوث والمسوحات الاجتماعية والديمغرافية التي يحتاجها المجتمع • الا انه في عام ١٩٥٠ وبتأثير من السلطات السوفيتية التي لم تعترف في ذلك الوقت بعلم الاجتماع قررت الحكومة الهنكارية سد قسم الاجتماع ونفي معظم اساتذته •

اما علم الاجتماع في يوغسلافيا فقد لعب دورا متميزا منذ بداية القرن العشرين في الحياة الاكاديمية العلمية في المجتمع اليوغسلافي • تأسس اول قسم اجتماع في جامعة زغرب عام ١٩٠٦ ، وكان الهدف من تأسيسه تدريب طلبة العلم على دراسة المجتمع دراسة علمية ، وتحليل طبيعة التغيرات الاجتماعية التي طرأت على المجتمع الكروتي (الكروتيون هم قومية يوغسلافية تشكل حوالي نصف حجم السكاني اليوغسلافي) نتيجة للتحضر والتصنيع • وبعد الحرب العالمية الثانية خصوصا خلال فترة الصراع بين القومية الكروتية والقومية السربية للسيطرة على مقومات القطر الاقتصادية ، تحول قسم الاجتماع في جامعة زغرب الى أداة سياسية بيد القومية الكروتية لشن حملات الانتقاد والتحدي للقومية السربية[١٦] • وخلال الصراع هذا حاول اساتذة القسم وضع نظرية عنصرية تثبت التفوق العقلي والذهني للفلاح الكرويتي الذي حسب أدعاء النظرية دائما يسعى وراء السلم ، وتثبت تخلف وحشونة

---

16. Mandic, Oleg. P. 50.

الراعي السريبي الذي يروم الى خلق المشاكل والحروب في القطر • وأول كتاب ماركسي يصدره عالم اجتماعي يوغسلافي هو كتاب « تطور المجتمع في ضوء المادية التاريخية الذي اصدره أف • فيلبفج (F. Filipovic) عام ١٩٢٤ • وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية لم يكن ، هناك شعورا معاديا لعلم الاجتماع ، الا انه بعد عام ١٩٤٨ وتتيجة للضغوط السوفيتية المعادية لعلم الاجتماع تعرضت حركة البحث والدراسة الاجتماعية الى المراقبة المشددة والتحذير المستمر خوفا من نشر المقالات والابحاث المتعلقة بدراسة النواحي الفكرية والسياسية للمجتمع • وبعد توتر العلاقات السياسية بين يوغسلافيا والاتحاد السوفيتي رفعت القيود والمحاذير هذه التي فرضتها السلطات السوفيتية على علماء الاجتماع اليوغسلاف وتحرر علماء الاجتماع بالنسبة لما يكتبونه ويبحثونه ويؤلفونه من كتب ونشرات علمية تتعلق بدراسة وتحليل المجتمع • كما بدأ علماء الاجتماع في يوغسلافيا التمييز بين علمهم والمادية التاريخية مع توضيح طبيعة ومجال واغراض كل من علم الاجتماع والمادية التاريخية • وتتيجة لهذا دخل علم الاجتماع بعد عام ١٩٥٠ في معظم الجامعات والمعاهد اليوغسلافية بعد ان حصل على مركز علمي مرموق وشهرة عالمية ، في حين أوقفت معظم الجامعات تدريس موضوع المادية التاريخية وذلك لتعصبه العقائدي وعدم استعداده على التغير والتطور النسبي كبقية المواضيع الاكاديمية التي تدرس في الجامعات[١٧] •

هذه هي حالة علم الاجتماع في ثلاثة دول اشتراكية مهمة هي الاتحاد السوفيتي ، هنكاريا ، ويوغسلافيا لغاية انتهاء عهد ستالين اي في اوائل الخمسينات • بيد ان منزلة علم الاجتماع في جميع الدول الاشتراكية بعد انتهاء الفترة الستالينية قد ارتفعت واستقرت استقرارا لم تشهده هذه الدول في تاريخها من قبل • فقد استطاع علم الاجتماع الدخول في معظم جامعات

---

17. **Lukie, R. The Main Opinions about the Relation between Historical Materialism and Sociology, an article written in the Yugoslav Review for philosophy and sociology, Belgrade, 1957.**

وأكاديميات الدول الاشتراكية وتأسست معاهد البحوث الاجتماعية لتتولى اجراء المسوحات والبحوث الاجتماعية العلمية التي تستهدف دراسة تفاعل الانسان مع المجتمع دراسة علمية ، وتشخيص عوامل الاستقرار والتحول الاجتماعي ، ومعرفة طبيعة العلاقة المتفاعلة والمنطقية بين العمل والفراغ مع تحليل اسباب ونتائج المشاكل الاجتماعية والحضارية التي ترافق عمليات التحول الاشتراكي في المجتمع • كما ظهرت المجلات والدوريات العلمية المتخصصة في نشر الدراسات والبحوث الاجتماعية في معظم الدول الاشتراكية، وأزدادت اعداد الكتب والبحوث المنشورة والمترجمة من والى اللغات العالمية الحية • وارتفعت درجة التداخل والتفاعل بين دوائر البحوث الاجتماعية والمؤسسات الحكومية التي تحتاج الى الحقائق والبيانات الاجتماعية لرسم سياستها وتحديد قراراتها[١٨] • كما استخدمت وطبقت نتائج البحوث الاجتماعية التي أجراها المتخصصون على حقول المجتمع المختلفة كحقول الانتاج والاستهلاك ، الثقافة والتربية والتعليم ، البناء الاجتماعي وتقسيم العمل ، العمل والفراغ ، العائلة والقرابة ، البيئة والسكان ، ••• الخ بغية تطويرها وتنميتها ورفع درجة فاعليتها وكفاءتها النوعية •

وارتفاع مكانة علم الاجتماع وتعاظم دوره في المجتمع الاشتراكي لا سيما بعد انتهاء الفترة الستالينية كان يعزى الى عوامل كثيرة اهمها : انتشار معالم التحضر والتصنيع في كافة مرافق واجهزة المجتمع وما سببه هذا من ظهور مشاكل اجتماعية وحضارية معقدة • وظهور هذه المشاكل استلزم دراستها دراسة علمية ثم معالجتها لكي يتمكن المجتمع الصناعي الاشتراكي المضي في عمليات التطور الصناعي من خلال بناء القاعدة الاجتماعية المناسبة التي تضمن تقدمه وتطوره المادي والعلمي والتكنولوجي • وهناك عامل انتشار

18. Reiss, Albert J. The Rise of Scientific Sociology, an article written in the International Encyclopedia of the social sciences, edited by David L. Sills, Vol. 15, the Macmillan Company and the Free Press, New York, 1968, P. 16.

الافكار الديمقراطية وزيادة الحريات الفردية في المجتمع الاشتراكي بعد انتهاء العهد الستاليني والذي شجع العديد من العلماء والباحثين نحو دراسة الظواهر الاجتماعية ذات الطابع السلبي دراسة علمية ونقدية بغية التخلص من آثارها ونتائجها ثم انفتاح المجال لبناء الاشتراكية بمعناها الانساني والديمقراطي وتوليد روح الاخاء والتعاون الجماعي بين كافة العناصر والفئات السكانية • ومعرفة العوامل التي كانت تكمن خلف هبوط الانتاج الصناعي والزراعي خصوصا بعد ادارة المصانع من قبل العمال وادارة المزارع الحكومية والجماعية من قبل الفلاحين استلزمت الرجوع الى علم الاجتماع ليساهم في دراسة اسباب هبوط الانتاج ونتائجها على المجتمع • وهذا بدون شك رفع أهمية علم الاجتماع وسبب في استقراره وتطوره • وقد وجدت البحوث الاجتماعية التي اجراها علماء الاجتماع حول هبوط الانتاج حقائق مهمة تفسر السبب الحقيقي لقلة الانتاج في المصانع والمزارع • فادارة المصانع من قبل العمال وادارة المزارع الحكومية والتعاونية والجماعية من قبل الفلاحين ولدت ظهور بعض السلبيات بين العمال والمهنيين في المصانع وبين الفلاحين والمهنيين في المزارع • وهذه السلبيات أثرت تأثيرا سيئا في طبيعة العلاقات الاجتماعية بين المراكز الوظيفية في هذه المؤسسات وبالتالي انعكست على عمليات الانتاج في طريقة متناقضة مع اسس الانتاج الحديث • وقد هدفت هذه الدراسات الاجتماعية الى تقوية الروح التعاونية بين كافة اعضاء المؤسسة الانتاجية من خلال التعريف بأهمية الدور الذي يلعبه كل عامل او مهني او فلاح في المؤسسة وفي نفس الوقت تقليل الفوارق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بينهم وتحفيزهم على العمل المثمر بغية زيادة الانتاج وتحسين نوعيته وبناء القاعدة الاساسية للانتاج الاشتراكي[١٩] •

---

19. Hethy, Lajos and Mako Csaba : Achievement and the power and Interest Structure within a plant, Budapect, 1970, (The Introduction).

الطريقة العلمية لعلم الاجتماع الاشتراكي

بعد دراسة تطور علم الاجتماع في الدول الاشتراكية منذ بداية هـذا القرن والاطلاع على اهم المعوقات والمشاكل التي جابهته ثم الاسباب والمحفزات التي تتجت في ارتفاع منزلته وتعاظم اهميته في دراسة وتحليل المجتمع ، يجدر بنا التطرق في هذا القسم من البحث الى الطريقة العلمية التي يتبعها علمـاء الاجتماع في الدول الاشتراكية اثناء دراساتهم الاجتماعية وتحليلاتهم العلمية للحقائق والظواهر التي ترافق حياة مجتمعهم • ان الطريقة العلمية التـي يستعملها علماء الاجتماع الاشتراكي هي الطريقة التي تنعكس في المنهج العام للمادية التاريخية ، واستعمال هذه الطريقة لا يتناقض باية صورة من الصور مع استعمال الاسلوب الاحصائي او الاسلوب المقارن او اسلوب الملاحظـة او الملاحظة بالاشتراك او اسلوب التكامل الاجتماعي • اذاً يعتمـد علمـاء الاجتماع الاشتراكي في دراساتهم وتحليلاتهم للحقائق والمعلومات الاجتماعية منهاج المادية التاريخية كمنهاج عام لتقصي وتفسير الحـوادث والظواهر ، ويعتمد ايضا اساليب وطرق البحث العلمية الحديثة التي يسنعملها علمـاء الاجتماع المعاصرون والتي لا تتناقض مع الخطوط والاهـداف العريضـة لطريقة المادية التاريخية • اما القوانين التي تفترضها طريقة المادية التاريخية والتي يعتمدها اغلب علماء الاجتماع في الدول الاشتراكية فيمكن تلخيصها بالنقاط التالية :

١ ـ قانون العلاقة بين القاعدة التحتية والبناء الفوقي

ان العلاقات الاقتصادية للانتاج هي التي تحكم بصورة مباشرة او غير مباشرة طبيعة الوعي الاجتماعي لابناء المجتمع اي طبيعة افكارهم وميولهم واتجاهاتهم السياسية والاخلاقية والدينية والحضارية والشرعية • غير ان هذا لا ينفي وجود التفاعل المشترك والدائم بين العـوامل الماديـة والعـوامل الاديولوجية ، فأحيانا تؤثر العوامل والتيارات الفكرية والعقائدية في طبيعة

وشكلية البنية الاقتصادية للمجتمع ، فتعطيها طابعها المميز وصفاتها الخصوصية[٢٠] ٠

٢ ـ قانون الصراع والكفاح بين الجماعات والفئات الاجتماعية

ان تطور المجتمع الانساني من مجتمع بسيط الى مجتمع مركب أو من مجتمع مركب الى مجتمع معقد ومتطور يعتمد على طبيعة وعمق الخلافات والتناقضات والصراعات الظاهرية والكامنة التي تقع بين الجماعات والفئات الاجتماعية التي يتكون منها مجتمع ما ، او التي تقع بين مجتمع ما ومجتمع آخر او مجتمعات اخرى[٢١] ٠ وقانون الصراع الاجتماعي هذا ينسجم كل الانسجام مع قانون التطور التاريخي والمادي للمجتمع الانساني اذ ان نتيجة الصراع بين الفئات والجماعات لا تظهر الا بعد مضي فترة طويلة من الزمن ، وغالبا ما يكون سبب الصراع اقتصادي او مادي ٠

٣ ـ قانون التغير الثوري وأثره في تطور المجتمعات

ان التناقض وعدم الانسجام بين قوى الانتاج المتطورة والافكار والاراء المتخلفة (الآديولوجية المتخلفة) سرعان ما يسبب اضطراب وهيجان المجتمع ، الذي غالبا ما ينتهي بتغير وتحول الافكار والآراء والمعتقدات الرجعية وظهور الاديولوجية او الوعي الاجتماعي الثوري والتقدمي الذي يؤيد ويسند التطور الاقتصادي والعلمي والتكنولوجي في المجتمع ٠ وهنا يأخذ المجتمع بالتطور والتقدم نظرا لانسجام الافكار والآراء والقيم مع عوامل وقوى الانتاج ٠

---

20. Marx, Karl. Selected writings in sociology and social philosophy, edited by T.B. Bottomore and M. Rubel, a pelican book, Middlesex England, 1967, P. 82.

21. Ibid., PP. 186—187.

٤ ــ قانون التفاعل بين نشاطات الفرد ونشاطات الجماعة

ان نشاطات وفعاليات الفرد وسط الجماعة لا تتميز بالحرية المطلقة ولا بالديمقراطية الفردية التي غالبا ما يطمح الفرد بتحقيقها والتمسك بها ، فهي غالبا ما تقيد وتحكم من قبل نشاطات وفعاليات الجماعة . وهنا يمكن القول بان الجماعة هي التي تحتل مركز الاولوية في علاقات وتفاعلات ابناء المجتمع، والفرد يحتل المركز الثانوي في تمشية امور الجماعة وسير الاحداث في المجتمع . لذا تأتي الجماعة قبل الفرد في رسم المعالم الاساسية للمجتمع وتحديد نطاقه الفكري والاديولوجي .

٥ ــ قانون التقــدم الاجتمــاعي

التقدم الاجتماعي هو عملية تطور المجتمعات الانسانية ومؤسساتها من شكل بسيط الى شكل معقد ، ومثل هذا التطور يخدم الاغراض القصــيرة والبعيدة الامد لكل من الافراد والمجتمع ، كما يخدم ويلبي حاجات وطموحات الانسانية جمعاء . فالمجتمعات البشرية اجمعها تمر خلال اربعة او خمسة مراحل حضارية وتاريخية تتميز بالتطور والتقدم الاجتماعي الذي مــن خلاله يحقق الانسان المزيد من الحريات الاجتماعية والمزيد من الرفاهية والسعادة التي تجلب له العيش الرغيد والطمأنينة(٢٢) .

ان القوانين الخمسة المذكورة اعلاه والتي تشكل المنهج العام لعلــم الاجتماع الاشتراكي لها القدرة والقابلية العلمية على تفسير طبيعة العناصــر الاساسية للعلاقات الاجتماعية بانواعها المختلفة ، وتحديد مجرى الاحداث في المجتمع وشرح شروط واسباب ونتائج التغيرات الاجتماعية التي تشهدها المجتمعات خلال مراحلها الحضارية المختلفة . لهذا يمكن الاعتمــاد عليهــا

---

22. Puliselie, S. some words on the program of Historical Materialism and sociology, Economic Review, Zagreb, 1950.

23. Szalai, Sandor. Methodological Observations on certain Timely Problems in Marxist Sociological Research, Magyar Filozofiaf Szemle, 1962, No. 5.

واستعمالها في جميع العلوم الاجتماعية نظرا لاهميتها العلمية في مساعدة العالم المختص على تقصي واستنتاج الحقائق والمعلومات التي تغذي مادة اختصاصه وتسهم في توسع افقها ومجالها النظري والتطبيقي •

اما المزايا والخصائص الاساسية التي يتسم بها الاسلوب المنهجي لعلم الاجتماع الاشتراكي فيمكن حصرها بالنقاط التالية :

١ ــ ان النتائج والفرضيات والنظريات التي يقترحها ويكونها علماء الاجتماع في دراساتهم وابحاثهم يجب ان يكون مصدرها المباشر الحياة الواقعية والعملية للمجتمع او البيئة التي يعيشون ويتفاعلون معها • كما يجب ان تبتعد عن التكهنات والمجادلات الفلسفية والايديولوجية التي غالبا ما تسيطر عليها الاهواء والنزعات العاطفية المتناقضة مع روح التفكير العلمي والموضوعي[٢٣] •

٢ ــ ان ظواهر الحياة الاجتماعية بانواعها المختلفة والتي تدخل ضمن انظمة المجتمع الفرعية يجب ان تكون متصلة ومكملة الواحدة للاخرى • فعملية البيع والشراء مثلا والتي هي ظاهرة اقتصادية لا يمكن فصلها عن احكام وقوانين الملكية وهذه غالبا ما يكون مصدرها الدين او العادات والتقاليد المرعية في المجتمع • اذاً هناك علاقة ضرورية ومنطقية بين المؤسسات الاقتصادية والمؤسسات القانونية والشرعية والمؤسسات الدينية •

٣ ــ ان جميع الظواهر والحوادث الاجتماعية قابلة للتطور والاختفاء ، وان عملية التحول الاجتماعي لبعض المجتمعات تكون اسرع من عملية التحول الاجتماعي لمجتمعات اخرى • فقد تحولت مثلا بعض المجتمعات المحلية في اوربا من مجتمعات زراعية بدائية الى مجتمعات رأسمالية او الى مجتمعات اشتراكية ، بينما لم تتحول انماط العلاقات الاجتماعية لسكان استراليا الاصليين الا بصورة بطيئة وتدريجية • وتحولات المجتمعات

---

24. Mandic, Oleg. The Marxist School of Sociology, P. 41.

تكون على انماط تطورية مختلفة تبعا لطبيعة بيئاتها وظروفها الاقتصادية والقيمية[٢٤] • فالمجتمعات الاسكندنافية مثلا اتجهت شكلا معينا من اشكال الاشتراكية ، في حين اتجهت روسيا وهنكاريا في عملية تحولها الاجتماعي نحو الاشتراكية الثورية التي تختلف باسلوبها وطبيعتها واهدافها عن الاشتراكية المطبقة في بريطانيا او الدول الاسكندنافية •

٤ ــ غالبا ما ترجع التحولات في الانظمة الاجتماعية الى وجود صراعات داخلية ، كالصراعات الطبقية بين ابناء المجتمع ، بيد ان هذه الصراعات تزداد قوة وعنفا في حالة وجود الصراعات الخارجية التي تهدد كيان واستقلال المجتمع • فالصراعات الطبقية في يوغسلافيا بين البروليتاريين والبرجوازيين أخذت طابعها الخطير واصبحت تهدد أمن وسلامة يوغسلافيا خصوصا بعد الاحتلال العسكري النازي ليوغسلافيا وقتل حريات الشعب اليوغسلافي من قبل المحتلين النازيين • ومثل هذه الصراعات الداخلية والخارجية تنجت في ظهور الحركة الحزبية اليوغسلافية التي اعلنت الثورة الاشتراكية وحررت الشعب من قوى الاحتلال الاجنبي والسيطرة العسكرية التي فرضت عليه •

٥ ــ من المزايا الاساسية لطريقة علم الاجتماع الاشتراكي انها دائما تحاول دراسة الاسباب الموضوعية للتحول الاجتماعي اي دراسة العوامل البيئية والاجتماعية التي تسبب التحولات الاجتماعية والحضارية في المجتمع وفي نفس الوقت تبتعد بقدر المستطاع عن العوامل الميتفيزيقية والفلسفية التي يعتمد عليها بعض العلماء في تفسير ظاهرة التحول الاجتماعي • وهذا يعني ان طريقة علم الاجتماع الاشتراكي تربط بين مستقبل الظاهرة الاجتماعية وحاضرها اي تتنبأ مستقبلها من خلال دراسة ظروفها واحوالها الحاضرة •

والخلاصة ان الطريقة العلمية التي تعتمدها مدرسة علم الاجتماع الاشتراكي هي طريقة تكمن في منهاج المادية التاريخية وما يتضمنه هذا المنهاج من اساليب علمية في الدراسة والبحث تساعد على جمع الحقائق والمعلومات التي تدعم فرضيات وحجج ومفاهيم المدرسة المادية التاريخية . والاساليب العلمية التي تعتمد عليها المادية التاريخية في جمع المعلومات وبناء الفرضيات والنظريات ثم تكوين القوانين الكونية تنعكس في الطرق الوصفية ، الاحصائية الرياضية ، السيكولوجية والتاريخية ، اضافة الى الوسائل والمناهج التنقيبية والاستكشافية الاخرى .

علاقة علم الاجتماع الاشتراكي بعلم الاجتماع البرجوازي

يعتقد اغلب علماء الاجتماع في الدول الاشتراكية بان هناك اختلافات واضحة وكبيرة بين علم الاجتماع الاشتراكي وعلم الاجتماع البرجوازي . وهذه الاختلافات تنعكس في الطرق العلميةوالمنهجية ، فحوى الدراسةوالبحث، الاطار النظري والاسس التطبيقية ، الاهداف والغايات . بينما يعتقد قسم من علماء الاجتماع في هذه الدول بان الفروق العلمية والمنهجية بين علم الاجتماع الاشتراكي وعلم الاجتماع البرجوازي هي فروق قليلة وثانوية وينبغي على علماء الاجتماع في كلا المعسكرين التعاون فيما بينهم من اجل دراسة الظواهر والتفاعلات والمشاكل الاجتماعية المعقدة دراسة علمية موضوعية بغية تطوير بيئة الانسان وخلق الاجواء الايجابية التي تجلب التفاهم والتعاون والمحبة بين الانسان واخيه الانسان مهما اختلفت الايديولوجيات والانظمة الاجتماعية والسياسية ومهما اختلفت الاديان والمعتقدات واللغات والتقاليد والعادات[٢٥].

---

25. Ibid., P. 56.

وبالرغم من الفوارق والاختلافات الفكرية والعلمية والمنهجية بين علماء الاجتماع في كلا المعسكرين فان هناك اتجاه ورغبة بين علماء الاجتماع الاشتراكي في خلق الاجواء التعاونية المثمرة مع علماء اجتماع الدول الغربية • هذه الاجواء التي تستهدف التنسيق العلمي والتعاون المشترك من اجل تطوير نوعية الدراسات والابحاث الاجتماعية والتعمق في دراسة العلاقات والسلوك الاجتماعي ووضع التفسيرات العلمية المتعلقة بأستقرار وتحول المؤسسات والمنظمات مع ايجاد المبررات العلمية لدراسة وفحص العلاقة الجدلية بين حضارة الانسان وشخصيته •

ان التعاون المشترك بين العلمين ينطلق من طبيعة البديهيات والنظريات التي يطرحها علماء الاجتماع الاشتراكيون والتي يعتقد بها اغلب علماء اجتماع الغرب • فبديهية الترابط والتكامل بين الحقائق والظواهر الاجتماعية مهما كانت دوافعها واغراضها ، وبديهية التحول التاريخي الحتمي للانظمة والمجتمعات هي بديهيات تطرحها المدرسة المادية التاريخية وتتفق معها اغلب مدارس علم الاجتماع في دول اوربا الغربية[٢٦] • لذا فالاتفاق بين علماء اجتماع المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي حول هذه البديهيات الاجتماعية المسلم بها يمكن ان تكون نواة للتعاون المشترك بين علم الاجتماع الاشتراكي والبرجوازي • وهناك علامات وبوادر تشير الى حدوث مثل هذا التعاون بين علماء اجتماع المعسكرين كالتعاون بين علماء الاجتماع السوفيت وعلماء الاجتماع الامريكان الذي يهدف الى اجراء بحوث نظرية وميدانية مشتركة ترمي الى دراسة بعض المشاكل الحضارية والاجتماعية التي ولدتها ظواهر التحضر والتصنيع في المجتمع • او التعاون المشترك بين علماء الاجتماع اليوغسلاف وعلماء الاجتماع الفرنسيين الذي يهدف الى اجراء دراسات تتعلق بفحص آثار الثقافة والتعليم في تقليل الفوارق الطبقية بين ابناء المجتمع وفي تسريع عملية الانتقال الاجتماعي •

26. Gouldner, A.W. The coming crisis of western sociology, P. 158.

ويتجلى التعاون بين المدرسة الاشتراكية لعلم الاجتماع والمدارس الاخرى الموجودة في دول اوربا الغربية في اتجاه المدرسة الاولى نحو تقليص دراساتها النظرية والاكثار من الدراسات والبحوث الميدانية والتطبيقية التي تعتمد على طرق الاحصاء والتجارب الاجتماعية ذات الطابع السوشوميتري . كما ان بعض مدارس علم الاجتماع في الغرب التي تعتمد الاساليب الاحصائية والرياضية والوظيفية بدأت تستخدم الاسلوب النظري في الدراسة والبحث معتمدة على نظريات كومت وماركس وفيبر في طرحها الاكاديمي وفرضياتها ونتائجها الموضوعية . لذا اصبحت الدراسات النظرية والميدانية التي تقوم بها المدرسة الاشتراكية لعلم الاجتماع والمدارس الاخرى المعروفة في الغرب مشابهة الواحدة للاخرى خصوصا بالنسبة لطرقها العلمية والمنهجية ، نظرياتها وفرضياتها ، واهدافها الموضوعية . الا ان هناك مدارس اجتماعية لا تزال موجودة في الغرب تتميز بالتحيز والتعصب وضيق التفكير في طرحها وتفسيرها للحوادث والظواهر الاجتماعية كالمدرسة السوشوميترية مثلا . فهذه المدرسة تعتمد صفة التجريد في تفسيرها وتحليلها للظواهر والتفاعلات ولا تعتمد على الصفة الكلية او الشمولية ، فغالبا ما تعتمد عامل او عاملين وتهمل العوامل الاخرى عندما تقوم بدراسة مشكلة اجتماعية او حضارية ما . وهذا الاسلوب المنهجي الذي تتبعه هذه المدرسة لابد ان يشوه نتائج بحوثها ودراساتها بالرغم من استعمالها الطريقة الاحصائية للبيانات[٢٧] . في حين تعتمد المدرسة الاشتراكية المعاصرة في دراستها للواقع الاجتماعي على مجموعة متغيرات بضمنها المتغيرات المادية وغير المادية وتعتقد بأهمية التفاعل المشترك بين العوامل الاقتصادية والعوامل الاديولوجية .

---

27. Ibid., p. 161.

لتحقيق المزيد من التعاون والتكاتف العلمي والمنهجي بين مدارس علم الاجتماع كافة مهما اختلفت الانظمة الاجتماعية التي تعمل هذه المدارس تحت ظلها ، ينبغي عليها جميعا التخلص من دوافع تحيزها وتعصبها الاعمى الذي غالبا ما يفرض عليها محاربة المدارس الاخرى بطريقة تبعد كل البعد عن العقلانية والتفكير العلمي المنطقي والسوي ٠ وعليها ايضا البحث عن العوامل المشتركة في اصولها النظرية واساليبها المنهجية واغراضها التطبيقية والتي تقود الى تكاملها ووحدتها خدمة للاهداف العليا التي يحملها الانسان والمجتمع على حد سواء ٠

REFERENCES

1. Al-Hassan, Ihsan M., A report embodying the defence of his Ph.D. Thesis submitted to the Hungarian Academy of Sciences on the 10th Oct., 1977.
2. Braun, Robert, The Psychology of the Village, Budapest, 1913.
3. Engels, F., The Conditions of the Working Class in England, Moscow, 1974.
4. Gouldner, A.W.,T he Coming Crisis of Western Sociology, London, 1971.
5. Hegedus, Andras, Sociology in Hungary - An Article submitted to the 6th World Congress of Sociology in Evian, 1966.
6. Hegedus, Andras and Markus, Maria, The Principal Trends and Development of Marxist Soiology in Socialist Countries, Kortars, Budapest, 1968.
7. Ference, T., The Crisis of Dogmatism and Marxism, Uj Iras, 1971.
8. Kulcsar, Kalman, The past and Present of Hungarian Sociology, an Article written in the Sociological Review Monograph, England, 1972.
9. Hegedus, Andras, Contemporary Bourgeois Sociology and Social Reality, Budapest, 1961.
10. Karl Marx and F. Engels, The Manifesto of the Communist Party, 1848, London.
11. Mandic, Oleg, The Marxist School of Sociology, an article written in 'Marxism and Sociology', edited by P. Berger, New York, 1969.

12. Hethy, Lajos and Mako Csaba, Achievement and the power and Interest Structure Within a Plant, Budapest, 1970.

13. Marx, Karl, Selected Writings in Sociology and Social Philosophy, edited by T.B. Bottomore and M. Rubel, A pelican book, Middlesex, England, 1967.

14. Pulisetic, S., Some Words on the program of the Historical Materialism and Sociology, Economic Review, Zagreb, 1950.

15. Szalai, Sandor, Methodological Observations on Certain Timely Problems in Marxist Sociological Research, Magyar Filozofiai Szemle, Budapest, 1962.

16. Reiss, Albert J., The Rise of Scientific Sociology, an article written in the International Encylopedia of the Social Sciences, edited by David L. Sills, The Macmillan Company and the Free Press, New York, 1968.

17. Lukie, R., The Main Opinions about the Relation between Historical Materialism and Sociology, an article written in the Yugoslav Review of Philosophy and Sociology, Belgrade, 1957.

18. Ziherl, B., Historical Materialism and Contemporary Sociology, an article written in "Our Reality", Belgrade, 1954.

النقلة الحضارية للمرأة في قانون التعديل الثاني لقانون الاحوال الشخصية

اعـــداد

السيدة بهيجة احمد شهاب
مدرسة في قسم الاجتماع
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

مقدمة

اقتضت (التنمية القومية)[1] الاقتصادية والاجتماعية وما آلت اليـــه حركة المجتمع من تطور مطرد الى تغيير العلاقات الاسرية وتعزيز مكانة المــرأة لتثبت ما لها من حقوق وما عليها من التزامات وذلك اعترافا بانسانيتها واتباعا لما ورد في الشريعة الاسلامية على اختلاف مذاهبها وانفتاحـا على اجتهادات المذاهب وآراء الفقهـــاء والأئمة مع مراعاة روح العصر ومباديء العدالة وتحقيقا لمباديء حزب البعث العربي الاشتراكي وما ذهبت اليه هيئـة الامم المتحدة في اعلانها العالمي لحقوق الانسان وما ذهبت اليه المنظمات الدولية من ضرورة القضاء على التمييز ضد المرأة الصادر في ٧ــ١١ــ١٩٧١ وما نص عليه دستورنا المؤقت في مادته التاسعة عشرة الفقرة أ عام ١٩٧٠ .

---

(١) مفهوم التنمية القومية « تضم التنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وكذلك الادارية » د. يحيى نجار .

ويرى (ميردال) أن التنمية تعني التحركات التصاعدية للنظام الاجتماعي ككل . اما بلاك فيعرفها « الحصول على عدد من مثاليات أهداف التقدم ».

ان تحرير المرأة هو من منطلقات حزب البعث العربي الاشتراكي ومن اهدافه الرئيسة المنبعثة من مباديء الحزب وايديولوجيته • فقد نص في دستوره منذ تأسيسه عام ١٩٤٧ ان « المرأة العربية تتمتع بحقوق المواطنين كلها » كذلك فان « الحزب يناضل في سبيل رفع مستوى المرأة حتى تصبح جديرة بتمتعها بهذه الحقوق » واهتم حزب البعث العربي الاشتراكي منذ نشأته بقضية المرأة منطلقا من نهجه الفكري التقدمي بعدم التمييز بين البشر وان تعطيل نصف المجتمع ألا وهو المرأة عن المشاركة في الحياة العامة يشكل ابتعادا عن الفكر الثوري المعاصر •

كما ان سياسة الحزب الاجتماعية المنصوص عليها في البنود الثلاثة من المادة (٣٨) تؤكد « ان الاسرة خلية الامة الاساسية وعلى الدولة حمايتها وتنميتها واسعادها » وان « الزواج واجب قومي وعلى الدولة تشجيعه ومراقبته » وان « النسل أمانة في عنق الاسرة اولا والدولة ثانيا وعليها العمل على تكثيره والعناية بصحته وتربيته » • هذه هي النظرة الحضارية التي ترفض التمييز بين الجنسين الذي يشكل أحد عوامل الاستلاب الرئيسة التي تحول دون الامة وتحقيق شخصيتها المتكاملة وهذا هو الاسلوب البناء في تغيير البناء الاجتماعي وخلق الانسان العربي •

واعتمد تحرير المرأة من القيود الاجتماعية والاقتصادية والتشريعية والقيم الاقطاعية البالية وتوفير كافة المستلزمات لاسهامها الكامل والفعال في المجتمع العربي في النهضة العربية في مقدمة الاهداف التي خطط وبرمج ودعا وعمل على تحقيقها •

المرحلة التمهيدية للتشريع :

انطلقت سياسة العراق القومية الاشتراكية التقدمية بتعديل وتطوير المجتمع من منظور تقدمي اشتراكي ووفق استراتيجيات التنمية الاقتصادية الاجتماعية • وقد عملت على تطوير التشريعات واصدرت :

أولا ـ قانون العمل رقم ١٥ لسنة ١٩٧٠ وجاء في نصوصه ما حفظ للمرأة العاملة حقوقها ومساواتها مع الرجل العامل في اجور العمل وتوفيرفرص العمل والتأهيل والضمانات الاجتماعية والاجازات فضلا عن ذلك فقد وجه رعاية خاصة صحية واجتماعية لما تقتضيه وظيفة الامومة فاجازها عن العمل قبل الولادة وبعدها كذلك منع تشغيلها في بعض الاعمال التي لا تقاومها طبيعتها الفسيولوجية كما سمح لها بساعة لرضاعة وليدها ووجهت الرعاية الاجتماعية حاليا الى دور الحضانة ورياض الاطفال تمكينا لها من مساهمتها في البناء الاقتصادي وتخفيفا عنها منعا من تعدد ادوارها اجتماعيا واقتصاديا فيؤثر في كفاءة انتاجها .

ثانيا ـ احكام الدستور العراقي المؤقت الصادر سنة ١٩٧٠ الذي اوضح في مادته (١٩) على « ان المواطنين سواسية امام القانون دون تفريق بسبب الجنس » كما وقضت الفقرة (ب) من المادة (٣٠) من هذا الدستور «بأن القانون يكفل المساواة في تولي الوظائف العامة » كذلك أكدت المادة (٦٠) منه على ان حق التقاضي مكفول لجميع المواطنين .

ثالثا ـ جاء في ميثاق العمل الوطني الصادر بتاريخ ١٥ـ١١ـ١٩٧١ في الباب الخاص بالاهداف الاجتماعية ما يثبت المركز القانوني للمرأة ويجسد سياسة القضاء على أي تمييز ضد المرأة للانتقال بها الى اوضاع جديدة اذ اعتبر ذلك هدفا اساسيا من اهداف عملية التغيير الاجتماعي والتحولات الاشتراكية .

كما أكد الميثاق على ان « تحرير المرأة من ترسبات النظرة الاقطاعية والبرجوازية ومن الظروف والقيود التي كانت تعامل بها وتجعل منها مجرد متاع أو مواطن من الدرجة الثانية واجب قومي مقدس يجب النضال من اجله بكل ايمان وحماسة » .

كما نص في الباب الثالث منه الخاص بالاهداف الاجتماعية « ان مجتمعنا الذي يواجه مهمات النضال ضد الاستعمار والصهيونية والرجعية والتخلف وضد الكثير من الاخطار المهدمة بمصيرنا يجب الا يحرم من الدور الفعال والنشاط الذي يمكن أن تؤديه المرأة وهي التي تشكل نصف المجتمع » .

كما جاء في هذا الباب « ان تحرير المرأة من كل القيود والمعوقات المختلفة هو البداية الصحيحة لتنشئة جيل جديد قادر على تحمل مسؤولياته الوطنية والقومية » .

رابعا ـ ان التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن وهو دستور الدولة ومنهاجها العلمي الذي شخص عوامل التخلف وخطط اساليب التغلب عليها فقد جاء في مبحث « مسيرة التحولات » وضع المرأة وضرورة تحررها واعتبر تخلف المرأة من اخطر المعوقات للنهضة العربية المعاصرة وفي مقدمة الاهداف التي دعا اليها الحزب وحمل نفسه المسؤولية الاولى والطليعية في تحريرها وعمل على تحقيقها اذ جاء فيه ان هدف تحرير المرأة العربية من القيود الاقتصادية والاجتماعية والتشريعية البالية ، وتوفير كل الظروف لاسهامها الكامل والفعال في المجتمع العربي .. وفي النهضة العربية التي يدعو اليها حزب البعث العربي الاشتراكي يقف في مقدمة الاهداف التي دعا اليها الحزب وعمل لتحقيقها . كما اعتبر تخلفها الثقافي والاقتصادي والاجتماعي وعدم مساواتها بالرجل مساواة حقيقية مانعا ومعوقا لاجراء تغيرات جذرية حقيقية وشاملة في المجتمع العربي باتجاه تحقيق اهداف الوحدة والحرية والاشتراكية .الاشتراكية التي تعمل على تحقيق العدالة الاجتماعية والقضاء على الاستغلال وتحقيق الرفاهية الاجتماعية برفع مستوى المعيشة للجماهير ورفع مستويات الدخول في الحفاظ على التوزيع العادل ونشر المبادىء الديمقراطية والقيادة الجماعية واشباع الحاجات .

وقد عملت القيادة على المساواة بين الرجل والمرأة بالتشـريعات الاقتصادية وتطبيق قانون التعليم الالزامي وتعـديل قانون الاحوال الشخصية رقم ٢١ الصادر في ١٢ ربيع الاول ١٣٩٨ و ٢ شباط ١٩٧٨ •

تتم عملية تحرير المرأة خلال تحرير المجتمع كله سياسيا واقتصاديا واجتماعيا لما لتفاعل النظم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية من تأثير متبادل في البناء الاجتمـاعي والبناء الثقافي Cultural and Social Structure للامة •

خامسا ــ وانعكاسا لما اصدرته حكومة الثورة من تشريعات جاء في قـانون الاتحاد العام لشباب العراق رقم ٦٣ لسنة ١٩٧٢ ما يلي :

« الاتحاد مؤسسة اجتماعية ديمقراطية تقدمية يمثل شباب العراق كافة دون اي تفريق بسبب الجنس » • كما ساوت قوانين الاتحادالوطني لطلبة العراق ونقابات العمال هي الاخرى بين المرأة والرجل في كافـة الحقوق والواجبات • كما جاء في المادة الثالثة من قانون الاتحاد العام لنساء العراق رقم ٣٩ لسنة ١٩٧٢ الى ضرورة رفع مستوى المرأة بجميع الوسائل الممكنة وتأمين تمتعهـا بحقوق مساوية لحقوق الرجال في جميع المجالات السياسية والاجتماعية والمدنية والاقتصادية والثقافية وتوفير فرص العمل امامها والدفاع عن حقوقها ومصالحها والغاء القوانين والاعراف والانظمة والعادات والممارسات القائمة المنطوية على أي تمييز ضد المرأة •

بعد ان استعرضنا وضع المرأة في التشريعات العراقية نعود لنستعرض مركزها القانوني الدولي • ولما كان العراق عضوا في المنظمة الدولية هيئـة الامم فهو ملزم الزاما ادبيا ان لم يكن الزاما قانونيا في تغيير مركزها في العائلة المنعكس على وضعها في المجتمع • وحتمية التأثر بهذه الاعلانات والمواثيق • واولها • الاعلان العالمي لحقوق الانسان والاتفاقات الدولية ضد التمييز

بسبب الجنس ، تنص المادة الاولى من الاعلان « ان التمييز ضد المرأة بانكار او تقييد تساويها في الحقوق مع الرجل يمثل اجحافا اساسيا ويكون جريمة مخلة بالكرامة والانسانية » .

تنص المادة الثانية من الاعلان « يراعى وجوبا اتخاذ جميع التدابير المناسبة لالغاء القوانين والاعراف والانظمة والعادات والممارسات القائمة والمنطوية على اساس التمييز ضد المرأة ولتقديم الحماية القانونية الكافية لتأمين تساوي حقوق الرجل والمرأة ولا سيما بما يلي : —

أ — ضمان مبدأ تساوي الحقوق باثباته في الدستور او بتأييده بأي ضمان قانوني آخر .

ب — القيام في اسرع وقت ممكن بالتصديق على الوثائق الدولية الصادرة عن الامم المتحدة والوكالات المتخصصة المتعلقة بالقضاء على التمييز ضد المرأة او بالانضمام اليها وبتنفيذها على وجه التمام .

تنص المادة الثالثة من الاعلان « يراعى وجوبا اتخاذ جميع التدابير المناسبة لتثقيف الرأي العام وتوجيه الاهتمامات القومية والغاء الممارسات العرفية وجميع الممارسات الاخرى القائمة على فكرة نقص المرأة » .

تنص المادة الحادية عشر من الاعلان : —

١ — يلزم مبدأ تساوي حقوق الرجل والمرأة وتطبيقه في جميع الدول وفقا لمباديء ميثاق الامم المتحدة والاعلان العالمي لحقوق الانسان .

٢ — يلتمس لذلك وعلى سبيل الحث من الحكومات والمنظمات غير الحكومية بذل جهودها ومن الافراد بذل قصاراهم لتعزيز تنفيذ المباديء الواردة في هذا الاعلان .

وتنص المادة السادسة من الاعلان : —

١ — يراعى وجوبا مع عدم الاخلال بصيانة وحدة وانسجام الاسرة التي تظل الوحدة الاساسية في أي مجتمع (اتخاذ التدابير المناسبة لاسيما التدابير التشريعية اللازمة لتأمين تمتع المرأة المتزوجة او غير المتزوجة

بحقوق مساوية لحقوق الرجل في ميدان القانون المدني ولا سيما الحقوق التالية :

١ ـ حق المساواة في التمتع بالاهلية القانونية وفي ممارستها •

آ ـ حق تملك الاموال وادارتها والتمتع بها والتصرف بهـا ووراثتها بما في ذلك الاموال التي تم تملكها اثناء الزواج•

ب ـ ذات الحقوق التي يتمتع بها الرجل فيما يتعلق بالقانون المنظم لنقل الاشخاص •

٢ ـ يراعى وجوبا اتخاذ جميع التدابير المناسبة لتأمين مبدأ تسـاوي مركز الزوجين ولا سيما ما يلي : ـ

آ ـ يكون للمرأة مثل الرجل حق اختيار الزوج بملء حريتهـا والتزوج بمحض رضاها الحر •

ب ـ يكون للمرأة حقوق مساوية لحقوق الرجل اثناء قيام الزواج وعند حله ويكون لمصلحة الاولاد في جميع الحالات الاعتبار الاول •

٣ ـ يراعى وجوبا حظر زواج الصغار وخطبة الصغيرات غير البالغات واتخاذ التدابير الفعالة المناسبة بما في ذلك التدابير التشريعية اللازمة لتحديد حد ادنى لسن الزواج ولوجوب تسجيل عقود الزواج في السجلات الرسمية •

وفي سنة ١٩٦١ تقدمت لجنة المرأة بمشروع اتفاقية الرضا في الزواج والحد الادنى للزواج وتسجيل عقود الزواج وقد صدر اتفاق بذلك عام ١٩٦٢ ثم صدرت عن الجمعية العمومية للامم المتحـــدة في ١٦ـ١٢ـ١٩٦٦ الاتفاقية الدولية الخاصة كما صدر اعـلان عن الجمعية العمومية للامم المتحدة في ٧ـ١١ـ١٩٦٧ للقضـاء على التمييز ضد المرأة •

سادسا ـ الدعوة الى اصلاح النظام القانوني في ورقة العمل التي تقدمت بها وزارة العدل العراقية والتي تميزت بـ : ـ

١ ـ النظرة الشمولية لاصلاح التشريعات .

٢ ـ انها تجربة رائدة واصيلة بلورت الاهداف واعطتها بعدا عمليا ونظريا وقوميا .

٣ ـ اعادت النظر في الاسس التشريعية لاعادة بناء المجتمع العربي في ضوء الاهداف التي يبغي الحزب تحقيقها .

٤ ـ اعتمدت فلسفتها الفلسفية القانونية للحزب واصبحت جزءا من ادبياته .

٥ ـ ابتغت ان تكون تشريعات الثورة تشريعات رائدة يحتذى بها في الوطن العربي .

٦ ـ اوضحت الفكرة الداعية الى اصلاح النظام القانوني الذي يهدف الى تغيير واقع الانسان العربي وخلق انماط من السلوك جديدة تتمشى والواقع الاشتراكي فتخلق انسانا عربيا متطورا وبناء اجتماعيا عربيا ثوريا . ورفعت وزارة العدل شعار اصلاح النظام القانوني هو دعم المسيرة الثورية وتحقيق اهدافها .

٧ ـ اعتبرت عملية التنمية وسيلة مؤدية الى غاية وغايتها الانسان العربي ولا تتم التنمية ولا يخلق الانسان الجديد ما لم يصلح النظام القانوني لما للقانون من قوة ضابطة فاكتمال التنمية لا يتم ما لم يصلح النظام القانوني لان هناك ترابطا عضويا بين خطة التنمية القومية وقانون اصلاح قانون النظام القانوني . وبناء على ذلك قامت وزارة العدل بمسح عام لكافة التشريعات والقوانين النافذة

هذه المرحلة ١٨٧٢٢ عام ١٩٧٧ - ١٩٧٨ و٩ر٢٦٪ في المرحلة الثانوية ويبلغ عدد الطالبات حاليا ١٦٣٨٠١ و ٣ر٣٣٪ للمرحلة الجامعية ويبلغ عددهن حاليا ٢١٢٦٨ أما في مجال التعليم المهني لعام ١٩٧٦-١٩٧٧ فيبلغ عددهن ٥٧٦٧ منهن ٢٥٨ فنون جميلة اما في دور المعلمات ٩٤٨١ وفي المعاهد الفنية ٢٧٩١ .

جدول يبين مجموع الاميين والمسجلين في الصف الخامس الابتدائي والمتخرجين في مراكز محو الامية والمتبقي من الاميين في الفئة العمرية (١٥ - ٤٤) سنة في سنة ١٩٧٥ ونسبتهم الى السكان في الفئة العمرية المماثلة لها حسب الجنس[١] .

	ذكور	اناث	المجموع
مجموع السكان	٢١٥٢٤٠٦	٢١٠٦٧١٤	٤٢٦٠١٢٠
مجموع الاميين	١٢٩٥٣٨٤	١٧٩٣١٢١	٣٠٨٨٥٠٠٥
المسجلين في الصف والخامس	٤٧٨٧٧٤	١٧٢٢٢٥	٦٥٠٩٩٩
المتخرجون في مراكز محو الامية	٧٣٠٠٠	٦٧٠٠٠	١٤٠٠٠٠
المتبقي من الاميين	٧٤٣٦١٠	١٥٥٣٨٩٦	٢٢٩٧٥٠٦
نسبة الامية الى السكان٪	٣٤/٥٣	٧٣/٧٦	٥٣/٩٣

(١) عن وزارة التربية / المديرية العامة للتخطيط التربوي / قسم التخطيط .

جدول يبين العدد المتبقي من الاميين في سنة ١٩٧٦ في الفئة العمرية (١٥ ــ ٤٤) سنة ونسبتهم الى الفترة نفسها من السكان

	ذكور	انـاث	المجموع
مجموع السكان في سنة ١٩٧٦	٢٢٣٦٠٠٠	٢١٨٤٠٠٠	٤٤٢٠٠٠٠
مجموع الاميين في سنة ١٩٧٥	٧٤٢٦١٠	١٥٥٢٨٩٦	٢٢٩٧٥٠٦
المسجلون في الصف الخامس سنة ١٩٧٦	٥٠٠٠٠	١٨٠٠٠	٦٨٠٠٠
المتخرجون في مراكز محو الامية سنة ١٩٧٦	٩٤٩٤	١٤٤٧١	٢٣٩٦٥
المتبقي من الاميين في سنة ١٩٧٦	٦٨٤١١٦	١٥٢١٤٢٥	
	١٥ر٠٪	٢ر٣٤٪	

واعلنت وزارة الاعلام في الاذاعة والصحف بأن حملة وطنية شاملة لمحو الامية بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي ستشمل ٥ر١ مليون للعام الدراسي المقبل وبذلك يكون قد قضينا على الامية في القطر ما دام قانون التعليم الالزامي طبق في بداية العام الحالي ١٩٧٨ - ١٩٧٩ .

اما العمل فهو الوسيلة الواقعية لتحرير المرأة اقتصاديا وبالعمل تكتسب قيمة اجتماعية باعتبارها عنصرا منتجا لان العمل هو القيمة لكل انسان وهوسر سعادته واثبات ذاته وبذا ستحترم داخل الاسرة وتزول عنها النظرة الاجتماعية

التي تصفها بالتخلف ، ولقد اسهمت المرأة في عمليات الانتاج وارتفعت نسبة العاملات في اجهزة الدولة من ٧٪ في عام ١٩٦٨ الى ١٥٪ عام ١٩٧٧ ولقد فتحت ابواب العمل للنساء غير المتعلمات وبلغت نسبتهن من ٣ر٤٪ عام١٩٧٤ أي قبل الشروع بخطة التنمية الانفجارية الى ٥ر١٠٪ لعام ١٩٧٧ ويقدر عدد النساء العاملات اليوم بربع مليون نسمة أي ما يعادل ١٠٪ من مجموع القوى العاملة في القطر •

ودخلت المرأة كافة ميادين العمل منها الصناعات الثقيلة والصناعات الالكترونية ومنشآت وزارة الدفاع والطباعة وتنضيد الحروف والميكانيك والتصوير الصحفي واعمال البناء ومحطات بيع البانزين وشرطة المرور والمختبرات العلمية والطاقة الذرية وقيادة الطائرات والهبوط بالمظلات والعمل في باصات نقل الركاب والتعاونيات الزراعية والجمعيات الفلاحية واتسع مجال عملها في مجالات السياسة والعلم والاقتصاد والدفاع والتربية والاجتماع والطب والهندسة وميادين التعليم بكافة مراحله والمرأة مدعوة للمساهمة في كافة مجالات العلم والعمل والحياة •

ثامنا ــ خطة التنمية القومية ١٩٧٦ ــ ١٩٨٠ الصادرة عن وزارة التخطيط في الجمهورية العراقية :

استهلت خطة التنمية القومية بمقتطف من التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن لحزب البعث العربي الاشتراكي يبين فيه مهمة المرحلة المقبلة اذ جاء فيه « المهمة المركزية خلال المرحلة المقبلة هي وضع صيغ التنمية في خدمة التحول الاشتراكي أي وضعها بالدرجة الاولى في خدمة تطوير وتوسيع القطاع الاشتراكي في الزراعة والصناعة والتجارة والخدمات ، مع اعطاء اهمية خاصة لتحسين المستوى المعاشي للمواطنين

بأشكال مباشرة وغير مباشرة لحاجة البلاد الماسة الى التطور الحضاري والنهضة القومية » •• كذلك « ان السنوات الخمس القادمة يجب ان تكون مرحلة تحقيق القفزة الكبرى في اوضاع البلاد الاقتصادية والاجتماعية تنتقل بعدها الى اوضاع متقدمة تتوفر فيها الاسس الراسخة لاقتصاد وطني مزدهر » •

ان خطة التنمية القومية اكدت على ضرورة التطور السريع اقتصاديا واجتماعيا وصولا الى مراحل متقدمة من التحولات الاشتراكية المتمثلة في التطور الحضاري والنهضة القومية ولا يتم ذلك ما لم تتوفر القوى البشرية العاملة الكفوءة • وتتمثل هذه الكفاءة في الرجل والمرأة • ولعوامل خارجة عن ارادة المرأة انخفضت انتاجيتها •

ولما كان العمل ركيزة اساسية للتنمية وان المرأة محكوم عليها بالتخلف الاجتماعي نتيجة لقيم وعادات وتقاليد منعتها من ممارسة حقها في الحياة واجبرتها على ان تكون تابعا للاسرة قبل الزواج وللزوج عند الزواج اذن لابد من تشريع ينصفها •

ولما كانت خطة التنمية القومية شاملة اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا اذن لابد من تغيير في النظام الاجتماعي لكي يتم التوازن بين الانظمة المتكاملة •

وجاء في الفصل الثاني من الخطة « المباديء والمهمات الرئيسة » فيما يخص توجيهات للانتفاع بالموارد المعطلة ما يلي : ـ
تعبئة كافة الطاقات والامكانيات وبذل الجهود واستخدام الصيغ الاستثنائية والاساليب المتطورة والمبادرات الفردية والجماعية المبنية على أسس علمية وموضوعية لانجاز الاهداف الاقتصادية والاجتماعية

للخطة • والمرأة قوى عاملة معطلة نتيجة لقيم وتقاليد وتنشئة استعبدتها كما اكدت خطة التنمية في باب التربية والتعليم على انه يستهدف التنمية البشرية خلال مرحلة الخطة مواصلة الجهود التربوية والتعليمية في كافة المراحل والعمل على توجيهها وفقا لمستلزمات بناء المجتمع الجديدوتحولاته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية واعداد جيل مدعم بالتربية الاشتراكية والايمان المطلق بمباديء النضال الوطني والقدرة العلمية والفنية بما يجعلها قادرة على انجاز مهمات التطور القطرية والقومية واداء دورها في تحقيق طموح الامة العربية في الوحدة والحرية والاشتراكية•

وتؤكد الخطة على اهمية تحقيق الترابط الوثيق بين خطط التعليم والتدريب من جهة وخطة القوى العاملة وفقا لمؤشرات التنسيق والتوازن من جهة اخرى وتواجه الخطة توفير فرص التعليم وتعميم انتشارها بين فئات المجتمع ومناطق القطر بالحدود الممكنة من التنسيق والتجانس على النحو المبين في الخطة التفصيلية للقطاع • كما تركز الخطة على محو الامية بما يضمن المشاركة الفعالة لكافة المواطنين في عملية التنمية •

كما أكد المؤتمر الزراعي السابع المنعقد في بغداد تشرين الاول سنة ١٩٧٧ على :

١ ـ ضرورة الانتباه والتركيز واعداد الكادر البشري لتطوير الحياة الاجتماعية والثقافية للفلاح والفلاحة •

٢ ـ ان من بين المهام الرئيسة للمؤتمر ما يتعلق بالبناء الاجتماعي في الريف وهذه المهمة متعلقة بالاهداف الاساسية لثورة ١٧ تموز لاحداث تغيرات جذرية في المجتمع •

٣ ـ التركيز على الخدمات الريفية ومراكز ارشاد المرأة الريفية والاهتمام بها ورعايتها لمكانتها المهمة في المجتمع الريفي • فالثورة الزراعية اعتمدت تغيير الواقع الاجتماعي لسكان الريف بما ينسجم ومستلزمات التحولات الاشتراكية وهي من استراتيجيات الحزب ومنهاجه في بناء القاعدة الاقتصادية الوطنية بما ينسجم وتحقيق التكامل الاقتصادي فقد اهتمت الثورة الزراعية بزيادة الكفاءة الانتاجية للقوى العاملة في القطاع الزراعي عن طريق تعبئة القوى العاملة في هذا القطاع وتوجيهها نحو هذا الهدف لامكانية زيادة الانتاج بوتائر عالية فاهتمت خطة ١٩٧٨ بالعنصر البشري بالتثقيف الفلاحي والارشاد الزراعي وزيادة نشاطات الخدمات المقدمة للمرأة الريفية والنشء الريفي وتدريب الكوادر الفلاحية •

مما تقدم نجد ان خطة التنمية تؤكد على تنمية العامل البشري واستخدامه كقوى عاملة متطورة منتجة • ففي الخطة للقوى العاملة موازنات للموارد البشرية بما ينسجم والاهداف الطموحة التي يمكن تحقيقها كما تتضمن الخطة موازنات للقوى العاملة على مستوى المهنة ودرجة المهارة •

وتركز الخطة على تنمية الطاقات البشرية لاستخدامها في التنمية الاقتصادية وتطوير الكفاءات الفنية للقوى العاملة والاعداد الفني للاطر المتقدمة والوسطى في التدريب الفني •

وهنا سنعرض مؤشرات مشاركة المرأة في هذا المجال •

الاعداد المتوقع تخرجها من المعاهد الفنية للفترة ٧٦/٧٧ ـ ٧٧/٧٨ ومقارنتها بسنة الاساس

١٩٧٥ ـ ١٩٧٦			٧٦ ـ ١٩٧٧			٧٧ ـ ١٩٧٨		
ذكور	اناث	المجموع	ذكور	اناث	المجموع	ذكور	اناث	المجموع
٣٣٩٧	٦٦٢	٤٠٥٩	٣٤٦٧	١١١٢	٤٥٨٠	٤٨٩٤	١٨٨٥	٦٧٧٩

الاعداد المتوقع تخرجها في الجامعات العراقية للفترة ٧٦ – ٧٧ – ٧٨ – ٧٩ – ٨٠

	٧٦ – ٧٧			٧٧ – ٧٨			٧٨ – ٧٩			٧٩ – ٨٠		
	ذكور	اناث	المجموع	ذكور	اناث	المجموع	ذكور	اناث	المجموع	ذكور	اناث	المجموع
علوم طبية	٤٨٢	٢٠٤	٦٨٧	٥٦٦	٣٨٨	٩٥٤	٥١٢	٣١٢	٨٢٥	٤٩٣	٣١١	٨٠٤
علوم هندسية	١٤٦٥	٢٤٦	١٧١١	١٧٨٣	٤٦٨	٢٣٥١	٢٢٨٠	٦٥٧	٢٩٢٧	٢٦٣٨	٧٣٩	٣٣٧٧
	٩٤٨	٢٤٦	١٥١٦	٨٧٧	٧٠٨	١٥٨٥	١٠٢٤	٦٦٢	١٦٨٦	١٠٦٢	٦١٦	١٦٨٧
علوم زراعية	٧٨٠	١٧٦	٩٥٦	٩٢٥	٢٣٦	١١٦١	١٠٤٧	٢٧٧	١٣٢٤	١٠٣٥	٢٦١	١٢٩٦
طب بيطري	٩٤	١٥	١٠٩	٩٩	٣٣	١٣٢	١٦٨	٧	١٧٥	٣٤٦	٣٧	٢٨٣
علوم ادارية واقتصادية	١٢٨٠	٨٨٩	٢١٦٩	١٦٤٤	٩٧٦	٢٦٢٠	١٧٨٧	١٠٥٩	٢٨٤٦	١٨٥١	١٠٨١	٢٩٣٢
علوم انسانية	٢٢١٤	١٥٧٥	٣٧٨٤	٢٢٧٦	١٣٦٥	٣٦٤١	١٣٥٠	٥٧٥	١٩٢٥	١٢٣٨	٦٨٢	١٩٢٠
تربية	٦٠١	٣١٢	٩١٣	٩٩٢	٤٨٥	١٤٧٧	١٦٤٩	١٠٠٤	٢٦٥٣	١٧٢٨	٨٦٩	٢٥٩٧
	٧٨٦٥	٣٩٨٠	١١٨٤٥	٩١٦٢	٤٦٥٩	١٣٨٢١	٩٨١٨	٤٥٥٣	١٤٣٧١	١٠٢٩١	٤٥٩٦	١٤٨٨٧

خاتمة :

ان هذه الارقام لمؤشرات على درجة مساهمة المرأة مستقبليا خلال السنوات الخمس في القطاعات الانتاجية المادية والمعنوية ومستوى تطور المرأة لذا اقتضى الامر تعديل التشريع الاسري الذي يعتبر الاساس لاستقرار المرأة وطمأنينتها لان للعلاقات الاجتماعية الاسرية وتوزيع الادوار على أفراد الاسرة أثرا بالغ الاهمية بالنسبة للعمل والانتاج ، كذلك لمراعاة التوازن بين واقعها في المجتمع وواقعها داخل البيت .

تاسعا ـ التشريعات الحديثة الحضارية :

رغبة في تحقيق الصيغ الحضارية للامة العربية وارساء دعائم التقدم صدر قانون خدمة المرأة في الجيش مؤكدا ايمان الثورة « بأن المرأة العربية في بلادنا حفيدة النساء العربيات الخالدات اللواتي قاتلن مع الرجال ببسالة»[1]. كما اثبتت قابليتها سواء في الماضي او الحاضر في الجزائر وفلسطين على انها قادرة ان تكون بطلة في عبور جدار التقاليد والقيم الاقطاعية لتقف في الصف الاول في مقارعة الاعداء وقد اسهمت المرأة مساهمة فعالة في عملية البناء والتقدم التي رفع شعارها الجيش وهي « الجيش للحرب والاعمار » ان هذا التشريع لهو دليل قاطع على ايمان الثورة وثقة القيادة السياسية بالقدرة العالية للمرأة .

ان كافة التشريعات الثورية التي حررت المرأة جاءت في ازمنة متلاحقة وفقا لدرجة تطور المرأة وبتطور المجتمع وفق نظرة شمولية استراتيجية عميقة وموازنة حكيمة « هنا يتوجب ان توضع الموازنة الصحيحة ايضا في المكان والزمان » وفق حسابات المحصلة الجارية للعمل الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والنفسي[2] .

---

(١) السيد نائب رئيس مجلس قيادة الثورة صدام حسين«الثورة والمستقبل».

(٢) السيد نائب رئيس مجلس قيادةالثورة صدام حسين «الثورةوالمستقبل» .

وبعد ان صدرت هذه التشريعات الثورية الحضارية لابد من موازنة بين وضع المرأة في المجتمع ووضعها في الاسرة • لذا استوجب الامر صدورتعديل تشريع قانون الاحوال الشخصية رقم ١٨٨ لسنة ٩٥٩ بقانون حديث هو قانون رقم ١٢١ لسنة ١٩٧٨ •

عاشرا ــ عام المرأة العالمي :

كان لهذا الحدث العمالي العالمي التاريخي اثره في توعية المجتمع بمكانة المرأة وضرورة تطورها •

وكان للاحتفالات بهذا اليوم صداها في العالم عامة وفي العراق خاصة فقد وجه الرأي العام كله نحو عزم الثورة على اسهام المرأة في كافة المجالات ورفع معنويتها •

وقد وزعت في يوم المرأة العالمي المنشورات التي حوت على حقائق احصائية تبين مدى تطور المرأة العراقية ومكانتها الاجتماعية وقد تضمنت احصاءات تبين ارتفاع عدد النساء العاملات في القطاعين الاشتراكي والخاص في ظل الثورة من ٦١٩٦٢ عام ١٩٧٤ الى ٨٠١٥٨ عام ١٩٧٥ ليصل الى ٩٦٠٥٥ في عام ١٩٧٦ وقد بلغ عدد العاملات في اجهزة الدولة الادارية ٧٧٧٩٩ عام ١٩٧٦ وقد كان ٤٨٥٣٢ عام ١٩٧٢ كان لهذه المطبوعات أثر بالغ الاهمية في تعريف المواطنين على مستوى القوى العاملة النسوية في القطر ودافع محفز للنساء في العمل •

حادي عشر ــ الاعلام :

الاعلام وحملاته ودعم القيادة السياسية للحزب والثورة للمرأة والعمل على تطويرها في كافة المجالات ومساواتها بأخيها الرجل وتوجيه كافة وسائل الاعلام المبرمجة الهادفة الى اعادة البناء الاجتماعي وبناء الفرد على أسس جديدة ، اسس اشتراكية متطورة تربط بين واقعنا الحضاري والثقافة المعاصرة • فهي بعث للامة في منظور تقدمي متطور •

كل هذه الممارسات كانت عوامل دافعة لتعديل قانون الاحوال الشخصية لما له من فاعلية في تنظيم حياة الاسرة في منظور اشـــتراكي وعلى اسس ديمقراطية واعية عادلة تحفظ لكل طرف في الاسرة حقوقه وتلزمه باداء واجباته كما تحدد وظائف الاسرة من جديد في واقع تغيير البنى الاجتماعية حضاريا فقد تطورت الانظمة والتشريعات وفي ضوئها تطور الواقع الاجتماعي انما لم يصل هذا التطور ضوابط الاسرة التشريعية وعندما استجدت الظروف المواتية عدل قانون الاحوال الشخصية .

ثاني عشر ـ المؤتمرات :

يشهد القطر العراقي زخما من المؤتمرات وبواسطتها اطلع المجتمع على الرأي العربي والعالمي والفكر التقدمي في مختلف الميادين العلمية والاجتماعية والسياسية والادارية وكان اغلبها موجها نحو التنمية القومية كما اطلع العالم على منجزات الثورة وتقدمها . فهذه الحركة الفعالة ادت الى نشاط الفكر والتبادل العلمي والثقافي والوعي الدافع الى الاسهام في حركة التنمية وفق اسس علمية مبرمجة .

كما ان مساهمة العراق الفعالة في المؤتمرات العالمية والعربية على نطاق عام وخاص ومنها الندوات والمؤتمرات النسوية تقيم على انها حركة حضـارية للانفتاح على الفكر العالمي . والعراق عضو في الاتحاد النسائي الديمقراطي العالمي وهو يدعم كل الحركات الثورية الرامية الى القضاء على الاسـتعمار والامبريالية العالمية والصهيونية والرجعية وكل اشكال العدوان ، ويعمل الاتحاد العام لنساء العراق متعاونا مع المنظمات النسوية العالمية الاشتراكية على تحرير المرأة في العالم .

كل العوامل التيذكرتها كانت حافزا لتشريع قانون رقم ٢١ لســنة ١٩٧٨ واخص بالذكر منها مشروع قانون تعديل النظام القانوني ومسـاندة الثورة لتحرر المرأة .

قانون رقم ٢١ لسنة ١٩٧٨
قانون التعديل الثاني لقانون الاحوال الشخصية
رقم ١٨٨ لسنة ١٩٥٩

التعريف بالاحوال الشخصية :

الاحوال الشخصية : اصطلاح قانوني حديث وفد الينا مع ما وفد من التشريعات الاجنبية ولم يكن الفقهاء المسلمون يطلقونه على مسائل هذا الباب بل كانوا يدرجونها تحت عناوين مختلفة مثل (كتاب النكاح) و (كتاب المواريث) و (كتاب النفقة) و (كتاب النسب) ونحوها وهي في كلتا الحالتين تنظم المسائل التي تتعلق بشخص الانسان وبعلاقته مع أقرب الناس اليه .

الا ان جمع تلك الانظمة تحت عنوان (الاحوال الشخصية) قد اعطاها معنى اكثر تحديدا وادق مدلولا . فالمقصود بالاحوا لالشخصية هو : « مجموعة ما يتميز به الانسان عن غيره من الصفات الطبيعية او العائلية التي رتب القانون عليها اثرا قانونيا في حياته الاجتماعية . ككون الانسان ذكرا أو أنثى وكونه زوجا أو ارملا أو مطلقا أو أبا شرعيا ، أو كونه تام الاهلية أو ناقصها لصغر سن او جنون ، أو كونه مطلق الاهلية او مقيدها بسبب من اسبابها القانونية » . وقد استعملت هذه الصيغة في العراق لاول مرة بعبارة (المواد الشخصية) وذلك في بيان المحاكم لسنة ١٩١٧ بعد احتلال بغداد ثم بعبارة الاحوال الشخصية وذلك في بيان مايس ١٩٢١ ثم في قانون المحاكم الشرعية الصادر في ٣٠ حزيران سنة ١٩٢٣ ثم تقرر في الشريع العراقي بالمواد (٧٤ ــ ٨٠) من القانون الاساسي ثم ترسخ هذا الاصطلاح بتشريع قانون الاحوال الشخصية للاجانب رقم ٧٨ لسنة ١٩٣١ وثبت أخيرا بتشريع قانون الاحوال الشخصية رقم ١٨٨ لسنة ١٩٥٩ وقد جاء هذا القانون مشتملا على

أهم ابواب الفقه في الاحكام المتعلقة بالاحوال الشخصية الجامعة لنظام الزواج والطلاق والولادة والنسب والحضانة والنفقة والوصية والميراث وكل هـــذه النصوص لها سند في فقه الشريعة .

ان الاساس في وضع اي قانون هو تنظيم حرية التصرف والعمل بحيث لا يكون تطبيق الحرية عند فرد في المجتمع ضارا بحرية الفرد الآخر في نفس المجتمع .

فالقوانين في الحقيقة وان بدت قيودا على الحرية فهي في الواقع محافظة على هذه الحرية واستبقاء لها بوضع يكفل ممارستها دون المساس بحق الآخرين وطالما ان الناس في وئام ولا يعتدي أحدهم على الآخر فهم بغير حاجة الى قانون ينظم تعاملهم وخاصة في احوالهم الخاصة ولكن الحاجة تبرز عندما يقوم الخلاف او حيث يتوقع ان يقوم . والعلاقة الزواجية أسمى العلاقات البشرية التي تربط بين الزوجين وعلاقة الابناء الناجمة عنها هي الحياة نفسها بكل ما تعنيه من حقائق وكل ما تمثله من قيم وظلت أمور الزواج وانجاب الابناء دهرا تعتمد على تطبيق القضاة للشريعة في نصوصها العامة والاكتفاء بشهادة الشهود عند الخلاف .

واختلفت نسبيا الاحكام في البلاد العربية باختلاف المذاهب التي سادت القضاء الشرعي ، ولما كانت الدول العربية مسيطرا عليها من قبل الدولـــة العثمانية فقد ساد المحاكم ودوائر الفتوى المذهب الحنفي أمدا طويلا وتتقيد مصر ولبنان والاردن بمذهب ابي حنيفة أما تونس والمغرب والجزائر وليبيا فتتقيد بمذاهب مالك ، والسعودية والكويت بمذهب ابن حنبل كما تلتزم بعض البلدان المجاورة للحجاز بمذهب الشافعي . وبالرغم من هذا فان كثيرين من مشرعي احكام الاحوال الشخصية قد اخذوا بمبدأ الانفتاح على المذاهب بل الانفتاح على غيرها من آراء الائمة الآخرين ما دام الرأي يحقق مصلحة الاسرة والام والطفل وقد حذا المشرع العراقي حذوهم تحقيقا للمصلحـــة العامة وهي مصلحة المجتمع المتمثلة بمصلحة الاسرة وقاية من تصدع الاسرة وتفككها وتشرد الاطفال واحداث الضرر الاجتماعي .

والآن نستعرض محتوى بنود قانون رقم ٢١ لسنة ١٩٧٨ قانون التعديل الثاني لقانون الاحوال الشخصية رقم ١٨٨ لسنة ٩٥٩´ وحكمة تشريعه •

المادة الاولى ـ اولا ـ الاهلية :

اشترط التعديل لاتمام الاهلية للزواج اولا العقل واكمال الثامنة عشرة من العمر بينما التشريع القديم لم يحدد العمر انما ذكر كلمة النضوج •

المادة الثانية ـ ثانيا ـ زواج الصغير :

زواج الصغير الذي اكمل الخامسة عشرة من العمر يتم بأذن من القاضي وان لم يأذن الولي وهذه حالات استثنائية لان الاصل في الاهلية بلوغ الثامنة عشرة من العمر •

المادة الثالثة ـ ثالثا ـ الاكراه على الزواج ومنع الزواج :

اعتبر التعديل القانوني الزواج بالاكراه باطلا اذا لم يتم الدخول فرضا الطرفين شرط من شروط صحة العقد ويعتبر باطلا اذا وقع الزواج بالاكراه كما لا يحق لاي من الاقارب مهما كانت درجة قرابته او الاغيار منع الراغب في الزواج والمؤهل له بموجب هذا القانون • واوقع القانون العقاب على من يكره (يرغم) امرأة كانت أو رجلا على الزواج دون رضاه • وحدد هذا العقاب بالحبس لمدة لا تتجاوز ثلاث سنوات مع دفع غرامة او احدى هاتين العقوبتين هذا بالنسبة للاقرباء من الدرجة الاولى اي الاب والجد والام والجدة والاخ والاخت ، اما اذا اكره شخص من غير هؤلاء شخصا آخر على الزواج او منعه منه فعقوبته السجن لمدة لا تقل عن ٣ سنوات ولا تزيد على ١٠ سنوات وعلى المحكمة الشرعية او محكمة المواد الشخصية تبليغ سلطات التحقيق لكي تقوم سلطات التحقيق بالتعقيبات القانونية لمن أكره شخصا على الزواج او منعه منه أيا كان هذا الشخص • ولا حاجة لتقديم الممنوع من الزواج او المكره عليه شكواه الى المحكمة الشرعية انما يمكنه ان يقدمها الى سلطات التحقيق مباشرة اي ان الامر أصبح جزائيا ولسلطات التحقيق ان تتدبر الامر • أما اذا قدم شكواه الى محكمة الاحوال الشخصية أو المحكمة الشرعية فهي

بدورها تطلب من سلطات التحقيق توقيف المعتدي واحضاره امام السلطات المذكورة •

المادة الرابعة ـ رابعا ـ تسجيل عقد الزواج :

اشترط هذا التعديل القانوني وجوب تسجيل عقد الزواج في المحاكم الشرعية أو محكمة الاحوال الشخصية في الزواج الاول واوقع العقاب على من عقد زواجه خارج المحكمة وقرر ان الحد الادنى من العقاب الحبس لمدة (٦ اشهر والاقصى سنة) او بغرامة (لا تقل عن ثلثمائة دينار ولا تزيد على الف دينار) ، اما اذا عقد الرجل زواجا آخر خارج المحكمة مع قيام الزوجية فعقوبته الحبس لمدة (لا تقل عن ثلاث سنوات ولا تزيد عن ٥ سنوات) •

التفريق القضائي :

المادة الاربعون ـ يفرق القضاء بين الزوجين ويعتبر التفريق بينونة صغرى[1] ويحق لكل من المرأة والرجل ذلك في الحالات التالية :

اولا ـ اذا أضر كل من الزوجين طرفه الآخر ضررا يتعذر معه استمرار الحياة الزوجية •

ثانيا ـ اذا أرتكب اي من الزوجين الرجل او المرأة الخيانة الزوجية •

ثالثا ـ اذا كان عقد الزواج قد تم قبل اكمال احد الزوجين الثامنة عشرة دون موافقة القاضي وذلك لان الزوَاج قبل الثامنة عشرة من العمر يعتبر باطلا (ما لم يتم بموافقة القضاء) لعدم اكمال الاهلية •

رابعا ـ اذا كان عقد الزواج قد جرى خارج المحكمة عن طريق الاكراه وتم الدخول • لان الزواج بالاكراه يعتبر باطلا •

خامسا ـ اذا تزوج بزوجة ثانية بدون اذن من المحكمة فلها ان تطلب التفريق القضائي •

---

(١) وهو ما جاز فيه للزوج التزوج بمطلقته بعد عقد جديد ويحل مؤخر الصداق.

المادة الحادية والاربعون :

١ ـ لكل من الزوجين طلب التفريق عند قيام خلاف بينهما ، سواء أكان ذلك قبل الدخول او بعده واذا وقع التفريق اعتبر بينونة صغرى •

٢ ـ تتحقق المحكمة عن اسباب الخلاف فاذا اقتنعت بوجوده قامت بتعيين حكمين لاصلاح ذات البين أحدهما من اهلها والآخر من أهـل الزوج ـ ان وجدا ـ فان تعذر وجودهما كلفت المحكمة الزوجين بانتخاب حكمين فان اتفقا على ذلك قام الحكمان بالتوسط لاصلاحهما وان لم يتفقا على انتخاب الحكمين انتخبتهما المحكمة •

٣ ـ يجتهد الحكمان لازالة الخلافات بينهما وان لم يتمكنا من ذلك رفعا الامر الى المحكمة مبينين لها الطرف المقصر والمعتدي وان اختلفـا في حكميهما ضمت المحكمة لهما حكما ثالثا •

٤ ـ آ ـ واذا تعذر ازالة الخلاف بين الزوجين واحلال السلام وعجزت عن الاصلاح بينهما وامتنع الزوج عن التطليق فرقت المحكمة بينهما •

ب ـ اذا تم التفريق بعد الدخول يسقط المهر المؤجل (المتأخر) اذا ثبت ان التقصير صادر عن الزوجة سواء كانت مدعية أم مدعى عليها، اما اذا ثبت ان التقصير صادر عن الزوج والزوجة فيقسم المهر المؤجل بينهما بنسبة التقصير المنسوب لكل منهما•

جـ ـ اذا تم التفريق قبل الدخول وثبت التقصير من جانب الزوجة تلزم برد ما قبضته من مهر معجل •

المادة الثانية والاربعون :

اذا ردت دعوى التفريق لاحد الاسباب التالية وهي : (١) لعدم ثبوت الضرر الذي يتعذر معه استمرار الحياة الزوجية • (٢) عدم اثبات ان عقـد الزواج قد تم قبل اكمال احد الزوجين الثامنة عشرة دون موافقـة القاضي • (٣) ان الزواج قد جرى بالاكراه وتم الدخول • (٤) زواج الزوج بزوجة ثانية

بدون اذن من المحكمة واكتسب قرار الرد درجة البتات • ثم اقيمت دعوى ثانية بالتفريق لنفس السبب ، تلجأ المحكمة الى التحكيم وفقا لما ورد في المادة الحادية والاربعين •

المادة الثالثة والاربعون :

اولا ــ للزوجة طلب التفريق عند توفر احد الاسباب التالية وحكم التفريق في هذه الحالات هو البينونة الصغرى :

(١) السجن : ــ اذا حكم على الزوج بعقوبة مقيدة للحرية مدة ثلاث سنوات فأكثر ، ولو كان له مال يستطيع الانفاق منه •

(٢) الهجر : ــ اذا هجر الزوج زوجته مدة سنتين فأكثر بدون عذر مشروع ، فرق القاضي بينهما وان كان الزوج معروف الاقامة ، وله مال تستطيع الانفاق منه •

(٣) عدم الدخول : ــ اذا لم يطلب الزوج زوجته المعقود عليها ليتزوجها خلال سنتين من تاريخ العقد ، ولا يعتد بطلبه للزفاف للدخول بها اذا لم يكن قد أوفى بحقوقها الزوجية •

(٤) العنة : ــ اذا وجدت الزوجة عيبا في الزوج وهو ان يكون عنينا أو مبتلى بما لا يستطيع معه القيام بالواجبات الزوجية ، سواء كان ذلك لاسباب عضوية أو نفسية ، أو اذا أصيب بعد الدخول بها وثبت عدم امكان شفائه منها بتقرير صادر عن لجنة طبية رسمية مختصة ، اما اذا وجدت المحكمة ان سبب ذلك نفسي ، فتؤجل التفريق لمدة سنة واحدة ، شريطة ان تمكن زوجها من نفسها خلال تلك السنة •

(٥) العقم : ــ اذا كان عقيما ، او أبتلى بالعقم ، بعد الزواج ولم يكن لها ولد منه على قيد الحياة ان هذا النص كان مقصورا على المرأة وليس الرجل وقد اصبح من حق المرأة ان تطلب التفريق اذا عقم الرجل ولم يكن لها ولد منه •

(٦) العلة : ـ اذا وجدت بعد العقد ان زوجها مبتلى بعلة لا يمكن معها معاشرته بلا ضرر ، كالجذام أو البرص أو السل او الزهري او الجنون، أو انه قد أصيب بعد ذلك بعلة من هذه العلل أو ما يماثلها ، على انه اذا وجدت المحكمة بعد الكشف الطبي ان العلة يؤمل زوالها فتؤجل التفريق حتى زوال تلك العلة ، وللزوجة ان تمتنع عن الزوج طيلة مدة التأجيل ، أما اذا وجدت المحكمة ان العلة لا يؤمل زوالها خلال مدة مناسبة وامتنع الزوج عن الطلاق واصرت الزوجة على طلبها ، فيحكم القاضي بالتفريق •

(٧) عدم الانفاق : ـ اذا امتنع الزوج عن الانفاق عليها دون عذر مشروع بعد امهاله مدة اقصاها ستون يوما •

(٨) غياب الزوج : ـ اذا غاب الزوج أو فقد أو اختفى أو حكم عليه بالحبس مدة تزيد على سنة وتعذر تحصيل النفقة فرق القاضي بينهما •

(٩) النفقة : ـ اذا امتنع الزوج عن تسديد النفقة المتراكمة المحكوم بها بعد امهاله مدة أقصاها ستون يوما من قبل دائرة التنفيذ واقامت الزوجة الدعوى فرق القاضي بينهما •

ثانيا ـ التفريق قبل الدخول :

للزوجة الحق في طلب التفريق قبل الدخول ، وعلى المحكمة ان تقضي بالتفريق بعد ان ترد الزوجة (المعقود عليها) ما قبضته من مهر وجميع ما تكبده الرجل من اموال ونفقات ثابتة صرفها لاغراض الزواج •

المادة الرابعة والاربعون :

وسائل الاثبات : تثبت اسباب التفريق بكافة وسائل الاثبات بما في ذلك الشهادات الواردة على السماع ، اذا كانت متواترة ، ويعود تقديرها الى قناعة المحكمة وذلك باستثناء الحالات التي حدد القانون وسائل معينة لاثباتها كاللعان مثلا •

الحضانة : تميزت الاحكام فيما يخص الحضانة بتمديد مدتها ومراعاة مصلحة المحضون •

المادة السابعة والخمسون :

١ ــ الام أحق بحضانة الولد وتربيته حال قيام الزوجية ، وبعد الفرقة ، ما لم يتضرر المحضون من ذلك • وهنا تراعي المادة مصلحة المحضون •

٢ ــ يشترط في الحاضنة البلوغ والعقل والامانة والقدرة على تربية المحضون وصيانته ، وغير متزوجة بأجنبي عن المحضون • ويفهم من ذلك اذاتزوجت باجنبي من المحضون فلا تصح حضانتها •

٣ ــ اذا اختلفت الحاضنة مع من تجب عليه نفقة المحضون في اجرة الحضانة قدرتها المحكمة ولا يحكم بأجر للحاضنة (الام) ما دامت الزوجيةقائمة او كانت الزوجة معتدة من طلاق رجعي •

٤ ــ التربية والتعليم وشؤون المحضون كلها منوطة بالاب حتى يتم العاشرة من العمر وللمحكمة ان تمدد مدة الحضانة حتى الخامسة عشرة من العمر اذا ثبت لها اقتضاء مصلحة المحضون ذلك عند الرجوع الى اللجان المختصة الطبية منها والشعبية • فقد عهدت المحكمة للاب النظر فيشؤونه التربوية والتعليمية انما اشترطت ان يبيت عند حاضنه فعهدت للوالدين رعايته وللام حضانته اذ نصت على ان لا يبيت الا عند حاضنته •

حق الاختيار في الاقامة للمحضون :

٥ ــ اذا أتم المحضون الخامسة عشرة من العمر يكون له حق الاختيار في الاقامة مع من يشاء من ابويه ، أو احد اقاربه لحين اكماله الثامنة عشرة من العمر ، اذا آنست المحكمة منه الرشد في هذا الاختيار •

استرداد المحضون :

٦ ــ بعد ان تنتهي حضانة الحاضنة يحكم القضاء لها ان تطلب استرداد المحضون ممن حكم له باستلام المحضون منها • هذا في حالة اثبات تضرر المحضون خلال مدة وجوده معه •

انتقال الحضانة :

٧ ـ تنتقل الحضانة الى الاب في حالة فقدان أم الصغير أحد شروط الحضانة وهي (العقل والبلوغ والامانة والقدرة على التربية) أو وفاتها الا اذا اقتضت مصلحة الصغير خلاف ذلك . وعندئذ تنتقل الحضانة الى من تختاره المحكمة مراعية في ذلك مصلحة الصغير .

انعدام اهلية الحضانة للابوين :

٨ ـ اذا لم يوجد من هو أهل للحضانة من الابوين ، تقوم المحكمة بأيداع المحضون لدى حاضنة أو حاضن أمين ، كما يجوز لها ان تودعه الى دور الحضانة المعدة من قبل الدولة عند وجودها .

موت والد الصغير :

٩ ـ اذا مات أبو الصغير أو فقد أحد شروط الحضانة ، فيبقى الصغير لدى امه ما دامت محتفظة بشروط الحضانة ، دون ان يكون لاقاربه من النساء أو الرجال حق منازعتها فيه لحين بلوغه سن الرشد اذ راعت النصوص فيما يخص مصلحة المحضون ، والقضاء أدرى بما كانت تعانيه الام المطلقة من عذاب فيما يخص الحضانة وما كان يعانيه الصغير من خلافات الابوين وصراعهما حول مصير المحضون المتأرجح .

الميراث : جاء التعديل فيما يخص الميراث بما يلي :

تستحق البنت او البنات في حالة عدم وجود ابن للمتوفى ، ما تبقى من التركة ، بعد أخذ الابوين والزوج الآخر الحي فروضهم منها .

اما اذا لم يكن للمتوفى من أبوين ولا زوج فتستحق البنت جميع التركة مما تقدم يمكننا ان نستخلص ان هذا التعديل قد راعى ما يتفق وروح الشريعة الاسلامية واعتمد السنة والكتاب منفتحا على كافة المذاهب الاسلامية وفقه الائمة والفقهاء مع ما يتفق والتطورات الاقتصادية والاجتماعية للقطر فانتصر لروح الانسانية وانصف العدالة الاجتماعية والتزم بانسانية الاشتراكية والدين الحنيف . وكان لابد من توازن بين تطور كافة الانظمة والقضاء على التخلف الثقافي ليوازي التطور الاقتصادي .

النظرة الثانوية اليها وستؤثر تأثيرا غير مباشر على التنشئة الاجتماعية للجيل الصاعد فتخفض نسبة الجنوح والانحراف والبغاء وسأشرح بعض هذه النتائج لاهميتها .

الآثار الاجتماعية : اولا ـ القضاء على الاعراف والقيم الاقطاعية :

تنتشر في الارياف وفي الاسر المهاجرة من الريف الى المدينة وحتى في المدينة بين شرائح معينة من المجتمع العادات التالية :

١ ـ المرأة الفصيلة : ـ وهي زواج الديه فعندما يراد الفصل بين عشيرتين تقدم المرأة مع عدد من الاغنام او البقر مقابل تعويض عن قتل شخص من العشيرة الثانية للعشيرة الاولى فيتزوجها أحد افراد العشيرة الثانية .

٢ ـ زواج المقابل أو كصه بكصه او زواج المتبادل : ـ وكان عرب الجاهلية يسمونه نكاح الشغار وهو محرم اسلاميا . وهو ان يزوج الرجل ابنته من رجل آخر على ان يزوجه الرجل الآخر ابنته او ان الاخ يزوج اخته لآخر على ان يزوجه الآخر اخته وهذا ما يطلق عليه اسم زواج تبادل الاخوات ويكون منخفض التكاليف .

٣ ـ الزواج الاستمراري (البديلي) : ـ وهو ان يتزوج الاخ زوجة اخيه بعد وفاة اخيه .

٤ ـ النهوة : ـ وهي منع ابنة العم من الزواج وكل ابن عم يتزوج بنت عمه ولا ارادة لها بهذا الزواج ويمكنه ان ينهي على زواجها من شخص آخر دون ان يتزوجها هو .

٥ ـ الزواج بالاكراه : ـ وهي تزويج الفتاة من شخص لا ترغب فيه ولا يؤخذ رأي الفتاة في شريك حياتها .

٦ ـ منع الزواج : ـ يمنع الاب أو الجد تزويج ابنه الا من فتاة يرضى الاب او الجد عنها .

هذه العادات والقيم المذكورة اعلاه كلها تقاليد واعراف وقيم اقطاعية وعلاقات اقطاعية لما للعشيرة والاقطاع من سطوة وسلطة تمكنه من تملك رقاب عشيرته وخاصة المرأة التي عانت وتعاني الكثير منها خاصة في الريف وعلى الاسر التي انتقلت من الريف وحلت في احياء معينة في بغداد • فقانون رقم ٢١ لسنة ١٩٧٨ التعديل الثاني لقانون الاحوال الشخصية سيقضي عليها لما له من سلطة ضابطة عقابية لمن يكره غيره على الزواج او يمنعه منه وهو أهل له • فلا ينعقد العقد الا بتوفر ارادة الطرفين الرجل والمرأة •

ثانيا ــ تأكيد حق تقرير المصير :

أعطى القانون المرأة حق تقرير مصيرها في الزواج وفي التفريق فحقق بذلك انسانيتها واحترم كيانها ومكنها من تحقيق ذاتيتها ورد اعتبارها عن طريق اعلان ارادتها وتحقيق استقلالها الاقتصادي واسهامها في الحياة العامة علما وعملا • وحفظ لها الاستقرار النفسي والاتزان والنضج الانفعالي •

ثالثا ــ ديمقراطية الاسرة وتعاونها :

قوله تعالى «ولهن مثل الذي عليهن » •

الاسرة هي الخلية الاولى في المجتمع كما انها نظام اجتماعي لها وظائف وادوار حيوية متشابكة ومتداخلة محاطة بمجموعة من المعايير الاجتماعية تنسق عملها وتسهل مهمتها وتربطها بنظم اخري كالنظم التربوية والاقتصادية وتقوم الاسرة على رابطة زواجية تجمع بين الزوج والزوجة وهي تخضع للتغيرات الاجتماعية ومظاهر التقدم الذي يخطوها المجتمع اليوم وبفضل تحقق ارادة المرأة اصبحت اسرة ديمقراطية مسايرة للتطورات الحديثة • ونتيجة لذلك ستتغير انماط العلاقات السلوكية فيما بين افرادها كما ستحقق الديمقراطية سيادة التفاهم وسيادة الارادة الجماعية المبنية على أسس التعاون والتضامن الاجتماعي وهو عماد المجتمع •

ان الارادة الحرة الواعية للمرأة والرجل هي قوام تكوين الاسرة المنسجمة المتعاونة وهي عماد البناء الاجتماعي •

وعلى الاسرة وظائف يتوجب عليها تأديتها ويتعذر عليها القيام بمهماتها ما لم يتعاون ويتقبل ويحترم كل عضو فيها الآخر ويقيمه على اســاس من التكافؤ والمساواة ●

أما الوظائف[1] التي تلزم الاسرة المتفاهمــة المبنية على الارادة فهي كما يلي : —

١ — الوظيفة الفسيولوجية — تؤديها للحفاظ على النسل وامداد المجتمـع بالاعضاء الجدد ●

٢ — الوظيفة النفسية — وهذه تتصل بالعواطف وبتوفير الاستقرار والامن والحماية لكافة اعضاء الاسرة ولا يتم ذلك الا اذا ساد جو الاســرة التفاهم وانعدام الصراع والصدام والشجار والا تصدعت الاســرة وتنافرت واضطربت نفوس ابنائها واصــابهم الانحراف نفسيا أو أجتماعيا ●

أما الوظيفة التربوية وهي تنشئة ابنائها فالاسرة هي المؤثر المبكر في شخصية الفرد وتمارس تجربتها بصورة مستمرة لذا فهي الهيئة الكبرى لنقل الثقافة ويتأثر الطفل بأوضاع الاسرة وقيمها وباسلوبها في معالجة المحتوى الثقافي في البيئة الاجتماعية التي ينشأ فيها فالعادات والمحرمات والمسموحـات كلها تنتقل اليه في مستهل عمره عن طريق اسرته وتحدث تأثيراتها التي تتفاوت من حيث فاعليتها ومداها بتفاوت الاسرة وظروفها وبتأمين الاطفال قـدراتهم واستعداداتهم ●

ان الجو العاطفي والتوجيه السليم يمد الاسرة بقوة ذات طابع خاص يشكل خلق الطفل ويضع لبنات راسخة في صرح حياته المستقبلية ●

---

(١) د . عبدالنور « المجتمع الانساني » .
د . مصطفى الخشاب « الاجتماع العائلي » .

فالتعاون الاسري والاعتماد المتبادل بين اعضائها بعضهم على بعض يخلق منها جماعة مترابطة ووحدة متماسكة ولا يتم ذلك ما لم تتوفـــر الارادة في استمرار الحياة الزوجية والرغبة فيها • وتعاون الوالدين ينعكس أثره على الطفل لانه يقتدي بوالديه ويسير على النمط الذي يسيرون عليه •

وللاسرة وظيفتها في غرس الفضائل وتمرين قوى الطفل وملكاته وتهذيب غرائزه والتسامي بالدوافع الفطرية وزرع الروح الاجتماعية والوطنية وتحقق في ذاتيته التوازن بين مختلف الملكات الناشئة والاعتدال بين الانانية والغيرة • ومتى كبر وصلب عوده زودته بتاريخه القومي والفنون والآداب والتراث الاجتماعي ، فالوالدين وخاصة الام هي الرباط الذي يربط بين الفرد والمجتمع، والاسرة هي المعهد الاول للتثقيف الاجتماعي[1] •

وللاسرة قوة ضبط السلوك لافرادها لذا نجد ان الاطفال يختلفون في سلوكهم لاختلاف سلوك وضوابط اسرهم • فالنظم الاجتماعية هي التي تقوم بعمليات الرقابة والضبط الاجتماعيين ، والاسرة الديمقراطية قوامها « خـــذ واعط » ومن صفاتها ــ الانسجام الداخلي ، وانعدام الاستبدادية ، تتميـز بالمرونة والتجدد وتقوم على السعادة الشخصية والمودة وليست على الواجب والخشية ويتمتع كافة افرادها بحرية التعبير الشخصي بينما يخضع افرادالاسرة التقليدية لاهدافها ومراميها • ومن صفاتها أيضا التقبل وتبادل وجهات النظر بدلا منحتمية المواءمة لآراءالاخرين وخاصة فيمايتعلق بصلةالزوجوالزوجة •

رابعا ـ انخفاض نسبة الجنوح والانحراف :

اكد الدكتور نجيب ابراهيم و د• محمد عمادالدين اسماعيل في كتابهما « الاتجاهات الوالدية في تنشئة الطفل » على اهمية الاسرة باعتبارها البيئـة الاجتماعية التي ينشأ فيها الطفل وتعتبر المرحلة الاولى في حياته وهي أهم المراحل التي تكسب الطفل الصفات والخصائص الاجتماعية الاساسية والدعائم الاولى الشخصية وهذا ما اتفق عليه رجال التربية وعلم النفس الاجتماعي •

---

(١) احمد محمد خليفة : اصول علم الاجرام الاجتماعي •

كما ان أية مؤسسة اجتماعية اخرى او تربوية لا يمكنهـا ان تقوم بواجباتها في مجال الرعاية الاجتماعية الا عن طريق الاسرة والتعاون معها.

فغالبا ما تفشل المدرسة عندما تفشل العائلة فيكون عمل المدرسة بعد ذلك عملية رشق وترقيع[1] .

كما ان احوال المجتمع تتأثر الى حد كبير بأحوال الاسر التي يتألف منها، فاستقراره وتوطيد اركانه يعتمد الى حد بعيد على قيام الاسر بوظائفها على نهج سليم فاذا اضطربت احوال الاسر اضطربت احوال المجتمع واختل توازنه وساء نظامه بما يسوده من مظاهر السلوك المنحرف[2] .

وان العلاقات الزوجية هي اهم مقومات البيئة الاسرية فعدم التوافق بين الزوجين يعتبر السبب الاساس في تفكك الاسرة . والتفكك هذا يعتبر من ابرز العوامل المولدة لجنوح الابناء ذكورا واناثا والذين هم دوما الضحايا الابرياء للاسر المتفككة[3] .

التفكك الاسري :

اختلفت تسميته فبعضهم يسميه بالتفكك الاسري وآخرون يسمونه بالتصدع الاسري أو الاسر المحطمة أو البيوت المحطمة ، التفكك العائلي ، البيوت المحطمة ، العائلة المتداعية أو العائلة المحطمة ، والغرض واحد ويشمل :ـ الطلاق ، الهجر ، تعدد الزيجات ، وفاة أحد الوالدين ، أو كليهما ، غياب رب الاسرة لمدة طويلة[4] .

---

(١) د. أحمد عزت راجح « علم النفس الاجتماعي »

(٢) د . أكرم نشأت « علم الاجتماع الجنائي » .

(٣) منشورات المكتب الدولي لمكافحة الجريمة الجزء الثالث .
سلمان ابراهيم عبده اضواء على مشكلة انحراف الاحداث في الاردن
وبحوث المكتب الدولي العربي الخاص للدفاع عن الجريمة .

(٤) د . سعدي بسيو « قضاء الاحداث علما وعملا » ويسميه التفكك المادي.

فمن الناحية القانونيــة يشمل انفصــام الروابط العائلية عن طريق الطلاق او الهجر أما من الناحية الاجتماعية فيشمل على معنى اوسع من الاول حيث يضم الى جانب الانفصام الشقاق في العائلة والصراع فيها حتى لو لم يؤد هذا الشقاق والصراع الى انفصام روابط العائلة[١] وقد اضاف الدكتور مصطفى الخشاب في كتابه علم الاجتماع العائلي انتحار احد الزوجين أو كليهما.

ولا زال هذا التحليل ناقصاً فيجب ان يشمل التفكك النفسي .

فالتفكك النفسي يحدث في العائلة التي يسودها جو المنازعات المستمرة بين افرادها وخاصة بين الوالدين ويشيع فيها عدم احترام حقوق الآخرين[٢] ويضيف لها البعض الآخر الادمان على المخدرات ولعب القمار .

وقد اظهرت الدراسات التي اجريت في موضوع التفكك العائلي المادي أو النفسي علاقة جنوح الاحداث بالتفكك العائلي وان العائلة المفككة تنتج احداثا جانحين بنسبة اكبر بكثير مما هو عليه لدى العوائل السوية[٣] . أما شلدن وجلوك S. & E. Glueck فيعرفان الجنوح بأنه سوء تكيف الاحداث مع النظام الاجتماعي الذي يعيشون فيه واعتبرا الجنوح افعالا مكررة غير قانونية تصدر عن اشخاص لم يبلغوا سن السادسة عشرة ولو ارتكبها الكبار لاعتبرت جرائم[٤] .

---

(١) محمد عارف عثمان « نقد عوامل انحراف الاحداث مع دراسة تطبيقيــة للموضوع في مصر ص ٣٥٧ » .

(٢) د . حسن شحاته سعفان ، د . محمد علي حسن ، د . دحــام الكيــال « اعمال الحلقة الاولى » .

(٣) المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية في بغداد ١٩٧٢ بحث ظاهرة التشرد .
المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية في القاهرة ـ بحث تشــرد الاحداث .
رسالة ماجستير صلاح عبد المتعال « اثر العوامل الاجتماعية في تشــرد الاحداث » ١٩٦٤ .
رسالة ماجستير جعفر عبدالامير « اثر التفكك العائلة في جنوح الاحداث » ١٩٧٥ .

(٤) Sheldon and Glueck : Unravling Juvenile Delequency.

والسلوك المنحرف مظهر لتفكك النظم الاجتماعية واولها الاسرة •

لذا وجب دراسة العلاقات الاجتماعية Social Relations والانماط الثقافية في المجتمع والصراع الاجتماعي Social Conflict القائم داخل الاسرة وفي المجتمع •

كما اجريت العديد من الابحاث في كافة اقطار العالم على الاسر المفككة منها دراسة قام بها وثمان وكذلك المير Elmer واثبت له بحثه ان نصف جرائم الاحداث تأتي نتيجة للعوائل المفككة[1] •

كما يرى العالم الفرنسي جين شيزال ان جميع الاحصاءات التي اجريت في موضوع جنوح الاحداث أشارت الى نسبة تتراوح ما بين ٧٠٪ ، ٨٠٪ من الجانحين نشأوا في عوائل مفككة •

اما ترنمان Trenman فقد وجد ان ٥٧٪ من الجانحين مقابل ١٢٪ من غير الجانحين جاءوا من عوائل مفككة •

كذلك شمل بعضهم التفكك العائلي اختلال السلوك في العائلة والتربية العائلية الخاطئة •

كما أثبت البحث الذي قام به احد طلبة الماجستير في علم الاجتماع بأن هنالك علاقة طردية بين حالات التفكك الإسري وخاصة الخصام العائلي بين الوالدين وحالات الجنوح وقد بلغت النسبة ٦٤ر٦٣٪ من الجانحين كانوا يرون الخصام الذي يقع بين والديهم يقابل ذلك (٥٠ر٣٣٪) من غير الجانحين وان مشاعر الجانحين نحو آبائهم وامهاتهم (عند الخصام او بعده) كانت تتصف بعدم الاهتمام والكراهية لكثير من غير الجانحين[2] كما اثبتت البحوث وجود علاقة طردية بين اساليب التربية الخاطئة وكذلك تزداد طردية النسبة لحالات الهجر والطلاق والجنوح •

---

(١) M.C. Elmer : Family Adjustment and Social Change.

(٢) جعفر عبدالامير أثر التفكك العائلي في جنوح الاحداث .

نستدل مما تقدم ان للعلاقات الاسرية والانسجام العائلي وسيادة الديمقراطية في هذه العلاقات الاثر الفعال في الحفاظ على ديمومة الاسرة وسلامة تربيتها لابنائها وتوقي الانحراف والجنوح وان التعديل الجديدلقانون الاحوال الشخصية سيساعد كثيرا على ايجاد جو من الوئام والتماسك بين افراد الاسرة مما يهدف الى تنشئة جيل مزود بالقيم الاخلاقية العربية وموجها توجيها ديمقراطيا • لان اسس قيام الاسرة قد بني على احترام انسانية المرأة وحفظ كرامتها ومساواتها بالرجل في هذا المجال الحيوي • وان فترة التخلف الحضاري قد انتهت وستنتهي حتما بالقضاء على التشريعات الاقطاعية وستحل أجيال تكيف حياتها وفق تشريعات وضوابط اجتماعية متطورة •

ومن المتوقع ان نسبة الجنوح ستنخفض لان الاسرة المتفاهمة ستخطط حياتها وتخطط ميزانيتها وترعى ابناءها وبذلك يتم التوافق الاجتماعي والاتزان والنضج الانفعالي • وسينخفض الخصام وتسود المحبة والوئام ما زال قوام الاسرة هو الرضا • وما دام هنالك من يرعى الناشئة داخل الاسرة وداخل المجتمع • فتتعاون المؤسسات الاجتماعية والاسرة لتوجيه الجيل الصاعد •

خامسا ــ القضاء على تبعية المرأة للرجل ، ومساهمتها الفعالة في بناء المجتمع :

قضى التشريع على تبعية المرأة للرجل بفرضه العقاب على من يتاجر بها ويقدمها هدية لغيره ، ويمنعها من الخروج للعمل • لانه لا تتحقق ذاتية المرأة ولا يكون لها كيان اجتماعي ما لم تتعلم وتؤهل للعمل وتعمل ومن المتوقع ان تزداد مساهمة المرأة في بناء المجتمع • وان العمل يمكنها من الاستقلال الاقتصادي وزيادة دخل الاسرة وبذلك تتغير نظرة الرجل للمرأة باعتبارها منتجا مساويا له في الحياة •

سادسا ــ انتهاء دعاوى اثبات النسب وذلك بتسجيل العقد في المحكمة .

سابعا ـ انخفاض نسبة المنتحرات من النساء لسوء المعاملة الزوجية لان البعض من الزوجات لا يطقن حياتهن ولا يمكنهن التخلص منها وكن يلجأن الى حرق انفسهن بالنفط • أما حاليا فالقانون سمح للزوجة طلب التفريق اذا تعذرت حياتها مع الرجل • لانه لا ضرر ولا ضرار • علما بأن الآيات الكريمة توصي بالمعروف قوله تعالى « وعاشروهن بالمعروف »[1] ومن آياته « ان خلق لكم من انفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة »[2] •

ثامنا ـ انخفاض نسبة الخلع والتنازل فكانت المرأة تتنازل عن حقها للزوج وفي بعض الاحيان تدفع أموالا مقابل حصولها على الطلاق أما الآن فلا حاجة لذلك ما زال هنالك تفريق للضرر •

تاسعا ـ تخفيف حدة قسوة بعض الرجال .

عاشـرا ـ تغيير في الادوار الاجتماعية للاسرة .

يتوقع أن يزداد بنسبة عالية مساهمة المرأة في الحياة الانمائية ، في الانماء الاقتصادي والاجتماعي ، وكذلك تزيد من ثقافتها فتتعلم وتتطور كما يصاحب ذلك انتشار دور الحضانة التي تمكن المرأة من العمل • ولما كانت المرأة حاليا تقوم بأدوار متعددة داخل الاسرة وخارجها فرضتها عليها طبيعـة التطور الاقتصادي والاجتماعي في القطر هذه العوامل تدفع الاسرة الى اعادة النظر في الواجبات الاسرية ومساهمة الرجل بدرجة اكبر من ذي قبل وبذلك تتحقق العدالة الاجتماعية •

الحادية عشرة ـ ازدياد مساهمة النشء في المؤسسات الاجتماعية كمراكز رعاية الشباب واشراكهم في الحياة الاجتماعية للمجتمع •

الثانية عشرة ـ تخطيط الاسرة •

فالاسرة المتطورة المتفاهمة تخطط عدد الاطفال الذين ترغب في انجابهم وتخطط ميزانيتها وتحدد مسؤولياتها تجاه الاسرة والمجتمع •

---

(١) سورة النساء آية ١٩

(٢) سورة الروم آية ٢١ .

مستلزمات تنفيذ ونجاح هذا التشريع : ـ

لضمان نجاح هذا التشريع يتطلب مايلي : ـ

أولا ـ تأسيس مكاتب خدمة اجتماعية تلحق بالمحاكم الشرعية كافة لتتولى توجيه الاسرة قبل الزواج وعند الزواج ورعايتها بعد الزواج وقبل تعميق المشاكل والمساعدة على حل مشاكل الاضطرابات الاسرية قبل تصدع الاسرة •

ثانيا ـ ادخال تدريس مادة الاسرة ووظائفها في المدارس الثانوية •

ثالثا ـ توعية المواطنين باستخدام كافة وسائل الاعلام والثقافة بتثبيت الطرق السليمة الديمقراطية في التعامل داخل الاسرة • وتقديم ندوات توعية متلاحقة وعرض التمثيليات القصيرة الهادفة مع منع عرض التمثيليات التي تنال من مكانة المرأة ومركزها القانوني الجديد •

رابعا ـ التوجيه لاستخدام اساليب التنشئة الاجتماعية السليمة بعدم التمييز بين تنشئة الذكر والانثى •

وخلاصة البحث ان التنمية القومية بشقيها التنمية الاقتصادية والتنمية الاجتماعية متكاملة وقد سبق في العراق الانماء الاقتصادي الانماء الاجتماعي لذا كان هنالك تخلف ثقافي انعكس على التنمية الاقتصادية • والتخلف الثقافي يعني ان الحضارة (الثقافة) وما يسمى بالانكليزية Culture قد تطورت ماديا فقط أما الجانب المعنوي فقد اعاقته القيم والتقاليد والاعراف الاقطاعية المتزمتة • فشخّص الحزب والثورة هذا التخلف واتجهت استراتيجيات التنمية الى معالجة التعليم ومكافحة الامية وتطوير المواصلات واقامة مشاريع السكن وعمت الثورة الزراعية الريف العراقي وكان لابد من شمول الثورة للنظم القانونية المتكاملة واصدرت مجموعة من القوانين التقدمية الاشتراكية لتنظيم علاقات العمل والعلاقات الاجتماعية ثم جاء التعديل الثاني لقانون الاحوال الشخصية ايمانا من الثورة والحزب بانسانية هذا التشريع ولما له من أثر فعال في تغيير العلاقات الاجتماعية داخل الاسرة والمجتمع لتحقيق توازن النظم الاجتماعية المتفاعلة • **وبذلك تحققت النقلة الحضارية للمرأة والاسرة والمجتمع •**

الخاتمـة :

ان هذه النقلة الحضارية جاءت انجازا مضافا الى المنجزات والمكاسب التي حققتها الثورة في مجالات التنمية الشاملة اقتصاديا واجتماعيا وستعمل على دفع عملية البناء المتكامل للمجتمع الاشتراكي المتحرر من كل قيد من قيود التخلف تحقيقا لمبادئ الحزب وايديولوجيته حيث ستسهم المرأة المتحررة اسهاما كاملا ملتزما في اعادة البناء الاجتماعي على اسس اشتراكية تقدمية متحررة من الخوف والشكوك وعدم الثقة بقدراتها .

لقد جاءت التشريعات التقدمية منسجمة مع المفاهيم الانسانية للحزب ومتفاعلة مع التغيرات الاقتصادية والاجتماعية ومكملة لها . حيث لا بد من تغيير العلاقات التقليدية وانماط العلاقات الاجتماعية البالية التي سادت المجتمع الاقطاعي المتمركز في الريف العراقي بصورة خاصة . واشاعة قيم وتقاليد جديدة وخلق مراكز متطورة تضع فيها المرأة .

ان بناء الاسرة وتوجيه الجيل يعتمد في الاساس على دور المرأة ودرجة نضجها ووعيها وتفتحها لتدرك اهمية الواجبات الوطنية والقومية ومسؤوليتها التاريخية الكبرى خصوصا في هذه المرحلة الخطيرة من المراحل التي تجتازها امتنا العربية وهي تكافح في جبهات عديدة ضد الاستعمار الصهيوني والتخلف والرجعية .

ان هذا المركز الجديد الذي حصلت عليه المرأة سيضع على عاتقها مسؤوليات كبيرة عليها ان تنهض باعبائها وتضاعف في مساهمتها في تغيير وخلق قيم ومفاهيم على اسس تقدمية تسود المجتمع وان تنشيء ابناءها بأساليب تربوية متطورة دون تمييز بين ذكر وانثى وبذلك تكون قد قدمت خدمة وطنية للاجيال الصاعدة .

وعمل الحزب على توعية الجماهير لاهمية هذا التشريع وما يهدف اليه من نتائج بعيدة المدى تنعكس على المجتمع في تغيير انماط العلاقات الاجتماعية واحلال قيم وعادات تقدمية اشتراكية في تنشئة الجيل وبناء المستقبل واسهام المرأة مساهمة فعالة جادة في اعادة بناء المجتمع . وبذلك يكون الحزب قد حقق اهدافه في بناء المجتمع الديمقراطي الاشتراكي .

المراجـع العربيـة

١ ـ د . يحيى نجار « مفهوم التنمية القومية » .

٢ ـ د . مصطفى حجازي « التخلف الاجتماعي » .

٣ ـ الثورة والقطاع الزراعي وزارة الاعلام العراقية .

٤ ـ الاعلان العالمي لحقوق الانسان .

٥ ـ التقرير السياسي لحزب البعث العربي الاشتراكي بمؤتمره القطري الثامن .

٦ ـ احمد ابو زيد « البناء الاجتماعي » .

٧ ـ السيد نائب رئيس مجلس قيادة الثورة صدام حسين «الثورة والمستقبل»

٨ ـ قانون رقم ١٢١ لسنة ١٩٧٨ قانون التعديل الثاني لقانون الاحوال الشخصية رقم ١٥١ لسنة ١٩٥٠ .

٩ ـ الميثاق الوطني ، والدستور العراقي المؤقت .

١٠ـ د. احمد الكبيسي « الاحوال الشخصية » .

١١ـ د. محمد طلعت عيسى « الخدمة الاجتماعية كأداة للتنمية » .

١٢ـ د . محمد عبد النور « المجتمع الانساني » .

١٣ـ مصطفى الخشاب « الاجتماع العائلي » .

١٤ـ سورة النساء ـ القرآن الكريم .

١٥ـ سورة البقرة ـ القرآن الكريم .

١٦ـ احمد محمد خليفة « اصول علم الاجرام الاجتماعي » .

١٧ـ د . احمد عزت راجح « علم النفس الاجتماعي » .

١٨ـ د . اكرم نشأت « علم الاجتماع الجنائي » .

١٩ـ منشورات المكتب الدولي لمكافحة الجريمة ـ الجزء الثالث .

٢٠ـ سلمان ابراهيم عبده « اضواء على مشكلة الانحراف » .

٢١ـ بحوث الكتب الدولي العربي الخاص للدفاع عن الجريمة «الاحداث في الاردن» .

٢٢ـ د . سعدي بسيسو « قضاء الاحداث علما وعملا » .

٢٣ـ محمد عارف عثمان « نقد عوامل انحراف الاحداث » مع دراسة تطبيقية للموضوع في مصر .

٢٤ـ المديرية العامة للتخطيط التربوي / قسم الاحصاء / وزارة التربية / اجتماع خبراء ومسؤولي الاحصاء التربوي في الوطن العربي ١٩٧٧ .

٢٦ـ المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية في بغداد ١٩٧٢ « بحث ظاهرة التشرد » .

٢٧ـ رسالة ماجستير صلاح عبدالمتعال « أثر العوامل الاجتماعية في تشرد الاحداث ١٩٦٤ » .

٢٨ـ رسالة ماجستير جعفر عبدالامير « أثر التفكك العائلي في الاحداث » .

٢٩ـ الخطة الخمسية للتنمية القومية ١٩٧٦ ـ ١٩٨٠ بغداد ١٩٧٥ .

المراجع الاجنبية

1. Sheldon and Elenor T. Glueck :
"Unraveling Juvenile Delinquency."

2. M. C. Elmer : "Family Adjustment and Social Change."

3. Healy, William and Augusta F. Bronner :
"Delequents and Criminals."

4. Nye, Iven :
"Family Relationships and Delequent Behavior."

5. Tappan, Paul :
"Juvenile Delinquency."

أمارة آل زريع بعدن (٤٧٦ـ٥٦٩)

عدن(١)

الدكتورة فضيلة الشامي
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

اصل تسميتها واهميتها الجغرافية

عدن منطقة مهمة من المناطق الجنوبية الغربية للجزيرة العربية ، وكانت قديما من مدن اليمن ، وقد اتخذها آل زريع مقرا لامارتهم ، ولهذه المنطقة اهمية جغرافية وستراتيجية وتاريخية منذ اقدم الازمان • ولو تتبعنا اهميتها الجغرافية لما لها من تأثير كبير على سيرها التاريخي نجد انها تعد من امنع المناطق الجنوبية قاطبة بحكم موقعها على ساحل البحر في الجنوب الغربي من الجزيرة العربية •

اما اصل تسميتها بهذا الاسم فهناك روايات متضاربة في ذلك فالطبري[٢] مثلا يرى ان عدن بن عدنان هو صاحب عدن واليه تنسب ، وان اهلها كانوا ولده • اما ياقوت الحموي[٣] فيريد من قولهم عدن بالمكان اذا اقام به ، وبذلك سميت عدن ، وان اهل السير يقولون : سميت بعدن بن سنان بن ابراهيم ، وكان اول من نزلها • اما ابن المجاور[٤] فيقول : انها ما يقال سميت عدن الا بعدنان لما بناها على اسم ابنه عدن وما اشتق عدن الا من عاد يقال اول من حبس بها رجل يقال له عدن فسميت به والزبيدى[٥] يفسر قول ابن الكلبي عن بعض النسابين بانها سميت عدن بن سبا بن تفثان بن ابراهيم وهو

---

(١) عدن عند الاغريق تسمى Adana او Athana
Encyclopiada of Islam Vol. 1. p. 131 (Aden)

(٢) تاريخ الرسل والملوك جـ٢ ص ٢٧٠

(٣) معجم البلدان م ٣ ص ٦٣١

(٤) تاريخ المستبصر اوصفه بلاد اليمن ص ١١٠

(٥) تاج العروس جـ ٩ ص ٢٧٥

اول من نزلها، وروى ايضا عن وهب بن منبه ان الحبشة عبرت بسفنهم فخرجوا في عدن فقالوا : عددنا . فسميت عدن بذلك وتفسيره خرجنا[٦] .

ولو لاحظنا في جغرافية عدن نجد انها محاطة بالجبال مثل سور حولها[٧].

ولكن رغم ذلك فانها كانت تشح فيها المياه العذبة لذا كانوا يتزودون من عيون قريبة منها فتزودهم بالمياه العذبة . كما ان المراعي نتيجة لذلك كانت تنقصها ايضا[٨] . ونظرا لطبيعتها الجبلية فانها تشتهر بالمعادن ومنها الحديد كما تشتهر باللؤلؤ[٩] ، ويؤكد ذلك ابن المجاور[١٠] فيقول : ما اشتق اسم عدن الا من المعدن وهو معدن الحديد ولو حققنا في وضعها الجغرافي قديما نجد ان اغلب الجغرافيين يؤكدون بانه كان من بحر القلزم (بحر الاحمر) الى ما وراء سقطرا كله بر واحد متصل ، حتى جاء ذو القرنين ففتح خليجا في البحر فجرى البحر فيه الى ان وقف على جبل باب المندب ، فبقيت عدن في البحر وهو مستدير حولها[١١] .

وتحيط بعدن التلال الرملية المسماة بالاحقاف خصوصا ما بينها وبين حضرموت ، وقد سكنتها قبيلة عاد[١٢] . اما سكانها قديما فكانوا صيادين

---

(٦) يافرث : معجم البلدان م٣ ص٩٣
(٧) ابو الفداء : تقويم البلدان ص ٩٣
(٨) البغدادي : مراصد الاطلاع جـ٢ ص ٩٢٣
(٩) الاصطخري / المسالك والممالك ص ٢٦
(١٠) المستبصر ص ١١٠
(١١) المصدر السابق ص ١٠٦ (وكانت جزيرة سقطرا قريبة من الجبل وهي جزيرة كبيرة فيها عدة مدن وقرى توازي عدن . وكان اهل عدن يجلبون منها الصبر ودم الاخوين) والصبر صمغ شجر لا يوجد الا في هذه الجزيرة . القزويني : آثار البلاد واخبار العباد ص ٨٢ .
(١٢) ويؤكد القزويني ان عاد اعمر بلاد الله واكثرها عمارة وزرعا وشجرا ، فلما سلط الله عليها الريح طمتها بالرمل وهي الآن تحت الاحقاف ، وبها قصران من قصور عاد ، وان معاوية لما بعث عبدالرحمن بن الحكم الى اليمن واليا بلغه ان بساحل عدن قصرين من قصور عاد وان في نجدها كنز ، فطمع فيه وذهب في مائة فارس الى ساحل عدن الى قرب القصرين فراى ما حولها سباخا بها آثار الآبار ورآى قصرا مبنيا بالصخر والكلس وعلى بعض ابوابه صخرة عظيمة بيضاء . آثار البلاد ص ٦٦

يصيدون في البحر الجنوبي وكانت مساكنهم خالية من السكان والبنيان ايضا . وزراعتها قليلة ذات اشجار عالية وذات اشواك . وكان لعدن عدة ابواب[١٣] . منها باب البحر وباب البر ويعرف بباب الساقيتين ، ويروى ان اول من فتح الباب شداد بن عاد لما بني ارم ذات العماد في صحارى عدن ، فقد امر ان ينقب له باب في صدر الوادي فنقب فجعل شداد بن عاد عدن سجنا لمن يغضب عليه ولم تزل سجنا حتى زوال دولة الفراعنة حكام مصر القدماء ، وكذلك كانت التبابعة باليمن تتخذها سجنا[١٤] .

وتأتي اهمية عدن من كونها منطقة تجارية منذ اقدم الازمان ، اذ كانت في عهد التبابعة مركزا للتجارة[١٥] . كما ان تجار الهند والحجاز ينزلون بها ويجتمعون فيها[١٦] وفي ابين وهي مخلافها[١٧] . بالاضافة الى ذلك فانها كانت تعد سوقا مهما من اسواق العرب مثل مكة والجند ونجران[١٨] ، وكانت مراسي السفن فيها بينها وبين عيذاب[١٩] ولم تقتصر تجارتها مع الهند بل كانت تتاجر مع الصين ايضا ، لذلك اطلق عليها المؤرخون فيما بعد بـ (دهليز

---

(١٣) يصف الهمداني باب عدن فيقول : وهو شطر مقطوع كان محيطا بموضع عدن من الساحل فلم يكن له طريق في الجبل الى البر الا للرجل لمن ركب ظهر الجبل فقطع في الجبل باب مبلغ عرض الجبل حتى سلكه الدواب والحمائل والمحافل والجفات . صفة بلاد العرب ص ١٩٠ .

(١٤) أبو مخرمة : ثغر عدن ق ٢ ص١٥ والتبابعة من ولد صفي بن سبأ بن كعب ابن زيد . ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص٤١١

(١٥) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٨١٤

(١٦) البغدادي : مراصد الاطلاع ص ٩٢٣

(١٧) الحموي : معجم البلدان جـ ٣ ص ٦٣١

(١٨) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ١٧٩

(١٩) يصف ابو الفتح نصر الله بن فلاقس الاسكندري في قصيدة لهذه المراسي يردها ياقوت في معجم البلدان جـ١ ص ٤٧١

فنقا مشاتيري فصهريجي دسا   فخراب باضع وهي كالمعمورة

الصين)[٢٠] كما ان تجارتها كانت تذهب الى مصر عند قوص[٢١] التي تعد محط التجار القادمين من عدن ٠

ويشتهر اهل عدن بالكرم ، ويؤكد الزبيدي[٢٢] انها كانت مقر كل فضل مستحسن ٠ كما يلاحظ ان ثيابها نظرا لذلك توصف بالثياب العدنيات الكريمة اي ثياب ثرية نسبة لعدن وتجاور عدن مدن مهمة مثل صنعاء التي تبعد عنها ثمانية وستون فرسخا ٠ وذمار بينها سبع سكك[٢٣] وابين التي يطلق عليها الآن اسم عدن ابين[٢٤] وهناك منيف لحج وهو حصن قرب عدن ويريك في طريق عدن وترن بين مكة وعدن ٠ وهناك مناطق اخرى تجاور عدن مثل بربوة وحضرموت والحيق وخلة قرب عدن والدثينة والزعازع وباضع وبانقيا[٢٥] واجياد[٢٦] وفي عدن مراسي في وادي برهوت وفيه بئر تسمى

---

(٢٠) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر ص ١٩٣ ٠

(٢١) قوص مدينة قديمة كبيرة عظيمة واسعة قصبة بينها وبين الفسطاط اثنى عشر يوما ، اوهلها ارباب ثروه واسعة. ياقوت: معجم البلدان جـ٤ ص٢٠١

(٢٢) تاج العروس جـ ٩ ص ١٧٥

(٢٣) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص ١٤٣

(٢٤) ابين مدينة تقع على ساحل البحر بلد حط واقلاع لمراكب الهند ، وهي بلده تجارية ابو الفداء : تقويم البلدان ص ٩٣ ٠ وزعم بعضهم ان صاحبها ابين واليه تنسب وان اهلها كانوا ولده فدرجوا ٠ الطبري : تاريخ الرسل والملوك جـ ١ ص ١٧٠

(٢٥) ذكر الاعشى بانقيا فقال :

قد سرت ما بين بانقيا الى عدن ... وطال في العجم تكراري وتسياري

(ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٤٨٣)

(٢٦) قال عمر بن ابي ربيعه في اجياد :

هيهات من امة الرهاب منزلنا ... لما نزلنا بسيف البحر من عدن

وجاوزت اهل اجياد فليس لنا ... منها سوى الشوق او حظ من الحزن

البئر المعطله[٢٧] وبئر احمد بن المسيب والمقدم وحلقم عود السلطانية وبئر على بن ابي الغارات قديمة ، وغيرها اوقفت على المسلمين[٢٨] . اما سكانها فيزعمون انهم من نسل هارون (ع) ويسمون المربون . اما جبالها ففيها جبل يسمى جبل النار وهو جبل احمر اللون جدا في وسط البحر ، وجبل حريز او ذو وراس بني عليه حصن يسمى الجاهلي ويقال الازلي لقدمه .والناس يصعدون الى هذا الحصن ، وقد هدم واراد عمارته الداعي سباء بن ابي احمد ابن المظفر الصليحي.ويقول غيرهم انه الداعي سباء بن ابي السعود بن الزريع بن العباس بن الكرم ، وجبل مدور[٢٩] .

وكانت عدن مسورة[٣٠] ، ويقال عن سبب تسويرها ان آل زريع امروا بمد سور من حصن الخضراء الى جبل حقات ، فلما هدم ادير عليه سور من القصب ، وبقي هكذا حتى دخل توران شاه الايوبي الى عدن واناب عنه عثمان الزنجيلي التكريتي فادار سورا على سور الدائرة على جبل الخضراء وابتداء به من حصن الخضراء الى حصن التعكر على رأس الجبال[٣١] .

---

(٢٧) يذكر القزويني في آثار البلاد ص ١٠١ كما ورد في القرآن الكريم أن قوم صالح (ع) بعد وفاته تفرقوا في فلسطين فلحقت فرقة منهم بعدن وكانوا اذا حبس عنهم المطر عطشوا حملوا الماء من ارض بعيدة فاعطاهم الله بئرا فتعجبوا بها ، وبنوا عليها اركانا على عدد القبائل ، كان لكل قبيلة فيها دلو .

(٢٨) ابن المجاور : المستبصر او صفة بلاد اليمن ص١٣٠

(٢٩) ويسمى جبل طيب ويصح دوره ثلاثة ايام ، وفيه انشدت شمس النهار ابنة احمد بن سبأ بن أبي السعود تقول :
عاتبتني فقالت : كيف طاب لك الناءي وخليت الوطن
بترك الحبيب حبيبة وبطلب الاقامة في عدن
(ابن المجاور : المستبصر ص١٥٦).

(٣٠) ابو مخرمة : ثغر عدن ق ٢ ص ٩

(٣١) المصدر السابق ص ١٤

اما اشهر دورها ففيها ما يسمى بدار السعادة ، وقد بناها سيف الاسلام طغتكين بن ايوب من جهة حقات في عدن[٣٢] .

مكانة عدن في التاريخ

مما لا ريب فيه ان لعدن مكانة تاريخية منذ القدم ، اذ كان لها دور بارز في مجرى التاريخ . وفي رواية يسردها ابن الاثير[٣٣] ان قابيل لما قتل اخاه هابيل عند عقبة حراء نزل من الجبل آخذا بيد اخته فهرب بها الى عدن من اليمن . وفي رواية طريفة اخرى ان بلقيس ابنة الجن حينما خطبها سليمان منحه ملك الجن مقابل اعفائه عنهم من ساحل البحر ما بين يبرين الى عدن[٣٤] وكانت عدن تابعة الى دولة الفراعنة ، ولما انقضت دولتهم هدم مكانهم بزوال دولتهم فسكنها صيادون كانوا يصيدون في البحر الجنوبي الغربي الى ان قدم اليها اهل جزيرة القمر فملكوها واخرجوا الصيادين قهرا ، وسكنوا على ذروة الجبل الاحمر وحقات وجبل المنظر[٣٥] .

والواقع انه استولى على هذه المنطقة فيما بعد ملوك منذ قديم الزمان ، حيث سلطوا مياه البحر على جوانبها وبقيت هي جزيرة والبحر محيط بها من جميع الجوانب ، وانها بذلك عرفت ببحيرة الاعاجم[٣٦] .

ونظرا لاهميتها الاستراتيجية فقد حط بها ارياط الحبشي بجيش كبير حيث سلطوا مياه البحر على جوانبها وبقيت هي جزيرة والبحر محيط بها في اليمن ، فحاربه ثم قتل ذي نؤاس ودخل صنعاء[٣٧] . كما نزل بساحلها

(٣٢) المصدر السابق ص ٩

(٣٣) الكامل جـ ١ ص ٤٤ .

(٣٤) المصدر السابق ص ٢٣١ .

(٣٥) ابن المجاور : المستبصر ص ١١٦

(٣٦) ابو مخرمة : ثغر عدن ص ٨

(٣٧) الدينوري : الاخبار الطوال ص ٦٢

أيضا الاسكندر المقدوني حينما وصل الى اليمن من السودان فخرج اليه تبع الافران[٣٨] ملك اليمن فاذن له والطف له من الطاف اليمن • حيث اقام بها شهرا ثم توجه منها الى تهامة •

ومن الجدير بالذكر انها كانت تعد محبسا في عهد شداد بن عاد لمن يغضب عنهم ، ولم تزل حتى آخر دولة الفراعنة ، كما ان التبابعة باليمن كانت تسجن بها ، ويقال ان اول من سجن بها رجل يسمى عدن فسميت المنطقة به[٣٩] •

والحقيقة ان اهميتها ظهرت ايضا في العصر الاسلامي باتخاذها مقرا لبعض الشخصيات التاريخية وكان اول من تولاها في الاسلام ابو موسى الاشعري حينما ارسله الرسول الكريم محمد (ص) عاملا عليها وعلى زبيد ورمع والساحل[٤٠] • ونظرا لبعدها عن مركز الخلافة العباسية ووعورة اراضيها فانها غدت بمعزل عن المشاكل السياسية والحروب الخارجية • وقد اختفى بها محمد (النفس الزكية) واخوه ابراهيم في عهد الخليفة العباسي المنصور قبل مقدمه الى الحج ، اذ اتيا عدن ثم سارا منها الى السند ، وبعدها قدما الى الكوفة ثم الى المدينة[٤١] • ، وذلك عام اربع واربعين ومائة للهجرة •

والواقع ان اهميتها برزت اكثر حينما استقر بها ابو عبدالله الحسين بن احمد بن محمد بن زكريا الشيعي ومعه ابن حوشب رستم بن الحسين بن فرج بن زادان النجار[٤٢]، واصبح من كبار اصحابه، ودعا الناس فيها الى دعوته، وكان

---

(٣٨) تبع هو تبان اسعد بن كرب بن ملكي كرب تبع بن زيد بن همر بن تبع وهو ذو الاذعان بن ابرهة تبع ذي المنار بن الرائس بن قيس بن صيفي بن سبأ يقال له الرائد . الطبري : تاريخ الرسل جـ١ ص ٥٦٦

(٣٩) ابو مخرمة : ثغر عدن ص ١٥

(٤٠) البلاذري : فتوح البلدان جـ١ ص ٨٣

(٤١) ابن الاثير : الكامل جـ٥ ص ٥١٧ .

(٤٢) ابن الاثير : الكامل جـ ٨ ص ٣١

هذا مشهورا بالعلم والدهاء والمعرفة ، وهما من مؤسسي الدولة الفاطمية في شمال افريقيا وفي اليمن • وبفضل ابن حوشب ظهرت القرامطة في اليمن ، حيث ارسل احمد بن القداح محمد بن الفضل الجدعني الى ابن حوشب في كربلاء وسيرهما الى اليمن ليدعوا الناس الى المهدى الاسماعيلي • فسار ابن حوشب الى اليمن ونزل في عدن قرب قوم من الشيعة يعرفون ببني موسى ، وقد اخذ في بيع ما عنده ، وقد التف بنو موسى حوله واصبحوا من اتباعه[٤٣] بعد ان آمنوا به •

وهكذا نجد ان عدن لعبت دورا كبيرا في الدعوة الاسماعيلية اذ أنفذوا منها الى المغرب الحلواني وابا سفيان لينشرا فكرة الدعوة الاسماعيلية هناك[٤٤] •

اما في عهد الخليفة المأمون فقد اصبحت عدن تابعة لليمن حينما جعل المأمون محمد بن زياد واليا على اليمن باسره ، ولكن ابن زياد استغل ظروف بعد اليمن عن مركز الخلافة العباسية[٤٥] فكون دولة مستقلة هناك سميت بالدولة الزيادية او بنو زياد • ولكن على الرغم من كونها مستقلة الا انها بقيت موالية للعباسيين ، وقد اتخذت زبيد عاصمة لها • كما مدت سيطرتها على حضرموت وعدن ونجران • اضافة الى ذلك اخذت القبائل الاخرى تخضع لها فامنت الطرق وتردد الناس الى عدن من الجبال والتهائم ، وكذلك اصبحت لهم نواب في بقية المناطق الاخرى ، كما اخذت السفن ترسي في عدن ، وهكذا نلاحظ ان عدن اصبحت اهم المناطق الموالية لبني زياد[٤٦] •

---

(٤٣) المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ٤٠

(٤٤) المصدر السابق

(٤٥) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر ص ١٩٣

(٤٦) ابو مخرمة : ثغر عدن ص ٩

وعلى اية حال فان فترة حكم ابن زياد قد جاوز قرنين اذ امتـدت بين عامي ٢٠٤ هـ و ٤٠٢ هـ • كان خاتمة حكمهم ان تقلص نفوذ عدن بعد وفاة عاملها الحسين بن سلامة مولي بني[٤٧] زياد حيث خلف ابا الجيش اسحق بن ابراهيم (آخر امرائهم) ، كما استقل تتيجة لذلك اكثر نوابها وعلى رأسهم علي بن معن الحميري في عدن مكونا دولة بني معن وذلك عام ٤٠٢ هـ ثـم ضم اليها الشحر وحضرموت ولحج وابين[٤٨] • وهكذا تأست امارة بنـي معن في عدن •

ومن الجدير بالاشارة انه تعاقب على حكم هذه الامارة بعد مؤسسها علي بن معن هما العباس ومحمد وقد عاصرت الدولة الصليحية في اليمن في عهد مؤسسها علي بن محمد الصليحي • غير ان هذا استطاع ببسالة وبكفاءة ان يمد سيطرته على معظم انحاء اليمن وعلى عدن ايضا • ولكنه مع ذلك فقد ابقاها بايدي اصحابها بني معن شريطة ان يدفعوا لهم ضريبة سنوية مقابل ذلك• ولكن بني معن طمعوا في الاستقلال مستغلين مقتل مؤسس الدولة الصليحية علي وعصوا عن دفع الضريبة المفروضة عليهم • غير ان الصليحيين لم يتركوا هذا القرار اذ توجه احمد بن علي الصليحي (المكرم) صاحب البلاد عـلى رأس جيش كبير استطاع ان يعيد فتحها ويزيح عنها بني معن ، ويهرب اميرها محمد بن معن الى منطقة احور •

---

(٤٧) كان الحسين بن سلامة من عبيد رشيد ورشيد هذا كان استاذ حبشي عبد لابي الجيش آخر امراء بني زياد ، وهو وصيف من اولاد النوبة جنوب مصر . وكان الحسين بن سلامة حازما فلما مات مولاه رشيد وزر لابـي الجيش ، تضعضعت دولتهم فتغلب ولاة الحصون على ما في ايديهم . ولقد اهتم الحسين بانشاء الجوامع وقد اتصلت عمارة الجوامع مابين عدن ولحج ويقال ان المسافة بين كل جامع وآخر عشرون مرحلة ، وفي كل مرحلة مأذنة وبئر ، كما جدد ايضا جامع عمر بن عبدالعزيز . عمارة : تاريـخ اليمن ص ٤٠ ــ ٤١

(٤٨) حسين الهمداني : الصليحيون ص ٥٩٣ ، الحداد : تاريخ اليمن السياسي ص ٢١٧

بعد ان تغلب احمد الصليحي على عدن قسمها الى منطقتين لآل زريع من بني الكرم اي بين العباس ومسعود ولدى الكرم الجشمي اليامي الهمداني وذلك عام ٤٧٦هـ فجعل حصة العباس تعكر عدن(٤٩) وهو بحوز البر والباب وحصة مسعود حصن الخضراء وهو بجوار الساحل والمراكب ومن المعروف ان هذين كانا من اقطاب المذهب الاسماعيلي ، وقد ساهما فى قيام الدعوة الفاطمية منذ عهد الداعي على الصليحي . ثم استمرا في ولائهما في عهد ابنه احمد المكرم ايضا(٥٠) .

وهكذا نلاحظ ان عدن انتقلت من حكم بني معن الى حكم آل زريع . ومن الجدير بالاشارة ان عدن كانت صداقا للملكة اروى زوجة المكرم بعد زواجها منه اذ جعلها والده هكذا وذلك عام ثمان وخمسين واربعمائة للهجرة(٥١) ، كما ان والدها كان قبل ذلك سفيرا له عليها اذ انهدم عليه داره فمات فيها(٥٢) .

ولقد اتفق المؤرخون على الضريبة المفروضة على عدن من قبل الزريعيين بلغت مائة الف دينار(٥٣) وهذا مما يدلنا على نشاطها الاقتصادي في تلك الفترة .

اما آل زريع امراء عدن الجدد فانهم في الاصل ينتسبون الى قبيلة همدان من جشم بن يام بن اصبى(٥٤) ، ويعرفون ايضا بآل الذئب(٥٥) .

---

(٤٩) تعكر هو احد جبال عدن الى اليسار للقادم من الباب الى المدينة ، ويطلق على هذا الجبل اسم سلسلة المنصوري . حمزة : تاريخ عدن ص٥١ .

(٥٠) حمزه : تاريخ عدن ص ٤٥

(٥١) عمارة : تاريخ اليمن ص ٨١

(٥٢) الحمادي : كشف اسرار الباطنية ص ٤٣

(٥٣) ابن المجاور المستبصر ١٢١

(٥٤) زريع بطن من بطون همدان من القحطانية . عمر كحاله : معجم القبائل العربية القديمة والحديثة جـ ٢ ص ٤٧٠

(٥٥) أبو الفداء : المختصر في اخبار البشر جـ ٢ ص ١٨٢ .

والواقع ان ملوك آل زريع لقوا صعابا كثيرة حتى توطد ملكهم في عدن ، فاصبحت دولتهم من امنع الولايات في اليمن بعد دولة الصليحيين ولما توفى العباس خلفه ابنه زريع على نفس المناطق السابقة وبقى عمه مسعود على منطقته ايضا وهم يحملون المال المقرر الى الصليحيين دون تلكوء . ومما لا شك فيه ان زريع كان يتميز بالشجاعة اذ استطاع ان يمد سيطرته على مناطق واسعة خارج عدن في ناحية الصلو[٥٦] ، كما ضم اليه الدملو ايضا[٥٧] . غير ان زريع سرعان ما قتل مع عمه مسعود وهما يقاتلان في زبيد حينما استعانت بهما الملكة اروى لمحاربة سعيد الاحوال الذي قتل علي الصليحي من قبل وذلك لمساعدة وزيرها المفضل بن ابي البركات[٥٨] . وعلى اية حال فقد انتقل الامر بعدهما الى ابو السعود بن زريع وابو الغارات بن مسعود كل في منطقته المثبتة[٥٩] ، غير ان هؤلاء اختلفا عمن سبقهما اذ اعلنا انفصال عدن وتوابعها عن الصليحيين ، كما امتنعا عن دفع الضريبة الى السيدة اروى حاكمة اليمن انذاك . وعلى هذا نلاحظ ان اروى تسارع بارسال قائدها المفضل اليهما بجيش كبير ، يرغمهما على المصالحة بدفع النصف من المبلغ ثم يقلص الى الربع فيما بعد ، ولما مات وزيرها المفضل امتنعا نهائيا عن دفع الضريبة عدا الربع ، لذلك اضطرت اروى

---

(٥٦) الصلو تسمى ارض المعافر الحجرية . الحداد : تاريخ اليمن السياسي ص٧٦

(٥٧) الدملوه حصن عظيم باليمن . ياقوت : معجم البلدان جـ ٢ ص ٥٩٩٨ ، وسمى الدملوه لدوام مكث طالبيه تحته على اخذه . ابن المجاور : المستبصر ص ١٥٤

(٥٨) ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر جـ٢ ص ١٨٢

(٥٩) الشماخي : اليمن الانسان والحضارة ص ١١٦ ، ويمدح الشاعر محمد بن زياد المازني ابا السعود قوله :

يا ناظري قل هل تراه كما هو
اني لا حسبه تقمص لؤلؤة
ما ان نظرت بزاخر في شامخ
حتى رايتك جالسا في الدملوه

العقيلي : المخلاف السليماني ص ١٥٥

ان توجه اليهما اسعد بن ابي الفتوح (ابن عم المفضل)[٦٠] ولكن لم يستطع هذا ان يحصل شيئا وذلك لموت اكثر رجالها في الحروب مع بني نجاح في زبيد[٦١] • وهكذا نجد ان الاوضاع تستقر في عدن ، ولم تحدث فيها مشاكل ولم تتهددها مخاطر تذكر وتهديدات خارجية خصوصا وان قائد الملكة اروى الجديد ابن نجيب الدولة قد ابعد عنها الى الديار المصرية[٦٢] بعد خلافه معها •

الخلافات الداخلية في عدن

في الواقع ان الاوضاع في عدن لم تدم مستقـرة ، اذ انه بعد وفاة ابو السعود سنة ٤٨٥ هـ يتولى سباء ابنه الامارة في منطقة والده ، كما ان الملكة اروى لم تتعرض اليه مطلقا ويقال انها هي التي ايدته كما ايده زوجها سبأ بن المظفر الصليحي ، حتى انه لقب بالداعي[٦٣] لانه لم يكن حاكما سياسيا بل اصبح داعيا للمذهب الفاطمي في عدن ايضا لانه كان مواليا لدعوتهم في تلك البقـاع •

ومن الجدير بالملاحظة ان سبأ كان من الامراء الاقوياء ايضا اذ تمكن ان يمد سيطرته على سامع ومطران ويمن وذبحان وبعض المعافر[٦٤] وضمها الى التعكر وباب البر والدملوه • اما ابو الغارات فقد توفى وترك ابنه محمد من بعده في منطقته ، وفي عهد هذين الاميرين ينشب الخلاف بين الاقرباء ويتعاظم الامر بينهما ويصطدما بحرب يفسد الاستقرار في البلاد ولعل توسع سبأ يلعب دورا في الخلاف ومهما يكن فان الصراع الداخلي يتوقف بعض الوقت بوفاة محمد الزريعي وتولية اخيه علي الامر ، لكن هذا لم يدم طويلا اذ سرعان مـا يستانف في العائلة الواحدة بعد ان كان قد زرع في عهد سلفهما • والواقع ان

---

(٦٠) ابن المجاور : المستبصر ص ٨٢
(٦١) عمارة : تاريخ اليمن ص ٨٢
(٦٢) اليماني : تاريخ اليمن ص ٦٠
(٦٣) العرشي : بلوغ المرام في شرح مسك الختام ص ٢٨ .
(٦٤) حسن سليمان : تاريخ اليمن السياسي ص ٢٢٤

سوء التوزيع في الاراضي وفقدان التوازن بينهما بحيث شعر علي بن ابي الغارات بالغبن من ذلك التقسيم لانه يعطي لسبأ نصيب اكثر منه سواء في المساحة أو في السلطة وفي المدخول ايضا ومن هنا يحصل الخلاف بينهما ، اضافة الى ذلك ان نواب علي كانوا قد افسدوا في البلاد واساءوا التصرف فيها . اما سبأ فانه لم يعر الامر اهمية فكان مهتما بجمع الاموال وادخارها سرا ، ولعله قصد من ذلك ان يكشف للناس اعمالهم . ولم يكتف هكذا اذ اخذ وكلاء علي في تلفيق الاقاويل حول سبأ وفي ذمه[٦٥] .

ولقد توسع الخلاف بينهما اكثر حينما اخذ احمد بن عتاب الهذلي وكيل سبأ في جمع مدخوله ولكنه اغاضه ابو القاسم حينما استولى على مدخوله قسرا ، ولم ينته الامر بسرعة بل توسع اكثر وخاصة حينما اخذ علي باقناع ابن عمه سبأ ان يرفع يده عن بعض المناطق في عدن دون جدوى ، وهكذا استعد الطرفان للقتال ، وتهيأ كل منهما من جهته ، وعلى اية حال فقد ترك سبأ عدن متوجها الى الدملوه تاركا قائده بلال بن جرير المحمدي نائبا عنه في عدن ، وامره ان يستعد للقتال[٦٦] . كما جمع له قوات من همدان ومذحج وعنس وخولان وحمير ونازل القوم بوادي لحج ونزل بـ ابه[٦٧] .

اما على بن ابن الغارات فانه نزل ومعه عمه منيع بن مسعود فى قرية تسمى الرعارع او الزعازع ثم بدأت الحرب بينهما واقتتلا اشد القتال[٦٨] وقد

---

(٦٥) حمزة : تاريخ عدن ص ٤٨

(٦٦) المصدر السابق

(٦٧) بليدة باليمن ينسب اليها محمد بن عبدالله بن الحسن بن الفياض الهاشمي. الزبيدي تاج العروس جـ ٢ ص ١٤٣

(٦٨) ابو مخرمة : ثغر عدن ص ٨٧ ، ويروى عن الداعي محمد بن سبأ انه قال: كنت في طلائع خيل الداعي سبأ فواجهنا علي بن أبي الغارات وعمه منيع، ولم تحمل الخيل افرس منها يومئذ ولا اشجع فقال له منيع : يا صبي قل لابيك يثبت فلا بد العشية من تقبيل الجشميات اللاتي في مضربه . فأخبرت والدي بذلك فركب بنفسه وقال لمن حضر من بني عمه ان العرب المستأجرة لا تصبر على حر الطعان ولا تمسك الثور الا فرت فالقوا بني عمكم بأنفسكم والا فهي الهزيمة والعار .

دام النزاع قرابة سنتين انهكت خلالهما ميزانية سبأ فاقترض اموالا كثيرة من تجار عدن منهم الشريف ابو الحسن محمد بن ابي العمري (وهو من ولد عمر بن الخطاب)،ومن الشيخ ابو علي محمد وابن اعين وظافر بن فراع وغيرهم • وعلى اية حال فقد انتصر سبأ على غريمه وهرب على نحو صهيب وتحصن في حصنيها منيف والجبلة اما سبأ فانه يستولي على الرعارع ويطمن وزيره بلال الذي يقدم اليه بجيشه ويلتقي الطرفان بعد ان كان بلال قد استولى على الخضراء ، وينزل ام على بن ابي الغارات بهجمة من هذا الحصن الذي كانت تسكنه ، كما يصادر اموالها وحلاها •

التطورات السياسية في عدن

وهكذا تنقضي الحرب بين علي بن ابي الغارات وبين سبأ ثم يستقر سبأ في عدن بعد ان كان يعيش في الدملوه ، وفي خلال ذلك قامت قواته بالاستعداد لمواجهة جيش بني نجاح في زبيد ، اذ حصل خلاف داخلي في زبيد حول السلطة بعد ان اصبح الملك الصغير فاتك بن منصور بن فاتك بن جياش بن نجاح لعبة بايدي عبيده امثال من الله الفاتكي وسرور القائد حتى اخذ العبيد يستاثرون بالسلطة ، والقضاء على وزيره مفلح الفاتكي فدبر سرور مؤامرة لاخراج مفلح من زبيد بجيش مجهز نحو عدن وذلك لابعاده عن البلاد ولكن المؤامرة لم تنجح اذ لم يكد يبتعد مفلح عن زبيد حتى وصلته الانباء بقيام محمد بن فاتح بن جياش بثورة ضد الملك الصغير فاتك والملكة والدته ، لذلك يضطر مفلح الى العودة الى زبيد لانقاذه تاركا عدن وهكذا فشلت المؤامرة العسكرية على عدن •

وفي عام ٥٣٢ هـ يتوفى سبأ فيدفن في التعكر ، مخلفا ولدين هما محمد وعلي الاغر الذي كان يعيش في الدملوه في الصلو باليمن[٦٩] ، ولكن هذا لم يعش طويلا بعد ان يصبح مكان ابيه في الحكم اذ كان مريضا بالسل فيتوفى بعد عامين من توليه وهو في الدملوه مخلفا اولادا اربعة وهم حاتم والعباس والمنصور والمفضل فيجعل كفالتهم الى عبده انيس الاعزى (وهو استاذ

---

(٦٩) حمزة : تاريخ عدن ص ٥٢

حبشي) وعامل الدملوه ووزيره يحى بن علي ، فيسند الوصية لهم • غير ان الامور تجري عكس ذلك اذ نلاحظ ان الوزير بلال كان يميل الى اخيه محمد منذ عهد علي الاغر لانه هذا لم يكن على وفاق معه ، كما انه يفضل محمد فى الامارة بدله ، وكم حاول ازاحته عن السلطة دون جدوى ، وقيل انه حتى علي دبر مؤمرة لقتله وقتل اخاه محمد لذلك هرب محمد الى تعز والتجأ عند اميرها المنصور بن المفضل بن ابي البركات •

وعلى اية حال فالذي نلاحظه ان بلال يصبح شبه مستقل في عدن مستغلا صغر اعمار اولاد علي الاغر لذلك لم يقبل الخضوع لهم ، بل الاكثر من ذلك ارسل وفدا من قبائل همدان الى تعز لاقناع محمد بالعودة الى عدن ، حيث وافق ولما عاد استقبله الوزير بلال استقبال الفاتحين وانزله في قصر دار المنظر المطل على ساحل حقات ، وسلم اليه مقاليد الامور ، فايدته جميع القبائل ، بالاضافة الى ذلك يزوجه ابنته حبا به كما وضع جميع امواله تحت تصرفه[٧٠] • وهكذا تستقر الامور في البلاد وتصبح عدن كلها تحت امرته •

اما علي بن ابي الغارات وعمه منيع بن مسعود فانهما بقيا في حصني منيف والجبلة[٧١] في صهيب حتى عام ٥٤٥هـ مختفيان حتى استطاع محمد على قتلهما ، كما حاصر الدملوه[٧٢] فاستولى عليها واستقر بها ، كما بقى بلال في عدن نائبا عليها من قبله • وهكذا نجد ان عدن واطرافها تصبح ملكا له ، ولم يكتف بذلك بل بلغ طموحه ان اشترى جميع المعاقل والحصون التي كانت للصليحيين من المنصور بن المفضل بن ابي البركات (ويروى ان عددها

---

(٧٠) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص ٢١٩

(٧١) يسمى منيف لحج وهو حصن قرب عدن . ياقوت : معجم البلدان جـ ٤ ص ٦٧٣ •

(٧٢) يروى ان انيس الاعزي عامل الدملوه شعر ببذور الفتنة تنمو وتزدهر في داخل القصر فقد سمع الجواري يتحدثن ويتآمرن على قتله ، وبالرغم من ان الدملوه كانت حصينة لا يسهل الدفاع عنها فقد اسرع انيس بتسليمها الى محمد بن سبأ . حمزه : تاريخ عدن ص ٥٣

كان ثمانية عشر حصنا بمائة الف دينار) ومن بينها ذي جبلة وذي اشرق وآب وجب وتعكر ، وبقي للمنصور تعز فقط[٧٣] حتى وفاته وتولية ابنه احمد الذي ترك تعز وانتقل الى الجند في مخلاف جعفر واستقر بها حتى وفاته[٧٤] .

ومن الجدير بالذكر ان محمد بن سبأ الزريعي كان مشهورا بالكرم وبالعدل اضافة الى شجاعته وفي عهده توفي الشيخ بلال بن جرير[٧٥] ، ولما قتل في عهده الخليفة الفاطمي الآمر باحكام الله بيد جماعة من النزاريه (نسبة الى نزار بن المستنصر بالله الفاطمي) وتولى الحافظ عبدالمجيد الخلافة منافسا الامام الطيب الذي كان صغيرا . كما قبض الوزير ابو علي احمد بن المفضل ازمة الامور في مصر[٧٦] . وهنا نلاحظ ان الحافظ يتقرب الى حكام عدن لعله ينال تأييدهم فيبعث القاضي احمد بن الزبير بتقليد علي الاغر الدعوة ولكنه يجده قد مات فيقلد اخاه محمد[٧٧] وهكذا يصبح محمد داعيا للدعوة الفاطمية في عدن .

ومهما يكن من امر فان محمد يتزوج ابنة علي بن عبدالله الصليحي بعد ان طلقها زوجها المنصور بن المفضل في تعز ، وقد خلف ولدا يسمى عمران تولى بعده الامارة ، ولقد عاصر محمد حاتم بن عمران اليامي حاكم صنعاء بعد ابيه

---

(٧٣) ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر ج ٢ ص ١٨٣

(٧٤) يحيى بن الحسين . غاية الاماني ق ٢ ص ٣٠٠

(٧٥) المصدر السابق ص ٢٩٧

(٧٦) يعلل بعض المؤرخين أن محمد كان يقوم بالدعوة للحافظ عبدالمجيد ويدعو له خوفا ولكنه كان باقيا على طاعة الامام الطيب . حسن سليمان : تاريخ اليمن ص ٢٢٦

(٧٧) اليماني : تاريخ اليمن ص ٦٠ ، وكان القاضي يصف محمد بن سبأ الزريعي بالداعي المعظم المتوج المكين ، ونعت وزيره الشيخ بلال بالشيخ السعيد الموفق السديد . حمزة : تاريخ عدن ص ٨٣ كما كناه بسيف امير المؤمنين . ماجد : ظهور خلافة الفاطميين في مصر ص ٢٠٦

علي بن حاتم[٧٨] ، وكان هذا ايضا من دعاة الفاطميين وقد اخذ يمده بالمال لمساعدته .

وعلى اية حال فقد توفي محمد وتولى ابنه عمران الامارة من بعده ، وكان هذا كابيه همة وعزما[٧٩] اشتهر بالشجاعة حيث استطاع ان يضم اليه قبيلة جنب ومذحج وذمار ، كما تمكن ان يصد جحافل عبدالنبي بن مهدي (حاكم زبيد) عن عدن . ومما لا شك فيه ان البلاد ازدهرت في عهده ، خصوصا بعد ان امنت الطرق من غزوات عبدالنبي الذي كان يطمع ان يستولي على عدن دون جدوى [٨٠] .

ولم تستقر الاوضاع هكذا في عدن ولم يدم فيها الاستقرار طويلا لكونها مطمع الدول الاخرى اذ نجد انه بعد وفاة عمران يحصل هجوم الايوبيين على عدن بقيادة شمس الدولة توران شاه بعد تملكهم زبيد[٨١] واقامة الخطبة للعباسيين فيها ، وتنظيمها . وحينما قدموا الى عدن جلبوا معهم حاكم زبيد الذي قاوم الايوبيين مقاومة عنيفة حينما غزو زبيد مرسلين من قبل ملك مصر صلاح الدين الايوبي ، ثم استولوا على امواله ، وقد توفي عبدالنبي في اسره بعد ذلك .

---

(٧٨) يذكر يحيى في غاية الاماني ق ٢١٩ ان الزريعيين اصحاب عدن استنجدوا بالسلطان علي بن حاتم على عبد النبي بن علي بن مهدي فقابله علي بالاكرام ووعده بالنصر على عدوه .

(٧٩) الحداد : تاريخ اليمن السياسي ص ٢٢

(٨٠) لقد كان عبد النبي يدبر لاحتلال عدن وقد قال شاعره ابن القنيني في ذلك:

ابلغ قرى تعكر ولا جرما ... ان الذي يكرهون قد وهما
وقل لجناتها سانزلها ... سيرا كأيام مأرب عرما
واشرب الخمر في ربى عدن ... والسمر والبيض في الحصيب ظما

(معجم البلدان ص ٨٥٥)

(٨١) ابن الاثير : الكامل جـ١١ ص ٣٩٧ ، ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي جـ٢ ص ١١٧ .

ولما قدم توران شاه الى عدن كان فيها اولاد عمران الثلاثة منصور ومحمد وابو السعود وقد تولى تربيتهم جوهر المعظمي[٨٢] ، اما ادارة شؤون البلاد فكانت منوطه بيد الوزير ياسر بن بلال بن جرير المحمدي[٨٣] ومن الجدير بالاشارة ان الامير عمران كان قد اقام المنبر المنصوب في جامع عدن وقد كتب عليه اسمه اما وزيره ياسر فقد كان مدبرا للدولة وقائدا محنكا ، كما انه كان شجاعا وقد مدحه[٨٤] الشاعر الاسكندري ابو الفتح نصر الله[٨٥] ، وهو يعد آخر وزراء آل زريع .

هكذا يدخل توران شاه عدن دون مقاومة تذكر فيستولي عليها ويملكها، اما جوهر المعظمي فانه يهرب باولاد الداعي عمران الزريعي الى الدملوه[٨٦] متحصنا بها ، غير ان ياسر يقتل بعد ان اسر ولم يتعرض توران شاه لجوهر

---

(٨٢) سمى جوهر المعظمي نسبة الى سيده محمد بن سبأ المعظم ، وكان واليا على حصن الدملوه من قبل الامير محمد بن سباء ، فلما توفي خلفه ابنه عمران فابقى جوهر كما هو ولما دنت وفاته اصبح وصيا على اولاده الصغار فنقلهم الى الدملوه ، وقام بتربيتهم يعاونه الوزير ياسر . (ابو مخرمة : ثغر عدن جـ ٢ ص ٤١)

(٨٣) في الواقع ان ياسر كان وزيرا لعمران ومديرا لشؤونه كما كان ابيه بلال مدبرا لشؤون الامير محمد بن سبأ (ثغر عدن جـ ٢ ص ٤١) .

(٨٤) لقد مدح الشاعر ابو الفتوح نصرالله الاسكندري الوزير ياسر حينما زار عدن بقصيدة مطلعها :

صدرنا وقد نادى المنادي بناروا فعدنا الى مغناك والعود احمد

ومنها : يا راويا عن ياسر خبرا ولم يعرفه خبرا

اقراء بغرة وجهه صحف المنى ان كنت تقرا

والثم بنان يميته وقل السلام عليك بحرا

(ابن خلكان : وفيات جـ ٥ ص ٣٨٥)

(٨٥) ابو الفتح نصر الله بن عبدالله بن مخلوف بن علي بن عبدالقوي بن قلاقس اللخمي الاسكندري الملقب القاضي الاعز الشاعر المعروف ـ ابن خلكان : وفيات جـ ٥ ص ٣٨٥)

(٨٦) ابو مخرمة : ثغر عدن ق ٢ ص ٤١

ولا الى حصنه الدملوه لانه كان مشغولا باحتلال بعض القلاع امثال قلعه تعز والتي كانت تعد من احصن القلاع[87] كما احتل قلعة التعكر والجند وجعل نوابا له في كل قلعة اما عدن فقد ترك نائبه عز الدين بن عثمان الزنجيلي ، كما وضع في زبيد مبارك بن منقذ نائبا عنه . اما الدملوه فانها بقيت تابعة للزريعيين حتى قدوم السلطان طغتكين بن ايوب[88] الذي استولى على اليمن جميعا واشترى الدملوه منه وذلك عام ٥٨٤ هـ .

وعلى اية حال فقد جاءت نهاية دولة آل زريع على يد الايوبيين اذ لم تستطع اية امارة في اليمن ان تتغلب عليها ، مما يوضح لنا مدى قوتها ومناعتها[89] ، اضافة الى شجاعة امرائها الذين لقوا صعابا كثيرة[90] حتى استطاعوا ان يوطدوا حكمهم في عدن فجعلوا منها امارة ذات كيان مستقل .

---

(٨٧) ابن الاثير جـ ١١ ص ٣٩٧

(٨٨) يروى ان جوهر حينما باع الحصن الى طغتكين اشترط ان لا ينزل من الحصن حتى تكون عائلة الامير الزريعي معه نحو البحر ، كما ان طغتكين وجد انه لم يتمكن ان ياخذ الحصن قهرا فوافق ، اما جوهر فانه بعد ان توثق من قبض المال جهز اولاد سيده الى الساحل ، ثم ركب معهم سفنا سرا بعد ان ترك له نائبا في الحصن وزوده باوراق فيها علامة يخطه اذا احتاج الى كتاب الى طغتكين كتب اليه في تلك الاوراق قصد من ذلك ان لا يكشف امره بتركه الحصن دون ان يدافع عنه ضد المحتلين . ابو مخرمة: ثغر عدن ق ٢ ص ٤١

(٨٩) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٣٩٧

(٩٠) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي جـ ٤ ص ٢١٣

المصادر والمراجع المعتمدة

١ ــ ابن الاثير : عز الدين ابي الحسن على بن الكرم (ت ٦٣٠ هـ)
الكامل في التاريخ . المجلد الاول ــ بيروت ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م
المجلد الخامس بيروت . ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م
المجلد الثامن . بيروت . ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م
المجلد الحادي عشر . بيروت . ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م

٢ ــ ابن حزم : ابو محمد علي بن احمد بن سعيد الاندلسي
جمهرة انساب العرب . تحقيق عبدالسلام هارون . الطبعة الثالثة مصر ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م

٣ ــ ابن خرداذبه : ابو القاسم عبدالله بن عبدالله (ت ٣٠٠ هـ)
المسالك والممالك . ليدن ١٨٨٩ م

٤ ــ ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد الحضرمي المغربي (ت ٨٠٨ هـ)
العبر . المجلد الرابع . بيروت . ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م
المجلد السادس . بيروت . ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م

٥ ــ ابن خلكان : ابو العباس شمس الدين حسين بن محمد بن ابي بكر
وفيات الاعيان . تحقيق د . عباس احسان عباس . المجلد الاول بيروت . دار صادر
المجلد الثالث . بيروت . دار صادر
المجلد الخامس . بيروت

٦ ــ ابن العماد : ابو الفلاح عبدالحي الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ)
شذرات الذهب . المجلد الثاني . بيروت
المجلد الثالث . بيروت

٧ ــ ابن المجاور: جمال الدين ابي الفتح يوسف بن يعقوب الشيباني (ت ٦٩٠هـ)
تاريخ المستبصر او صفه بلاد اليمن . الجزء الاول والثاني . ليدن ١٩٥١ م

٨ ــ ابن الوردي : الشيخ زين الدين عمر بن الوردي
تاريخ ابن الوردي . النجف الاشرف . ١٣٨٩ هـ / ١٩١٩ م

٩ ــ ابو الفداء : عماد الدين اسماعيل بن عمر (ت ٧٣٢ هـ)
المختصر في اخبار البشر . الجزء الاول والثاني . الطبعة الحسينية تقويم البلدان . باريس ١٨٣٠ م

١٠ ــ ابو مخرمة : ابي عبدالله محمد عبدالله الطيب بن عبدالله بن احمد
تاريخ ثغر عدن . الجزء الاول والثاني . ليدن ١٩٣٦ م

١١- الاصطخري : ابواسحق ابراهيم بن محمد الفارسي (توفى في النصف الاول من القرن الرابع الهجري) المسالك والممالك . تحقيق د . محمد جابر عبدالعال . مصر ١٣٨١هـ/١٩٦١م

١٢- البغدادي : صفى الدين عبد المؤمن بن عبدالحق (ت٧٣٩هـ)
مراصد الاطلاع . تحقيق علي بن محمد البجاري . الجزء الثاني مصر ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م

١٣- البلاذري : احمد بن يحيى جابر (ت ٢٧٩ هـ)
فتوح البلدان . القسم الاول نشر صلاح الدين منجد . مصر

١٤- البكري : ابو عبدالله بن عبدالعزيز الاندلسي (ت ٤٨٧ هـ)
معجم ما استعجم . تحقيق مصفى السقا . الجزء الاول . القاهر . ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م

١٥- الدينوري : ابو حنيفة (ت ٢٨٢ هـ)
الاخبار الطوال . تحقيق عبدالمنعم عامر . القاهرة ١٩٦٠ م

١٦- حسن : ابراهيم حسن
تاريخ الاسلام السياسي . الجزء الرابع . الطبعة الاولى ١٩٦٧ .

١٧- حسن : سليمان محمود
تاريخ اليمن السياسي . القاهرة ١٣٦٠ هـ/١٩٧٦ م

١٨- الحداد : يحيى
تاريخ اليمن السياسي . القاهرة ١٣٦٠هـ/١٩٧٦م

١٩- الحمادي : محمد بن مالك بن ابي الفضائل اليماني (في اواسط المائة للهجرة)
كشف اسرار الباطنية . تحقيق محمد زاهد بن الحسين الكوثري ، ١٣٥٧هـ

٢٠- حمزة : علي ابراهيم لقمان
تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية . مصر ١٣٧٦ هـ / ١٩٦١ م

٢١- الزبيدي : محب الدين ابو الفيض الحسيني
تاج العروس . الجزء التاسع مصر ١٣٠٦ هـ .

٢٢- الشماحي : القاضي عبدالله بن عبدالوهاب المجاهد
اليمن الانسان والحضارة . مصر

٢٣ - الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ)
تاريخ الرسل والملوك . الجزء الاول . الطبعة الثانية . تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م ، الجزء الثاني . الطبعة الثانية - تحقيق ابو الفضل ابراهيم مصر ١٩٦٨ م

٢٤ـ العرشي : حسين بن احمد الزيدي
بلوغ المرام في شرح مسك الختام . القاهرة ١٩٣٩م
٢٥ـ العقيلي : محمد بن احمد عيسى
تاريخ المخلاف السليماني . جازان ١٣٧٥ هـ
٢٦ـ عمارة : ابن ابي الحسن الحكمي اليمنى
تاريخ اليمن . تحقيق د . حسن سليمان محمود . القاهـرة ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م
٢٧ـ القزويني : زكريا بن محمد
آثار البلاد واخبار العباد . بيروت . ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م
٢٨ـ كحالة : عمر
معجم قبائل العرب القديمة والحديثة . الجزء الثاني .دمشق ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م
٢٩ـ ماجد : عبدالمنعم
ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر . الاسكندرية . ١٩٦٨ م
٣٠ـ المقريزي : تقى الدين احمد بن علي
اتعاظ الحنفا . تحقيق جمال الدين الشيال . القاهرة . ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م
٣١ـ ياقوت : عبدالله الحموي الرومي
معجم البلدان . المجلد الثالث . ليبزك . ١٨٦٨ م .
المجلد الرابع . ليبزك ١٨٦٩ م
٣٢ـ يحيى : بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي
غاية الاماني في اخبار القطر اليماني . تحقيق د . سعيد عاشور . القاهرة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م
٣٣ـ اليماني : تاج الدين عبدالباقي عبدالمجيد (٦٨٠ ـ ٧٤٣)
تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن . مطبعة مخيمر . ١٩٦٥م
٣٤ـ الهمداني : ابو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب (ت ٣٣٤ هـ)
صفة جزيرة العرب . تحقيق ابن بلهير . القاهرة ١٩٥٣ م
٣٥ـ الهمداني : حسين بن فيض الله اليعبري الحرازي
الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن . بالاشتراك مع حسن سليمان محمود . مصر
٣٦ـ Encyclopiada of Islam Vol. 1. p. 131 (Aden).

الحركة العلمية في عصر النهضة

د . قيس هادي احمد
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

مقـــــدمة

حدث ابّان القرن الثالث عشر والرابع عشر تطور علمي كبير جعل أوربا الغربية تدخل مرحلة جديدة تختلف عن المرحلة التي عاشتها طيلة القرون الوسطى . فقد تبنت أوربا تدريجيا اسس حياة ثقافية خاصة بها ، وذلك عندما تقدمت الحياة الزراعية ، وأصبحت تنتج فائضا من المحاصيل رافق تصريفه طلب منتوجات البلاد الاخرى ، فنشأت بلدان ذات اسواق تجارية لتبادل السلع المحلية وتصريف البضائع الكمالية الواردة من الشرق ، وبقيام المدن الكبيرة المزدحمة بالسكان وازدياد أوقات الفراغ ، واتساع أنواع الاهتمام ، تولد حب استطلاع عقلي ، كانت مظاهره فحص الاعتقادات القائمة والتطلع الى معارف اخرى ، كما ان تحول الكنيسه عن صبغتها المحلية الغالبة في القرون الوسطى ، حيث كان الرهبان يعيشون في أديرة صغيرة يحرثون الارض ويحتطبون من الغابات فلا يجدون متسعا من الوقت للمطالعة ، الى نظام البابوية الشامل بمؤسساته الجديدة المتعددة ، هيأ للافراد متسعاً من من الوقت لارضاء فضولهم الفكري . وقد أدى هذا بدوره الى زيادة المهتمين بالحياة الفكرية وخلق ـ بصورة غير مباشرة ـ تربة خصبة للاتجاهات الجديدة في الفكر . فشهد القرن الثالث عشر نشوء جمهور علماني ذي اهتمام بالعلم والمعرفة (١) .

---

(١) راندال (جون هرمان) : تكوين العقل الحديث (الجزء الاول) ص ٤٦ ، ٢٦٧ .

وقد أتاحت الحروب الصليبية ـ وهي أولى مغامرات أوربا للتوسع ـ للكثيرين من أبنائها فرص الاحتكاك بالثقافة العربية الاسلامية ، التي كانت تفوق الثقافة الاوربية بمراحل كثيرة ، كما كان غزو القسطنطينية سنة ١٢٠٤م العامل الاساسي للاحتكاك المباشر باليونان • فما ان انتصف القرن الثالث عشر حتى كانت أسس علم الطبيعة الاغريقي العربي قد استقرت بقوة فى اوكسفورد ، لتصبح بعد فترة وجيزة زعيمة المدارس في علم الطبيعيات الرياضي المناقض لعلم ارسطو الكيفي [٢] •

هذه العوامل وعوامل اخرى ساعدت ابناء أوربا الغربية ، في الفترة الواقعة بين مطلع القرن الثالث عشر ونهاية القرن الرابع عشر على التمهيد لاقامة حضارة القرن الخامس عشر والسادس عشر ، وهي حضارة عصر النهضة التي كانت الى حد بعيد شاملة ومتسعة ، والذي يهمنا في هذا البحث هو الجانب العلمي لهذه الحضارة ، الذي سنبحثه بشيء من التفصيل •

ملاحظات عامة عن تأثير العلم على الفلسفة :ـ

ان الفلسفة لا تسلك طريقا خاصا بها ، دون أن تتأثر بالعناصر الاخرى للثقافة الانسانية ، انها ببساطة لا تستطيع ان تعيش بمعزل عن التيارات الثقافية المختلفة ، وهكذا تأثرت الفلسفة أبان عصر النهضة بالعلم سواء في تأكيده على الموضوعية في البحث أو في سعيه وراء تحديد منهج سليم يستطيع الباحث من خلاله التوصل الى نتائج صحيحة •

لقد ظهر على فلسفة عصر النهضة تأثير العلم ، حيث بدأت هذه الفلسفة تهتم بصورة العالم الذي هو محكوم عن طريق العلم ومنجزاته العملية • فقد بدأ الانتقاض على القديم مع بداية هذا العصر ، حين ظهر اتجاه حديث يتمثل في نزعة تجريبية ريبية هدمت تماما بعض المذاهب الكبيرة التي وضعها لاهوتيو العصور الوسطى ، فأخذ يتلاشى اثر هذا القرن القول بالضرورات

---

(٢) نفس المصدر ص٣٤٦ •

العقلية ، وبدأ يصبح للملاحظة دورا في البحث عن تفسير للظواهر الطبيعية [٣] •

وما ان انتصف القرن الخامس عشر حتى كانت الفلسفة الاسمية قد نضجت في انجلترا وفرنسا ، وقضت على جهود المدرسيين في اقامة فلسفة تتفق مع الدين ، كما وجهت ضربات قاصمة الى العلم الطبيعي الارسطي بجامعة باريس في القرن السادس عشر ، وظاهرت الامراء في تمردهم على السلطة البابوية[٤] •

حطمت القوى الجديدة الناشئة في الحياة الاجتماعية الاوربية بتأثير التقدم العلمي القيود والمفاهيم التي فرضتها السلطة الكنسية في روما طيلة القرون الوسطى ولم تكتف بخلق كنائس وطنية جديدة ، ولكنها أوجدت أيضا فرقا دينية جديدة ، أشهرها البروتستانتية في انجلترا ، وبفضل المنافسة التي نشأت بينها تمكنت العلوم والمذاهب العقلية ان تؤسس لنفسها معقلا حصينا • وقد كان انفصال الكنائس الوطنية عن كنيسة روما ثورة سياسية تمثلت فى استبدال المثل الاعلى لعالم مسيحي موحد ضعيف الارتباط بعضه ببعض ، يعمل لخدمة الله أولا ثم الانسان ، وبارشاد من سلطة روحية هي الكنيسة ، بمثل أعلى اخر قوامه دول مستقلة مطلقة السيادة في اراضيها ، مسؤولة تجاه ذاتها فقط ، تجد ضمانة افعالها في القوة

وقد بدأت النهضة في ايطاليا على شكل عودة الى الثقافة القديمة ، وثورة على ما استحدث العصر الوسيط من أدب وفن وعلم ودين ، بل وأنماط للحياة السياسية والاقتصادية ، هذه النهضة انتقلت الى فرنسا وأنجلترا وألمانيا وهولندا ، وأسرع في هذا الانتقال اختراع الطباعة في منتصف القرن الخامس عشر •

---

(٣) كرم (يوسف) : تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٥ .

(٤) **Paul Oskar Kristeller: Renaissance Thought pp. 3-4**

وكانت ثقافة هذه الفترة تنضح بالوثنية وتبدو واضحة فى الافكار والاخلاق • رأى فيها فريق كبير من الغربيين صورة انسان الفطرة والطبيعة الذي يستطيع ان يحقق فيها ذاته بكل حرية ، واعتبروا دراسة القدماء كفيلة وحدها بتكوين الانسان الحقيقي ، فسميت هذه بالنزعة الانسانية ، وسميت الاداب القديمة بالانسانيات (٥) •

وربما كان من أروع الامثلة التي يمكن ان نوردها على تأثير علم عصر النهضة ، هو ان الفنان الكبير (ليوناردو دافينشي Leonardo da Vinci ١٤٥٢ ــ ١٥١٩) كان يستفيد كثيرا من المسائل العلمية والميكانيكية ومن التجارب ، لقد كان موهوبا وذو حساسية مرهفة في استباق الاحداث وتوقع المكتشفات والمخترعات والنظريات العلمية • فقد استطاع توقع اكتشاف الدورة الدموية، التي تحققت على يد (وليم هارفي William Harvey) حوالي سنة ١٦١٥ ، وفي علم البصريات استطاع توقع اكتشاف النظرية الموجية للضوء • كما كان سباقا في توقع اكتشاف الطائرات والسيارات والمحركات الضخمة ، ولاتزال ملاحظاته في علم التشريح مفيدة حتى يومنا هــذا (٦) •

ان الاكتشافات العلمية التي ظهرت فى علم التشريح والفيزيولوجيا كانت ذات تأثير كبير في النظريات التقليدية ، اذ انها زعزعت الثقة بها وهيأت الاذهان نحو التطلع للبحث التجريبي • وبدأت الثقة تضعف بالمفكرين الكبار الذين ظلوا قرونا طويلة يحتلون المركز الاول في التفكير الفلسفي (٧) •

---

(٥) Copleston: History of Philosopsy: Volume III. pp. 280-283

(٦) Ibid: P. 279

(٧) Ibid : P. 280.

علـم عصر النهضـة :ـ

كان نمو علم عصر النهضة يسير ببطء ، ففي أواخر القرون الوسطى شهدت أوربا الغربية مدرستين علميتين رئيسيتين : مدرسة اوكام ، ومراكزها موزعة بين اوكسفورد وباريس ومدرسة أبن رشد الارسطية التي كانت على اتصال وثيق مع المدرسة الطبية في ايطاليا . ويعود عمل المدرسة الاولى الى القرن الرابع عشر والثانية الى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . تناولت الاولى علم الحركة والاستمرارية . وتناولت الثانية علم الاصول وتوسعت في علم الحركة . وقد تقدمت المدرستان بالاستناد ، الى نقد ايجابي لفلسفة ارسطو الطبيعية ، وكانت مدرسة بادو بأيطاليا تعرف فى عام ١٤٠٠ جميع ابتكارات المدرسة الاوكامية وتدرسـها . وكان علماء بادو ابتداءً من بولس البندقي P. Of. Venice (١٤٢٩) الى كريمونينين (١٦٣١) واعين تمام الوعي للتباين الواضح بين علـم الطبيعة الارسـطي العريق وعلم الطبيعة الرياضي الذي بلغ درجة قصوى من الكمال على يـد غاليلو [٨] .

والحقيقة انه كلما توسع الدارس في بحث تاريخ الفكر في أواخـر القرون الوسطى وعصر النهضة ، أتضح له ان اكثر التطورات التي حدثت في العلم انما هي ابتعادات جزئية عن العلم الارسطي ، تمت داخـل الاطار الارسطي ذاته ، وذلك بالاعتماد على تفكير نقدي للمذاهب الارسطية ، مهما تنوعت مصادر الافكار التي غذت ذلك النقد[٩] .

الاساس التجريبي للعـلـم :

ربما كان صحيحا اعتبار ان العلم يمكن ان يتقدم بالقدر الذي يستطيع فيـه الاعتماد على الملاحظة والتجربة ، ولدينـا في الازدهار الذي حدث لعلم عصر النهضة نموذجا حيا يبرهن على مدى صحة هذه الفكرة ، فهذا

---

(٨) Paul Oskar Kristeller : Renaissance Thought : PP. 33-42.

(٩) Ibid : P. 65.

الازدهار كان يمكن ان يكون بشكل افضل ، وكان من الممكن ان يقدم نتائج أحسن ، لو ان علم عصر النهضة اعتمد الاساس التجريبي في البحث. واذا كان البحث العلمي في عصر النهضة قد اخذ بالتجربة ، الا انه لم يعطيها الدور الذي كان ينبغي أن يعطيها اياه .

لم يكن للملاحظة والتجربة دور جدي في البحث العلمي ، وخاصة في علمي الفلك والطبيعة اللذين كانا يعالجان بطرق رياضية بحته ، فكوبر نيكوس ١٤٧٣ ــ ١٥٤٣ لم يتوصل الى اكتشافه من جراء ملاحظة النجوم، وانما من قراءة شيشرون الذي ألمح الى أن هيكتاس Hektas قال بدورة الارض حول محورها دوره يوميه . واخذ عن أرستارخوس Aristarchus فكرة دوران الارض حول نفسها ، بل وفكرة دورانها حول الشمس . وقد بدأ بوضع صيغه رياضية لنظامه بعد ان أطلع على هذه الافكار وحدها دون الاعتماد على ملاحظات جديدة .

اما الاهتمام اليسير الذي ابداه كبلر بالملاحظة ، فقد كان تحت تأثير استاذه تيخو براهي ١٥٤٦ ــ ١٦٠١ العالم الذي بنى أول مرصد فلكي ، وجمع خلال عدد من السنين معلومات تدعو دقتها الى الدهشة ، بالنظر الى عدم وجود تلسكوب لديه . وبالرغم من أن اعتماد كبلر على الملاحظة كان اعتمادا جزئيا ، الا ان هذا مكنه من استخلاص نتائج كانت بدء طور جديد في علم الفلك [١٠] .

التجربة الاختبارية :ــ

من الواضح ان الملاحظة العادية لا يمكن ان تكون كافية لاقناع الباحث بصحة النتائج التي يتوصل اليها في عملية البحث العلمي ، فلا بد اذن من تجربة اختبارية ، يستطيع العالم من خلالها التحقق من صدق النتائج العلمية التي توصل اليها اثناء بحثه العلمي ، ولكن الواقع يثبت

---

(١٠) راندال (جون هرمان) : تكوين العقل الحديث (الجزء الاول) ص ٣٤٣ ــ ٣٤٥ .

ان علماء عصر النهضة كانوا لا يهتمون على الاطلاق بالتجارب الاختبارية، فكبلر مثلا ١٥٧١ ــ ١٦٣٠ نجده يمثل النزعة الفيثاغورية ، بصوفيتها تمثيلا كليا ، فهو يسعى الى اكتشاف العلاقات الرياضية المحددة والدقيقة للعالم ، التي هي من وحي الروح الالهي • والكون عنده صوره للثالوث المقدس، فالشمس المركزية هي الاب والكرة الارضية هي الابن • والعـــلاقات الهندسية بينهما وبين باقي الكواكب والافلاك هي الروح القدس (١١) •

وربما كان موقف غاليلو ١٥٦٤ ــ ١٦٤٢ من علــم الطبيعة عــودة الى موقف اليونان واعتمادهم على الرياضة ، اذ ان كليهما لم يحــاول بناء العلم بادئــا بحثــه من مشاهدة الاشياء الجزئية ، ثم الرجوع الى الاشــياء الجزئيــة للتحقيق من صحة النتائج ، بل راح يسأل الاسئلة بناء على فروض حدسية يفرضها ، ثم يحاول الاجابة عنها ، دون الرجوع الى التجربة من أجــل التحقق من مدى صحة اجابته •

وكيف ننتظر تجربة اختبارية من علماء عصر النهضة ، وهــذا غاليلو يصرح بأنه نادرا ما كان يعتمد على التجريب ، واذا حدث ذلك فانه يكــون من اجل اقناع الخصوم • وظل مصرا طيلة حياته بكاملها على الخطأ الفادح بأن الجاذبية تساوي خمس عشر قدما في الثانية (١٢) •

الفرض العلمي وعلم الفلك :

اذا كان من الصحيح ان الباحث ينبغي ان يستخدم التجربة ليرى مــا يحدث ، فان من الصحيح ايضا ، ان يضع فروضا علميــة يحاول ان يتحقق من صحتها ، فلا بد لــه أن يســأل السؤال الخاص الذي يسمح له بأن يضع فرضا أو فرضين يسعى أثناء تجــاربه للتحقق من صــدق واحد منهما • الا أننا نجد ان هذا الاسلوب فى البحث العلمي لم يكن متبعا عند علماء عصر النهضة ، فلم يكن عند علماء عصر النهضة تصور واضح للخاصية الفرضية

---

(١١) المرجــع نفســه : ص ٣٢٩ ، ٣٥٠ •

(١٢) Copleston: History of Philosophy: Volume III. p. 281

في نظرياتهم ، وان كانوا يستخدمون الفروض العلمية ، فبطريقة غير منظمة وغير دقيقة ، ولدينا في علم الفلك نموذجا حيا لاستخدام الفروض العلميه بهـذه الطريقـة •

صـحيح ان كوبر نيكوس كان اول من حاول اقامة الدليل على ان الحركة الظاهرية للشمس من الشرق الى الغرب ، ليست في الواقع بهذه الصورة • وقد كان هذا ضد ما كان متعارفا عليه طيلة القرن الرابع عشر• حيث ان فيزيائيو القرن الرابع عشر كانوا مهتمين بتحقيق الفـرض الـذي يقول بأن الارض تدور يوميا دورة كاملة حول محورها • وقد كان برهان كوبر نيكوس يهدف الى تحقيق الفرض الـذي يقول بأن الارض تدور حول نفسها وتدور ايضا حول الشمس التي هي ثابته • وهكذا استبدل كوبر نيكوس الفرض الذي يقول بمركزية الارض • صحيح كل هذا ، الا ان الشيء الذي يلفت النظر في نظرية كوبر نيكوس ، انها جاءت دون مقدمات فرضية واضحة ، كما انها جاءت دون تدعيـم تجريبي كـاف • وليس ادل على هذا من ان ناشر نظرية كوبر نيكوس ، اعلن في المقدمة ، ان نظرية كوبر نيكوس لا تعتبر من الكشوف العلمية ، بـل انهـا مجـرد فرض خيالـي لا مذهب علمي ، لان من حق عالم الفلك ان يسـترسل فى شـطحات خيالية[١٣] •

الرياضيات :ـ

ان العالم الذي يستطيع ان يتوصل الى نتائج علمية صحيحة ، وان يكن يتخذ من الرياضيات اداة رئيسية للبحث ، الا انه يؤكد ان الملاحظة لا يمكن اغفالها في العلم ، فهو يترك للرياضيات مهمة اثبات الارتباطات بين مختلف نتائج البحث التجريبي فحسب • وهو يبدي استعدادا تاما لاستخدام هذه الارتباطات الرياضية مرشدا لكشوف جديدة تعتمد على الملاحظة ، غير انه يعلم انها لا يمكنها ان تعينه الا لانه يبدأ من مادة مستمدة بالملاحظة•

---

(١٣) Ibid: PP. 281—284

وهو مستعد على الدوام للتخلي عن النتائج الرياضية ان لم تؤيدها الملاحظة اللاحقة [١٤] • غير ان هذا لم يكن متبعا عند علماء عصر النهضة ، فقد كانت الطبيعة بالنسبة لهم مجرد آلة رياضية كبيرة يتكفل التحليل الرياضي عملية الكشف عن قوانينها • وربما شارك جميع علماء عصـر النهضة ليونـاردو الرأي ، حـين قال بكتابه (قطع ادبية وفلسفية) (وقوانين الطبيعة بسيطة ومنتظمة في آن واحد • اذ يتم كل فعل من افعالها في اقصر طريق وهذه الضرورة الابدية في القانون رياضية في اساسها • ومن هنا كانت الرياضيات وحدها هي الطريق الموصل اليها • وبسبب هذا التكوين الرياضي للعـالم يمكننا ان نطبق معرفتنا الرياضية على التجارب • كذلك نستطيع بسبب هذا النظام ان نجد فى تجربة واحدة قانونها الرياضي) [١٥] •

لكن هذه النظره لا تعطي التجربة دورها الذي ينبغي أن تأخذه في البحث العلمي ، وبالفعل كان معظم علماء عصر النهضة ينظرون الى التجربة كمجرد وسيلة لاقناع الخصوم [١٦] •

التصور الميكانيكي عن العالم :ـ

لقد كانت عبارة غاليلو المشهورة (ان العـالم الموضوعي هو عالـم الرياضيات) ، كما كان تأكيده المستمر على ان العالم عبارة عن كتاب لايمكن قراءته ما لم تتعلم اللغة التي كتب بها ونفهـم الحروف التي كتبت بها • فاللغة التي كتب بها العالم هي اللغة الرياضية ، والحروف التي تتألف منها تلك اللغة ، هي (المثلثات والدوائر ، وما الى ذلك من العناصر الهندسية) ، كان بمثابة الطريق الذي ادى بغاليلو الى تبنى نظره ميكانيكية عن العالم • وهكذا اكتفى غاليلو بالذرات ، وبالتغير الذي يجري في العالم على اساس

---

(١٤) رايشنباخ (هانز) : نشأة الفلسـفة العلمية ص ٣٨ ـ ٣٩

(١٥) راندال (جون هرمان) : تكوين العقل الحديث « الجزء الاول » ص٣٤٩ •

(١٦) Russell (Bertränd) : History of Western Philosophy: P. 479.

النظرية الذرية ، وراح يؤكد على ان خواص المادة من لون وحرارة توجد كخواص موضوعية في الشيء الذي يمكن ادراكه ، كما ان المادة توجد على شكل ذرات ذات حركة مستمرة تخضع لنظام ميكانيكي ورياضي(١٧) •

وقد تبنى هذا التصور الميكانيكي القائم على النظرية الذرية عـدد كبير من علماء عصر النهضة ، من اشهرهم (روبرت بويل ١٦٢٧ ــ ١٦٩١) الذي اعتقد بأن المادة تتألف من ذرات لا يمكن فصلها الى اصغر منها ، وهذه الذرات ، تتجمع بعضها مع البعض الاخر لتؤلف ما يعرف بالجزيئات •

وقد ذهب نيوتن في التصور الميكانيكي عن العالم الى منتهاه ، حيث حاول ان يبرهن على اننا اذا عرفنا القوى التي تؤثر على الاجسام ، فاننـا نستطيع أن نستدل على حركات هذه الاجسام رياضيا • وقال ان الذرات نفسها تحتوي على مراكز لهذه القوى • وبالرغم من انه ركز على دراسة حركات الاجسام الصلبة ، الا انه كان يريد اثبات ان حركات الاجسـام كلها ينبغي ان تفسر في ضوء المباديء الرياضية ، وأعتبر نيوتن ان فلاسفة الطبيعة القدماء عجزوا عن اكتشاف القوانين الطبيعية نتيجة جهلهم بهذه الحقيقــة (١٨) •

وهكذا وجد نيوتن أن له مهمة رسمية واحدة ، وهي تقديم الصيغـة الرياضية للقوى التي تحكم الطبيعة • وعندما كان يسعى من أجل أثبات ان قوة الجاذبية هي السبب في سقوط التفاحة من الشجرة على الارض ، وهي نفسها السبب في دوران الكواكب السيارة دورات اهليليجية حول الشمس ، عندما كان يسعى لاثبات هذا ، فانه كان يهدف الى البرهنة على ان حركات الكواكب بهذا الشكل وسقوط التفاحة يخضعان لنفس القانون الرياضي •

---

(١٧) Copleston: History of Philosophy: P. 287

(١٨) Ibid: PP. 287—288.

وقد كانت المباديء العامة التي صاغها نيوتن في أعماله العلمية ذات تأثير كبير طيلة قرنين من الزمان ، ويكفي نيوتن فخرا ان الفيزياء ، كانت طيلة قرنين من الزمان تعرف بأسمه أي تعرف بفيزياء نيوتن [١٩] .

نقد وتقويم :-

يصعب القول ان العلم الطبيعي في عصر النهضة قطع كل صلة بالعلم القديم . والواقع انه كان تطورا متصلا للعلوم التي تسنى لها نقد أكثر مما تسنى لغيرها . والتي عرفت في اواخر القرون الوسطى . ان الباحث الذي ينعم النظر في النزعة الانسانية وحركة الاصلاح الديني ، وهما التيارين الفكر يين الرئيسيين فى عصر النهضة ، يجد ان هذين الاتجاهين يصدران عن كثير من نفس الاسباب التي ادت الى النهضة عموما ، وفي مقدمتها النمو الاقتصادي الكبير الذي حققه المجتمع الاوربي وما رافقه من نشوء الطبقة المتوسطة [٢٠] .

اننا نجد وراء كل من هاتين الحركتين ، ولكن بأشكال مختلفة ، نفس الرواسب المدرسية ، بحيث انهما انتهتا بطريقة متماثلة الى مذهب التطهير والاصلاح في المسيحية Purtanism الذي عاد فأكد فكريا اعتقادات القرون الوسطى ، فالنزعة الانسانية رغم انها أعادت للعقل الانساني الكثير من حريته ، الا انها تعتبر رجعة الى القرون الوسطى من حيث انها تباعدت عن الاهتمام المتزايد في عالم الطبيعة الذي كان قد بدأ في القرن الثالث عشر . كما ان تأكيدها على الاداب الكلاسيكية حد من انتشار الثقافة العلمية العامة واعاقها عن الازدهار .

ولكي تتصور افتقار الانسانيين للنزعة العلمية ، يكفي ان نذكر كيف استقبلوا ببرود أعظم حدثين شهدهما عصرهم ، وهما : اختراع الطباعة ، والاستكشافات الجغرافية .

---

(١٩) Ibid: P. 288

(٢٠) سارتون (جورج) : العلم في عصر النهضة ص ١٠١ .

فلم يبتهج انسانيو عصر النهضة بأختراع الطباعة ، بل انهم عادوها . ولدينا مثل طيب يوضح نفورهم من الطباعة ، ضربه لنا .

(فسبزيانودا بستيتشي Vespasianoda Bisticci) وهو احد ذوي الافكار النبيلة في القرن الخامس عشر ، فمع ان فسبزيانو مات فى عـــام ١٤٩٨ ، أي في وقت كان فيه فن الطباعة قد بلغ درجة طيبة من التقدم ، فقد ظل يتوجس من الطباعة الى النهاية . ويذكر فسبزيانو ان واحدا من حماته ونصرائه ، وهو الدوق (اوربينو Urbino) ، كان يخجل ان يمتلك كتابا مطبوعا ولم يتغير موقف الانسانيين هذا من الطباعـــة ، الا بعـــد ان اصبح هذا الموقف مستحيلا بالنسبة لهم .

اما الاستكشافات الجغرافية ، فان الانسانيين لم يخفقوا في تقــــدير اهميتها الفائقة فحسب ، بل انهم تجاهلوها تماما [٢١] .

لقد كان يجري استكشاف عوالم جديدة ، وزالت حــدود العــالم الغربية ، ودار الرواد حول الارض ، أفلم تكن هذه كلها مواضيع جديرة بأن يتغنى بها الشعراء الانسانيون ؟ لكن الاداب التي خصصت لذكر تلك الاعمال الجليلة الخطيرة كانــت تافهة للغــاية ، ولم تلهم تلك الاعمال عملا اديبا جليلا واحدا ، فكان على العالم ان ينتظر زمنا طويلا كي تظهر مثل هذه الاعمال الى الوجود ، لكن حدث هذا بعدما مرت النهضة وانتهى العصر الذهبي للريادة الجغرافية [٢٢] .

لقد كونت حركة أحياء الادب الانساني عائقا جديا في وجه تطــور العلم الطبيعي ، اذ انها حصرت جهود افضل المفكرين في حكمه لا علمية بجوهرها كان ينادي بها الرومان ، وهم الذين انصرف اهتمامهم الى الامور المدنية والاخلاقية [٢٣] .

---

(٢١) المصدر نفسه : ص ١٠٢ .

(٢٢) المصدر نفسه : ص ١٠٤ .

(٢٣) راندال (جون هرمان) : تكوين العقل الحديث ص ٣١٩ .

اما حركة الاصلاح الديني ، فقد كان تركيزها لكل الجهود الفكرية من أجل حل المشاكل اللاهوتيه عائقا حقيقيا في سبيل تقدم العلم • واذا كانت حركة الاصلاح الديني قد ساعدت على تطور العلم ، من حيث انها كانت تدعو الى التخفيف من حدة الدجماطيقية والتعصب الديني ، فانها تبقى حركة دينية تهدف الى ايجاد الحلول الوسطى أو تكييف العقيدة المسيحية ، كي يمكن لها الصمود امام التقدم العلمي •

لذلك فان العالم الحديث لايدين للنزعة الانسانية أو للاصلاح الديني مباشرة بالعالم الفكري الذي يعيش فيه الان ، بل للثورة الكبيرة التي اخرجت الناس من القرون الوسطى الى العالم الحديث ، والتي تمت بنمو العلم التجريبي تدريجيا وبتعاظم هذا النمو في القرنين السابع عشر والثامن عشر(٢٤) • ومن هنا يتبين ان عصر النهضة لم يكن نهضة كاملة من وجهة النظر العلمية ، بل كان عصر تسويات وحلول وسطى ، ولئن كانت الظاهرة الرئيسية في عصر النهضة ، هي أزدياد نفوذ العلم وانحسار نفوذ الكنيسة، الا اننا نجد فيه قوى جديدة نشأت داخل نظام قديم ، يرافقها توتر وضغط ومحاولات غير مستقرة للتوصل الى نوع من الملائمة بين الولاء للنظم التقيلدية والدعوات الجديدة ، ولهذا فان هذه القوى الجديدة لم تحدث الثورة الاساسية في طرق التفكير الانساني ، وانما حدث ذلك اثر حركة علمية متأخرة حدثت في القرن السابع عشر والثامن عشر (٢٥) •

---

(٢٤) **Paul Oskar Kristeller: Renaissance Thought: p. 20**

(٢٥) راندال (جون هرمان) : تكوين العقل الحديث ص ١٧٩ .

المراجـع العربيـة :ـ

١ ــ راندال (جون هرمان) : تكوين العقل الحديث (الجزء الاول) ترجمة د . جورج طعمه . مراجعة الاستاذ برهان الدين الدجاني . تقديم د . محمد حسين هيكل . (دار الثقافة ــ بيروت ــ بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ١٩٥٨) .

٢ ــ رايشنباخ (هانز) : نشأة الفلسفة العلمية . ترجمة د . فؤاد زكريا . (دار الكاتب العربي ١٩٦٧) .

٣ ــ سارتون (جورج) وآخرون : حضارة عصر النهضة . ترجمة د . عبدالرحمن زكي (مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر . القاهرة . نيويورك ١٩٦١) .

٤ ــ كرم (يوسف) : تاريخ الفلسفة الحديثة . (دار المعارف بمصر ١٩٦٢) .

المراجـع الاجنبـية :ـ

1. Copleston (F): History of Philosophy: London : Burns Oates 8 Washbourse Ltd. Publishers to the Holy See 1959
2. Kristeller (P,O): Renaissance Thought: (Harper & Brothers. (New York 1961)
3. Russell (B): History of Western Philosophy: (George Allen: and Unwin. London 1961)

مسلك المناسبة الاصولية وآراء العلماء حوله

الدكتور فاضل عبدالواحد عبدالرحمن
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

مما ينبغي علمه اولا انه من المتعذر ان يكون كل وصف من الاوصاف التى نجدها في الاشياء صالحة للعلية واناطة الحكم الشرعى به •

اذ من المعلوم ان من الاوصـــاف ما هو غير مؤثر في الحكم ولا يكون مناطا له ، مثل الطول ، والقصر والذكورة والانوثة •

كمـا انه نجد اوصافا كثيرة صالحة لبناء الحكم عليها وموافقة للعلل المنقولة عن الرسول (ص) واصحابه والتابعين •

فانهم كانوا يعللون بالاوصاف المناسبة للاحكام ، كتعليل ثبوت الفرقة باباء احد الزوجين عن الاسلام ، لانه هو الوصف الذى يناسبه فيهذه الحالة، دون ان يعللوا ذلك باسلام الزوجـة ، لان الاســلام عرف عاصما للحقوق محافظا عليها لا قاطعا لها مبعثرا اياها •

وكالصغر فانه علة لثبوت الولاية فيالنكاح على الصــغيرة ـ على رأى بعض الفقهاء ـ لما في للصغر من العجز ، وهو يوافق تعليل الرسول الكريم (ص) لطهارة سؤر الهرة بالطواف لما فيه من الضرورة •

فالعلة في احدى الصورتين الصغر ، وفي الاخرى ، العلة هى الطواف • فهاتان العلتان وان اختلفتا ، لكنهما مندرجتان تحت جنس واحد وهو الحكم الذى تندفع به الضرورة •

ويرى بعض الاصوليين : ان العلة الشاملة في الصورتين هى رفع الحرج المانع عن التطهير المحتاج اليه ٠

اذ في الصورة الثانية تكون الحاجة ماسة الى تطهير الاعضاء عن النجاسة بالماء ، كما تكون الحاجة في الصورة الاولى ماسة الى تطهير العرض عن النسبة الى الفاحشة بالنكاح ٠

والطهارة والولاية هما الحكم الذى يندفع به الحرج المذكور[١] ٠

وفي الجملة فان التحقيق في ذلك يستلزم تحليل المناسب او ماهو مشتق منه تحليلا تتضح منه ما هية المناسبة وما يتفرع منها من الاقسام ٠

فاستوجب هذا فصلا معقودا لتعريف المناسبة ، وآخر تبين فيه اقسام المناسبة حسب الاعتبارات المختلفة ٠

« الفصل الاول في تعريف المناسبة »

المناسبة في اللغة الملائمة ، والمناسب هو الملائم[٢] ، اى المشاكل[٣] ٠

وقد اختلف الاصوليون في تعريف المناسبة حسب اختلافهم في تعليل افعال الله تعالى بالاغراض او منعه ٠

فالذين يرون التعليل ـ وهم المعتزلة ـ يقولون في المناسبة : « هى كون الوصف بحيث يجلب للانسان نفعا او يدفع عنه ضررا » ٠

والذين يمنعونه يعرفونها بانها : « الملائمة لافعال العقلاء » ، كما يقال : هذه اللؤلؤة مناسبة لتلك اللؤلوءة ، فمناسبة الوصف للحكم المترتب عليه موافقته لعادة العقلاء من ضم الشىء الى ما يوافقه[٤] ٠

واكتفى البيضاوى بتعريف المناسب عن المناسبة قائلا : انه « ما يجلب للانسان نفعا ، او يدفع عنه ضررا[٥] » ٠

فالمناسبة على هذا : كون الوصف بحيث يفضى الى جلب النفع ، اودفع الضرر ، وهذا تعريف من يعلل الاحكام بالحكم والمصالح[٦] ٠

وذكر ابن الحاجب : ان المناسب « وصف ظاهر منضبط يحصل عقلا من ترتيب الحكم علة ما يصلح ان يكون مقصودا ، من جلب منفعة ، او دفع مضرة » ، وقد سبقه الى نحوه الآمدى(٧) ،

وذلك كالقتل العمد العدوان ، فانه وصف ظاهر منضبط يلزم من ترتب الحكم عليه ــ وهو ايجاب القصاص على القاتل ــ : ــ حصول منفعة ، وهى بقاء الحياة ، او دفع مضرة ، وهو التعدى •

فان الشخص اذا علم وجوب القصاص امتنع عن القتل وصار متجنبا له •

وقال ابو زيد الدبوسى : المناسب « ما لو عرض على العقول لتلقته بالقبول » ، وبنى على ذلك امتناع الاحتجاج على العلية به في مقام المناظرة دون النظر •

اذ من المحتمل ان يقول الخصم : هذا لا يتلقاه عقلى بالقبول ، وتلقى عقلك له به لا يصير حجة على ، وليس الاحتجاج على بتلقى عقل غيرى له اولى من الاحتجاج على ذلك الغير بعدم تلقى عقلى بالقبول(٦) •

ولا يخفى عليك وعلينا ما نراه من ان ابا زيد نفسه ادرك ما في التعريف من محاذير تجعل التمسك بالمناسبة في مقام المناظرة دون النظر امرا ممتنعا، اذ العاقل لا يكابر نفسه فيما يقضى به عقله •

« موازنة هذه التعاريف ومناقشتها »

رأينا ان المعلل لافعال الله تعالى بالاغراض عرف المناسبة بانها « كون الوصف بحيث يجلب للانسان نفعا ، او يدفع عنه ضررا » •

ورأينا ان الممتنع عن ذلك يعرفها بانها « الملائمة لافعال العقلاء في العادات » • ولا يخفى ما في هذين التعريفين من وهن وضعف لعدم جامعيتهما، اذ لا يصدق على القتل العمد العدوان انه يجلب للانسان نفعا ، اويدفع عنه ضررا ، ولا انه ملائم لافعال العقلاء في العادات •

مع انهم نصوا على ان القتل العمد العدوان وصف مناسب لمشروعية القصاص ، لا انه وصف جالب للنفع او دافع للضرر ، بل الجالب او الدافع انما هو المشروعية •

وكذلك الحال بالنسبة الى الردة والاسكار والسرقة والغصب والزنا •

واذا توجهنا الى تعريف البيضاوى نجده ايضا تعريفا غير صالح لم يسلم من طعون وجهت اليه ، لانه بتعريفه هذا جعل المقاصد انفسها اوصافا مناسبة، في حين ان مشروعية القصاص مثلا جالبة او دافعة ، وليست هى الوصف المناسب •

لان المناسب من اقسام العلل ، فيكون هو القتل في هذا المثال ، لا المشروعية ، لانها معلولة ، لا علة ، وكذلك الردة والاسكار والسرقة والغصب وغيرها مما ذكرناه[٧] •

اما تعريف ابن الحاجب فلا يخلو ايضا من ضعف ، وذلك لان المناسب قد يكون ظاهرا منضبطا ، وقد لايكون ، بدليل صحة انقسامه اليهما ، حيث قالوا : ان كان ظاهرا منضبطا ، اعتبر في نفسه ، وان كان خفيا ، او غير منضبط ، اعتبرت مظنته •

على ان ابن الحاجب ايضا اعتبر في ما هية المناسبة ما هو خارج عنه ، وهو اقتران الحكم بالوصف ، حيث هو خارج عن ما هية المناسب ، بدليل انه يقال : المناسبة مع الاقتران دليل العلة ، ولو كان الاقتران داخلا في الماهية لما كان هذا الكلام صحيحا[٨] •

وقد تبين لنا ما في تعريف ابى زيد ، على ان فيه تقاربا مع التعريف الثانى ، كما لمح اليه بعض العلماء ، وذكر وجه ذلك : بانهما يتحدان ذاتا مختلفان مفهوما ، لانه اعتبر في كل منهما ما لم يعتبر في الآخر ، وهو وجه الاختلاف ، كما ان تلقى العقول بالقبول في قوة ما يصلح مقصودا للعقلاء من ترتب الحكم عليه ، وهو وجه الاتحاد[٩] •

يقول امام الحرمين : ان المناسبة قد تفيد العلية عملا بتمسك الصحابة بها ، فانهم كانوا يلحقون غير المنصوص بالمنصوص اذا غلب على الظن انه يضاهيه لمعني او يشبهه ، لكن لم ينقل الينا انهم كانوا يتمسكون بكل ظن غالب ، فلا يبعد التعبد مع نوع من الظن الغالب اذا علمنا ذلك النوع .

على ان امام الحرمين ذكر بعد ذلك : ان الاولى الاعتماد على العمومات الدالة على الامر بالقياس(١٠) .

ثم مما ينبغي الوقوف عليه هنا ، هو ان المقصود من شرع الحكم قد يحصل حصولا متيقنا كمقصود البيع ، فانه يحصل المقصود من شرعه وهو الملك حصولا متيقنا ، ولا يلتفت الى ما يرد عليه من ان الملك قد يتخلف عن البيع كما في الخيار ، لان هذا لاينافي حصوله يقينا في الجملة ، فانه حاصل يقينا اذا لم يكن خيار ، وكذا اذا كان خيار ولو بعد زمن الخيار(١١) .

وكذلك يحصل ذلك المقصود ظنا كمقصود القصاص ، فانه يحصل المقصود من شرع الحكم هذا وهو الانزجار عن القتل ظنا ، فان الممتنعين عنه اكثر من المقدمين عليه(١٢) .

وذكر بعض الاصوليين : ان المقصود من شرع الحكم هنا حفظ النفوس وهو غير الانزجار ، الا ان المنعم في المسألة لا يرى كبير فرق بينهما .

اذا الشيء قد يكون مقصودا لذاته ، وقد يكون مقصودا تبعا ، لكونه وسيلة لما هو المقصود بالذات ، والمقصود بالذات من ترتيب وجوب القصاص على القتل العمد العدوان هو حفظ النفوس ، فكأن حكمة ذلك الترتب والانزجار لما كان ينشأ عنه حفظ النفوس ، صح كونه حكمة مقصودة من ذلك الترتب .

بمعنى انها مقصودة لغيرها ، لكنها وسيلة للحكمة المذكورة ،وهي حفظ النفوس(١٣) . وقد يكون حصول المقصود من شرع الحكم محتملا سواء كحد الخمر ، فان حصول المقصود من شرعه وهو الانزجار عن شربها وانتفاؤه

متساويان بتساوى الممتنعين عن شربها والمقدمين عليه فيما يظهر لنا لا في نفس الامر لعدم الاطلاع عليه فهو تقريبى وليس تحقيقيا[١٤] .

وقد يكون انتفاء المقصود ارجح مـن حصوله ، وهو الوهم ، كنكاح الايسة للتوالد الذى هو المقصود من النكاح ، فان انتفاءه في نكاحها ارجح من حصوله .

ولا يرد عليه ما قد يقال : من ان انتفاءه مقطوع به ، لان اليأس ينافي التوالد ،وذلك لان اليأس انما يبعده فقط ، وهو الذى يستفاد من كـلام الفقهاء .

يقول الاصوليون : انه يجوز التعليل بجميع هذه الاقسام ، وانكـر بعضهم صحة التعليل بالثابت ، لانه مشكوك الحصول ،وبعضهم بالرابع ،لانه مرجوح الحصول ، الا ان الصواب جواز التعليل بهما ، كجواز القصر للمترفه في سفره المنتفى فيه المشقة التى هى حكمة الترخص ، نظرا الى حصولهما في الجملة[١٥] .

اما اذا كان المقصود من شرع الحكم غير ثابت وفائتا قطعـا في بعض الصور ، فمن هنا اختلف الاصوليون .

حيث يرى الحنفية : اعتبار المقصود فيه ، وانه يقدر وجود الحكمة في ذلك البعض .

وجمهور الاصوليين ذهبوا الى انه لا يعتبر للقطع بانتفائه .

ويستوى في الاعتبار وعدمه الحكم الذى لا تعبد فيه كلحوق نسب المشرقى بالمغربية عند الحنفية .

والحكم الذى فيه تعبد ، كاستبراء جارية اشتراها بائعها لرجل منه في مجلس البيع .

وتوضيح هذا المقام هو انه اذا كان المقصود من شرع الحكم فائتا في بعض الصور فالحنفية يعتبرون ذلك المقصـود ويقدرون حصوله في ذلك ، فيثبت فيه الحكم وما يترتب عليه .

والاصح عند الجمهور هو ان لا يعتبر المقصود المذكور لانتفائه في ذلك البعض ، فلا يثبت فيه الحكم وما يترتب عليه ، اى لا يثبت مجموعهما من حيث الاستناد الى ثبوت المقصود المذكور ، وهذا لا ينافي ثبوت الحكم دون ما يترتب عليه ، كما في المثال الاول ، او ثبوتهما معا لمقتض آخر كما في المثال الثانى •

فالحنفية قالوا : يقدر وجود الحكمة المذكورة في المثال المذكور ، فيثبت فيه الحكم المذكور وما يترتب على ذلك من لحوق نسب ولد تلك المرأة بذلك الرجل •

والرأى الاصح يقول : لا اعتبار للحكمة المذكورة هنا للقطع بانتفائها في المثال المذكور وان تثبت التزوج ، وحينئذ فلا يثبت ما يترتب على ذلك من لحوق الولد المذكور بالرجل المذكور •

« اقسام المناسبة »

عمد الاصوليون الى تقسيم المناسب ،باعتباره مؤديا الى تقسيم المناسبة من حيث علاقة الاشتقاق : ــ قسمين

آ ــ قسم باعتبار الماهية

ب ــ وقسم باعتبار شهادة الشارع له بالملائمة والتأثير اولا •

وهم ــ اى الاصوليون ــ عمدوا الى تقسيم القسم الاول فقسموه ايضا قسمين : ــ

مناسبا حقيقيا ، ومناسبا اقناعيا •

والمناسب الحقيقى قسموه الى ثلاثة اقسام : ــ

ضرورى باعتبار ما هو واقع في محل الضرورة •

وحاجى باعتباره ما هو واقع في محل الحاجة

وتحسينى بذلك الاعتبار ايضا

والاول وهو الضرورى ، مثل ما تضمن حفظ مقصود من المقاصد الخمسة التي لم تختلف فيها الشرائع ، بل اتفقت كلمتها عليها ، وهي ما يلي:ـ

الاول حفظ النفس بالقصاص لشرعيته بقوله تعالى : « كتب عليكم القصاص » ، فانه لولا ذلك لعمت الفوضى واختل نظام المصالح اختلالا اساسيا .

والثانى كحفظ الدين بالقتال ، لشرعية المقاتلة مع اهل الحرب بقوله : « قاتلوا الذين لايؤمنون » ، وكذلك بالزواجر عن الردة والبدع المفضية الى الكفر .

وذلك لانه اذا قوبل مع اهل الحرب امتنعوا عن بيضة الاسلام ، واذا قتل المرتد وزجر المبتدع لم يرتد احد بعد ولم يحدث في الدين بدعة ، فيبقى الدين محفوظا[١٧] .

والثالث كحفظ العقل بشرعية الحد على المسكر ، فان العقل هو قوام كل فعل تتعلق به مصلحة ، فاختلافه يؤدى الى مفاسد كبيرة وخطيرة[١٨] .

والرابع مثل حفظ المال الذى به المعاش لشرع الضمان والحد على الغاصب والسارق والمحارب اى قاطع الطريق .

والخامس كحفظ النسب بشرع الحد على الزنا ، لان المزاحمة على الابضاع مفضية الى الفساد والتقابل واختلاط الانساب المفضى الى انقطاع تعاهد الاولاد المنافي لبقاء النوع[١٩] .

قال الاسنوى : هذه الاشياء مناسبتها ظاهرة ، وهي المعروفة بالكليات الخمس التى لم تبح في ملة من الملل[٢٠] .

وهذه الدعوى ذكرها جمهور الاصوليين في كتبهم ، وذكروا ان الخمر وان كانت مباحة في الشرائع المتقدمة الا ان الكمية المباحة هى ما يبلغ الى حد السكر المزيل للعقل فانه محرم في كل ملة .

وقد صرح بهذا الامام الغزالي ونقل مثله عن القفال • وقد نازع هذا ابن القشيرى والنووى وغيرهما وعدوه كلا ما غير صحيح ونقلا لا اصل له•

يقول الشوكانى : تأملت التوراة والانجيل فلم اجد فيهما الا اباحة الخمر مطلقا من غير تقييد بعدم السكر ، بل فيهما التصريح بما يتعقب الخمر من السكر واباحة ذلك ، وهذا يدل على ان دعوى اتفاق الملل على التحريم غير تامة وغير سليمة •

ويضيف الشوكانى قائلا : وكذلك تأملت كتب انبياء بنى اسرائيل فلم اجد فيها ما يدل على التقييد اصلا ، الى هنا انتهى كلام الشوكانى[٢١] •

وليس من المتعسر مناقشة هذا الكلام بانه يستلزم الوثوق بما تحتويه هذه الكتب مما لم تؤيده شريعتنا ، وهو امر لا يتصف بالقبول لدى العلماء•

على ان دعوى التحريم في تلك الملل اذا لم تكن مستندة الى ما يعضده من الكتاب او السنة النبوية فلا تكون مقبونة ايضا •

ولكن لا يخفى ان الرجوع الى الاباحة الاصلية ، واباحة ذلك في صدر الاسلام مما يرجح القول بحلية الخمر في الامم السابقة ، وعدم حظرها على هؤلاء •

وقد زاد بعض الاصوليين المتأخرين سادسا ، وهو حفظ الاعراض •

• فان عادة العقلاء بذل نفوسهم واموالهم دون اعراضهم ، وما فدى بالضرورة فهو بالضرورة اولى ، وقد شرع بالجناية عليه بالقذف الحد ، وهو احق بالحفظ من غيره ، فان الانسان قد يتجاوز عمن جنى على نفسه او ماله، ولا يكاد احد ان يتجاوز عمن جنى على عرضه[٢١] •

والثانى من الاقسام الثلاثة للمناسب الحقيقى هو الحاجى او المصلحى، وهو كنصب الولى على الصغيرة ، اى تمكينه من تزويجها كما ذكره الامام الرازى ، فان مصالح النكاح غير ضرورية في الحال ، الا ان الحاجة اليه حاصلة ، وهو تحصيل الكفوء الذى لو فات لربما فات لا الى بدل[٢٢] •

وايضا هو كالاجارة ، فانها مبنيـــة على مسيس الحاجة الى المساكن مع القصـــور عن تملكهـــا وامتناع مالكها عن بذلها عارية ، وكذلك المســــاقاة والقراض[٢٣] •

وقد اختلف الاصوليون في الحكم الذى ثبت لوصف مصلحى عـــلى وجه يلزم منه وجود مفسدة مساوية له او راجحة عليه ، هل تنخرم مناسبته ام لا ؟ الى فرقتين : ــ

(أ) ــ فرقة تثبت ذلك •

(ب) ــ واخرى تقول بنفيه •

تتمسك الفرقة الاولى بامور عدة ، منها : ــ

(أ) ــ ان مناسبة الوصف تنبنى على ما فيه من المصلحة ، والمصلحة امـــر حقيقى لا يختل بمعارضة المفسدة ، ودليله ان المصلحة والمفسدة المتعارضتين اما ان تتساويا ، او تترجح احداهما على الاخرى ، فان كان الاول ، فاما ان تبطل كل واحدة منهما بالاخرى ، او ان تبطل احداهما بالاخرى مـــن غير عكس ، اولا تبطل واحدة منهما بالاخرى •

الاول محال ،لان عدم كل واحدة منهما انما هو بوجود الاخرى ،وذلك يجر الى وجودهما مع عدمهمـــا ، ضرورة ان العلة لابد ان تكون متحققـــة مع المعلول •

والثانى محال ، لعدم الاولوية •

ويبقى الثالث ، وهو المطلوب •

وان كانت احداهما ارجح من الاخرى ، فلا يلزم منه ابطال المرجوحـــة الا ان تكون بينهما منافاة ، ولا منافاة ، لما تبين من جواز اجتماعهما في القسم الاول ، ولان الراجحة منهما اذا كانت متعارضة بالمرجوحة ، فاما ان ينتفـــى شىء من الراجحة لاجل المرجوحة ، اولا ينتفى شىء منها ، فان كان الاول، فهو محال ان يتساويا ، لما سبق في القسم الاول ، ولانه ليســـ انتفاء بعض

الراجح وبقاء بعضه اولى من العكس ، ضرورة التساوى في الحقيقة وان تفاوتا ، فيكون حينئذ الكلام في الراجح كالكلام في الاول ، وهو تسلسل يمنعه العقل ، وان كانت المصلحة تختل بمعارضة المفسدة ، فالعقل يقضى بمناسبتها للحكم ، وبالنظر الى المعارض يقضى بانتفاء الحكم لاجل المعارض.

ولهذا يحسن العقل ان يقول : الداعى الى اثبات الحكم غير موجود، غير انه يمنعنى منه مانع ، ولو اختلت مناسبة الوصف لما حسن من العاقل هذه المقالة

(ب) ــ انه اذا اجتمع الاخ من الابوين مع الاخ من الاب في الميراث ،فانه قد يتعارض في نظر الناظر تقديم الاخ من الابوين لاختصاصه بقرابة الامومة، والتسوية بينهما لاشتراكهما في جهة العصوبة ، والغاء قرابة الامومة ،وتفضيل الاخ من الابوين ، لاختصاصه بمزيد القرابة .

ومع ذلك فالعقل يقضى بتأدى النظر من غير احتياج الى ترجيح بان ورود الشرع بالاحتمال الاول مناسب غير خارج عن مقبول العقول .

ولو كان ترجيح الوصف المصلحى معتبرا في مناسبته لما كان كذلك :

(جـ) ــ انه قد يتعارض في نظر امير بلدة عند الظفر بجاسوس عدوه المنازع له في ملكه ، قتله وعقوبته ، زجرا له ولأمثاله عن الحبس المضربه والاحسان اليه واكرامه ، اما للاستهانة بعدوه ، او لقصد كشف اسراره .

واى الامرين سلك ، فانه لا يعد خارجا عن مدار الحكمة ومقتضى المناسبة ، وان لزم منه فوات المقصود الحاصل من سلوك مقابله ، وسواء تساويا ، او كان احدهما راجحا .

(د) ــ ان الشرع قد ورد بصحة الصلاة في الارض المغصوبة نظرا الى مافيها من المصلحة ، وورد بتحريمها نظرا الى ما فيها من مفسدة الغصب .

فلو اشترط الترجيح في المناسبة لما ثبت الصحة ولا التحريم بتقدير التساوى بين مصلحة الصحة ومفسدة التحريم ،ولا حكم الصحة بتقدير رجحان مفسدة الغصب ، ولا التحريم بتقدير رجحان مصلحة الصحة لعدم المناسبة[٢٤] .

ولا يخفى ما في هذه الامور من وهن وضعف ، مما يجعل مناقشتها هينة غير عسيرة لمن ارادها ، اذ الامر الاول ، يمكن ان يناقش بان يقال : ان اريد ان مناسبة الوصف تبنى على اساس انه لابد في المناسبة من المصلحة على وجه لا يستقل بالمناسبة فهذا يكون مسلما •

ولكن لا يلزم من وجود بعض ما لابد منه في المناسبة تحقق المناسبة •

وان اريد انها مستقلة بتحقيق المناسبة ، فهو ممنوع ، اذ المصلحة وان كانت متحققة في نفسها فالمناسبة امر عرفي •

ومما هو معلوم ان العرف لا يعد المصلحة العارضة بالمفسدة المساوية أو الراجحة مناسبة ، فلا يلزم من اجتماع المصلحة والمفسدة تحقق المناسبة •

اما الامر الثاني ، فمناقشته سهلة ، حيث لا نسلم جواز الجزم بمناسبة ما عين دون ظهور الترجيح في نظر الناظر ، وبعد ظهور الترجيح ، فليس الجزم بمناسبة الوصف في نفس الامر قطعا ، لجواز ان يكون في نفسه مرجوحا وان لم يعرف ولم يطلع عليه •

وقد يناقش الامر الثالث ، بان يقال : مهما لم يترجح نظر الامير واهل العرف مصلحة ما عينه من احد الطريقين من الاحساس او الاساءة بمقتضى الحالة الراهنة •

فان فعله ، ففعله لا يكون مناسبا ويكون بتصرفه خارجا عن تصرفات العقلاء •

ويبقى الامر الرابع ، وبعده عن التحقيق بين ظاهر • وذلك لان الكلام انما هو مفروض في اثبات حكم لمصلحة يلزم من اثباته تحصيلا للمصلحة مفسدة مساوية او راجحة •

وما ذكره من مفسدة تحريم الغصب ، وهى شغل ملك الغير غير لازمة من ترتيب حكم المصلحة عليها وهو صحة الصلاة •

وذلك لانه وان لم يحكم بصحة الصلاة ، فالمفسدة اللازمة من الغصب لا تختل ، بل هى باقية بحالها ، ولو كانت لازمة من حكم المصلحة لا غير لا تنتفت المفسدة المعروفة بانتفاء حكم المصلحة ، وليس كذلك ، وحيث لم تكن مفسدة تحريم الغصب لازمة عن حكم المصلحة ، كان من المناسب اعتبار كل واحدة منهما في حكمها ، وهى المصلحة والمفسدة ، اذ لاعسر في اجتماعهما كماتبين ذلك آنفا •

وثالث الاقسام ، هو التحسينى ، وهو ما استحسن عادة من غير احتياج اليه[٢٥] •

وهو يتنوع الى نوعين : ـ

نوع هو غير معارض للقواعد ، كتحريم القاذورات ، فان نفرة الطباع منها لقذارتها :ـ معنى يناسب حرمة تناولها حثا على مكارم الاخلاق ، كما قال تعالى : « ويحرم عليهم الخبائث » • وكما قال الرسول (ص) : «بعثت لا تمم مكارم الاخلاق »[٢٦] •

والنوع الثانى هو المعارض ، كالكتابة ، فانها غير محتاج اليها ، اذ لو منعت ما ضر ، لكنها مستحسنة في العادة للتوسل بها الى فك الرقبة من الرق، وهى خارمة لقاعدة امتناع بيع الشخص بعض ماله ببعض آخر ، اذ ما يحصله المكاتب في قوة ملك السيدله بان يعجز نفسه[٢٧] •

والمناسب الاقناعى ، مثل تعليل تحريم بيع الخمر والميتة بالنجاسة ، ثم يقيس عليه الكلب والخنزير ،والمناسبة ان كونه نجسا يناسب اذلاله ،ومقابلته بالمال في البيع اعزاز ، والجمع بينهما متناقض •

فهذا وان كان يظن به في الظاهر انه مناسب ، لكنه في الحقيقة ليس كذلك ، لان كونه نجسا معناه : انه لا تجوز الصلاة معه ، وليس بينه وبين امتناع البيع مناسبة[٢٨] وهو امر لا يكاد يشتبه على الناظرين •

القسم الثانى من المناسب ينقسم باعتبار شـهادة الشارع له بالملاءمة والتأثير وعدمها الى ثلاثة اقسام : ـ

(أ) ـ قسم علم ان الشارع اعتبره وبنى عليه الاحكام ٠

(ب) ـ قسم علم ان الشارع الغاه ولم يعتبره ٠

(جـ) ـ قسم ثالث لم يعلم اى واحد منهما ، اى انه كان مسكوتا عنه لم يتعرض له الشارع لا بالاعتبار ولا بالالغاء ٠

والاول ، وهو ما علم ان الشارع اعتبره ، بمعنى انه ترجح لدينا ان الشارع اورد الحكم على وفقه ، لا بمعنى التنصيص عليه ، ولا بمعنى الايماء اليه ٠ اذ في هذه الحالة لا تكون العلة مستفادة من المناسبة ، وهو ما يراد بقولهم : هذا له اصل معين شاهد له ٠

وهذا له حالات متعددة مختلفة : ـ

الحالة الاولى : ـ

ان يكون الشـارع قد اعتبر خصوص الوصف في خصوص الحكـم وعموم الوصف في عموم الحكم في اصل آخر ٠

وذلك كقياس القتل بالمثقل على القتل بالمحدد في وجوب القصـاص بجامع القتل العمد العدوان ، فانه قد ظهر تأثير عين القتل العمـد العدوان في عين الحكم وهو وجوب القتل في المحدد ، وظهر تأثير جنس القتل من حيث هو جناية على المحل المعصوم بالقود في جنس القتل مـن حيث هو قصاص في الايدى ٠

وهذا القسم يسمى المناسب الملائم ، وهو متفق عليـه بين الاصوليين القياسيين ومختلف فيما عداه ٠

الحالة الثانية : ـ

ان يكون الشارع قد اعتبر خصوص الوصف في خصوص الحكم من غير ان يظهر اعتبار عينه في جنس ذلك الحكم في اصل آخر متفق عليه ، ولا جنسه في عين ذلك الحكم ولا جنسه في جنسه •

وكذلك لم يدل على كونه علة نص ولا اجماع لا صراحة ولا ايماء ، وذلك كمعنى الاسكار ، فانه يناسب تحريم تناول النبيذ ، وقد ثبت اعتبار عينه في عين التحريم في الخمر ، ولم يظهر تأثير عينه في جنس ذلك الحكم ،ولا جنسه ، ولا اجماع عليه •

فلو قدرنا انتفاء النصوص الدالة على كون الاسكار علة ، فلا يكون معتبرا بنص ايضا ، وهذا هو ما يسمى بالمناسب الغريب ، وهو مختلف فيه بين القياسيين ، وقد انكره بعضهم ، ولكن هذا الانكار قد لا يتجه ، لانه يفيد الظن بالتعليل •

ولهذا ، فاذا رأينا شخصا قابل الاحسان بالاحسان ، والاساءة بالاساءة، مع انه لم يعهد من حاله قبل ذلك شيء فيما يرجع الى المكافأة وعدمها ، غلب على الظن ما رتب الحكم عليه •

والذى يؤيد ذلك ، انه لا يخلو اما ان يكون الحكم ثبت لعلة ، اولا لعلة :ـ

فان كان لا لعلة ، فهو بعيد ، لما تقرر في موضعه من الاصول من امتناع خلو الاحكام عن العلل •

وان كان لعلة ، فاما ان يكون لما لم يظهر ،او لما ظهر ، لكن الاول يلزم منه التعبد ، وهو بين البعد ، فلم يبق الا الثاني ، وهو المطلوب •

الحالة الثالثة :

ان يكون الشارع قد اعتبر جنس الوصف في جنس الحكم لا غير ، اى انه لم يعتبر مع ذلك عينه في عينه ، ولا عينه في جنسه ، ولا جنسه في عينه، ولا دل عليه نص ولا اجماع •

وهذا ايضا من جنس المناسب الغريب المختلف فيه بين علماء القياس المثبتين له ، الا انه دون الحالة الثانية واضعف منها .

وذلك لان الظن الحاصل باعتبار الخصوص ، لكثرة ما به الاشتراك، اقوى من الظن الحاصل من اعتبار العموم في العموم .

وذلك كاعتبار جنس الشقة المشتركة بين الحائض والمسافر في جنس التخفيف ، فان عين مشقة الحائض ليست عين مشقة المسافر بل من جنسها، وعين التخفيف عن المسافر باسقاط الركعتين الزائدتين ليس عين التخفيف عن الحائض باسقاط اصل الصلاة بل من جنسها(٢٩) .

الحالة الرابعة :

المناسب الذى لم يعلم اعتباره ولا الغاؤه ، وهو الذى لم يشهد له اصل من أصول الشريعة بالاعتبار بطريق من الطرق المقررة ، وهو المسمى بالمصالح المرسلة .

وقد قال بعض الاصوليين : ان اكثر من يستعملون المصلحة المرسلة هم المالكية ، ولكن هذا القول ليس بسديد .

اذ المعروف المتتبع ان العلماء من جميع المذاهب الاخرى يكتفون بمطلق المناسبة ، وهذا ليس الا المصلحة المرسلة .

قال بعض المحققين من اهل الاصول : ان القاعدة هى ان الاوصاف انما يلتفت اليها اذا ظن التفات الشارع لها ، وكل ما كان التفاته اليه اكثر كان ظن كونه معتبرا اقوى ، وكلما كان الوصف والحكم اخص كان ظن كون ذلك الوصف معتبرا في حق ذلك الحكم امتن واشد ، فيكون لا محالة ، مقدما على ما يكون اعم منه .

واما المناسب الذى علم ان الشارع الغاه فهو غير معتبر اصلا ، واما المناسب الذى لا يعلم ان الشارع الغاه او اعتبره ، فذلك يكون بحسب او صاف هى اخص من كونه وصفا مصلحيا ، والا فعموم كونه وصفا مصلحيا مشهود له بالاعتبار ، وهذا هو ما يسمى بالمصالح المرسلة[٣٠] .

الحالة الخامسة :

المناسب الذى لم يشهد له اصل من اصول الشريعة بوجه من الوجوه، وظهر مع ذلك الغاؤه واعراض الشارع عنه في صوره .

فهذا ما اتفقت كلمة العلماء على ابطاله وامتناع التمسك به ، وذلك كقول بعض العلماء لبعض ملوك الاندلس عندما واقع زوجته في نهار رمضان وهو صائم : « يجب عليك صوم شهرين متتابعين » ، فلما انكر العلماء عليه ذلك ، حيث لم يأمره باعتاق رقبة اولا ــ مع تمكنه واستطاعته ــ قال : لو امرته بذلك لسهل عليه ذلك واستحقر اعتاق رقبة في قضاء شهوة فرجه ، فكانت المصلحة في ايجاب الصوم مبالغة في زجره .

فهذا وان كان مناسبا ويجرى عليه القياس ، الا انه لم يشهد له الشارع بالاعتبار ، بل ثبت منه الغاؤه وعدم اعتباره بوجه من الوجوه[٣١] .

« في الدليل على ان مناسبة الوصف علامة عليته »

يسلك العلماء لاثبات ان المناسبة دليل كون الوصف علة عدة مسالك اهمها : ـ

انه من المتقرر لدى الجميع ان الاحكام التى شرعها الله تعالى لعباده لا تخلو من مقاصد وحكم ، وهو ما اجمع عليه الفقهاء قاطبة ، سواء منهم من قال : ان ذلك يكون بصورة الزامية وحتمية ، وهو مايراه المعتزلة ومن تبعهم، ومن قال : بحكم الاتفاق والوقوع دون الوجوب كغيرهم .

كما ان العقل ايضا على ذلك يدل وبه يصرح واليه يهدى المنعمين فيه .

اذ من المعلوم عند الكل ان حكمة الله تعالى موجودة في عمله وهو يرعاه ويعنى به ، فرعايته هذا الغرض في هذه الاعمال قد تكون امرا واجبا،أو لا يكون واجبا ، فان كان الاول ، فلم يك خاليا عن المقصود ، وان لم يكن واجبا ، ففعله للمقصود يكون اقرب الى موافقة العقل من قوله بغير قصد، فكان القصد لازما من فعله ظنا ، واذا كان القصد لازما في فعله ، فالاحكام من صنعه ، فكانت لغرض ومقصود .

والغرض اما ان يكون عائدا الى الله تعالى ، او الى العباد ، ولا سبيل الى الاول ، لتعاليه عن الضرر والانتفاع ، بالاضافة الى كونه مخالفا للاجماع ، فلم يبق سوى الثاني .

وايضا فان الاحكام مما جاء بها الرسول (ص) ، فكانت رحمة للعالمين، قال تعالى : « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » ، فلو خلت الاحكام عن حكمة تعود الىالعالمين لما كانت رحمة ، بل نقمة ، لكون التكليف بها محض تعب ومشقة بلا فائدة .

وايضا فان الله تعالى يقول : « ورحمتي وسعت كل شيء » ، فلو كان شرع الاحكام في حق العباد لا لحكمة ، لكانت نقمة لا نعمة ورحمة ،لما عرفت سابقا ،ويدل عليه ايضا قوله (ص) : « لا ضرر ولا ضرار في الاسلام ».

فلو كانت التكاليف بدون فائدة وغرض وحكمة لكانت اضرارا كبيرة واتعابا خالصة تنافي صريح ذلك الكلام ونصه .

اذن يتبين لنا مما سبق ان شرعية الاحكام انما هى لمصلحة العباد من جلب المنافع او دفع الاضرار والمفاسد .

فاذا رأينا حكما من الاحكام الشرعية فيه مصلحة ، فالظاهر ان الحكم شرع لاجله ، لانه لو كان شرع لاجل غيره الذى ما وصلنا الى معرفته ولم يظهر لنا يصبح الحكم تعبديا ، وهو خلاف الاصل والظاهر من سلوك الشارع في شرع الاحكام .

فلا جرم انه ينبغى ان يكون ذلك الحكم مشروعا لما ظهر لدينا ، ولو كان هذا شيئا مظنونا ، لان الظن مما يجب العمل به في الاحكام الشرعية الفرعية باجماع العلماء ، والاثار الكثيرة الواردة في هذا الشأن عن الصحابة مسطورة في الكتب الاصولية المفصلة وغيرها من الكتب الفقهية التى عنى مؤلفوها بتقرير المسألة وتحقيقها وسرد الادلة لها ، فليرمها من شاء ممن احبوا استقصاءها .

هذا ، ونحمد الله تعالى اولا واخرا ، انه المستعان ومنه التوفيق .

« هوامش البحث »

(١) تسهيل الوصول للمحلاوى ، ص ٢١٣ .

(٢) ارشاد الفحول ، ص ٢١٤ ــ نهاية السول جـ ٣ ، ص ٥٢ ــ جمع الجوامع جـ ٢ ، ص ٢٧٤ .

(٣) هذا يدل على ان الملاءمة والمشاكلة متقاربتان ،وقد اكرهنا على هذا اقتصار معظم الاصوليين في تفسير المناسبة والمناسب لغويا على الملاءمة والملائم ، مع ان علماء اللغة قاطبة يفسرونها بالمشاكلة والمشاكل . انظر الصحاح ، جـ ١، ص ٢٢٤ ، طبع مكة المكرمة سنة ١٩٥٦م ــ ولسان العرب جـ ١ ، ص٧٥٦، طبعة بيروت سنة ١٩٥٥م ــ والقاموس جـ ١ ، ص ١٣٢ ، طبعة القاهرة سنة ١٩١٣م ــ قال الزمخشرى : ومن المجاز : بينهما مناسبة وتناسب ، ولا نسبة بينهما ، وبينهما نسبة قريبة ، وجلست اليه فنسبنى فانتسبت له ، انظر اساس البلاغة ، ص ٩٥٢ ، طبع القاهرة سنة ١٩٦٠م .

(٤) جمع الجوامع ، جـ ، ص ٢٧٤ ــ المستصفى ، جـ ٣ ص ٢٩٧ .

(٥) نهاية السول ، ص٥٠ جـ ٣ ــ وانظر المنهاج متن هذا الشرح في نفس المكان.

(٦) منهاج العقول ، ص ٥١ .

(٧) نهاية السول ، ص ٥٢ ــ التحرير مع شرحه التيسير ، جـ ٣ ص ٥١ ، ٥٢.

(٨) ارشاد الفحول ، ص ٢١٥ .

(٩) حاشية البنانى ، جـ ٢ ص ٢٧٥ .

(١٠) ارشاد الفحول ، ص ٢١٥ .

(١١) منع الموانع ، جـ ٢ ص ٢٧٦ ــ غاية الوصول ، ص ١٢٢ .

(١٢) جمع الجوامع ، جـ ٢ ص ٢٧٦ .

(١٣) حاشية البنانى جـ ٢ ص ٢٧٦ .

(١٤) غاية الوصول ، ص ١٢٢ .

(١٥) ارشاد الفحول ، ص ٢١٥ .

(١٦) البناني ، جـ ٢ ص ٢٧٩ .

(١٧) مناهج العقول ، جـ ٣ ص ٥١ .

(١٨) ارشاد الفحول ، ص ٢١٦ .

(١٩) غاية الوصول ، ص ١٢٢ .

(٢٠) نهاية السول ، جـ ٣ ص ٥٤ .

(٢١) ارشاد الفحول ، ص ٢١٦ .

(٢٢) نهاية السول ، المكان السابق .

(٢٣) ارشاد الفحول ، المكان السابق .

(٢٤) احكام الآمدى ، جـ ٣ ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٢٥) منع الموانع ، جـ ٢ ص ٢٨١ .

(٢٦) ارشاد الفحول ، ص ٢١٧ .

(٢٧) جمع الجوامع مع شرحه منع الموانع ، جـ ٢ ص ٢٨٢ .

(٢٨) نهاية السول ، جـ ٣ ص ٥٤ .

(٢٩) احكام الآمدى ، جـ ٣ ص ٧٩ .

(٣٠) ارشاد الفحول ، ص ٢١٨ .

(٣١) احكام الآمدى ، ص ٨٠ .

« بعض مصادر هذا البحث »

(١) المستصفى ، للامام الغزالى ، طبعة المثنى بالاوفست للطبعة الاولى ببولاق سنة ١٣٢٤ هـ .

(٢) الاحكام في اصول الاحكام ، للامام سيف الدين الآمدى ، طبع مطبعة محمد على صبيح بالقاهرة سنة ١٩٦٨ م .

(٣) منتهى السول في علم الاصول ، للامام الآمدى ، طبع مطبعة محمد على صبيح بالقاهرة .

(٤) منهاج البيضاوى مع شرحى الاسنوى والبدخشى عليه ، طبع مطبعة محمد على صبيح بالقاهرة سنة ١٩٥٣ م .

(٥) مختصر ابن الحاجب ومنتهاه ، الطبعة الاميرية بالقاهرة سنة ١٣١٦ هـ .

(٦) جمع الجوامع بحواشيه ، طبعة مطبعة دار احياء الكتب العربية بالقاهرة .

(٧) شرح ابن الملك على منار النسفى ، مطبعة السعادة العثمانية ، سنة ١٣١٥هـ

(٨) تحرير ابن الهمام ،طبعة مطبعة مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة سنة ١٩٤١م

(٩) غاية الوصول شرح لب الاصول للشيخ زكريا الانصارى ، طبعة مطبعة مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة سنة ١٩٤١ م .

(١٠) ارشاد الفحول ، طبع مطبعة البابى الحلبى سنة ١٩٣٧ م .

(١١) تسهيل الوصول للمحلاوى ، طبع مطبعة مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة سنة ١٣٤١ هـ .

الحجامون والفصـــادون
نماذج من صورهم على الآثار العربية

الدكتور صلاح حسين العبيدي
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

لعب أصحاب الحرف والمهن دورا بارزا في الحياة العربية الاسلامية من خلال ما قدموه من جهود وخدمات في مختلف الميادين ، وفي شتى المجالات فكان منهم الحمال والفلاح والحجام والنساج والزجاج والملاح والصفار والحائك وغيرهم •

وقد سبق ان قدمنا دراسة لشخصيتين حرفيتين هما « الحمال »[1] و « الفلاح »* وقد اخترت هذه المرة الكلام عن الحجام والفصاد ، مؤملا ان اتناول بقية أصحاب الحرف في أبحاث قادمة •

وقد استهوتنا هذه الشخصية الشعبية التي بقيت مع غيرها بعيدة عن متناول الباحثين والدارسين في الاثار العربية •

ومن هنا رأيت ان اتعرض لهذا الموضوع • أما معلوماتنا عن مهنة الحجامة أو الفصد وأصحابها فقد استقيناها من مصدرين ، المصدر الاول هو ما جاء في المراجع التاريخية • أما المصدر الثاني فهو ما جاء في المخطوطات العربية الاثرية •

---

١ ـ انظر مجلة كلية الاداب (جامعة بغداد) المجلد الاول العدد (٢١) سنة ١٩٧٧ ـ ص ٥٢٥ـ٥٣٩ •

(*) انظر ايضا العدد (٢٤) من المجلة المذكورة ص ٣٦٧ ـ ٣٩٤ •

ويجدر بنا ان نعرف شيئا عن الحجامة والفصد قبل ان تتناول اصحابها .
الحجامة هي المداواة والمعالجة باداة أشبه بالكأس ، يقال له المحجم يوضع على الجلد فيحدث فيه تهيجا ويجذب الدم أو المادة بقوة[٢] .

ويفهم من قول لابن القف[٣] « ان التحجم عند الاطباء على نوعين بشرط وبلا شرط والتي بغير شرط على نوعين بنار وبغير نار ، فالمادة الدموية المراد اخراجها لا تخلو ، أما ان تكون مستولية على الظاهر أو على الباطن أو عليهما أو فيما بينهما فأن كان الاول فاخراجها بالحجامة وان كان الثاني والثالث فاخراجها بالفصد وان كان الرابع فبالعلق » .

وقد أفادنا ابن القف[٤] نفسه « بأن الحجامة على نوعين ضرورية واختيارية والاولى هي المستعملة عند الحاجة والثانية لها شروط عشرة ، احدها ان يكون استعمالها في وسط الشهر ، فأن الاخلاط في هذا الوقت تكون ثائرة هائجة وثانيهما ان يكون استعمالها في الزمان المذكور في الثالثة من النهار ، وثالثها ان يكون استعمالها في زمان الصيف ، ورابعها ان يكون استعمالها فيمن كان دمه رقيقا وخامسها ان تشغل المعدة قبل استعمالها بشيء من الاشربة المقوية لها ، وسادسها ان يتجنب استعمالها فيما كان متخلخل البنية لكثرة ما يتحلل من بدنه ، وسابعها ان يتجنب استعمالها قبل سنتين وبعد ستين سنة وذلك لاستيلاء الغلظ على المادة في الوقتين المذكورين ، وثامنها ان يتجنب استعمالها عقيب الحمام ، وذلك لان الحمام يغلظ الجلد ويحوج الى شرط عميق لاخراج الدم ، وتاسعها ان يتجنب استعمالها عقيب الجماع ، وعاشرها ان يتجنب استعمالها عقيب الحركة المفرطة خوفا من فرط التحليل وضعف القوة » .

---

٢ ـ انظر ابن ابي اصيبعة ـ موفق الدين ابو العباس الخزرجي ـ عيون الانباء في طبقات الاطباء ـ ص ٥٦ هامش رقم (٤) .

٣ ـ ابن القف ـ ابي الفرج بن موفق :
كتاب العمدة في الجراحة ، ط ١ حيدر اباد بالدكن ـ جـ١ ص١٧٥ .

٤ ـ المصدر السابق ، جـ١ ص١٧٦ .

ويستطرد في الموضوع نفسه قائلا « انه ينبغي ان يراعى في الضرورية والاختيارية امور ثلاثة . أحدهما مقدار الشرط ، وهو أن يجعل عدده وعمقه بحسب مقدار المادة وقوامها ، وهو انه متى كان المقدار متوفرا والقوام غليظا فينبغي ان يجعل الشرط كثير العدد عميقا ، ومتى كان العكس فبالعكس ، وثانيهما ان يدلك الموضع قبل الشرط ويعلق المحاجم عليه بغير شرط مرات لتنجذب المواد اخراجها اليه وثالثها ان يتجنب بعدها الامتلاء من الغذاء[٥] » .

اما بصدد الفصد فانه يذكر بأنه تفرق ارادي خاص بالاوردة بآلة مخصوصة[٦] .والعروق المفصودة على نوعين ، الشرايين أو ما تسمى بالعروق الضوارب والاوردة أو ما تسمى بالعروق غير الضوارب ، وفي فصد الشرايين خطر من وجهين أحدهما جرها وثانيهما ان الدم الذي تحويه الغالب عليه الجوهر الروحي لا المادة المريضة .

أما الاوردة فقد حصرت في اربعة وثلاثين في الرأس منها اثنى عشر ،وفي اليدين اثنا عشر وفي البطن عرقان ، وفي الرجلين ثمانية عروق وفي كل رجل أربعة[٧] .

وكما للحجامة شروط فأن للفصد شروط أيضا يذكرها ابن القف[٨] « بانها يجب التقيد بها وتطبيقها بشكل دقيق بالنسبة للفاصد والمفتصد ، فعلى الفاصد ان يكون عارفا بالتشريح ليعرف مسالك الاوردة واوضاعها وما يجاورها وان لا يفصد في مكان مظلم ليدرك العرق ويعرف كيف يضع المبضع ، وان يتعاهد تنقية دماغه ثم بصره بالاكحال ان احتاج اليها ، وان

---

٥ ــ المصدر السابق ، جـ١ ص١٧٦ .
٦ ــ المصدر السابق ، جـ١ ص١٦٧ .
٧ ــ المصدر السابق ، جـ١ ص١٦٥ .
٨ ــ المصدر السابق ، جـ١ ص١٦٧ــ١٦٨ .

لا يقدم على فصد صبي ولا على شيخ كبير ولا على طامث الا بأذن أقاربها ولا على مملوك الا بأذن مولاه ولا على محبوس الا بأذن ولي امره ولا على من كانت معدته ضعيفة وكذلك كبده ولا على من كان مستعدا لانطلاق البطن والامراض رطبة ساذجة أو مادية ، وان يوسع الفصد في زمان الشتاء ، وعند كون السمنة مستحصفة والمواد غليظة ويضيقه في الصيف ، وان يكون مبضعه نقيا من الصدأ أو النمش ، وان يطيل زمان حبسه للعرق ، وان يديم تدليك العضد ويأمر المفصود بمسك شيء ثقيل ليظهر العرق وان يفصد العروق المفصلية طولا ان اراد تأخر التحامها وعرضا ان اريد تشفيها بسرعة وان يشد العضد بعصابة معتدلة العرض دقيقة ، واما اعتدال العصابة فأن الدقيقة تجر العضد وتؤلمه والعريضة لم يتمكن الشد بها ، وان لا ينظر الى وجه امرأة عند فصدها ولا يطيل زمان حبس عضدها وزندها ، وان يكون لطيف الانامل لا يعمل بها اعمالا خشنة وان يكون معه أدوية مهيأة لقطع الدم وان يكون دينا في دينه طاهرا في ذيله » .

أما عن أصحاب هذه المهنة فهم الحجامون والفصادون ، فالحجام كما جاء في لسان العرب[٩] « المصاص » ، يقال للحجام حجام لامتصاصه فم المحجمة والمحجم بالكسر الآلة التي يجمع فيها دم الحجامة عند المص » .

ومهنة الحجامة أو الفصد كانت معروفة منذ أقدم العصور ولكن كيفية معرفة الانسان لهذه المهنة لا تزال حتى اليوم يلفها الغموض ، والسبيل الى معرفة هذا الغموض جد عسير بل يكاد يكون مستحيلا ، فلسنا نعرف على وجه اليقين كيف اهتدى الانسان الى معرفة هذه الحرفة واين كان ذلك ومتى.

---

٩ ــ ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم :
لسان العرب ، جـ١٢ ص١١٧ .

ومع ذلك فأن الاشارات الى وجود تأليف في هذا الحقل قد وصلت الينا ، حيث يذكر ان ابيوقراط[١٠] ألف كتابا في الفصد وان جالينوس وضع كتابا يتعلق بهذا الحقل ايضا[١١] .

وعرف العرب الحجامة والفصد في الجاهلية ، وجاء في شعرهم انهم كانوا يفصدون النوق لكي يحصلوا على دمها وقد ذكرت قصص متعددة حول دم الفصيد الذي كان يقدم طعاما للضيف بعد ان يجفف داخل امعاء الناقة ويشوى ويعد تقديمه للضيف من قبيـــل تكريمه[١٢] لان الدم كان مقدسا لديهم ، لذلك جرى تحريم عادة فصد الناقة في الاســـلام[١٣] ، قال حاتم طي[١٤] يستنكر فصد الناقة ويدعو الى نحرها لا الى فصدها :

كذلك فصدى ان سألت مطيتي
دم الجوف اذ كل الفصاد وخيـم

وقال ايضا[١٥] :

لا افصـــد النــاقــة من انفهــا
لكننـــي اجرهـــا العــاليــة

١٠ــ ابن ابي اصيبعة ــ المصدر السابق ــ ص٥٦ .

١١ــ المصدر السابق ص١٤٣ ، ١٤٨ ، ومن الجدير بالــذكر ان جــالينوس يذكر عن نفسه (ص ١٢٥ ــ ١٢٦) انه قصد مرتين .

١٢ــ ابن منظور : لسان العرب جـ٣ ص٣٣٦ .

١٣ــ ورد في القرآن الكريم قوله تعالى « حرمت عليكم الميتة والدم ولحـــم الخنزير وما اهل لغير الله به ، والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحـة وما اكل السبع الا ما زكيتم وما ذبح على النصب ... » .
الاية ٣ سورة المائدة

١٤ــ الاصفهاني ــ ابو الفرج علي بن الحسين
الاغاني : ٣٩١/١٧ وانظر البياتي عادل ــ كتاب ايام العرب قبل الاسلام لابي عبيدة ص٣٠٢ .

١٥ــ ابن الاثير ــ ابو الحسن علي بن محمد .
الكامل في التاريخ ٣٦٩/١ وانظر البياتي ــ المصدر السابق ص٣٠٣ .

وقال عارف الطائي[16] :

وقد يترك الغدر الفتى وطعـامه
اذ هو امسى جله من دم الفصـد

وقال زهير بن ابي سلمى في معلقته[17] وقد ذكر آلة الحجامة :

ينجمهـا قـوم لقـوم غرامـة
ولم يهريقـوا بينهـم ملء محجم

فالعربي في الجاهلية عرف فصد الناقة واهتدى الى هذه المهنة (الحجامة) بالنسبة للانسان ويؤيد ذلك وجودها في صدر الاسلام وورودها في الاحاديث النبوية الشريفة ، والا فليس معقولا ان تكون هذه المهنة قد انبثقت فجأة في صدر الاسلام دون ان يكون لها جذور في الجاهلية ، فمما روى عن الرسـول (ص) انه قال خير ما تداويتم به الحجامة والشونيز والقسط[18] ، وروى ابن عباس : احتجم النبي (ص) في رأسه من أذى كان به[19] .

وكذلك جاء ذكر الحجام في العصر الاموي ، فقد نقل الينا صـاحب كتاب الوزراء[20] طريفة وقعت لحجام مع الحجاج بن يوسف الثقفي قـال : « القاضي ابو علي التنوخي قلت لابي الحسين بن هشـام فهـل تعرف خبر الحجام مع الحجاج ؟ قال نعم بلغنا ان الحجاج احتجم ذات يوم ، فلما ركب

١٦ـ نقائض جرير والفرزدق ١٠٨٣/ الاغاني : ١٩/١٢٨ .

١٧ـ الزوزني .
شرح المعلقات السبع .

١٨ـ الشريشي ـ ابي العباس احمد بن عبدالمؤمن :
شرح مقامات الحريري جـ٤ ص٢٠٨ . والقسط عود يحاء به من الهند يجعل في الدواء والبخور .

١٩ـ ابن عبد ربه .
العقد الفريد جـ٦ ص ٢٧٥ .

٢٠ـ الصابي : ابي الحسن الهلالي بن المحسن :
الوزراء ص١٢١ـ١٢٢ .

المحاجم على رقبته قال له : احب ايها الامير ان تخبرني بخبرك مع ابن الاشعث، كيف عصا عليك ، فقال له لهذا الحديث وقت اخر ، واذا فرغت من شأنك حدثتك ، فاعاد فسأله وكررها والحجاج يدفعه ويعده ويحلف له على الوفاء له ، فلما فرغ احضر الحجام وقال له انا وعدناك بأن نحدثك حديث ابن الاشعث معنا ، وحلفنا لك ونحن محدثوك يا غلام السياط فاتى بها فامر الحجاج فجرد وعلته السياط واقبل الحجاج يقص عليه قصة ابن الاشعث باطول حديث فلما فرغ استوفى الحجام خمسمائة سوط فكاد يتلف » .

ويفهم من هذه الرواية ان الحجام شخص كثير الكلام يتدخل في امور لا تعنيه وهي صفة من الصفات التي اتصف بها الحجامون على مر العصور ، مع ان المهنة تقتضي منه الصمت وتجميع الذهن في مهنته لخطورتها وان المحجوم في حالة نفسية لا تسمح له بالحديث والانبساط فيه ، وتدلنا هذه الرواية أيضا على ان مكان الحجامة يكون في أغلب الاحيان في رقبة المحجوم ويؤكد الشعراء في شعرهم هذه القاعدة فقد جاء على لسان أحد الشعراء[٢١] قوله :

وحاجم في الكأس اجرى دما
من ساق ساقينا باشماق
لكنه خالف في شرطه
وحكم الكأس على الساق

وذكر اسم الحجام في هذين البيتين كان الشاعر يقصد توريه في ذلك بأن مكان الحجامة يكون في رقبة المحجوم ، بينما هنا خالف مكان الحجامة ووضع الكأس على الساق بدلا من ان يضعه على الرقبة .

٢١ــ خزانة الادب وغاية الارب ــ مكتبة البيان ودار القاموس الحديث للطباعة والنشر بيروت ص ٣٣٢ .

اما في العصر العباسي فقد لعبت هذه الطائفة من الحرفيين دورا بارزا ، في حياة المجتمع العباسي ما جعل اسمهم يتردد على السنة المؤرخين والشعراء وكان حظ أصحاب هذه الحرفة من هؤلاء مختلفا ، فقد نظر البعض ممن عرفوا بالعلم والفقه والمعرفة الى هذه الحرفة واصحابها نظرة تقدير واحترام ، وقد تكون نظرة هؤلاء العلماء والفقهاء متأتية من كونهم يدركون ان هذه المهنة لم تخرج الى الوجود الا لحاجة اساسية طبية تتعلق بحياة الناس وصحتهم ، اما ما يرافق المهنة من سلبيات فهم لا يفرطون بحاجة الناس بسبب ذلك وانما هذا حكم اخر ومن هنا يأتي تثمين هؤلاء العلماء لها وفعلا ظهر للحجامة أثر طبي واضح يمر بنا بعد قليل .

وقد اعتبر بعضهم وجود هذه المهنة من الضرورات الاجتماعية[٢٢] بل ذهب الغزالي الى أبعد من ذلك حين جعل وجودها من فروض الكفايات فهو يقول « فلا تعجب من قولنا ان الطب والحساب من فروض الكفايات ، فأن اصول الصناعات ايضا من فروض الكفايات كالفلاحة والحياكة والسياسة بل الحجامة والخياطة فانه لو خلا البلد من حجام تسارع الهلاك اليهم وحرجوا بتعريض انفسهم للهلاك[٢٣] » .

لقد نشطت مهنة الحجامة في العصر العباسي ومما يدل على نشاطها كثرة عدد الحجامين الذين اخذوا ينتشرون في ارجاء الدولة العباسية وقد قدر ابن

٢٢ــ اخوان الصفاء : رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء جـ١ ص ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ . (بيروت ١٣٦٧هـ ــ ١٩٥٧ م) .

٢٣ــ أحياء علوم الدين ــ مطبعة احمد البابي الحلبي ــ القاهرة ١٢٩٦ هـ ــ جـ١ ص٢٣ . وأنظر كتاب العامة في القرن الخامس ص ٥٦ لمؤلفه بدري محمد فهد .

الفقيه عدد الحجامين وأصحاب الحمامات في بغداد بثلثمائة الف وستين الف حمامي وحجام[٢٤] .

وعلى الرغم مما في هذا القول من مبالغة فانه يعكس لنا حقيقة واضحة وهو ايمان الناس بالحجامة والحجامين . ولم تقتصر النظرة الى اهمية الحجام على اناس معدودين بل عمت المجتمع العباسي كله ، فقد كان الخلفاء في طليعة من آمن بمهنة الحجامة وجدواها وكذلك الحكام ورجال الدولة وعامة الناس وعرف عن الرشيد انه كان يفصد في كل عام مرتين ، وكان جبرائيل بن بختيشوع طبيبه يتقاضى من الخليفة (١٠٠،٠٠٠) مائة الف درهم عن هذه العملية[٢٥] .

وجاء أيضا انه عرض للوزير ـ يحي بن القاسم المغربي قولنج صعب أقام لاجله في الحمام واحتقن بعده حقن وشرب عدة مرات فلم ير صلاحا فانفذ رسولا الى المتطبب ـ صاعد بن بشر بن عبدوس ـ فلما رآه على هذه الحال ، استدعى فاصدا ففصده واخرج له دما كثير المقدار وسقاه ماء البزور ولعابا وسكنجبيلا ونقله من حجرة الحمام الى الخيش .. فبرأ برا تاما[٢٦] .

٢٤ـ ابن الفقيه ابو بكر أحمد بن محمد بن اسحق الهمذاني ـ من كتاب البلدان ـ مخطوطة مصورة عن مخطوط مشهد ـ نشرها أوثارفار لاموينيج تكيتيشفيلي حول تاريخ مدينة بغداد .
وانظر الشيخلي : صباح ابراهيم سعيد :
الاصناف في العصر العباسي ص٨٩ .

٢٥ـ القفطي ـ جمال الدين ابي الحسن بن يوسف :
تاريخ الحكماء ـ مكتبة المثنى ببغداد ـ مؤسسة الخانجي ص١٢٣ .
وانظر : البدري ـ عبداللطيف :
الفصد في الطب القديم ص٩٢ .

٢٦ـ ابن ابي اصبيعة ـ المصدر السابق ص٣١٣ـ٣١٤ .
وانظر البدري ـ المصدر السابق ص٩٢ .

وبلغ من اهتمام العباسيين بالاحتجام ان جعلوا له عيدا خاصا مثل بقية الاعياد (اطلقوا عليه عيد الاحتجام) وفيه يهدى أصحاب المحتجم له الهدايا ويعمل اجود الطعام[٢٧] .

كما كانت الهدايا تقدم في الايام الاعتيادية الى الخلفاء العباسيين وغيرهم في مناسبات الاحتجام والفصد ويأتي ذلك من قبيل الابتهاج بالشفاء من هذه العملية الصغرى التي تعتبر في نظرهم مهمة جداً ، وهذه الهدايا هي نوع من التهنئة بنجاح هذه العملية كما نفعل نحن اليوم في مثل هذه المناسبات فقد روي ان اليزيدي اهدى الى الرشيد يوم فصد جام بلور وشمامات غالية[٢٨] . وان ابراهيم بن المهدي اهدى المأمون عندما فصد جارية معها عود ورقعة فيها بيتين من الشعر[٢٩] .

وفي مرة ثانية اهدت اليه « رباح » اترجة عنبر عنيها مكتوب بماء الذهب بيتين من الشعر فامر لها بمال كثير[٣٠] .

وقيل ان المعتصم افتصد مرة فاهدت اليه « شمائل » صينية عقيق عليها قدح اسبل عليهما منديل مطيب مكتوب عليه بالعنبر في كل ربع منه بيت شعر[٣١] . وذكر ايضا ان المعتصم اعتل يوما فاشار عليه بختيشوع بالفصد فاخرجت اليه هدايا الفصد وكان فيما اخرج طبق صندل مكتوب عليه بجزع كما يدور عليه شمامات مسك وعنبر[٣٢] .

٢٧ـ متز : ادم :
الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري
(دار الكتاب العربي ـ بيروت) ص ٣٠١ .

٢٨ ـ الجاحظ : المحاسن والاضداد (ط١ ـ مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٤هـ) ص١٤٥ .

٢٩ـ المصدر السابق ص٢٤٤ .

٣٠ـ المصدر السابق ص٢٤٦ .

٣١ـ المصدر السابق ص٦٤٥ .

٣٢ـ المصدر السابق ص٢٤٦ .

ولعل من اطرف ما وصلنا من هدايا الفصد ، هي الهدية التي قدمها ابي دلف الى عبدالله بن طاهر يوم فصد فقد جمع أبو دلف جميع ما اصاب في السوق من الورد وارسله هدية له[٣٣] .

وازاء ما تقدم فقد وجدت نظرة أخرى حاول اصحابها النيل من الحجامين والفصادين ، فالبعض ينظر الى مهرة الصناع على انهم من طبقة السوقة ، اسوة باللصوص[٣٤] ، بينما يضع الدمشقي[٣٥] مهرة الصناع وارباب الحرف في ادنى طبقات الناس ، اما الشريشي[٣٦] فقد عكس تصوره لهم بانهم من ارذال الناس وسفلتهم ، وورد من أقوالهم اربعة كانت في سفل بني اسرائيل وصارت في سفل العبيد وستكون في سفل الاحرار الحياكة والحجامة والدباغة والكناسة .

ومن الصفات التي الصقت بالحجام بانه فضولي كثير الكلام حتى عدوا هذه الصفة وقفا على أهل الحجامة[٣٧] .

ومن صفات الحجامين الاخرى اللؤم الذي من معانيه البخل قال المتنبي[٣٨] يهجو كافور الاخشيدي :

من اية الطـــرق يأتي نحوك الكرم
ايــن المحاجـم يا كافـور والجلـم

٣٣ـ المصدر السابق ص٢٤٦ .

٣٤ـ جروينبام : جوستاف
حضارة الاسلام ـ ترجمة عبدالعزيز جاويد ـ القاهرة ١٩٥٦م ص٢٧٤ .

٣٥ـ الدمشقي ـ أبو الفضل جعفر بن علي :
الاشارة الى محاسن التجارة ـ مطبعة المؤيد بدمشق جـ١ ص ١٦٤ .

٣٦ـ الشريشي ـ المصدر السابق طـ١ ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ .

٣٧ـ المصدر السابق جـ٤ ص٢٢٤ .

٣٨ـ شرح ديوان المتنبي (جـ٤ ص ٢٨٠) . وضعه عبدالرحمن البرقوقي . الناشر دار الكتاب العربي . بيروت .

وبيت المتنبي هذا يدلنا على حقيقة مفادها ان مهنة الحجامة كان يعاب عليها صاحبها بانه لم يكن كريما فكأنما قال له انك بخيل ولئيم لانك حجام.

وليست هذه الصور هي كل ما ورثناه عن صفات الحجامين ، فنحن نقرأ مثلا ان الحجام كان يتصف بالفقر حتى صارت هذه الصفة مضرب الامثال فكان يقال (افرع من حجام ساباط) .

ولهذا المثل قصة اوردها الميداني[٣٩] مفادها ان أحد الحجامين كان يلازم ساباط المدائن يحجم الجند بدانق نسيئة وربما مرت عليه برهة لا يقربه فيها أحد فكان يبرز امه عند تمادي عطلته فيحجمها لكيلا يقرع بالبطالة فما زال يحجمها حتى نزف دمها وماتت فصار مثلا ، قال الشاعر :

مطبخه قفر وطباخه افرغ من حجام ساباط

واورد لنا أبو هلال[٤٠] العسكري ابياتا من الشعر وفيها ما يشير الى صفة الفقر التي كانت تلازم الحجامين :

اذا كان مال من ينطق العجم وحالي فيكم حال من حاك أو حجم
فاين انتفاعي بالاصالة والحجي من العلم والحكم
وهل احد في الناس يبصر حالتي ولا يعلن القرطاس والحبر والقلم

ان مهنة الحجامة بحد ذاتها ليست مصدرا لتدر ربحا كبيرا ، فهي من المهن الشعبية ذات الدخل المحدود مثلما يكون العامل والفلاح في ذلك المجتمع فقيرا يكون الحجام ومن على شاكلته فقيرا أيضا .

٣٩ــ الميداني : مجمع الامثال جـ٢ ص٨٦ .
٤٠ــ العسكري : ابو هلال .
الاوائل (طبع المغرب) ص٥ ويراجع ديوانه .

ان مثل هذه الاحكام القاسية بشأن الحجام والفصاد نقف منها في كثير من التحفظ لانها جاءت مطلقة وغير معززة بالادلة التي يعتمدها الباحث في هذا المجال ولم يكن هؤلاء المؤرخون منصفين مع هذه الطبقة من الناس لانهم بينوا المظاهر السلبية التي اتصف بها الحجامون دون ان يبينوا لنا النواحي الايجابية فيهم ، وربما كانت هذه الصفات التي الصقت بالحجامين تعود الى غياب الضوابط التي تحكم عملهم مما فسح المجال لغير المختصين بهذه المهنة ان ينتظموا فيها ويدعوا امتهانهم لهذه الحرفة فأساءوا الى سمعتها نتيجة لجهلهم بممارستها ولدينا ما يشير الى وجود أمثال هؤلاء المدعين فقد (جاء ان صلاح الدين دخل دمشق وخرج يودع الحاج ، ثم رجع فحم ففصده من لا خبرة عنده فخارت القوة ومات قبل الرابع عشر ووجد الناس عليه شبيها بما يجدونه على الانبياء)[41] ومن الذين ماتوا بالفصد الخليفة العباسي القائم بامر الله فقد ذكر السيوطي[42] ان الخليفة المذكور (افتصد ونام فانحل موضع الفصد وخرج منه دم كثير فاستيقظ وقد انحلت قوته ثم توفي) .

اضف الى ذلك سببا اخر ، وهو ان الحجامين بحكم مهنتهم وتنقلهم بين البيوت واحتكاكهم بالاسر المتباينة ربما كانوا مدعاة لتسرب اخبار شخصية لتلك الاسر مما جعل الناس ينظرون اليهم بعدم الثقة والاطمئنان والاحتقار احيانا .

وافادتنا بعض الابيات الشعرية بتعليل اخر للسبب الذي غض من مكانة الحجام فهي تتضمن ذما لشخص يقول له الشاعر فيها انك لست مؤهلا لان تكون فارسا بل انك حجام ، قال الشاعر[43] :

٤١ـ ابن ابي اصيبعة ـ عيون الابناء ص٦٨٨ .

٤٢ـ السيوطي : تاريخ الخلفاء والمؤمنين (المطبعة المنيرية) ص ٢٩٧ .

٤٣ـ العسكري : هلال :
كتاب التلخيص في معرفة اسماء الاشياء (جزءان) تحقيق : د . عزت النصر ـ دمشق ١٣٨٩هـ مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ج٢ ص٧٢٧ .

احق بذاك من سيفي محلى

ومن فرس يحمحم في اللجام

وقد افادنا الشعر في التعرف على بعض الامور التي تتعلق بالحجامة قال الشاعر[٤٤] :

لانت بجونه وبمشرطها ـــ وبالجلمين والموسى الهذام

وقرز فيه كرسفه ودهن ـــ تطوف به وتصرخ في الانام

والبيتان المتقدمان يوضحان بعض الحقائق التي تتعلق بهذه المهنة فهي عددت لنا مثلا الادوات التي يستعين بها الحجام في مهنته فذكرت لنا الجونة والمشرط والجلم والموسى والقرز والكرسفة والدهن .

ومن أدوات الحجامين الاخرى الفامة المحجمة وربما سميت المحاجم الملازم والملاحج والتشريح جونة الحجام[٤٥] .

وكثرا ما يطلب المحجومون من الحجامين طلبات معينة وتؤدي تلك الطلبات احيانا الى استغاظة الحاجم وتدل هذه الطلبات على الاحتراس وعدم الثقة بالحجام نفسه ، وبادواته التي يشك المحجوم احيانا بنظافتها وأنها لا تسبب له العدوى بالامراض لان هذه الادوات تستعمل في حجامةأشخاص كثيرين وان عدم العناية بتعقيمها وتنظيفها ربما تسبب دون شك من حصول مضاعفات كثيرة قد تؤدي في بعض الاحيان بحياة المحجومين . ويذكر التوحيدي ان أبا علقمة دعا بحجام فقال له : انق غسل المجاجم واشدد قضيب الملازم ، وارهف ظبات المشارط واسرع الوضع وعجل النزع وليكن شرطك وخزا ومصك نهزا ولا تردن اتيا ولا تكرهن ابيا ، فوضع الحجام محاجمه في جونته ومضى عنه[٤٦] .

٤٤ـ العسكري ـ المصدر السابق جـ٢ ص٧٢٧ والجلم معروف ـ جلمت الشعر اذا اخذته بالحلم . والقرز ما يجعل فيه الدهن .

٤٥ـ المصدر السابق جـ٢ ص٧٢٧ .

٤٦ـ التوحيدي : ابو حيان .
الامتاع والمؤانسة ـ تحقيق احمد امين واحمد الزين ـ مطبعة لجنة التأليفذ والنشر ـ القاهرة ١٩٧٣هـ ـ ١٩٥٧م ـ جـ٢ ص٢٨٤ .

ولم تقتصر مهنة الحجام على حجم المرضى بل شملت كذلك اعمال الحلاقة أيضا[٤٧] . ويذكر انه كان في مكة في القرن الخامس الهجري اسواق فيها عشرون دكانا متقابلة يشغلها جميعا حجامون لحلق شعر الرأس[٤٨] وكثيرا ما كان الحجامون يتواجدون في الحمامات لهذا الغرض .

لقد كان التعاون قائما بين أصحاب هذه المهنة فقد ورد الينا عن شيخ حجام انه رفض أن يأخذ اجرة حجامته من حجام لانهم « أهل صناعة واحدة وهم لا يأخذون من أهل صناعتهم اجرة ابدا[٤٩] »ولا تزال هذه العادة جارية بين أصحاب الحرف والمهن الى وقتنا الحاضر .

وقد وصلت الينا اخبار تدل على اعتزاز أهل المهنة بمهنتهم ويبلغ هذا الاعتزاز في بعض الاحيان الى تعصب أرباب المهنة الواحدة ضد غيرهم، فالحائك اذا رأى تقصيرا من صاحبه أو سوء حذق أو خرقا قال له : يا حجام ، والحجام اذا رأى تقصيرا من صاحبه قال له يا حائك[٥٠] .

ومن مظاهر التعصب لدى هذه الطائفة من الحرفيين انتظامهم فيما يسمى بالنقابات اسوة بارباب الحرف الاخرى وكانت تجتمع عند قبر سلمان الفارسي في المدائن نقابات الحلاقين ، والمشاطين والحجامين وذلك في منتصف القرن الثالث الهجري[٥١] .

٤٧ـ الشريشي ـ شرح مقامات الحريري جـ٤ ص٢٢٣ .

٤٨ـ الشيخلي : صباح ـ المصدر السابق ص ٧٦ .

٤٩ـ المصدر السابق ـ ص ١٤٤ .

٥٠ـ الجاحظ : أبو عثمان عمر بن بحر :
رسائل الجاحظ : تحقيق عبدالسلام محمد هارون (القاهرة ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٥م ـ ص١٢٦-١٢٧)
وانظر الشيخلي : المصدر السابق ص١٣٢-١٣٣ .

٥١ـ الشيخلي : المصدر السابق ص٦١ .

ولم تقتصر مهنة الحجامة على الرجال فقط بل شاركت في ذلك النساء أيضا فقد وصل الينا ما يفيد ان بعض النسوة مارسن هذه المهنة[٥٢] .

وقد عثر على رسوم للحجام على بعض الاثار العربية الاسلامية التي تعود الى العصر العباسي وبخاصة المخطوطات المصورة والخزف .

ولا نكاد نجد في الاثار العربية صورا كما في صور مخطوط مقامات الحريري من حيوية ولمحات تعبر عن شخصية الحجام ، ولعل رسوم الواسطي التي أوضحت مشاهد بالصور كانت أصدق تعبير وهي خير وثيقة مادية ساعدتنا في التعرف على الحجام وملابسه وادواته بطريقة لم تتمكن من تحقيقها عن طريق النصوص التاريخية والادبية التي جاء على ذكرها المؤرخون . ففي المقامة السابعة والاربعين[٥٣] من مقامات الحريري المؤرخة سنة ٦٣٤هـ يذكر الحارث فيها انه في أحد الايام أحس بحاجته الى حجام فبعث بغلامه ليأتيه به ، ولما تأخر الغلام ولم يأت بالحجام ذهب الى الحارث بنفسه اليه فشاهد حوله زحام كبير وامامه صبي قد تهيأ للحجامة ، وقد صور الواسطي هذه الحادثة في ثلاثة صور ، فالصورة الاولى (شكل١) تمثل حانوتا الى جهة اليمين ممثلا في واجهة جلس عندها الحجام وقد مد رجله اليمنى الى الامام مشيرا اليها بيده اليسرى وكأنه يخاطب شخصا اخر ، واما الشخص المخاطب فهو يمثل غلام الحارث بينما وقف الى جانبه عدد من الرجال ، والى الجهة اليمنى من التصويرة نشاهد خزانة من أربعة أدراج صف عليها الحجام أدواته التي يستخدمها في الحجامة ويظهر المشرط واضحا من بين تلك الادوات والى جانب المشرط نلمح اداة اخرى تبدو انها القرز الذي يوضع فيه الدهن وفضلا عن آلات ومواد اخرى لا تظهر لنا واضحة في الصورة .

٥٢ـ البيهقي : ابراهيم بن محمد :
المحاسن والمساوىء ـ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ـ مطبعة النهضة (القاهرة ١٩٦١م) جـ١ ص٢٤١ـ٢٤٢ .

٥٣ـ الشريشي ـ المصدر السابق جـ ٤ ص٢٠٨ .

واحب قبل مغادرة هذا الحجام الى حجام اخر ان اشير الى مسألة جديرة بالاشارة وهي الملابس التي يرتديها هذا الحجام وتشير الصورة الى ان الملابس مؤلفة من عمامة ودراعة والعمامة التي فوق رأس الحجام ملفوفة بصورة متقاطعة تنسدل منها عذبة الى الخلف ، أما الدراعة فتظهر من النوع الفضفاض كما توحي بذلك الطيات الكثيرة التي تزينها •

والتصويرة الثانية (شكل ٢) التي يظهر فيها الحجام محفوظة هي الاخرى في المكتبة الاهلية في باريس ضمن مخطوط مقامات الحريري وتبرز لنا هذه الصورة التي تمتد عبر صفحين عملية الحجامة وما يستعين به الحجام في عمله ، وكذلك طريقة العمل عندما وقف ابو زيد السروجي يخاطب جمهورا من الناس قد احاطوا به وهو يشرح لهم سوء حاله مما اضطره ان يقبل على عملية حجامة لغلام كشف عن مظهره استعدادا للعملية والناس وقفوا ينظرون بين مستغربين ومشفقين لانه بذلك انما يريد ان يستدر عطفهم لانه يحجم غلاما فقيرا وانه بلغ به الحال من الفقر ان يحجم لاناس لا قدرة لهم على الدفع فهو بهذه الطريقة يحمل جمهور الحاضرين ليتبرعوا له بشيء مقابل عمله الانساني تجاه الغلام • ويتوسط الجمهور خزانة بدرجين صف عليهما مختلف وسائل وادوات المهنة ويبدو المحجم واضحا من بين هذه الادوات وكذلك الصندوق الذي تحفظ فيه تلك الادوات •

وترينا صورة ثالثة (شكل ٣) من نفس المقامة نموذجا اخر لعملية حجامة تجرى فعلا حيث كشف طفل عن ظهره وجلس ابو زيد السروجي يحجمه والناس يحلقون به ينظرون اليه وقد ظهرت الخزانة والادوات في صفين واضحة عليها ومن بينها مشرطان وقرز وبعض لفائف القماش ، قد تكون من الكتان والقطن وهي من ضرورات العمل •

ويظهر الحجام أو الفاصد لدينا في مثال اخر وارد على كسرة من الخزف (شكل ٤) يرجع تاريخها الى حوالي القرن السابع الهجري(١٣م) محفوظة في متحف برلين ، ترينا متخصصا في عملية فصد الدم وتبدو المريضة وهي سيدة وقد تحول رأسها بعيدا الى الجهة الاخرى حتى لا ترى الحجام وهو يؤدي ، اجراءات العملية وعلى العكس من ذلك نرى الى جانبها صبية تتطلع باهتمام الى عملية الحجامة •

ويرتدي الحجام ملابس مؤلفة من عمامة بطيات متعددة ذات اشرطة زخرفية تزين بعضها نقط صغيرة والبعض الاخر أشكال مؤلفة من مستطيلات أما ملابس البدن التي يرتديها الحجام فهي عبارة عن جبة ذات زخرفة هندسية •

وهكذا نخرج من هذه الرحلة العلمية بصورة واضحة المعالم بينة القسمات عن الحجام والفصاد ، وعن مهنة الحجامة ووسائلها وأدواتها عبر مرحلة مزدهرة من عصورنا الذهبية ، حيث كان العالم العربي الاسلامي مركز اشعاع لجميع العالم • وان هذه النماذج تمثل قدرة الامة التي استطاعت ان تحقق لها منهجا علميا وتضع نظاما خاصا لمهنة الحجامة في الطب • وارجو ان أكون قد وفقت الى جمع النماذج المتوفرة ومقارنتها بما ورد من اخبار عن هذه المهنة محاولا ان استعين بالنظرة العلمية موفقا بينها وبين ما ورد في كتب الادب والشعر عن مهنة الحجامة •



شكل (١)



شـــكل (٣)

شـــكل (٤)

المصـــادر

ابن الاثير : أبو الحسن علي بن محمد الشيباني .

١ ـ الكامل في التاريخ .

اخوان الصفا .

٢ ـ رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء (بيروت ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م) .

الاصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد الكاتب .

٣ ـ الاغاني . حققه لجنة مطبعة دار الكتب بالقاهرة (١٣٤٥ ـ ١٣٨١ هـ) مطبعة التقــدم .

ابن أبي اصيبعه : موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي .

٤ ـ عيون الانباء في طبقات الاطباء . شرح وتحقيق الدكتور نزار رضـــا منشورات مكتبة الحياة (بيروت ١٩٦٥م) .

البدري . عبداللطيف .

٥ ـ الفصد في الطب القديم مجلة المجمع العلمي العراقي .

البياتي . عــادل .

٦ ـ كتاب ايام العرب قبل الاسلام لابي عبيدة . مطبعد دار الجاحظ . (بغــداد ـ ١٩٧٦م) .

التوحيدي : أبو حيان .

٧ ـ الامتاع والمؤانسة . تحقيق احمد أمين واحمد الزين . مطبعــة لجنـة التأليف والنشر (القاهرة ـ ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٣م) .

الجاحظ : أبو عثمان عمر بن بحر .

٨ ـ رسائل الجاحظ : تحقيق عبدالسلام محمد هارون (القاهرة ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ ، ١٩٦٥ م) .

خسرو . ناصر .

٩ ـ سفر نامه . ترجمة يحي الخشاب . ط٢ . دار الكتـــاب الجـــديد (بيروت ـ ١٩٧٠م) .

الدمشقي : أبو الفضل جعفر بن علي .

١٠ـ الاشارة الى محاسن التجارة . مطبعة المؤيد (دمشق ـ ١٣١٨هـ) .

الشريشي : أبي العباس احمد بن عبدالمؤمن القيسي .

١١ــ شرح مقامات الحريري . الطبعة الاولى (١٣٧٢هـ ــ ١٩٥٣م) .
الشيخلي : صباح ابراهيم سعيد .

١٢ــ الاصناف الاسلامية في العصر العباسي ، نشأتها وتطورها .
(منشورات وزارة الاعلام العراقية) .
الصابي . ابو الحسن (أو الحسين) الهلال بن المحسن .

١٣ــ رسوم دار الخلافة . تحقيق ميخائيل عواد . مطبعة العاني (بغداد ــ ١٣٨٣هـ /١٩٦٤م) .

١٤ــ الوزراء . تحقيق عبدالستار احمد فراج . دار احياء الكتب العربية (١٩٥٨م) .
العبيدي . صلاح .

١٥ــ « الحمال » نماذج من صورة على الاثار العربية الاسلامية . مجلة كلية الاداب . جامعة بغداد . المجلد الاول (العدد ٢١ سنة ١٩٧٧م) ص ٥٢٥ ــ ٥٣٩ .
العسكري . ابي هلال العسكري .

١٦ــ كتاب التلخيص في معرفة اسماء الاشياء (جزءان) تحقيق الدكتور عزت حسن (دمشق ١٣٨٩هـ) مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.
الغزالي . أبو حامد محمد بن محمد .

١٧ ــ احياء علوم الدين . مطبعة احمد البابي . (القاهرة ــ ١٢٩٦هـ)
ابن الفقيه . ابو بكر احمد بن محمد بن اسحاق الهمداني .

١٨ــ من كتاب البلدان . مخطوطة مصورة عن مخطوط مشهد . نشرها أوتار فار لاومينيج تكيتسيشفيلي . حول تاريخ مدينة بغداد
ابن القف . ابي الفرج بن موفق الدين يعقوب بن اسحق .

١٩ ــ العمدة في الجراحة . ط اولى حيدر اباد بالدكن .
ابن القفطي . جمال الدين ابي الحسن علي بن يوسف .

٢٠ــ تاريخ الحكماء . مكتبة المثنى بغداد . مؤسسة الخانجي .

٢١ ــ ابن منظور . جمال الدين محمد بن مكرم .

٢٢ ــ لسان العرب . دار صادر . دار بيروت (بيروت ١٩٥٦م ــ١٣٧٥هـ)
الهمداني : ابو الفضل احمد بن الحسين المعروف ببديع الزمان .

٢٣ــ شرح مقامات بديع الزمان الهمداني . شرح محمد محي عبدالحميد . مطبعة المدني (القاهرة ــ ١٣١٨هـ ــ ١٩٦٢م) .

التفسير العلمي للقرآن
معالمه وضوابطه

قدم البحث الى ندوة الدراسات الاسلامية لاتحاد الجامعات العربية في جامعـة ام درمـان الاسـلامية ـ الخرطوم

الدكتور / عبدالقهار داود عبداللـه
الاستاذ المساعد بقسم الدين بكلية الاداب
جامعـة بغـداد .

١١/٢/١٩٧٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آلـه وصحبه أجمعين وبعد : فقد انزل الله تعالى القرآن الكريم هداية للناس معجزة قائمة ظاهرة دائمة تبيانا لكل شيء ما ترك من امر الا اصل اصولـه وابان معالمه ، (ما فرطنا في الكتاب من شيء)[١] ومن هنا تلمّس كل ذي علم علمه منه في مختلف العصور في تعريف الناس باحكامه وحكَمه واغرب البعض في التفسير خاصة من تتبع علم الكون والطبيعة في آيات القرآن الكريم علما بان القرآن قد ابان اصوله واوضح منهاجه واشار الى بعض حقائقه النادرة .

---

(١) الانعام آية ٣٨ .

لقد توسع الباحثون في الاخذ من القرآن بالحاق النظريات العلمية المحتملة به توسعا أذهب بالحكمة في هدايته واعجازه حتى غدت بعض التفاسير وكانها كتب للعلوم الطبيعية وليست تفسيرا للقرآن الكريم .

ونحن في هذا البحث نتلمس منهج الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه في التفسير ثم التابعين لنتبين معالم التفسير في عهدهم حتى اذا بانت معالم البحث دققنا في مسالك الذين نظروا في آيات الله نظرة معينة مرتبطة بالنظريات العلمية الطبيعية توضح منهجهم وتثبت الاصول العامة المنضبطة التي تجنب الباحث مواطن الشطط والزلل وتحقق له تلمس الهداية والاعجاز في بحثه .

اسأل الله عز وجل ان يجعل هذا البحث سببا في هداية الامة الى الايمان بالله ومنارا للعلم ورحمة من الله ومغفرة .

تمهيـد :

يجدربناقبل ان نتحدث عن التفسير العلمي ومنهجه وآراء موافقيه او معارضيه ان نوضح حقيقة العلم وصلته بالدين .

العلـم في اللغـة : ـ

(والعلم نقيض الجهل عَلِمَ علما وعَلُمَ هو نفسه ورجل عالم وعلم من قوم علماء فيهما جميعا قال سيبويه : يقول علماء من لا يقول الا عالما قال ابن جني لما كان العلم قد يكون الوصف به بعد المزاولة له وطول الملابسة صار كانه غريزة ولم يكن على اول دخوله فيه ولو كان كذلك لكان متعلما لا عالما فلما خرج بالغريزة الى باب فَعُلَ صار « عالم » في المعنى كعليم فَكُسِّرَ تكسيره ثم حملوا عليه ضده فقالوا جهلاء كعلماء وصار علماء كحلماء لان العلم مَحْلَمَة" لصاحبه)[٢]

---

(٢) لسان العرب لابن منظور ـ دار صادر بيروت ـ ١٩٥٦ مادة علم .

والعلم في لسان الشرع العام معرفة الله تعالى وآياته وافعاله في عب
وخلقه (انه سبحانه اخبر انه خلق الخلق ووضع بيته الحرام والشهر الحر
والهدى والقلائد ليعلم عباده انه بكل شيىء عليم وعلى كل شيىء قدير فة
تعالى (الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بين
لتعلموا ان الله على كل شيء قدير وان الله قد احاط بكل شيء علما)[٣] فا
على ان علم العباد بربهم وصفاته وعبادته وحده هو الغاية المطلوبة من الخا
والأمر .

التفسير العلمي : هو بيان معنى الآيات القرآنية بتفسيرها تفسيرا مرتب
بحقائق العلوم الكونية وماشابهها وفق القواعد المشهورة في تفسير القرآ
الكريم[٤] .

الحقيقة العلمية : هو امر متعارف على وقوعه حقيقة وتمَّ التوصل الي
عن التجربة العلمية او الملاحظة[٥]

النظرية العلمية : توضيح مقترح لحالة معينة غالبا ما تكون قابا
للنقاش بمقارنتها باقتراحات ثانية متعلقة بمواضيع اصبح متعارفا عليهـ
لحقائق عائمة .[٦]

هل العلم علم الشريعة فقط ؟

المتبصر في آيات الله تعالى المدرك لمعانيها يعلم يقينا ان العلم في مفهوم
العام يطلق على العلم الشرعي وهداية الناس اصالة كما يدل على العلوم
الاخرى ، قال الله تعالى (أأنتم اشد خلقا ام السماء بناها رفع سمكها

---

(٣) الطلاق آية ١٢ .

(٤) ابن قيم الجوزية مفتاح دار السعادة دار الكتب العلمية بيروت ص٥١ .

(٥ ، ٦) World Dictionary (Patrick Hanks, Ed. Encyclopedia Lebanin) pp. 1626 572.

فسواها)[٧] وقال تعالى (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس الى قوله لآيات لقوم يعقلون)[٨] .

فبدأ بذكر خلق السموات وقال تعالى (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب)[٩]

وهذا كثير في القرآن فالارض والبحار والهواء وكل ما تحت السموات بالاضافة الى السموات كقطرة في بحر ولهذا قلّ ان تجيء سورة في القرآن الا وفيها ذكرها اما اخبارا عن عظمتها وسعتها واما اقساما بها واما دعاء الى النظر فيها واما ارشادا للعباد ان يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها واما استدلالا منه بربوبيته لها على وحدانيته وانه الله الذي لا اله الا هو واما استدلالا منه بحسنها واستوائها والتئام اجزائها وعدم الفطور منها على تمام حكمته وقدرته)[١٠]

وقد رد كثير من الباحثين المسلمين ومفكريهم الدعوى الباطلة التي اشاعها الجهلة او الحاقدون في الغرب والشرق وتبعهم من اضلوا من المسلمين في ان العلم الذي اثبته القرآن الكريم وحث عليه ورغبت فيه احاديث النبي صلى‌الله عليه وسلم انما يقصد به العلم الشرعي فقط دون بقية العلوم الاخرى (العالم الاسلامي يمكنه النهوض والرقي واللحاق بالامم العزيزة الغالبة اذا اراد ذلك المسلمون ووطنوا انفسهم عليه ولا يزيدهم الاسلام الا بصيرة فيه وعزما ولن يجدوا لانفسهم حافزا على العلم والفن خيرا من القرآن الذي فيه :ـ

---

(٧) النازعات آية ٢٨ .

(٨) البقرة آية ١٦٤ .

(٩) آل عمران آية ١٩٠ .

(١٠) ابن قيم الجوزية مفتاح السعادة وص١٩٦/١٩٧ .

(هل يستوى الذين يعملون والذين لا يعملون)[11]

والذي فيه (وزاده بسطة في العلم والجسم)[12]

والذي فيه (وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم)[13]

والذي فيه (شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم قائما بالقسط)[14] وقد زعم بعضهم ومن جملتهم (سكار) هذا الذي بالمغرب قد الف كتابا في الطعن على الاسلام وهو الذي يكتب في مجلة (مراكش الكاثوليكية) ان المراد بلفظة العلم في القرآن هو العلم الديني ولم يكن المقصود به العلم مطلقا لنستظهر به على قضية تعظيم القرآن للعلم وايجابه للتعليم . وقد اتى (سكار) من المغالطة في هذا الباب ما لا يستحق ان يرد عليه لما فيه من المكابرة في المحسوس . وكل من تأمل في مواضع هذه الآيات المتعلقة بالعلم وبالحكمة وغيرها مما يحث على السير في الارض والنظر والتفكر يعلم ان المراد هنا بالعلم هو العلم على اطلاقة متناولا كل شيء وان المراد بالحكمة هي الحكمة العليا المعروفة عند الناس وهي غير الايات المنزلة والكتاب كما يدل عليه العطف وهو يقتضي المغايرة ويعزز ذلك الحديث النبوي الشهير (اطلبوا العلم ولو في الصين)[15] .

---

(11) الزمر آية ٩ .

(12) البقرة آية ٢٤٧ .

(13) آل عمران آية ٧ .

(14) آل عمران آية ١٨ .

(15) الحديث موضوع اورده ابن الجوزي في الموضوعات فقال عنه (هذ حديث لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن حبان هذا الحديث باطل لا اصل له / الموضوعات لابن الجوزي تحقيق عبدالرحمن عثمان / نشر محمد عبدالمحسن / المدينة المنورة / ط١ ص٢١٦ .

وفي بعض الايات من القرائن اللفظية والمعنوية ما يقتضي ان المراد بالعلم علم الكون لانه في سياق آيات الخلق والتكوين وهي في القرآن أضعاف الايات في العبادات العملية كالصلاة والصيام كقوله تعالى في سورة فاطر (الم تر ان الله انزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والانعام مختلف الوانه كذلك ، انما يخشى الله من عباده العلماء)

اي العلماء بما ذكر في الآية من الماء والنبات والجبال وسائر المواليد المختلفة الالوان وما فيها من اسرار الخلق لا العلماء بالصلاة والصيام والقيام .

رددنا عليه في المنار وجادلناه بالتي هي أحسن وعظمنا من قدر المدنية المسيحية ووقرنا منها ورددنا القائلين من الاوربيين بان النصرانية كانت وقفا لغير المدنية وسببا لسقوط اليونان والرومان الى غير ذلك ، فكان سيكار هذا ان نشر سلسلة مقالات تتضمن من الطعن على الاسلام مالو جئنا نرده لم نستغن عن ايراد شبه واعتراضات تتعلق بالدين المسيحي مما نأبى ان تتعرض له لانه ليس من العدل ولا من الكياسة ولا من حسن الذوق ان نغيظ اخواننا المسيحيين من اجل رجل اسمه (سيكار) او غيره من هذه الطبقة من الدعاة والمبشرين هذا زائدا الى ما رأيناه في كلامه من الخلط والخبط والمغالطة التي من قبيل قوله : ان العلم المقصود في القرآن ليس هو العلم المعروف عند الناس بمفهومه المطلق وانما هو العلم الديني فقط لان القرآن لا يهمه شيء من علوم الدنيا فمكابر كهذا لا يستحق الجواب ثم علمنا ان المسيو سيكار هذا هو من مستخدمي فرنسة في الرباط بادارة الامور الاسلامية وانه هو والمسيو لويس برنيو مدير التعليم هناك والقومندان ماركو مدير قلم المراقبة

على الجرائد والمطبوعات والقومندان مارتي مستشار العدلية الاسلامية ـ ورهط آخرون هم الذين لعبوا الدور الاهم في قضية العمل لتنصير البربر وما كان استخدام فرنسة لهم مهمات كلها عائدة للاسلام الا على نية نقض كل ما يقدرون عليه من بناء الاسلام بالمغرب وستذوق فرنسا ولو بعد حين وبال ما عملته وتعمله من التعرض للدين الاسلامي الذي تعهدت في معاهداتها باحترامه)[١٦] .

لقد حث الاسلام على العلم بمختلف علومه واصنافه ابتداء بعلم الشريعة الذي لا تستقيم الحياة الا به الى جميع العلوم الاخرى النافعة التي يتصور وجودها ويدل على ذلك ما كان عليه العلماء المسلمون في علوم الطب والكيمياء والهندسة وغيرها مما استفاد منه علماء الغرب والشرق خاصة العلم التجريبي الذي ما عرفه اليونان ولا غيرهم الى ان ارسى قواعده علماء المسلمين اعترافا من علماء اوروبا وغيرهم الذين يعتبرهم العالم الان الحجة الظاهرة في العلم وتطوره قال المؤرخ درابر الامريكي (تأخذنا الدهشة احيانا عندما ننظر في كتب العرب فنجد آراء كنا نعتقد انها لم تولد الا في زماننا كالرأي الجديد في ترقي الكائنات العضوية وتدرجها في كمال انواعها فان هذا الرأي كان مما

---

(١٦) شكيب ارسلان لماذا تأخر المسلمون دار مكتبة الحياة بيروت ص١٤١ـ ١٤٦ .

والغريب في بعض علماء المسلمين ومفكريهم انهم يتركون ذكرالحق والواقع الذي عليه المسيحيون والمسيحية التي ارتضوها لانفسهم لا مسيحية المسيح الحقة ـ يفعلون ذلك حفاظا على شعور المسيحيين ان يمس او يلامس ولا يتوانى المسيحيون علماؤهم ومفكروهم ومبشروهم عن الافتراء على الاسلام واهله بأسلوب دني يترفع عنه سفلة العامة من الناس ـ الكاتب .

يعلمه العرب في مدارسهم وكانوا يذهبون به الى ابعد مما ذهبنا فكان عندهم عاما يشمل الكائنات غ يرالعضوية والمعادن في اشكالها)[17]

وقد نبه علماء المسلمين الى ان هذا لا يعني تدرج خلق الانسان وتطوره من حيوانات ادنى الى القرد الى الانسان في حسن تقويمه وكذا بالنسبة للمعادن لا يعني ان الذهب حصيلة تدرج من الحديد الى النحاس ثم صار الذهب المعهود ولكن كان هناك ترقي في الصفات اذ جعل الله في القرد صفات من التقليد والانتباه ارقى من حيوانات اخرى دونه كما قال الخازني (وهم لم يعنوا بقولهم هذا انه تقلب في صدر الانواع المختلفة كأن كان ثورا ثم حمارا ثم قردا ثم صار بعد ذلك انسانا) .[18]

لا تناقض بين الاسلام والعلم : اذا كان الامر كما ذكرنا فمن اين جاءت مقولة تناقض الدين مع العلم ؟ هذا ما سنبينه ونكشف الذين افتروه على الاسلام وغايتهم من ذلك .

لقد وقفت الكنيسة المسيحية ورجال الدين المسيحيين من العلم موقف الكافر به المكفر لعلمائه ومفكريه حتى وصل الامر بهم الى ان امروا بحرق غاليلو لانه تحدث عن الكون والعلم فكان ذلك سبباً في زرع الحقد في نفوس العلماء والمفكرين في العالم ضد الدين المسيحي والحرص على حربه يقول علي بن رضوان من رجالات القرن الحادي عشر (عندما اخذت صناعة الطب بالتأخر بسبب صدوف المسيحية عن العلوم الطبيعية قام اوريبا سيوس وبولس الزيحيني يؤلفان كناشهما)[19]

(١٧ ، ١٨) الاسلام دين العلم والمدنية /ط١ ـ القاهرة ص ١٢٤ .

(١٩) الكناشات بالضم والشد الاصول التي تتشعب منها الفروع ـ القاموس المحيط / الفيروز آبادي مؤسسة فن الطباعة ـ المكتبة التجارية القاهرة مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ـ فرانتزروز نتال ترجمة انيس فريحة ـ دار الثقاة بيروت . ص ١٦٦ .

(ثم كان من جراء احتضان الكنيسة هذه التصورات المنحرفة ومـــن جراء احتضانها كذلك لكثير من المعلومات الخاطئة والناقصة عن الكون فما هو شأن البحوث والدراسات والتجارب البشرية ان وقفت موقفا عدائيا خشنا من العلماء الطبيعيين حين قاموا يصححون هذه المعلومات البشرية الخاطئة او الناقصة ولم تكتف بالهجوم الفكري عليهم بل استخدمت سلطانها المادي في التنكيل بكل المخالفين لتصوراتها المدنية والعلمية على السواء)[20] ان التصور المسيحي والكنسي للفكر والعلم جعل علماء الغرب قاطبة يقفون موقفا فيـــه شك وريبة من كل فكر ديني أو تصور الهي ظنـا منهم ان كل الاديان تنهج ذلك النهج وتقف نفس الموقف من العلم والعلماء (ومنذ ذلك التاريخ والى اليوم اتخذ الفكر الاوربي موقفا عدائيا لا من الافكار والتصورات الكنسية التي كانت سائدة يومذاك بل من الافكار والتصورات الدينية على الاطلاق بل تجاوز العداء للافكار والتصورات الدينية الى منهـــج التفكير الـــديني بجملتــه)[21]

ومما لا شك فيه ان الديانة المسيحية لم يكن من طبيعتها مسايرة النهضة العلمية الحديثة في سيرها العلمي المطرد وقفزاتها الواسعة الجبارة لانها لاتملك في ذاتها منهج العلم ولا قواعده وبواعثه .

تقول دائرة المعارف البريطانية (ان المعلومات الكونيـــة واللاهوتيـــة والعلمية التي وردت في الانجيل لا تخرج عن كونها مسائل جانبية لا تستحق النظر والاعتبار اذا وضعت تحت منظار العلم الحديث[22])

أو على الاقل عزله عن الحياة ...

يقول العلامة الفرد وايت هيد « Alfred White Head » « ما من مسألة ناقض العلم فيها الدين الا وكان الصواب بجانب العلم والخطأ حليف الدين)ـ كذلك

(٢٠ ، ٢١) خصائص التصور الاسلامي سيد قطب ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة ص١٣ .

(٢٢) دائرة المعارف البريطانية ص٦٣٦ .

انظــــر المقتطفــات التي نقلهــا الاســـتاذ / احمــد غلوش من مجلة (Daily Grphic) بتاريخ ٦ يناير ـ بهذا الخصوص[٢٣] فهذه نظـــرة العلماء المسيحيين للمسيحية واعتقادهم بمعاداتها لكل علم وتقدم بل وصل الامر باللورد Headly الى ان يقول : (ان معظم الديانات التي يعين بهـــا الغرب ليس الا حصيلة خرافات العصور الوسطى والقرون المظلمة) ولننظــر ما قاله علماء الغرب في الاســـلام .

ولنسرد في هذه المناسبة رأى المؤرخ الانجليزي ادوارد كيبسون حيث قال (ان موحدا ذا رأي فلسفي لا يتردد لحظة في قبول وجهات نظر الاســـلام فالاسلام اعلى من تطورنا الفكري اليوم)[٢٤] .

ولئن كانت هذه مشكلة المسيحية في ذاتها وذات رجال الكنيسة في عدم مواكبة ومناهضة العلم في مسيرته فان الاســـلام بني على العلم في اول آية نزلت على نبينا المصطفى صلى الله عليه وسلم (اقرأ باسم ربك الذي خلـــق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلـــم)[٢٥] . وقد شجع الاسلام العلم ورفع مكانته وايدته آياته وحث على التفكر والتدبر والاعتبار والسير وفق ما تقتضيه قواعد العلم والعقل .

قال تعالى (قل انظروا ماذا في السموات وما تغنى الايات والنذر عن قوم لا يؤمنون)[٢٦] .

وقال تعالى :

(انما يخشى الله من عباده العلماء)[٢٧]

---

(٢٣) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين ـ محمدعلي يوسف ـ القاهرة ـ ط١ ص ١٢ .

(٢٤) الدين والعلم ـ المشير أحمد عزت باشا ترجمة وتصحيح عبدالوهـاب عزام طاهر ـ القاهرة ـ ط١ ص١٢٥ .

(٢٥) العلق الآيات ١ـ١٥ .

(٢٦) يونس آية ١٠١ .

(٢٧) فاطر آية ٢٨ .

وقال تعالى (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار)[٢٨] . وقد وردت الآيات القرآنية في لفظ (علم) واشتقاقه في ٢٠٦ مئتين وستة مواضع ووردت في لفظة العلم وحده في ثمانية وتسعين موضعا من كتاب الله تعالى . وجعل الله تعالى العلم سببا في الايمان وتركه مع الضلالة سببا في الكفر والهوى قال تعالى (ولئن اتبعت اهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير)[٢٩] وقال ايضا (ولئن اتبعت اهواءهم من بعدما جاءك من العلم انك اذا لمن الظالمين .)[٣٠] .

لقد وضع الاسلام منهجا علميا لمختلف العلوم يظهر جليا في المعارف المختلفة التي اختص بها علماء المسلمين واستفاد منها استفادة علمية عميقة علماء الغرب واعترفوا بها وخاصة العلم التجريبي فان (اول شيء تميز به فلاسفة العرب عمن سواهم من فلاسفة الامم هو بناء معارفهم على المشاهدات والتجربة والا يكتفوا بمجرد المقدمات العقلية في العلوم ما لم تؤيدها التجربة حتى لقد نقل جوستاف لوبون عن احد فلاسفة الاوربيين ان القاعدة عند العرب هي (جرب وشاهد ولاحظ تكن عارفا) وعند الاوربي الى ما بعد القرن العاشر من التاريخ المسيحي (اقرأ في الكتب وكرر ما يقول الاساتذة تكن عالما) فلينظر المصريون وغيرهم من الشرقيين كيف انقلبت الحال وماذا اعقب من سوء المآل[٣١]

يقول احد الاوربيين (لا ادري كيف اعطانا الاسلام في مدة قرنين عددا من الفلكيين يطول سرد افراده وان الكنيسة تسلطت على العالم المسيحي اثنى

---

(٢٨) آل عمران آية ١٩٠ .

(٢٩) البقرة آية ١٢٠ .

(٣٠) البقرة آية ١٤٥ .

(٣١) الاسلام دين العلم والمدنية ـ محمد عبده ص١٢٣ـ١٢٥ .

عشر قرنا في اوربا ولم تمنحنا فلكيا واحدا) ثم يقول (وقد شعر علي بن رضوان من رجالات القرن الحادي عشر الميلادي بهذا الخطر الذي يهدد تلك الحضارة الخطر الناجم عن احلال تأليف الموسوعات السطحية محل البحث العلمي المركز فانه في كتابه (النافع في تعليم صناعة الطب) يعطينا تاريخا مختصرا لعلم الطب بالتأخير بسبب صدوف المسيحية عن العلوم الطبيعية قام اوريبا سيوس وبولس الايجينى يؤلفان كناشيهما) .

وفي مجال النهج العلمي ايضا تظهر لنا عبقرية علماء المسلمين فيما كتبوه مما ينسجم مع ادق قواعد البحث العلمي (ونظرة حنين الى منزلة العلماء والادباء الذين كان يترجم لهم تظهر لنا جليا انه كان يميز بين التأليف العلمي الرفيع (او شبه العلمي الرفيع) وبين التأليف لعامة الناس والواقع ان عامة علماء المسلمين كانوا يشعرون بهذا التفاوت في النشاط الفكري الموجه للعلماء والمفكرين ولعامة الناس وكل ما كان الكتاب علياً رفيعا يستهدف جماعة العلماء كانت عناية المؤلف بذكر مصادره ومراجعه ادق واشمل مما لو كان كتابا لعامة الناس والادب الكلاسيكي والعصري كان ولا يزال من حيث الجودة والاتقان يتأثر بمثل هذه الاعتبارات اما التأليف الطبي فقد كان اصحابه في غنى عن ذكر مصادرهم التي اخذوا عنها لشعورهم انهم يدونون من الامور الطبية ما قد اصبح حقائق علمية معروفة وهذا يصدق ايضا على التأليف في سائر العلوم الطبيعية اما اصحاب الكتب التاريخية فانهم كانوا شديدي الحرص على ذكر المصادر التي يأخذون عنها فان السبكي الاب مثلا كان ينصح المؤرخين بان يذكروا المصدر كل مرة اتوا فيها على ذكر خبر تاريخي[٣٢] هذا ما قاله علماء الغرب فرانتز وامثاله في العلوم التي ارسى علماء المسلمين قواعدها وكانوا سببا في نمائها وتطورها ويذهب علماء المسلمين الى ابعد من هذا حين يبرزون معالم البحث العلمي ويقيدون اغراضه

---

(٣٢) مناهج العلماء المسلمين ــ فرانتزروزنتا (ص١٦٥ــ١٦٦) .

حتى لا يكون التأليف عبثا وتسويدا للورق وركضا وراء الشهرة دون تمحيص أو تدقيق كما نجد في عصرنا هذا ، وقد عبر العلموي في كتابه (المعيد) عن هذه الفكرة بتفصيل اوسع (قال صاحب الاحوذي ، ولا ينبغي لمصنف يتصدى الى تصنيف ان يعد الى غير صنفين اما ان يخترع معنى او يبتدع موضعا ومبنى وما سوى هذين الوجهين فهو تسويد للورق والتحلي بحلية السرق)[٣٣] وهنا يذكر العلموي قولا آخر كأنه تعليق وتفسير لقوله السابق (وهذا لا ينافي ما ذكره بعضهم من ان رتب التأليف سبعة استخراج ما لم يسبق الى استخراجه وناقص في الوضع يتم نقصه وخطأ يصح الحكم فيه ومستغلق باجحاف الاختصار يشرح او يتمم بما يوضح استغلاقه وطويل يبدد الذهن طوله يختصر من غير اغلاق ولا حذف لما يخل حذفه بغرض المصنف الاول ومتفرغ يجمع اشتات تبدده على انه اولى في تقريب العلم للمتعلمين من الذي تقدم في حسن وضعه وتركيبه)[٣٤] [٣٥]

مما تقدم يتبين لنا بوضوح ان الاسلام قد رعى العلم النافع ونما في ظله ورسم له المنهج العلمي السليم الى ان وصل به الى قمة التطور والتقدم . ولذا فهم علماء المسلمين ونحن معهم في هذا الفهم في ان القرآن هو حق من الله والحقائق الكونية والطبيعية حق من الله ايضا لانها خلقه وابداعه فلا يمكن ان تناقض حقيقة علمية ثابتة نصا قرآنيا .

التفسير العلمي للقرآن :

التفسير العلمي للقرآن :

التفسير العلمي : ــ هو ربط الحقائق العلمية الثابتة للعلوم الكونية والطبيعية المختلفة بمعاني الايات القرآنية بدلالة الالفاظ اللغوية على المعاني في المشهور من المأثور والمعهود في اللغة .

(٣٣ ، ٣٤) المصدر السابق ص١١٤ــ١١٧ ، ١٧٤ــ١٧٥ .

(٣٥) لست ادري اذا كانت الاشارة هنا الى ابى بكر بن العربي توفي ١١٤٨هـ. مؤلف شرح صحيح الترمزي وعنوان شرحه هذا (عارضة الاحوذي) . انظر (المترجم) .

لقد اتسم التفسير العلمي للقرآن في العصور المختلفة بظهور باحثين ربطوا الآيات القرآنية بنظريات علمية متغيرة واستفاضوا في أغرابهم بتفسير الايات القرآنية مقحمة مع البحوث العلمية العامة وكأنهم مصرون على ربط كل ما توصل اليه العلم في حقول الظنيات بالقرآن الكريم كتاب الهداية والاعجاز وذهب آخرون بسبب هذا الاسراف والشطط والاغراب الى ان ينحوا باللائمة على هذا المنهج ويبينوا آثاره الفكرية السيئة على تفسير القرآن • علما بان السلف الصالح فقهوا اضواء القرآن الكريم على العلوم بقواعدها وبعض حقائقها العلمية بعد استقصاء يقيني للعلوم المختلفة •

قال الامام الشافعي رحمه الله (وما تنزل بالانسان نازلةالا والقرآنيدل عليها نصا او جملة •) (٣٦)

وقد تحدث عن ذلك علماء من السلف أظهروا حقيقته وبينوا بعض ضوابطه وقيدوه كالامام الغزالي الحجة والسيوطي وابى الفضل المرسى وغيرهم وسنعرض لآراء البعض الذين اشتهروا بذلك •

حجة الاسلام الغزالي : وممن نهج هذا النهج العلمي السليم وأكد شمول القرآن لكل قواعد العلم واثبت بعض حقائقه الامام (أبو حامد الغزالي) الذي أورد ذلك في كتبه سواء في الاحياء أو في غيره ولكنه بسط المسألة بوضوح في كتابه جواهر القرآن والامام الغزالي لا يطلق كلامه اعتباطا دون تمحيص وهو الذي جند قلمه وفكره لنشر الاسلام وتحطيم العقائد الباطلة وتفنيد الاراء الزائفة وهم له بالمرصاد يتصيدون مواطن الضعف فيه ان وجدت فهو يقول (ثم هذه العلوم ما عددناها وما لم نعددها ليست أوائلها خارجة عن القرآن فان جميعها مقترنة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى وهو بحر الافعال وقد ذكرنا انه بحر لا ساحل له وان البحر لو كان مدادا لكلماته لنفد البحر قبل ان تنفد فمن افعال الله تعالى وهو بحر الافعال مثلا الشفاء والمرض كما قال الله تعالى حكاية عن ابراهيم (واذا مرضت فهو يشفيني) •

---

(٣٦) اصول التشريع الاسلامي علي حسب الله ، القاهرة ، ط ص ١٤٥

وهذا الفعل الواحد لا يعرفه الا من عرف الطب بكماله وعلاماته ومعرفة الشفاء وأسبابه ومن أفعاله تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان وقد قال الله تعالى (الشمس والقمر بحسبان) وقال (وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب)[٣٧] وقال (وخسف القمر وجمع الشمس والقمر)[٣٨] وقال (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل)[٣٩] وقا (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم)[٤٠] . ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفهما وولوج الليل في النهار وكيفية تكوير أحدهما على الاخر الا من عرف هيئات تركيب السموات والارض وهو علم برأسه . ولا يعرف كمال معنى قوله (يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك . فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك)[٤١] الا من عرف تشريح الاعضاء من الانسان ظاهرا وباطنا وعددها وانواعها وحكمتها ومنافعها وقد أشار القرآن في مواضع اليها وهي من علوم الاولين والاخرين وفي القرآن مجامع الاولين والاخرين .

وكذلك لا يعرف معنى قوله (سويته ونفخت فيه من روحي) مالم يعلم التسوية والنفخ والروح ووراءها علوم غامضة يغفل عن طلبها أكثر الخلق وربما لا يفهمونها ان سمعوها من العالم بها ولو ذهبت أفصل ما تدل عليه آيات القرآن من تفاصيل الافعال لطال ولا تمكن الاشارة الا الى مجامعها فتفكر في القرآن والتمس غرائبه لتصادف فيه مجامع علم الاولين والآخرين)[٤٢] .

---

(٣٧) يونس آية ٥ .

(٣٨) القيامة آية ٨ ، ٩ .

(٣٩) الحج آية ٦١ .

(٤٠) يس آية ٣٨ .

(٤١) الانفطار ٦ .

(٤٢) جواهر القرآن ص ٣٢–٣٤ . منشورات دار الافاق الجديدة – بيروت.

ومهما قيل فيما ذهب اليه الامام الغزالي انه توسع فانه قد ذكر ما يدل على قصور الخلق في استيعاب بعض العلوم حين قال آنفا (ووراءها علوم غامضة يغفل عن طلبها أكثر الخلق وربما لا يفهمونها ان سمعوها من العالم بها) فقد عقب على ذلك صاحب قصة التفسير (ولا شك ان هذا توسع في القول والاستنباط لان الاصل في القرآن انه كتاب هداية وتشريع لا كتاب علم وتشريح) ولا أدري كيف لا يكون احتواء القرآن على علوم لم تعرفها البشرية الا قريبا ولا تزال مجهولة لديها طريقا للهداية يفهم كل من القرآن على قدر ادراكه ومبلغ علمه ودليلا مع الادلة الكثيرة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم الامي الذي لم يكن له من العلوم الا في نطاق ما يعلمه قومه من مسائل بسيطة في الملاحة وغيرها . وقد أوضح الامام الغزالي هنا وجوب التخصص لمن يفسر آيات القرآن في علم من العلوم كل في الآيات التي تخص علمه فضلا عن توفر شروط المفسرين في معرفة معاني القرآن وهذا ما ابتعد عنه كثير ممن تصدى للتفسير العلمي في العصر الحاضر حيث افرطوا في الكلام عن الآيات في كل علم مع جهلهم لابسط قواعد اصول هذا العلم.

الجلال السيوطي ــ وممن نهج منهج الغزالي ونحا نحوه في القول بشمول القرآن لكل قواعد العلوم العالم المشهور الجلال السيوطي فقد وجد بثاقب فكرة وتبحره في علوم القرآن ومؤلفاته المشهورة توحى بنظرة عميقة وأصيلة مشيرا الى ذلك في كتابه « الاتقان في علوم القران » لكنه كثير ويوضح مقصده في كتابه « الاكليل في استنباط التنزيل » ويدلل على ما يقوله من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة المشهورين :ــ

فمن الآيات قوله تعالى (ما فرطنا في الكتاب من شيء)(٤٣) .

وقوله تعالى (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء)(٤٤) .

---

(٤٣) الانعام آية ٣٨ .

(٤٤) النمل آية ٨٩ .

ومن الاحاديث ما أخرجه الترمذي وغيره ان رسول الله صلى الله عليا وسلم قال «ستكون فتن قيل وما المخرج منها ؟ قال كتاب الله ـ فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم[٤٥] وما اخرجه ابو الشيخ عن ابى هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان الله لو أغفل شيئا لاغفل الذرة والخردلة والبعوضة)[٤٦] ومن الاثار ما أخرجه سعيد بن منصور عن ابن مسعود أنه قال (من أراد العلم فعليه بالقرآن فان فيه خبر الاولين والآخرين)[٤٧] .

وما أخرجه ابن ابى حاتم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال (انزل في القرآن كل علم وبين لنا فيه كل شيء لكن علمنا يقصرعما بين لنا في القرآن)[٤٨] .

أبو الفضل المرسي ـ وهذا عارف عالم سمت روحه عن امور الدنيا وتربى على يديه مريدون تتلمذوا عليه نظر في القرآن الكريم فبهره واستقصى معانيه فحيرته فافصح عن اعجابه بالكتاب العزيز والبحر الغزير ينبوع من ماء الحقيقة يروى كل هذه النفوس على مر الدهر دون أن يعرفوا كل أسراره وان كانوا يعلمون ان الله الذي انزله قد أودع فيه سر الحياة المتجددة لا يدرك من ينهل منه الا وكأنه لم يكن قد ذاق حلاوته من قبل وهذا سر رباني أودعه الله في القرآن الكريم مما يميزه عن كل الكتب السماوية وغيرها .

قال الشيخ أبو الفضل المرسي في تفسيره (جمع القرآن علوم الاولين والآخرين بحيث لم يحط بها علما الا المتكلم به ثم رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف ما استأثر به سبحانه وتعالى ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم مثل الخلفاء الاربعة وابن مسعود وابن عباس حتى قال لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى ثم ورث عنهم التابعون

---

(٤٥) الاتقان في علوم القرآن ـ السيوطي ـ مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ط٣ ٢/١٣٥/١٣٦ .

(٤٦) الاكليل ص ٢ ـ القاهرة ـ مصطفى البابي الحلبي ـ ط١ .

(٤٧) الاتقان ٢/١٣٦ .

(٤٨) الاكليل ص٢ .

باحسان ثم تقاصرت الهمم وفترت العزائم وتضاءل أهل العلم وضعفوا وحمـ
الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه فنوعوا علومه وقامت كل طائفـ
بفن من فنونه)[٤٩] .

وقد ذكر طرفا من العلوم منها الطب فمداره على حفظ نظام الصـحـ
واستحكام القوة وذلك انما يكون باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضاد
وقد جمع ذلك في آية واحدة وهي قوله تعالى (وكان بين ذلك قواما)[٥٠]
وعرفنا فيه ما يفيد نظام الصحة بعد اختلاله وحدوث الشفاء للبدن بعد اعتلال
في قوله تعالى (شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس)[٥١] ثم زاد على طب
الاجسام بطب القلوب وشفاء الصدور هذا ما بينه المتقدمون مع التقييد الذي
أوردوه في اختصاصِ المفسر بالعلم الذي وردت الآيات في بيان حقائقه وأصوله
العـــامة .

بعد ايرادنا لاقوال الائمة والعلماء من السلف في التفسير العلمي وبسطنا
حججهم وسطرنا ما ستندوا عليه من الادلة الشرعية ووجهنا مرادهم نأتي الى
الآراء والاتجاهات في العصور التي تلتهم وفي العصر الحديث خاصةحيث تقدم
العلم تقدما واضحا وأعجب الناس بثمراته وسعوا وراءه في حقيقته وفرضيته
فصار صبغة هذا العصر وحجة هذا الجيل ، انقسم الباحثون الىفريقين فريق
منعالتوسع فيالتفسير العلمي والجري وراء النظريات العلمية القابلة للتغيير
والاقتصار على الحقائق العلمية وقواعد البحث العلمي وترك العلم ينمو ليقدم
الخير للناس والتأكيد على هداية القرآن الكريم للبشرية الى حياة انســانية
فاضلة وفريق اخر ظن أن التوسع في التفسير العلمي سبب في إيمان الناس
بالقرآن الكريم وقربهم من الله عز وجل ولهذا غلب على تفاسيرهم وبحوثهم

---

(٤٩) التفسير والمفسرون ــ محمدحسين الذهبي ــ دار الكتب الحديث القاهرة
ــ ط١ ٣/١٤٤ .

(٥٠) الفرقان آية ٦٧ .

(٥١) النحل آية ٦٩ .

ألقرآنية صبغة النظريات العلمية والقوانين الطبيعية وأمثلة كثيرة من التفاعلات الكيمياوية والفيزياوية وغيرهما[٥٢] .

المؤيدون للتفسير العلمي :

الامام فخرالدين الرازي : هو أبو عبدالله محمد بن حسين القرشي الطبرستاني الاصل الشافعي المذهب المفسر المتكلم الاصولي المتطبب عرف بفهمه العميق واطلاعه الواسع وذكائه الظاهر في تلقي العلوم المختلفة والفنون المتعددة وقد ألف سبعين كتابا ثلاثة منها بالفارسية وابتدأ بثمانية أخرى فلم يتمها وهو صاحب التفسير المعروف « مفاتيح الغيب » ويبدو أن منهجه في هذا التفسير قد أثار كثيرا من العلماء في زمانه وبعد وفاته فوصل ببعضهم الحد الى أن ينفي التفسير في كتابه « مفاتيح الغيب » حيث قال فيه (كل شيء فيه الا التفسير) وفي ذلك مبالغة ولكن ذلك قيل بسبب استفاضة الرازي في العلوم الطبيعية وغيرها استفاضة مفرطة فهو يصدر احكاما عامة في تفسير بعض الآيات كأن يقول لو اتبعت كل دقائق هذه السورة أو الآية لبلغت الف مسئلة مثلا وأكثر ما كان اسهابه واطالته فيما يتعلق بالسموات والكواكب والآراء الفلسفية اليونانية وغيرها دون تمحيص[٥٣] أو تدقيق فأدى به ذلك الى اعترافه بهذا الخطأ في وصيته قبل موته : (الاول فاعلموا أني كنت رجلا محبا للعلم فكنت أكتب في كل شيء لا أقف على كميته وكيفيته سواء كان حقا أو باطلا غثا أو سمينا)[٥٤] ودفعه ما كان يشعر به في نفسه من هذا الافراط في ذكر الآراء المختلفة المختلطة الى أن يطلب من الله العزيز الرحمة والعفو عما فعله (وأقول ان علمت أني أردت تحقيق باطل أو ابطال حق فافعل ما أنا أهله وأن علمت مني أني ما سعيت الا في تقرير ما أعتقدت أنه هو الحق وتصورت أنه الصدق فلتكن رحمتك مع قصدي لا مع حاصلي فذاك جهد المقل فأنت

---

(٥٢) الذهبي التفسير والمفسرون ٣/١٤٤ .

(٥٣) انظر مقالة محمد رشيد رضا في المنار جـ/٧ .

(٥٤) فخرالدين الرازي مفاتيح الغيب ج١ ــ ل وسأرمز له الرازي ــ المطبعة البهية المصرية ط١ ــ القاهرة .

أكرم من أن تضايق الضعيف الواقع في الزلة)[٥٥] وقد تحدث الى الباحثين الذين يقرأون كتابه أن يدعوا له اذا أصاب وان يحذفوا ما أخطأ فيه ان كان الخطأ يقينا .

فيقول (فان طابت له تلك السؤالات فليذكرني في صالح دعائه على سبيل التفضل والانعام والا فليحذف القول السيء فاني ما أردت الا تكثير البحث وتشحيذ الخاطر والاعتماد في الكل على الله تعالى)[٥٦] .

فمن الاطالة في ذلك تفسير قوله تعالى (خلق الانسان من نطفه فاذا هو خصيم مبين)[٥٧] فتحدث عن النطفة وتكوينها من فضلة الهضم الرابع في تفصيل عن حالات الهضم وتكوين الدم ويتدرج حتى يصل الى القول بأن الله خلقها لما كان يدعى الطبيعيون من سلطة الطبيعة في الخلق « وحيث لم يكن الامر كذلك علمنا ان المقتضى لحدوث الابدان الحيوانية ليس هو الطبيعة بل فاعل مختار وهو يخلق بالحكمة والتدبير والاختيار »[٥٨] .

ومع هذا فله تفسيرات جيدة في آيات كونية اخرى .

طنطاوي جوهري والجواهر : من الذين برزوا في التفسير العلمي وكان لهم القدح المعلى فيه صاحب تفسير (الجواهر) وبالاطلاع على هذا التفسير نجد أن صاحبه قد دفعه الحماس المتدفق والعاطفة النبيلة مع الجهل عند المسلمين بالعلم الى أن يذكر الآية القرآنية فاذا وجد لها تعلقا بأي علم من العلوم الحديثة والقديمة ربط بها كل ما وصل الى علمه من النظريات والاقوال بتفصيل جعل ينسيك أنه تفسير للقرآن بل تحسبه كتابا للكيمياء أو الطب أو الفلك ويرجح أن يكون هذا النهج في التفسير القرآني هو الذي حدا بكثير من الكتاب والعلماء والمفسرين وكل المعنيين بالدراسات القرآنية الى انكار

---

(٥٥) المصدر نفسه ج١ — م .
(٥٦) ج ١ — د .
(٥٧) النحل آية ٤ .
(٥٨) الرازي ج ١٩ ص٢٢٤ .

التفسير العلمي دون تمييز بين هذا النهج المضطرب وبين النهج المعتدل الذي يعنى بما تتحمله الآيات من معان مرتبطة بالحقائق العلمية ولا ننكر أن صاحب هذا التفسير كان ذا نية حسنة ومقصد خير فيما ذهب اليه وان أخطأ السبيل فذلك لان غايته كانت الرد على الفكر المادي الالحادي الذي شاع في عصره وابتدره شباب قومه فكان يبغى بذلك ردهم الى الله وتثبيت من آمن منهم على عقيدة الاسلام وحظيرة الايمان .

يتضح لنا ذلك في مقدمة تفسيره موضحا الاسباب التي دعته الى أن ينهج هذا النهج ويسلك هذا المسلك (الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين أما بعد فاني خلقت مغرما بالعجائب الكونية معجبا بالبدائع الطبيعية مشوقا الى مافي السماء من جمال ومافي الارض من بهاء وكمال آيات بينات وغرائب باهرات شمس تدور وبدر يسير ونجم يضيء وسحاب يذهب ويجيء وبرق يتألق وكهرباء تحترق ومعدن بهي ونبات سني وطير يطير ووحش يسير وانعام تسري وحيوان يجري ومرجان ودر وموج يمر وضياء في مخارق الاجواد وليل داج وسراج وهاج وكتاب من العجائب مسطور في لوح الطبيعة منشور وسقف مرفوع ان في ذلك البهجة لذوي البصائر ونورا وتبصرة لصادقي السرائر) الى أن يقول .

(وها أنذا اليوم اوالي التفسير مستعينا باللطيف الخبير مؤملا بما وقر في النفس أن يشرح الله به قلوبا ويهدي به أمما وتنقشع به الغشاوة عن أعين عامة المسلمين فيفهموا العلوم الكونية واني لعلى رجاء أن يؤيد الله هذه الامة بهذا الدين وينسج على منوال هذا التفسير المسلمين وليقرأن في مشارق الارض ومغاربها مقرونا بالقبول وليولعن بالعجائب السماوية والبدائع الارضية الشباب الموجودون وليرفعن الله مدنيتهم الى العلا وليكونن هذا الكتاب داعيا حثيثا الى درس العوالم العلوية والسفلية وليقومن من هذه الامة من يفوقون الفرنجة في الزراعة والطب والمعادن والحساب والهندسة والفلك وغيرها من العلوم والصناعات كيف لا وفي القرآن من آيات العلوم ما يربو

على سبعمائة وخمسين آية فاما على الفقه فلا تزيد آياته الصريحة عن ما
وخمسين آية ولقد وضعت في هذا التفسير ما يحتاجـه المسلم من الاحكـا
والاخلاق وعجائب الكون واثبت حقائق معاني الآيات البينات في الحيوا
والنبات والارض والسموات (ولتعلمن) أيها الفطن ان هذا التفسير نفحـ
ربانية واشارة قدسية وبشارة رمزية أمرت بها بطريق الالهام أيقنت أن لـ
شأنا سيعرفه الخلق وسيكون من أهم أسباب رقي المستضعفين في الارض
(ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز)[٥٩] .

ومع كونه يسهب اسهابا[٦٠] فيما ورد من الآيات الكونية والعلمية لكن
الغريب انه يقحم الآيات الاخرى بمعان معينة ويربطهـا بالمسـائل الكونيـ
والنظريات العلمية فهو عند تفسيره لقوله تعالى (هو الذي أنزل عليك الكتاب
منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) يقول :

(أن الله عز وجل ذكر في هذا المقام العلوم الكونية والكتب السماوية
وبدأ بالثانية فذكر منها التوراة والانجيل والقرآن وثنى بالعوالم العجيبـة
من الارض والسماء وتصوير الاجنة في الارحام وانت خبير ان العلوم أما من
الوحي الصادق وأما من الحكمة العقلية والمشاهدات الطبيعية فالاولى للعموم
والثانية للخصوص ثم القسمين قد يكون العلم فهمـا مشـوبا بالابهام مورثا
الشكوك محوجا العقول الى الكشف فابان سبحانه ان في الوحي ما هو محكم
وما هو متشابه يرجع منه الى المحكم المفهوم فللعقول فيه جولان وللنفوس
فيه موازين بها يزنون الحق ويعرفون مواضع الخطأ من القول ولم يذكر
سبحانه محكما ومتشابها في العالم الطبيعي فانظر كيف ذكر علم العموم وعلم
الخصوص وابان المحكم والمتشابه من الاول ولم يبينه في الثاني وانا الآن ابين
لك ما قصه الله من المحكم والمتشابه في القرآن ثم اقفى على آثاره بالمحكم

---

(٥٩) الحج آية ٤٠ .

(٦٠) طنطاوي جوهري وتفسير الجواهر جـ ١ ص٣ وسأرمز له بجوهري ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ط٢ ـ القاهرة .

والمتشابه من أفعاله في السماء والارض للعقول والافهام فيها انا اذ ابين لك الامرين لتقف على الجمال والبهاء والحسن والكمال والابـداع والغرائب والعجائب وستطلع أيها الذكي في هذا المقام على جمال الطبيعة وكيف انتظمت الكائنات الحيوانية والنباتية والمعدنية وكانت سلسلة واحدة منظمة متناسقة لا خلل فيها ولا عوج)[٦١] .

وقد ظل يتحدث عن تفسير هذه الآية وقسم التكوين الحياني للنبـات والحيوان والصخور فذكر الدور الاول تكوين الارض ثم العصر النباتي ثم العصر الحيواني وذكر أنواع الحيوانات وصنفها الى سـتة أصناف اللافية والمفصلية والهلامية والشعاعية والكثيرة الارجل والسافلة وقد بلغ من اطالته ان الآية بلغ في تفسيرها على هذا النمط من ص ٤١ــ٤٥ وتصور أن ما ذكره يعتبر ايجازا في نظره فلو أسهب فماذا سيحصل حيث يقول (كل ذلك سأشرحه لك شرحا وجيزا كافيا وتطلع على آراء الامم الحاضرة موجزة ملخصة مفهومة واضحة فتسكن نفسك للحقائق وتعلو على مصاف اولئك الذين يدعون العلم العصري وهم عن جماله مغمضون وعن محاسنه ساهون)[٦٢] .

هذا وقد تحدث عن التفسير العلمي للآيات باحثون منهم الدكتـور محمد جمال الدين الفندي الذي نهج نهجا فلكيا واستطرد استطرادات كثيرة وأورد نظريات علمية لا يعول عليها في عالم الحقيقة وذلك في كتابه « مـن الآيات الكونية في القرآن الكريم » وقد تحدث صاحب كتاب القرآن والعلم الاستاذ أحمد محمود سليمان الذي حذر من الجري وراء النظريات العلمية ومع هذا فقد وقع فيها وتحدث عن تطور المخلوقات فيقول « ثم تطورت تلك الزواحف فنشأت منها الطيور التي تسير على رجلين ثم تطورت الطيور الى حيوانات ثديية تسير على اربع»[٦٣] وكذا ما ذكره صاحب كتاب (القرآن

---

(٦١) المصدر السابق جـ١ ص٤١ ــ ٤٢ .

(٦٢) جوهري جـ ١ ص ٤٢ .

(٦٣) أحمد محمود سليمان ــ القرآن والعلم ــ القاهرة ــ طـ١ ص ٦٥ .

والعلم الحديث) السيد عبدالرزلق نوفل الذي افاض في تفسير آيات تخد
علمه الزراعي وغيره وخالف أحاديث صحيحة في تفسير الحسد وكذا في حدي
عن حب الاعداء واحبوا أعداءكم واستشهاده الكثير في أقوال اهل الكتاب
علم النفس والاجتماع وترجيحها على الاحاديث المعتمدة[٦٤] .

المعارضون للتفسير العلمي :

بعد ان أوردنا آراء مؤيدي التفسير العلمي والباحثين فيه اسهابا وايجاز
نورد آراء المعارضين وحججهم لنتبين الحقيقة التي يطلبها كل عالم مسلم .

الامام الشاطبي :ـ يعتبر الامام الشاطبي علما من أعلام الاصول وكتا
المعروف « الموافقات » مصدر مهم في الدراسات العميقة في هذا العلم ويعتب
هذا الامام من أشد المنكرين للتفسير العلمي في كل صورة وقد اورد ادلـ
كثيرة لدعم رأيه فقال بعد ذلك (ما تقرر من ناحيـة الشـريعة وانها جار
على مذاهب اهلها ـ وهم العرب ينبني عليه قواعد منها ـ ان كثيرا من النا
تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد فأضافوا اليه كل علم يذكر للمتقدمـي
أو المتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم (الرياضيات من الهندسة وغيرها
والمنطق وعلم الحروف وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون واشباه
وهذا اذا عرضناه على ما تقدم لم يصح والى هذا فان السلف الصالح من
الصحابة والتابعين ومن يليهم كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه وما أودع فيه ول
يبلغنا انه تكلم أحد منهم في شيء من هذا المدعي سوى ما تقدم وما ثبت في
من أحكام التكاليف وأحكام الاخرة وما يلي ذلك ولو كان لهم في ذلك خوض
ونظر لبلغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة الا ان ذلك لم يكن فدل ذلك على
انه غير موجود عندهم وذلك دليل على ان القرآن لم يقصد منه تقرير شي
مما عمموا »[٦٥] .

---

(٦٤) عبدالرزاق نوفل ـ القرآن والعلم الحديث ـ القاهرة ـ ط١ ص٢٧ .
(٦٥) ابو اسحق الشاطبي ٧٩٠هـ الموافقات ج٢ ص ٧٩ـ٨٠ المطبعة الرحمانية بمصر .

والواقع ان الوقوف عند الآيات فيما كان واضحا ومشهورا وكانت هناك حقائق علمية يمكن ربطها بالآيات الكريمة فلا بأس ، وحجة الامام الشاطبي من امية الامة وعدم معرفتها بالعلوم العصرية وعدم خوض الصحابة رضى الله عنهم فيها كل ذلك لا يمنع من ايراد ما ذكرناه لان معاني الآيات اذا تتبعناها في العصور المختلفة نجدها تختلف مبنى ومعنى ، ايجازا واسهابا .

الامام محمد رشيد رضا :

ممن عارض التفسير الكوني والعلمي الشيخ محمد رشيد رضا حيث أنكر على من أشاع علم الفلك والرياضيات وغيرها في كتب التفسير فهو يقول (وقد زاد الفخر الرازي صارفا اخر عن القرآن هو ما يورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة على نحو ما كانت عليه في عهده كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها وقلده بعض المعاصرين بايراد مثل هذا من علوم هذا العصر وفنونه الكثيرة الواسعة فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصولا طويلة بمناسبة كلمة مفردة كالسماء والارض من علوم الفلك والنبات والحيوان تصد قرّاءها عما انزل الله لاجله القرآن»[٦٦] ومع هذا فهو يذكر بعض الآيات القرآنية ويفسرها تفسيرا علميا فيبدو انه أنكر على أهل الفلك والنبات والحيوان ما ذكروه ظنا وتخمينا من غير تحقيق فهو يقول في قوله تعالى (وارسلنا الرياح لواقح) (كانوا يقولون فيه انه تشبيه لتأثير الرياح الباردة بما يكون سببا لنزول المطر بتلقيح ذكور (الحيوان)[٦٧] النبات لاناثه ولما اهتدى علماء اوربا الى هذا وزعموا انه مما لم يسبقوا اليه من العلم صدع بعض المطلعين على القرآن منهم سبق العرب اليه قال مستر (اجينزي) المستشرق الذي كان استاذا للغة العربية في مدرسة اكسفورد في القرن الماضي ان أصحاب الابل قد عرفوا ان الريح تلقح الاشجار والثمار قبل ان يعلمها أهل اوربا بثلاثة عشر قرنا)[٦٨] .

---

(٦٦) محمد رشيد رضا المنار ج ١ ص٧ .

(٦٧) اخطأ الامام محمد رشيد رضا في ذكر الحيوان والصحيح (النبات) .

(٦٨) المصدر السابق ج ١ ص٢١٠ .

الشيخ أحمد مصطفى المراغي :ـ

وقــد عرف بتفسيره القرآن ودروســـه المتتابعة وقد كان له تفسير سمي باسمه ويبدو انه يرى رأى من سبقه في عدم ربط الآيات القرآنية بفرضيات محتملة لم تثبت بعد ونحن في غنى عن ذلك (وجد الخلاف بين المسلمين في العقائد والاحكام الفقهية ووجد عندهم مرض اخر هو الغرور بالفلسفة وتأويل القرآن ليرجع اليها وتأويله لبعض النظريات العلمية التي لم يقر قرارها وذلك خطر عظيم على الكتاب فان للفلاسفة أوهاما لا تزيد على هذيان المصاب بالحمى) .

والنظريات التي لم تستقر لا يصح ان يرد اليها كتاب الله[٦٩] .

وقد فسر الآيات الواردة في المسائل العلمية مثل قوله تعالى (خــلق السموات بغير عمد ترونها والقى في الارض رواسي ان تميد بكم وبث فيهــا من كل دابة وانزلنا من السماء ماء فانبتنا فيها من كل زوج كريم)[٧٠] .

سيد قطب :

وممن تنبه الى خطورة الاستفاضة المضطردة في التفسير العلمي للقرآن الاستاذ سيد قطب حيث اثبت رأيه في كتابه « في ظلال القرآن » من ضرورة ترك العلم ينمو ويزدهر ويخدم الانسانية في الخير ويكتفي بالاشارة الى عظيم خلق الله في الكون بايراد الحقائق العلمية دون النظريات المتغيرة فهو يقول في قوله تعالى (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شيء قدير)[٧١] فيقول (وهــذه الحقيقة الضخمة التي يعرضهــا

---

(٦٩) احمد مصطفى المراغي ـ الدروس الدينية القاهرة ـ ط ١ ص ٤٢ .

(٧٠) سورة لقمان الآية ١٠ .

(٧١) سورة النور آية

القرآن بهذه البساطة حقيقة ان كل دابة خلقت من ماء تعنى وحدة العنصر الاساسي في تركيب الاحياء جميعا وهو الماء وقد تعني ما يحاول العلم الحديث ان يثبته من ان الحياة خرجت من البحر ونشأت أصلا في الماء ثم تنوعت الانواع وتفرعت الاجناس ولكننا على طريقتنا في عدم تعليق الحقائق القرآنية الثابتة على النظريات العلمية القابلة للتعديل والتبديل ولا نزيد على هذه الاشارة شيئا مكتفين باثبات الحقيقة القرآنية وهي ان الله خلق الاحياء كلها من الماء فهي ذات أصل واحد ثم هي كما تراها العين متنوعة الاشكال منها الزواحف تمشي على بطنها ومنها الانسان والطير يمشي على قدمين ومنها الحيوان يدب على أربع كل اولئك وفق سنة الله ومشيئته لا عن فلتة ولا مصادفة (يخلق الله ما يشاء) غير مقيد بشكل ولا هيئة فالنواميس والسنن التي تعمل في الكون قد اقتضتها مشيئته الطليقة وارتضتها (ان الله على كل شيء قدير)[٧٢] وقد كتب البعض في هذا الموضوع وفسروا بعض الآيات القرآنية تفسيرا علميا صحيحا من أمثال الاستاذ محمد أحمد الغمراوي والاستاذ علي فكري أمين وغيرهما .

وهكذا نجد اخرين سلكوا مسلك المعارضين في تفسير القرآن في البعد عن النظريات والوقوف عند الحقائق والاشارة الى ابداع الله في خلقه من غير طغيان تفاصيل العلوم وظنيات الفلك على الآيات ومعانيها .

من ذلك كله نستطيع ان تثبت بعض القواعد التي يهتدى بها في التفسير العلمي :

١ ــ معرفة الحقيقة الثابتة من ان القرآن الكريم كتاب هداية وتشريع .

---

(٧٢) سيد قطب في ظلال القرآن جـ ١٨ ص ١١١ــ١١٢ دار احياء التراث العربي بيروت .

٢ ـ التثبت من الحقائق العلمية والاهتداء بها في اظهار حكمة الله في بيان علوم الكون .

٣ ـ لا بد لمن يتصدى للتفسير العلمي ان تتوفر فيه شروط المفسر أولا والعلم اليقيني بالعلم الطبيعي الذي وردت الآية بحقائقه .

٤ ـ الاقتصار على القواعد العامة والايجاز بذكرها دون الاطناب والاسهاب .

٥ ـ ابعاد القرآن الكريم ابعادا كليا عن النظريات والفرضيات المحتملة التي أوردها العلماء قديما وحديثا .

٦ ـ التقيد في التفسير بما ورد من آيات تفسرها ونصوص صحيحة من السنة وأقوال الصحابة رضي الله عنهم والمشهور من اللغة وعدم صرف النظر عن النصوص الشرعية من أجل رأي لبعض العلماء من الغرب والشرق لان ذلك خروج على قواعد الشرع واصوله وبعـد عن معاني القرآن الكريم .

وارجو الله ان يوفق علماء المسلمين الى بيان كتاب الله العزيز بيانا علميا يزيد المؤمنين ايمانا ويعيد الصادين عنه الى حظيرة الايمان وحقائق الاسلام .

والله الموفق للصواب

المراجـع

المراجع العربية المُعَرَّبة

١ ــ ابن الجوزي ــ الموضوعات ــ تحقيق عبدالرحمن محمد عثمان نشر محمد عبدالمحسن ــ المدينة المنورة ط١ .

٢ ــ ابن قيم الجوزية ــ مفتاح دار السعادة ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت .

٣ ــ ابن منظور ــ لسان العرب ــ دار صادر ــ بيروت ــ ١٩٥٥ .

٤ ــ احمد محمود سليمان ــ القرآن والعلم ــ القاهرة ــ ط ١ .

٥ ــ احمد مصطفى المراغي ــ الدروس الدينية ــ القاهرة ط١ .

٦ ــ سيد قطب ــ خصائص التصور الاسلامي ــ مكتبة وهبة ــ القاهرة ط١ .

٧ ــ سيد قطب ــ في ظلال القرآن ــ دار احياء التراث العربي ــ بيروت ط٥ .

٨ ــ السيوطي ــ الاتقان في علوم القرآن ــ مصطفى البابي الحلبي ــ القاهرة ط٣

٩ ــ السيوطي الاكليل في علوم القرآن ــ مصطفى البابي الحلبي ــ القاهـرة ط١ .

١٠ــ الشاطبي ــ الموافقات ــ المطبعة الرحمانية بمصر ط١ .

١١ــ طنطاوي جوهري ــ الجواهر في تفسير القرآن الكريم ــ مطبعة مصطفى البابي ــ القاهرة ط٢ .

١٢ــ عبدالرزاق نوفل ــ القرآن والعلم الحديث ــ القاهرة ط١ .

١٣ــ علي حسب‌الله ــ اصول التشريع الاسلامي ــ القاهرة ط١ .

١٤ــ الغزالي ــ جواهر القرآن ــ منشورات دار الافاق الجديدة ــ بيروت ط١ .

١٥ــ فخرالدين الرازي ــ مفاتيح الغيب ــ المطبعة البهية المصرية ــ القاهرة ط١ .

١٦ــ فرانتز روزنتال ــ مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ــ ترجمة انيس فريحة ــ دار الثقافة بيروت ط ١ .

١٧ــ الفيروز ابادي ــ القاموس المحيط ــ مؤسسة فن الطباعة ــ المكتبة التجارية الكبرى ــ القاهرة ط١ .

١٨ــ محمد حسين الذهبي ــ التفسير والمفسرون ــ دار الكتب الحديثة ــ القاهرة ط١ .

١٩ــ محمد عبده ــ الاسلام دين العلم والمدنية ــ القاهرة ط١ .

٢٠ــ محمدعلي يوسف ــ الجفوة المفتعلة بين العلم والدين ــ القاهرة ط١ .

٢١ــ محمد رشيد رضا ــ تفسير المنار ــ دار المنار ــ القاهرة ط٤ .

٢٢ــ المشير احمد عزت باشا ــ الدين والعلم ــ ترجمة وتصحيح عبدالوهاب عزام ــ القاهرة ط١ .

المراجع الاجنبية :

Patrick Hanks, Ed. (Encyclopedic World Dictionary (Lebanin)

التعليم تنظيم للتعلم

عبد الوهاب حسن العيسى
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

تمهيد :

لعل من اهم ما تدعو اليه التربية اليوم هو ان تجعل من المدرسة الاداة الفعالة للتغيير الاجتماعي الذي نخطط له لكي يتحول مجتمعنا من حالة التخلف التي من بعض مظاهرها عدم الافادة من القوى البشرية فيه الى التقدم الذي من ابرز مظاهره التخطيط العلمي لاستثمار جميع الموارد والقوى فيه بما فيها الثروة البشرية وجعلها في خدمة الانسان وبناء مجتمعه .

ان هذا الهدف الاجتماعي للتربية هو من بعض ما تدعو اليه الاشتراكية العلمية التي تعتبر التربية عملية بناء المجتمع عن طريق اعادة بناء شخصية افراده وفق مواصفات وسمات معينة وحسب اهداف مستقبلية منشودة .

ان مجتمعنا العربي الذي عانى كثيرا من التخلف بسبب التجزئة والتبعية تكون التربية ـ والمدرسة من اهم وسائلها ـ الوسيلة الفعالة بما فيها من موضوعات دراسية وفعاليات للتخلص من التخلف عندما تجعل المدرسة طلابها يرفضون التجزئة ويحاربون التبعية ويدعون للتحرر ويسعى كل منهم لتحقيق اهداف امته ورسالتها الخالدة .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو .. كيف يتسنى للتربية ، وهي مجموعة من الاتجاهات الفكرية والعقلية ان تكون وسيلة للتطور الاجتماعي المنشود ؟

انه من السهل ان يسطر اي تربوي مجموعة من الاجابات عن هذا التساؤل لكن التربية العملية الواقعية تطمح الى اكثر من مجرد اجابات نظرية على ورق ذلك لان التربية الحقة هي استثمار الفرد في خدمة مجتمعه « وذلك لا يكون الا بخلق الانسان العربي الجديد ليس من خلال المدرسة والمعهد والجامعة فقط بل من خلال التأثير المباشر اليومي في الحياة اليومية للجماهير .

وهذا يعني ان النظام التربوي يجب ان يقبل على عملية تغيير اساسية داخلية تفتح جدران مؤسساته وتجدد في مناهجه وفعالياته وتعيد النظر جذريا في طبيعة الحياة التربوية وفي طريقة تأهيل الجهاز التربوي بحيث يخضع الحياة التربوية لقانون العلاقة العام بين التربية والسياسة » (١ص١٩). وبعبارة ادق ان نجعل اهدافنا الاجتماعية التي نطمح في تحقيقها محور الفعاليات التربوية لبناء مواطن جديد بارادة جديدة وعقلية جديدة يستوعب اماني امته واهدافها ويعمل جاهدا لتحقيقها فالتربية اذن عملية اعادة بناء الشخصية وفق اسس اجتماعية معينة ، وبهذا تصبح التربية في خدمة المجتمع وتطوره .

تحديد بعض المفاهيم :

المغنى الذي لازم التربية عبر العصور ، رغم كونها عملية تخص زمانا معينا ومكانا معينا لافراد معينين ، بأنها عملية اعداد الفرد لحياة الجماعة . فقد اعتبرت التربية ، منذ العصور الاولى ، ضرورة اجتماعية لتعد الفرد لطبيعة الحياة التي تتطلبها الجماعة التي يعيش بينها ، فكانت ضرورة اجتماعية وكانت وسائلها محدودة بما تحددها الجماعة اما اليوم ونحن في الثلث الاخير من القرن العشرين عصر العلم والتكنولوجيا وتعقد الحياة ، اصبح للتربية وظيفة اخرى ، بانها وسيلة اجتماعية ليس لاعداد الفرد لحياة الجماعة فقط بل انها وسيلة لتطوير المجتمع وتقدمه وتخليصه من التخلف من خلال اعادة بناء شخصية الافراد .

ان كلمة التربية* لفظا تعني تبليغ الشيء الى كماله شيئا وبما ان المدرسة هي المؤسسة الاجتماعية المسؤولة عن العملية التربوية فالتربية المدرسية اذن تعني ايصال التلاميذ الى مستوى من الكمال من خلال الفعاليات المدرسية ـ المنهجية والنشاطات الاضافية ـ يتشربون اساليب التكيف الاجتماعي المقبول ، ويكتسبون انماط سلوكية تتمثل في التفاعل الاجتماعي الجيد بما فيه من خبرات ومعارف وقيم وعقائد واتجاهات .

وبما ان مجتمعنا اليوم يسير نحو التغيير والتحول الاشتراكي فيجب ان تكسر التربية طابعها التقليدي القديم الذي هو مجرد اعداد الفرد لحياة الجماعة ، ذلك لانه اذا كان مجتمع تلك الجماعة متخلفا فالتربية تعني عندئذ مجرد عملية اعداد الفرد لتلك الحياة الاجتماعية المتخلفة الجامدة ... وهذا لا يتفق مع اهداف المجتمع الاشتراكي الذي ينظر الى التربية بأنها عملية اجتماعية تقدمية انسانية تعد الفرد اعدادا سليما لمجتمع متطور افضل وذلك بتنمية ما يملك الفرد من قابليات واستعدادات لاقصى ما يمكن ان تصل اليه من نمو وذلك عندما تزود المدرسة ـ في المجتمع الاشتراكي ـ طلابها بطاقات خلاقة مبدعة تساعدهم لتطوير مجتمعهم نحو الافضل .

اما الاداة الفعالة التي تحقق لنا هذا التغيير الاجتماعي من خلال تنفيذ المنهج فانه المعلم الذي يتخطى اثره حدود وطنه الجغرافية بما ينشر من آراه سليمة اصيلة ولذا يعتبره فلاسفة التربية وعلماء الاجتماع الاداة البشرية الفعالة لاي تغيير اجتماعي .

---

* ـ قالت العرب ... ربا ... يربو .. اي زاد ونما ، ومنها جاءت كلمة الربا ، وهي الربح الفاحش غير المشروع ... وقالوا ربى ... بمعنى نشأ وترعرع وبلغ الكمال شيئا فشيئا .

ان نجاح المعلم في مهنته يعني بلـوغ العملية التربويـة اهدافها نظرا لاتصاله الوثيق المباشر بالطلاب ، فهو من خلال تعامله معهم وتعليمهـم ينمي قابلياتهم وقدراتهم وهـذا هو دوره الفعال في تغيير بناء شخصية الطالب .. فهو ـ المعلم ـ الاداة الواعية والمنفذة في العملية التربوية كي تبلغ التربيـة اهدافها الاجتماعية .

ثانيا ـ التعليم :

هو مجموع الجهود المنظمة التي تبذل داخل المدرسة وخارجها من قبل فرد او جماعة بالاستعانة بأدوات واساليب متعددة كي يكتسب الفرد المتعلـم كل ما تستهدفه المدرسة من تزويد الطالب، سواء كان ذلك الاكتساب على شكل معرفة حقائق علمية ، او انماط سلوكية ، اساليب التعامل الاجتماعي لتقوده لتكييف احسن او اكتساب اتجاهات عقلية وخصائص وسمات وجدانية مقبولة والتعليم في التربية الاشتراكية ـ وهو وسيلتنا لتحقيق التحولات الاشتراكية في مجتمعنا ـ ليس مجرد خزن معلومات وحقائق معرفية في ذهـن الطـالب بل هو ضرورة انسانية حيث يتعرف الفرد المتعلم دوره وواجبه وما ينتظر منه في المجتمع الاشتراكي الذي يعيش متعاونا مع المواطنين الآخرين لانجـاح الاهداف الاجتماعية التي يسعى اليها مجتمعه من هنـا تصبـح الخبرات التي يكتسبها الفرد من خلال العملية التدريسية وسيلة لاغايـة .

ثالثا ـ التعلم :

وهو الاثر الذي تتركه فعالية ما يقوم بها الفرد ليكتسب خبرة جديدة تغير من سلوكه ، ويكون هذا التغيير ظاهرا بشكل من الاشكال اما على شكل تحسن ادائه او حسن تكيفه او دقة واتقان في ما يقوم بـه من فعاليات ... وبهذا يعرف علماء النفس التعلم « بانه تغيير في السلوك نتيجة اكتساب خبرة » فكل ما يكتسبه الفرد من خبرة تؤثر في سلوكه يعتبر تعلما . والفرد يتعلـم

ما يتعلمه ليحقق غايات ويشبع حاجات ويرضي دوافعه ... ولذلك قال علماء النفس « لا تعلم بدون دافع » والتعلم ظاهرة سلوكية تفسرها قوانين ونظريات* «(٢ ص ٢٦٢) بعضها يبين كيف يحدث التعلم وبعض هذه النظريات والقوانين توضح لماذا يحدث التعلم ، اي لماذا يتعلم الفرد ما يراد منه تعلمه .

ماهو التنظيم وما خصائص التنظيم الجيد

التنظيم عملية توضيح الاسس والاساليب التي يتم بموجبهاالحصول على الخبرات واكتسابها يؤكد رجال التربية بأن لعملية التنظيم جانبين ، الجانب الاول هو جانب نظري يتعلق بكيفية اختيار الموضوعات وانتقاء الخبرات التي تحقق الاهداف .

اما الجانب الآخر فهو جانب عملي يتعلق بكيفية تبسيط هذه المعلومات والحقائق المنتقاة وعرضها بشكل يضمن اكتسابها لتصبح من خبرات الفرد المتعلم وجزءا من تكوينه النفسي .

فالتنظيم اذن انتقاء خبرات هادفة وتهيأة الظروف الملائمة لعملية اكتسابها . لذا فالتنظيم الجيد الهادف هو الخطوة الاساسية لتحقيق الاهداف التربوية الاجتماعية وهنا لابد لنا ان نتعرف على العوامل التي تتظافر لجعل التنظيم جيدا .

هناك عوامل تتعلق بطبيعة الاهداف التربوية التي منها تستوحي صلاحية الحقائق المعرفية والخبرات التي نختارها لتتضمنها العملية التربوية في مناهجها . كما ان هذا يتعلق بالفلسفة التربوية الاجتماعية السائدة في المجتمع والتي

---

* — هناك ثلاث نظريات اساسية للتعلم هي :
١ — التعلم الشرطي . ٢ — التعليم بالمحاولة والخطأ . ٣ — التعلم بالاستبصار ولكل نظرية قوانين تبين كيف ولماذا يحدث التعلم .

بموجبها يتم اختيار الموضوعات الدراسية التي عند تعلم الفرد لها تتكـــون ملامح شخصيته وتظهر طبيعة تكوينه النفسي • وهناك عوامل تتعلق بطبيعـة استعدادات الطالب والمرحلة الدراسية التي هو فيها وملائمـــة تلك الخبرات لمتطلبات تكوينه النفسي وطبيعة قدراته النفسية التي يملكها • فالتنظيم الجيد هو ما يراعي كل هذه العوامل التي تتعلق بالطالب وبالخبرات المعرفية والاهداف التربويـــة والاجتماعية •

العلاقة بين التنظيم وعمليتي التعليم والتعلم

يوضح علم النفس التربوي ، الذي يهتم بالعملية التربوية وبخاصة داخل غرفة الدرس الاسس التي يجب ان تتبع في تعليم الطفل والاهتمام بالظروف المحيطة به ليس لمجرد مساعدته في اكتساب الخبرات وتحسن ادائه (اي تعلمه) ••• بل انما ــ وهو الاهم ــ بكيفية استخدام الاسس النفســـية في تنمية مواهب الطفل وقابلياته من خلال الخبرات التي يكتسبها لبناء شخصيته •

هذه الحقيقة التي يؤكدها علماء النفس ، تحتم على المعلـــم ان يعي الاساليب الجيدة في كيفية التعامل مع الاطفال لتنمية قابلياتهم وقدراتهـــم والكشف عن مواهبهم ليضمن لهم حسن التكيف ويحقق افضل تعلـــم كما ويقيهم ، من خلال تعامله الجيد معهم ، مـــن الوقـــوع في الانحرافـــات والاضطرابات •

ان من اهم ما يعانيه معلم الصفوف الاولى في المرحلة الابتدائية ان طلابه ــ قبل دخولهم المدرسة ــ قد اكتسبوا بعض الخبرات والمعارف الخاطئـــة وبصورة غير صحيحة وهي لا تتعارض فقط مع ما تتضمنه المناهج من خبرات وحقائق معرفية بل ان بعضها يعيق الطفل عن اكتساب ما يراد منه اكتســـابه فتحول دون نمو قدراته وتعطيل نمو شخصيته • ولذلك يعتبر مـــن اهـــم

واجبات هذا المعلم هو اعادة تنظيم خبرات طلابه ليس عن طريق التراكم الكمي للمعلومات بل عن طريق تعويد الطالب طريقة جديدة في التفكير التعيد تعلميه اي ان يتعلم الطفل كيف يتعلم ما ينقذه من الخبرات الخاطئة ليكتسب الخبرات الصحيحة السليمة الهادفة .

هذا هو الفرق بين الاسلوب التقليدي في التدريس المبني على التحفيظ واسترجاع المعلومات وبين الاسلوب العلمي الذي يجعل من الخبرة التي يكتسبها الطالب موكدا ذاته ومنميا شخصيته لتجعله قادرا على مواجهة المشكلات والمواقف .

فالتنظيم الجيد للخبرات التي يكتسبها الطالب -لا يعني خزن المعلومات وتكوينها بل يعني تنمية قدرات الطالب من خلال الخبرات لتساعده على اكتساب اتجاهات جديدة ، وقابلية جديدة في تفسير الظواهر المحيطة به .

بهذا الشكل من التنظيم الجيد للخبرات تزود المدرسة طلابها بالطاقات الخلاقة المبدعة التي تمكنه من حسن التكيف وتحسن ادائه كما تساعده في ان يسهم في تطوير مجتمعه وتقدمه بعد ان جعلت منه الخبرات الجديدة بالطريقة التي اكتسبها انسانا آخر .

وهنا نتسائل كيف يخدم التنظيم الجيد هذا عمليتى التعليم والتعلم ؟

لاحظنا مما سبق ان التنظيم الجيد هو الذي يقود لتعلم افضل ، والتعلم الافضل هو عندما يكتسب الفرد ما يراد منه اكتسابه بجهد اقل ، يبذله هو ومن يعلمه وتبقى معه امدا اطول وله اثر ابعد .

هذه الحقيقة ، التي لمسناها من الصفحات السابقة كانت مدار ابحاث جماعة من العلماء اشتغلوا بما يطلق عليه سيكولوجية التعلم - اي (دراسة العوامل التي تؤثر على عمليتى التعليم والتعلم وظروفهما وطبيعة الفرد المتعلم)

ـ ولقد ادت بهم ابحاثهم وتجاربهم هذه للوصول الى ظاهرة اطلقوا عليها باتتقال اثر التدريب او التعلم وهي ان الخبرة التي يكتسبها الفرد تؤثر في اكتساب خبرة جديدة وهذا التأثير يكون سلبا او ايجابا .

فالاثر الايجابي للخبرة يظهر عندما تسهم الخبرة المكتسبة في تسهيل اكتساب خبرة جديدة او تثبيت مهارة او خبرة سابقة ... اما الاثر السلبي فهو عندما تمحو الخبرة المكتسبة خبرة سابقة او تعيق اكتساب خبرة جديدة .

ونتيجة لكثير من التجارب التي اجراها العلماء على هذه الظاهرة توصلوا الى شروط اطلقوا عليها بشروط انتقال اثر التعلم او التدريب . (٢ ص ٢٨٨) .

وهي :ـ

اولا ـ شروط موضوعية وهى ما يتعلق بظروف التعليم وطبيعة الخبرة او المهارة المراد اكتسابها والطريقة التي تتبع في عرض او اكتساب الخبرة .

ثانيا ـ شروط ذاتية وهي ما له علاقة بالخصائص والصفات والقدرات والاستعدادات التي يكون عليها الفرد المتعلم .

ومن الشروط الموضوعية ، ان اثر الخبرة يكون سلبا او ايجابا عندما يكون هناك تشابه بين الخبرتين السابقة واللاحقة وهذا التشابه يكون بين محتويات وعناصر الخبرتين او المهارتين او المادتين .

ويظهر هذا عندما يقوم المعلم بتعليم طلابه عملية الجمع في دروس الرياضيات ، فان هذا الطالب الذي اتقن عملية الجمع ويقوم بالعملية بسهولة يسهل عليه فهم عملية الضرب لان الضرب هو عملية جمع مضاعفة ... فهذا التشابه بين طبيعة الخبرتين او الفعاليتين ادى الى الاثر الايجابي لتعلم الخبرة الاولى على الخبرة الثانية .

كما ان هناك اثراً للخبرة الاولى على الخبرة التالية عندما تتشابه الخبرتان بالطريقة التي تكتسب كل منهما وبالمبادىء والاسس التي تستخدم لتعليمهما ... وهذا الاثر كثيرا ما يحدث في تعلم اللغات التي تتشابه طرق تعلمها ، فعندما يتقن لغة ما فان هذا الاتقان يساعده في تعلم لغة اخرى ذات الاصول المتشابهة باللغة الاولى ....

ان معرفة الشروط الموضوعية جعل علماء النفس يطلقون الحقيقة التالية :

ان تشابه العناصر والمحتويات والطرق والمبادىء الاساسية للخبرات يساعد في اكتساب الخبرات الجديدة ... أي حدوث التعلم .

وهذا ما نحن بصدده من ان حسن تنظيم الخبرة يقود لافضل تعلم .

اما العوامل الذاتية ، وهي ما يتعلق بقابليات الفرد المتعلم واستعداداته وتهيؤه نحو الخبرة الجديدة .. فمن اهمها قدرات الفرد العقلية ، فصاحب القدرة العقلية العالية يعني انه يملك قدرة على الادراك اي قدرة على تحليل العوامل المحيطة به والاستنتاج منها او الاستدلال منها ...

فالطالب الذي يملك قدرة عقلية عالية ويكتسب خبرة ما فانه يحسن استخدام هذه الخبرة في مواجهة المواقف الجديدة .. اي التكيف لها ... وهذا التكيف ، المواجهة للمواقف الجديدة ، كان نتيجة ادراك الطالب بل سرعة ادراكه للعناصر التي يتضمنها الموقف الجديد باسترجاعه بل سرعة استرجاع الخبرات السابقة واخذه منها ما يساعده للتكيف للمواقف الجديدة ... وهذا الظاهرة اطلق عليها علماء مدرسة الكشتالت* بالتعلم عن طريق الاستبصار او التبصر .

---

* ـ الكشتالت : احدى مدارس علم النفس نشأت في المانيا وتعنى كلمة الكشتالت الكل او الهيئة .

وهو ادراك الفرد للعلاقة بين عناصر الموقف الذي يتعرض له يساعده هذا الادراك لحسن التكيف لهذا الموقف ومواجهته ... فالطالب الذي يتمتع بقدرات عقلية عالية تؤهله قدراته هذه لسرعة الادراك اكثر من الطالب الذي لا يتمتع بهذه الخصلة ويؤكد علماء النفس ان هناك علاقة جد قوية بين مقدرة الفرد على الادراك وحالته الانفعالية ذلك لان الفرد الذي يتعرض لحالة انفعالية حادة قوية تعطل هذه الحالة الانفعالية قدراته .

الان ما موقف المعلم من هذه الظاهرة – (اي ظاهرة انتقال اثر التدريب او التعلم) وكيف يفيد منها في عملية تنظيم التعلم .

من الامور المسلم بها انه لا بد ان يكون المعلم ملما الماما كافيا بالشروط الذاتية والموضوعية لظاهرة انتقال اثر التعلم ثم يراعي الجانب التطبيقي لهذه الشروط لا سيما بعد احاطته بطبيعة المادة او الخبرة المراد اكتسابها وبطريقة الفرد المتعلم ، فيربط الخبرات المكتسبة لتصبح ذات اثر ايجابي في خبرات قادمة ، بحياة الطالب اليومية حيث يبين له كيفية استخدامها اذا ما تعرض لموقف ما وعلى سبيل المثال ما يأتي :

حدثني احد الزملاء المعلمين في المدرسة الابتدائية وقال انه حاول محاولات متعددة ليمنع طلابه عن اكل الخس الذي يباع امام باب المدرسة لانه غير مغسول وغير معقم وغير نظيف ... ولكن شاهد معظم الطلاب يمتنعون عن ذلك اذا كان هو حاضرا ومراقبا لهم ولكنهم في غيابه يعودون لذلك ... ففكر بطريقة غير النصح والارشاد والمواعظ التي لم تجد شيئا ليجعل طلابه يكفون عن اكل الخس بدون تعقيم وغسل جيد .

فقال : استعرت مجهرا من المدرسة الثانويه القريبة من مدرستنا وفي درس العلوم رفعت ورقة الخس امام طلابي وقلت لهم انظروا اليها انكم لا تشاهدون ما بها ، انها كما تتصورون نظيفة ولكن الان لنضعها تحت المجهر وليقدم كل واحد منكم ليصف لنا ما يشاهده على هذه الورقة .

وبعد ان شاهد الطلبة الكائنات المجهرية المتحركة على ورقة الخس يقول زميلنا المعلم .. لم اشاهد طالبا بعد ذلك اليوم يشتري من ذلك البائع ... اليس هذا درسا ايجابيا في انتقال اثر التعلم التطبيقي .

لنتسائل الان ... كم من الحقائق التي نستطيع ان نعلمها طلبتنا بصورة عملية كما فعل زميلنا المعلم .

اليست هذه الطريقة التكشيفية التي تؤكدها التربية الحديثة والتي تعتمد النشاط الذاتي لفعاليه الطالب لاكتساب الخبرات المعرفية ... اليست ابعد اثرا في تعلم الطالب ؟ لنحاول ان نفكر بتلك الخبرات التي يمكن اكتسابها بمثل هذه الطريقة او بطرق اخرى مشابهة لهـــا .

مثال آخـر : **انظر (٢ ص ٢٩٦)**

اراد احد المعلمين ان يعلم طلابه حسن الترتيب والنظافة في دفاتر حـل التمارين في درس الرياضيات . باستخدامه طريقتين مختلفتين .... لجأ الى المعاملة القاسية والتأنيب والعقاب مع احدى الشعب لكنه استخدم اسلـوب المناقشة والفهم والتشجيع والمدح والمكافأة مع شعبة اخرى في نفس المدرسة . وجد في نهاية العام الدراسي ان طلاب الشعبتين قد حققوا قدرا جيدا مـــن النظام والترتيب في دفاتر تمارين الحساب ، لكنه لاحظ ان طلاب الشـــعبة الاولى ، الذين استعمل معهم القسوة والعقاب قد اقتصر تعلمهم للنظافـــة في دفاتر التمارين فقط بينما وجد طلاب الشعبة الاخرى قد انتقل اثر تعلمهـم للتنظيم والترتيب والنظافة الى دفاتر الدروس الاخـرى حتى انهم اخـــذوا ينظمون كتبهم ودفاترهم داخـل الصف وفي البيت واصبحت صفة النظافـة والترتيب من بعض ما يميز طلاب هذه الشعبة عن الطلاب الاخرين في المدرسة .

من هذين المثالين يمكن ان نستنتج الحقيقة التي طالما اكدها علماء النفس وهي ان التعليم الجيد اذا اشبع في الفرد حاجة او ارضى دافعا فان اثره يكون ابعد • ولذا علينا ان نذكر المعلم بان يراعي ـ عند تقديمه الخبرات والمهارات المعرفية ـ اي عند قيامه بمالتعليم ، ـ ان يراعي اشباع حاجات طلابه ، كما ان الطالب الذي يشعر بضرورة الخبرة واهميتها في حياته اليومية فانه يمكنه الافادة منها فيسهل عليه اكتسابها • وهذا جانب من تنظيم التعلم •

ـ اهدافنا الاجتماعية التي تحققها المدرسة ـ

قد يكون من معاد القول ان للمدرسة الحديثة عدة اهداف يمكن اجمالها في تعلم الفرد كيف يتعلم ••• والا يقتصر هذا التعلم على الفترة المحدودة داخل المدرسة فقط بل يستمر في اكتساب الخبرات ••• ا يمواصلة التعلم •

ويعتمد تحقيق هذا الهدف العام للمدرسة على ما تقدمه من خبرات خلال فترة الدراسة ••••

ويؤكد رجال التربية على المدرسة التي تريد ان تحقق اهدافها لابد ان تكون للموضوعات الدراسية نوعين من الاهداف ، اهدافا قريبة واهدافا بعيدة •

تتمثل الاهداف القريبة للمدرسة عندما تضمن موضوعاتها الدراسية للفرد صحة في جسمه وعقله وخلقه ، فالخبرات التي تعرضها هذه الموضوعات يكتسب منها الفرد ما يحفظ صحته ويلم بكيفية عمل اعضاء جسمه وكيفية المحافظة عليها ••••• وكذلك تضمن له الموضوعات الدراسية ما ينمي قدراته العقلية ليس عن طريق الحفظ والتخزين لهذه الحقائق المعرفية بل عن طريق كيفية استخدامها في حياته اليومية لمواجهة المواقف التي يتعرض لها •••• كما تعلمه هذه الموضوعات الدراسية كيف يكتسب الاتجاهات النفسية

والاجتماعية التي تمكنه من حسن التعامل الاجتماعي ان هذه الاهداف القريبة المباشرة التي تسعى الموضوعات الدراسية لتحقيقها تقـــود بالتالي لتحقيق الاهداف البعيدة فيكون مواطنا صالحا يخدم امته والانسانية ••• فالمدرسة عن طريق هذه الحقائق المعرفية التي تتضمنها المناهج تســـعى لان تنمي في الفرد المسؤولية الاجتماعية ، وليعرف دوره في المجتمع الذي يعيش فيه ليقوم بـــه ، من موقع عمله ومهنته ، على افضل شكل •

يقول احد المربين بعد خبرة عشرة سنوات قضاها في مساعدة الفتيـــات الجانحات في المدرسة الاصلاحية « اذا استطاع الطفل النجاح في المدرسة فانه سيقابل فرصا ممتازة للنجاح في الحياة ••• واذا فشل في اية مرحلة من مراحل عمره التربوي فان فرص النجاح في الحياة تنقص امامه » (٤ ص ١٨) •

وطبعا ستتناقص فرص النجاح امام مثل هذا الطفل اذا لم يجـــد مرشدا يقيل عثرته وموجها يبين له كيف يتخطى الفشل ويتحول الى النجاح •

ويبين هذا المربي كيفية انقاذ مثل هذا الطفل بقوله :

« ان الطالب لا ينجح بوجـــه عـــام مالم يستطع بطريقـــة ما ان يجرب النجـــــاح »

وكأن هذا المربي ، من خبرته ، يوضح لنا من كلامه هذا ما يجب ان يقوم به المعلم داخل المدرسة وخارجها فيما يستطيع عمله لمثل هذا الطالب

ان المعلم الذي يؤمن بالاساليب التربوية الحديثة ويؤمن بالطفـــــل بأعتباره الثروة القومية التي يجب ان يرعاها ويحاول إستثمار طاقاتها وتوجيهها يسعى للكشف عما يملك من طاقات ومواهب ، او يبحث فيما يعيقه عن النجاح ويثير دوافعه ومحفزاته اي يتيح الفرصة امام هذا الطالب لكي ينجح في مجال مـــا من جوانب حياتـــه ••••••

هذا هو دور المعلم في العملية التربوية لطلابه ، ولذا اعتبرته التربيـة الحجر الاساس في العملية التربوية ولا يمكن الاستغناء عنه مهما تعـددت تقنيات التربية ووسائلها السمعية والبصرية ، فالمعلم باتجاهاته الانسانية وحسن تعامله وتشجيعه وتحفيزه طلابه يمكنه ان يحول فشلهم الى نجاح •• وكما ان الفشل يولد الفشل وله اثره السيء على التحصيل العلمي للطالب فـان اثر النجاح اكثر فعالية في المحافظة على المستوى الذي توصل اليه الطالب • ولذا تصبح مهمة المعلم في المدرسة بالاضافة الى تنظيم الخبرات وتقديمهـا للطلاب فان مهمته عند عرضه لهذه الخبرات عليه ان يقي طلابه ، وهم فـي محاولتهم ذلك الشعور بالفشل الى فعالية منتجة يشعر الطالب منهـا بلـذة النجاح فيقوده النجاح الى نجاح اكبر ••• واكبر نجاح يكتسبه الطالب مـن المدرسة اذا استطاعت المدرسة ، بفعالياتها المنهجية الدراسـية والمنهجيـة الخارجيـة ، ان تكسب طلابها مهارات يدوية ترضي ثقته بنفسه وتنمي كفاءته العقلية ، ليحسن مواجهة الموقف والتكيف السليم ، وان يملك اتجاهـات اجتماعة ونفسية ايجابية نحو نفسه والعالـم المحيـط به فيملك ارادة الخير والبناء والتعمير ويكون قادرا على تفسير الظواهر التي تحيط به تفسيرا علميا جيـدا •

« تنظيم العملية التدريسية داخل الصف »

كل معلم مارس مهنة التدريس يستطيع ان يذكر لنا بأن هنـالك اربعـة عناصر اساسية في العملية التدريسية داخل غرف الدرس • فهناك طالب يتعلم وهو محور العملية التربوية ، وخبرات او موضوعات يراد تعلمها واكتسابها ، ومعلم يقوم بعملية التعليم وطريقة او اسلوب يتبعها المعلم في تقـديم تلك الخبرات وعرض تلك الموضوعات للطالب المتعلم •

ولكي تتم العملية التدريسية على اكمل وجه هناك شروط واسس خاصة بكل عنصر من هذه العناصر الاربع لابد من توفرهـــا حتى تحقق العمليــة التدريسية هدفها من حصول الفرد المتعلم على افضل تعلم ... وهذا هـــو المقصود بتنظيم العملية التدريسية داخل الصف .

اولا : ما يخص الطالب ، وهو الفرد المتعلم .

الطالب الذي فتحت المدرسة من اجله ، فوضع منهج له وكتاب وأعد له معلم ، تعتبره التربية الحديثة محور العملية التربوية ولذلك لابد من مراعــاة امور كثيرة واهمها ... الاهتمام باستعداداته الجسمية والعقلية والنفسية .

المقصود بالاستعداد الجسمي للطالب داخل الصف عند العملية التدريسية هو ان يراعى المعلم حالة وسلامة اعضاء الطالب وحواسه التــي تشـــترك في اكتساب الخبرة ... سلامة السمع والبصر ، نضج العضلاب الدقيقة في اصابعه والتي لها اثرها في عملية الكتابة وقيام اعضائه الاخرى بوظيفتها بصورة جيدة لئلا تعيقه عن التركيز والفهم والانتباه والادراك ... ان معرفة المعلم بحالــة قدره الطلاب على الابصار يتوقف عليها موقع جلوس الطالب في الصف مــن حيث قربه وبعده عن السبورة ، حسب حالة قصر او بعد النظر او سلامته عند الطالب وكذلك اذا ما عرف المعلم بان هناك طالبا ثقيل السمع فيجلسه فــي موضع مناسب قريب .

اما الاستعداد العقلي فهو ما يتعلق بطبيعة قدرات الطالب العقلية مــن فهم وادراك وحفظ وتركيز وانتباه واستدلال ومقارنة وربط ... ولما كان التعلم يعتمد اعتمادا كليا على ما يتمتع به الفرد من هذه القدرات فلا بد أن يتعرف المعلم على موضع كل طالب بالنسبة الى رفاق صفه من حيث سرعــة الفهم او بطئه ، متفوق على اقرانه او متخلف ، وما هي القدرات الخاصة التي يتمايز بها كل طالب عن الآخر او ما يطلق عليــه علمــاء النفس ، بالفروق

الفردية ، فعلى المعلم ، عند تقديمه موضوعا دراسيا ما ، كي يسهل على طلابه فهم وادراك وتعلم ذلك الموضوع واكتساب ما فيه من خبرات لابد ان يتعرف على المستوى العام لقدرات طلابه العقلية بل على طبيعة القدرات العقلية لكل طالب ، حتى يختار ما يناسب تلك القدرات وذلك ليقودهم للفهم واكتساب الخبرات وهذا طبعا ـ اى الفهم والادراك ـ يشعر الطالب بالنجاح وتحقيقه له.

اما موقف المعلم من الطالب المتخلف من اقرانه فعليه ان يتعرف على طبيعة هذا التخلف فالتخلف عن الفهم نتيجة عوامل كثيرة متعددة ، ان تشخيص المعلم لسبب تخلف الطالب عن الفهم يسهل له عملية رفع ذلك السبب ، فأن كان السبب اجتماعيا او نفسيا او يحتاج لجهد اكثر او ان كان بسبب عدم ونضج بعض القابليات لتأخر النمو فيسعى لتنميتها بفتح الفرص المناسبة امامها وجعله في صفوف خاصة او برامج خاصة غير اوقات الدراسة الاعتيادية وهذا ما يطلق عليه بالرؤيا الجديدة لمبدأ تكافؤ الفرص المبدأ الذي تدعو اليه التربية الحديثة ـ وهو ان يصرف من الجهد والوقت مع كل طالب حسب ما يملك من قابليات واستعدادات حتى تنمو لاقصى ما يمكنها من نمو ... والمعلم الناجح هو ـالذي من خلال تعامله مع طلابه يستطيع تقويم قابليات طلابه ومن ثم يضع الفرص المناسبة امام كل منها لنموها ورعايتها .

اما ما يختص بالاستعداد النفسي فان رجال التربية قد اوضحوا لنا جانبين من الاستعداد النفسي عند الطالب المتعلم يؤثران على طبيعة تعلمه واكتسابه الخبرات داخل الصف .

فهناك جانب يختص بالنضج الانفعالي الذي يجعل الطالب يملك اتجاهات وعواطف وميول تساعده او تدفعه نحو اكتساب الخبرات ... والمعلم الناجح عند تدريسه يعتمد هذه الدوافع والاستعدادات والميول والاتجاهات فيما يقدم من حقائق معرفية ليرضيها ويشبعها وهذا لا يساعد الطالب فقط على التعلم والفهم بل ايضا يثبت تلك الحقائق والخبرات التي اكتسبها .

وهناك جانب سلبي في الاستعدادات النفسية للطالب وهي ذلك النوع من الاتجاهات والميول التي يملكها الطالب فتحول بينه وبين ما يتعلم ... ان معرفة المعلم بهذا النوع من الاتجاهات النفسية عند طلابه تجعله يتهيأ لهـا عند عرضه الحقائق والخبرات ويستخدم اساليب تخلصهم من هذا الاتجاه ... او تبطل مفعولها .

ثانيا ـ مايخص المعلم :

المعلم هو الاداة البشرية في العملية التربوية لابد ان يتصف بمزايـا وخصائص معينة لتمكنه من تحقيق الاهداف التربوية والاجتماعية المنشودة . ومن اهم هذه الخصائص .

١ ـ خصائص ومزايا جسمية وصحية .. سلامة البدن والمظهر المقبول الخالي مما يعيقه عن اداء مهمته .

٢ ـ خصائص ومزايا عقلية تؤهله لحسن الادراك والتبصر مما يساعده لادراك حاجات طلابه ليحسن التعامل معهم .

٣ ـ خصائص تتعلق بالاعداد المهني والكفاءة العلمية والالمام بالاسـاليب التدريسية الجيدة فيكون مبدعا مبتكرا يعرف كيف يثير اولاع طلابه ويحفزهم لاكتساب الخبرات .

٤ ـ ان يتمتع المعلم بخصائص اجتماعية وشخصية ايجابية مؤثرة فعالة ليكون قدوة لطلابه .

٥ ـ ان يكون مستوعبا الفلسفة التربوية لمجتمعه حيث يستطيع انتقاء الخبرات المعرفية لطلابه . التي تجعلهم يتشربونها ويقنعون بها ويعملون علـى تحقيق اهدافها .

ثالثا ـ الخبرات المعرفية او مادة الدرس :

لابد ان تكون هذه الخبرات المنتقاة المنظمة مناسبة لمستويات الطلبة واستعداداتهم وتكون وسيلة لتطوير قابلياتهم وبناء شخصياتهم بعيدة عن الخزن والحفظ بل تكون وسيلة تساعد الطالب لتطوير نفسه ومجتمعه .. ان المادة الدراسية التي يشعر الطالب بأهميتها وضرورتها له ولمجتمعه وتشبع حاجاته . وترضي دوافعه .. تكون ابعد الاثر في تكوين شخصيته وبنائها .

رابعا : طريقة التدريس :

الاسلوب الذي يتبعه المعلم في عرض الخبرات لابد ان يكون مناسبا لاستعدادات الطالب ، وطبيعة المادة الدراسية ومتمشيا مع الاهداف التربوية ليضمن افضل تعلم ..

ومما يوصي به رجال التربية بهذا الصدد هو ان يلجأ المعلم لاكثر من طريقة وينوع الاساليب التي يستعين بها في عرض هذه الخبرات داخل الصف ليضمن ارضاء الفروق الفردية في طلابه .

الخــــاتمة

بعد ان وضحنا كيف يسير المعلم داخل الصف في تنظيم عمليتي التعليم والتعلم والامور التي تساعده لتحقيق افضل تعلم لابد ان نذكر ان هنالـك امورا يجب ان يراعيها المعلم ومن اهمها :

١ ــ لا تعلم بدون دافع ••• ان يعتمد ارضاء الدوافع فيما يعلم ويعتمد اثارة الدوافع الاجتماعية الايجابية نحو ما يعلم •

٢ ــ ان يستعين بالقوانين والنظريات التي جاءت بها نظريات التعلم عند عرضه الخبرات المعرفية •• فهناك مدح وثناء للطالب الجيد وهناك تشـــجيع وتحفيز للمتخلف •

٣ ــ ان يعتمد النشاط الذاتي للفرد المتعلم ، فالتعلم يسهل بالعمل والتدريب والتكرار •

٤ ــ ان يتوفر الجو النفسي الجيد للتعلم وان تكون البيئة الطبيعية داخــل الصف ملائمة لاكتساب الخبرات والمهارات ، وتتوفر فيها المستلزمــات المادية الاساسية لعملية اكتسابها •

المصـادر

١ ـ التربية والسياسة ـ الدكتور الياس فرح ـ بيروت ١٩٧٥ ٠

٢ ـ اصول علم النفس ـ الدكتور احمد عزت راجح ـ الاسكندرية ١٩٦٠ ٠

٣ـ علم النفس التربوي ـ الدكتور فاخر عاقل ـ بيروت ١٩٧٤ ٠

٤ ـ مدارس بلا فشـل ـ الدكتور جلاسر ـ ترجمة الدكتور محمد منير مرسي ١٩٧٣ ٠

٥ ـ التربية لمجتمعنا الاشتراكي ـ محمود البسيوني ـ ١٩٧٠ ٠

٦ ـ جبل ورسالة ، عدد حزيران ١٩٧٥ ، ص ٤٢ ٠ « علم النفس مع المدرس في غرفة الدرس » ٠

٧ ـ المدرس في المدرسة والمجتمع ، الدكتور ابو الفتوح رضوان ، ١٩٧٠ ٠

كورولينكو

١٨٥٣ ـ ١٩٢١

الدكتور ضياء نافع
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

كورولينكو ـ اسم كبير في تاريخ الادب الروسي ظهر في الربع الاخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، يتميز ابداعه بالشاعرية الرومانتيكيه والاستيعاب الواقعي العميق للحياة في روسيا عموماً والقرية الروسية بالذات بفلاحيها البسطاء المحرومين وطبيعتها الخلابه ، والتي لم يسبق ان تناولها الادباء الروس قبل كورولينكو بهذا الشكل عبر تاريخ الادب الروسي كله .

ولد فلاديمير غالاكتيونوفيتش كورولينكو في اوكراينا ، وشاهد في طفولته قسوة عصر العبودية ، حيث كان نظام القنانة سائداً في كل انحاء الامبراطورية الروسية . ابتدأ كورولينكو مبكراً بمطالعة آثار الادب الروسي، فقرأ لبوشكين وغوغول وتورغينيف ونكراسوف وبيلينسكي وجرنيشيفسكي ودبرالوبوف ، وكان يقرأ بالذات النتاجات التي لم تكن تسمح الادارة القيصرية بتداولها في المدارس .

لم يستطع اديب المستقبل ان يكمل دراسته الجامعية رغم انهائه المدرسه بتفوق ورغم التحاقه بعدة معاهد عليا في العاصمتين الروسيتين موسكو وبيتربورغ ، اذ ان وفاة والده المبكرة جعلته يعيش في فقر مدقع ، وعند انتقاله الى موسكو فصلته السلطات من المعهد لمشاركته في اضراب الطلبة وتقديمه

عريضة احتجاج جماعية • لم يلن كورلينكو الشاب امام هذه الصعـــاب ، وتأخذ فكرة التفرغ للعمل الادبي بالنضوج تدريجياً في اعماق نفسه ، لكـــن السلطات القيصرية تقرر اعتقاله ونفيه في نهاية السبعينات ، وهكذا تبتدأ رحلة العذاب من منفى الى منفى ، ويتقبل كورولينكو هـــذه الرحلة بحماس كبير معتبراً اياها رحلة تطبيقية على حساب خزينة الدولة (كما كتب عنها فيما بعد) لدراسة حياة الشعب وافكاره • ولم تمنعه المنافي والسجون من الكتابة ، بل على العكس تماماً ، منحته مادة ومواضيع وخبرة انعكست في نتاجاته الفنيه •

ابتدأت مسيرة كورولينكو الادبية عام ١٨٧٩ ، حين ظهرت في مجلـــة « سلوقو » (الكلمة) قصته القصيرة الاولى والتي كانت بعنوان « مشاهد من حياة باحث » ، وبطل هذه القصـــة يعبر تعبيراً دقيقاً عن مزاج الكاتب في تلك المرحلة ، اذ انه يرفض سعادته الشخصية ويكرس حياته كلها لخدمة شـــعبه ووطنه ، فكورولينكو كان قد قرر فعلا سلوك هذا الطريق •

في عام ١٨٨٠ كتب كورولينكـــو قصـــتين قصيرتين ، الاولى بعنـــوان « ياشكا » والثانية بعنوان « غريبة الاطوار » ، كما كتب في العام نفسه مقالا ادبياً ـــ فنياً يصف فيه المدينة التي يقضي فيها فترة النفي بعنوان « مدينة غير حقيقية » • تتميز نتاجات هذا العام بظهور الملامح الرئيسة لادب كورولينكو، حيث نجد المزج الفني الرائع بين الخيال والواقع ، المزج المتجانس والمتناسق الذي لا يطغى فيه الخيال على الواقع ، كما نجد ايضاً الصـــراع الرهيب بين الانسان البسيط النقي الذي يطمح للوصول الى الحقيقة والعدالة وبين تلك القوى الطاغية التي تقف ضده وتحول دون تحقيق طموحه • اما مقالته الادبية ـ الفنية التي يصور فيها المدينة ـ المنفى ، فانها تعتبر بداية لتلك الصور الفنية المدهشة التي رسمها كورولينكو لكل ما شاهده وعاناه خلال حياته ، هـــذه الصور التي تتميز بجماليتها الفنية وصدقها والتي تحولت الآن الى وثائق فنية لتاريخ روسيا في ذلك العصر •

بطل قصة « ياشكا » فلاح بسيط تزج به السلطات في السجن لاعلانه بان القيصر قد سن قانوناً عادلا ولكن الادارة القيصرية تخفي هذا القانون عن الشعب ، انه يعتقد بذلك اعتقاداً جازماً ، وفي هـذا الاعتقاد الجازم والايمان المطلق يكمن حلم الانسـان البسـيط وخياله الواسـع والسـاذج ، ولكن كورولينكو يصف لنا الظروف الرهيبة والتعيسة التي يحيا فيها هذا الانسان، وهنا تظهر واقعية كورولينكو • ان هـذه القصة القصيرة تبدو ــ للوهلـة الاولى ــ وكأنها حكاية ساخرة ليس الا ، اذ انها تثير فعلا ابتسـامة القارىء الذي يرى ياشكا وهو يدق ابواب السجن معلناً بان القيصر قد سن قانونـاً لصالح الشعب ولكن الادارة استطاعت ان تخفي ذلك القانون ، الا ان القارىء يرى في ثنايا هذه القصة ايضاً ذلك الواقع الرهيب ، وبالتالي فانـه يقتنع بان ياشكا ــ رغم خياله البسيط والساذج ــ انسان ثائر ضد حياة سيئة حقاً •

اما القصة القصيرة « غريبة الاطوار » فانها تتحدث عن العلاقة المتبادلة بين المثقف الثوري والشعب • بطلة القصة ــ ثائرة في المنفى ، فتاة مريضـة نحيفة منهكة ، ورغم ظروف المنفى والشتاء القارس اللذان يزيدان من عذابها ، نراها قوية المعنوية ومؤمنة بانتصار الانسان على هذا الواقع المرير ، ولكنها ــ وبنفس الوقت ــ صامتة ، لا تجيب على اسئلة الاخرين ، ولهذا فانها « غريبة الاطوار » بالنسبة لهم ، بالنسـبة للذين يحيطون بها • انها مثقفـة ، تضحي بحياتها في سـبيل هؤلاء الناس الذين يعتبرونها غريبـة الاطوار • انهـم لا يفهمونها ، ولا تجد هي السبيل الى ان تفهمهم •

لقد كان كورولينكو متعاوناً مع حركة الشعبيين ، الذين كانوا يؤمنون بضرورة « الذهاب الى الشعب » والتضحية في سبيله ومن ثم تحفيزه ضـد النظام القيصري ، ولكنهم غالباً ما كانوا يصطدمون بالشعب الجاهل الذي لم يكن يفهم جوهر اعمالهم واهميتها • في قصـة « غريبـة الاطوار » نجد ان كورولينكو قد التزم بالواقع الذي رآه وبقي مخلصاً له رغم ايمانه بافكـار حركة الشـعبيين وضـرورة تلك الخطوات مـن جانب المثقفين • والتـزام

كورولينكو بالواقع المحيط به هو دليل نضج وتفتح وموضوعية ، ذلك لان الواقع الاجتماعي هو اعظم دائماً واقوى من الافكار التي لا تتلائم معه . ان معرفة الواقع الاجتماعي والالتزام بــه والانطلاق منه قادت كورولينكو الى اجواء الاتجاه الواقعي في الادب ، ولكن واقعيته بقيت مغلفة بغطاء شـفاف يكاد ان يصل بنا الى الاتجاه الذي نلاحظه بوضوح عند بعض الادباء الروس الكبــار ، وهو الاتجاه الذي حاول ان يمزج بعض خصــائص الرومانسية بالواقعية ، هذا التفاعل الذي يسمح للكاتب الواقعي ان يحلق باجواء الخيال والاحلام مستخدماً تلك الخصائص ليس من اجل الابتعاد عن الواقع ، وانما على العكس تماماً ، من اجل تصوير الواقع تصويراً امينــاً وعرض كل ابعاده وتناقضاته . لقد اشار كورولينكو بوضوح ـ في عدة رسائل ومقالات ـ الى ان مزج الواقعية مع الرومانسية سيولد اتجاهاً ادبياً جديداً ، وقد بقي الكاتب مخلصاً لهذه الفكرة في نتاجاته المتعددة عموماً ، ملتزماً بالواقعية ذات الالوان الشاعرية الروماتيكية سواء بالنسبة للمضمون او الشــكل وذلك لانه كان مقتنعاً تماماً بان العناصر الروماتيكية ترتبط عضوياً بالواقع الاجتماعي وتدخل في عداد الصفات الروحية للانسان ، وتتعمق هذه الروح الشفافة عبر الحب العظيم للطبيعــه ، هذا الحب الذي نجد انعكاســاً له في كثير مــن نتاجات كورولينكو ، والذي يجعله قريباً من اجواء تورغينيف . ان الطبيعة عنــد كورولينكو تتفاعل بشــكل عضوي مع الاحداث والابطــال ، حتى تكاد ان تتكلم ، بل انها تتكلم فعلا في بعض نتاجاته التي سنتوقف عندها في سياق هذا المقال . وفي قصة « غريبة الاطوار » نجد بداية ذلك الوصف الخلاب للطبيعة، وهذا الانسجام المتناسق لصور الطبيعة مع النبرة العامة للقصة .

يمكن القول مجازاً بان عام ١٨٨٠ قد شهد ميلاد اديب روسي متميز ، وان حالت الظروف الصعبة التي كان يمر بها الكاتب دون ان يعرف القــراء ذلك ، فان كورولينكو نفسه قد شعر بهذا واقتنع بضرورة التفرغ كلياً للعمل الادبي ، وتلك مسألة في غاية الاهمية ، ويعرف المتخصصون بتاريخ الاداب في

العالم قيمة الارادة القوية للادباء في بداية حياتهم الادبية واهمية التقييم الذاتي لامكاناتهم الفنية .

بعد مرور خمس سنوات ، اي في عام ١٨٨٥ انتهت فترة المنفى ، ويعود كورولينكو الى الحياة الطبيعية ، وتمنعه الادارة القيصرية من السكن في العاصمتين (موسكو وبيتربورغ) فيختار مدينة نيزني نوفغورود (غوركي حالياً) ، ويبدأ المشاركة الفعالة في النشاطات الفكرية معتبراً بان هذه هي الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بواسطتها ان يخدم امته ووطنه . تتفجر طاقات كورولينكو في ذلك العام ، وكأنه يريد ان يعوض عن تلك السنين التي مضت عبثاً في السجون والمنافي ، اذ انه اخذ يعمل في جريدتين ومجلتين في آن واحد. ونشر في هذا العام مجموعة من القصص والصور القلمية ، وفي السنة التي تلتها اصدر روايتين قصيرتين وكتاباً يضم مجموعة من قصصه وصوره القلمية. تستقبل الاوساط الادبية في روسيا هذا النشاط الكبير بحماس وحب وتقدير. فقد كتب الاديب الروسي المعروف تشيخوف عن احدى قصصه القصيرة التي صدرت عام ١٨٨٦ قائلا : « انها ابرز نتاج فني في الفترة الاخيرة[١] » ، وكتب عنه الاديب الروسي غارشين قائلا : « ... اني اضعه في القمة واحب ابداعه برقة . انه خط وردي آخر في السماء ...[٢] » ، ويسمي مكسيم غوركي تلك السنين بالنسبة لمدينة نيزني نوفغورود « عصر كورولينكو[٣] » ، ويمكن ان نضيف الآن ، بان « عصر كورولينكو » لم يكن محدوداً في اطار تلك المدينة ، اذ ان النتاجات التي قدمها في تلك الفترة قد اغنت مكتبة الادب الروسي الكلاسيكية واضافت اليها روائع اخرى لا زالت حية في اذهان القراء والنقاد والمترجمين وفناني السينما والمسرح مثل « حلم ماكار » ، « الموسيقي

---

(١) أ . ب تشيخوف . مجموعة المؤلفات الكاملة . موسكو . ١٩٤٩ . الجزء الرابع عشر . ص ١٢ .

(٢) ف . م . غارشين . مجموعة المؤلفات الكاملة . موسكو – لينينغراد . ١٩٣٤ الجزء الثالث . ص ٣٧٤ .

(٣) غ . م . ميرونوف . كورولينكو . موسكو . ١٩٦٢ . ص ١١٧ .

الاعمى » ، « ضجيج الغابة » ، « النهر يعزف» ••• الخ هذه النتاجات التي نرى من الضروري ان نتوقف عند بعضها في هـذا المقال باعتبارها نماذج في غاية التكامل الفني •

« حلم ماكار » ـ قصة قصيرة نشرها كورولينكو عام ١٨٨٥ في مجلة « روسكايا ميسل » (الفكر الروسي) ،وهي البداية الحقيقية لشهرته الادبية• بطل هذه القصة فلاح بسيط يدعى « ماكار » ، يعيش في بؤس مدقع ويعاني من الظلم الاجتماعي السائد في ذلك العصر • يحلم ماكار مـرة بانه قد مات ، وتجري محاكمته في العالم الآخر ، وينطلق هذا الانسان البائس والذي كان يتحمل كل الوان العذاب والالام بصبر وصمت ، ينطلق مدافعاً عن نفسه بقوة وانفعال وحماس ، مؤكداً بانه عانى في حياته على الارض معاناة رهيبة وانه لم يعرف طعم السعادة والفرح ، وتنفجر في كلماته قوة الاحتجاج العظيمة ، التي كانت كامنة في اعماقه طوال حياته • لقد اراد كورولينكو ان يقول من خلال هذه القصة بان قوة الاحتجاج موجودة في اعماق كل الناس المظلومين ، حتى عند البسطاء الذين يشبهون ماكار ، المحرومين من كل ما هو انساني في حياتهم وكان من الطبيعي جداً ان تنتهي هذه القصة القصيرة بانتصار ماكار ، اذ ان كورولينكو كان يؤمن بان العدالة ستنتصر في نهاية المطاف ، اي في المستقبل •

تظهر في قصة « حلم ماكار » موهبة كورولينكو الفذة في وصف الطبيعة ومزجها مع العناصر الفنية الاخرى في القصة لدرجة انها تصبح جزءاً لا يتجزأ من البناء الفني ، ولا يمكن فهم القصة بدونها • ان الوصف الدقيق والرائع للطبيعة يختلط بمعاناة البطل وبتطور الاحداث وبالوتيرة الفكرية للقصـة ، وبالتالي تصبح الطبيعة عنصراً ضرورياً من عناصرها ،وهكذا نرى بان الاشجار الكبيرة عندما يموت ماكار « تمد ايديها العريضة والمغطاة بالثلج وتهتز بهدوء» ، اما النجوم « الساطعة والطيبة فانها تحدق من السماء الزرقاء عبر الاغصان المتشابكة وتقول : انظروا لقد مات انسان فقير » ، وعندما يتكلم كورولينكو عن امل الفلاح المسكين لا يجد تعبيراً ادق من مقارنة هذا الامل بـ « نجم

صغير في الضباب » ، وعندما يقترب هذا الامل من الواقع تصبح تلك النجوم الصغيرة « بحجم التفاح » ، اما القمر « فانه يشبه بالضبط قعر برميل ذهبي »، وهكذا نرى ــ عبر هذه الامثلة ــ بان وصف الطبيعة ينسجم حتى مع الفهم المحدود لعقلية ذلك الانسان البسيط ، اذ ان كورولينكو استطاع ان يحافظ على منطق البطل ويعبر عنه بشكل دقيق خلال هذا الوصف الجميل للطبيعة •

ظهرت روايته القصيرة « الموسيقي الاعمى » عام ١٨٨٦ ، وهي دراسة سايكولوجية كما اسماها كورولينكو بحق • تبحث الفكرة الرئيسة لهذه الرواية القصيرة في موضوع السعادة الانسانية ، في جوهرها وحدودها والسبيل للوصول اليها ، وكيف ان الظلام الدامس لا يمكن ان يحطم سعادة الانسان الذي يعمل ويتفاعل مع الناس المحيطين به • بطل الرواية القصيرة بيوتر بوبيلسكي اعمى ، ويتقبل هذه العاهة على انها تعاسة رهيبة وحكم ابدي في ان يحيا في ظلام دامس ، منعزلا عن الحياة والناس • لكن البطل هذا كان يمتلك منذ طفولته موهبة موسيقية ، ويكتشف البطل هذه الموهبة في اعماقه عندما يتعرف على الاغاني والموسيقى الشعبية ، ثم يتحول هذا الاكتشاف الى ميلاد جديد بالنسبة له ، ويأخذ الحب نحو الموسيقى بالنمو ، وفي الموسيقى يجد البطل طريقه نحو حياة شعبه ونحو كيانه الانساني في آن واحد • لقد اراد كورولينكو ان يؤكد بان الانتصار على هذه العتمه والظلام الابدي يمكن ان يتم فقط عبر العمل الدؤوب والمثابر والارادة القويه للانسان وعبر التفاعل مع الناس ، وان هذا هو السبيل للوصول بالتالي الى السعادة الحقيقية • في هذه الرواية القصيرة يؤكد كورولينكو على الدور الاجتماعي للفن ، فالموسيقى هنا هي العنصر الذي اعاد بيوتر الى الحياة ، وهي الاداة التي يناضل بواسطتها من اجل الوصول الى حياة مشرقة ، ويقول احد ابطال هذه الرواية القصيرة بهذا الصدد ، بانه «ليس بالسيف وحده يمكن النضال» • ان تأكيد الدور الاجتماعي للفن يعني بان كورولينكو كان يؤيد تلك الاراء التي تكلم عنها لاول مرة في تاريخ الفكر الروسي الناقد الادبي الكبير بيلينسكي واستمر بها بعدئذ جرنيشيفسكي ودبرا لوبوف ، تلك الاراء التي

كانت تؤكد بان الفن يمكن بل ويجب ان يساهم مساهمة فعالة في العمل من اجل الوصول الى الحياة الانسانية الكريمة • ومن جانب آخر ، فقد لعبت الموسيقى في هذه الرواية القصيرة دوراً بارزاً ومهماً لدرجة نستطيع ان نقول بانها تحولت الى شخصية فنية في هذا النتاج الادبي ، واعطت الموسيقى لكورولينكو مجالا واسعاً ورحباً لاظهار موهبته في اطار المزج المبدع بين الواقعية والرومانسية ، هذه الصفة التي اشرنا اليها في سياق هذا المقال ، اضافة الى ان الخط الرئيس في هذا العمل لادبي هو التطلع الدائم لبيوتر نحو الضياء والتحرر من الظلام الدامس ، وهو موضوع يساعد الاديب على الانطلاق في هذا المجال ، وقد كتب كورولينكو في احدى رسائله عن هذا النتاج الادبي قائلا ، بانه « عكس المزاج الرومانتيكي لجيلنا•••[٤] » ،ويمكن القول بشكل عام ، بان هذه الرواية القصيرة تعتبر واحدة من ابرز نتاجات كورولينكو التي يستطيع الباحث ان يبين خلال تحليلها ودراستها بان كورولينكو كان واقعياً ورومانتيكياً في آن واحد ، وقد كتبت الباحثة السوفتيه ايسوبوفا مقالا خاصاً بذلك عنوانه « نزعات الادب الروسي الرومانتيكيه في تسعينيات القرن التاسع عشر[٥] » ، وكذلك كتب الباحث السوفيتي كامينسكي مقالا حول نفس الموضوع عنوانه : « التيار الرومانتيكي في الادب الروسي في الفترة الانتقالية »[٦] •

---

(٤) ف • غ كورولينكو . رسائل مختارة . الجزء الثالث . موسكو • ١٩٣٦ ص ٢٥٦ •

(٥) فيكتاب « الرومانسية الروسية » باشراف البروفسور غولياف ن . أ . موسكو • ١٩٧٤ • من ص ٣١٠ الى ص ٣٢٠ •

(٦) في كتاب « الرومانسية الروسية » مجموعة مقالات . لينينغراد • ١٩٧٨ من ص ٢٠٧ الى ص ٢٢٤ •

يبدأ كورولينكو في التسعينات بكتابه صور قلمية ومقالات اجتماعية وسياسية ، وتتوسع مشاركته في هذا المجال ويقل تتاجه الفني ، ولكن تلك الصور القلمية والمقالات (التي بلغت حوالي ٧٠٠ مقالا) تعتبر ، بلا شك ، جزءاً مكملا لا يمكن تجزأته عن التركة الفكرية الكبيرة التي ابقاها لنا هذا الكاتب ، وخصوصاً تلك الصور القلمية التي كانت تعتمد على الدراسة العميقة للواقع والاحاطة بابعاد المشاكل التي يعالجها والموقف التقدمي فيها • لقد مزج كورولينكو ـ وبابداع ـ العناصر الفنية مع الوصف المجدد والواقعي لتلك الاشياء والظواهر التي كتب عنها ، لهذا فان هذه الصور القلمية لا زالت تعتبر نموذجاً حياً لمثل هذه الكتابات الصحفية ـ الفنية ، ولعل اهم ما كتب كورولينكو في هذا المجال هو كتاب « تاريخ الانسان المعاصر » الذي اصدره باربعة اجزاء وابتدأ بنشره عام ١٩٠٥ ، وصدر الجزء الاخير منه عام ١٩٢١ (بعد وفاته) ، ويعتبر هذا الكتاب آخر تتاج عظيم من نوعه في سلسلة هذه الكتب التي صدرت في روسيا القيصرية ابتداء من كتاب غير تسن « الماضي والافكار » • يتميز كتاب كورولينكو عن تلك النتاجات التي سبقته في كونه لا يتحدث عن تطور انسان من طبقة النبلاء الاقطاعيين ، وانما يتحدث عن مثقف ديمقراطي النزعة كان يعاني بعنف من الرياء الذي يحيطه وكان يفهم ضرورة العمل من اجل تغيير الواقع نحو الافضل •

يتعرض كورولينكو في كتابه هذا الى احداث الماضي التي عاشها ، حيث يعرض اراءه السياسية والاجتماعية والجمالية ، ويدافع عن التقاليد العظيمة للثقافة القومية ، وباختصار فان هذا الكتاب يعتبر وثيقة ثقافية ـ تاريخيه ذات اهمية كبيرة ، لانه يتحدث فيه عن عصر باكمله من تاريخ روسيا بكل احداثه المهمة وظواهره الفكرية المتشعبة • لقد ثمن مكسيم غوركي هذا الكتاب تثميناً عالياً وكتب عنه في احدى رسائله يقول : « ••• اني معجب بهذا الكتاب ، بنبرته الجدية ، وبهذا التواضع الرصين الذي نادراً ما يعرفه ادبنا المعاصر • لاتوجد في هذا الكتاب اشياء صارخة ، وكل شيء فيه يمس القلب•

الصوت ـ هادئ ، رقيق ..... انه صوت انساني اصيل ، وعلى كل صفحة تشعر بابتسامة انسانية ذكية لتلك الروح الكبيرة التي عانت كثيراً وفكرت كثيراً[7] » .

نرى من الضروري في نهاية مقالنا هذا ان نشير الى مجموعة المقالات التي كتبها كورولينكو في النقد الادبي وتكلم فيها عن بعض الادباء الروس مثل تولستوي وغوغول وغانتشروف وشيدرين وتشيخوف وغوركي واوسبينسكي وغيرهم . تمتلك هذه المقالات اهمية كبيرة في تاريخ النقد الادبي ، لانها صدرت في فترة سادت فيها اجواء التيارات غير العلمية التي حاولت واردات التقليل من اهمية الاسماء الواقعية الكبيرة في تاريخ ذلك الادب والتوجه نحو فصل الادب عن الحياة واعتبار الفن مسألة ترفيهية ليس الا . لقد انطلق كورولينكو في تقييمه لهؤلاء الادباء من المبدأ الذي كان يؤمن به طوال حياته وهو ان الادب « قضية اجتماعية عظمى[8] » ، واعطى كورولينكو في تلك المقالات تحليلا علمياً لنتاجات هؤلاء الادباء من ناحية المضمون والشكل والاسلوب الفني ، وكتب عن ذكرياته الشخصية مع بعضهم، هذه الذكريات التي كانت تساعده في رسم الصورة التحليلية لهم . وقد اولى كورولينكو اهتماماً خاصاً للموقف الاجتماعي الذي كان ينطلق منه الاديب ، مؤكداً بان البحث عن الجمال والبحث عن الحقيقة الحياتيه يجب ان يتم بشكل مترابط عضوياً وفي آن واحد ، وتحدث في تلك المقالات عن الروح الانسانية الرائعة للادب الروسي وكيف ان الحرية والدفاع عنها كانت الهدف الذي يوحد كل الادباء الروس الكبار ابتداء من بوشكين ، محللا بنفس الوقت الخصائص الفنية الذاتية التي كان يتميز بها كل اديب .

---

(٧) غوركي . مجموعة المؤلفات . موسكو ١٩٤٩ ـ ١٩٥٥ . الجزء الثامن والعشرون . ص ١٣٦ ـ ١٣٧ .

(٨) ف . غ . كورولينكو . رسائل مختارة . موسكو . ١٩٣٦ . الجزء الثالث ص ١٦٩ .

ان مجموعة المقالات هذه ، مضافاً اليها الرسائل العديدة التي كتبها كورولينكو الى مختلف الادباء والفنانين وكذلك المقالات الصغيرة والتعليقات التي نشرها في العديد من الصحف والمجلات عن بعض الظواهر والمفاهيم الادبية ،تشكل بمجموعها مشاركة كبيرة وفعالة فيحركة النقد الادبي الروسي، ويمكن القول ـ بلا تردد ـ بان كورولينكو كان ناقداً ادبياً متميزاً ، وتضم المكتبة الروسية عدة كتب ومقالات تبحث في هذا الجانب الكبير من ابداع كورولينكو ، لعل اهمها الكتاب الذي اصدره الباحث بارتينيف[٩] ، ولا يمكننا في اطار هذا المقال ان نبحث الموضوع بشكل تفصيلي ، اذ انه يشكل بحد ذاته مقالا مستقلا .

توفى كورولينكو في ٢٥ كانون اول عام ١٩٢١ ، ولكن نتاجاته الفكرية لا زالت حية ، ولا زالت تساهم في بناء الحياة الانسانية الكريمة .

---

(٩) ف . بارتينيف . كورولينكو ـ ناقداً ادبياً . مدينة ايفانوفا . ١٩٥٣ .

المراجـع

(١) ف . غ . كورولينكو . مجموعة المؤلفات في عشرة اجزاء . موسكو ١٩٥٣ ـ ١٩٥٦ .

(٢) ف . غ . كورولينكو . رسائل مختارة . موسكو . ١٩٣٦ .

(٣) أ . ك . كوتوف . كورولينكو . موسكو . ١٩٥٧ .

(٤) ن . روستوف . كورولينكو . موسكو ١٩٦٥ .

(٥) غ . م . ميرونوف . كورولينكو . موسكو ١٩٦٢ .

(٦) م . غوركي . مجموعة المؤلفات . ١٩٤٩ ـ ١٩٥٥ موسكو الجزء الثامن والعشرون .

(٧) أ . ب . تشيخوف . مجموعة المؤلفات الكاملة . موسكو . ١٩٤٩ . الجزء الرابع عشر .

(٨) ف . م . غارشين . مجموعة المؤلفات الكاملة . موسكو ـ ليننغراد . ١٩٣٤ . الجزء الثالث .

نظرية حق الام او فلسفة التاريخ عند باخوفن

الدكتور ابراهيم محمد علي الحيدري
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

١ ـ منهج باخوفن :

يتضح لنا منهج باخوفن Bachofen [١] العلمي من خلال بحثه التطبيقي وتحليله للمعلومات التاريخية والاثنوغرافية الوافية التي جمعها عن العالم القديم[٢] خصوصا من نصوص هيرودوت عن قبائل الليكير Lykier التي عاشت في اسيا الصغرى في فترة ما قبل الحضارات الهيلينية ، حيث كان الافراد ينتسبون فيها في خط الام Matrilinearität فقط وليس في خط الاب Patrilinearität كما هو معروف اليوم[٣] هذه المعلومات التاريخية والاثنواغرافية كانت تتضمن وصفا اثنوغرافيا لتلك الشعوب والاقوام وتحقيقا لمصادرها التاريخية • وقد وضع باخوفن في تحليله لهذه المعلومات ثلاثة متطلبات هي :

---

(١) يوهان ياكوب باخوفن (١٨١٥ ـ ١٨٨٧) محام سويسري ومؤرخ في علم الاديان المقارن . اشتهر في كتابه حق الام Mutterrecht الذي صدر في بازل عام ١٨٦١ الى جانب كتب اخرى حول الدين والاساطير والرموز .

(٢) انظر
Bachofen, J. J., Der Mythos von orient und okzident, hesg.: Von M. Schröter, s.1, Basil, 1926

(٣) انظر
Thomson, G., Frühgeschichte Grichenland und der Ägäis, Bd. I, Berlin 1969, S. 121

أ ـ موضوع الملاحظة : فعلى الباحث ان يتقبل الافكار الغريبة بدل ان يضع افكاره مكانها • ويعني بذلك ان لا يتحيز او يحتقر الباحث الافكار الغريبة عنه وينتقدها ، بل ان يأخذها كما هي ثم يتعرف على خصائصها •

ب ـ موضوع الاختبار : فعلى الباحث ان يختبر الاخبار التاريخية غير الصحيحة والغريبة ، لان وجود اي خبر تاريخي ، لا يهمل بعدم صدقه او خطئه المنطقي •

جـ ـ موضوع الجزء والكل : فعلى الباحث ان يدرس اجزاء البحث ضمن مجمل الموضوع(٤) •

يبحث باخوفن موضوع الاباحية الجنسية Gynaikokratie في العالم القديم • وهي مرحلة تاريخية قديمة وغامضة من تاريخ الانسانية لم تحدد بعد • وان الوسائل التي استعملها باخوفن في بحثه هي ليست مصادر ذات اهمية كبيرة فقط ، مثل كتب العالم القديم الكلاسيكية كمؤلفات هيرودوت ، وانما ايضا كتب الرحالة والنقوش والوثائق الاثرية القديمة •

والى جانب هذه الوسائل الاساسية يستند باخوفن على الأساطير Mythen والرموز Symbole حيث جمع عددا كبيرا من الأساطير الشعبية والرموز المنقوشة على جدران المقابر والاثار القديمة • والأساطير بالنسبة لباخوفن ليست اقل غنى من المصادر الاساسية ، لانها تستطيع ان تقوي الاسانيد التاريخية وتعرفها بصورة ادق • الاساطير المنقولة تبدو له صورة امينة تعكس نظام الحياة لتلك العصور القديمة وتطورها التاريخي والحضاري باعتبارها بيانا لنمط التفكير الاصيل ، ووسيلة تاريخية موحاة يمكن الاعتماد عليها • ان اهمية الاساطير في منهج باخوفن تظهر بوضوح في دراسته للتاريخ حيث يجد المرء اوضاعا تفترض مقدما وجود مراحل تاريخية ، فليس هناك بداية ، وانما هناك نهاية ، وليس هناك علة ، وانما هناك المعلول

---

(٤) انظر Bachofen, J. J., Das Mutterrecht, S. 155, Basil, 1948

التابع . وان المعرفة العلمية الحقيقية هي ليست في الجواب على سؤال ماذا ؟ فالكمال يبدأ حين يكتشف المرء من اين ؟ والى اين ؟

ولفهم ذلك يجب علينا اولا ان نحاول معرفة الاصل والطريق ثم النهاية . وان بداية اي تطور يقع في الأساطير ، لان اي بحث علمي متعمق للعالم القديم يجب ان لا يستغني عن الأساطير ، ومن دون معرفة الاصل لا يمكن ان تصل المعرفة العلمية الى نهايتها . وان اي فصل بين التارخ والأساطير ، خصوصا الاختلاف في اسلوب العرض التاريخي للحوادث ، لا يعطينا توضحيا كاملا للحقائق التاريخية[٥] .

وبجانب الأساطير تقف الرموز في موقع ذي قيمة كبرى ، لان اهمية الرموز في حضارة حق الام لها موقع بارز ، خصوصا في رموز القبور في العالم القديم . فالرموز ومعانيها الأسطورية التي نجدها على القبور هي بمثابة اللغة والكتابة لتلك الشعوب . ان لغة الانسان فقيرة في ملأ المعاني حول تبدل الحياة وتغيرها من الحياة الى الموت . والرموز بهذا المعنى تستطيع ايقاظ المعاني ، اما اللغة فتستطيع توضيحها فقط . الرموز توضح كل جوانب الحياة الفكرية للانسان ، بينما اللغة ضرورية في توضيح فكرة ما . الرموز فقط هي التي تستطيع ان تربط مختلف المعاني في وحدة متكاملة وتخدم كل وسائل التعبير عن كل الظواهر في العالم القديم . الاساطير هي الشيء العضوي اما الرموز فهي لغتها المعبرة[٦] .

---

(٥) انظر

Bachofen, J. J., Versuch über die Gräber der Alten Urreligion und antike Symbole, S. 48. Bernoulli, 1952.

(٦) Ibid, S. 48.

وبالرغم من هذه الاهمية الفائقة لمعنى الاساطير والرموز في منهج باخوفن ، فعلى المرء ان لا ينسى بانها تكون فقط مواد ومصادر البحث حول مرحلة الاباحية الجنسية في العالم القديم • والمهم هنا ليس الاساطير والرموز نفسها كنواة ومضمون ، وانما باعتبارها وسيلة جيدة تخدم معرفة وتفسير الاخبار والحوادث التاريخية[٧] •

٢ ـ فلسفة التاريخ :

تعكس فلسفة التاريخ عند باخوفن افكاره حول نظرية التطور ومراحل التطور التاريخي والاجتماعي ، خصوصا المرحلة الاولى للانسانية • ان فكرة ومحتوى التطور التاريخي هو الصراع الدائم بين المادة والفكر ، بين الظلمة والنور ، بين السماء والارض ، وبين الذكر والانثى ، ثم انتصار الفكر كمبدأ للنور على المادة ، اي انتصار الذكر على الانثى[٨] •

في البداية كانت هناك المادة ، رمز لفكرة الام وهناك قانون عام يتحكم في تطور الجنس البشري هو التقدم من المادة الى ما فوق المادة ، من الطبيعي الى ما وراء الطبيعي ، من المادة الخام الى الفكر • وما يبدأ خاما ينتهي الى غير الخام • ومحتوى التطور الانساني عند باخوفن هو خلاص الفكر من المادة ، من ظواهر الطبيعة ، وارتفاع الوجود الانساني على قانون الحياة المادي[٩] • وان واجب الانسانية كما يقول باخوفن هو « الانتصار اكثر فاكثر على مبدأ المادة ، اي على الجوانب المادية من الطبيعة والتي لها علاقة بعالم الحيوان ، والارتفاع بها الى مستوى الوجود الانساني »[١٠] وهناك تشابه بين المادة والطبيعة ، ومعنى ذلك ، ان واجب الانسانية هو الحرب ضد الطبيعة وضد مبدأها وهو الانثى[١١] •

---

(٧) انظر Schmidt, G., Geschichtsphilosophie, S. 2, o.O., 1929

(٨) انظر Philosophisches Wörterbuch, Kröner, S. 47, Stuttgart, 1926

(٩) Bachofen, Das Mutterrecht, S. XXVII a

(١٠) Ibid, S. 139 a

(١١) Ibid, S. 139 a

٣ ـ هل الأنثى هي الأصل ؟ :

وهنا يبدو السؤال واضحا حول العلاقة بين الجنسين كمبدأ اساسي في فلسفة التاريخ عند باخوفن •

يعرض باخوفن انواعا ثلاثة لمراحل الصراع بين الجنسين حول السلطة وهـي :

١ ـ مرحلة سلطة الام (الطبيعية) او مرحلة الأباحية الجنسية
Die hetärische Gynaikokratie (١٢)

٢ ـ مرحلة سلطة الام (الروحية) او مرحلة النظام الاموي ـ الانتساب في خط الام
Die ehelische Gynaikokratie

٣ ـ مرحلة سلطة الاب (الفكرية او الواقعية) او مرحلة النظام الابوي ـ الانتساب في خط الاب •
Die Patrinität

بهذه المراحل الثلاثة يكتمل التطور الانساني • المرحلة الاولى والثانية تكمل كل منهما الاخرى ، تماما مثل الظواهر الطبيعية ، في حين ان المرحلـة الثالثة تكاد تعلو عليهما • وان اعلى مرحلة من مراحل التطور الجنسي البشري، في رأي باخوفن ، هي ارتفاع مبدأ الاب الألهي على الوضـــع الطبيعي • والصعوبة التي تجابه الانسانية في كل العصور ، وتحت سيطرة كل الاديان ، هي التخلص من ثقل المادة الطبيعية ، وهو هدف الانسانية ، واعلى مرحلـة من مراحل التطور الفكري[١٣] •

---

(١٢) يشير الاغريق الى اصطلاح Hetärismus الى الاتصال الجنسي بين الرجال غير المتزوجين او المتزوجين بزوجة واحدة Einzelehe مـع عدة نساء غير متزوجات ، والذي يعرض نوعا معينا من العلاقات الجنسية خارج حدود الزواج. ومن الممكن ان نربط هذا النوع من العلاقات الجنسية بالبغاء الذي كان شائعا في اليونان القديمة ، ومن جهة اخرى فان هذا الاصطلاح لم يستعمل الا بما اشار اليه باخوفن ومورجان في بحثه عـن الزواج الجماعي عند الاروكيزن •

(١٣) انظـر Bachofen, Das Mutterrecht, S. XXXII a

وبأختصار فان باخوفن يعتقد بأن مرحلة حق الام قد تلاشت وان مبدأ حق الام في الماضي والحاضر ما هو الا نكوص في سلم التطور ويجب محاربته . يسير التاريخ عند باخوفن بشكل دائري ، اي ان التاريخ يعيد نفسه ، لان التاريخ يؤكد لنا مرارا ، بان الاوضاع السابقة تظهر ثانية في نهاية التطور ، وفكرة التقدم والنكوص تعكس بداية ونهاية تاريخ الانسانية ، وان القانون العام للتطور لا يسير الى الامام ونحو هدف معين ، اي حسب خط مسيرة التاريخ الديني المستقيم وانما الى الوراء ايضا ، عبر العلاقة الوثيقة بين العلّة والمعلول[١٤] .

٤ ـ الفوضى وسلطة المادة المطلقة :

يبدأ التطور التاريخي عند باخوفن في مرحلة الفوضى Urchaos وفي هذه المرحلة كان الانسان قد خلق عن طريق الولادة من الام الأصل ، ومن دون مزيج جسدي ، ويعني ذلك ان الام الاصل هي التي اوجدت الجنس البشري[١٥] . وبالنسبة لباخوفن فأن ذلك الزمن هو زمن سلطة المادة المطلقة.

وقد نعت باخوفن الفترة التي اعقبتها « بمادة الأرض الخام » Der chtonische Tellurismus وفي الزمن القديم كانت المادة قد تضمنت قوة الفكر ، باعتبارها جزءا منها ، ويمكن ان ينظر الى العلاقة بين المادة والفكر بصورة الارض والماء ، فالارض تستقبل قوة الماء الخالقة بصورة شهوانية غير مرئية ، فتخلق الاحياء لتسترجعهم اليها ثانية عند الموت، وهذا ما اوحى للانسان القوة في استغلال نباتات الدلتا والوديان الغنية ، عالم النبات الممرع ، في سفوح النيل الخضراء ، وارض مصر اليانعة . وهكذا قدس الانسان ، كأعلى سلطة ، مادة الارض الخام ، وكيّف حياته على صورتها . لم تقلد الارض الانثى ، بل قلدت الانثى الارض . الانثى هي صورة وخليفة للام الاصل ، الارض . ولهذا اصبحت الام مقدسة مثل الارض ، باعتبارها الاولى ،

---

(١٤) انظر Ibid, S. XVIII a

(١٥) Ibid, S. 165 a

المعطاء ، وهي في الاخير قد تسللت من الرجل الذي تكوّن منها • ومثل الارض ، المادة التي تشتهي الولادة ابدا ، تشتهي الانثى الخلق • وللانثى انتج الدين ، واجب العطاء في الولادة[١٦] •

ان اقدم نظام انساني في سلم التطور التاريخي هو نظام الأباحية الجنسية ، الذي ساد في الوقت الذي لم يكن هناك عائلة ولا نظام للابوة ، ولم يكن هناك سوى الانثى •

تعاصر الأباحية الجنسية عصر الملكية الجماعية وحق المساواة لكل الناس• ولا يعني ذلك في رأي باخوفن أن شروط الحياة الاقتصادية هي العامل الحاسم في تكوين نظام حق الام • فالعامل الحاسم في نظر باخوفن ، وفي كل الحضارات هو الدين[١٧] •

٥ ــ التحول من سلطة المادة المطلقة الى المادة الخام :

أي التحول من نظام الاباحية الجنسية الى نظام الزواج • وهي المرحلة الثانية ، فترة المادة الخام القمرية ــ نسبة الى القمر ــ التي ترتبط بنظام ديني يحدد العلاقات الجنسية في الزواج ، وهي فترة حق الام بالمعنى الخاص ــ نظام الانتساب في خط الام ــ وهنا تقترب الحقيقة الطبيعية ، حيث تنسحب في هذه الفترة القوة الخالقة لفكرة الرجل ، الى القمر • ففي الوسط ، بين الاثنين ، يقف القمر ، كحد فاصل بين منطقة المادة ومنطقة الفكر ، بين جسم المادة النقي وغير النقي • وليس هناك تبدل في هذا العالم المحكوم عليه[١٨] •

---

(١٦) Ibid, S. 330 a

(١٧) انظر
Sillnow, J. Grundprinzipien einer Periodisirung der Urgeschichte, S. 40, Berlin 1961

(١٨) انظر Bachofen, Das Mutterrecht, S. 22 b

وتتيجة لطبيعة القمر المزدوجة تكون السيطرة للمادة الانثى ، وتظهر ام الطبيعة الكبيرة ، كأرض وقمر . ويقدم القمر في الخط الأول . ك ديا ــ لونـــا[١٩] . Dea-Luna ، وفي الخط الثاني يقدم القمر ك ديوس ــ لونوس Deus-Lunus [٢٠] .

والقمر هو في نفس الوقت لونا ولونوس ، انثى مقابل الشمس ، وذكرا مقابل الأرض . ويقف القمر في المرتبة الثانية ، لانالقمر انثى اولا ومن ثـــم ذكر . والاخصاب الذي يتلقاه القمر من الشمس ، ينقله بدوره الى الارض ، فهو يتضمن اذن مجموع الكون Weltalls ويعكس الحيـــاة والموت . ومن خلال هذه الازدواجية يتطابق اذن مع نظام العلاقات الجنسية في فترة الاباحية الجنسية ، لانه اولا انثى ثم ذكر . وهنا يرتفع مبدأ الانوثة عـــلى الذكورة الى السلطة ، وبمعنى آخر فان في فترة الاباحية الجنسية يسيطر الليل على النهار ، الذي ولد منه ، مثلما تسيطر الام على الولد . وفي مبدأ الابوة يسيطر النهار على الليل[٢١] .

وفي مقطع آخر يصور باخوفن طبيعة القمر الازدواجية بصورة اوضح حيث يقول : «ان قوة الخصب القمرية ليست اصيلة فيه ، انما تحولت اليه من الشمس ، لان شعاع الشمس الازلي يتوزع على كل الاجسام الواطئة ، بينما تذهب الشمس بنفسها الى القمر وتبقى هناك مع المادة المستقبلة ، مثلما حدث في مصر في زواج ازيز بأزوريس[٢٢] . وتصبح الشمس بهذا ابا للقمر وديوس ــ لونوس بنفس الوقت »[٢٣] .

---

(١٩) Ibid, S. 1108.

(٢٠) ديا ــ لونا : الهة القمر ، اسم يوناني شاعري للقمر . ديوس لونوس : الهة الشمس ، اسم يوناني شاعري للشمس .

(٢١) Bachofen, Das Mutterrecht, S. 22 b — 23 a

(٢٢) اسطورة مصرية تصور زواج ازيز آلهة السماء ، بازوريس آله الدلتا .

(٢٣) انظـر Bachofen, Das Muttenrrecht, S. 23 a

يحيط شعاع الشمس مادة القمر وبهذا يكتسب طبيعة الارض ، وتصبح الشمس غير جسدية واعلى درجة من النقاوة • وعن طريق امتزاجها بالقمر تأخذ طبيعة الجسم المادي وتفقد بذلك توهجها وتنسكها[٢٤] وللحفاظ على الحياة املى الجنس الانثوي طبيعته ، ومن تأسيس وتجميل الحياة على الارض ارتبط الوجود الانساني وتجميل الحضارات[٢٥] •

ومن خلال الأساطير يوضح لنا باخوفن ، بان المرأة قد استطاعت الوصول الى السلطة عن طريق المكر والخداع فقط ، كما في قبائل الليكيير في اسيا الصغرى • ويصبح الرجل قضيبا فقط ، كما في اسطورة شترابو ، « الرجل الذي ينظر من زاوية عينيه »[٢٦] •

ان سيطرة المرأة على الرجل والاطفال ، في وضع طبيعي يسود فيه الخلط الجنسي الحر ، غير ممكن ، وكذلك ارث الام والانتساب اليها لا يكون ذو معنى الا عن طريق الزواج • واذا كان النساء والاطفال يعيشون جماعيا ، فأن الملكية ستكون بالضرورة جماعية ايضا[٢٧] •

ان موضوع حق الام الذي رسمه باخوفن هو صحيح تاريخيا ، فأن حق الام يكون في الحقيقة فقط من خلال انتساب الاطفال الى امهم وهو حق طبيعي ومشروع • وفي هذا الظرف الطبيعي فان الخلط الجنسي ليس غريبا وهو قديم قدم الجنس الانساني الذي ربط حق الام بالأباحية الجنسية ، وهو الذي سلم السلطة في العائلة والمجتمع في يد الام[٢٨] • اما الاسلحة التي استعملتها الانثى في صراعها مع الرجل فهي في نظر باخوفن : حنان الام والقوة الدينية العالية التي تمتلكها والاحترام لها[٢٩] • وهناك سيل عارم من الحقائق التاريخية

---

(٢٤) Ibid, S. 38 b

(٢٥) Ibid, S. XX VI a

(٢٦) Ibid, S. 109 — 110

(٢٧) Ibid, S. 18 b

(٢٨) Ibid, S. 18 a

(٢٩) Ibid, S. 1109

والاثنوغرافية التي تصور حضارة حق الام بصورة عامة وتغنيها بانواع من الصور لمعرفة الشعوب المختلفة التي ساد فيها مبدأ حق الأم • وكان اكتشاف الزراعة من قبل المرأة خطوة تقدمية في تاريخ الانسانية ، فالزراعة كما يقول باخوفن « قامت على اكتاف الشعوب الاموية»[٣٠] وقد رافق هذا التقدم الحضاري تحول في شكل العلاقات الجنسية ، لان هناك قانون عام ينظم الزراعة والزواج[٣١] • الزراعة طابع الحياة الزوجية ، فالارض لا تقلد الانثى، بل الانثى تقلد الارض ، والزواج يعتبر منذ الازمنة القديمة علاقة زراعية بين الام والاب[٣٢] الا انه ليس للاب من اهمية سوى كونه يضع البذور في شقوق الارض ثم يختفي[٣٣] • ومبدأ الزراعة ينعكس في الأساس في السنابل والحبوب وهو الذي رفع الام الى رمز مقدس[٣٤] •

٦ ـ النظام الشمس او نظام الكون الابوي : Der Solarismus

ان التطور من فكرة امومة الانسانية الى ابوتها يكون اهم نقطة في تاريخ العلاقات الجنسية • انها مرحلة تبدل فيها نظام الكون نفسه تبدلا كاملا• وان ارتفاع نظام الابوة على نظام الامومة لم يكن سوى نتيجة لانفصال الفكر عن الظواهر الطبيعية المادية وانتصار قانون الوجود الانساني على قانون الحياة المادي[٣٥] • وقد برهن انتصار نظام الأبوة على نظام الاباحية الجنسية باحتلاله مكانه الصحيح في سلسلة التطور الانساني • ان هذا التحول من حق الام الى حق الأب له علاقة وثيقة بتطور النظم الدينية ، وهو تطور من عالم المادة الى عالم الفكر ، من الطبيعي الى ماوراء الطبيعي • اما القوة المحركة لهذا

(٣٠) Ibid, S. 142 b
(٣١) انظر Sellnow, S. 40
(٣٢) Bachofen, Das Mutterrecht, S. 142 b
(٣٣) Ibid, S. 6 a
(٣٤) Ibid, S. XXO
(٣٥) Ibid, S. XX II a

التطور في رأي باخوفن فهي الدين[٣٦] • وان من خصائص كل مرحلة حضارية اشكال دينية معينة ، مثل عبادة القمر Demeter Kult في فترة حق الام وعبادة الشمس Sonnen Kult في فترة حق الاب[٣٧] • « الانسان يكسر عصابة المادة الخام ويرتفع بذلك على المادة الاصل»[٣٨] والجنس البشري يرفع نفسه « من اعماق الوحل القذرة والوجود الحيواني الى حياة منظمة سهلة والى حياة مضاءة فكريا »[٣٩] وقد حضى نظام الابوة بذلك الشرف حيث استطاع ان يصل الى الهدف وهو القضاء على الفقر والالم لمرحلة الدين القديمة وتأسيس حضارة جديدة عالية • ومن تحطيم نظام الاباحية الجنسية وانتصار نظام الابوة كان خلاص الانسانية وتأسيس وجود نبيل متسامي[٤٠] •

ان خروج الانسان ــ في نظام الابوة ــ من انسجامه مع الكون والطبيعة هو في نظر باخوفن اثم وشؤم ، الا انه اثم وشؤم لا خلاص منه ، وطريق لابد منه للتقدم ، ذلك التقدم الذي يوصلنا الى معرفة حقائق الاشياء بدل الانخداع فيها • ان عالم الحس عند باخوفن هو خداع وكذب • اما الحقيقة فتوجد فقط في عالم الفكر • وحق الام يبقى في عالم الحيوان ، اما العائلة الانسانية فتنتقل الى حق الاب[٤١] •

٧ ــ نقد النظرية :

في الوقت الذي نشر فيه باخوفن كتابه حق الام عام ١٨٦١ كانت قد ظهرت عدة كتب تعتبر من امهات الكتب النظرية في الاثنولوجيا الاجتماعية • ففي نفس السنة ظهر كتاب هنري مين (١٨٢٢ – ١٨٨٨) H. Maine الموسوم بالقانون القديم Ancient Law وذهب فيه الى ان العائلة

---

(٣٦) Ibid, S. 54

(٣٧) انظر Sellnow, S. 40

(٣٨) انظر Bachofen, Das Mutterrecht, S. XXV II b

(٣٩) Ibid, S. XXX II a

(٤٠) Ibid, S. 146 b

(٤١) Ibid, S. XX VII b

الابوية الكبيرة هي الشكل الاصلي للحياة الاجتماعية وان السلطة المطلقة التي كان يتمتع بها رئيس العائلة كانت هي السبب في ظهور نظام الانتساب الى الاجداد في خط الذكور فقط • وفي سنة ١٩٦٥ ظهر كتاب ماكلينان (١٨٢٧ — ١٨٨١) J.F. Mclennan الموسوم بالزواج البدائي Primitive Marrige وذهب فيه الى ان الانسان الاول كان يحيا حياة اباحية طليقة على الرغم من انه كان يعيش في جماعات طوطمية صغيرة تقوم على اساس القرابة الاموية وتنتشر بينها عداوات الدم وتتبع نظام الزواج الخارجي Exogamie نتيجة لعادة وأد البنات التي اضطرت الرجال الى التزوج من قبائل اخرى ، ثم لم تلبث هذه الجماعات ان انتقلت الى مرحلة تعدد الازواج Polyandrie بالنسبة للمرأة الواحدة ، ومنها الى نظام الانتساب الى الاب • وقد تأثر بهذه النظريات عالم اسكتلندي آخر هو وليم روبرستون سمث (١٨٤٦ — ١٨٩٤) W.R. Smith الذي طبق هذه النظريات على الوثائق القديمة المتصلة بتاريخ العرب القدماء في كتابه العائلة والزواج في البلاد العربيةالقديمة[٤٢] • Kinship and Marriage in Erly Arabia

وقد تطرق انجلز في كتابه اصل العائلة الى نظرية باخوفن واعتبر بدأ تاريخ العائلة هو عام ١٨٦١ وهو عام ظهور كتاب حق الام لباخوفن ، الذي ادعى فيه بان البشرية كانت قد عاشت في اول مراحلها التاريخية في علاقات جنسية غير مقيدة ، وقد اعطى باخوفن لهذه العلاقات الجنسية اصطلاحا غير موفقا هو « الاباحة الجنسية » Hetärismns حيث انتفى فيه بالتاكيد دور واهمية الاب في العائلة ، ولذلك اصبح النسب في خط الام وذلك لدورها واهميتها في العائلة والمجتمع • هذا الشكل من العلاقات الجنسية هو الاصل عند كل الشعوب في العالم القديم • وعلى هذا الاساس فان الاناث ، الامهات ، هن الوحيدات اللواتي كن « ربات العائلة » اللواتي حصلن على الاحترام

---

(٤٢) انظر
Evans-pritchard: Social Arthropology, S. 29, London 1951

والتقدير • ان هذا التصور هو الذي رفـــع الانثى الـــى ســـلطة الام Gynaikokratie وان التحول من نظام الاباحية الجنسية الى نظام الزواج الاحادي Einzelehe, Monogamie اي الزواج بأمرأة واحدة هو خروج او خرق للنظام الديني القديم Uraltreligion الذي ندم عليه الانسان واوجب على المرأة ان تقدم ثمنا له •• ولم يكن ما قدمه باخوفن كان واضحا ، الا انه استطاع ان يبرهن على ما جاء به ، وهذا يعني في عام ١٨٦١ « ثــورة كاملــة »[٤٣] •

واذا كان باخوفن يعتبر مكتشف نظرية حق الام ، فـــان ليفتيـــاو Lafitau وهو يسوعي فرنسي درس قبائل الاروكيزن والهورونن وجمع معلومات قيمة حولهم ووضع دراسة مقارنة بين العادات والتقاليد الشائعــة للامريكان Moeurs des Sauvages Ameriquains الذي صـــدر في باريس عام ١٧٢٤ ، قد توصل بدراسته المقارنة هذه الى الاتفاق مع نصوص هيرودوت حول اتساب هذه الشعوب في خط الام • وقد جمع ليفيتاو نصوصا اخرى من المؤرخين الكلاسيكين مثل هيراكليدس وبوتنيكوس ونيلوكوس ودمسكوس تربط بين الانتساب الى الام والنظام الاجتماعي الذي يعطـــي السلطة في يد الام[٤٤] • وبالرغم من هذا التشابه الكبير بين باخوفن وليفيتاو في الوصول الى نفس النتائج ، فان ليفيتاو كان اكثر نقدا لمبدأ حق الام[٤٥] •

والحقيقة فان نظرية باخوفن حول حق الام هي اكتشاف جديد كما اثبتت ذلك الدراسات الاثنولوجية اللاحقة من بعده خصوصا بعد ان برهن مورجان L. Morgan على صحة نظرية باخوفن في دراسته حول الاروكيزن في كتابه Ancient Society الذي صدر في لندن عام ١٨٧٧ واثباته لاتسابهم

---

(٤٣) انظر Engels, F., Ursprung der Familie, S. 12—14, Berlin 1970

(٤٤) انظر Mühlmann, W., Ethnien, Kulturen, S. 217-218, Neuwied 1964

(٤٥) Ibid, S. 218

في خط الام[٤٦] . كما تأثر بباخوفن لودفيج كلاجس Klages في كتابه « الفكر عدو الروح » Der Geist als Widersacher der Seele ودافع عن نظرية حق الام دفاعا حارا[٤٧] .

ان نظرية باخوفن كانت قد فتحت الطريق امام البحوث الاثنوغرافية والاثنولوجية وذلك بألقائها الضوء على مرحلة حق الام وساعدت في تطوير البحوث التي دارت حول تلك المرحلة المبهمة من تاريخ الانسانية القديم ، حيث كانت لافكار باخوفن « اهمية كبيرة في تشخيص مرحلة حضارية بكاملها »[٤٨] . ومن جهة اخرى فقد حدث رد فعل قوي ضد نظرية باخوفن وظهر ذلك في النقد الشديد من قبل ياكوب بورخارت حول رموز القبور . ففي رسائل بورخارت الى فوجلاين عام ١٨٦٦ اعتبر بورخارت اراء باخوفن بانها اساطير فاسدة تماما ولا يقف بجانبها احد[٤٩] .وكذلك انتقادات فولفجانج فيليب W. Philipp اللاذعة في كتابه ?Weiberwertung oder Mutterrecht الذي صدر عام ١٩٤٢ حيث اعتبر بناء بحثه غير متكامل لعدم وضوح افكاره وضعف تسلسلها . وان نفس التحولات الثلاثية الهيكلية : Hegelianische Dreitakte استباحة الانثى في فترة الاباحية ، ثأر الانثى في وقت تسلطها، ونظام الابوة ، لم يكن سوى ترجمة غير موفقة للكاتب الكلاسيكي كليراخ فون سولوي Klearach Von Soloi

اما عالم الاجتماع الهولندي شتاينميتز Steinmetz فقد كان حكمه على كتاب باخوفن « حق الام » موفقا حيث قال : « ان هذا الكتاب الغريب

---

(٤٦) انظر Sellnow, S. 40

(٤٧) انظر Mühlmann, S. 216

(٤٨) Ibid, S. 215

(٤٩) Ibid, S. 216

(٥٠) Ibid, S. 216

هو اصيل في بابة ، وهو بالتأكيد كان قد كسر الطوق ، انه معلم عظيم ، الا انه بالتأكيد غير علمي »[٥١] .

ان نظرية باخوفن حول حق الام كمرحلة تشمل كل المجتمعات الانسانية لم تعد يوثق بها ، لان هناك بالطبع مجتمعات تتبع خط الام في نسبها ، وهي منتشرة في اجزاء من العالم ، ولكن على المرء ان لا يعمم مثل هذه الفرضية على جميع المجتمعات ، لانه لابد من توفر شروط معينة في هذا النظام . ومن الضروري ان يتوفر نوع من تبادل الادوار الاجتماعية بين الرجال . ففي مكان الاب ، الذي يقوم بدوره القيادي في العائلة المعروفة الان في نظام الابوة ، يقوم اخو الام (الخال) بذلك الدور في نظام الانتساب في خط الام ، وترتبط بهذا النظام عادة تبادل العلاقات والادوار في المؤسسات الاجتماعية التي يقوم بها الخال تجاه ابناء اخته وعلى المرء ان يلاحظ الاختلاف ، علاوة على خط الانتساب ، في الارث ، وحقوق الالقاب ، والاحترام ، والسلطة الحقيقية ، لان القرابة ربما تحدد عن طريق الانتساب في خط الام ، الا انه في نفس الوقت ، تكون قيادة العشيرة في خط الانتساب الى الاب[٥٢] .

وقد اثبتت المعلومات الاثنوغرافية ان هناك عدد قليل فقط من المجتمعات التي يسود فيها نظام حق الام ، وهي نقاط في بحر واسع . كما ان الوقائع التاريخية للعهود القديمة تؤكد ندرة هذه الشعوب التي تتمثل فيها خصائص نظام حق الام . ففي فترة ما قبل الحضارة الهيلينية ظهرت هذه الخصائص عند قبائل كاريز وكوكونر وبيلستجير والليكيير . اما في العصر الحديث فتوجد مثل هذه القبائل في افريقا ، على سواحل ساحل العاج الذهبي وفي الكونغو

---

(٥١) Ibid, S. 217

(٥٢) Ibid, S. 222

بين قبائل سمبيزي ، وفي شمال اثيوبيا . وكذلك في الهند ، في جنوب منطقة كيرالا . وهي مجتمعات يسود فيها نظام الانتساب الى الام ، الا ان هذه النقاط في هذا البحر الواسع هي حالات نادرة كما يقول ميلمن[٥٣] . وفي مقدمة ناشر كتاب باخوفن حق الام يقول مويلي : « لقد اصبحت فكرة حق الام اليوم اكثر تفهما من قبل في المجال العلمي ، الا ان هذه الفكرة اصبحت اليوم اكثر اشكالا مما مضى »[٥٤] .

ان ما يستحقه باخوفن هو كونه اول من بدأ في كتابة تاريخ العائلة واول من وضع اصطلاح حق الام وكونه الاول الذي وضع يده على صميم المشكلة التي اخذها علماء الاثنولوجيا من بعده .

---

(٥٣) Ibid, S. 223

(٥٤) Meuli, Im Nachwort Zum Mutterrecht, S. 1011

المصادر الاجنبية

1. Bachofen, J. J., Das Mutterrecht, (1861), Basil 1948
2. Bachofen, J. J., Der Mythos von Orient und Okzident, hesg: von Schröter, Basil 1926
3. Bachofen, J. J., Urreligion und antike Symbole, (1859), hesg: von C. Bernolli, 1926
4. Bachofen, J. J., Versuch über die Gräber der Alten Urreligion und antike Symbole, 1952
5. Engels, F., Der Ursprung der Familie, des privateigentum und des staats, Berlin 1970 .
6. Evans-pritchard; Social Anthropology, London 1952
7. Meuli; Nachwort Zum Mutterrecht, Basil 1948
8. Mühlmann, W., Rassen, Ethnien, Kultnren, Neuwied und Berlin, 1964 .
9. Philosophisches Wörterbuch, Körner Verlag, Stuttgartt, 1965.
10. Sellnow, J., Grundprinzipien einer periodisierung der Urgeschic-hichte, Berlin 1961.
11. Thomson; G.; Frühgeschichte Grichenland und der Ägäis, Bd. I., Berlin 1969.

التوكيل بالخصومة

فاضل شاكر احمد
استاذ مساعد في قسم الدين
كلية الآداب ـ جامعة

ـ خلاصة البحث ـ

الوكالة : نيابة اتفاقية بين الموكل والوكيل

ومعنى الخصومة لغة ـ الجدل وفي الاصطلاح : جواب الخصم بالاقرار أو بالإنكار .

وهي من جانب المدعي ـ تقدمه بالدعوى ، وإقامته البينه ، ويحلف عند الانكار ، ويطلب الحكم والقضاء .

وهي من جانب المدعى عليه دفعه لدعوى المدعي وطعنه في الشهود والوكالة قسمان عامة وخاصه وثبتت حجيتها في الكتاب والسنه والاجماع .

اركانها اربعة ـ الصيغه ، الموكل ، الموكل فيه ، الوكيل .

يجوز تعدد الوكلاء ولا يجوز للوكيل ان يتصرف بمفرده الا اذا أذن له الموكل بذلك وكذلك يجوز تصرفهم مجتمعين .

وفي القانون (اذا تعدد الوكلاء جاز لاحـدهم الانفـراد بالعمل فى القضية ما لم يكن ممنوعا من ذلك بنص في التوكيل) .

يحق للوكيل العام توكيل الغير . كذلك أباح قانون المحاماة العراقي لوكيل الخصومة من المحامين ان يوكل غيره دون اشتراط اذن الموكل ويلزم الوكيل بالتقيد بصيغة الوكالة ويبذل العناية المطلوبة بكل أمانة للموكل حق مراقبة تنفيذ الوكالة .

الوكيل بالخصومة نائب عن الموكل وله ولاية التصرف عنه وأن حكم القضاء ينفذ أثره على الموكل . يتطلب أثبات الوكالة امام القضاء .

اذا عزل الموكل الوكيل فيشترط علم الوكيل لاجل نفاذ العزل .

التوكيل بالخصومة بحث مقارن

١ ــ تمهيــد :ــ

تعريف الوكالة ، أركانها ، أدلة لاخذ بها •

علاقة الوكالة بالنيابة عن الغير :ــ

الوكالة صورة من صور النيابة الاتفاقية • والنيابة في التصرف عن الغير تقسم الى ثلاثة أقسام :ــ

(أ) النيابة الشرعية :ــ ويكون مصدرها (الشرع) مثل نيابة الاب عن ابنه الصغير في التصرف في أمواله والمطالبة بحقوقه •

(ب) النيابة القضائية :ــ ويكون مصدرها (القاضى) مثل تعين القاضى قيما على المحجور •

(جـ) النيابة الاتفاقية :ــ ويكون مصدرها (الموكل) مثل الوكالة •

قلنا ان الوكالة صورة من صور النيابة الاتفاقية لان هناك غيرها من الصور مثل الايصاء والفضالة • وللتميز بين هذه الصور الثلاث نقول :ــ

الايصاء ــ هو أن ينيب الانسان غيره ليقوم بعد وفاتــه بالنظــر في شؤون تركته وفى شؤون اولاده الصغار [١] •

الفضاله : وصف يقوم به شخص يتصرف بمقتضاه في شؤون غيره بدون اذن من صاحب الشأن الذي تصرف فيه وليس له ولاية شرعيه أو وصايــة والذي يصدر عنه العمل يسمى فضوليا • ومن المقارنة بين صور النيابــة الاتفاقية نحدد أوجه الشبه والخلاف حسبما يلي :ــ

(١) من حيث المصدر :ــ

الوكالة مصدرها (الاصيل) والايصاء مصدره (الموصى) والفضاله مصدرها (مالك التصرف) •

---

(١) أحكام التصرف عن الغير نيابة للشيخ احمد ابراهيم ص ٩٥ .

(٢) من حيث الاتفاق :ـ

يتم الاتفاق في الوكالة بين الاصيل والوكيل • ويتم الايصاء بين الموصى والموصى له • وفي الفضاله يتم الاتفاق بين المالك والفضولي •

(٣) وقت التصرف :ـ

في الوكالة ـ ينفذ تصرف الوكيل فى حياة الاصيل •

وفي الايصاء ـ ينفذ تصرف الموصى له بعد وفاة الموصى •

وفي الفضاله ـ لا ينفذ التصرف الا اذا أجازه المالك •

معنى الخصومة :

الخصومة في اللغة الجدل[٢] • وفى الشرع ـ جواب الخصم بالاقرار أو بالافكار[٣] وهي من جانب المدعي ـ تقدمه بالدعوى واقامته البينه ويحلف عند الانكار ويطلب الحكم والقضاء • وهي من جانب المدعى عليه دفعه لدعوى المدعي وطعنه في الشهود وغير ذلك •

تعريف الوكالة :

في اللغة ـ لها عدة معاني هي :ـ

(١) اقامة الغير في التصرف

جاء في معجم لسان العرب (ووكيل الرجل الذي يقوم بأمره)[٤] •

(٢) الاعتماد على الغـير

قال الجوهري (التوكل اظهار العجز والاعتماد على غيرك)[٥] •

(٣) الكفالـه :

قال ابن منظور (الوكيل هو المقيم الكفيل بأرزاق العباد)[٦] •

---

(٢) معجم تاج العروس ٢٧٨/٨ .

(٣) شرح المجلة لعلي حيدر ٦٤٨/٣ ، روضة الطالبين ٣٢٠/٤ .

(٤) لسان العرب لابن منظور ٧٣٥/١١ .

(٥) الصحاح للجوهري ١٨٤٤/٥ ، قاموس المحيط ٦٧/٤ .

(٦) لســان العرب ٧٣١/١١ .

وفي القرآن الكريم قوله ـ سبحانه وتعالى (••• ألا تتخذوا من دوني وكيلا)[٧] •

(٤) الحفظ :

قال بن منظور (وقيل الوكيل الحافظ)[٨] •

(٥) التفويض :

وقد ورد ذلك في كتب الفقه للشافعية (الوكالة فى اللغة التفويض)[٩]

في الاصطلاح :

الحنفية :ـ

قالوا : (الوكالة هي ان يقيم شخص غيره مقام نفسه في تصرف جائز معلوم على أن يكون الموكل (بكسر الكاف) (ممن يملك التصرف)[١٠] •

قيود التعريف :

(أ) قوله في تصرف جائز خرج به تصرف الصبي في توكيله غيره فى هبة ماله لان الصبي ممنوع من التصرفات الضارة سواء كانت قوليه أو فعليه •

(ب) قوله تصرف معلوم •

خرج به التصرف المجهول ـ كما اذا قال اه ووكلتك في مال أو أنت وكيلي في كل شيء ـ ويرد على هذا ان الوكالة العامة جائزة عند الاحناف مع ان التوكيل العام ليس معلوما[١١] ـ أجاب الاحناف على هذا ـ أن التوكيل العام وأن كان مجهولا على التفصيل فأنه معلوم من حيث جملة الحقوق المطالب بها •

---

(٧) الاسراء لآية ٢ .

(٨) لسان العرب ٧٣٤/١١ .

(٩) نهاية المحتاج ١٤/٥ ، بدائع الصنائع للكاساني ١٩/٦ لاكشاف القناع ٤٦١/٣ .

(١٠) حاشية بن عابدين ٤٤٠/٤ .

(جـ) اشتراط أن الموكل يملك التصرف :ـ

يرد على هذا ان أبا حنيفة يقول انه يصح ان يوكل المسلم ذميا فى بيع الخمر والخنزير وأن يوكل المحرم شخصا غير محرم بالصيد مع أن المسلم ممنوع من بيع الخمر والخنزير وكذلك المحرم في الحج ممنوع من الصيد وعلى هذا تكون زيادة قيد ممن يملك التصرف غير صحيحه ويرد الاحناف على ذلك ان المراد ممن يملك التصرف في الاشياء ذاتها بصرف النظر عما يرد عليها من عوارض فالاصل في الاشياء الاباحه ولولا نهي الشارع عن بيع الخمر والخنزير لما منع شخص من التصرف فيهما [١٢] فيكون الاصيل مالكا لاصل التصرف وأن امتنع في بعض الاشياء بعارض .

كما يؤخذ على تعريف الأحناف انه ينقصه وصف التعريف بأنه (جامع مانع) فهو غير مانع لشموله (الايصاء) فعليه كان ينبغي تقييد التصرف بأن لا يكون بعد موت الموكل كذلك لم يحدد التعريف مالا يجوز فيه النيابة مثل الاشياء المتعين القيام بها من قبل الشخص نفسه ولا يستطيع انابة غيره فيها مثل الوضوء والصلاة .

تعريف الشافعية للوكالة :

عرفوا الوكالة (تفويض شخص الى غيره أن يفعل شيئا حال حياته اذا كان للمفوض الحق فى فعل ذلك الشيء وكان ذلك الشيء مما يقبل النيابة)[١٣] .

يلاحظ على هذا التعريف الدقة والشمول فكلمة التفويض تدل على التوكيل بشيء معين معلوم وبين التعريف بأن الاصيل يملك التصرف كما حدد الموكل فيه ان يكون مما يقبل النيابة . كما أن التعريف اشتمل على أركان الوكالة الاربعة : الموكل والوكيل والموكل فيه وصيغة التوكيل .

---

(١١) حاشية الطحطاوي على الدر المختار ٢/٢٦٤ .
(١٢) تبين الحقائق شرح كنز الدقائق لفخرالدين الزيلعي ٤/٢٥٤ .
(١٣) تحفة المحتاج بشرح المنهاج ٥/٢٩٤ ، هامش حاشية البجيري ٣/١٤٧ .

تعريف المالكيـة :

قالوا : الوكالة (أن ينيب شخص غيره في حق له يتصرف فيه كتصرفه)[١٤]، يؤخذ على هذا التعريف معقد وفيه ضمائر كثيرة فيقتضى توضيح الى من تعود هذه الضمائر ! كما ان أطلاق التصرف يحتمل المعلوم وغيره كما يحتمل الجائز ومالا يجوز من التصرفات ولم يشر التعريف الى صيغة التوكيل .

تعريف الحنابلـة :

عرفوا الوكالة بأنها (استنابة جائز التصرف مثله في الحياة فيما تدخله النيابة)[١٥] هذا التعريف وأن كان مختصرا فأنه يقيد التصرف الجـــائز ويخرج الايصاء بتعبير (مثله في الحياة) كما يحدد النيابة الجائزة كما أن التعريف يعتبر النيابة مرادفة للوكالة ولم يبين ان النيابة أعم من الوكالة .

تعريف الامامية :

يعرفوا الوكالة بعدة تعاريف منها :ـ

(مادل على الانابة في التصرف)[١٦] .

(الايجاب والقبول الدالين على الاستنابة)[١٧] .

ويرد على هذه التعاريف انها ليست مانعه فهي تصدق على جميـع أنواع النيابة كما أنها لا تقيد التصرف بأنه فى حياة الموكل ، وأن التعريف أطلق التصرف فهو يشمل التصرف، الجائز وغيره والصحيح والفاسد والمعلوم والمجهـــول .

تعريف الزيدية :

عرف الزيدية الوكالة من ناحية لغوية فقط فقالوا :

(الوكالة بفتح الواو وكسرها : التفويض وتكون أيضـا بمعنـى الحفظ .

---

(١٤) شرح الخرشي لمختصر خليل ٦/٦٨ .

(١٥) مطالب الى النهي شرح غاية المنتهى ٣/٤٢٧ .

(١٦) ، (١٧) شرائع الاسلام ١/٢٣٩ ، مفتاح الكرامه ٧/٥٢٢ .

قال الله سبحانه وتعالى (حسبنا الله ونعم الوكيل) [١٨] .

كما بينوا انها جائزة في القيام على الاموال وطلب الحقوق واعطائها واخذ القصاص من النفس فما دونها والتزكية وعقود الانكحه والبيع والشراء والاجارة والاستئجار .

وكيفوها أن لها وجهين احدهما (نيابة) بدليل تحريم مخالفة الموكل وثانيهما (ولاية) لجواز المخالفة الى الاصلح كالبيع بمعجل وقد أمر بمؤجل.

تعريف الظاهرية :

(لم يورد الظاهرية تعريضا محددا للوكالة فقط بينوا فيم تجوز وفيم لا تجوز وقالوا كل ذلك من الحاضر والغائب سواء ومن المريض والصحيح سواء وطلب الحق كله واجب بغير توكيل الا ان يبريء صاحب الحق من حقه)[١٩] .

ولو استعرضنا التعاريف الفقهية للوكالة وقارنا بعضها ببعض لرأينا ان التعريف الذي أورده الشافعيه هو أدق التعاريف من حيث الصياغة واشملها من حيث جمع صفات المعرف ومنع كلما لا يمت بصلة الى المعرف .

والآن نستعرض التعاريف للوكالة في القانون المدني العراقي وبعض القوانين المدنية في الدول العربية المجاورة :

١ ــ عرفت المادة ٩٢٧ من القانون المدني العراقي :

(الوكالة عقد يقيم به شخص غيره مقام نفسه في تصرف جائز معلوم) وهذا التعريف مستنبط من الفقه الحنفي .

٢ ــ عرفت المادة ٦٩٩ من القانون المدني المصري والمادة ٦٦٥ من القانون المدني السوري والمادة ٦٩٦ من القانون المدني الليبي تعريفا مطابقا للوكالة :

---

(١٨) الروض النظير شرح مجموع الفقه الكبير جـ٤ ص ٧٨ ، البحر الزخار جـ ٥ ص ٥٤ .

(١٩) المحلى لابن حزم جـ٨ ص ٢٤٤ــ٢٤٥ .

(الوكالة عقد بمقتضاه يلتزم الوكيل بأن يقوم بعمل قانوني لحساب الموكل) .

٣ ــ عرفت المادة ٧٦٩ من قانون الموجبات والعقود اللبناني الوكالة :

(عقد بمقتضاه يفوض الموكل الى الوكيل بقضية أو بعـدة قضايا أو بأتمام عمل أو فعل أو جملة أعمال وافعال ويشترط قبول الوكيل ويجوز أن يكون قبول الوكالة ضمناً وأن يستفاد من قيام الموكل به) أشارت المادة ٧٦٩ لبناني ان التفويض الى الوكيل يكون بقضية أو بعـدة قضايا ليفرق بين الوكالة الخاصة والوكالة العامة كما أشـارت الى قبول الوكيل الضمني ليتميز بين القبول بالكلام الصريح والقبـول بالعمل وبالتصرف الفعلي .

الادلة :

أ ــ قولل سبحانه وتعالى :

(فأبعثوا احدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا)[٢٠] .

وجه الاستدلال بهذه الآية الكريمة أن أرسال أهل الكهف لواحد منهم لشراء طعام لهم كان بطريق الوكالة وهذا المعنى اورده المفسرون فقال ابن العربي (قوله تعالى ــ فأبعثوا ــ هذا يدل على صحة الوكالة وهو عقـد نيابة اذن الله فيه للحاجة اليه) [٢١] .

وذكر الالوسى فى تفسير الآية (انها تصح دليلا على الوكالة وصحتها)[٢٢].

(ب) قوله سبحانه وتعالى :

(انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ..) [٢٣]

ب

---

(٢٠) الكهف ١٩ .

(٢١) احكام القرآن لابن العربي ١٢١٦/٣ .

(٢٢) روح المعاني في تفسير القرآن السبع المثاني للآلوسي .

(٢٣) التوبه ٦٠ .

اذ ان العاملين عليها هم عاملون عليها بطريق الوكالة [٢٤] •

(جـ) قوله سبحانه وتعالى :

(قال اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم)[٢٥] •

ووجه الاستدلال بهذه الآية الكريمة ان نبي الله يوسف عليه السلام طلب إنابته على خزائن الارض فأنابه عزيز مصر فتكون هذه النيابة بطريق التوكيل •

٢ ـ من السنة النبوية المطهرة :

أ ـ عن جابر بن عبدالله قال : أردت الخروج الى خيبر فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه وقلت له خبر خروجي فقال : (اذا أتيت وكيلي فخذ منه خمسة عشر وسقا فأن ابتغى منك بينة فضع يدك على ترقوته)[٢٦] •

والحديث صريح في مشروعية الوكالة حيث ورد فيه لفظ (وكيلي) صراحة ••

ب ـ ما جاء في الصحيحين :

(ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث السعاة لجمع الزكاة ـ وذلك بأعتبار ان السعاة هم العاملون على جمع الزكاة فهم وكلاء •

ج ـ ما رواه أبو داود أن النبي صلى الله عليه وسلم وكل عمرو ابن امية في قبول نكاح ام حبيبه) [٢٧] •

٣ ـ الاجماع :

أن الاجماع انعقد على جواز الوكالة منذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين وتابعيهم ومن جاء بعدهم من العلماء في كافة البلدان • والاجماع حجة شرعية على رأي جمهور الفقهاء ••

---

(٢٤) مطالب أولي النهى ٤٢٨/٣ ، تذكرة الفقهاء للحلي ١١٣/٢ .

(٢٥) يوسف ٥٥ .

(٢٦) اخرجه ابو داود والبيهقي .

(٢٧) سنن أبي داود ٤٦٨/١ .

اركان الوكالة :

١ ـ الصيغـة :

وهي الاساس في معرفة ارادة المتعاقدين على انشاء الوكالة وتعتبر الركن الوحيد للوكالة في الفقه الحنفي[٢٨] وتتم بالايجاب والقبول .

والايجاب يكون باللفظ الصريح مثل : وكلتك وانبتك وفوضتك كما يتم بكل وسيلة تدل على الرضا مثل الرسالة والاشارة والامر مع اشتراط الاجرة كأن يقول الشخص (بع فرسي ولك دينار)[٢٩] كما يصح الايجاب بكل فعل دل على الوكالة مثلا : ان الشخص يدفع ثوبه للخياط فأنه توكيل بخياطة الثوب وبه قال الحنابله والامامية[٣٠] .

والقبول مثل الايجاب يكون بكل وسيلة تدل على الرضا لفظا أو كتابة أو اشارة أو سكوتا كأن يقول القابل رضيت أو أنا وكيلك أو أنه باشر اجراء التصرف الموكل فيه دون أن يصدر منه لفظ بالقبول ـ اما اذا قال الوكيل رددت الوكالة أولا أرضى أو لا أقبل فأن الايجاب يصبح لغوا ولا يصح ممن رد الوكالة قبولها الا بأيجاب جديد .

٢ ـ الموكل :

وهو الذي يصدر عنه ارادة التوكيل .

ويشترط في الموكل : أ ـ العقل بأتفاق الفقهاء فلا يجوز توكيل المجنون والصبي الذي لا يعقل والمعتوه والمغمى عليه والنائم .

---

(١٩) المحلى لابن حزم جـ ٨ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ .
(٢٠) الكهف ١٩ .
(٢١) أحكام القرآن لابن العربي ١٢١٦/٣ .
(٢٨) بدائع الصنائع ١١٨/٦ .
(٢٩) المغني ٧٧/٥ ، تذكرة الفقهاء ١١٤/٢ .
(٣٠) الانصاف للمرداوي ، فقه جعفر الصادق لمحمد جواد ٢٤٢/٤ .

ب ـ البلوغ :

اختلف فيه الفقهاء الى فريقين :

الفريق الاول ـ الشافعية ، الامامية ، الظاهرية ورواية عن الزيدية ذهبوا الى اشتراط بلوغ الموكل كي تصح وكالته ولا تصح عندهم وكالة الصبي المميز[٣١] .

الفريق الثاني ـ الحنفية ، المالكية ، الحنابله والقول الاخر عند الزيدية يجوزون وكالة الصبي المميز اذا آذن له وليه ، وحجتهم في ذلك ان انضمام اجازة الولي للتصرف دليل على قدرة الصبي على التصرف[٣٢] .

حـ ـ ان لا يكون محجورا عليه لسفه أو افلاس خاصة في التوكيلات المالية . هذا ما ذهب اليه جمهور الفقهاء [٣٣] .

وذهب الشافعيه والحنابلة فى أحد الوجهين والمالكية والاماميه الى جواز تصرف السفيه في الوكالة بنفسه مع اذن وليه [٣٤] .

٣ ـ الوكيل :

وهو الشخص الذي ينوب عن الموكل في القيام في التصرف الموكل فيه بموجب عقد الوكالة وشروطه مثل شروط الموكل يضاف اليها علم الوكيل بالوكالة وبالنسبة للتوكيل بالخصومة يضاف لها أيضا عدم كون الوكيل عدوا للخصم . ويكتفي في الوكيل أن يكون عاقلا من حيث الأهلية.

٤ ـ الموكل فيه :

وهو التصرف الذي يتم اتفاق الاصيل والوكيل على نيابة الوكيل في اجرائه ويشترط فيه ان يكون مملوكاً للموكل وقابلاً للنيابة وان يكون معلوما .

---

(٣١) مغني المحتاج ١٦٦/٢ ، مفتاح الكرامة ٥٣٠/٧ ، المحلى ٣٢٢/٨ ، البحر الزخار ٥٨/٥ .

(٣٢) بدائع الصنائع للكاساني ١٢٠/٦ ، شرح الحطاب ١٢٢/٥ ، كشاف القناع ٤٦٣/٣ ، البحر الزخار ٥٨/٥ .

(٣٣) نهاية المحتاج ١٥/٥ ، المبسوط ١٥٧/٢٤ ، شرح الحطاب ١٢١/٥ .

(٣٤) نهاية المحتاج ١٥/٥ المغني ٥٧/٤ .

أنواع الوكالـة :

١ ــ بالنظر لنوع التصرف الموكل به

بهذا الاعتبار تقسم الوكالة الى نوعين :ــ

أ ــ الوكالة الخاصة :

الاصل في الوكالة ان تكون خاصة [٣٥] • فاذا ذكرت الوكالة ولـم توصف بأنها عامة أو مفوضة أو مطلقة فهي وكالة خاصة وتكون في تصرف معين كبيع أو شراء أو خصام فى دعوى معينه • وعلى الوكيل ان لا يتجاوز حدود ما رسمه له الموكل فاذا كانت الوكالة بتأجير دار فليس له بيعها كما أن الوكيل بالخصومة عليه ان لا يتجاوز موضوع الدعوى الموكل بالخصومة عنهـا •

وقد تكون الوكالة خاصة مع أن الموكل يستعمل الفاظ العموم كأن يقول وكلتك بالخصـومة عن كل ديوني على مدين معين فأن هـذا التوكيل خاص لانه يتعلق بنوع واحد من التصرفات •

(ب) الوكالة العامة •

ويطلق عليها أيضا الوكالة المفوضة أو الوكالة المطلقة ويكون التوكيل فيها بتفويض الموكل لوكيله صلاحية كاملة للتصرف كأن يقول الموكل للوكيل انت وكيلي في كل شيء أو وكلتك للمطالبة بجميع حقوقي •

آراء الفقهاء المسلمين بالنسبة للوكالة العامة :

(١) الاتجاه الاول :

ان الوكالة العامة باطلة وهذا ما ذهب اليه (الشافعية والحنابلة وبعض الامامية وبعض الزيدية والظاهرية)[٣٦] •

---

(٣٥) حاشية بن عابدين (الدر المختار ..) ٤/٤٥٠ .

(٣٦) نهاية المحتاج ٥/٢٥ ، مطالب اولى النهى ٣/٤٤٣ ، مفتاح الكرامة ٧/٥٦٣ البحر الزخار ٥/٥٦ ، المحلى ٨/٢٨٣ .

جاء في كتاب الأم للشافعي :

(واذا شهد الرجل أنه وكله بكل قليل وكثير له ولم يزد على هـــذا فالوكالة غير جائزة)[37] .

وجاء في المحلى لابن حزم :

(ولا تجوز وكالة على طلاق ولا على اقرار ولا على عقد الهبة ولا على الابراء ولا على عقد ضمان ولا على ردة ولا على قذف .... لان كل ذلك الزام حكم لم يلزم قط وكل عقد ثابت ونقل ملك بلفظ فلا يجوز ان يتكلم احد عن احـــد : لا حيث اوجب ذلك نص ولا نص على جواز الوكـــالة في شيء من هذه الوجوه ، والاصل ان لا يجوز قول احد على غيره لقول الله تعالى « ولا تكسب كل نفس الا عليها » .

وكل ما ذكرنا كسب على غيره وحكم بالبـــاطل فلا يمضيه احد على احـــد ..)[38] واصبح هذا الفريق بأن في التوكيل العام غررا عظيما وخطرا كبيرا في ملكه[39] .

(٢) الاتجاه الثاني :

ان الوكالة العامـــة صحيحة ويملك الوكيل التصرفات وحقـــوق الموكل مطلقا من التبرعات والطلاق واليه ذهب ابن ابي ليلى وبعض الحنفيـــة وبعض المعاصرين من الامامية[40] .

وحجة هذا الفريق ان العموم يجري على عمومه فيعمل به وهو من حقوق الموكل .

---

(٣٧) الام ٢٣٣/٣ ص ٣٨ المحلى ٨ ص ٢٤٥ .

(٣٨) بدائع الصنائع ١١٨/٦ .

(٣٩) المغني ٧٩/٥ .

(٤٠) المغني ٧٩/٥ ، الفتاوي الخافيه ٢/٣ ، حاشية بن عابدين ٤٤٠/٤ ، فقه جعفر الصادق لمحمد جواد ٢٤٥/٤ .

(٣) الاتجاه الثالث :

ذهب الحنفية في رأي والمالكية وبعض الاماميه والزيدية فى رأي الى أن الوكالة العامة صحيحة الا انها مخصصة بالعرف وبمصلحة الموكل فلا ينفذ من التصرفات المضرة فيه فلا يجوز القبض الا بالنص عليه فقد استثنى الامام أبو حنيفة من التوكيل العام التبرعات والطلاق والعتاق[٤١] واستثنى الشافعية الاقرار ولو صرح بها الموكل ، واستثنى المالكية طلاق الزوجة وبيع دار السكن الا بتوكيل خاص واستثنى الزيدية من التوكيل العام العتق والطلاق والهبة لعدم المصلحة .

هل يشترط حضور الخصم أثناء اثبات الوكالة ؟

١ ـ ذهب الحنفية الى لزوم حضور خصم الموكل اثناء اثبات الوكالة اذ بعدم حضوره يتم الاثبات دون معرفة الخصومة الا أنه اذا قضي بالوكالة دون حضور الخصم صح القضاء لانه مختلف فيه[٤٢] .

٢ ـ ذهب الشافعية والمالكية والحنابلة والامامية الى عدم لزوم حضور خصم الموكل لان الخصومة لا تعلم غايتها فأعتبر جنسها وحيث لا يحتاج الى حضوره عند عقدها فلا لزوم لحضوره عند اثباتها[٤٣] .

الرأي الراجح :

عدم الحاجة لحضور الخصم عند اثبات الوكالة لان للموكل ان يقوم بالتوكيل دون الحاجة لرضا الخصم ، ولأن الامر في الاثبات يهم القضاء بالدرجة الاولى بأعتبار ان تنفيذ الوكيل للوكالة يتم امام القضاء واذا ما ثبتت الوكالة امام القضاء فيغني ذلك عن حضور الخصم .

---

(٤١) ابن عابدين نفس المصدر ، الاشباه والنظائر ص ٢٥١ ، حاشية ابن السعود ٣/٩٠ .

(٤٢) الفتاوي البزازيه ٢/٤٥٢ ، ابن عابدين ٧/٢٧٧ .

(٤٣) نهاية المحتاج ٥/٢٤ ، شرح الحطاب ٥/١٨٤ ، المغني ٥/١٢٣ ، تذكرة الفقهاء ٢/١٢٩ .

لزوم تحري الحق من قبل الوكيل :

على الوكيل سواء وكله المدعي أو المدعي عليه ان يتحرى الحق لأنه يلعب دورا مهما في كشف الحق ليدحض به جانب خصمه كما على الوكيل ان يتجنب قصد ايقاع الظلم على الخصم • ويترتب على ذلك حين يعلم ان موكله مبطل في دعواه فعلى الوكيل في هذه الحالة ان يتجنب التوكل عنه حذر المساهمة فى ايقاع الظلم على الخصم •

لان الشريعة الاسلامية تنهى عن الظلم وهي تقوم على المعاني النبيلة وتربط بين العمل المادي وبين القيم الروحيه • وهذا المسلك تنفرد به الشريعة الاسلامية بسبب استقلالها بمصادرها واصولها ونظرتها الى الحياة كي تقوم على أساس من الحق والعدل والرحمة ••

انواع الوكالة في القانون :ـ

نصت المادة ٩٣١ من القانون المدني العراقي على ما يلـي :ـ

(يصح تخصيص الوكالة بتخصيص الموكل وتعميمها بتعميمه ، فمن وكل غيره توكيلا مطلقا مفوضا بكل حق خوله وبالخصومة في كل حق له صحت الوكالة ولو لم يعين المختصم به والمخاصيم) •

ففي هذه المادة بينت أن الوكالة تكون عامة وخاصة وللوكيل العام ان يتصرف بكافة حقوق الموكل لكن محكمة التمييز تابعت الفقه الاسلامي وقيدت العموم بغير الطلاق والوقف والتبرعات كذلك قيدت المادة ٩٣١ مدني عراقي بالمادة ٥٢ من قانون المرافعات ونصها (الوكالة العـامة المطلقة لا تخول الوكيل العام بغير تفويض خاص الاقرار بحق ولا التنازل عنه ولا الصلح ولا التحكيم أو البيع أو الرهن أو الاجارة أو غير ذلك من عقود المعاوضه • ولا القبض ولا التبرع ولا توجيه اليمين اوردها أو قبولها ولا رد الحكام أو التشكي منهـم ولا ممارسة الحقوق الشخصية البحته ولا أي تصرف آخر بموجب القانون فيه تفويضا خاصا) •

وبموجب هذا النص لا يجري عموم الوكالة على عمومه الا في الامور التي لم تطلب المادة فيها توكيلا خاصا وبهذا يميل القانون المدني العراقي الى رأي الشافعية ومن وافقهم في لزوم تخصيص الوكالة وذلك لقطع دابر سوء النيه التي قد تراود الوكيل للاضرار بموكله لاسيما وان ذمم الناس قد تسرب اليها الضعف والتحلل •

ونصت المادة ٧٠١ مدني مصري ومدني ليبي والمادة ٦٦٧ من القانون المدني السوري (الوكالة الواردة في الفاظ عامة لا تخصيص فيها حتى لنوع العمل القانوني الحاصل فيه التوكيل لا تخول الوكيل صفة الا في اعمال الادارة) •

فالوكيل العام بموجب هذا النص لا يجوز له القيام بأي عمل من اعمال التصرف تبرعا ولا معاوضة الا اذا كانت تقتضيه اعمال ادارة التصرف وكذلك لا يجوز للوكيل العام ان يهب مال الموكل كله أو بعضه ولا ان يبيع مال الموكل أو يقرضه أو يصالح عليه أو يرهنه وكذلك لا يجوز له الاقرار ولا توجيه اليمين والمرافعة أمام القضاء [٤٤] كذلك نصت المادة ٧٠٢ من القانونين المدنيين المصري والليبي والمادة ٦٦٨ من القانون المدني السوري على ما يلي :ـ

١ ـ لابد من وكالة خاصة فى كل عمل ليس من أعمال الادارة وبوجه خاص في البيع والرهن والتبرعات والصلح والاقرار والتحكيم وتوجيه اليمين والمرافعة أمام القضاء •

٢ ـ والوكالة الخاصة في نوع من أنواع الاعمال القانونية تصح ولو لم يعين محل هذا العمل على وجه التخصيص الا اذا كان العمل من التبرعات •

---

(٤٤) الوسيط للسنهوري ج ٧ ص ٤٣٣ ، ٤٣٤ •

وهذه المادة تلزم الموكل تعيين التصرف الذي يريد التوكيل فيه ليكون معلوما للوكيل ان لم يكن هذا التصرف من أعمال الادارة التي فيها مصلحة للموكل ولا تؤدي الى أي ضرر محتمل .

هذا وقد ايدت التطبيقات القضائية هذا الاتجاه فمن قرارات محكمة التميز العراقية :ـ

(أ) القرار ٣١٠٤/شرعية/١٩٧٠

القرار : لدى التدقيق والمداولة ـ وجد ان المحكمة اصدرت حكمها بصحة الطلاق دوم ان تتثبت اذا كان الوكيل العام مخولا حق ايقاع الطلاق ام لا ! اذ ان الوكالة العامة المطلقة لا تخول الوكيل العام بغير تفويض خاص حق ممارسة الحقوق الشخصية البحته كالطلاق استنادا الى الفقرة الثانية المادة ٥٢ مرافعات لذا قرر نقض الحكم ...

(ب) القرار ٦٤٥/حقوقية ثانية/١٩٧٠

لدى التدقيق والمداولة وجد ان الحكم المميز غير صحيح ذلك ان المحكمة اخذت بأقرار وكيل المدعين ولم تلاحظ ان الفقرة الثانية من المادة ٥٢ من قانون المرافعات رقم ٨٣ لسنة ١٩٦٩ نصت على ان الوكالة العامة المطلقة لا تخول الوكيل العام بغير تفويض خاص الاقرار بحق فلا عبرة بأقراره المشار اليه .... قرر نقض الحكم المميز واعادة اضبارة الدعوى الى محكمتها للسير فيها على المنوال المتقدم ....

تعدد الوكلاء :

يجوز للموكل ان يوكل اثنين أو أو اكثر في أمر من الامور وهذا جائز عند فقهاء المسلمين الا ان المالكية انفردوا باشتراط كون الوكيل في االخصومة واحدا فلا يجوز توكيل أكثر من واحد الا اذا رضي الخصم بذلك[٤٥] وقد اختلف الفقهاء في كيفية تنفيذ الوكالة من قبل الوكلاء هل يجوز لواحد منهم ان ينفرد بالتصرف ويستقل به أم يشترط اجتماعهم في التنفيذ ؟

---

(٤٥) الشرح الكبير للدردير جـ٣ ، ص ٣٩٢ .

(١) الشافعية والحنابلة والامامية(٤٦)

الى انه لايجوز للوكيل ان يتصرف بمفرده الا اذا أذن له الموكل بذلك ـ لان الوكيل يتصرف بأذن موكله فأن لم يأذن الموكل يدل ذلك على رغبتـه باجتماع آرائهم بالتشاور فى كيفية تنفيذ الوكالة ولا يستثنى من ذلك الوكلاء بالخصومة بل يجب اجتماعهم الا اذا أذن الموكل بالانفـراد . والمـراد من الاجتماع التشاور فقد قال الامام النووي الشافعي في روضة الطالبين :

(لو وكل رجلين بالخصومة ولم يصرح بأستقلال كل واحد منهما فوجهان : الاصح لا يستقل واحـد منهما بل يتشاوران ويتباصـران ...)[٤٧] .

٢ ـ مذهب الحنفية :ـ

(أ) اذا كان التصرف مما يحتاج فيه الى الرأي كالعقود التي يكون فيها البدل مالا مثل النكاح والطلاق وقبض الدين فأنه يشترط فيـه اجتمـاع الوكلاء . أما الوكلاء على غير مال مثل تسليم الهبه ورد الوديعة فينفرد احدهم بالتصرف .

(ب) الوكلاء بالخصومة ينفرد كل منهم بالتصرف عند أبي حنيفة ومحمد وأبي يوسف وعند زفر لا ينفرد اذ عنده يحتاج ذلك الى الرأي .

اما عند الاصحاب الثلاثة فأن الخصومة اعلام القاضي بما يملكه المخاصم والاجتماع يخل بالاعلام لان أزدحام الكلام يخل بالفهـم فكان التوكيل تفويضا بالخصومة لكل منهم[٤٨] .

٣ ـ مذهب المالكية :

لا يجوزون تعدد الوكلاء بالخصومة الا اذا رضي الخصم[٤٩] .

---

(٤٦) المهذب ٣٠١/١ ، الانصاف ٣٧٤/٥ ، مفتاح الكرام ٥٤٧/٧ .

(٤٧) روضة الطالبين ٣٢١/٤ .

(٤٨) بدائع الصنائع للكاساني جـ٦ ص ٢٢ ـ ٢٣ ، الزيلعي ٢٧٥/٤ .

(٤٩) الشرح الكبير للدردير ، المصدر السابق .

٤ ــ منهب الزيدية :

(أ) اذا تم توكيلهم كل على انفراد جاز لكل منهم اجراء التصرف الا اذا اشترط الموكل اجتماعهم فأنه يلزم الاجتماع •

(ب) اذا تم توكيلهم في عقد واحد ولم يشترط اجتماعهم لايجوز الانفراد في التصرف الا فيما يخشى فواته (٥٠) •

تعدد الوكلاء في القانون :

أخذ القانون المدني العراقي بما اخذ به الفقه الحنفي فنص في المادة ٩٣٨ منه (١ ــ اذا وكل شخص وكيلين بعقد واحد ، فليس لاحدهما ان ينفرد بالتصرف فيما وكل به الا اذا كان لا يحتاج فيه الى الرأي كإيفاء الدين ورد الوديعة أو كان لا يمكن اجتماعهما عليه كالخصومة فأنه يجوز لكل منهما الانفراد وحده وبشرط انضمام رأي الآخر لا حضوره •

٢ ـ فأن وكلهما بعقدين جاز لكل منهما الانفراد بالتصرف مطلقا •

فى القوانين المدنية المصري والليبي والسوري :ــ

تجوز هذه القوانين انفراد احد الوكلاء بالخصومة الا اذا اشترط في عقد الوكالة خلافه •

نصت لمادة ٨٥ من قانون المرافعات المدنية والتجارية المصري (اذا تعدد الوكلاء جاز لاحدهم الانفراد بالعمل في القضية ما لم يكن ممنوعا من ذلك بنص في التوكيل) •

رأينا ان القانون المدني العراقي جوز انفراد احد الوكلاء في الخصومة بشرط انضمام رأي الآخرين دون الحضور سوية فى المرافعة بينما لا يشترط مثل هذا القانون المدني المصري •

---

(٥٠) البحر الزخار ٥/٦٣ ــ ٦٤ •

هل يجوز توكيل الوكيل لغيره وما أثر ذلك :ـ

قد تقتضي ظروف التنفيذ تعذر تنفيذ الوكيل الوكالة بنفسه فيضطر والحالة هذه الى توكيل غيره في اجراء التصرف فما هو رأي الفقهاء المسلمين في ذلك ؟ .

(١) اذا أذن الموكل للوكيل بتوكيل غيره في التصرف الذي وكله فيه فقد اتفق الفقهاء على جواز التوكيل ويكون تصرف الوكيل الثاني نافذا على الموكل لان الوكيل الاول مأذون بهذا التوكيل [٥١] .

(٢) اذا صرح الاصيل بمنع الوكيل من توكيل الغير في التصرف الذي وكله فيه كأن قال (لا توكل غيرك) . فأنه لا يجوز للوكيل ان يوكل غيره في ذلك التصرف . **هل يقوم التفويض الكامل مقام الاذن الصريح بتوكيل الغير؟**

كما لو قال الموكل للوكيل (وكلتك فاصنع ما شئت) .

(أ) ذهب جمهور الفقهاء : الحنفية والشافعية في رواية والحنابلة والمالكية والزيدية وبعض الامامية الى أن التفويض يقوم مقام الاذن وأن للوكيل في هذه الحالة أن يوكل غيره [٥٢] .

ولكن الحنفية استثنوا الطلاق والعتاق فلابد عندهم من الاذن الصريح لتوكيل الغير بهما .

(ب) ذهب الشافعية في الوجه الآخر وبعض الامامية الى عدم جواز توكيل الغير بالتفويض ـ لان قوله اصنع ما شئته ينصرف الى ما يقتضيه تصرف الوكيل بنفسه [٥٣] .

---

(٥١) المبسوط للسرخي جـ١٩ ص ١٥٩ ، نهاية المحتاج جـ٥ ص ٣٨ ، المحلى جـ٨ ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ حاشية البجيري على نهج الطلاب جـ٣ ص ٦٤ ، الروض النظير جـ٤ ص ٨٠ ـ ٨١ ، مفتاح الكرامة ٥٤٨/٧ الانصاف جـ٥ ص ٣٧٥ .

(٥٢) بدائع الصنائع ٢٨/٦ ، المهذب ٣٥١/١ ، شرح الحطاب ٢٠١/٥ ، البحر الزخار ٥٨/٥ تذكرة الفقهاء ١١٦/٢ .

(٥٣) المهذب ، تذكرة الفقهاء نفس المصدرين السابقين .

ورأي الجمهور راجح لانه بالتفويض الكامل لم يرد الموكل تقييد موكله بأي قيــد .

هل تخول الوكالة العامة توكيل الغير ؟

ان الوكيل العام يملك كل الحقوق والتصرفات التي يملكها الموكل ومنها توكيل الوكيل غيره والفقهاء الذين قالوا بجواز الوكالة العامة واستثنوا بعض التصرفات من شمول عموم الوكالة لها مثل الطلاق والعتاق والهبة ولاقرار والقبض لم يذكروا توكيل الغير في هذه المستثنيات .

ما يشترط في الوكيل الثاني :ـ

يشترط فيه ما يشترط من الوكيل الا ان جمهور الفقهاء وهم الشافعية والحنابلة والمالكية والامامية والزيدية اشترطوا في الوكيل الثاني ان يكون أمينا(٥٤) لانه لا نفع ولا مصلحة للموكل فى أن يوكل من ليس بأمين أما اذا عين الموكل الوكيل الثاني كأن قال للوكيل وكل فلانا فلا نشترط الامانة .

هل أن الوكيل الثاني هو وكيل الموكل ؟ أم وكيل الوكيل ؟

في المسألة خلاف :

(١) عند الأحناف :

الوكيل الثاني هو وكيل للموكل لان فعل الوكيل الاول بأذن الموكل هو كفعل الموكل بنفسه فلا يملك الوكيل الاول في هذه الحالة عزل الوكيل الثاني ولا ينعزل الوكيل الثاني بانعزال الوكيل الاول وأن مات الوكيل أو جن فالوكيل الثاني باق على وكالته وللموكل عزل كليهما كما أنه اذا مات الموكل أو جن ينعزل الوكيلان لانهما وكيلا عنه(٥٥) .

---

(٥٤) مغني المحتاج ٢/٢٢٧ ، المغني ٥/٨٢ ، شرح الحطاب ٥/٢٠٢ ، تذكرة الفقهاء ٢/١١٦ البحر الزخار ٥/٥٨ .

(٥٥) المبسوط للسرخي جـ٢٩ ص ١٥٩ ، شرح المجلة لحيدر ٣/٥٩٢ .

(٢) عند غير الأحناف :ـ

أ ـ يكون الوكيل الثاني وكيلا للوكيل الاول ـ في حالة اذن الموكل للوكيل صراحة بالتوكيل كأن يقول االاصيل للوكيل (وكل عن تفسك فلانا أو وكل عن نفسك من تشاء) •

وفي هذه الحالة ينعزل الوكيل عن الثاني عن الوكالة بعزل الوكيل الاول أو بخروجه عن الوكالة بسبب الموت أو الجنون أو غيرهما • كما يحق للموكل أن يعزل كلا من الوكيلين •

وهذا ما ذهب اليه المالكية والحنابلة ووجه عند الشافعية[٥٦] •

(ب) يكون الوكيل الثاني وكيلا للموكل :

وفي هذه الحالة ينعزل الوكيل الثاني عن الوكالة بعزل الوكيل الاول كان بأمر الموكل وعليه فلا يجوز لاي من الوكيلين عزل الآخر ولا ينعـزل احدهما بأنعزال الاخر وهذا في الاصح عند الشافعية والصحيح عند الحنابلة وهو مذهب المالكية واليه ذهب الاماميه فى الراجح[٥٧] •

وذهب الشافعية في غير الاصح والحنابلة في غير الصحيح وبعض الاماميه الى ان الوكيل الثاني يكون وكيل الوكيل الاول[٥٨] •

وعللوا ذلك ان الموكل وان اذن للوكيل بالتوكيل فأنه اراد بذلك تسهيل الامر لوكيله في اجراء التصرف كما اذا قال القاضي لنائبه استنب فأستناب فأنه نائب عنه لا عن منيبه وعليه فأن الوكيل الثاني ينعزل بأنعزال الوكيل الاول •

---

(٥٦) شرح الخرشي جـ٦ ص ٧٢ كشاف القناع عن متن الاقناع جـ٣ ص ٤٦٦ ، الانصاف جـ٥ ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥ •

(٥٧، ٥٨) نهاية المحتاج جـ٥ ص ٣٩ ـ ٤٠ ، كشاف القناع جـ٣ ص ٤٦٧ ، اللمعة الدمشقية جـ٤ ص ٣٧٥ •

(جـ) أن يطلق الموكل الاذن فلا يقول وكل عني ولا وكل عنك ففي هذه المسألة رأيان :ـ

(١) ان الوكيل الثاني يكون وكيلا عن الموكل وهو الرأي الراجح

٢ ان الوكيل الثاني يكون وكيلا عن الوكيل الاول وهو الرأي المرجوح.

توكيل الغير في القانون :

في القانون المدني العراقي ـ لا يكون التوكيل الا بأذن الموكل أو تفويضه بذلك كما جاء في المادة ٩٣٩ (ليس للوكيل ان يوكل غيره ، الا أن يكون قد اذنه الموكل فى ذلك أو فوض الامر لرأيه ، ويعتبر الوكيل الثاني وكيلا عن الموكل فلا ينعزل بعزل الوكيل الاول ولا بموته) .

كذلك اباح قانون المحاماة العراقي لوكيل الخصومة من المحامين أن يوكل غيره من دون اشتراط اذن الموكل فنصت المادة ٢٥ منه : (للمحامي سواء كان خصما أصيلا ام وكيلا في دعوى ان ينيب عنه في الحضور أو المرافعة أو في غير ذلك من اجراءات التقاضي محاميا اخر تمت مسؤوليته بكتاب غير خاضع لرسم الطابع يرسله الى المحكمة ما لم يكن في سند الوكالة ما يمنع ذلك .. ومن القوانين العربية يشترط اذن الموكل في التوكيل الثاني ..

أحكام الوكالة :

يراد بالحكم عند فقهاء الشريعة الاسلامية ثلاث معان :ـ

(١) صفة التصرف الشرعية من حيث كونه مطلوب الفعل وهو الفرض والمندوب أو مطلوب الترك وهو الحرام والمكروه أو من حيث التخيير بين الفعل والترك وهو المباح وهذه الاحكام تسمى شرعا (الحكم التكليفي) .

(٢) صفة التصرف التي يتصف بها فنتيجة لموافقته للطلب أو عدم موافقته له (وهو الحكم الوضعي) وفعل المكلف يوصف بهذا الاعتبار الى صحيح وغير صحيح ونافذ وموقوف ولازم وغير لازم .

(٣) يطلق الحكم ويراد به الاثر المترتب على التصرف مثل ثبوت الملكية وعدم ثبوتها بالنظر لتسجيل العقار مثلا وانتقال الملكية من البائع الى المشتري بعد ابرام عقد البيع •

والاطلاق الثالث المتعلق بآثار الوكالة هو موضوع بحثنا :ـ

وابراز آثار الوكالة التي تم انعقادها بصورة صحيحة بعد توفر شروطها، أهم هذه الآثار هي :ـ تصرف الوكيل بدل الموكل وانصراف اثر هذا التصرف الى الموكل ، والتزام الوكيل بتنفيذ الوكالة دون تجاوز الحدود التي رسمها له الموكل وعلاقة طرفى الوكالة مع الغير • والتزام الموكل بدفع ما يستحقه الوكيل من الاجرة المتفق عليها •

التزامات الوكيل :

الوكيل ملزم بتنفيذ ما انيط له من توكيل أي انه يتقيد بصيغة الوكالة ويتصرف وفق الحدود التي رسمها له الموكل ويبذل العناية المطلوبة في التنفيذ وبكل أمانة :ـ

(أ) اذا كانت الوكالة مطلقة أي عامة فعلى الوكيل أن لا يتصرف أي تصرف يؤدي الى الضرر بموكله مهما كان شكل الضرر سواء كان ماديا أو معنويا فيراجع موكله عند القبض مثلا اذا لم يصرح به في الوكالة كذلك يصاحب موكله أمام القضاء عند الاقرار اذا لم ينص عليه الاقرار في الوكالة العامة حسب رأي جمهور الفقهاء كذلك هذا ما ذهب اليه قانون المرافعات العراقي وما ايدته قرارات محكمة التمييز العراقية بهذا الشأن وكما بينا ذلك عند كلامنا عن أنواع الوكالة •

(ب) الوكالة الخاصة :

الوكيل يكون ملزما بتنفيذ الوكالة على ضوء القيود التي ذكرها الموكل أو اذن له في أجراءها فاذا كان موضوع الدعوى (نفقة) فلا يتعداها الى موضوع اخر مثل (دعوى الطلاق) كما انه اذا كان وكيلا للمرافعة امام محكمة معينة فلا يحق له ان يترافع عن الموكل في محكمة أخرى وهذا هو

مقتضى الوكالة الخاصة . كما ان على الوكيل ان يلتزم بتنفيذ الطريقة التي امر بتنفيذ الوكالة بموجبها من حيث تعيين الشهود وغير ذلك من وسائل الاثبات. وعلى الوكيل ان يتحرى كل ماله فائدة ومصلحة للموكل وكلما يعود عليه بالنفع وحسم الدعوى لصالحه ويمارس كافة طرق الطعن لدى محكمة الاستئناف والتمييز مثلا الى ان يكتسب الحكم الدرجة القطعية .

متطلبات التنفيذ :

قد يتطلب التنفيذ القيام بتصرفات خارجة عما نص عليه عقد الوكالة ولكن واقع التنفيذ اقتضاها مثل مصاريف السفر الى محل معين يتعلق بالدعوى أو بذل عناية بأيصال ما قبضه الى موكله . فما لحق الوكيل من تكاليف ونفقات مادية ومثلها ما يصرف الى الخبراء الذين تعينهم المحكمة فأن هذه النفقات يرجع بها الوكيل على موكله تبعا ودلالة [٥٩] .

هل يلزم الوكيل تقديم حساب بالوكالة لموكله عند الطلب :

الوكيل يعمل لحساب الموكل ويقوم بتنفيذ امور عائدة لموكله فللموكل حق مراقبة تنفيذ الوكالة وله ان يطلب كشفا حسابيا يوضح المدى الذي وصل اليه الوكيل فى تنفيذ وكالته وحرصه على حسم الدعوى لصالح موكله بأسرع وقت ممكن دون تسويف واهمال ومماطلة في التأجيلات التي لا مبرر لها .

جاء في الفتاوى لابن حجر :

(ان كل امين طلب منه البيان والحساب لزمه ، والعبرة بما يقع في الجواب والدعوى واذا أقر انه صرف كذا عن كذا ثم ادعى زيادة لم يقبل ، ولكن يؤخذ من كلام الائمة في بعض المواضع انه حيث ذكر عذرا يقبل بالنسبة لتحليف الموكل انه لا يعلم ذلك والله اعلم)[٦٠] .

---

(٥٩) المبسوط للسرخي ١٩/٦١ ـ ٦٢ .
(٦٠) الفتاوي الكبرى الفهيه لابن حجر ٣/٨٧ .

ويؤكد معنى ما تقدم ما اجاب به الامام بن تيميه حين سئل (عن رجل يوكل الدلال ان يشتري له سلعه فيشتريها له ويأخذ من البائع جعلا على أن باعها له بذلك الثمن ؟ فأجاب : لا يجوز ذلك لانه يشتريها لموكله بأكثر من قيمتها فيزيد البائع على الربح المعتاد اذا اشتراها بتخيير الثمن فيكون ذلك عبئا لموكله ، هذا اذا حصل مواطأه من البائع أو عرف ذلك ، وأما لو وهبه البائع ذلك من غير أن يكون قد تقدم شعوره فهذه مذكورة في غير هذا الموضع)(٦١) .

يد الوكيل على ما في يده لموكله يدامانه :ـ

الوكيل امين لموكله فاذا تلف ما في يده أو ناله ضرر بدون تعد منه ولا تقصير فلا ضمان على الوكيل فاذا كان فى يده مالا لقضاء دين الموكل ام مالا قبضه للموكل من مدينه وتلف بدون تعد منه ولا تقصير فلا ضمان عليه وأن كان بتقصير منه فعليه الضمان لان الوكيل هو نائب الموكل في اليد والتصرف فكان الهلاك بيده كالهلاك في يد الموكل(٦٣) .

ما يتفرع على اعتبار الوكيل امينا عن الموكل :

١ ـ اذا اشترط الموكل الضمان على وكيله فيعتبر هـذا الشرط لاغ لانـه لا يوافق مقتضى العقد لان الوكيل امين (٦٣)

٢ ـ على الوكيل ان يسلم الامانة التي بيده عند طلب الموكل فاذا امتنـع الوكيل بتسليم ما بيده الى الموكل عند طلبه ثم تلف المال الذي في يده فعليه الضمان لان امتناعه عن التسليم يعتبر فيه متعديا والامين اذا تعدى يضمن (٦٤) .

---

(٦١) مجموعة فتاوي بن تيميه ٣٠/٥٤ .

(٦٢) المغني ٥/٨٦ ، مغني المحتاج ٣/٢٣٥ .

(٦٣) كشاف القناع ٣/٤٨٥ ـ ٤٨٦ .

(٦٤) كتاب الام للشافعي ٨/١١٠ .

٣ ـ ان قول الوكيل بيمينه مقبول عند دفع الضمان عن نفسه لنفي التعدي منه [٦٥] .

٤ ـ الوكيل ممنوع عن استغلال ما في يده لمنفعة نفسه الا اذا جرت العادة بذلك أو أذن الموكل والا فيعتبر متعديا ويضمن الضرر أو النقص الذي أصاب الموكول به [٦٦] .

التزامات الموكل :ـ

١ ـ دفع الاجرة :

الوكيل يستحق اجرته في الوكالة المأجورة عند اتمامه للتصرف الموكل به ويكون الموكل ملزما بدفع الاجرة بعد استلامه العمل الذي وكل فيه وفى التوكيل بالخصومة في دعوى ينتهي عمل الوكيل بعد اكتساب الحكم الدرجة القطعية واستيفائه اخر مراحل الطعن لدى محكمة تميز العراق قال بن قدامة في المغني (ويجوز التوكيل بجعل وغير جعل .. فأن كانت بجعل أستحق الوكيل الجعل بتسليم ما وكل فيه الى الموكل ..) [٦٧] ويقصد (بالجعل) هنا (الاجرة) .

هل يستحق الوكيل الاجرة بدون اشتراطها :ـ

ذهب الحنفيةوالشافعية انه اذا لم يشترط ذلك في العقد فلا اجرة للوكيل غير أن الحنفية يقولون ان الوكيل اذا كان ممن يعمل بأجرة مثل المحامي فأنه يستحق الاجرة ولو لم يشترط عليها في عقد الوكالة [٦٨] . واذا عزل الموكل وكيله فيستحق الوكيل فى هذه الحالة اجرة بنسبة ما انجزه من أعمال الوكالة وهذا ما ذهب اليه جمهور الفقهاء .

---

(٦٥) مغني المحتاج ٢٣٥/٣ .
(٦٦) نهاية المحتاج ٤٨/٥ ، شرائع الاسلام ١٥٢/٢ البحر الزخار ١٧٧/٤ .
(٦٧) المغني ٧٨/٥ .
(٦٨) شرح المهذب ٦١٢/١٣ ، شرح المجلة لعلي حيدر ٥٩٤/٣ .

٢ ـ يلتزم الموكل بدفع المبالغ اللازمة لوكالة مثل اجرة الخبراء والنفقات التي انفقها الوكيل في المحافظة والصيانة على مال الموكل لان ذلك من مقتضيات تنفيذ الوكالة وان لم ينص عليها في العقد[٦٩] كذلك تشمل النفقات ما يقتضيه العرف لان المتعارف بين الناس مثل النص عليه ٠ اخرج البخاري في صحيحه ان النبي صلى الله عليه وسلم وكل بلالا ليعطي جابر بن عبدالله رضي الله عنه أربعة دنانير ويزيده ولم يعين مقـــدار الزيادة ، فزاده بلال قيراطاً اعتمادا على العرف الجاري[٧٠] التزامات الموكل في القانون :ـ

(أ) نصت المادة ٩٤٠ من القانون المدني العراقي على :ـ

(١ ـ اذا اشترطت الاجرة في الوكالة واوفى الوكيل العمل يستحقها وأن لم يشترط فأن كان الوكيل يعمل بأجرة فله أجر المثـــل والا كان متبرعـــا ٠

٢ ـ واذا اتفق على أجر للوكالة كان هذاالاجر خاضعا لتقدير المحكمة الا اذا دفع طوعا بعد تنفيذ الوكالة ، هذا مع مراعاة أحكام القوانين الخاصة) ٠ القانون العراقي فى هذا موافق للفقه الاسلامي ٠

والمادة ٩٤١ تختص بالتزام الموكل برد النفقات التي صرفها الوكيل في تنفيذ الوكالة فتنص (على الموكل ان يرد للوكيل ما انفقه في تنفيذ الوكالـــة التنفيذ المعتاد ٠٠٠ وعلى الموكل ان يخلص ذمة الوكيل مما عقد بأسمه الخاص من التزامات في سبيل تنفيذ للوكالة ٠٠

(ب) ونصت المواد ٩٠٧ من القانون المدني المصري والليبي والمادة ٦٧٥ من القانون المدني السوري (١ ـ الوكالة تبرعيه ما لم يتفـــق على غير ذلك صراحة أو يستخلص ضمنا من حالة الوكيل ٠ ٢ ـ فاذا اتفق على اجـــر للوكالة كان هذا الاجر خاضعا لتقدير القاضي الا اذا دفع طوعا بعد تنفيذ الوكالـــة ٠

---

(٦٩) المبسوط للسرخي ٦١/١٩ ٠

(٧٠) صحيح البخاري ١٣١/٣ ـ ١٣٢ ، عمدة القاري ٦٩٣/٥ ٠

الوكيل في الخصومة :

يكون الوكيل في الخصومة نائبا عن الموكل فله ولاية التصرف عنه لذلك فأن حكم القضاء بعد صدوره لا ينسحب على الوكيل بل ينفذ أثره على الموكل فاذا ثبت الحق المدعى به على الموكل فلا يكون وكيل الخصومة ملزم بأدائه لان الوكالة بالخصومة لا تلزم الوكيل على اداء الحق والضمان [٧١] .

هل يتوقف جواز التوكيل بالخصومة على رضا الخصم :ـ

(١) ذهب جمهور الفقهاء وهما الصاحبان من الحنفية أبو يوسف ومحمد والمالكيه والشافعيه والحنابله والظاهريه والاماميه والزيديه الى جواز التوكيل بالخصومة ولا يتوقف ذلك على رضا الخصم[٧٢] . لان الوكالة حق للموكل وهي اذن بالتصرف للوكيل وأن الدعوى هي حق المدعي والانكار حق المدعى عليه ومن ملك حقا جاز أن يوكل منه .

هذا وأن المالكية يخرجون من هذا الأصل اذا حضر الموكل بنفسه ثلاث جلسات اثناء المرافعة امام القضاء ووجه الدعوى الى خصمه كذلك الامر اذا حضر الموكل في جلستيين على المشهور فى المذهب[٧٣] وحجة المالكية في ذلك ان حضر الموكل امام الخصم في هذه الجلسات يظهر الحق والتوكيل بعدئذ يجدد المنازعه ويطيل حسم القضية على انه يستثنى من ذلك قيام عذر مشروع للموكل كمرض الموكل أو سفره .

(٢) ذهب أبو حنيفة الى عدم جواز التوكيل بالخصوم بدون رضا الخصم الا بعذر كسفر الموكل أو مرضه او ان المدعيه امرأة ليس من عادتها مخالطة الرجال عند ذلك يجوز التوكيل بدون رضا الخصم [٧٤] .

---

(٧١) شرح مجلة الاحكام العدلية لعلي حيدر ٣/٦٤٨ .

٣/٢٣٣ كشاف القناع ٣/٦٤٣ ، المحلى ٨/٢٨٣ ، تذكرة الفقهاء ٢/١١٨،

(٧٢) بدائع الصنائع للكاساني ٦/٢٢ ، شرح الحطاب ٥/١٨٤ ، الام للشافعي الروض النظير ٤/٧٩ .

(٧٣) بلغة السالك لاقرب المسالك ٢/١٨٣ .

(٧٤) المبسوط للسرخي ١٩/٧ ، الجوهرة النيره ١/٢٩٨ .

وحجة أبو حنيفة ان الدعوى ليس حق بل هي خبر يحتمل الصدق أو الكذب كذلك الانكار ليس بحق بل هو خبر يعارض خبر المدعي ، وربما يكون الوكيل بحجته قويا فيعجز من يخاصمه بأظهار حقه فيتضرر فاشترط رضا الخصم .

(٣) ذهب الامام السرخسي من الحنفية الى أنه افتى متأخروا الحنفية الى ترك امر التوكيل الى القاضي ، فاذا رأى ان الممتنع عن قبول الوكالة متعنتا فعلى القاضي قبول توكيل خصمه أما اذا علم من الموكل انه موكل بقصد الاضرار بخصمه فلا يقبل القاضي توكيله الا برضا الخصم[٧٥] والرأي الراجح هو رأي الجمهور بجواز الوكالة ولو لم يرض الخصم وهذا ما ذهب اليه قانون المرافعات المدنية العراقي رقم ٨٣ لسنة ١٩٦٩ فجاء في المادة ٥١ منه (١ ــ في اليوم المحدد للمرافعة يجب على المحكمة ان تتحقق من اتمام التبليغات وصفات الخصوم ويحضر الخصوم بأنفسهم أو بمن يوكلونه من المحامين ، وللمحكمة ان تقبل من يوكلونه عنهم من ازواجهم واصهارهم وأقاربهم حتى الدرجة الرابعة وذلك في الدعاوى الصلحية والشرعية ودعاوى الاحوال الشخصية ، ويكون لهؤلاء مراجعة طرق الطعن فى الاحكام الصادرة في هذه الدعاوى ويكون ذلك بوكالة مصدقة من كاتب العدل أو المحكمة المنظورة أمامها الدعوى ..

٢ ــ للدوائر الرسمية وشبه الرسمية في غير الدعاوى التي يوجب فيها قانون المحاماة توكيل محام ان تنيب عنها لدى المحاكم من يمثلها من موظفيها الحاصلين على شهادة الحقوق بوكالة مصدقة من الوزير أو رئيس الدائرة) .

ففي هذه المادة خول الموكل ان يوكل اقاربه من الازواج ولاصهار (الصهر زوج البنت) ويقصد بالدرجة الرابعة القرابة ــ الى أبن العم فيكون الحق للاصهار والابن وابن الابن وابن العم وغيرهم في حدود الدرجة الرابعة التوكل في دعاوى خاصة لدى محكمة الصلح والمحكمة الشرعية حسب

---

(٧٥) المبسوط ٨/١٩ .

اختصاصها أما باقي المحاكم الحقوقية والجزائية فتقتصر على توكيل المحامين [٧٦] ..

كما خولت المادة الدوائر الرسمية وشبه الرسمية ان تنيب من يمثلها من موظفيها الحاصلين على شهادة الحقوق امام المحاكم بوكالة مصدقة من الوزير أو رئيس الدائرة وذلك فيما عدا الدعاوى التي تزيد قيمتها على الف دينار وليست مقامة عن اتعاب محاماة) .

وفي الفقه الاسلامي لا نجد مثل هذا التخصيص بل للموكل ان يوكل من يشاء اذا توفرت فى الوكيل شروطه . ولعل ما ذهب اليه القانون هو لغرض تنشيط مهنة المحاماة وللاستفادة من مهارة المحامين في اسلوب عرض الدعوى ومدافعة الخصم وبهذا يحفظ الحق لموكله .

اثبات الوكالة امام القضاء :ـ

قرر الفقهاء انه لايجوز للوكيل بالخصومة ان يترافع أمام القضاء الا بعد اثبات وكالته للقاضي وقد ذكر [٧٧] النووي انه يجوز للموكل ان يوكل في مجلس القاضي اما في غير ذلك فيجب على الوكيل اثبات وكالته [٧٨] وعند المالكية اذا صدق الخصم الوكيل في الدعوى لم يلزمه الحاكم على دفع الدعوى حتى تثبت صحة الوكالة [٧٩] .

وفى قانون المرافعات العراقي يتطلب ايضا تصديق الوكالة العامة امام الكاتب العدل وأثبات الوكالة الخاصة وتقديمها الى الحاكم للاطلاع عليها وتصديقها قبل القيام بالمرافعة .

---

(٧٦) شرح قانون المرافعات المدنية والتجارية للاستاذ ضياء شيت خطاب ص ١٣٩ ــ ١٤٠ .

(٧٧) الام للشافعي ٣/٣٣٠ ، شرح الحطاب ٥/١٨٤ ، تذكرة الفقهاء ٢/١٢٩ .

(٧٨) روضة الطالبين ٤/٣٢٢ .

(٧٩) شرح الحطاب ٥/١٨٢ .

ويبين الفقهاء المسلمون طرق اثبات الوكالة بما يلي :ـ

(١) بأقرار الموكل بأنه وكل فلانا بالخصومة مع فلان في القضية موضوع الدعـوى •

(٢) عن طريق البينه التي يقدمها الموكل في أثبات وكالته •

هذا اذا كانت الوكالة غير مكتوبه وفي حالة تحريرها يؤيد الموكل صحة توقيعه على الوكالة •

ادلة تحري الحق من قبل الوكيل :ـ

(أ) من الكتـــاب :

نهى الله سبحانه وتعالى عن التوكل عن الخائنين والمبطلين في دعواهم بقوله تعالى (ولا تكن للخائنين خصيما)[٨٠] •

وقد جاء في تفسيرها انه لا يجوز لاحد ان يخاصم عن احد الا بعد علمه انه محـــق [٨١] •

(ب) من السنه :

ورد فى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال :ـ

(•• ومن اعان على خصومة بظلم فقد باء بغضب من الله)[٨٢]

وأن التوكل عن المبطل في دعواه اعانة له على ايقاع الظلم على خصمه وأن وأن هذا النوع من التوكل يغضب الله سبحانه وتعالى لان الله سبحانه وتعالى نهى عن الظلم وقدروي في الحديث القدسي :ـ

(يا عبادي اني حرمت الظلم على تفسي فلا تظالموا •••)

(جـ) من الفقــه :

---

(٨٠) النساء ١٠٥ •

(٨١) الجامع لاحكام القرآن ٣٧٧/٥٦ •

(٨٢) السنن الكبرى للبيهقي ٨٢/٦ •

جاء في شرح الحطاب في الفقه المالكي :ـ

(ينبغي للوكيل في الخصومة ان يتحفظ بدينه وألا يتوكل الا فى مطلب يقبل فيه يقينه ان موكله فيه على حق)[٨٣] .

وجاء في كشاف القناع في الفقه الحنبلي :ـ

(لا يجوز لاحد ان يخاصم عن غيره في اثبات حق أو تفيه وهو غير عالم بحقيقة أمره وكذا لو ظن الوكيل ظلمه أي ظلم موكله لم يجز ان يتوكل عنه اجراء له مجرى العلم)[٨٤] .

هل الوكيل بالخصومة حق القبض ؟ :ـ

اذا ترافع الوكيل عن موكله وكسب القضية واكتسبت الحكم الدرجة القطعية وكان ما حصل عليه لجانب موكله دينا أو عينا فهل يجوز للوكيل ان يقبض ما ثبت كحق لموكله ام لا ؟ .

مسالة فيها خلاف بين الفقهاء :

(١) ذهب الامام أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد ووافقتهم الزيدية الى أن الوكيل بالخصومة له قبض الدين الذين خاصم فيه وحجتهم ان من ملك شيئا ملك اتمامه وتتم الوكالة بالقبض ولما توكل بالفصل في الدعوى فالقبض يدخل ضمنا في التوكيل[٨٥] .

(٢) ذهب جمهور الفقهاء من الشافعية والحنابلة والامام زفر من الحنفية والمالكية والامامية الى ان الوكيل في الخصومة ليس له قبض الحق الذي خاصم فيه سواء كان دينا أو عينا الا بتوكيل جديد[٨٦] وحجتهم ان القبض غير التوكيل بالخصومة وأن القبض امر حسي ويحتاط فيه من خراب الذمم .

---

(٨٣) شرح الحطاب ١٨٥/٥ .

(٨٤) كشاف القناع على متن الامتناع ٤٨٣/٣ .

(٨٥) ابن عابدين ٢٦١/٧ ، البجير الزخار ٦٢/٥ .

(٨٦) المهذب ٣٥١/١ ، الهدليه بهامش فتح القدير ٩٩/٦ ، شرح الحطاب ١٩٣/٥ تذكرة الفقهاء ١٢٨/٢ .

هل لوكيل الخصومة الاقرار :ـ

مسألة فيها خلاف : ـ

(١) ذهب الجمهور وهم زفر من الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة الى عدم جواز اقرار الوكيل لموكله • وحجة هذا الرأي ان الاقرار يقطع الخصومة ولا يملكه الوكيل كالابراء [٨٧] •

(٢) ذهب الامام أبو حنيفة ومحمد الى ان اقرار الوكيل على موكله في مجلس القضاء يجوز استحسانا ولا يجوز لاقرار خارج القضاء • وحجة هذا الرأي لان الموكل فوض الوكيل في مجلس القاضي •• وكذا الخصومة لا تندفع باليمين في غير مجلس القاضي [٨٨] •

(٣) ذهب الامام أبو يوسف من الحنفية الى صحة اقرار الوكيل على موكله خارج مجلس القضاء • وحجته ان الوكيل بالخصومة وكيل بالجواب وقد يكون اقرارا أو انكارا ولان التوكيل تفويض ما يملكه الموكل الى غيره واقرار الموكل لا يشترط في صحته أن يكون أمام القاضي فكذا اقرار الوكيل •

وبالنسبة لاستثناء الاقرار من الوكالة ــ فرأي أبي يوسف لايجوز ورأي محمد الشيباني يجوز من وكيل المدعي ولا يجوز من وكيل المدعى عليه وذلك لان الانكار قد يضر الموكل بان كان المدعي به وديعه فلو انكر الوكيل لا تسمع منه دعوى الهلاك [٨٩] •

هل يجوز التوكيل بالاقرار :

١ ــ ذهب الحنيفة والشافعية فى رأي والمالكية والحنابلة والامامية في قول والزيدية الى جواز التوكيل بالاقرار [٩٠] •

---

(٨٧) المبسوط ٣/١٩ ، المهذب ٣٥١/١ شرح الحطاب ١٨٨/٥ ، المغني ٨٣/٥.

(٨٨) بدائع الصنائع ٢٤/٦ ، المبسوط ٤/١٩ .

(٨٩) ابن عابدين ٣٦٥/٧ .

(٩٠) بدائع الصنائع ٢٣/٦ ، مغني المحتاج ٢٢١/٢ ، شرح المواق بهامش الحطاب ١٨٨/٥ كشاف القناع ٤٦٣/٣ ، تذكرة الفقهاء ١٢٨/٢ ، البحر الزخار ٦٢/٥ .

وحجتهم ان الاقرار حق يثبت في الذمة بخلاف الشهادة لانها لا تثبت الحق بل هي اخبار بثبوته على غيره .

٢ ـ يذهب الشافعية في الاصح والحنابلة في رواية والامامية في قول بعدم جواز الوكالة بالاقرار [٩١] .

وحجتهم ان الاقرار اخبار عن حق وهو كالشهادة فلا تجوز فيه النيابه .

والقول الراجح هو الجواز بالتوكيل بالاقرار لانه من حق الموكل وله ان يتصرف به فى التوكيل ويختلف عن الشهادة لان الشاهد يخبر عن وقائع شاهدها والاقرار يوكل في أمر ثابت لا يحتاج لاكثر من نقل عبارة الموكل .

انتهـاء الوكالـة :

(١) تنتهي الوكالة بعد أن يتم الوكيل العمل الموكل به ويكون قد وفى بالتزامـه .

(٢) اذا انتهت المدة المحددة للوكالة .

(٣) يجوز انهاء الوكالة من احد اطرافها فالموكل يملك عزل وكيله كذلك للوكيل ان يعتزل عن الوكالة لانها عقد غير لازم .

(٤) قد تحدث اسباب طارئة قهريه تؤدي الى انهـــاء الوكالة مثل الموت والجنون التي تخرج الموكل أو الوكيل عن اهلية التصرف .

(٥) قد تحدث اسباب شرعية أو قانونية تؤدي الى ابطال الوكالة .

عزل الموكل لوكيلـه :

قد لا يرضى الموكل بتصرفات وكيله فيعزله عن التصرف الموكل به ويتم ذلك بقول الموكل ـ عزلتك أو اخرجتك او رفعت الوكالة أو الغيتهـا أو ابطلتها وقد يكون العزل بفعل الموكل كأن يباشر التصرف الموكل فيه بنفسه واشترط الفقهاء المسلمون شروطا لعزل الموكل لوكيله هي :ـ

---

(٩١) مغني المحتاج ٢/٢٢١ ، شرح الحطاب ٥/١٨٨ ، تذكرة الفقهاء ٢/١٢٨ .

(أ) علم الوكيل بالعزل :

اذا عزل الموكل الوكيل بحضوره كأن قال له عزلتك أو اخرجتك من الوكالة فالوكيل ينعزل لانه علمه قد تم بذلك .

أما اذا كان العزل في غياب الوكيل فاثار ذلك مختلف فيها بين الفقهاء :

(١) ذهب الأحناف والظاهرية وفي احد القولين عند كل من الشافعية والمالكية والحنابلة والامامية ان علم الوكيل شرط لصحة عزله وعلى هذا يكون كل تصرف يقوم به لوكيل نافذ على موكله الى حين علم الوكيل بالعزل [٩٢] .

ويستدل اصحاب هذا الرأي بأن العزل فسخ للعقد ولابد لعلم الطرف الثاني به لئلا يصيبه ضرر من جراء العزل .

---

(٩٢) بدائع الصنائع ٣٧/٦ ، المحلى ٢٨٤/٨ ، نهاية المحتاج ٥٣/٥ ، شرح الحطاب ١٨٧/٥ ، الانصاف ٣٦٨/٥ ، مفتاح الكرامة ٦١٤/٧ .

اسم المصدر	اسم المؤلف	اسم المصدر	اسم المؤلف
احكام التصرف عن الغير	الشيخ احمد ابراهيم	علي الدر المختار	
معجم لسان العرب	لابن منظور	تبين الحقائق شرح كنز الدقائق	
معجم تاج العروس	الزبيدي	مختصر خليل	شرح الخرشي،
معجم الصحاح	للجوهري	المحلى	ابن حزم
معجم قاموس المحيط	الفيروز بادي	نهاية المحتاج	الرملي
شرح المجلة	علي حيدر	كشاف القناع	للبهوتي
بدائع الصنائع	للكاساني	شرائع الاسلام	للحلي
حاشية ابن عابدين	ابن عابدين	مفتاح الكرامة	العاملي
حاشية الطحاوي	الطحاوي	الروض النظير	السياغي
البحر الزخار	المرتضى	المبسوط	السرخي
المهذب	الشيرازي	الام	الشافعي
روضة الطالبين		الاشباه والنظائر	ابن نجيم
تذكرة الفقهاء	الحلي	الوسيط	السنهوري
أحكام القرءان	ابن عربي	اللمعه الدمشقية	العاملي
روح المعاني	الآلوسي	الشرح الكبير	الدردير
السنن	ابن داود	المغني	لابن قدامه
الانصاف	المرداوي		

بسم الله الرحمن الرحيم

القتل الموجب للتعويض في الشريعة والقانون

د. خالد رشيد الجميلي
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

المقدمـة :

لعل اللسان يكل والقلم يمّل ولما يرتوي الباحث اذ يخوض في يم هذا المبحث المتسم بكثرة روافده وسعة موارده ، وحسبنا ان نقدم بعض من جزئياته في هذه الدارسة الموجزة ، وقد قسمنا البحث الى ثلاث عشرة فقرة ، اجملنا في كل فقرة خلاصة آراء الفقهاء ورجال القانون مع تبياننا للرأي الذي نرجحه على ماسواه ثم اقترحنا بناء على النتائج ـ التي تجلت لنا من خلال هذه الدراسة ـ الاخذ بما وجدناه صالحا للعمل به لاسيما وان الدولة في هذا الظرف تدعو الى اصلاح النظام القانوني •

١ ـ أقسام القتل

لقد قسم بعض فقهاء الحنفية القتل على ما فصله السرخسي الى اقسام ثلاثة : قتل عمد ، وقتل شبه عمد ، وقتل خطأ • ولم ينفرد السرخسي من الحنفية بهذا التقسيم بل نهج هذا النهج فقهاء الشافعية وبعض الحنابلة والشيعة الامامية والزيدية والخوارج الاباضية •

أما الكاساني من فقهاء الحنفية فقد قسم القتل الى أقسام اربعة : عمد ، وشبه عمد ، وخطأ ، وما أجرى مجرى الخطأ ، وهذا نهج الفقيه ابو الخطاب والفقيه محمد بن عبدالوهاب من فقهاء الحنابلة ، اما المالكية والظاهرية فلم يوافقوا في منهجهم المذاهب الاخرى لانهم انكروا القتل شبه العمد الا مايتعلق

يحذف الوالد ولده بالسيف عند المالكية حيث قسموا القتل الى مباشر وغير مباشر • وذهب جمهور الحنفية لا سيما المتأخرون منهم الى التقسيم الخماسي للقتل اذ قسموه الى قتل عمد ، وشبه عمد ، وقتل خطأ ، وقتل اجرى مجرى الخطأ كأنقلاب النائم على صبي والخامس هو القتل بسبب غير مباشر والصحيح ماذهب اليه الفقيه ابو الخطاب من الحنابلة والكاساني من الحنفية لانهما قسما القتل الى أقسام اربعة عمد ، وشبه عمد ، وخطأ ومجرى الخطـأ • أما رأي المالكية والظاهرية الذي لا يعترف بقتل شبه العمد ، فلا يمكن ترجيحه نقلا وعقلا • أما النقل فلأن الرسول (ص) قال « •••• الا ان دية الخطأ شبه العمد ماكان بالسوط والعصا مائة من الابل أربعون خلفة في بطونها أولادها » وأما العقل فلأن نوع الآلة يدل على ركن الجريمة الاساس وهو القصد الجنائي فأذا أستعمل الجاني سلاحا قاتلا دل على انه قصد اقتراف الجريمة العمدية ، واذا استعمل سلاحا لا يقتل غالبا ، ومات المجني عليه فجأة فهذا يدل على ان الجاني لم يقصد ازهاق روحه بأستعماله الآلة التي لاتقتل غالبا بل قصد تأديبــه • اما القتل بسبب فأنه مشابه لقتل مجرى الخطأ من وجه ، ومختلف عنه من وجه آخر • ووجه الشبه هو ان فعل كل منهما خارج عن ارادة الجاني خلافا لقتل الخطأ اذ الجاني قام بالفعل بأرادته ولكنه لم يقصــد قتل المجني عليه كما لو رمى طيرا فأصاب أنسانا ، واما وجه الاختلاف فهو ان موجب قتل مجرى الخطأ الدية والكفارة والحرمــان من الارث لاحتمال توهم قصــد الفعل وأن كان احتمالا واهيا احتراما للنفس البشرية • وأما القتل بسبب فموجبه الدية دون الحرمان من الارث لعدم توفر احتمال قصد الجاني فى هذا الفعل ولو دلت القرائن على أحتمال قصد الفاعل في القتل بسبب لوجب فيه حكم قتل العمد أو الخطأ حسب ماتدل عليه القرائن والامارات ، والقتل بسبب هو قتل غير مباشر ، لهذا فأن الراجح عندنا ان يقسم القتل الى قتل مباشر ويندرج تحته قتل العمد ، وقتل شبه العمد ، والقتل الخطأ ، وقتل مجرى الخطأ ثم القسم الثاني وهو القتل غير المباشر وتندرج تحته صور القتل بسبب •

اما رجال القانون الوضعي فقد اهتدوا بنهج المالكية والظاهرية اذ قسموا القتل الى ، عمد ، وقتل خطأ ولم ينصوا على قتل شبه العمد وان كانوا يقولون به حكما ويسمونه بالضرب المفضي الى الموت وثم مايسمى بالقتل مصادفة وهو القتل الذي يكون من قبيل القضاء والقدر ، ولا عقاب على مثل هـذا القتل عندهم[1] . وحيث ان النفس البشرية مكرمة عند الله تعالى فان الفقهاء قالوا لا يطل دم في الاسلام البتة ، لهذا أوجبوا في كل قتل عقوبـة القصاص أو الديـة .

وقد أدرج قانون العقوبات العراقي الضرب المفضي الى الموت في فصل القتل الخطأ (م ٤١٠) منه ، الا ان رجال القانون الجنائي في العراق لم يوافقوا على هذا النهج بل انتقدوه ، وفي هذا يقول الدكتور عبدالستار الجميلـي « ولست أدري ماهي الرابطة التي تجمع بين الضرب المفضي الى الموت وهي جريمة في الاصل عمدية ، والقتل الخطأ الذي ينعدم فيها القصد الجنائي وكان من الاوفق ان يفصل الشارع بينهما وان يضع كل جريمة في موضعها ، فموضع جريمة الضرب المفضي الى الموت بعد جرائم الجرح والضرب والايذاء العمد . أما جريمة القتل الخطأ فأن موضعها يأتي قبل المادة (٤١٦) وهي جريمة الايذاء الخطأ »[2] وما ذهب اليه الاستاذ الجميلي أقرب من نص القانون الى الفقه الاسلامي لان الضرب المفضي الى الموت لا علاقة له بالقتل الخطأ بل هو قتل شبه عمد عند جمهور الفقهاء أو صورة من صور القتل العمد كما قال الظاهرية.

مراجع الفقرة (١)

من الحنابلة انظر المغني ٩/٣٠ـ٣٢١ ومنتهى الارادات ص٣٩٠ ، ومن الشيعة الامامية انظر جواهر الكلام ـ طبعة حجرية غير مرقمة ، وانظر الروض النظير ٤/٢٥٢ وانظر البحر الزخار ٥/٢٧٢ ومن الخوارج انظر شرح النيل ٨/٩١٠ ومن الحنفية انظر المبسوط ٢٦/٥٩ وانظر بدائـع الصنائع ٧/٢٣٣

---

(١) شرح قانون العقوبات البغدادي / مصطفى كامل ص١٩٧ـ١٩٨ .

(٢) انظر جرائم الدم د . عبدالستار الجميلي طبعة ١٩٦٩ـ ص١٠ .

وانظر تكملة فتح القدير ٩/٣١٧ ـ ١٣٨ ومن الشافعية انظر مغني المحتاج ص٢ـ٣ ونهاية المحتاج ٧/٢٣٤ ومن المالكية شرح الدردير لابي البركات ٤/٢٤٢ ومواهب الجليل ٦/٢٤٢ •

٢ ـ التعويض في القتل العمد

يختلف الفقه والقانون اختلافا جليا في طبيعة عقوبة القتل العمد لان رجال القانون الوضعي يعدون جريمة القتل العمد جريمة جريمة اجتماعية وحق رفع الدعوى وأنزال العقاب حق عام تختص به الدولة • وتعطي القوانين المدنية الحق لولي المجني عليه المطالبة بالتعويض ، علما بأن بعض علماء القانون لم يوافقوا على هذا النهج لان اولياء المجني عليه يصابون بضرر أدبي اكثر مما هو ضرر مادي •

والضرر الادبي غير متفق على تعويضه بالمادة • أما الفقه الاسلامي فقد عد جريمة القتل العمد جريمة اجتماعية وفردية ، اجتماعية لان المجتمع يفقد عضو من اعضائه ، وفردية لان ولي المجني عليه يفقد جزء من اجزائه ، ومما لاريب فيه ان الضرر المادي والضرر الادبي يلحق بأسرة المجني عليه بصورة مباشرة ابتداءً خلافا للمجتمع الذي يتضرر ضررا معنويا بصورة غير مباشرة اذا فقد احد المنتمين اليه ، لهذا فأن الحق الفردي هو الغالب على الحق العام في جريمة القتل العمد وبناء على هذا فأن ولي المجني عليه هو الشخص الوحيد الذي يحق له أن يطالب بأنزال العقاب أو يطالب بالعفو عن الجاني ، وموجب القتل العمد القصاص لا غير ذلك عند الحنفية وابن القاسم من المالكية وبعض الشيعة الامامية والرواية المرجوحة التي ذكرها ابن قدامة الحنبلي عن الامام المبجل أحمد بن حنبل ولا يتسع بحثنا هذا لتفصيل ادلة الفقهاء كافة[٣] •

اما الدية المصطلح عليها عند اجماع الفقهاء بالتعويض في القانون فلا تجب الا اذا رضي الجاني ، فلو طلب ولي المجني عليه الدية ولم يرض الجاني ، لم يجبر على دفعها ولا حق لولي المجني عليه بعد ذلك الا المطالبة بالقصاص

---

(٣) المغني حـ٩/٤٧٤ •

المسمى بعقوبة الاعدام فى القانون ـ وقد ذهب الشافعية واشهب من المالكية والحنابلة على الروايات المشهورة وبعض الشيعة الامامية والزيدية والظاهرية والخوارج الاباضية الى خلاف ذلك حيث انهم قالوا بأن موجب القتل العمد القصاص او الدية ٠ وبناء على هذا فأن الجاني يجبر على دفع الدية اذا لم يطالب الولي بأنزال عقوبة القصاص ومجمل ادلة القول الاول الاعتماد على عموم آيات القصاص الواردة في القرآن الكريم ولان الله تعالى عد الدية عقوبة خاصة في قتل الخطأ وعد القصاص عقوبة في القتل العمد ، أما المفسرون فلم يوافقوا الحنفية ومن تبعهم وذهب الكثير منهم الى ان القصاص والدية عقوبتان أصليتان في القتل العمد اعتمادا على معنى العفو الوارد فى قوله تعالى « فمن عفي له من أخيه شيء فأتباع بالمعروف واداء اليه بأحسان »[٤] وفي هذا يقول الزمخشري (ان عفا عنه بعض الورثة تم العفو وسقط القصاص ولم تجب الا الدية) وهذا نهج الطبري اذ قال (معنى العفو هنا ترك القود بقبول الدية منأ خيه) أما مفسرو القرآن الكريم من الحنفية فلم ينهجوا هذا النهج جريا مع فقهاء مذهبهم ، قال المفسر الجصاص (قوله تعالى : فمن عفي له من اخيه شيء يعني الولي اذا اعطي شيئا من المال فليقبله وليتبعه بالمعروف وليؤد القاتل اليه بأحسان فندبه تعالى الى أخذ المال اذا سهل ذلك من القاتل واخيرا انه تخفيف منه ورحمة كما قال عقب ذكر القصاص من سورة المائدة (فمن تصدق به فهو كفارة له) فندبه الى العفو والصدقة وكذلك ندبه بما ذكر في هذه الآية الى قبول الدية اذا بذلها الجاني لانه بدأ بذكر عفو الجاني بأعطاء الدية ثم أمر الولي بالاتباع وأمر الجاني بالاداء وبالاحسان » كما استدل الحنفية بدليل من السنة وهو قول الرسول (ص) « العمد قود » ولا نسلم للحنفية بهذا لان هذا الحديث مجمل يفصله الحديث الذي اعتمد عليه الشافعية وهو قول الرسول (ص) « من قتل له قتيل فهو بخير النظرين ان احب اخذ العقل وأن أحب فله القود » وقد رد الحنفية على هذا الدليل

---

(٤) سورة البقرة آية ١٧٨ .

الذي اعتمد عليه الشافعية ووجه ردهم كما قال السرخسي ان الرواية اختلفت فيه اذ جاء « في بعض الروايات ان احبوا قتلوا وان احبوا فادوا والمفاداة على ميزان المفاعله يقتضي وجود القتل بين أثنين بالتراضي وذلك أخذ الدية بطريق الصلح » ولا نسلم للسرخسي بهذا الاعتراض لان الكثير من روايات هـذا الحديث كما اطلعنا عليها لم تنص على كلمة فأدوا التي تمسك بها والمفـاداة تقتضي المشاركة فى الصلح بين الجاني وولي المجني عليه للشافعية ومن نهج نهجهم دليل آخر خلا من لفظ المفاداة وهو قول الرسول (ص) « من أصيب بدم أو خبل والخبل الجراح فهو بالخيار بين احـدى ثلاث ، اما ان يقتص او يأخذ العقل او يعفو فأذا اراد رابعة فخذوا على يديه » وقد اعتمد على هـذا الحديث الامام المبجل احمد بن حنبل وابو داود وابن ماجه . ودليل الحنابلة

النقلي مشابه لدليل الشافعية معنا فلم نر موجبا لذكره وبنـاء على قوة ادلة الشافعية والحنابلة فأن رأيهم يعد راجحا عندنا . وبناءاً على هـذا فأن موجب القتل العمد القصاص او الدية كما يشاء ولي المجني عليه ، اما الجاني فيجب ان يجبر على دفع الدية اذا طلبها الولي لان الفقهاء أوجبوا الحجر على السفيه اذا بذر امواله والحجر على الجاني اولى اذا آثر المال وضحى بنفسه بعد تنازل الولي عن القصاص وهذا القول يضمن حق الولي في حالة هروب الجاني لان الدية تحل محل القود وتأخذ من امواله .

مراجع الفقرة (٢) :

من الحنفية انظر المبسوط للسرخسي ٢٤/٦٠ ، والهداية ص١٥٨ وتكملة البحر الرائق ٨/٣٥٣ ومن الشافعية انظـر الام ٦/٨ـ٩ ، والمهذب ص١٨٨ ، ومن المالكية انظر كتاب الاحكام لابن العربي القسم الاول ص٦٩ وشـرح الخرشي ٨/٥٠ ، ومن الحنابلة انظر المغني ٩/٤٧٤ ؛ والشرح الكبير ٩/٤٧٤ والانصاف للمرداوي ١٠/٣ ، ومن الشيعة انظر كشف اللثام طبعة حجريـة غير مرقمة ، ومن الزيدية انظر البحر الزخار للشيخ المرتضى ص٢٤١ ، والتاج المذهب ص٢٧٧ ، ومن الخوارج الاباضية انظر شرح النيل ص١٠١ ، ومـن

الظاهرية انظر المحلى ٤١٨/١٠ والديات للضحاك ص ٢٥ ـ ٧٦ من التفاسير الكشاف للزمخشري ـ المجلد الاول ص٢٢ ، وانظر احكام القرآن للجصاص ١/١٧٥ــ١٧٦ ، وجامع البيان للطبري ٥/٢٥٩ ومن المحدثين انظر نيل الاوطار للشوكاني ٧/٨ •

٣ ـ سقوط القصاص

تجب الدية في كل حالة من حالات سقوط القصاص عند اجماع الفقهاء كما لو كان الجاني غير مكلف كالصبي والمجنون اذ انهما ليسا مؤهلين لانزال عقوبة الاعدام بهما • كما تجب الدية ، اذا سقط القصاص بسبب انعدام التكافؤ بين الجاني والمجني عليه على رأي بعض المذاهب الفقهية فيما اذا كان الجاني مسلما والمجني عليه كافرا وكذلك تجب الدية ويسقط القصاص اذا كان الجاني والد المجني عليه اذا لم يتعسف ولم يكن معتادا على قتل اولاده عند البعض • كما تجب الدية في بعض حالات سقوط القصاص عن الجاني اذا كان ردئا عند بعض الفقهاء فيما اذا اقترف الجريمة اكثر من واحد • ولا يمكنني ان استقريء كل حالات سقوط القصاص وافصل آراء المذاهب الفقهية في هذا البحث الوجيز لتشعب الآراء لا سيما في شروط القود وسنفصل هذا في بحوثنا القادمة انشاء الله تعالى[٥] •

٤ ـ الدية في القتل شبه العمد

تجب الدية في قتل شبه العمد لان القصاص لايجب الا في الجريمة العمدية ،، وحيث ان الجاني في جريمة شبه العمد لم يبتغ ازهاق روح المجني عليه باستعماله السلاح الذي لا يقتل غالبا ، لذا فأن القصد الجنائي لم يتحقق ولا يجب القصاص الا بوجوبه • وكلما سقطت العقوبة الاصلية وهي القصاص في القتل وجبت العقوبة البدلية وهي الدية ، قال السرخسي من الحنفية « لا يجب القود فى شبه العمد واذا تعذر ايجاب القود وجبت الدية وهي مغلظة » والى هذا ذهب ابن الهمام من فقهاء الحنفية وهذا نهج فقهاء الشافعية

---

(٥) التشريع الجنائي المقارن للمرحوم عبدالقادر عوده حـ٢ ص ٢٥٧

والحنابلة والشيعة الامامية والشيعة الزيدية كافة ، وقال الشيخ اطفيش من الخوارج الاباضية بهذا • ويبدو لي ان قانون العقوبات العراقي قد تابع الفقه الاسلامي لانه لم ينص على عقوبة الاعدام فيما يسميه بالضرب المفضي الى الموت وهو ذاته الذي يسميه الفقهاء بقتل شبه العمد ، الا أن النصوص القانونية تتسم بقصر وجهل في اللغة لان كل مقتول تصيبه ضربة تفضي الى موته لذا فأن الراجح عندي ان يسمى الضرب المفضي الى الموت قتل شبه عمد ، كما قال الفقهاء • واذا سقط القصاص وجبت الدية في الفقه الاسلامي ، وفي القانون اذا سقطت عقوبة الاعدام وجبت محلها عقوبة الحبس لمدة خمس عشرة سنة حسب ضروف الجريمة التي فصلتها المادة (٤١٠) من قانون العقوبات العراقي الا إن فلسفة الفقه الاسلامي مع اخذها بالحبس في العقوبات التعزيرية فلا تميل اليه كل الميل لاسيما في الحبس الطويل الذي يفضي الى تجميد طاقة عضو قد ينفع نفسه واسرته ومجتمعه على ماسنفصله فى بحوثنا القادمة •

تقول المادة (٤١٠) من قانون العقوبات العراقي « من اعتدى عمدا على آخر بالضرب أو بالجرح أو بالعنف أو بأعطاء مادة ضارة أو بارتكاب اي فعل آخر مخالف للقانون ولم يقصد من ذلك قتله ولكنه أفضى الى موته يعاقب بالسجن مدة لاتزيد على خمس عشرة سنة ، وتكون العقوبة السجن مدة لا تزيد على عشرين سنة اذا ارتكب الجريمة مع سبق الاصرار ، او كان المجني عليه من اصول الجاني او كان موظفا او مكلفا بخدمة عامة ووقع الاعتداء عليه اثناء تأدية وظيفته او خدمته او بسبب ذلك » ولا يختلف نهج قوانين العقوبات العربية الاخرى عن هذا النهج الا ان مدة الحبس فيها اقل مما نص عليه القانون العراقي •

مراجع الفقرة (٤) :

انظر المبسوط للسرخسي ٢٦/٦٥ ، والفتح القدير ص٢٠٧ ، ونهاية المحتاج ص٢٩٩ــ٣٠٠ ، والشرح الكبير لابن قدامة الحنبلي ص٤٨٣ • وكشاف القناع ٤/٦١ ومن لايحضره الفقيه ٤/٧٧ ، وشرائع الاسلام ص٢٤٦،

وشرح النيل ص ٩٨ـ١٤٩ • وانظر قانون العقوبات لمصطفى كامل ص٢٧٦ ، انظر قانون العقوبات المصري المادة (٦٣٢) والاردني المادة (٣٣٠) والكويتي المادة (١٥٢) وانظر المادة (٣٥٩ ف ٤) فرنسي • وم (٣١٠ف١) فرنسي •

٥ ـ الدية في القتل الخطأ ومجرى الخطأ وبسبب

اتفق الفقهاء على ان جريمة القتل الخطأ جريمة موجبة للدية المخففة على العاقلة لان هذه الجريمة خالية من القصد الجنائي وتجب الدية المخففة في كل قتل خلا من قصد ازهاق الروح كالقتل المسمى بمجرى الخطأ والقتل بسبب • وليست الدية هي العقوبة الوحيدة بل ثم عقوبات اخرى لم يتسع هذا البحث الوجيز لتفصيلها كعقوبة الحرمان من الارث والكفارة والاثم او السجن البسيط تعزيرا اذا أقتضت الضرورة حسب مقتضيات الوقائع والقرائن ، وان كان القتل بسبب غير موجب للكفارة والحرمان من الارث لخلوه عن المباشرة فعلا وقصدا ولا تجب الدية في القتل غير المباشر الا بتحقق التعدي لان المباشر ضامن وان لم يتعمد « ولم يضمن المتسبب الا ان يتعدى » كما نص ابن غانم البغدادي • وبناء على هذا لو رمى أحد هدفا وان كان في بيته فأصاب آخر وجبت عليه الدية وان لم يتعد لانه باشر فعل القتل • ولو حفر رجل في ملكه بئرا لم يضمن اذا هلك بسببه أحد الداخلين الى البيت لانه استعمل حقا مشروعا ولم يتعد بهذا الفعل وهو قتل غير مباشر (المسمى بالقتل تسببا) • والذي اراه ان هذ االفعل وان كان مشروعا موجب للدية اذا دلت القرائن على اهمال الفاعل وتقصيره كما لو استضاف احدا ولم يخبره بما حفر فى بيته لاسيما اذا حجبت فوهة البئر بحجاب واهٍ • ولو حفر بئرا في غير ملكه وجب عليه الضمان بسبب تعديه في هذا الفعل • والقتل بسبب له صور كثيرة متعددة أرجو انأفرد له بحثا خاصا به لانه يشعومضا عن مدى احترام الدينالاسلامي للنفس البشرية • ومن صور القتل بسبب اي تصرف في غير ملك الانسان يفضي الى ضرر أحد المارة كوضع حجر في الطريق او ماشابه ذلك ، لان الانسانفي المجتمعالاسلامي يجب انيعرف ما له وماعليه وكلمن تسبب بالضرر

وجبت عليه ازالته ولا ضرر ولا ضرار ، ومع ان جرح العجماء جبار بالاتفاق، فأن المذاهب أوجبت الدية اذا تضرر أحد المارة بيد الدابة وكان معها راكبها ويجب الضمان على الراكب اذا تضرر احد المارة بيد الدابة لان القرينة تدل على تعديه بخلاف مالو حدث الضرر برجليها ولو كان مع الراكب سائق او قائد وجب الضمان سواء احدث الضرر بيد الدابة او برجلها لان السائق والقائد قادران على منع اضرار الدابة برجليها ، فالقرينة دلت على تعديه • ويمكن الاسترشاد بهذا فى الحكم على سائقي السيارات ، فتقدر العقوبة بقدر التعدي الذي تثبته القرائن والوقائع • ومن صور الاضرار بالغير تسببا ما يحدثه الرجل في ملكه اذا كان خارجا الى الطريق كوضع الميزاب ووضع الكنيف الى غير ذلك ، وللفقهاء اراء شتى مجملها ان الضمان يجب اذا ثبت التعسف او التعدي حسب القرائن • ومن صور الاضرار تسببا رش المياه في الطرقات اذ قال الشافعية بوجوب الضمان اذا ألح الراش في بل التراب وقال بعضهم بوجوب الضمان على من وضع قشرا في طريق المسلمين اذا افضى هذا القشر الى في المكان المرشوش • وقال العاملي من الشيعة وابن عبدالوهاب من الحنابلة بوجوب الضمان على من وضع قشرا فى طريق المسلمين اذا أمضى هذا القشر الى الاضرار بالغير وكذلك وضع القمامة لان « الطريق لم يوضع لذلك فيكون وضعها مشروطا بالسلامة » كما نصل العاملي في العلة من تحميل المتسبب الضمان • وقال الحنفية لو جمع رجل الكناسات ورماها في الطريق ضمن الدية اذا تضرر بها احد لصدور التعدي منه • ومع ان الانسان يحق له التصرف في بيته فأن الدية تجب عليه اذا أضرم نارا في يوم اشتداد الريح ورمت بشرر تسبب في اهلاك احد المارة بخلاف مالو أضرمها فى يوم هدوء الريح ، لانه لم يتعسف ولم يتعد ، وان كان ابن حزم لا يوجب الضمان في حوادث النار الا اذا تعمد مـوقدها الاضرار بالغير لقول الرسول (ص) « النار جبار » • ولو نام رجل في الطريق العام فعثر به احد المارة وتضرر ، وجب عليه الضمان لان الطريق لم يـعد للنوم •

ومن صور القتل بسبب الموجب للدية ما يسقط مما وضع في اعلى المساكن فيسبب اضرارا للغير ولكن الشريعة الاسلامية لم تقيد حرية تصرف الانسان في ملكه بهذا المبدأ لان الضمان يجب بالتقصير والتعدي ، فلو وضع رجل على حائطه شيئا اكبر منه بحيث دلت القرينة على خروج جزء منه الى الفضاء ثم سقط يجب الضمان لحصول التقصير ، أما لو وضع صاحب المسكن على الجدار شيئا وضعا امينا واسقطته الريح ، فلا موجب للضمان لانعدام التعدي والتقصير والقرائن هي الفيصل في مدى ايجاب الضمان على المتسبب بالاضرار .
ومن صور القتل بسبب الضرر الناتج عن سقوط الجدران المائلة فقط . ان الفقهاء اتفقوا على تضمين صاحب الجدار المائل اذا بناه مائلا وهلك بسقوطه احد المارة ولعمري ان هذا النهج لنعم لصواب الذي يتماشى مع المبادىء العامة للشريعة الاسلامية الغراء المقتضية دفع الضرر عن الآخرين . وقد اتفق فقهاء الاحناف وجل الشافعية والمالكية والحنابلة والشيعة الامامية والزيدية والخوارج الاباضية على ايجاب الدية على عاقلة من بنى جدارا مستويا ثم مال وهلك به بعض المارة بعد المطالبة . وقد اشترط البعض مطالبة صاحب الجدار بهدمه ، واشترط بعضهم علم صاحب الجدار بميلان جداره ليتحمل الضمان بعد سقوطه . وذهب المالكية والحنابلة الى ايجاب الدية على الجار اذا شمت جارته رائحة طعام عنده وكانت في وقت الوحام وطلبت منه ولم يعطيها أو كانت طبيعة تلك الرائحة مسقطه للجنين وهو يعلم حتى أجهضت المرأة لان هذا الاجهاض تسبب به تقصير الجار وعدم اهتمامه بجاره ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم .

مراجع الفقرة (٥) :

انظر حاشية الدسوقي ص ٢٦٨ ، وانظر شرح الرسالة ٢٠/٢٧١ — وانظر تبين الحقائق للزيعلي ٦/١٤٢—١٤٣ والجامع الصغير لمحمد بن الحسن ص١١٩ بهامش كتاب الخراج لابي يوسف ط١ — وانظر الانصاف ١٠/٥٧ وعيون المسائل للسمرقندي ٢/٢٨٢—٢٨٣ — وانظر الفتاوى الهندية ٦/٣٩ — وانظر

مختصر الطحاوي ص٢٥٢ وانظر شرح الزرقاني ١٩٨/٤ ، والشرح الكبير لابن قدامة المقدسي ص٤٨٧ ـ وانظر مفتاح الكرامة ٣٠٣/١٠ ـ وانظر شرح المجلة ـ للباز ص٦٠ وانظر الفتاوى الخيرية للرملي ١٨٩/٢ وانظر المحلى ٢٤/١١ـ٢٥ وانظر شرح المنهج ١٧٥/٥ .

٦ ـ المال الذي تدفع منه الديـة

تجب الدية في كل قتل سواء كان مباشرا او غير مباشر على ما فصلناه من اشتراط التعدي في غير المباشر وعدم اشتراط ذلك في القتل المباشر ، وللفقهاء أراء في الدية مـن حيث جنس المال الذي تؤخذ منـه . فقد ذهب الحنفيـة والشافعية الى ان الدية تؤخذ من الابل أو الدراهم أو الدنانير ، والابل عند الامام الشافعي هي لاصل ، اما الدراهم والدنانير فيتعامل بها على اعتبارها قيمة للابل ، والمالكية يعتمدون على العرف الجاري فى بلد الجاني والمجني عليه فأن كان من البدو وجبت الدية من الابل ، وان كان من اهل المدن وجبت قيمة الابل بالدراهم والدنانير . وقد وسع ابو يوسف ومحمد الشيباني مـن الحنفية والشيعة الامامية والحنابلة والزيدية المال الذي تؤخـذ منه الدية اذ أضافوا الى الابل والدراهم والدنانير البقر والغنم والحلل والى هذا ذهب الحنابلة ايضا ، وان كان بعضهم لم يعد الحلل من جنس المال الذي تؤخذ منه الدية ، والرأي الذي يجب ان يعمل به في زماننا هو القول الذي يجعل الابل الاصل والدراهم والدنانير قيما لهذا الاصـل وهو رأي الامـام الشافعي والسرخسي من الحنفية والخرقي من الحنابلة . وبناء على هذا فأن الدولـة لو أخذت بمبدأ الدية حددت مبلغها بالنظر الى قيمة الابل في هذا العصر . والعرف الجاري ان الابل وما شـابهها من الانعام تحافـظ على سعرها وان تفاوتت قيمتها فهو تفاوت يسير ، أما اذا حدث ظرف طاريء أفضى الى تغيير الاسعار كما حدث للعالم بعد الحرب العالمية الثانية فمن اليسير على الـدولة ان تنص على قيمة جديدة للابل أو بأمكان الحكام ان يستعينوا بالخبراء في تقدير قيمة الابل كلما اقتضيت الضرورة . ومبدأ استشارة الخبراء والاعتماد

عليهم معمول به في القانون في احوال شتى ولعل من المستحسن الاستشهاد بنص الامام الشافعي اذ قال « وعام في اهل العلم ان رسول الله (ص) فرض الدية مئة من الابل ثم قومها عمر (رض) على اهل الذهب والورق فالعلم محيط انشاءالله تعالى ان عمر لايقومها الاقيمة يومها » ويشترط في الابل السلامة من كل عيب ترد به لو كانت مبيعة ٠

مراجع الفقرة (٦) :

انظر خزانة الفقه وعيون المسائل ص٣٥٧ ـ وانظر المبسوط ٢٦/٧٨ وانظر الام للشافعي ٦/٧٤ ، وانظر تكملة الفتح القدير ص٢٢٩ ، وانظر مختصر الخرقي ص٨٠ ـ وانظر المغني ص٤٨٣ وانظر كشف اللثام شرح الخرشي ٨/٣٠ـ٢٣١ وانظر بداية المجتهد ابن رشد ص٤٠٣ـ٤٠٤ ـ وانظر جواهر الكلام طبعة حجرية غير مرقمة ٠ وانظر نيل الاوطار للشوكاني ٧/٨١ ، وانظر شرح النيل ص ١٠٢ ـ وانظر المحلى ١٠/٤٨٦ ٠

مقادير الدية

٧ ـ في القتل العمد

لم يتفق الفقهاء على مقدار الدية الواجبة في جريمة القتل العمد ، نظرا لاختلافهم في موجب الجريمة العمدية وقد ذهب الحنفية والامام مالك وابن جزي الغرناطي من المالكية الى عدم تحديد الدية الواجبة في جريمة القتل العمد لان موجب هذه الجريمة عندهم القصاص واذا شاء ولي المجني عليه ان يعفو عن الجاني فأن الذي يحل محل القصاص الصلح ، والصلح ينشأه ويحدده اتفاق ولي المجني عليه مع الجاني فقد يطلب الولي مايشاء وان طلب ألفا من الابل على سبيل المثل يجوز له لان عقوبة القصاص لا يسقطها الا رضاه وقد يتنازل الولي عن حقه دون مقابل ، وهذا جائز لان الحق لولي المجني عليه فى جريمة القتل العمد ، وذهب الشافعية الى تحديد الدية في العمد لان موجب العمد القصاص او الدية لذا قالوا بتغليظ دية العمد اذا سقط القصاص بالعفو

أو بأحد المواقع ومقدار دية العمد مئة من الابل ثلاثون حقة وثلاثون جذعة واربعون خلفة في بطونها اولادها . وتجب حالة غير مؤجلة من مال الجاني وذهب الدردير من المالكية والخرشي الى تحديد دية العمد وصفتها عندهما مئة من الابل خمس وعشرون بنت مخاض ، وخمس وعشرون بنت لبون ، وخمس وعشرون حقة ، وخمس وعشرون جذعة[٦] . والى هذا ذهب القيرواني ويبدو ان الحنابلة لهم قولان أحدهما موافق لما ذهب اليه الشافعية والآخر مشابه لما ذهب اليه الدردير والخرشي من المالكية والمعمول به عند الحنابلة ان ولي المجني عليه اذا لم يعف عن الجاني الا باستلامه اكثر من الدية المحددة جاز ذلك ، قال ابن قدامة (ان الهدبة بن الخشرم قتل قتيلا فبذل سعيد بن العاص والحسن والحسين لابنه المقتول سبع ديات ليعفو فأبى ذلك وقتله) . وعند الشيعة دية العمد مئة من الابل المسنة أو مئتا بقرة أو الفا رأس غنم او مئتا حلة أو الف دينار أو اثنا عشر الف درهم . ورأى الزيدية موافق لما ذهب اليه الشافعية اما الاباضية فذكروا ماذكره الحنابلة والدردير من المالكية ، وافصحوا عن جواز الصلح مهما بلغ طلب الولي . اما الظاهرية فأن دية العمد عندهم كدية الخطأ اذا سقط القصاص مئة من الابل فخمس وعشرون بنت مخاض وعشرون بنو لبون وعشرون بنات لبون وعشرون حقة وعشرون جذعة أو قيمتها مهما بلغت ، ويبدو ان ابن حزم لم تصح عنده الاحاديث التي بينت مقدار دية العمد . ونهج الظاهرية يعتمد اعتمادا كليا على ظواهر النصوص ، وحيث ان الآية القرآنية الكريمة أوجبت الدية في القتل الخطأ فقط ، وبما ان دية الخطأ قد علم مقدارها بالنص فقد ذهب ابن حزم الى المساواة بين العمد والخطأ ، جاء في المحلى «الدية في العمد والخطأ مئة من الابل فأن عدمت فقيمتها لو وجدت فى موضع الحكم بالغة مابلغت » والرأي الراجح عندنا

---

(٦) بنت مخاض الناقة التي دخلت السنة الثانية من عمرها .
بنت لبون الناقة التي دخلت في السنة الثالثة من عمرها .
الحقه الناقة التي دخلت في السنة الرابعة من عمرها .
الجدعة الناقة التي دخلت في السنة الخامسة من عمرها .

ماذهب اليه الحنفية والامام مالك وابن جزي لان موجب القتل العمد القصاص فأذا اراد الولي أن يعفو عن القصاص الى الدية فلا يحق لاحد ان يحدد هذه الدية دونه والحديث الذي اعتمد عليه الشافعية ومن نهج نهجهم لايتعارض مع رأي الحنفية الذي رجحناه لان نصه يدل على ان موجب العمد القود أو الدية المغلظة اذا كان العفو مبهما أو اذا سقط القصاص لمانع • وتدل خاتمة الحديث على جواز تنازل الولي عن القصاص الى ما شاء من الابل او قيمتها وهـذا نص الحديث عن عمر بن شعيب عن ابيه عن جده (رض) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من قتل متعمدا دفع الى اولياء المقتول فأن شاءوا قتلوا ، وان شاءوا اخذوا الدية وهي ثلاثون حقة وثلاثون جذعة واربعون خلفة ، وماصلحوا عليه فهو لهم وذلك لتشديد العقل »[٧] رواه الترمذي وابو داود بسند حسن•

مراجع الفقرة (٧) :

انظر المبسوط ٢٦/١٠٢ وانظر بدائع الصنائع ٧/٢٤١ ، وانظر مغني المحتاج ٤/ ٥٣ ــ والمهذب ٢/٢٩٦ ــ وانظر المدونة الكبرى للامام مالــك ٤/٤٨٨ وانظر كفاية الطالب الرباني للقيرواني ٢/٢٦١ ، وانظر المعيني ٩/٤٧٧ ، وشرح السبيل في شرح الدليل ومنتهى الارادات ص٤٢٨ ــ والبحر الزخار ٥/٢٧٢ــ ٢٧٣ ــ وانظر شرح النيل ٨/١٨ ، وأنظر المحلى ١٠/٤٧١ •

٨ ــ ديــة شـبـه العـمـد

أختلف الفقهاء الى ثلاثة اراء في مقدار دية شبه العمد ، القول الاول : قال ابو حنيفة وابو يوسف والحنابلة والخوارج الاباضية ان دية شبه العمد مئة من الابل مربعة أي خمس وعشرون حقة ، وخمس وعشرون جذعة وكذا بنت مخاض ، وكذا بنت لبون • القول الثاني : قال محمد بن الحسن الشيباني واجماع فقهاء الشافعية والمالكية والزيدية ان دية شبه العمد مثلثة مغلظـة ثلاثون حقة ، وثلاثــون جذعــة ، واربعــون خلفــة • القــول الثالــث : ماذهب اليه الامامية اذ أوجبوا في شبه العمد مئة من الابل مثلثة الى ثلاثـة

---

(٧) تحفة الاحوذي شرح صحيح الترمذي /طبعة الهند/٢/٣٠٤ •

وثلاثون بنت لبون وثلاثة وثلاثون حقة واربع وثلاثون ثنية ، والراجح عندنا ماذهب اليه الشيباني والشافعية والمالكية والزيدية للسببين الآتين ، الاول :ـ ماذكروه ثبت بالحديث الصحيح وهذا نصه عن النعمان بن بشير أن النبي(ص) قال في خطبة حجة الوداع « الا ان قتيل الخطأ العمد قتيل السوط والعصا فيه مئة من الابل ،واربعون منها في بطونها اولادها » • وقد روي هذا الحديث من طرق متعددة ، الثاني : ان هذا القول يوجب فى الابل أربعون من الحوامل وهذا سديد لان دية شبه العمد يجب ان تكون مغلظة والنيق الحوامل أغلى من غيرها ، ويعترض بعض الفقهاء على هذا لان الحوامل لايجوز اخذها في الزكاة وهذا قياس مع الفارق لان الزكاة تجب تعبدا والدية تجب عقوبة لاسيما في قتل شبه العمد اذ لا قصاص فيه ، والدية عقوبة أصلية فيه ، ويجب ان تختلف عن دية الخطأ لان الجاني في الخطأ لم يقصد ضرب المجني عليه ولم يقصد قتله خلافا للجاني المقترف جريمة قتل شبه العمد لانه قصد ضربه والاضرار به ، ألا ان عقوبة القصاص لم تجب لان الجاني لم يستعمل آلة قاتلة •

مراجع الفقرة (٨) :

انظر المبسوط ٢٦/٧٦ ـ وانظر الهداية ص١٧٧ وغنية ذوي الاحكام ص١٠٣ ـ فتن المنهج لزكريا الانصاري ص١١٦ ـ انظر نصب الراية ص٣٣٣ وانظر شرح الخرشي ص٣١ ـ انظر مختصر خليل تأليف خليل بن اسحاق ص٣١٥ ـ انظر مختصر الخرقي ص ١٧٩ ـ انظر المغني لابن قدامة الحنبلي ص٤٩١ ـ انظر الروضة البهية ٢/٤٢٨ ـ انظر البحر الزخار ٥/٢٧٣ ـ انظر شرح النيل ص٩٨ والحديث الذي اعتمدنا عليه رواه ابو داود في سننه ص٥٠١ جـ٢ •

٩ ـ دية القتل الخطأ

اتفق الشافعية والمالكية والخوارج الاباضية على ان دية الخطأ تجب مخمسة عشرون بنت مخاض وعشرون بنت لبون وعشرون ابن لبون ذكر

وعشرون حقة ، وعشرون جذعة ، اما الحنفية والحنابلة والزيدية على الرواية التي رجحها الشوكاني فقالوا بتخميس دية الخطأ أيضا ، الا انهم جعلوا ابن اللبون مكان ابن المخاض لان الاحناف لا يوجبون ابن اللبون في الزكاة لانه أغلى ثمنا من ابن المخاض وهذا يشق على عاقلة الجاني المسؤولة عن دية القتل الخطأ وبما ان القتل الخطأ خال من القصد الجنائي فقد وجب الرفق به وبعاقلته • وقد ذكر الشيعة الامامية روايتين قال العاملي « دية الخطأ عشرون بنت مخاض وعشرون بنت لبون وعشرون ابن لبون وثلاثون حقة ، وروى العلاء بن الفضل عن علي (ع) قال فى قتل الخطأ مئة من الابل خمس وعشرون بنت مخاض ، وخمس وعشرون بنت لبون ، وخمس وعشرون حقة وخمس وعشرون جذعة » وذكر الطوسي والحلي هاتين الروايتين والراجح عندنا رأي الحنابلة والحنفية والزيدية لان رأيهم مؤيد بحديث ثبتت صحته عند المحدثين وقد روى ابو داود الحديث من طريق عبدالله ابن مسعود ويبدو ان ابن حيان الاندلسي نسب قول الحنفية الى فقهاء المدينة السبعة الا ان القرطبي من المالكية ضعف هذا الحديث وحجته ان في سند الحديث خشف بن مالك والحجاج بن ارطأة وكلاهما ضعيفان ، ولكن ابن جرير الطبري ذكر الحديث من طريق آخر وقد خلا سنده من هذين الرجلين المشكوك في عدالتهما ، قال ابن جرير « حدثنا مجاهد بن موسى قال : ثنا يزيد قال اخبرنا سليمان التيمي عن ابن مجلز عن ابي عبيدة عن عبدالله بن مسعود قال : الدية أخماس : دية الخطأ ، خمس بنات مخاض وخمس بنات لبون ، وخمس حقاق ، وخمس جذاع ، وخمس بنو مخاض » ، وللشافعية حديث يعتمدون عليه الا أن حديث الحنفية روي من طرق متعددة مما أفضى الى ترجيح رأيهم ومن نهج نهجهم على من سواهم •

مراجع الفقرة (٩) :

انظر المبسوط للسرخسي ٢٦/٧٥ ـ انظر البحر المحيط ٣/٣٢٣ ـ انظر سنن أبي داود ٢/ ٤٩١ ـ انظر الام ص١١٣ ـ انظر كفاية الاخيار ص ١٤٦ انظر شرح الخرشي وحاشية العدوى ٨/٣٢ ـ انظر شرح الرسالة ٢/٢٦١ ـ انظر شرح الزرقاني على موطأ الامام مالك لسيدي محمد الزرقاني ٤/١٧٨ ـ انظر الشرح الكبير ص٥١٢ ـ انظر الانصاف ١٠/٦١ ، أنظر شرح اللمعة الدمشقية ٢/٤٢٩ ـ انظر الخلاف للطوسي ٣/٣١٩ ـ انظر شرح النيل ٨/ ٩٨ ـ انظر جامع البيان عن تأويل اي القرآن ـ للطبري ٥/٥١١ .

١٠ ـ التعويض في القانون

في القانون يجب التعويض بعد كل فعل يحدث ضررا للغير ويجب التعويض فى الجريمة المدنية ، اما الجريمة الجنائية فهي على نوعين : نوع الجزاء فيها رادع وهو الحبس ، الغرامة .. الخ وآخر تعويضي . والتعويض يقدر في المحاكم المدنية ، أما الحبس والغرامة فهذا من وظائف المحاكم الجزائية ولا علاقة بين المحاكم الجزائية ، والمحاكم المدنية من حيث الحكم بالتعويض ، فلو دهس سائق سيارة شخصا وحكم له بالبراءة أمام المحكمة الجزائية فأن المحكمة المدنية يحق لها الحكم عليه بالتعويض أذا طلب المجني عليه ويوحي نص القانون المدني العراقي بوجوب التعويض سواء أكان القتل عمدا ام خطأ اذ نصت المادة (٢٠٢) منه على أن «كل فعل ضار بالنفس من قتل أو جرح أو ضرب أو أي نوع آخر من انواع الايذاء يلزم بالتعويضات من أحدث الضرر» وقد نهج القانون المدني العراقي نهج الفقه الاسلامي اذ أوجب التعويض في القتل غير المباشر وذكر الكثير من صور القتل بسبب التي أشرنا اليها في الفقرة الخامسة جاء في المادة (٢٢٨) منه « ١ ـ ليس لاحد وضع شيء في الطريق العام بلا ترخيص من الجهة المختصة ، واذا فعل ضمن الضرر الذي تولد من هذا الفعل .

٢ ــ فلو وضع شخص فى الطريق العام الحجارة وادوات العمارة وعثر بها حيوان أو انسان فأصابه ضرر وجب الضمان • كذلك يجب الضمان اذا ترك شخص في الطريق العام شيئا يزلق به وزلق به انسان أو حيوان» • وجاء في المادة (٢٣٠) « كل من يقيم في سكن يكون مسؤولا عما يحدث من ضرر بسبب مايلقي او يسقط من هذا المسكن مالم يثبت انه اتخذ الحيطة الكافية لمنع وقوع الضرر » وما ذهب اليه القانون المدني العراقي موافق لما ذهب اليه القانون المدني المصري في المادة (١٦٣) لتي أوجبت التعويض في كل خطأ احدث ضررا للغير ، وهذا مقتبس من المشروع الفرنسي الايطالي [م ٧٤] والنص المصري يقابله نص القانون المدني السوري المادة (١٦٤) والمادة (٤١) سويسري وقد اوجب النص الجزائري التعويض ولم يشر الى الخطأ متفقا مع النص العراقي ، فكل عمل أضر بالغير بوجب التعويض جاء فى المادة (١٢٤) من اقانون المدني الجزائري المرقم ٧٥ لسنة ١٩٧٥ « كل عمل أيا كان ، يرتكبه المرء ويسبب ضررا للغير يلزم من كان سببا في حدوثه بالتعويض » • وتنص بعض القوانين على ان التعويض يجب على الجاني ليس بسبب ضرر المجني عليه في موته ولكن لاسباب أخرى حصرتها المواد الخاصة بها ففي القانون الالماني ذكرت المادة (٢١) من قانون الملاحة الجوية لسنة (١٩٤٣) « ان التعويض في حالة الوفاة يشمل الضرر الناجم عن مصاريف محاولة العلاج وازالة او انقاص القدرة على الكسب وتقليل احتمالات النجاح وازدياد النفقات » والى هذا ذهب المقنن السويسري لانه اوجب التعويض اذا تضرر أحد من الذين كان المتوفى يعيلهم • ويجب التعويض بقدر ما أنفق على مراسيم الدفن وما يتعلق به جاء في المادة (٤٥) من قانون الالتزامات السويسري •

(١ ــ في حالة قتل انسان فأن التعويض يشمل كافة المصاريف ــ ٢ ــ فأن لم يقع الموت فورا فأن التعويض يشمل بوجه خاص مصاريف العلاج والضرر المترتب عن العجز عن العمل • ٣ ــ واذا ترتب على القتل حرمان اشخاص آخرين من المعيل وحرموا من عون المتوفى فلهم الحق فى التعويض أيضا » وفي

الولايات المتحدة الامريكية لا يجوز المطالبة بالتعويض بسبب وفـاة المجني عليه بناء على سقوط الدعوى الشخصية واعتبارها دعوى اجتماعية محضـة بعد وفاة صاحبها قضت مبادىء Common law بعدم جواز التعويض عن الضرر في حالة الوفاة وقد أصدرت بعض الولايـات الامريكية قوانين تبيح لبعض أقارب المجني عليه المطالبة بالتعويض عن الضرر الشخصي الذي اصابهم بعد وفاة قريبهم • وفي الكويت يجب التعويض بعد كل فعل ضار بشرط توفر العمد أو التعدي ، وجاء في المادة الاولى من قانون الالتزامات الكويتي رقـم (٦) لسنة ١٩٦١ « كل فعل ضار بالنفس من قتل وجرح أوضرب او اي نوع آخر من انواع الايذاء يلزم بالتعويض من احدث الضرر متعمـدا او متعديـا ويكون هذا التعويض في حالة وفاة المضرور تركة يتقاسمها الورثة » •

مراجع الفقرة (١٠) :

انظر الوجيز في شرح القانون المدني ٤٠٢/١ ـ وانظر استاذنا الناهي فى الوجيز ص٢٠٥ ، وانظر جوسران ج٢ بند ٢١٠ نقلا عن استاذنا الناهي ص٢٠٥ وانظر التعويض عن القتل في الشريعة الاسلامية والقانون ، تأليف صلاح قاسم محمد الداود ص٤٠ وما بعدها •

وانظر الدية واحكامها في الشريعة الاسلامية والقانون د • خالد الجميلي•

١١ ـ من يلزم ويلتزم بالتعويض

يختلف القانون مع الشريعة الاسلامية من حيث الحجة التي تلزم بالتعويض فقد دل النص المدني العراقي على ان الجاني هو المسؤول عن تعويض الضرر وقد نصت المادة (٢٠٣) على هذا بقولها « في حالة القتل وفي حالة الوفاة بسبب أو أي فعل ضار آخر يكون من احدث الضرر مسؤولا عن تعويض الاشخاص» ولا يفرق القانون المدني العراقي فى حالة الاشتراك بين الفاعل الاصلي والشريك والمتسبب جاء في المادة (٢١٧ف١) « اذا تعدد المسؤولون عن عمل غير مشروع كانوا متضامنين في التزامهم بتعويض الضرر دون تمييز بين الفاعل الاصـلي والشريك والمتسبب » •

والنص المصري يوجب التعويض على الفاعل دون غيره ، كما ورد في المادة [١٦٤] مصري ، الا ان الفاعل اذا كان صبيا وجب التعويض على الاب ثم الجد ، علما بأن الاب أو الجد يستطيع ان يتخلص من الضمان اذا قام برقابة الصبي أو اذا كان الضرر الذي أحدثه الصبي لابد من وقوعه ، جاء في المادة [٢١٨] عراقي « ١ ـ يكون الاب ثم الجد ملزما بتعويض الضرر الذي يحدثه الصغير • ٢ ـ ويستطيع الاب او الجد أن يتخلص من المسؤولية اذا اثبت انه قام بواجب الرقابة او ان الضرر كان لابد واقعا حتى لو قام بهذا الواجب » ، وما ذهب اليه القانون يختلف مع الشريعة الاسلامية لان المسؤول عن دفع الدية لاسيما في القتل الخطأ ـ هو العاقلة وهذا يضفي على التعويض الصفة العملية لان الجاني اذا كان عاجز عن دفع التعويض تضاعف خطب ولي المجني عليه لاسيما وأن مقدار الدية فى الشريعة الاسلامية يزيد على عشرين الف دينار وهي قيمة مئة من الابل ولا يحصل المجني عليه على شيء بموجب النصوص القانونية اذا مات الجاني ولم يترك مالا ، أما الشريعة الاسلامية فلم تذهب الى هدر الدماء بل ضمنت حق ولي المجني عليه احتراما لدمه لانها توجب الدية وان مات الجاني قال ابن قدامة « لو مات القاتل في المحاربة وجبت الدية في تركته لتعذر استيفاء القتل من القاتل »[٨] وفي الشريعة الاسلامية تجب الدية على العاقلة الا في القتل العمد لان موجب الجريمة العمدية القصاص فأن سقط القصاص بسبب الصلح او بسبب الموت فأن الدية الواجبة بهذا تجب شرعا من مال الجاني ولا مانع من اعانة العاقلة له ندبا وأختيارا ، ولاترجع العاقلة على الجاني في استحصال الدية منه لانها مكلفة شرعا ليس ندبا ولا أختيارا في وجوب دفع الدية كاملة عنه • بمقتضى مبدأ التكافل الاجتماعي الذي شرعه القرآن الكريم ، والعاقلة حملت الدية لان الجاني يحتمل ان يتقوى بها في اقترافه الجريمة وهي مسؤولة عن منعه وتوجيهه • وقد سبق الفقه الاسلامي القانون الوضعي لان القانون حينما شرع التأمين في حوادث

---

(٨) انظر المغني ١٣٦/٩ ـ وانظر كشاف القناع ٩١/٤ •

الدهس فأن الشريعة الاسلامية شرعت المؤسسة المسؤولة عن دفع الدية والتعويض ليس في حوادث الدهس فحسب بل في الجرائم الخالية من الصفة العمدية كافة والعاقلة في الشريعة الغراء يختلف معناها بأختلاف الزمان والمكان لانها الجهة التي ينتمي اليها الجاني ، وفي عصر الرسول الاعظم (ص)كان معنى العاقلة العشيرة التي تضم الجاني ثم بيت المال يكون العاقلة الذي يضم كل من لا عاقلة له ، وفي عصر عمر (رض) ظهر معنا آخر للعاقلة الى جانب العشيرة وبيت المال وهو الديوان الذي ينتمي اليه الجاني والى جانب هذا ظهر معنا آخر للعاقلة وهو تناصر اصحاب الحرف اذا تجمعوا وتعاقلوا وجبت الدية عليهم ، يقال هذا المعنى مايسمى بالنقابات في العصر الحديث ثم أوجب متأخرو الحنفية ـ بصواب ـ الدية على كل مؤسسة ينتمي اليهـا أعضـاء معينون كالطلبة اذا كانوا متعاونين وما شابه ذلك جاء في الهندية « عاقلة الرجل أهل ديوانه عندنا كذا في المحيط » يقابل الديوان الوزارة ، وجاء فى الدر المنتقى « وان كان ممن يتناصرون بالحرف أو بالحلف فعاقلته حرفته أو حلفه لان الاصل في الباب التناصر فالعاقلة في زماننا من تناصروا في الحوادث » ونصوص الفقهاء لا يمكن حصرها في هذا البحث الوجيز وقد فصلناها تفصيلا شافيا فى رسالتنا « الدية » ومجمل ذلك ان العاقلة هي الجهة التي يتناصر المنتمون اليها سواء كانت عشيرة ام دائرة ام فرقة أو نقابة أو أي اتحاد من الاتحادات ثم بيت المال يرث من وارث له ويعقل عنه اذا جنى . وصفوة القول لا يطل دم في الاسلام . وكل من يسأل عن أحد يجب عليه ان يتحمل الضمان لاحتمال تقصيره في مسؤولية ، وفي فرنسا دعت مسز فراي وغيرها من المفكرين الى ايجاب التعويض على الدولة لان المجني عليه أو وليه يكون ضحية عجز الجاني عن دفع التعويض حيث ان الدولة مسؤولة عن الفرد وهي تمنع حمل السلاح ليدافع المرء به عن نفسه ، فأذا اخفقت في المحافظة على سلامته كانت مسؤولة عن التعويض فى هذه الحالة . والذي أراه ان البشرية في القرن العشرين قد بلغت ما بلغته من التفنن في صور القتل المباشر وغير المباشر ولا ضحية الا المجني عليه لاسيما اذا صار عاجزا عن العمل لفقد احد اعضائه ، ولعل خسارة وليه

ليست بخفية بعد موته ، خاصة اذا كان القتيل معيلا له والنفس البشرية تعدل الناس جميعا عند الله تعالى « ومن قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعا ومن احياها فكأنما أحيا الناس جميعا»(٩) •

فأذا سقطت عقوبة لاسيما في العصر الذي نادت فيه اكثر الاتجاهات والمذاهب القانونية الى نبذ عقوبة الاعدام أو كان القتل خطأ ، والخطأ لا تجب فيه الا الدية ثم عجز الجاني عن دفعها فأن ولي المجني عليه يستحوذ عليه شعور عدم اهتمام المجتمع بقريبه ، وعدم التضامن والتكافل معه في رفع الغبن والظلم الذي ألم به لان الانسان لو فقد مالا فالمال فى ذهاب وأياب لهذا فأن الخطب يهون على الانسان بفقد ماله ظلما أما اذا فقد جزءاً من اسرته فأن هذا الجزء هيهات هيهات ان يعود • لهذا فأن قتل الانسان بلا مقابل يعد ظلما اجتماعيا رهيبا لانه هدر صريح للنفس الانسانية ناهيك عن الاضرار المادية الفادحة التي تنزل بالاسرة ، الى جانب الهزة المعنوية التي تنزل بها لهذا فأن الدول الاسلامية يجب عليها ان تأخذ بأحكام الشريعة الاسلامية الغراء فتفكر بأيجاد مؤسسات تحصل الدية منها • والحلول الفقهية شجرة متشعبة الافنان كثيرة الاغصان يانعة الثمر ممكن الاستنارة بها ومن هذه الحلول ان الدية تتحملها الجهة التي ينتمي اليها الجاني سواء كانت وزارة أم نقابة ام اتحاد أم غرفة تجارة أم شركة أو أية جهة أخرى تضم جماعة في المجتمع يجب ان تتضامن وتتحمل الدية في حوادث القتل فأن ضعفت العاقلة فيمكن للدولة ان تدفع الدية من أموال الزكاة لان الغارمين صنف من الاصناف التي تدفع الزكاة اليهم بنص القرآن الكريم واذا كان الجاني بدويا فلا مانع من ايجاب الدية على عشيرته وان كان الجاني لا عاقلة له فأن الدية تفترض على وزارة المالية على أساس ان تركته تعود اليها اذا انعدم وارثه فيجب عليها ان تتحمل الدية عنه في جنايته • والذي أقترحه على الدول الاسلامية ان تؤسس صندوقا خاصا لضمان الدماء مشابه للضمان الصحي وبيسر يمكن تنظيم مثل هذا الصندوق فيؤخذ من كل مواطن

---

(٩) انظر سورة المائدة آية (٣٢) •

حسب دخله مبلغا جزئيا يخصص لضمان الدماء وتؤخذ الدية من هذا الصندوق وبهذا نخفف الضرر المادي الذي يلحق بالمجني عليه في سمل عينه او في قطع عضو من أعضائه لئلا يكون علائلا يتكفف الناس كما ونخفف الضرر الذي يعصف بالاسرة ماديا ومعنويا بعد موته وهذا الصندوق مشابه لما يسمى الان بالتأمين الالزامي على وسائل النقل وان كانت شركة التأمين تسير على غير هدى في بعض تطبيقاتها التي يرفضها المنطق السليم منها ان شركة التأمين لا تعوض المجني عليه او ورثته اذ دهسه سائق ولما يدفع مايجب دفعه لها بحجة ان السيارة التي دهس المجني عليه بها غير مؤمن عليها وقت الحادث وهذه حجة أوهن من بيت العنكبوت لان سائق السيارة يعد مدينا في بداية الحول وان لم يتعاقد تعاقدا مباشرا مع الشركة ولا يمكن ان يتخلص من هذا الدين البتة لتعلقه بأجراءات أخرى لا يسمح له بقيادة مركبته الا بعد استكمالها كاستخراج السنوية وتجديد الاجازة وهذا يدل على انه ملزم بدفع مايجب دفعه للشركة وان لم يجدد العقد تجديدا مباشرا ولا فرق بينه وبين من دفع ما يجب دفعه في حينه ،، ولو فرضنا جدلا ان سائق السيارة قد تأخر كثيرا في دفع التأمين فأن المسؤول عن هذا التأخير الشركة ذاتها لانها لم تشرع عقوبة رادعة بحق من يتأخر عن دفع قسط التأمين الالزامي ، لهذا ارى ان لايكون المجني عليه أو ورثته ضحية لتقصير السائق ولتقصير شركة التأمين حينما تحرمه من التعويض بحجة ان الحادث وقع قبل استحصال قسط التأمين من السائق ، لان العلة من تأسيس شركة التأمين انقاذ المجني عليه او وليه حينما يصاب او يهدر دمه سائق معسر في ظل قوانين العقوبات المتساهلة تساهلا منقطع النظير في حوادث الاهمال والخطأ • وثم تطبيقات اخرى غير مقبولة تتهرب بها شركة التأمين تاركة المجني عليه وكأنه ليس بعضو من اعضاء المجتمع الذي أنشأها لاسعاده منها ان الشركة لاتدفع التعويض اذا دهس المجني عليه بالعربة غير المؤمن عليها تجرها سيارة السائق بحجة ان السيارة مؤمن عليها فقط والعربة

لم يؤمن عليها[10] • ولم توافق الشركة على تأمين السيارة دون العربة ، وحسب المنطق السليم ان العربة لايمكنها ان تحدث اضرارا بالغير الا بواسطة السيارة التي تجرها • وبهذا ليتبين ان سبب الضرر هو السائق والسيارة دون العربة واخيرا فأن علاقة الفرد بالدولة ينبغي ان لاتكون علاقة الخصم بالخصم وانما يجب ان تكون فلسفة العلاقة بينهما موافقة لعلاقة الفرد بالاسرة الكبرى التي تضم الاسر والافراد وهذه الاسرة ينبغي ان تنظر نظرة عادلة الى ابنائها كافة فتحترم الدماء ويجب ان لاتوجد فيها اسرة تفقد احد أعضائها في حوادث الاهمال والخطأ وكأنها فقدت شيئا عرضا حينما تتهرب شركة التأمين من دفع التعويض وبهذا كله نطالب بالاخذ بمبدأ الدية وفرضها على المؤسسة وفق الحلول التي ذكرناها آنفا وتعديل قوانين وتعليمات التأمين الالزامي كما يجب بحيث يشمل التأمين الالزامي وسائل النقل كافة حتى الدراجات والعربات التي تجرها الخيول ، ويجب ان لا يستثنى أحد من التأمين الالزامي سواء كان من رجال الجيش او الشرطة او من اي سلك آخر لئلا يطل دم في المجتمع الاسلامي •

وهذا اضمن لحق المجني عليه ن النصوص التي نضمت مسؤولية المتبوع عن تابعه للسببين الآتين :

الاول : ان النص القانوني لا يحمل المتبوع المسؤولية عن تابعه مالم يتعد التابع باحداث الضرر اثناء خدماته ، وأنا أميل الى ايجاب التعويض على شركة التأمين او على المؤسسة التي ينتمي اليها الجاني وان احدث الضرر في غير وقت خدماته ضمانا لحق المجني عليه ، جاء في الفقرة الاولى من المادة

---

(١٠) لقد استقيت هذه المعلومات رسميا رفض شركة التأمين تعويض أسرة المرحوم « رعد حسين علوان » في القضية المرقمة ٨٢/٢/٧٦/ع • وقد صدر كتاب رفض التعويض المرقم (٣٨٠٩١/٦) بتاريخ ١٩٧٦/٩/١٤ •

[٢١٩] من القانون المدني العراقي « الحكومات والبلديات والمؤسسات الاخرى التي تقوم بخدمة عامة وكل شخص يستغل احـدى المؤسسات الصناعية او التجارية مسؤولون عن الضرر الذي يحدثه مستخدموهم اذا كان الضرر ناشئا تعدي وقع منهم اثناء قيامهم بخدماتهم . الثاني : ان نص الفقرة الاولى يتسم بالوجود النظري دون التطبيقات العملية لان القانون لا يلزم المخدوم بشيء اذا اثبت انه بذل مايجب بذله للحيلولة دون وقوع الضرر وهذا يمكن اثباته بحجة تدريبه وتوجيهه لتابعه ويكون المجني عليه او وليه الضحية البريئة لاسيما في حالة اعسار الجاني جاء في الفقرة الثانية من المادة «٢١٩» من القانون المدني العراقي « ويستطيع المخدوم ان يتخلص من المسؤوليـة اذا اثبـت انه بذل ماينبغي من العناية لمنع وقوع الضرر او ان الضرر كان لابد واقعا حتى لو بذل هذه العناية .

١٢ ـ كيفية تقدير التعويض

ان الشريعة الاسلامية وضعت مقادير للديات والاروش يصـلح العمل بها في كل زمان ومكان اذ فيها تتجلى المساواة بين النفوس كافة لان دية كل انسان مهما كانت منزلته الاجتماعية مئة بعير فأن لم يتعامـل المجتمع بالابل وجبت قيمتها ، وقد ارتفعت قيمة الابـل حتى بلغت الف دينـار في العصـر الاسلامي الاموي والعباسي ، ولا حرج من رفع الالف دينار الى عشرين الف دينار بناء على قيمة الابل وبيسر يمكن تقدير الدية حسب وزن الدينار الذهبي الاسلامي وبعد وزننا لبعض الدنانير الاسلامية الموجودة في المتحف العراقي تبين لنا ان الالف دينار الذهبي تزن ٤٣٠٧ غرام ذهبا تقريبا فهاذان طريقان يمكن للمسؤولين ان يسترشدوا بهما في تقدير الدية وان رأي الخاص الاعتماد على قيمة الابل لان الدية كانت اربعمائة دينار في عصر الرسول (ص) اذ قيمة البعير الواحد كانت أربعة دنانير ثم ارتفعت الى ستة دنانـير ثم عشـر دنانير

فقدرت بألف دينار ، وفي عصرنا يمكن تقدير الدية بعشرين الف دينار اذا كان ثمن البعير الواحد مئة دينار وهذا المبلغ لا تهدر النفس الانسانية به لاسيما فى حوادث الخطأ يمكن تطبيقه تطبيقا عمليا بلا حرج لان الديــة لا تجب على الجاني بل تجب على العاقلة التي ينتمي الجاني اليها ويستوي الجميع في قدرها. أما القانون فلم نر فيه قاعدة خاصة يسترشد بها القضــاة في تقدير التعويض فهذا ينظر الى المنزلة الاجتماعية وذاك ينظر الى عمل المجني عليه وآخر ينظر الى مدى مايطبق الجاني دفعه وآخر ينظر الى الضرر المحتمل وغير المحتمل بالنسبة لأولياء المجني عليه وكأن الانسان مال مقوم يجتهد القاضي في تقدير قيمته حسب الضرر الملحق بالاسرة بعد موت المجني عليــه . ان الشــريعة الاسلامية الغراء أوجبت الدية في القتل ، والنفوس كافة تستوى في مقــدار الدية ، قال تعالى « وما كان لمؤمن ان يقتل مؤمنا الا خطأ ومن قتل مؤمنــا خطأ فتحرير رقبته مؤمنة ودية مسلمة الى أهله »[١١] ، وما أحوج البشريــة اليوم الى القانون الذي يحقق المساواة بين الناس كافة دون النظر الى اي فرق من الفروق المادية و المعنوية بينهم ، وفى فرنسا بالرغم من قاعدة النظر الــى مقدار الضرر فأن المحاكم تتشدد في مقدار التعويض في حالات منها اذا كان سبب الضرر عمدا لان المتعمد لا يستحق الرفق بخلاف المخطىء ، اذ ان سببه الاهمال ، ويقل مقدار التعويض ويزيد في القانون حسب مدى الضرر الــذي يقدره الحاكم بلا قاعدة خاصة يستوي فيها الناس جــاء في المادة [٢٠٧] من القانون المدني العراقي « ١ ــ تقدر المحكمة التعويض في جمع الاحوال بقدر مالحق المتضرر من ضرر وما فاته من كسب بشرط ان يكون هذا نتيجة طبيعية للعمل غير المشروع » ، وقد ترك القانون المدني المصري بمقتضى المادة [١٧٠]

---

١١ انظر سورة النساء آية ٩١ .

تقدير التعويض للحكام كما فعل المقنن المدني العراقي والنص المصري مستوحى من احكام التقنين البولوني مادة (١٥٦ ـ ١٥٧) وتقنين الالتزامات السويسري المادة [٤٣ ـ ٤٦] ويقابل هذا ما ورد في القانون المدني السوري مادة (١٧١) وفي الكويت أحسن المقنن فيها صنعا اذ وضع مقدارا خاصا بالتعويض (٢٤٠٠) دينار دون التمييز بين شخص وآخر ، كما يحق للمحكمة ان تحكم بالتعويض عن بعض الاضرار الاخرى حسب ماورد في المادة (٢١) فقرة [١] من قانون الالتزامات الكويتي ..

والذي اقترحه على المسؤولين في الكويت ان يعدلوا النص حتى يرتفع مقدار الدية من (٢٤٠٠) دينار الى قيمة مئة من الابل عشرون ألف دينار لان العالم يختلف في سنة (١٩٧٨) عن سنة (١٩٦١) بعد التضخم المالي وضعف قوة الدينار الشرائية .

مراجع الفقرة (١٢) :

انظر وزن الدينار بصورة مفصلة في رسالتنا ، الدية واحكامها ـ وانظر الناهي فى الوجيز ص٢١٥ ـ وانظر الوسيط ١/١٠٩٥ ـ وانظر التقنين المدني الجديد للدكتور محمد علي عرفة ص١١٣ .

بعد ان انتهينا من هذا البحث وما استقرأناه في مؤلفينا (الدية) و (البغاة) تجلت بعض الفوائد الجمة التي يجب على الباحث ان لا يبخل بها على مجتمعه، لهذا فاني ارفع هذه الخلاصة الى مجلس قيادة الثورة بصفته السلطة التشريعية في القطر آملا تقديرها والاخذ بها ـ ان خال الصواب فيها ـ وهذه الخلاصة هي:ـ

١ ـ نقترح ان تشرع الدولة قانونا تضمن بموجبه الدماء كافة وتتحقق في ظله نظرية (لا يطل دم في المجتمع الاسلامي) وهو ما يتناسب مع خطة الدولة في احترام النفوس •

٢ ـ كل قتيل ـ أنى وجد ـ عرف قاتله ام جهل ، وجبت لوليه الدية ـ أي التعويض ـ وتبرير ذلك ان السلطة مسؤولة عن حماية الافراد فأذا ما وجد قتيل جهل قاتله ، ألزمت السلطة نفسها بالتعويض بأفتراض مبـدأ التقصير ابتداءاً في المحافظة على الدماء ، وهذا المبدأ لم تسبقنا اية امة اليه ، ويدل على رقي التشريع ومدى اهتمامه بالانسان تحقيقا لقوله تعالى (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا •••) ولقد شهد التراث العربي الاسلامي المتسم بالاصالة القانونية هذا المبدأ وهو يتجلى بوضوح في القسامة ، والقسامة هي نظرية فقهية مجملها ان كل حي او شارع يوجد فيه قتيل استحلفت السلطة أربعين رجلا من صالحي ذلك المكان الذي وجد فيه القتيل ، فاذا لم يحلفوا لم تسقط عقوبة القصاص وان حلفوا على عدم علمهم بقاتله لم تسقط الدية (التعويض)تقديرا للفرد الـذي يعيش في المجتمع الذي يجب ان يتكافل ويتضامن معه • وهذا مبتدأ لا يتسم بالعقاب بل يتسم بالتكافل والتضامن الاجتماعي •

٣ ـ نقترح تأسيس صندوق خاص يؤخذ منه التعويض ، وتعين الدولة كيفية تأسيس هذا الصندوق وطريقة تمويله ورأيي في هذا ان يكـون مشابها لصندوق الضمان الصحي ، حيث يؤخذ من كل مواطن مبلغ رمزي حسـب دخله في تمويل هذا الصندوق ، واذا لم ير المسؤلون صوابا في تأسيس هذا

الصندوق الذي اقترحته فيمكنهم ان يعتمدوا على نظام العاقلة الذي فصلناه في مؤلفنا ومجمله ان الدية اي التعويض يدفعه أفراد الوزارة أو المؤسسة او النقابة التي ينتمي اليها الجاني مقسطا في ثلاث سنوات •

٤ ـ ان الهدف من هذا الصندوق هو التعاون مع المجني عليه او وليه لئلا يكون ضحية اعسار الجاني الذي يتخلص من دفع التعويض بحجة اعساره•

٥ ـ ان التعويض الذي يدفع من الصندوق المقترح لا يرفع العقوبة التي ينص عليها القانون (قانون العقوبات) لئلا يتمادى الجناة في ارتكاب الجرائم •

٦ ـ ان ايجاب التعويض على الصندوق المقترح لا يعني حماية الجاني اذ ثمة عقوبات كثيرة تردعه عن اقتراف الجريمة قد تصل الى الموت ولو كان التعويض عقوبة حقيقة وحكما ليسرت على الجناة الموسرين • ومقترف جريمة القتل الخطأ الخالي من الطيش والأهمال يعد بريئا مصابا بخطب يجب على المجتمع ان يتكافل معه في تخفيف الخطب الذي ألم به •

٧ ـ لا علاقة لصندوق التعويض بالجرائم العمدية مالم تر الدولة اقتضاء مصلحة المجني عليه او وليه ، دفع التعويض من صندوق ضمان الدماء بسبب موت الجاني او هروبه او اعساره •

٨ ـ يجب ان يستوى جميع المجني عليهم فى مقدار هذا العتويض المحدد بعشرين الف دينار ، قيمة مئة من الابل ، وان هذه المساواة طبقها الفقه الاسلامي تطبيقا عمليا ونجح في ذلك أيما نجاح ، وهذه المساواة تتوافق مع نهج القيادة التي تنظر الى المواطنين نظرة واحدة •

٩ ـ الصندوق المقترح هو غير فكرة شركة التأمين عن حوادث السيارات لانه أوسع واشمل فهو يضمن التعويض عن كل جريمة مهما كان سببها •

١٠ ـ ان الصندوق المقترح يكون عن تعويض ضرر الموت ومادونه ، وقد وضع الفقه الاسلامي نظريات في تقدير تعويض الاعضاء واحداث العاهات المستديمة وغير المستديمة مع تفصيلاتنا لها في مؤلفنا ، فنحن نضع كل جهدنا وطاقتنا أمام المسؤولين اذا ما ارتأوا تقنين هذه الاحكام والعمل بها •

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين •

ابن خلـدون
ريادة عربية أصيلة في التخطيط المديني والاقليمي

الدكتور خالص الاشعب
قسم الجغرافية
كلية الآداب ـ جامعة بغـداد

« تراثنا حي يعيش الزمن والمكان وسيعيشهما اجيالا لاحقات » مقولة تقولها في خضم الحديث عن التراث لنبين لمن تغافل عن حقيقة عاملة اننا ابناء امة اضافت لحضارة الانسان ابتداء من وضع هذه الحضارة وانتهاء باكمال صروحها .

لقـد كان التخطيط المديني والاقليمي City and Regional Planning وهمـا جنـاحان للتخطيط الطبيعي Physical Planning [1] احـدى المسارح التي لعب فيها العرب وباصالة دورا رياديا استفاد منه الغرب قبل ان نستفيد نحن ـ المتغافلين او المتجاهلين للاصيل من تراثنا . وابن خلـدون ومدرسته هو موضوع دراستنا ومناقشتها الان لاسباب عدة اورد منها :

أولا : انه لابد لكل حقل من حقول المعرفة ـ نظريا وعمليا ـ من مرحلة بداية وتأسيس ، وبالنسبة لتخطيط المدن واقاليمها وعلاج المشاكل البيئية في الوطن العربي قصة بدأت بدء العرب كقومية وحضارة قوامها الاصالة وسداها الخلود . ويظهر ذلك من تتبعنا لتخطيط الامصار العربيـة

---

١ ـ د/خالص الاشعب ، موروثات مدننا العمارية مشكلة تواجه تخطيط المدن مجلة آفاق عربية ، العدد ٩ سنة ١٩٧٦

الاولى في مختلف بقاع العرب • وما احب ان انبه عنه مبكرا في دراستنا هذه ،هو اننا لسنا بصدد تتبع ذلك ، ان لذلك اكثر من مجال قائم بذاته ، انما نحن بصدد دراسة مرحلة هامة من مراحل التخطيط العمراني التي بلورها العرب خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادي بواسطة واحد من اعلامهم الخالدين ، هو ابن خلدون التونسي المولد الحضرمي الاصل ١٣٣٢م (٧٣٢هـ) ــ ١٤٠٦م (٨٠٨هـ)[٢] •

نحن بصدد دراسة ماتم انجازه خلال تلك المرحلة في مجال التخطيط الطبيعي ، على انه انجاز تعدت فوائده وطننا العربي الى العالم المتطور الذي سبقنا في الافادة منه •

ثانيا :ان مايحز في النفس هو ان العدد العديد من مستوطناتنا العربية المدينية تنمو وتتطور (سلبا وايجابا) بدون ان تستلهم او يلهمها المسؤلون أي من ابسط مبادىء مقومات تخطيط المدن واقاليمها • سواء نظر الى ذلك من زاوية أنظمة الشوارع ام طرز العمارة او طبيعة الوظائف التي تقدمها هذه المستوطنات (المدن) • مما ينعكس على قناعة مواطنيها وكفايتهم التي لايمكن القول الا بانها بعيدة عن ان تكون كذلك •

ثالثا : ماعدا بعض الحالات ، فقد نمت غالبية مدننا العربية الكبيرة وخاصة العاصمية منها في العقود القلائل الاخيرة بسرعة أقل ما يمكن ان توصف به هو كونها مذهلة • لقد تحولت هذه المدن الى صحارى من الكتل الكونكريتية والبنائية وبطريقة لا تتعدى كونها هوس تجميعي لاحياء تخلو من اغلب مقومات الاحياء العربية الاصيلة التي ارادها ورأى مايجب ان تكون عليه ابن خلدون •

---

٢ ــ دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الاول ، العدد الاول نقلها الى العربية محمد ثابت الفندي، احمد الشنتناوي، ابراهيم زكي خورشيد، عبدالحميد يونس ، ١٩٣٣ ص١٥٣

* الموسوعة العربية ، القاهرة ١٩٦٥ ص ١٤

* ساطع الحصري ، دراسات عن مقدمة بن خلدون ، بيروت ١٩٦٧ ص١٤

رابعا : لقد ولد هذا الهوس المعماري والتوسع اللاتخطيطي لمدننا مشاكل عديدة لم نلتفت لها في وقت نبه اليها ابن خلدون واستوعبها قبلنا بخمسة قرون ، مما يدل ان وضوح الرويا التخطيطية هي احدى مساهمات العرب في مجال التخطيط . اذ كيف نشكو من مشاكل عالجها ابن خلدون وحذرنا منها منذ اكثر من خمسمائة سنة خلت ؟ . كيف سمحنا لذلك ان يحدث وبدون الرجوع الى مدارسنا المعمارية التخطيطية ؟ .

ان النبؤات التي جاء بها ابن خلدون صدقت على اوضاعنا ، وستصدق على اوضاع مقبلة مما لايدع مجال للشك في ان تراثنا العلمي — وهنا تخطيطي — ليس صفحة مطوية نخجل منها . انه صفحة تحتاج الى فهم وقراءة بلغة معاصرة حينذاك سنجد فيها العديد من الحلول لما في مستوطناتنا التي تطورت باسم التخطيط ، ولكن واقعياً بسياسة اللاتخطيط . ان المشاكل التي رافقت هذا النمو الاوكروباتيكي — العشوائي لغالبية مدننا وخاصة في الفترة بعد الحرب العالمية الثانية وحتى نهاية الستينات هي مشاكل انخفاض وتدهور في الكفاءة الوظيفية وكفاءة الخدمات المقدمة من المدن الى جانب الانخفاض الواضح في جمالية مدننا هذه وكفائتها في التفاعل الصحي العضوي مع اقاليمها .

خامسا : لقد نمت هذه المشاكل بوتائر تفوق وتائر الحلول المقدمة ، وذلك ببساطة لاختفاء عنصر التخطيط الذي وضع العرب فيه مدرسة رائدة هي مدرسة ابن خلدون، والتي لم نلتفت لها أو نحاول ذلك لاننا وللاسف قد بهرنا في بهرجة المدنية الغربية ولم نفرق او نحاول بين تقليد الغرب (الفرنجة) والمدنية وبين الحضارة والتكنولوجيا . اننا لو حاولنا ذلك لاستطعنا اختياريين وقادرين على الاختيار سواء كان ذلك من تراثنا ام من منجزات الغرب .

سادسا : لقد فشلنا في ان نفهم المتغيرات التي تلعب في وتؤثر على مستوطناتنا في حين ان اجدادنا ــ ممثلين بابن خلدون في مجال التخطيط ــ قد وعوا ذلك مما يمثل أهم عنصر من عناصر نجاح التخطيط • نعم لقد تغافلنا في حين نجح ابن خلدون، كما لم ينجح قبله سوى ارسطوطاليس وافلاطون في معالجتهما بشكل او اخر لقضايا المدن • ان ذلك يدفعنا الى ان نعيد النظر في تراثنا لنتعرف على الحي الاصيل منه وفق معايير العصر مما يمكن استخدامه لخدمة مستقبل اجيالنا ولادة من الماضي ورعاية من الحاضر •

سابعا : لقد تعددت تعاريف أو مفاهيم المدينة في الوقت الحاضر مما خلق مدارس في ذلك اسهمت في تردي مستوطناتنا البشرية المدينية • وهو ماقد انغمرنا به نحن ايضا ، في حين ان العرب من خلال ابن خلدون قد استوعبوا المدينة وحددوا معناها وعلى اسس موضوعية تصلح ان تكون منطلقا لتخطيط سليم وواع • فهاكم ابن خلدون يستوعب المدينة بطريقة لم تستوعبها المجلدات المعاصرة • لقد استوعبت المدينة من قبله على انها انسان يسكن ويبني ويعمل ويتثقف ويمارس الادارة • ان ذلك يعني أنه قفز وبوعي الى النظرية المورفولوجية المعاصرة التي تؤمن بتزاوج الوظيفة بالشكل[٣] • ان اي عمل من اعمال ساكن المدينة بالنسبة لابن خلدون ماوى يؤويه • فهناك المسكن ومحل العمل ومحل قضاء الوقت • كما وهناك من هو مسؤول عن تنظيم وادارة ذلك • وهناك المجال الذي يتحرك فيه محور هذه الوظائف وهو الانسان ، وهذا المجال هو فضاءات الشوارع باشكالها ودرجاتها • اذن فهناك المورفولوجية التي لم يفهمها بعضنا حتى الوقت الحاضر •

---

٣ ــ M.R.G. Conzen, Alnwick, Northumberland, A Stuly in Twon plan Analysis, I.B.G. Publ 2nd Ed, 1969, pp. 7, 16, 38, 47, 100

اما في ذلك انجاز حضاري في المجال التخطيطي مابعده انجاز • ؟ ان لم نقره فهاكم احدث مدارس التخطيط المعاصرة في انكلترا والولايات المتحدة وفي شرق العالم حيث تنهمك اقسام التخطيط في اشهر جامعات هذه الاصقاع من دنيانا في بلورة مفهومة مما يخدم عملية التخطيط •

ثامنا : في الوقت الذي لم تفهم فيه العلاقة الجدلية بين وحدة الحضارة وهو الانسان ووحدتي الزمان والمكان مما يشكل كائنا حيا ، كائنا عضويا يمارس افعاله وردود افعاله لاي من المتغيرات التي تعمل داخله او في مايحيطه (الاقليم) فلقد تفهم ذلك ابن خلدون وعبر عنه في اوجز وادق واغرز الكلمات • لقد فهم المدنية على انها كائن حي قد ينمو ويزدهر أبدا وقد يتوقف عن النمو بل قد يموت • وها هي قصص تاريخ المــدن تحكي صدق نظرية العرب ، نظرية ابن خلدون في تخطيط المدن • ان اعتبار المدينة كائنا حيا بالنسبة للعديد من معاصرينا العرب يعتبر اقرب للكفر وتجاوز الواقع في حين ان الجواب لهؤلاء هو عند ابن خلدون الذي اوضح وبطريقة لــم يستفد منها الا الغرب ــ قبل هؤلاء ــ ذلك الجواب العلمي الذي استوعب المدينة على انها ذات ابعاد أفقية ورأسية ، يحدد العلاقة بينهما الانسان وحاجاته •

فالمدينة بالنسبة لابن خلدون اي للتخطيط المديني العربي فضاء (مساحة) وزمان وانسان • والانسان هنا فلسفته بما تحويه هذه الفلسفة من ســلب وايجاب ، انه بالنسبة للغة عصرنا المتفرنجة ستراتيجية التخطيط • اين منا عن فهم ذلك مما يخدم عملية التخطيط لمستوطناتنا بطريقة واعية تعي المتغيرات الوظيفية والبشرية التي اشار اليها ابن خلدون ،ومما يساعدنا على توجيه خبراء الغرب او الشرق الذين نستعين بهم ••

تاسعا : لم تتواجد في لغة الغرب التخطيطية مفردة السكون فهناك الداينمية العضوية Organic Dynamacity مما ادركها ابن خلدون قبل ان تفهم من مخططي الغرب ، الذين استوعبوها عن ابن خلدون ، ونحن اخذناها بدورنا عنهم !! اذ كيف بالنسبة للبعض الذي بهر بتكنولوجيا (وليس حضارة) الغرب ، كيف يكون العرب رواد نظرية وتطبيق ؟ نقول لهؤلاء بان لكم تراثكم ، فاستلهموا منه ٠ اذ من المخجل ان نشتري من الغرب بضاعة اشتروها او لربما سرقوها اثناء غفوتنا منا اصلا ؟ لماذا لانهل مما لنا ؟ ان لنا التراث الحي الذي لا علاقة له بالجمود ، وها هو ابن خلدون ومدرسته في مجال التخطيط الاستيطاني ــ الذي نحن بصدد دراسته ــ مدرسة ريادية نريد ان نستلهم منها نواة تزاوج فيها ماقد قطعته حضارة الانسان المعاصر في هذا الربع الاخير من قرننا العشرين في التخطيط المديني والاقليمي ، والذي بدأ خطواته في بعض الاقطار العربية كالعراق ، مع ماقد ورثناه من أصيل ٠ نريده تخطيطا عربيا ذا هوية تقف بين هويات التخطيط العالمي وكما ارادها ورآها ابن خلدون ٠

عاشرا : اننا اذ نؤكد على التراث في مجال التخطيط المديني والاقليمي كما راه ابن خلدون فلا ننكر ان بعضا مما جاء به يعتبر بديهيا او في حكم ذلك الان ٠ ما نريد الخروج منه هو ان نزن الامور بميزان عصر ابن خلدون حينذاك سنجد ان ابداعا عربيا قد تم ، ان مدرسة عربية تخطيطية قد تطورت في وقت كان حتى المشعوذين يسهمون في التخطيط المديني في الغرب لارضاء حكامهم ٠ ومن هنا فنملك الاساس ، نملك الارضية الصلبة التي يمكن تطويرها وزجها فيما استحدثته وفرضته ظروف العصر المعاصر ٠ لو فهمنا هذه البديهيات لتجنبنا الكثير من الاخطاء التخطيطية الساذجة التي وقعنا فيها والتي سيكلفنا تصحيحها الكثير ، مالا وجهدا وزمنا ٠

احدى عشر : ان مما شجع على علاج اسهام العرب في افق التخطيط المديني والاقليمي هو انشغال الغالبية ممن تناول ابن خلدون من جوانب اخرى • وفي وقت يمكن ان نفيد منه من جانب من تراثنا يمكن ان يسهم في علاج بيئاتنا الاستيطانية • وان هذا الجانب من تراثنا يمكن ان يخدم حاضرنا ومستقبلنا نظرية وتطبيقا • وكما نود ان نبرزه هنا في المدرسة التخطيطية العربية ومن خلال مدرسة ابن خلدون • وبالامكان اثراء الاصالـــة التخطيطية العربية مما يحدث في هذا المجال الان ، وبذلك اسهام في البناء التخطيطي ـ نظريا ـ وعمليا ـ على مستوى العالم •

اثني عشر : ان توقفنا قليلا من اجل اكتشاف صلاحية تراثنا لان يكون ابن العصر الحالي والمستقبلي في مجال التخطيط البيئي (مديني واقليمي) ، يدفعنا لان نستعرض المجالات التي اسهم فيها عربنا الاجداد ممثلين بابن خلدون • ان اسهامات العرب في المدرسة العالمية للتخطيط ستظهر في المجالات او الاوجه التالية مما سنحاول تفسيره ايجازا على ضوء اهميته لحياة مدننا والتخطيط لها ، بنفس الوقت الذي ندعو فيه الى ان تفتخر بشخص اضاف الى العالم مثل ابن خلدون ، والذي قدم ما يصلح ان يكون مجال دراسة نظرية وتطبيقية في مؤسساتنا العلمية التي تمارس التخطيط البيئي •

ان اهم الاوجه التي خطا فيها العرب او اسسوها ممثلة باضافات ابن خلدون ، هي :

١ ـ دراسة الموضع والموقع Site and Situation كاحدى خطـوات التخطيط الاساسية •

٢ ـ استيعاب البناء الوظيفي للمدينة Functional set-up حيث عالج في هذا الجانب التخصص الوظيفي لكل مستوطنة ولاجزاء المسـتوطنة الواحدة والعلاقة بين كل ذلك مماله اثر كبير في فهم بنية المدينة وطريقة عملها •

٣ ــ دراسة مراتب المدن (الهايراركي) Urban Hierarchy علـى اسس يمكن مقارنتها بالنظريات الحديثة وذلك بدافع الوصول الى فهم واع لاسباب تدرج اهمية هذه المدن وانماط توزيعها على معايير عدة منها الوظيفي والخدمي •

ان دراسة النقطة السابقة قدوضعت ابن خلدون على اعتاب مايعرف في قرننا هذا بالنظرية المركزية Central Place Theory التي تحاول تفسير أهمية المستوطنات وبالتالي انماط التوزيع لمراكز الاستيطان •

٤ ــ مورفولوجية المدينة Urban Morphology ومن خلال التعرض لهـذا الجانب الهام جدا من الدراسات المدينية فقد اوصل ابن خلـدون الدراسات المدينية العربية الى مستوى من التطور لم يبدأ العالم بالاهتمام به الا حديثا جدا • لقد اعطى ابن خلدون اهمية لدراسة فن العمارة Architecture اذ استعان بذلك لفهم موروفولوجية المدينة ومن خلال العلاقة العضوية بين الوظيفة والشكل Funtion and Form

٥ ــ المرافق والخـدمات Services and Utilities حيث اكـد على اهميتها كأهم عامل من عوامل جعل المستوطنة فضاء يليـق بالانسان والمجتمع •

٦ ــ البيئـة Environment لقد عالجت نظريات ابن خلدون التخطيطية وباهتمام موضوع البيئة واهمية ضمان حدا ادنى لصحيتها قبل ان تلتفت اليه الدول المتقدمة ومنظمات الامم المتحدة بمدة تزيد على ٥٧٠ سنة[٤] •

---

٤ ــ د . عبد اله موجود ، البيئة البشرية ، مجلة الجامعة ، (المركز الثقافي الاجتماعي في جامعة الموصل) العدد ٩ السنة ٧ ، ١٩٧٧ ص ٣٦ــ ٣٧
د . سعيد كنانة ، الابعاد العلمية للبيئة وتلوثها واختصاصها (نفس المجلة والعدد) ص ٣٨ ــ ٤٤

٧ ــ التميز بين القطاعين الخاص والعام Private and Public Activities
وهنا فقد توصل الى احدث نظريات التخطيط وهي الاهتمام باسهام المواطنين في عمليات التخطيط المختلفة •

٨ ــ الاهتمام بالجانب القانوني للتخطيط Planning Codes and Ordinances
لقد اكد ابن خلدون على ذلك لانه كان واعيا الى استحالة تطوير المستوطنة وبالصيغة المنشودة بدون ممارسة انواع التخطيط وبمستوياته وبضمان قانوني •

٩ ــ المدينة كائن حي City as an Organ من كل ماسبق وعلى ضوء المقومات السابقة للمدرسة الخلدونية التخطيطية تم التوصل الى اكتشاف حقيقة كون المركز الاستيطاني عبارة عن كائن حي يتفاعل مع العديد من المتغيرات داخل حدودها وضمن البعد الاقليمي الذي اكتشف اهميته ابن خلدون ايضا •

١٠ــ العلاقة بين المستوطنة والاقليم Settlement-Region Concept
لقد استوعب ابن خلدون هذا المفهوم والتي تتمثل في علاقة عضوية أزلية متبادلة التأثير بين المستوطنة واقليمها •

تمثل الجوانب السابقة اهم مقومات المدرسة التخطيطية العربية وأهم مجالات الريادة التي اسهمت والى حد بعيد في بلورة المفاهيم والنظريات الحديثة في حقول التخطيط المديني والاقليمي والقومي ممايشكل ركنا هاما من اركان حضارة الانسان المعاصرة •

سنستعرض الان كلا من المقومات السابقة محاولين ــ وبايجاز ــ ان نستوضح الابعاد التي توصل اليها العرب في ميدان التخطيط الطبيعي Physical Planning الذي يغطي كل ما يشمله التخطيط المديني والاقليمي والقومي •

١٠ ـ الموضع والموقع : Site and Situation

ان الاهمية التي اعطاها ابن خلدون لفهم هذين المتغيرين اللذين غالبا مايحددان درجة صحية ونجاح المستوطنة في الديمومة لتقديم خدماتها لساكنيها وساكني اقاليمها تجعلنا نستعرض مايجري في عالمنا المعاصر عندما يراد انشاء مستوطنة جديدة ،اذ تبذل الجهود والاموال والزمن من اجل المسح والدراسة لايجاد المكان المناسب الذي يتمتع بمقومات النجاح للمستوطنة المرادة . هذا في وقت قد توصل فيه ابن خلدون الى ذلك منذ القرن الرابع عشر . لقد ميز ابن خلدون بين الموضع والموقع . فالموضع هو الذي يمثل المكان الذي تغطيه (تشغله) المدينة او المستوطنة فعلا والذي يشمل كل الخصائص الطبيعية لذلك المكان . اما الموقع ، فهو الذي يمثل مكان المدينة (موضعها) بالنسبة لما يحيطها من مساحة تتفاعل معها بشكل او اخر (مباشرة او غير مباشرة) . لقد رسم ابن خلدون بذلك العلاقات المكانية بين وحدات المساحة ودرجة مكانة هذه العلاقات على ضوء ميزات الموضع والموقع وعوامل الجذب والطرد Push and Pull بين وحدات المساحة تلك .

ويمكن ملاحظة اهمية اعتبارات الموضع عند ابن خلدون من قوله :

« وان يكون وضع ذلك في متمنع من الامكنة اما على هضبة متوعرة من الجبل واما باستدارة بحر او نهر بها حتى لاوصل اليها الا بعد العبور على جسر او قنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها »(٥) .

لقد شخص ابن خلدون في مقولته اعلاه مانراه اليوم واضحا في العشرات من المدن التاريخية وفي مختلف انحاء الدنيا .

ويظهر ايضا اهتمام ابن خلدون في الموضع والموقع عندما اكد على ضرورة وجود مقومات الحياة للانسان والحيوان وهي الماء وغيرها من الثروات الطبيعية حين يقول :

---

٥ ـ مقدمة العلامة ابن خلدون ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، غير مؤرخة ص ٣٤٧ .

« وقد يكون الواضع غافلا عن حسن الاختيار الطبيعي او انما يراعي ماهو اهم على نفسه وقومه ولايذكر حاجة غيرهم كما فعله العرب لاول الاسلام في المدن التي اختطوها بالعراق وافريقية فانهم لم يراعوا فيها الا الاهم عندهم من مراعي الابل وما يصلح لها من الشجر والماء والملح ولم يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعي السائمة من ذوات الظلف ولا غير ذلـــك كالقيروان والكوفة والبصرة وامثالها ، ولهذا كانت اقرب الى الخراب مالم تراع فيها الامور الطبيعية »[٦] .

لقد لعب جانب الموقع الستراتيجي واهميته في الدفاع عن المدن دورا كبيرا في تفكير ابن خلدون منطلقا من فهمه لطبيعة تطور تكنولوجيا الحرب وقتذاك .لذلك فقد اكد ان تتصف مواضع ومواقع المدن ـ سواء برية كانت ام بحرية ـ (الساحلية) بمواصفات معينة لكيما يسهل الدفاع عنها وتزداد منعه امام الاعداء . فبالنسبة لمواضع المدن البرية (الداخلية) فيرى ضرورة تحصينها لكي تزيد من امكانيات الدفاع التي يوفرها لها موضعها ، وبهذا الخصوص فيقول :

« فيعتصم بذلك المصر ويغالبهم مغالبة المصر على نهاية من الصعوبـة والمشقة ،والمصر يقوم مقام العساكر المتعددة ، لمافيه من الامتناع ونكاية الحرب من وراء الجدران ، من غير حاجة الى كثير عدد ولاعظيم شوكة .... فان وجود الحصون يفت في عضد الامة التي تروم الاستيلاء على المدينة ويخضد شوكة استيلائها »[٧] .

---

٦ ـ المقدمـة ص ٣٤٩ .

٧ ـ المقدمةص ٣٤٤

ومصداقا لاهمية جانب التحصين فيمكن ان نستعرض الادوار التي لعبتها اسوار بغداد ودمشق وتونس ونيوكاسل والمدن الصينية المسورة ولنينغراد ، وغيرها من المدن في مجال الدفاع ، تظهر اهمية الاسوار الدفاعية وبالتالي اهميتها المعمارية في مختلف مراحل تطور المدن وخاصة في فترتي القرون الوسطى وعهد النهضة .

اما بالنسبة لمراكز الاستيطان الساحلية فقد شخص ابن خلدون اهمية تحصينها باختيار الموضع والموقع المناسبين وكذلك بتحصينها مما يوفر لها فرص الدفاع والحماية لكيما تستمر في تأدية الوظائف التي نشئت من اجلها لقد اخذ بذلك في العديد من الامثلة و في مختلف انحاء الدنيا مما يظهر وضوح الرؤيا في هذا الميدان التخطيطي للمدرسة العربية ، ويقول في هذا المجال :

« ان المدينة اذا كانت حاضرة البحر ولم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصبيات ولا وضعها متوعر من الجبل كانت في غرة للبيات وسهل طروقها في الاساطيل البحرية على عدوها وتحينه لها لما يأمن من وجود الصريخ لها وان الحضر المتعودين للدعة قد صاروا عيالا وخرجوا عن حكم المقابلة وهذه كالاسكندرية من المشرق وطرابلس من المغرب وبونه وسلا ، ومتى كانت القبائل والعصائب موطنين بقربها بحيث يبلغهم الصريخ والنعير وكانت متوعرة المسالك على من يرومها باختطاطها في هضبات الجبال وعلى اسنمتها كان لها بذلك منعة من العدو ويئسوا من طروقها لما يكابدوه من وعرها وما يتوقعونه من اجابة صريخها كما في سبته وبجاية وبلد القل على صغرها »[٨] .

لقد ربط ابن خلدون بين الموضع وميزاته الدفاعية بالنسبة للمستوطنة وبين اقليمها السكاني المعمور Ecumene حيث قد اعطى اهمية لعدد سكان الاقليم المحيط بالمستوطنة فهناك علاقة ايجابية بين هذا العدد والموضع من ناحية وبين امكانية الدفاع . لقد قال ابن خلدون في هذا المجال :

---

٨ ـ المقدمة ص ٣٤٩

« ومما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر ان تكون في جبل أو تكون بين أمةمن الامم موفورة العدد تكون صريخا للمدينة متى طرقها طارق من العدو[٩] » •

ان استعراض توزيع المستوطنات البشرية المدينية في شتى انحاء العالم يظهر لنا كم كان صائبا ابن خلدون في وضعه لمواصفات الموضع والموقع الملائمين ، وكم من مدن قد تدهورت أو اضمحلت جراء عدم الاخذ بما اورده ابن خلدون • ان اختطاط المدن الجديدة مثل كانبيرا وبرازيليا تظهر لنا فاعلية وعملية المدرسة العربية التخطيطية في مجال اختيار الموضع والموقع كاحدى اهم المنطلقات السليمة للتخطيط السليم •

البناء الوظيفي : Functional Structure

تعني وظيفة مراكز الاستيطان البشرية بالنسبة لابن خلدون الكفاءة ، اذ بدون كفاءة فسوف لن تتحقق الحياة السليمة المريحة لسكان هذه المستوطنات وسكان اقاليمها • وتطوير الكفاءة الوظيفية هنا يتم عن طريق التخطيط لحماية المدن من اي نوع من الاضرار سواء كانت هذه الاضرار بشرية نتيجة للهجوم أو بيئية جراء استشراء وباء معين • أما الطريق الثانية فهو من خلال توفير الخدمات والمنافع الضرورية لها والتي بدونها سوف لن تعمل المدينة بشكل سليم • ويقول بهذا الخصوص :

« اعلم انالمدن قرار تتخذه الامم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه ••• وينتقل الى ولما كان ذلك القرار والمأوى وجب ان يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها ، فاما الحماية من المضار فيراعى لها ان يدار على منازلها جميعا[١٠] » الى جانب هذا وكما سنرى بعد قليل فانه يكاد ان يتحسس ماستؤول اليه المستوطنات البشرية من جراء الخلط الوظيفي غير الصحي واختفاء الخدمات التي ستزيد من هبوط نوعي في وظائف المدن مما سينعكس على قناعة وراحة الساكنين •

---

٩ ــ المقدمة ص ٣٤٧

١٠ــ المقدمة ص٣٤٧ــ٣٤٩

لقد قصد ابن خلدون في مقولته هذه ما يسمى حاليا بالتخصص المكاني ولم يظهر اي نوع من الاجراءات القانونية لضمان مثل ذلك في دنيانا المعاصرة قبل نهاية القرن التاسع عشر في اوربا وبعد ذلك بعقدين من الزمان في الولايات المتحدة الامريكية [١١] . ان تجاهل توجيهات ابن خلدون التخطيطية في هذا المجال قد اساء للعديد من المدن مثل الكويت وبغداد الى حد قريب وبيروت والقاهرة ودلهي والعديد من المدن الصناعية في شمال غرب اوربا .

لقد خصص ابن خلدون فصلا كاملا من مقدمته لهذا الموضوع الهام وهو الفصل الذي أسماه « فصل فيما يجب مراعاته في اوضاع المدن وما يحدث اذا اغفل عن المراعاة » وهو الفصل الخامس من الباب الرابع من المقدمة .

ورغم اكتشافه لحقيقة واهمية التخصص الوظيفي Functional specialization وكذلك لوحدة المساحة داخل المدينة وهو ما يعرف الان بالتنطيق الوظيفي Functional Zoning فانه قد ميز بين المدن على اساس وظيفي اي بالرغم من ادراكه لان اي من المستوطنات البشرية انما تقدم اكثر من وظيفة بآن واحد فانه بالامكان ايجاد نوع من التخصص لكل من هذه المدن وذلك بالاستناد على كمية وكيفية الممارسة الانتاجية او الخدمية التي تقدمها كل مستوطنة وبالتالي المساحة التي تخدمها بغض النظر عن انتماء هذه المساحة المكاني اقليميا ام قطريا اوقوميا ام حتى عالميا . واكثر من ذلك فقد ميز ابن خلدون بين الوظائف التي تقدمها بشكل طبيعي اي وهي مؤهلة لها نتيجة لتوفر عوامل نجاح تقديم هذه الوظائف ، وبين تلك الوظائف التي تفرض على بعض المدن والتي ما ان تنتهي الظروف التي ساعدت على ظهورها حتى تتلاشى تلك الوظائف وهو مايؤدي لاشك الى تدهور واحيانا حتى فناء تلك المدن التي زال سبب انعاشها ووجودها . هذا مقارنة مع المدن ذات

١١ـ Jon. D.M. Boeck, the Functions of urban Areas. The professional Geographer, 6. 1953; pp. 2-5; F-S. Chapin Urban landuse Planning, New York 1957.

الوظائف المستندة على عوامل ثابتة وطبيعية مما يؤهلها لان تدوم فترة اطول . وفي هذا المجال يقول ابن خلدون :

« الدولة اذا اختلت وانتقضت فان المصر الذي يكون كرسيا لسلطانها ينتقض عمرانه وربما ينتهي انتقاضه الى الخراب[١٢] » .

ويفسر ابن خلدون ذلك اكثر في اقوال اخرى يشير فيها الى انه ما ان تزال ـ لسبب او اخر ـ مراكز الحكم من مدينة ما حتى يغزو التدهور عمرانها جراء التشتت والاضمحلال لوظائفها لان الحاكم الجديد غالبا ما لا يبقي من المقومات السابقة التي كانت مرتبطة بالحاكم السابق . وقد يصل ذلك الى تشريد معاني السلطة السابقة سواء كان ذلك تهديدا أم ترغيباً ، وذلك اطمئنانا من السلطة الجديدة الى ان الامور باتت مأمونة وكما يريدون ، وبهذا يقول ابن خلدون :

« بعضهم على نوع التغريب والحبس ، وبعضهم على نوع الكرامة والتلطف بحيث لا تؤدى الى النفرة حتى لا يبقى في المصر الكرسي الا الباعة من اهل الفلح والعيارة وسواد العامة[١٣] » .

وعند معالجته للبناء الوظيفي للمدينة ، نجده يبرز اهمية بعض هذه الوظائف على غيرها ، وذلك لفاعلية تلك الوظائف خلال الفترة التي عاشها ومن جملة الوظائف هاتيك ، كانت الوظائف الادارية والدينية والتجارية والدفاعية . فتظهر اهمية الوظيفة الادارية في انعاش او تدهور المدينة من المقولتين السابقتين ، الا ان ابن خلدون يعود فيقول بانه ما ان تعود السلطة المركزية الى مدينة ما حتى وان تبدلت تلك السلطة إلاو تبدأ المدينة انتعاشها من جديد من خلال تقديم هذه الوظيفة المركزية التي قد تتجاوز منطقة تأثيرها Area of Influence حدود البلد الذي تقوده تلك المدينة .. لقد شخص اهمية الجانب الوظيفي على الجانب العمراني للمدينة ، وبذلك يقول :

١٢ـ المقدمة ص ٣٧٤

١٣ـ المقدمة ص ٣٧٥ـ ٣٧٦

« ربما ينزل المدينة بعد انقراض مختطيها الاولين، ملك آخر ، ودولة ثانية يتخذها قرارا وكرسيا ، يستغنى بها عن اختطاط مدينة ينزل بها • فتحتفظ تلك الدولة سياجها ، وتتزايد مبانيها ومصانعها بتزايد اموال الدولة الثانية وترفها وتستجد عمرا اخر [١٤] » •

وقد ضرب مثلا مدينتي فاس بالمغرب العربي والقاهرة حيث عايشهما ابن خلدون واستوعب مقوماتهما تبعا لذلك •

اما الوظيفة الدينية فلم يهملها ابن خلدون في مدرسته التخطيطية • ولقد كان ذلك من خلال استيعابه للاهمية المزدوجة للجانب الديني في المستوطنات البشرية • فهي وظيفة هامة تستقطب وظائف اخرى مثل الوظيفة السكنية والتجارية والخدمات مما يدفع الى ازدهار المدينة الى جانب كون المنشآت التي تمارس منها الوظيفة الدينية تعتبر مظاهر ذات قيمة روحية وعمارية تتجاوز المرحلة التي ظهرت فيها • فالمنشآت الدينية بالنسبة للمدينة الملجأ الروحي لا ي من سكان المدينة واقليمها مما يوفر مجال ممارسة الرياضة الروحية والنفسية التي تخلق انعاشا جديدا تدفع الساكن الى ممارسة حياته الاجتماعية بعد ذلك بصفاء ذهني ووضوح رؤيا • لقد استوعب ابن خلدون ذلك في وقت نرى فيه غالب مخططينا ـ في الوطن العربي ـ او من قفز الى مثل هذا الموقع يتجاهلون وبشكل اقرب الى السذاجة اهمية مثل هذه المنشآت كأحدى محاور تخطيط المدن او الاحياء العربية سواء من ناحية وظيفية (اجتماعية ـ اقتصادية) أم ناحية عمارية ام من ناحية حضارية لابد من ملاحظتها اذا ماأردنا لهويتنا العمارية العربية نوعا من الاصاله التي باتت مهددة تحت هوس وضغط ما هو طارىء على التخطيط وباسمه •

١٤ـ المقدمة ص ٣٤٣

لقد اهملت في غالبية الحالات اهمية العلاقة العضوية الصحية بين وحدات التخطيط الدينية ـ على اشكالها ـ وبين الوحدات التخطيطية التي تكون المدينة . وان ذلك قد جعل الكثير من الاحياء الحديثة او حتى المدن المنشأة في قرننا هذا اقرب الى المعسكرات التي تفتقر الى الملاجىء الروحية ـ الدينية . وقد اسهم هذا الى حد بعيد في درجة القبح والبعد عن الجمال الذي نراه في مدننا التاريخية أو الاجزاء المتبقية منها ، مما قد اشار اليه واستوعبه ابن خلدون والذي بدأت بعض مدارس التخطيط والعمارة المعاصرة بالتنبيه له والدعوة الى عدم تجاهله . لقد قال ابن خلدون استيعابا منه لاهمية الوظيفة الدينية :

« اعلم ان الله سبحانه وتعالى فضل من الارض بقاعا اختصها بتشريفه وجعلها مواطن لعبادته يضاعف فيها الثواب وينمو فيها الاجور » ، واستمر في قوله يوضح فيها ان المساجد الثلاثة « مكة والمدينة وبيت المقدس »[١٥] هي افضل بقاع الارض ، حيث قال :

« فهذه المساجد الثلاث قرة عين المسلمين ومهوى افئدتهم وعظمة دينهم[١٦] » .

من ذلك نرى الربط العضوي بين عظمة الامة واهمية مراكز الديانة وكذلك الاهمية الروحية ليس لسكان المدينة بل لسكان كل اقليم وهم ابناء الامة جميعا . وبالنسبة للوظيفة التجارية للمدينة فقد اكد عليها ابن خلدون من خلال تأكيده على ضرورة وجود اقليم تابع للمدينة تتوفر فيه او ينتج الاقوات التي يسهل ايصالها وتسويقها في المدينة . وكأنه بذلك يشير الى ان تخصص المدينة بخدمات ووظائف معينة يقابلها تخصص الاقليم بوظائف اخرى تفرض التبادل وتنمي التجارة . كما وقد اعطى للبحار اهمية معينة كوسيلة ربط

١٥ـ المقدمة ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠

١٦ـ المقدمة ص ٣٥٠

تجارية وليس فصل مما يوضح انه في حالات عدة تكون المدينة مركزا للتبادل التجاري ليس في حدود الاقليم الضيق بل على نطاق عالمي • فيقول في هذا المجال :

« فان الزروع هي الاقوات ، فاذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك اسهل في اتخاذه واقرب في تحصيله[١٧] » ، كما يقول : « وقد يراعى ايضا قرب المدينة من البحر ، لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد النائية ، الا ان ذلك ليس بمثابة الاول[١٨] » •

كما ولم يهمل الوظيفة الدفاعية للمدينة ، وقد ناقشنا ذلك عند الكلام عن الموضع والموقع •

لقدربط ابن خلدون تعدد الاسواق وسعتها داخل المدينة بحجم المدينة الذي يحكي هو الاخر قوة واستقرار ورفاه الدولة كما يحكي قصة سعة اقليم المدينة • وعندما يذكر تعدد الاسواق فانه ينقلنا الى نظرية التركيب التجاري المعاصرة التي طورت في الغرب حاليا[١٩] • ان تعدد الاسواق لاشك سيخلق نوعا من نظام المراتب التجارية Commercial Hierarchy الذي اصبح الان انجازا لدى البعض في حين أن ابن خلدون قد قدمه لنا قبل ستة قرون كأرث نظري وتطبيقي عربي ، فها هو يقول :

« وان كان امد الدولة طويلا ومدتها منقسمة فلا تزال المصانع فيها تشاد والمنازل الرحبة تكثر وتتعدد ، ونطاق الاسواق يتباعد وينفسح الى ان تتسع الخطة وتبعد المسافة وينفسح ذرع المساحة[٢٠] » •

١٧ـ المقدمة ص ٣٤٨

١٨ـ المقدمة ص٣٤٨ـ٣٤٩

١٩ـ M.J. Prodfort, City Retails Structure, Economic Geography 13, 1937, pp. 428—435.

G.M. Ahmed, The Retails Structure and Function of Baghded, Iraqi Geographical Journal 3, 1965, pp. 1-23.

٢٠ـ المقدمة ص ٣٤٣

٣ ـ دراسة مراتب المدن : Urban Hierarchy (Central Place Theory)

لقد عالج ابن خلدون جوانب من هذه النظرية عندما تكلم عن مراكز الاستيطان وبعثرتها مؤكدا على اهمية التركيز والتخصص الوظيفي لكل منها متمثلا او مترجما الى احجام هذه المراكز • لقد ميز بين المستوطنات القاصية (المتطرفه) وتلك المتوسطة (المركزية) واعطى الاخيرة الاهمية الكبرى بحكم خدمتها لاقليم اوسع مما جعل النوع الاول من المستوطنات تعتمد وباكثر من صيغة على المدن المركزية وان هذا النوع من التبعثر يحدده درجة التخصص التي اشار اليها ابن خلدون ووسائل النقل ونوع الطوبوغرافية السائدة •

لقد استوعب حقيقة كون المدن العاصمية هي اكثر مراكز الاستيطان «تعملقاً» • ان كون المدينة عاصمة يعني انها مقعد الحكم ، أي انها تمثل قمة الادارة الذي تتجاذب معه ونحوه الوظائف الاخرى ، وان هذا التجاذب الوظيفي يزداد كلما ازدادت مركزية الحكم • وينعكس هذا التجاذب على حجم المدينة وطرز عمارتها وزيادة اهميتها مقارنة مع تلك المدن او المستوطنات الاقل تخصصا ، والتي تحتل مواقع « قاصية » أي متطرفة مما يحدد منطقة خدماتها Service Area وبالتالي يقزم من حجمها • ان هذا التسلسل او الترتيب في الاهمية يدل على شمولية نظرة ابن خلدون والتي لم تستوعب الا بعد الربع الاول من قرننا هذا في بعض دول اوربا وان كان قد وردت بعض الاشارات حوله قبل ذلك •

لقد اشار ابن خلدون الى بعثرة مراكز الاستيطان الريفية الواضح مقارنة مع المراكز الاستيطانية المدينية التي تتصف بالتمركز عادة او بدرجة معينة من المركزية Centrality ، وبهذا المفهوم وحوله يقول :

« ولهذا تجد الامصار التي في القاصية ولو كانت موفورة العمران تغلب عليها احوال البداوة وتبعد عن الحضارة في جميع مذاهبها بخلاف المدن المتوسطة في الاقطار التي هي مركز الدولة ومقرها ، وما ذلك الا لمجاورة

السلطان لهم وفيض امواله فيهم كالماء يختر ماقرب منه فما قرب من الارض الى ان ينتهي الى الجفوف على البعد[٢١] »

ان الماء هنا ومسالك تسربه تمثل طرق المواصلات التي هي شرايين الحياة الوظيفية بالنسبة لمراكز الاستيطان. ان اعلى تجمع لهذه المواصلات يحدد اعلى درجة للوصول Ease of Accessibility وهو ما يحدث في العاصمة التي تمثل الماء في مجاز ابن خلدون ، في حين تمثل المراكز الثانية مناطق تقل فيها او تصعب فيها ، واليها درجة الوصول مما يسهم في تحديد حجمها . يحدد عاملا المواصلات وتركز الوظائف احجام المدن وهو مااستطاع ان يراه ابن خلدون سابقا غيره بقرون تقرب من الست . ولكننا للاسف قد اهملنا في اكثر من جزء في وطننا العربي عندما خططنا او حاولنا ان نخطط على مستوى القطر أو اقاليمه وهو الذي التفت اليه الغرب حيث تطورت اكثر من نظرية معاصرة نستوردها الان لنعالج بعض مانحن فيه في مجال التخطيط الاقليمي .

لقد ربط ابن خلدون ــ كما قلنا ــ بين استقرار الحكم ومدة هذا الاستقرار وامكانياته المالية بنوع المراكز الاستيطانية وماتقدمه من وظائف تعيش في وحدات بنائية مختلفة . لقد استطاع ابن خلدون ، اعتمادا على نظرية المراتب المدينية هذه ان يفسر ظاهرة تكتل المدن او ما يمكن تسميته Urban Agglomeration حاليا . وقد اخذ مدينة بغداد مثالا لذلك زمن العصر العباسي الذهبي حيث قد اعتبرها افضل مدن عصرها واهمها وظيفة مما جعلها اوسعها عمرانا نتيجة لذلك . ان المحيط والتفاعل بين الوظيفة والشكل والحجم قد شخص من قبل ابن خدون وبطريقة علمية عملية

٢١ــ المقدمة ص ٣٦٩

Walter Christaller, Central Place in Southern Germany, translated from Germany by Carlisle W. Baskin, London 1966, F.H. Green, Notes on the Hierarchy of Central Places and their Hinterlands, Economic Georg. 34, 1958. pp. 210—220.

بسيطة عجزنا نحن عن استيعابها قبل النصف الثاني من قرننا الحالي • انه حين يتكلم عن ذلك يشعرنا بانه قد سبق لويس مفورد L. Mamford عندما يتكلم عن مدن طوكيو والقاهرة وشيكاغو • ولندع ابن خلدون يحكي لنا قصة مراتب المدن وعلاقة ذلك بالتحجيم :

« وان كان امد الدولة طويلا ومدتها منفسحة ، فلا تزال المصانع فيها تشاد والمنازل الرحيبة تكثر وتتعدد ، ونطاق الاسواق يتباعد وينفسح الى ان تتسع الخطة وتبعد المسافة وينفسح ذرع المساحة كماوقع ببغداد وامثالها •

•••• وكانت مشتملة على مدن وامصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الاربعين ولم تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد لافراط العمران[٢٢] » •

ان كل ذلك يدل على ان ابن خلدون قد اسهم في تطوير اكثر من نظرية تخطيطية وضمن شمولية لم نرها حتى الان الا في حالات معدودات من تجارب بعض المدن في العالم •

٤ ـ مورفولوجية المدينـة Urban Morphology

من قرائتنا واستيعابنا لما قاله ابن خلدون سنرى اي بعد نظري وعملي وصلته المدرسة العربية التخطيطية • لقد اوجد ابن خلدون مقومات النظرية المورفولوجية التي تؤمن بتزاوج الانسان ووحدة الفضاء (مبنية ومكشوفة) وبين الوظائف المقدمة هذه النظرية التي لازالت تمر في اطوار النضوج[٢٣] • اننا بالرجوع الى ما خلفه لنا ابن خلدون سنجد كم نحن مقصرين بحق تراثنا « الحي » ان ماجاء به ابن خلدون هنا هو تراث يشق طريق الزمن المستقبل

٢٢ـ المقدمة ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠

٢٣ـ Sen-Dou Chang, Some Observations on the Morphology of Chinese walled cities, Annals of the Assoc. of Amer. Geogrs. 60, 1, 1970 pp. 63-91

H. Carter, Aberystwyth, the Modern Development of a Medieval Castle Town in Wales, T.I.B. G. 1958 pp.239—253.

مستوعبا لكل ما سيتمخض عنه هذا المستقبل في مجال بناء المدن وتطورها عضويا لقد قال ابن خلدون :

« واذا تراجع عمرانها وخف سكانها .... قلت الصنائع لاجل ذلك وفقدت الاجادة في البناء والاحكام والمغالاة عليه بالتنميق ، ثم تقل الاعمال لعدم الساكن فيقل جلب الالات (ويقصد بالالات هنا المواد الاولية للبناء) . من الحجر والرخام وغيرهما فتفقد ويصير بناؤهم وتشييدهم من الالات التي في مبانيهم ، فينقلونها من مصنع الى مصنع (المصنع هنا بناء) لاجل خلاء اكثر المصانع والقصور والمنازل بقلةالعمران وقصوره عما كان اولا . ثم لاتزال تنقل من قصر الى قصر ، ومن دار الى دار ، الى ان يفقد الكثير منها جملة فيعودون الى البداوة في البناء واتخاذ الطوب عوضا عن الحجارة والقصور عن التخمين بالكلية فيعود بناء المدينة مثل بناء القرى والمدر ، وتظهر عليها سيماء البداوة[٢٤] » .

لقد ربط ابن خلدون بين الوظيفة والشكل بصورة واضحة جدا مما يدل على فهمه للعلاقة الجدلية بين الاثنين في وقت لم نبدأ ـ نحن الان ـ في استيعابه بالشكل المراد في جامعاتنا . ان قلة السكان ـ لاشك ـ ستؤدي الى هبوط في الاهمية الوظيفية للمستوطنة مما يؤدي بدوره الى انحسار الهجرة نحو مثل هذه المستوطنة مما ينعكس على الوحدات العمارية التي ستتدهور مستوى وانجازا ، وان هذا الوضع سيعمل على الحؤول دون استيراد مواد البناء العالية النوعية سواء من الاقليم المجاور أو البعيد ، وهو ما سيضطر الناس المتناقصين الى تهديم الوحدات العمارية مهما كانت قيمتها التراثية التي (لايعوها) لاخذ مواد بنائها واقامة ابنية اخرى وهكذا الى ان تتحول المستوطنة المدينية الى مستوطنة ريفية تحتضن سكانا ابتعدوا في تخصصاتهم عن الحياة الحضرية التي كانت تسود وقت كانت المستوطنة ذات طابع مديني.

٢٤ـ المقدمة ص ٣٥٩ـ٣٦٠.

يظهر فهم العلاقة بين الوظيفة والشكل في اماكن اخرى من مدرسة ابن خلدون التخطيطية فهاكموه يقول :

« وتتوجه الى اتخاذ المنازل للقرار ولما كان ذلك القرار والمأوى يجب ان يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها ، فاما الحماية من المضار فيراعى ان يدار على منازلها جميعا سياج الاسوار[٢٥] » •

لقد توصل ابن خلدون بهذه الاسس وبما عالجه في موضوع الموضع والموقع والوظيفة الدفاعية للمدينة والتي ناقشناها قبلا ، توصل الى بعد نظري تخطيطي (تطبيقي) بالغ الاهمية في النظرية المورفولوجية • ان اهمية الدفاع ــ كوظيفة ــ تستلزم نوعا من البناء الذي لابد وان يحاط باسوار بالنسبة للبيوت ، وكذلك الحال بالنسبة للمدينة ككل ، والتي ينبغي ان تزيد تحصين مواضعها باسوار كبيرة ، ان ذلك سيؤدي ــ لا شك ــ الى طبع المدينة بطابع خاص يميزها عن المدن الاخرى سواء اخذت الوحدات المورفولوجية الصغيرة كالبيوت مثلا ام اخذت المدينة ككل متكامل • وانه اذ ذكر مثل هذا المثال فان ذلك ينسحب ــ لاريب ــ على وظائف اخرى تؤثر على طراز العمارة وصيغ البناء والتخطيط بطريقة او طرق مختلفة لما يخدم غرض تأدية تلك الوظائف بصورة افضل •

لاتكتمل النظرية المورفولوجية او على الاقل حد ادنى من استيعابها بدون التطرق الى طرز العمارة وفنون البناء التي تعكس امكانية الدولة والمدينة ودرجة انتاجية ابنائها الذي غالبا ما لا يتحقق الا عندما تتوفر قوة مركزية موجهة وهو ما فهمه واشار اليه ابن خلدون • كذلك فان الانجاز العماري الكبير لابد وان يكون وراءه قابلية هندسية معمارية متطورة • كل ذلك عوامل يمكن توفرها اذا ماكانت انتاجية المراكز الاستيطانية ووظائفها التي تخدم فيها اقاليمها تبرر ذلك •

٢٥ـ المقدمة ص ٣٤٧

واذا كانت الامكانية والقدرة الادارية والمالية والتطور الحضاري كبيرا الى درجة يبرر ويفسر انعكاسها على فنون البناء ودرجة غطرسته وتعاليه ، لذلك ومرة ثانية فقد تم ربط الوظيفة بالشكل مما يعطي بالتالي اللــــون المورفولوجي النهائي للمدينة • يقول ابن خلدون :

« ان تشييد المدن انما يحصل باجتماع الفعلة وكثرتهم وتعاونهم ، فاذا كانت الدولة عظيمة متسعة المماليك حشر الفعلة من اقطارها وجمعت ايديهم على عملها وربما استعين في ذلك في اكثر الامر بالهندام الذي يضاعف القوى والقدر في حمل اثقال البناء لعجز القوة البشرية وضعفها عن ذلك كالمخال وغيره وربما يتوهم كثيرمن الناس اذا نظر الى اثار الاقدمين ومصانعهم العظيمة مثل ايوان كسرى واهرام مصر وحنايا المعلقة وشرشال بالمغرب ، انما كانت تقدرهم متفوقين او مجتمعين فيتخيل لهم اجساما تناسب ذلك اعظم من هذه بكثير في طولها وقدرها لتتناسب بينها وبين القدر التي صدرت تلك المباني عنها ويغفل عن شأن الهندام والمخال وما اقتضته في ذلك الصناعة الهندسية[٢٦] »*

الى جانب ذلك فقد قال ابن خلدون اكثر من ذلك حول الفن المعماري والتمييز بين « الغث والسمين » رابطا ذلك بنوع الوظائف التي يراد من كل بناء ان يقدمها ، كما وربط ذلك بقوة الدولة او المستوطنة اداريا وماليا وبنوع المشرفين على البناء ممن له علاقة بهندسة البناء وبذلك فقد فسر لنا ابـــن خلدون مانراه اليوم في مستوطناتنا البشرية من تباين في البناء بين القبيح جدا والمقبول ، وذلك على ضوء نوع المعمار ، فقد صنف المعمار كما يلي :

« واهل هذه الصناعة (اي العمارة والبناء) القائمون عليها متفاوتون فمنهم البصير الماهر ومنهم القاصر [٢٧] » •

٢٦ـ المقدمة ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥

٢٧ـ د/سابا جورج شبر ، العلم وتنظيم المدن العربية، الكويت ١٩٦٣ ص٧٢

* وقد يكون من المناسب الاشارة هنا الى انه لم يعرف اسلوب وتكنيك بناء العديد من الابنية العامة ، كالاهرامات مثلا .

وللاسف فغالبية ما انجز من عمارات في مدن عربية مثل الدار البيضاء وبغداد والكويت وعمان لايدل على ان من قام بها وصممها او بالاحرى نقلها كان من النوع البصير الماهر الذي اشار اليه ابن خلدون ، ان لذلك اثره على المورووفولوجية النهائية للمستوطنة • لقد تكلم ابن خلدون اكثر عن العمارة او البناء وضرورة استيعابها للبيئة التي تتواجد فيها • وحين يقول البيئة فيقصد ابن خلدون البيئة الاجتماعية والطبيعية من مناخ وطوبوغرافية الخ •• مما تجاهله كل الخبراء الاجانب تقريبا الذين وضعوا تصاميم اساسية لمدننا مثل الكويت (مينوبريو) وبعض مدن السعودية (ماثيو ز) وبغداد (مينوبريو ودوكسيادس) وتعز (لويس بركر وكمبساكس) الخ ••• كما تجاهله او فشل ان يستوعبه ـ للاسف كل الاسف ـ نسبة عالية من مهندسينا المعماريين والمدنيين الذين هم الاخرون قد اسهموا في تشويه معالم بيئاتنا المدينية وظيفيا وجماليا • يقول ابن خلدون مقدما درسا رائعا وغنيا في اصول البناء ومستلزماته :

« هذه الصناعة (اي البناء)أول صنائع العمران الحضري واقدمها وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للسكن والمأوى للابدان في المدن وذلك ان الانسان لما جبل عليه من الفكر في عواقب احواله لابد ان يفكر فيما يدفع عنه الاذى من الحر والبرد » كما ويقول : « كل مدينة على مايتعارفون ويصطلحون عليه ويناسب مزاج هوائهم واختلاف احوالهم في الغنى والفقر[٢٨] » •

لقد رسم لنا ابن خلدون في مدرسته التخطيطية هذه معالم طريق سليمة لمعالجة مشاكلنا الاسكانية (السكنية) واهتم اكثر ما اهتم ـ كما راينا ـ في جوانب الكفاءة الوظيفية ممثلة بانجاز البناء ومنظوره الجمالي المستند على حد اعلى من الفهم والاستيعاب للمتغيرات المؤثرة في البيئة السائدة ، سواء كانت تلك المتغيرات اجتماعية او اقتصادية امطبيعية (مناخ وطوبوغرافية الخ••) وهو مانحن بامس الحاجة الى فهمه في مرحلتنا الحضارية الحالية التي تحث

٢٨ـ المصدر نفسه ص ٧١ •

الخطى السريعة في مجالات الاسكان وحل مشاكلها • فما نريد هو ان نستلهم من اراء ابن خلدون • وهنا فلابد على الكيف ان يرافق ان لم يسبق الكم في اي مجال او انجاز تخطيطي ، طالما ان ذلك قد اوجد او سيوجد للانسان وحوله • لقد زاد ابن خلدون واستعرض كيفية اقامة الابنية العامة الشاهقة والعملاقة وكيف ان ذلك قد جاء نتيجة فنون الهندسة التي تعالج مشاكل مثل استقامة الحيطان او رفع الاثقال الكبيرة الى ارتفاعات عاليه الح •• مما هو ذا طابع هندسي معماري اكثر منه تخطيطي عام ولكنه ـ لاريب ـ يلقي الضوء على نسيج المدينة ككل •

٥ ـ المرافق والخدمات والبيئة Services, Utilities and Environment

ان ابرز معالم مدرسة ابن خلدون التخطيطية هي التأكيد على ضمان راحة السكان وضمان توفير حد معين من الكفاءة في مجال توفير المرافق والخدمات التي قد جعلها بالدرجة الرئيسية مسؤولة القطاع العام • لقد اراد لصحة سكان المدينة مستوى مرموقا وكأنه كان بذلك احد عناصر الصحة البيئية او منظمات الامم المتحدة المعنية بحماية الانسان وصحته وموارده ، فها هو يقول :

« المنازع (أي المعالم) المفيدة تطلب كل وسائل الراحة تجعل ممكنة الحدوث في المدن[٢٩] » •

اية اشارة هذه وأية اسس هاتيك التي شخصها ابن خلدون !! •

ان غالبية مدننا حاليا تحاول تطبيق ماجاء بتعليمات ابن خلدون ـ بدون ان تعلم ـ مما يدل كيف ان السبق كان في جانب المدرسة التخطيطية العربية، ومنذ مايقرب من ستة قرون خوال •

ان مدن الحدائق الانكليزية تذكرنا فيما رمى ابن خلدون • ولتوضيح المزيد عن اهمية توفير المرافق وحماية البيئة البشرية نرى ابن خلدون يقول :

٢٩ـ المصدر نفسه ص ٦٢ •

« ومما يراعى في ذلك للحماية من الافات السماوية طيب الهواء للسلامة من الامراض ، فان الهواء اذا كان راكدا خبيثا او مجاور للمياه الفاسدة او منافع متعفنة او مروج خبيثة اسرع اليها العفن من مجاورتها فاسرع المرض للحيوان الكائن فيه لامحالة وهذا مشاهد والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الامراض في الغالب[٣٠] » .

ان العراق كمثل رائد لكثير من الدول النامية قد بدأ الاهتمام بتنقية وحماية بيئته حديثا ، وفي السبعينات من قرننا كما ولم يبدأ اهتمام الدول الصناعيه في امر نقاء الجو وعلاج ماتجلبه الظواهر الجوية ومايصيبه من تلوث الا في النصف الثاني من القرن العشرين وهو بالتأكيد مايجعلنا نضع ابن خلدون وبتقدير في مركز رائد في مجال الدراسات البيئية والتخطيطية لحماية البيئة وصحيتها ، وهو من اهم الامور التي لها علاقة بصحة الانسان والحيوان والنبات المتعايشة في نفس وحدة المساحة[٣١] .

لقد آمن ابن خلدون واكد على ضرورة طرد وابعاد كل ما يتنافى وراحة وصحة الانسان وحماية موارده . وجاء هذا التأكيد هنا في مجال المرافق والخدمات وعند علاجه للتوزيع والتخصص الوظيفي كما سبق وان اشرنا حيث آمن بمبدأ التنطيق الوظيفي لكل من وحدات المساحة مما يمكن الافادة منه في حماية البيئة .

ومن الخدمات التي اشار اليها ابن خلدون هو الماء وضرورة توفيره حيث يمثل اهم عناصر الحياة وحماية الصحة ، حيث يقول :

« واما جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى فيه امور منها المياه بان يكون البلد على نهر او بازائها عيون عذبة ثرة ، فان وجود الماء قريبا من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورة فيكون في وجوده مرفقة عظيمة عامة[٣٢] » .

٣٠ـ المقدمة ص ٣٤٧

٣١ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، التلوث ، المحرر د / جمال حسين السمرة . القاهرة ١٩٧٣ ص ٣ـ٨١

٣٢ـ المقدمة ص٣٤٨

لقد اكد على نقاوة الماء بان اشار الى اهمية جريانه او جلبه من عيون عذبة ، والغاية من ذلك هو اعتماده (اي الماء) كمرفق اساسي يغطي اكثر من وجه من وجوه الحياة . لقد عبر ابن خلدون على اهمية حماية بيئة الانسان الاستيطانية من الاحوال الجوية غير المناسبة ذاكرا الحماية من المضار يكون اولا ، باستكمال وسائل الوقاية من غارات الاعداء ، ثانيا بملاحظة وسائل الوقاية من الافات السماوية(*) . ويقصد بالافات السماوية الاضرار الناجمة عن الطبيعة على اشكالها . لقد اوجز ابن خلدون بما قال ولكنه قد ضمن كل ماتؤكد عليه الدراسات البيئية والايكولوجية الان . لقد كان هدفه حماية الانسان صحيا وضمان راحته بتوفر المرافق والخدمات التي يحددها المستوى الحضاري للمجتمع كما انه استهدف ضمان توفر الهواء والماء النقيين وحمايتهما وحماية المستوطنة من كل ماهو ضار . وبذلك فقد وضع ابن خلدون الاطار العام لعلاج مشاكل البيئة من خلال مايوفره الانسان من مرافق وخدمات ومن خلال اهتمامه بتوفير المرافق فقد وضع ابن خلدون ارضية صلبة لبيئة سليمة . اذ ان للمرافق والخدمات علاقة عضوية مع نوع البيئة السائدة فكلما تطورت الخدمات وخاصة بالكيف كلما ضمن حماية البيئة وتحسنها وها هو ابن خلدون يوجز عن البيئة :

وأما الوقاية من الافات فلا يتم الا اذا روعي « طيب الهواء للسلامة من الامراض[٣٣] » .

لقد شخص ابن خلدون بذلك مايمكن ان يحمله تلوث الهواء من اضرار بالانسان وما يتعايش معه من حيوان ونبات . لقد حذر ابن خلدون كما رأينا قبل قليل من اضرار المياه الاسنة والتقرب منها ومن المنافع المتعفنة والمروج الخبيثة التي يسرع اليها العفن مما سيسبب العديد من الامراض للانسان وحيواناته . وربط بين فساد الهواء وانتشار الامراض لدى الانسان وقدضرب

(*) المقدمة ص ٣٤٧ .

٣٣ـ المقدمة ص ٣٤٧

مثلا لذلك بمدينة قابس التونسية(*) • انه بذلك قد أنار الدرب للمهتمين في تخطيط المدن والتخطيط البيئي بضرورة الاهتمام بالمجاري Sewarage وضمان نظام كفؤ لجمع ومعاملة القمامة Waste Disposal ، وما ذلك الا لحماية صحة الانسان • ومن يلاحظ التصاميم الاساسية للعديد من المدن واجراءات السلطات البلدية في اكثر من بلد سيجدان هناك اتفاقا كبيرا بين مايريدون تحقيقه وبين مانصح به وخطط له ابن خلدون • لقد ارسى في الواقع ابن خلدون فلسفة واسلوب معالجة البيئة لخدمة الانسان إن من يقرأ تقارير منظمة الصحة العالمية Who ومنظمة الغذاء والزراعة الدولية FAO ربما سيتصور انهم قد استعانوا باضافات ابن خلدون في هذا المجال •

٦ ــ القطاعين الخاص والعام Private and Public Sectors

بكلام موجز وواضح وغزير المعنى ميز ابن خلدون بين القطاعين الخاص والعام واهمية التعاون بينهما من اجل قيام المستوطنة البشرية المدينية • وهذا مبدأ هام تؤكد عليه غالبية الدراسات التخطيطية المدينية والاقليمية المعاصرة وهو مبدأ اشراك المواطنين بمراحل التخطيط المختلفة وعلى الابعاد المساحية ، طالما لأن المردود اولا واخرا هو للمواطنين مما قد دفع المعنيين أكاديميين ومسؤلين لان يضعوا العديد من الكتب والبحوث حول اهمية هذا الجانب ، ولكن بعد مضي مايقرب من ستة قرون من اكتشافات ابن خلدون هاتيك ، وبهذا المجال الهام يقول ابن خلدون :

« لابد من تمصير الامصار واختطاط المدن من الدولة والملك » الى جانب قوله : « ان الملك يدعو الى نزول الامصار ••• والاستيلاء عليها[٣٤] » •

وفي معرض كلامه عن المستوطنات البشرية نجد انه يورد في اكثر من مجال مصطلحات مثل المصانع والمنازل والدور والقصور ، ومنها مايقصد به منشآت عامة مثل المصانع التي يقصد بها ابنية عامة تنشأ من قبل الدولة او

(*) المقدمة ص ٣٤٧ •

٣٤ــ المقدمة ص ٣٤٣ ــ ٣٤٤

هيئات عامة • وكذلك الحال بالنسبة للقصور احيانا مقارنة مع المنازل والدور التي يكاد ان يحتكرها القطاع الخاص وقتذاك • وينسحب ذلك على الوحدات التخطيطية الاخرى في المدينة • فهناك مساجد تنشأ من قبل الدولة واخرى من قبل الافراد الى غير ذلك •

٧ ــ التخطيط ومستلزماته القانونية Planning, Codes and Ordinances

وبخصوص التخطيط وضماناته القانونية نجد ان لابن خلدون السبق المعلى اذ ان كل ماقد اورده وفي اكثر من عشرين فصلا من الباب الرابع لمقدمته انما جاء لعلاج قضايا التخطيط بابعاده البشرية والمكانية والزمانية مما يشكل بيئة الانسان التي تحكي قصة علاقته بالارض Land-Man Theme ، وان كل معالجاتنا السابقة انما جاءت أدلة علىأهمية التخطيط بالنسبة لابن خلدون

فعلى البعد المكاني نرى ابن خلدون قد رسم سلما للمعالجات التخطيطية للمكان مبتدئا بالتخطيط القومي الذي يغطي ارض الدولة كلها واشار الى ذلك في اكثر من مكان متدرجا من هذا المستوى الفوقي الشامل الى مرحلة التخطيط الاقليمي الذي بدأت اهمية فهمه واستيعابه تضطرد حاليا ومن ثم يأخذ بالتخطيط الى مستواه المحلي[٣٥] • وبالنسبة للتخطيط المحلي نرى ابن خلدون قد غطى الموضوع بنوع من الافاضة وذلك أينما تكلم عنالمستوطنات البشرية • حيث انه وعند اي من معالجاته على مستوى المدينة او الريف او حتى البدو انما يكون مخططا على مستوى محليا •

٣٥ــ N. Al. Jalili, National Development Needs for Comprehensive Regional Planning in Iraq, Paper Presented to U.N. Seminar of Urban Planning Buchar est, 1969 (Mimeographed); Erich Egner Regional Planning and the Problems of Agglomeration, Geog. Rev. Calcutta, 1962, 314 pp. 1—12.

انه بمعالجة مراتب المدن (هايراركيتها) التي تطرقنا اليها سابقا انما يكون قد استوعب الاقليم بوحداته المكونة وحسب اهمية كل منها فها هو يقول :

« ان تفاصيل الامصار والمدن في كثرة الرزق لاهلها ونفاق الاسواق انما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة[٣٦] » .

ان تشخيص ابن خلدون لظاهرة اهمال المراكز والاجزاء المتطرفة من البلاد او الاقليم انما دفع – وكما هو جار الان – الى اعتماد التخطيط الاقليمي بهدف الوصول الى نوع من التوازن في النمو وبالتالي للقضاء على عوامل الطرد من بعض الاجزاء اوعلى الاقل الحد منها وتخفيف شدة الجذب لدى المستوطنات المركزية لما فيه صالح البلاد ككل (أي على مستوى قومي) .

وعند انتقال ابن خلدون للشق الزماني من التخطيط نراه قد ميز وبشكل واضح الرؤيا بين المديين القريب والبعيد . فبالنسبة للتخطيط قريب المدى نراه يطرح مشاكل المستوطنات والبيئات البشرية داعيا لحلها انيا ، واما بالنسبة للتخطيط بعيد المدى فقد اكده عندما أشار الى ان المنجزات الكبيرة من قبل الانسان لابد وان تتظافر عليها جهود الاجيال وهولاشك يستغرق زمنا طويلا . وان ذلك يذكرنا بخططنا التنموية بعيدة المدى التي تتجاوز البعد الاني في الاقتصار على الحلول الانية الى وضع حلول لمشاكل المستقبل مما يستوعب واجباتنا تجاه ارضنا ومستوطناتنا واجيالنا مستقبلا وهي رؤيا صحية وضعت عليها في وقتنا المعاصر الدراسات العديدة وعقدت من اجلها الندوات والمؤتمرات مما يدل على البعد التخطيطي الذي اضافت فيه مدرسة ابن خلدون ، وبهذا المجال يستطرد ابن خلدون:

٣٦– المقدمة ص ٣٦٠

« الهياكل العظيمة جدا لاتستقل ببنائها الدولة الواحدة ، والسبب في ذلك ماذكرناه من حاجة البناء الى التعاون ومضاعفة القدر البشرية ، وقد تكون المباني في عظمتها اكثر مفردة او مضاعفة بالهندام • كما قلناه فيحتاج الى معاودة قدر اخرى مثلها في ازمنة متعاقبة الى ان تنمو فيبتدي الاول منهم بالبناء ويعقبه الثاني والثالث الخ ....[٣٧] » •

ولقد كان هدف التخطيط ـ كما هو عليه الان ـ بمستوياته وانواعه هو الانسان وتطوير اقتصاده وضمان صحته ونقاء بيئته وحمايته من اي نوع من الاذى اثناء مساكنته لمستوطنته، ومن هذا المنطلق نرى ابن خلدون يقول :

« والحكم على اهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وازالة مايتوقع من ضررها على السابلة[٣٨] » •

ان ذلك لايخرج عن نوع من التعليمات بخصوص البناء في المستوطنة البشرية وضرورة اتصافه بمواصفات معينة ، مما يدل على ان ابن خلدون قد رسم الطريق للسلطات البلدية والتخطيطية في مئات المدن لكي تصدر تعليماتها وقوانينها المتعلقة بالطرق والبناء ومواصفاته حسب المواقع ومتطلبات البناء حسب الوظيفة (الاستعمال) التي يراد للبناء ان يقدمها • ومن الغريب انه بينما يتكلم عن مثل ذلك قبل ستة قرون تقريبا نرى ان بعض البلديات لم تفكر بذلك الا قبل فترة وجيزة وفي اكثر من بلد مما يدل وبدون أية ريبة ان المدرسة التخطيطية العربية التي ارادها ابن خلدون قد عالجت قضايا التخطيط بشكل شامل ومتكامل • لقد ترجمت معالجات ابن خلدون في بعض المـدن الى تعيين مراقبين على البناء والشوارع وكذلك لمراقبة كيفية سير الوظائف المتبادلة ومراقبة الاستغلال باشكاله المختلفة • اذ قد اهتم ابن خلدون بضمان العدالة في كل مظاهر الحياة المدينية مما لانراه في كثير من المدن حيث يقول :

٣٧ـ المقدمة ص ٣٤٦

٣٨ـ المقدمة ص ٢٢٥

« ويحمل (اي الحسبة) الناس على المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين واهل السفن من الاكثار من الحمل »، ويستمر الى ان يقول : « بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها في المكاييل والموازين وله ايضا حمل المماطلين على الانصاف[٣٩] » •

وبذلك فيقرب ابن خلدون من الكثير مما اوردته الامم المتحـــدة في ميثاق انشائها او بالعكس تقترب الامم المتحدة مما قاله ابن خلدون • فكم من متسوق غشه البائع ، وكم من حمال قد تعطلت فقراته داخل المدن وكم من بناء قد تهدم واضر بالناس والبيئة ؟ فكأن ابن خلدون قد رسم كل ما يضمن للانسان سويته وحقوقه في التعامل داخل المستوطنات المدينية وهو ما تسعى اليه اكثر من سلطة في مدننا المعاصرة ، واكثر من ذلك فقد تطرق ابن خلدون الى نظام الملكية ومشاكل الارث داخل المستوطنات البشرية وتجارة العقار ومستندات البناء وملكية الارض مما تعاني منه المدن المختلفة وكأنه اراد بذلك ان تسير المدينة على نظام معين يحدده المجتمع المتعايش معها من خلال معاييره الحضارية في المراحل التي يجتازها • فبهذا الخصوص يقول ابن خلدون :

ومن فروعه ايضا المعاملات ، وهو تصريف الحساب في معاملات المدن في البياعات والمساحات والزكوات وسائر ما يعرض فيه العدد من المعاملات يصرف في صناعتنا ذلك الحساب في المجهول والمعلوم والكسر والصحيح والجذور وغيرها الخ •• وهي صناعة حسابية في تصحيح السهام لذوي القروض في الوراثات اذا تعددت وهلك بعض الوارثين وانكســرت مهامه على ورثتــه الخ •••[٤٠] » •

٨ ــ المدينة كائن حي City as an Organ

لايمكن ان تتحقق النظرة الصائبة والاستيعاب السليم لماهية المستوطنة البشرية المدينية الا باعتبارها كائنا حيا تعمل فيه متغيراته الداخلية والخارجية

٣٩ــ المقدمة ص ٢٢٥

٤٠ــ د/سابا جورج شبر ، المصدر نفسه ص ٧٤ •

مما يخضعها الى التغير والنمو • وقد يكون هذا التغير او النمو سلبا او ايجابا • وهذا ما اكتشفه ابن خلدون ، مما جعله يبز العديد من مفكري عصره. في هذه النظرة التي تستطيع ان تفسر الكثير من الظواهر التي يتعذر تفسيرها لدى من ينظر الى المدينة على انها مجرد شوارع وابنية صفتهما الجمود • وعلى أساس نظرة ابن خلدون وكما اخذت تؤمن بها احدث نظريات المدن فان لكل مستوطنة بشرية مدينية فعل ورد فعل لكل مايحدث داخل رقعتها المبنية او داخل حدود اقليمها • فشق شارع في منطقة او اقامة حديقة عامة في أخرى أو ازالة سوق من مكان ثالث الخ •• يؤثر ليس على المنطقة المجاورة لاي من هذه الوحدات الثلاث فقط ، انما يؤثر على المدينة ككل لا بل على العلاقة بينها وبين اقليمها ايضا • ان هذا المفهوم هو مفهوم الشمولية في معالجة البيئات الاستيطانية المدينية والذي من خلاله وبواسطته يمكن ان تطور تلك المدن وضمن الاطار الاقليمي والقومي بشكل صحي ومعقول • يوثر تطور البعد الوظيفي والمكاني على مستوى الدولة بالمدينة كثيرا كما يؤمن ابن خلدون ، وهو ماحدث ويحدث عبر تاريخ الاستيطان البشري المديني• ان طول عمر الدولة يعني استقرارها ـــ على الاغلب ـــ وبالتالي تطورها اجتماعيا واقتصاديا مما ينعكس على مراكز استيطانها وخاصة المدينية منها • فالازدهار الوظيفي ـــ اجتماعي واقتصادي، ينعكس على البنية المورفولوجية للمدينة وكما لاحظنا في نقاط سابقة • وهذا الاخير ينعكس على مساحة الرقعة المبنية ، انها علاقة جدلية عضوية بين الوظيفة والشكل ، متلازمتان طالما ان هناك سبب لديمومة واستمرار المدينة ، بالرغم من امكانية ـــ وهو الغالب ـــ حدوث تفاوت زماني Time Lag بين سرعة التبدل الوظيفي والتبدل المورفولوجي •[41]

---

٤١ M.R.G. Conzen, the Plan Analysis of an English City Centre Printed in Proceedings of I.G. U. Symposium in Urban Geography Lund, ed by: K. Norborg Lund 1962.

وعن اهمية عامل الادارة واستقرار الدولة فيقول ابن خلدون :

«انالامصار التي تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدولة وانقراضها» وقد كان هذا عنوان لاحد فصول الباب الرابع من مقدمة ابن خلدون والذي بدأه قائلا :

« الدولة اذا اختلت وانتقضت فان المصر الذ ييكون كرسيا لسلطانها ينتقض عمرانه ،وربما ينتهي انتقاضه الى الخراب[٤٢] » .

وبذلك فقد وعي ان المدينة هي كائن حي يولد وينمو ويزدهر وقد يستمر في ذلك اويتدهور ، بعد مرحلة معينة فيضمحل بل قد يموت .

٩ ـ العلاقةبين المدينة والاقليم City and Region

وبعد ان عالج المستوطنة البشرية المدينية من اهم نواحيها تاريخا ووظيفة وتخطيطا ، ولاستكمال هذه المعالجة التي كونت بالنهاية مدرسة تخطيطية قائمة بذاتها ، مدرسة ذات اصالة عربية واضحة ، نرى ابن خلدون يلتفت الى ناحية هامة جدا وهي دراسة المدينة على انها جزء او نواة لاقليم ، وبغض النظر عن سعة ونوع الاقليم هذا . لقد ربط بذلك وبشكل منطقي بين تخطيط المدن والتخطيط الاقليمي الذي بدأت تأخذ به غالبية اقطار العالم ، وتطور اطاره النظري مؤسسات ومعاهد اكاديمية مختلفة . لقد ميز ابن خلدون بين انواع من الاقاليم، فهناك الاقليم الضيق القريب وهناك الاقليم الواسع الممتد لمسافات أبعد[٤٣] . وها هو يقول في هذا المجال :

« ومما يراعى من المرافق في المدن طيب المراعي لسائمتهم ، اذ صاحب كل قرار لابد له مندوجن الحيوان للأنتاج والضرع والركوب ولابد لها من المرعى .

٤٢ـ المقدمة ص ٣٧٤

٤٣ـ A. Smailes, The Geography of Towns, London 1960. p. 137

فاذا كان قريبا طيبا كان ذلك ارفق بحالهم لما يعانون من المشقة في بعده • ومما يراعى ايضا المزارع • فان الزروع هي الاقوات ، فاذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك اسهل في اتخاذه واقرب في تحصيله، ومن ذلك الشجر للحطب والبناء • فان الحطب مما تعم البلوى في اتخاذه لوقود النيران للاصطلاء والطبخ والخشب ايضا ضروري لسقفهم وكثير مما يستعمل فيه الخشب من ضرورياتهم[٤٤] » •

كما وقد ربط ابن خلدون ــ وكما رأينا عند الكلام عن الجانب المورفولوجي ــ في مدرسته بين الكفاءة الوظيفية للمستوطنة البشرية وبين سعة اقليمها • وبذلك فقد نجح في أن يؤطر البعد المساحي على اساس وظيفي مما يغطي اية مساحة قد تكون مدينة او اقل وتتسع لتغطي اقليما او حتى لتشمل البلاد كلها، مماله اثر في التخطيط لموازنة النمو في انحاء البلاد •

وبالنسبة لابن خلدون ــ وهو ماقد جاءت به احدث الدراسات المدينية والاقليمية ولكن متأخرة عنه ــ فان من اولى مهمات الاقليم هو انعاش المدينة وظيفياً ومدها بعناصر الحياة والازدهار ، بل ضخها بعوامل الديمومة لتؤدي ماقد اوجدت من اجله • ان هذه الرؤيا تدفع الى ضرورة تحقيق العلاقة الايجابية المتبادلة بين المستوطنة البشرية المدينية واقليمها لما في ذلك من صالح الطرفين وسكانهما •وبهذا يقول ابن خلدون :

« واما بعد انقراض الدولة المشيدة للمدينة ، فاما ان يكون لضواحي تلك المدينة وما قاربها من الجبال والبسائط بادية ، يمدها بالعمران دائما ، فيكون ذلك حافظا لوجودها ، ويستمر عمرها بعد الدولة ، كما تراه بفاس وبجاية من المغرب وبعراق العجم من المشرق الموجود لها العمران من الجبال[٤٥] » •

٤٤ــ المقدمة ص ٣٤٨

٤٥ــ المقدمة ص ٣٤٣

واكثر من ذلك فقد رأى ابن خلدون ان العلائق بين المدينة واقليمها تأخذ طابع الهجرة بينهما حيث يسترسل قائلاً :

« لان اهل البداوة اذا انتهت احوالهم الى غاياتها من الرقة والكسب ، تدعو الى الدعة والسكون الذي في طبيعة البشر ، فينزلون المدن والامصار ويتأهلون[٤٦] » •

وبذلك فقد اوضح ابن خلدون كيف ان الاقليم يكون في حالات عدة عامل تحجيم للمدن سكانيا ـ من خلال الهجرة مثلا ـ وبالتالي عمرانا مما ينعكس على مورفولوجية المدينة • وفي حالة صغر أو عدم استطاعة الاقليم بمد المركز الحضري بعناصر الحياة الاقتصادية والبشرية أو بفشله في تنشيط أو خلق وظائف جديدة فيه فسوف تزول مقومات الازدهار والتوسع العمراني مما يؤدي بدوره الى اضمحلال المستوطنة او حتى زوالها • وهنا يذكر ابن خلدون

« واما اذا لم تكن لتلك المدينة المؤسسة مادة تفيدها العمران يترادف الساكن من بدوها فيكون انقراض الدولة خرقا لسياجها ، فيزول حفظها ويتناقص عمرانها شيئا فشيئا ، الى ان يذعر ساكنها ، وتخرب ، كما وقع بمصر وبغداد والكوفة بالمشرق ، والقيروان والمهدية وقلعة بني حماد بالمغرب وامثالها[٤٧] » •

وهكذا فقد نجح ابن خلدون في ان يضع أسس مدرسة رائدة في مجال التخطيط المديني والاقليمي ، استلهمت منها العديد من الحضارات لتحل مشاكل مستوطناتها •

٤٦ـ المقدمة ص ٣٤٣

٤٧ـ المقدمة ص٣٤٣

اسس العرب مدرسة لم يتوصل الى مثلها العالم الحديث الا بعد مايقرب من ستة قرون مضت على انجازات ابن خلدون • ان من يتصفح اي كتاب جامعي (اكاديمي) مقرر في مجال تخطيط المدن والتخطيط الاقليمي سيجد ان غالبية فصوله تتمحور حول مباديء ابن خلدون • وذات الامر بالنسبة لاغلب الكتب التي تعني بالتطبيق مما تهتم به السلطات التخطيطية والبلدية ، وعلى مختلف المستويات مما يدفعنا الى ان نعيد النظر في تقويم مناهجنا الاكاديمية وخطواتنا العملية على انها عربية قبل ان تكون مستوردة او غربية ، وفي اكثر من حال كما رأينا عبر هذه الدراسة •

لقد قدم العرب من خلال المدرسة التخطيطية الخلدونية مجال الهام ودربا مضاء يمكن الرجوع اليه لحل المشاكل الحضرية والاقليمية التي ـ لاشك ـ انها في اضطراد مع هوس التحضر السريع والهائل ، وفي غالبية بقاع دنيانا العربية • خاصة وان هذه المدرسة قد استوعبت تفاعل متغيرات الانسان والمكان والزمان بصورة تعكس جدلية هذه العلاقة التي قد تتجه لما فيه خير او شر حضارة بني الانسان •

نشر التراث العربي ودراسته في المانيا

الدكتورة فايكة فالتـر
محاضرة القيت في قاعـة الادريسي في كلية
الاداب ـ جامعـة بغـداد للعـام الدراسـي
١٩٧٧ ـ ١٩٧٨

أيها الاساتذة المحترمون

سيداتي وسادتي

اسمحو لي ان اشكر لكم هذه الفرصة التي أتحتموها للتحدث اليكم اليوم عن الدراسات العربية في جمهورية المانيا الديمقراطية وعن انتشار كثير من تراجم الادب العربي وخاصة الادب العربي المعاصر في بلدنا ٠

وسأحاول أن أتحدث اليكم باللغة العربية الفصيحة ، وان كنت أود أن استميحكم عذرا اذا ما انزلق لساني ببعض الاخطاء في لغتكم الجميلة عن غير قصد سواء في قواعدها ام في نطق كلماتها ، خاصة انني لم اعني نفسي لالقاء محاضرة باللغة العربية في العراق الذي يعلى منبع دراسة اللغة العربية وآدابهـا ٠

واعتقد انكم تعرفون ان ثمة تقاليد اصيلة في الدراسات الاستشراقية وخاصة في مجال دراسة اللغة العربية في المانيا كلها منذ القرن السابع عشـر حيث يعتبر المستشرق الالماني المشهور يوهان ياكوب رايسكة المتوفى سنة (١٧٧٤ م) من اهم من أصلوا التقاليد العريقة ٠

لقد قام المستشرقون الالمان بتحقيق ونشر واصدار عدد كبير من المؤلفات المهمة في الادب العربي الكلاسيكي • ومنها على سبيل المثال لا الحصر معلقة طرفة التي نشرها رايسكه سنة (١٧٤٢) وترجمها الى الالمانية، ثم تتابعت بعد ذلك النشرات المحققة لنصوص الكتب العربية المختلفة منذ القرن الماضي وبداية هذا القرن مثل كتاب الاشتقاق لابن دريد ، ومعجم البلدان لياقوت ، ووفيات الاعيان لابن خلكان ، وسيرة النبي لابن هشام والتي قام بنشرها المستشرق الالماني Wüstenfeld وكتاب الفهرست لابن النديم الذي اصدره جوستاف فلوجل ، والطبقات الكبير لابن سعد الذي تظافرت عليه جهود عدد من المستشرقين الالمان تحت اشراف ادوارد زخاو • الى غير ذلك من الكتب العربية ذات الاهمية الخاصة والتي لايزال كثير منها مقصورا على تلك الطبعات الاوربية •

وتتابع جامعات جمهورية المانيا الديمقراطية ومعاهدها في الوقت الحاضر ممارسة تلك التقاليد في مجال الدراسات العربية وان تغيرت طريقة البحث ونوعيته تبعا لتطورها في كل مجالات الدراسات الانسانية في العصر الحاضر•

ومن اجل هذا فقد خصصت تلك الجامعات اقساما معينة للدراسات العربية في معاهد الاستشراق التابعة لها • وتتظافر جهود العاملين بهذه الاقسام من اجل هدف واحد وهو الدراسات العربية في مختلف مجالاتها ونواحيها الكثيرة سواء في مجال الدراسة النظرية ام التطبيق العملي وسواء في ميدان البحث الاكاديمي ام في ميدان الدراسة التعليمية •

ولتحقيق هذا الغرض فقد تنوعت تخصصات هذه المعاهد كما تنوعت طرق التدريس والبحث فيها ، لكي تتيسر للدولة الحصول على نوعيات مختلفة من الخريجين ذوي التخصصات التي تتطلبها العلاقات الثقافية والسياسية والاقتصادية مع البلدان العربية في الوقت الحاضر •

ففي معهد العلاقات الدولية بمدينة بونسدام بابلسبرج تتركز دراسة اللغة العربية في المجال التطبيقي حيث يتخرج فيه العاملون في السلك الدبلوماسي وما يتعلق به في مجالاته الاخرى •

بينما تميل الدراسة في معهد العلوم الاسيوية في جامعة هومبلت في برلين الى الناحية الاكاديمية في مجال فلسفة العرب واليهود في القرون الوسطى •

وتستنتج هذه الدراسة بالضرورة دراسة اللغة العربية ومعرفة آدابها وتاريخ العرب الى غير ذلك من المواد التي تعين على المجال الرئيسي الذي الف فيه مدير المعهد هناك بردمور زيمون كتابا عن فلسفة ابن خلدون في كتابه المقدمة •

على حين تتركز الدراسات العربية في قسم الدراسات الاسيوية والافريقية في لايبزج على نحو اللغة العربية وفقهها ودراسة المصطلحات اللغوية التي تعين على فهم اللغة العربية بالنسبة للأجنبي • ويبذل الاستاذان ريشل وكرال جهودا كبيرة في هذا المجال حيث قاما بوضع كتاب لدراسة اللغة العربية الفصيحة المعاصرة يستعمل الان في كل معاهد الاستشراق في جمهورية المانيا الديمقراطية كما ألف الدكتور كرال قاموسا المانيا-عربيا في هذا المجال ايضا ولا تقتصر الدراسة في هذا المعهد على مجال اللغة العربية فقط ، بل تتجاوز ذلك الى الدراسة الاقتصادية والتاريخية للبلدان العربية •

وفي هذا المجال قام عدد من المستشرقين في هذا المعهد تحت اشراف البرفسور راتمان بتأليف كتاب ضخم في (اربعة اجزاء) عن تاريخ العرب قبل الاسلام حتى العصر الحاضر وهو يبرز بشكل خاص الحركات التحررية وكفاح العرب ضد الاستعمار في تأريخهم الطويل •

فاذا ما وصلنا الى قسم الاستشراق بجامعة مارتن لوثر في مدينة هاله وهو القسم الذي انتسب اليه رأينا عديدا من التخصصات في مجال الاستشراق مثل الاثار والفن الاسلامي ، اللغات القديمة (القبطية ، السريانية) الدراسات العربية والاسلامية واللغة الفارسية .

وتتركز الدراسات اللعربية والاسلامية هنا على المجال الاكاديمي وخاصة على الادب العربي الكلاسيكي والمعاصر بمجالاته المختلفة .

ويعد البرفيسور بروكلمان اشهر المستشرقين الالمان في هذا القسم حيث عرف في الوطن العربي خاصة بكتابيه تاريخ الادب العربي وتأريخ الشعوب الاسلامية ، وفي اوربا عامة ببحوثه الواسعة في مجالات متعددة في العلوم الاستشراقية والتي لم يستطع مستشرق بعده ان يستوعبها فاقتصرت مجهوداتهم على المجالات التخصصية ، فقد الف بروكلمان في النحو العربي والعبري والتركي والسورياني ، وقاموسا سريانيا ــ المانيا الى غير ذلك من البحوث والمقالات العديدة في مجال الدراسات السامية والشرقية وقد خلفه في رئاسة هذا المعهد البروفيسور فول الذي توفي منذ ثلاث سنوات . والمعروف بكتابيه عن الدراسات العربية في اوربا وعن تطور اللغة العربية حتى القرن الرابع الهجري وهذا الاخير ترجم الى الفرنسية والى العربية ايضا.

ولا يزال هذا المعهد حتى اليوم يسير على الخطة المرسومة له نفسها وهي الدراسة التخصصية في اللغة العربية خاصة في الادب الكلاسيكي الذي يشتغل به البروفيسور فلايهامر ، والادب العربي المعاصر الذي اعمل انا في مجاله .

وحضرنا البروفيسور فلايهامر وأنا كتابا للطبع يشتمل على نصوص عربية في الادب العربي المعاصر قصصا وفصولا في الرواية ومقالات ادبية لكتاب مطالعة لطلبة اللغة العربية سينشر قريبا .

وبالاضافة الى تلك المعاهد والاقسام الدراسية فهناك في مدينة برلين معهد علمي يتبع اكاديمية العلوم ويضم عديدا من الاساتذة المتخصصين في شؤون الدول العربية في مجالات عدة. وخاصة في ميدان تتطور الثقافة والفكر الاشتراكي في البلدان العربية ، وقد قام هؤلاء الاساتذة منذ سنة ونصف بنشر كتاب عنوانه (Aufbruch am vil) أي « النهضة على ضفاف النيل » .

فاذا ما انتقلنا الى ميدان اخر في الدراسات الاستشراقية للغة العربية وآدابها وهو ميدان الترجمة ، رأينا هناك جهودا كثيرة بذلت ولا تزال لنقل كثير من الاعمال والكتب العربية الى اللغات الاوربية .

ولعلكم تعرفون ان الاجيال السالفة من المستشرقين في اوربا قد انصب اهتمامها بشكل عام عدا بعض الاستثناءات على الدراسات العربية في القرون الوسطى . وبصورة خاصة على الادب العربي او الشرقي الكلاسيكي وذلك لانهم كانوا يرون ـ فيما اعتقد ان الاداب والثقافة المعاصـرة في البـلاد الاسلامية ليست جديرة بالاهتمام كما هو الحال بالنسبة لبلادهم نفسها .

ولكن هذا المفهوم قد تغير منذ بداية هذا القرن حيث بـدأ اهتمـام المستشرقين الواضح بالدراسات العربية المعاصرة سواء بالنسبة للغة العربية ولهجاتها ، او بالنسبة للادب العربي المعاصر الذي حظي بنصيب كبير سواء في ميدان الدراسة او في مجال الترجمة الى اللغات الاوربية .

ومن بين المستشرقين الرواد الذين صرفوا اهتمامهم لدراسـة الادب العربي المعاصر المستشرق الروسي J. Kratschuowslis والمستشرق الانجليزي H. gibb

كما احتلت مؤلفات كثير من الادباء العرب المعاصرين مكانـا بارزا في ميدان الترجمة الى اللغات الاوربية ، ومنها اللغة الالمانية حيث صدرت بها منذ اوائل الخمسينات الترجمة الاولى للجـزء الاول من كتاب الايام لطه حسين ثم مختارات لقصص قصيرة لمحمود تيمور ، والتي تعـد من احـب المجموعات القصصية عند القراء الالمان .

ثم تتابعت الترجمات الالمانية للاعمال الاوربية العربية المعاصرة ، فقد ترجمت يوميات نائب في الارياف لتوفيق الحكيم ومختارات من قصصه لا تقل في اهميتها للقارىء الالماني عن مختارات تيمور المشار اليها سابقا نشرت تحت عنوان · Von Wundern und heller Ver wunderung أي « من الاعاجيب والعجب العجيب » وهو عنوان يشبه عناوين الكتب العربية القديمة الى حد بعيد ·

كما ترجمت رواية « الارض » لعبدالرحمن الشرقاوي ونشرت في بداية الستينات وبمناسبة العيد الالفي لتأسيس مدينة القاهرة صدرت مختارات مترجمة من القصص المصرية تحت عنوان ··· Von Abend 2u Abend بمعنى « من مساء الى مساء » · وهي مجموعة لعدد من الكتاب والادباء المصريين المشهورين مثل محمود تيمور ، ونجيب محفوظ ، ويوسف ادريس ، ويوسف الشاروني ، وعبدالحميد جودة السحار ، وعبدالرحمن الشرقاوي ويحيى حقي ·

وهناك سلسلة لمختارات من القصص الحديثة من مختلف البلدان وهي تصدر بالالمانية · ويحتوي كل مجلد منها على قصص لادباء من بلد واحد فقط · مثل الدانمارك او فرنسا او انجلترا ، واسم هذه السلسلة Erkundungen Arabische يعني « مطالعات » وقد صدر ضمن هذه السلسلة مجلد بعنوان Erkundungen اي مطالعات عربية ، اختار قصصه مستشرق مجري وقام بترجمتها الى الالمانية مستشرقون المان ، وهي مجموعة من الادباء من بلاد عربية مختلفة : محمود تيمور ، يحيى حقي ، نجيب محفوظ ، يوسف الشاروني ، يوسف ادريس ، عبدالرحمن الشرقاوي من مصر ·

سعيد حورانيه ، زكريا ثامر ، عبدالسلام العجيلي من سوريا ·

فؤاد التكرلي من العراق وغسان كنفاني من فلسطين وميخائيل نعيمة من لبنان · والطيب صالح من السودان ·

كما صدر من هذه السلسلة مجلد عنوانه Algerische Erkundungen يعني « مطالعات في الادب الجزائري » • ويشتمل على قصص مترجمة من الفرنسية والعربية ، ومن بين هذه القصص قصة لا لطاهر وطار ، وقصة لاحمد رضا حوحو •

هذا وبين يدي المطبعة الآن مجلد من هذه السلسلة بعنوان : Spvische Erkundungen مطالعات في الادب السوري نرجو ان يصدر قريبا • واعتقد ان من الضروري ان ينشر في هذه السلسلة مجلد عن القصة العراقية ولكننا نحتاج لتحقيق هذا الهدف الى مساعدة الادباء والكتاب العراقيين ودور النشر في بغداد لامدادنا بالكتب اللازمة حتى تتمكن من اختيار ما نريد وعلاوة على ما تقدم فقد صدر في نهاية السنة الماضية ـ مجلد يشتمل على رواية « الحرام » ليوسف ادريس ، وقصة « جمهورية فرحات » « وارخص ليالي » الى جانب تلك الاعمال فلقد قمت انا واسمحوا لي ايها السادة اذا حدثتكم هنا عن نفسي قليلا رغم ان حديث الانسان عن نفسه ليس محبوبا في كثير من الامور لقد قمت بترجمة ثماني عشرة قصة لنجيب محفوظ اخذتها ابتداء من مجموعته ••• « همس الجنون » الى مجموعة « الجريمة » وسوف تصدر عن دار نشر ركلام •

ولقد كان اختياري لتلك القصص يقوم على اساس انها قصص واقعية تعبر تعبيرا واضحا عن البيئة المصرية في الطبقات الوسطى والفقيرة ، وهذا هو ما يميز نجيب محفوظ كأديب فهو يطلع القارىء على تلك البيئات الخاصة وعلى انواع التفكير المختلفة في المجتمع المصري منذ الحرب العالمية الاولى حتى السبعينات •

كما أقوم بتأليف كتاب عن المرأة المسلمة خاصة في فجر الاسلام وفي القرون الوسطى وسيزين هذا الكتاب بصور فوتغرافية حصلت عليها من كثير من المتاحف العالمية •

ايها السادة ان هذه الجهود التي تقوم بها جمهورية المانيا الديمقراطية في مجال دراسة اللغة العربية وادابها والاهتمام الكبير الذي تبذله للتعرف على مختلف نواحي الحياة خاصة في مجال الاداب والفنون في الوطن العربي ، هذه الجهود وهذا الاهتمام يعتبر لما قام به اسلافنا المستشرقون الالمان في هذا الميدان ، وحتى لا تنقطع علاقة الماضي بالحاضر فأني ارى ان تتوفر الجهود في بلدنا على اعادة نشر المختارات التي قام بترجمتها الشاعر الماني المشهور ..
F. Rückevt

من الادب العربي والفارسي الكلاسيكي ولا يفوتني هنا ان انوه بان الترجمة الالمانية للقرآن قد صدرت في بلدنا عدة مرات وهي طبعات جيدة وعدد النسخ في كل طبعة (٢٠ر٠٠٠) وحسبما سمعت من دار نشر ركلام فان كل طبعة من هذه الترجمة كانت تنفذ بعد اسبوع او اسبوعين من صدورها .

ان كل هذا يوضح بما لا يدع مجالا للشك ان العلاقات الثقافية بين الشعب الالماني وشعوب الوطن العربي يرجع تاريخها الى عهد بعيد .

كما ان اهتمام المستشرقين في جمهورية المانيا الديمقراطية في الوقت الحاضر بآداب البلدان العربية وثقافتها ولغتها ، واهتمام القراء بتلك الثقافات العربية عامة يبرهن على ان علاقات الصداقة بين جمهوريتنا والوطن العربي تقوى وتتوطد على مر الايام والسنين .

الملامح البارزة للفن الفرثي
في ضوء المكتشفات الأثرية

الدكتور واثق اسماعيل الصالحي
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

من السمات البارزة للفن في الفترة الفرثية اعتماد الوضعية الامامية الجامدة (Frontality) في النحت والتصوير وبخاصة في اللوحات او المناظر الروائية • وفيها يصور الاشخاص ، سواء مثلوا بشرا ام آلهة ، وهم يحملقون في المشاهد ، دون ان يعير النحات او الرسام التفاته الى وضعية حركتهم او للاعمال التي يؤدونها في المشهد ، او للعلاقة فيما بين الاشخاص الاخرين في اللوحة الواحدة • ولهذه الوضعية الامامية اهمية خاصة في دراسة تاريخ الفن في الشرق القديم حيث كانت الصفة الاساسية لثلاثة قرون متعاقبة ، أما اصلها فمدار بحث ومناقشة العديد من المختصين الذين قدموا آراء متباينة ومتناقضة ولم يطرحوا اقتراحا او شرحا مقنعا • والحقيقة ان مثل هذا الاقتراح كان صعبا لقلة الادلة ، ولكن الدراسات الحديثة المستندة على أدلة آثارية مكتشفة حديثا تلقى ضوءا جديدا على مشكلة أصل الوضعية الامامية •

عند البحث في الملامح البارزة للفن الفرثي يجب التطرق ، وباختصار ، الى المراحل التي تطور في خلالها الفن الفرثي واساليب الفنون الشرقية القديمة في النحت والتصوير واسلوب الفن الهلنستي لما لها من اهمية وتأثير

على فناني تلك الفترة . لقد مر الفن الفرثي بثلاث مراحل رئيسية تطور خلالها، ففي المرحلة الاولى كان الفنان ينتقي ويستوحي اسلوبه الخاص من اساليب الفنون الشرقية القديمة واسلوب الفن الهلنستي المعاصر . اما المرحلة الثانية فحدث فيها امتزاج والتحام بين هذه الاساليب فكونت اسلوبا واضحا مترابطا متكاملا اطلق عليه الاسلوب الفرثي وقد شاع استعمال هذا الاسلوب منذ نهاية القرن الاول قبل الميلاد . وفي نهاية القرن الثاني او بداية القرن الثالث للميلاد ، اصاب الفن الفرثي اضمحلال وتدهور في النوعية ويلاحظ ذلك على النقوش والالواح الملكية والرسمية خاصة اما الفن في الولايات والمقاطعات التي كانت على الحدود الحضارية للدولة الفرثية ، فقد استمر في ابراز المستوى الجيد للفن الفرثي . لقد واجه الفنانون الفرثيون مشكلة تعدد الاساليب الفنية في بداية حكم الدولة الفرثية بسبب انتشار الفن الهلنستي الذي يتميز النحت فيه بالوضعية الرشيقة للاشخاص وبالانطباعية وفي ملء الفراغات ملأً فنيا وكان لهذا الفن تأثير شديد على الفنون التقليدية الشرقية التي تميزت بنحت الاشخاص بوضع جانبي جامد ، وهناك بعض الاستثناءات لهذه القاعدة والتي تصور الرأس بوضعية امامية مثل جلجامش والمرأة في الشباك والتي نحتت لاسباب ودوافع دينية[1] ، وتميزت كذلك بالنقش الواطىء ودون الاهتمام في ملء الفراغات فنيا ، واتصفت ايضا بولع الفنان في نحت تفاصيل زخرفية وتخطيط طيات الثياب بنمط غير واقعي . والفنانون الفرثيون كانوا من اوائل فناني الشرق الذين حاولوا استيعاب تأثير الفن الهلنستي ، وهناك اشارات ضئيلة لمثل هذا الاستيعاب في القرن الاول قبل الميلاد فقد استمر اعتماد الفنون الشرقية من قبل الفنانين في النحت والتصوير وباعتماد

---

١ ـ D. Schlumberger, "Descendants non-méditerranéens de l'Art grec", Syria, XXXVIII (1960, p. 258.

الاسلوب الهلنستي ايضا . وهذا الاستعمال المتنوع لاساليب النحت الشرقية والهلنستية يلاحظ بصورة خاصة على نقود الملوك الفرثيين الاوائل والتي تعكس ايضا التغييرات في الاسلوب الفني للنحت وبخاصة نقود مثراداتس الأول (١٧٠ - ١٣٨ ق . م) التي تظهر فيها أربعة أساليب متباينة في الموضوع وتختلف باختلاف الاقليم الجغرافي وتقاليد الشعوب[٢] . وفي النحت نلاحظ تأثيرا اخمينيا واضحا على اللوحات والتماثيل التي أمر بعملها انطيوخوس الاول (٦٩ - ٣٤ ق . م) ، ملك مملكة كوماجين ، لتزين معبده في نمرود داغ وتتميز هذه اللوحات والتماثيل بالنحت البارز الواطيء وترتيب طيات الثياب المنقول من التقاليد الاخمينية[٣] . وفي مدينة آشور عثر على شاهدي قبرين يعود تاريخهما ، استنادا الى دلائل مدونة ، الى سنة ٨٨/٨٩ قبل الميلاد وتظهر في نقوش الشاهدين صورة شخص ملتحي يرتدي قميصا وسروالا حسب تقاليد الازياء الفرثية ولكن النقوش تعكس اسلوب النحت الآشوري القديم حيث يصور الشخص في نحت بارز واطيء وبالوضعية الجانبية ، وتظهر على اللوحة بعض الرموز الدينية الآشورية[٤] . وفي بداية القرن الاول الميلادي سادت الوضعية الامامية فجأة واصبحت القاعدة الفنية او الاسلوب الشائع الذي اتبعه الفنان في النحت والتصوير في سورية ووادي الرافدين وايران . ويمكن أن تؤرخ هذا الانقلاب او التغيير المفاجيء في النحت من الوضعية الجانبية الى الوضعية الامامية مستندين بذلك على ادلة

---

٢ - Malcolm Colledge, The Parthians, London, 1967, p. 143f.

٣ - Roman Ghirshman, Persian Art - The Parthian and Sassanian Dynasties, New York, 1962, pp. 57-67, figs. 78-80.

٤ - Walter Andrae, Die Partherstadt Assur, (WVDOG 57), Leibzig 1933, p. 105ff, pl. 59 a - c

اثرية وجدت في آشور وتدمر وايران • فبالاضافة الى شاهدي القبرين ، المار ذكرهما ، فقد عثر في مدينة آشور أيضا على مسلة او شـاهد قبر يشـبه الشاهدين السابقين من ناحية اسلوب النحت ولكن مع اختلاف في وضعيـة نحت الشخص الذي نقشت صورته بوضعية امامية • ويمكن اعتبار النحت المنقوش على هذه الشواهد او المسلات بداية للوضعية الامامية ، اذا أخذنا بنظر الاعتبار صحة الشاهدين الاولين[٥] • ان الادلةالتي تقدمها المسـلات الثلاثة مهمة لدراسة التغيير المفاجيء من الوضعية الجانبية الى الامامية الا انها لا توضح بشكل جيد الوضعية الامامية التي شاعت في بلاد وادي الرافدين وسورية وايران في النحت وبخاصة في اللوحات الروائية •

ومن الممكن ان نؤرخ التغيير الى الوضعية الامامية في تدمر بدقـة • فقد عثر على كسرة من لوح منقوش بالنحت البارز تحت انقاض معبد بل ، الذي يعود تأريخ بنائه الى عام ٣٢ ميلادى حيث يلاحظ في هذا اللوح مشهد رأس شخص بالوضعية الجانبية • وتصور كسرة اخرى أشخاصا في موكب رسمي نحتت صورهم بنفس اسلوب الكسرة الاولى وتتبين من كسرة ثالثة اشخاصا في صف واحد وبوضعية جانبية يقتربون من كاهن يقدم القرابين وقد نحتت صورته بوضعية امامية[٦] • اما تأريخ هذه القطع فمن المرجح انه يعود الى بداية القرن الاول قبل الميلاد • وعثر بين الانقاض ايضا على منحـوتات اخرى يعود تأريخها الى الاعوام التي سبقت بناء معبد بل وعليهـا اشخاص

٥ـ Schlumberger, Syria, (1960), p. 272f, no. 5.

٦ـ Henri Seyrig, Antiquités Syriennes, III, pp. 124-126, fig. 1, 2, pl. I, 1

اما كـولدج (The Parthians, p. 148) فيعتبر هذه القطع اقدم تمثيل للفن الفرثي •

صوروا بوضعية أمامية[٧] • وبهذه الوضعية صورت المنحوتات المنقوشة والتي تزين المعبد نفسه[٨] • والظاهر أن التحول من الوضعية الجانبية الى الوضعية الامامية حدث قبل بناء معبد بل بفترة قصيرة • وفي دورا يوروبس كانت الوضعية الامامية هي القاعدة السائدة في النحت منذ القرن الاول الميلادي ، كما يستدل على ذلك من منحوتة « زوس كيريوس » التي يعود تأريخها الى عام ٣١ ميلادي[٩] ومنحوتة « افلاد » التي تؤرخ في حدود عام ٥٤ ميلادي[١٠] • أما في الحضر ، فلم نعثر على منحوتات بالوضعية الامامية تؤرخ قبل القرن الثاني الميلادي ، عدا منحوتة واحدة تجمع بين الوضعيتين وجدت في منطقة البوابة الشمالية وهي تقدم دليلا على اعتماد الوضعيتين وسنأتي على ذكرها بعدئذٍ • أما تأريخ التحول الى الوضعية الامامية وانتشارها في ايران فيبدو مشكلة معقدة سنستعرضها في المناقشات القادمة • طرحت نظريتان رئيسيتان حول أصل الوضعية الامامية في الفن الفرثي بالاضافة الى فرضيتين أخريتين يمكن أعتبارهما مكملتين لانهما تعالجان أيضاً مشكلة التغيير الفجائي في اسلوب النحت في الفترة الفرثية •

١ ــ الاصل الفرثي او الايراني : اعتقد روستوفتزيف ، الذي طرح هذه النظرية وطورها[١١] ، أن القبائل الايرانية الرحل التي كانت تجوب اواسط

---

٧ ــ Seyrig, Op. Cit, pp. 132-137, figs. 8, 11, pl. I, II
Seyrig, AS, IV, pp. if, pl. I

٨ ــ Seyrig, AS, II, pp. 9-40, pls. XVIII-XXIV

٩ ــ C. Hopkins, The Excavations at Dura-Europus, VI, pp. 106-112, pl. XIII.

١٠ ــ C. Hopkins, The Excavations at Dura-Europus VII-VIII, pp. 292—302, pl. XXXVII

١١ ــ M.I. Rostovtzeff, Dure and the Problem of Parthian Art, 155 — 304

آسيا قد اخذت هذه الوضعية من شمال وادي الرافدين وبعد ذلك تبنى الفرثيون تلك القاعدة من خلال اتصالهم بتلك القبائل ونشروها في سورية ووادي الرافدين وغيرها من المناطق التي أصبحت تحت سيطرتهم •

٢ ــ الاصل الاغريقي : تقدم بهذه النظرية كل من ول[١٢] و شلو مبرجير[١٣] والتي تنص على ان الفن الهلنستي استطاع التغلغل وبالتالي التأثير على الوضعية الجانبية التي كانت سائدة في فن النحت والتصوير في الشرق الادنى القديم وتمثيل الاشخاص بوضعيات امامية او شبه امامية • عندها استغل فنانو الشرق هذه الحرية وغيروها الى وضع امامي جامد •

٣ ــ الاصل السوري او السامي : يعتقد دوسواد أن الوضعية الامامية كانت احدى ميزات الفن الذي ساد في سورية في الفترة الهلنستية ويسند دوسواد فرضيته بأدلة تعتمد على بعض الدمى الفخارية من القرنين الثاني والثالث للميلاد والتي تبدو غير مقنعة[١٤] •

٤ ــ الوضعية الامامية وهي تعزى الى « البدائية » ولا يحتاج اشتقاقها الى اصل[١٥] •

هذه هي أبعاد مشكلة اصل الوضعية الامامية التي انتشرت في سورية ووادي الرافدين وايران في الفترة من القرن الاول الميلادي وحتى منتصف القرن الثالث الميلادي واصبحت من الملامح الاساسية للفن في الفترة الفرثية •

---

١٢ ــ E. Will, Le relief Cultuel gréco-romain, Paris, 1955, pp. 219 — 255.

١٣ ــ Schlumberger, Syria, 1960, pp. 253—281.

١٤ ــ Dussaud, Syria, XVIII (1937), pp. 228f

١٥ ــ Seyrig, Syria, 1937, pp, 37 — 40

النظرية التي طرحها روستوفتزيف والتي تؤكد دور الفرثيين في تكوين وتطوير الوضعية الامامية كانت امامها عقبة اساسية ، هـي ندرة الادلـة الآثارية من المواقع التي يرجع تأريخها الى تلك الفترة في ايران فاعتمد فـي مناقشته على الآثار المكتشفة من المدن التي تقع على حدود الامبراطوريـة الفرثية والتي لم تعكس الفن الرسمي للبلاط الفرثي • واتفق كلارك هوبكنز مع رأي روستوفتزيف واضاف ، أن الوضعية الامامية كان لها موطن واحد انبعثت منه وهذا الموطن أما أن يكون في شمال وادي الرافدين او في شمال سورية وان الوضعية الامامية نتجت عن امتزاج الفن الاغريقي بالفن الشرقي ومن تطبيق الاسس المنطقية وخداع النظر الذي اتصف بـه الفن الاغريقـي على ما دعاه بالوضعية الحثية التي صورت جسم الشخص بوضعية امامية في حين نحت الرأس والارجل بوضع جانبي[١٦] • واقتراح روسـتوفتزيف الآنف الذكر بتبني استعمال الفرثيين الوضعية الامامية عنـدما كانوا في موطنهم الاصلي شرق بحر قزوين ، في حين أن المنقبين في نيسا ، وهي العاصمة الاولى للفرثيين ، لم يعثروا على الدلائل الاثرية التي تؤكد مثل هذا الاقتراح وان ما عثر عليه المنقبون من آثار يعكس أسلوبهـا الفني أسـلوب الفن الاغريقي مع بعض التأثيرات الاخمينية في اشكال الاواني الفخارية التي تحمل بعض الرؤوس والاقنعة البشرية التي صورت بوضعية امامية[١٧] • وعلى كل حال ، لا تعتبر هذه الادلة كافية لدعم النظرية التي يراها روستوفتزيف • ومن الادلة الاثارية التي غالبا ما تستعمل ضد نظرية الاصل الفرثي منحوتتـان

١٦ـ C. Hopkins, A note on Frontality in the Ancient Near Eastern Art, Ars Islamica, III (1936) pp. 187-196.

١٧ـ Ghirshman, op. cit, p. 20, fig. 41 Schlumberger, L'Orient Hellénisé (Paris), 1970 p. 36. fig. 12

صخريتان في بيستون ، احداهما ترجع بتأريخها الى حدود سنة ١١٠ قبل الميلاد استنادا الى الكتابات المنقوشة عليها ويظهر فيها مثراداتس الثاني وهو يستقبل ولاته على الاقاليم ، والاخرى تظهر معركة بين فرسان من عهد كوتارسيس من المحتمل انها تعود بتأريخها الى حدود سنة ٤٠ ــ ٥٠ ميلادي • ونلاحظ نحت الاشخاص في المنحوتتين بوضعية جانبية[١٨] ، ويدل هذا الاستعمال على ان الوضعية الامامية نبعت من العواصم الفرثية في بلاد وادي الرافدين وسورية بدلا من ايران حيث سادت في كل من آشور وتدمر ودورايوروبس والحضر • اما المنحوتة الصخرية في هانكي نوروزي فانها تقدم أدلة جديدة تلقي ضوءا جديدا على نظرية الاصل الفرثي • وهذه المنحوتة تقع في سهل مالامر في خوزستان[١٩] ، وهي تصور رجلا على صهوة جواد يقترب من اربعة اشخاص واقفين ، أولهم نحت بحجم اكبر من الثلاثة الاخرين ومن المؤكد انه ذو أهمية ، ويتبع الفارس خادم يحمل بيده شيئا

١٨ ــ E. Herzfeld, Iran in the Ancien East, London 1941, pp. 287 — 289, pl. CVIII

Ghirshman, op. cit, p. 52, figs. 64 — 65.

١٩ ــ لقد اعتبرت سابقا هذه المنحوتة من منحوتات الفترة الساسانية وكتب عنها

N. Debevoise, "The Rock Reliefs of Ancient Iran" JNES I (1942), p. 103, fig. 7

L. Vanden Berghe, Archéologie de l'Iran Ancient, Leiden, 1959, pp. 63 — 64

وقام الاخير بدراسة اخرى للمنحوته ونشر صورها في
"Le Relief parthe de Hungi-Nauruzi", Iranica Antiqua, III 12 (1963), pp. 155 — 168

Memo from Belgium, On the Track of the Civilization of Ancient Iran, Sept. - Oct. 1968 pp. 18 - 19.

غير واضح من المحتمل أنه سعفة صغيرة • ويظهر نسر يقبض على اكليل نصر بمخالبه وحاملا سعفة بمنقاره ويطير فوق الفارس • ونحت نسر آخر يطير بجانب الشخص الاول ويحمل تاجا بمنقاره ويرتدي الفارس قميصا وازارا ونحت شعر رأسه بصورة مجعدة ويظهر فوق الرأس اكليل تتدلى نهاية اشرطته خلف الفارس وهي طريقة متميزة لتصفيف الشعر في الفن الاغريقي او الفن في الفترات الاولى من حكم الفرثيين • لقد صور الفارس وتابعه بوضعية جانبية وباسلوب يعكس بعض التأثيرات الهلنستية • اما الاشخاص الاربعة فهم يلبسون ملابس احتفالات فرثية متكونة من قميص وسروال والشخص الاول منهم يرفع يده بالتحية ورتب شعر رأس الاشخاص الاربعة حسب الطريقة الفرثية الذي يقسم الشعر الى ثلاثة أقسام ، أما وقفتهم فقد صورت بالوضعية الامامية الجامدة • ويلاحظ المشاهد تناقضا واضحا في هذه المنحوتة من نواحي متعددة فقد صور الفارس وتابعه بالوضعية الجانبية والاشخاص الاربعة بالوضعية الامامية الجامدة ، ومن ناحية اخرى فهناك اختلاف في اسلوب تصفيف شعر وملابس الفارس من جهة والاشخاص الاربعة من جهة اخرى وهذا الاختلاف يعكس تأثيرا متباينا • تعود هذه المنحوتة الى فترة حكم الملك الفرثي مثراداتس الاول (١٧١ ــ ١٣٨/١٣٧ ق • م) استنادا الى التشابه بين ملامح وجه الفارس وملامح وجه مثراداتس الاول التي تظهر على نقوده من ناحية حفر عينيه حفرا واسعا وشعره بهيئة مجعدة وحواجبه بشكل كثيف ويتشابه اسلوب نحت وملابس الاشخاص الاربعة المصورين بالوضعية الامامية مع تمثال شامي الذي يعود تأريخه الى حدود عام ١٤٠ قبل الميلاد[٢٠] • ومن المرجح جدا ان هذه المنحوتة تمثل

---

٢٠. Vander Berghe, Iranica Antiqua, pp. 164-167

مشهدا تأريخيا يضم حاكما عيلاميا مع بعض الاشراف يقدمون الولاء وفروض الطاعة لمثراداتس الاول عند غزو الاخير لعيلام في حدود عام ١٣٩ قبل الميلاد[٢١] • واستنادا لما تقدمه هذه المنحوتة من ادلة مهمة نستطيع ان نقترح أن اسلوب النحت بالوضعية الامامية قد اعتمد جنبا الى جنب مع اسلوبه النحت بالوضعية الجانبية في القرن الثاني قبل الميلاد في ايران وان هذه المنحوتة تعكس لنا الفن الرسمي للبلاط الفرثي وبالتالي تؤيد نظرية الاصل الفرثي او الايراني للوضعية الامامية التي طرحها روستوفتزيف •

اما المنحوتة المكتشفة في منطقة البوابة الشمالية في مدينة الحضر فانها ، بالاضافة الى اهميتها في القاء ضوء جديد على تشخيص أحد آلهة التثليث الحضرية ، تقدم لنا أدلة مهمة في اعتماد اسلوبين للنحت[٢٢] • فقد صورت الالهة الجالسة (مرتن) بوضعية شبه امامية عاكسة تأثيرا هلنستيا واضحا اما صورة عبد سميا ، وهو الشخص الواقف امامها ، فقد حفرت بالوضعية الامامية الجامدة • أما الملابس التي ترتديها الالهة وتلك التي يلبسها عبد سميا فانها من الازياء التي شاعت في مدينة الحضر حيث تظهر على معظم تماثيل النساء والرجال • يعود تأريخ هذه اللوحة الى القرن الثاني الميلادي استنادا الى أدلة كتابية منقوشة عليها • المهم في هذه اللوحة هي الوضعية الشبه امامية التي نحتت بها الالهة مرتن والتي تعتبر من الاستثناءات القليلة لقاعدة الوضعية الامامية في الحضر •

يعتقد كل من وِل وشلومبرجير أن الوضعية الامامية قد اقتبست من الفن الهلنستي ـ الروماني الذي سمح بتطبيق أساليب مختلفة في النحت ،

---

٢١ ـ Vanden Berghe, Civilization of Ancient Iran, p. 19

٢٢ ـ Wathiq Al-Salihi, "New Light on the Identity of the Triad of Hatra" Sumer, 31 (1975), p. 78, figs. 3-4.

منها الوضعية الامامية والجانبيه بالاضافة الى الوضعية الشبه أماميه في نقش الاشخاص وقد تبنى فنان الشرق الاولى القديم ، الـدي اعتمد الوضعية الجانبية في النحت ، مع بعض الاستثناءات ، المشهد الامامي الـذي كان مسموحا به في الفن الاغريقي ـ الروماني ولكنه صور فيه وجعله مشهدا اجباريا • ومن المحتمل ان يكون الانتقال الى اعتماد الوضعية الامامية في النحت في كل من سورية ووادي الرافدين قد حدث بعد دخول الفرق العسكرية الرومانية الى تلك المناطق ولكن هناك ادلة تثبت تطبيق تلك الوضعية في دورايوروبس وفي تدمر قبل دخول الرومان الى المنطقة[٢٣] • واضافة الى ما طرحه وِّل بشأن الوضعية الامامية فهو يصف هذه الوضعية « بالبدائية » ويذكر أنها بدأت وتطورت في القرى الفرثية بدلا عن البلاط الفرثي[٢٤] غير أن هذا الرأي لا تسنده أدلة آثارية ولا فنية • وقد لاحظ شلومبرجير ضرورة وجود اتصال مباشر ونفسي بين المشهد والمشاهد في الفن الفرثي وضرورة خلق أشكال أو صور للعرض "Image de presentation" بحيث تطغي على ضرورة وجود اتصال منطقي بين الاشخاص المصورين في اعمال النحت والتصوير[٢٥] •

ويحاول انفرنيزي ، من خلال دراسته للدمى الفخارية التي عثر عليها في مستوطنات وادي الرافدين القديمة أن يوضح استعمال الوضعية الامامية في

---

٢٣ ـ Schlumberger, Syria, 1960, p. 283 — no. 2

٢٤ ـ E. Will, "L àrt sassanide et ses prédecesseurs", Syria, XXXIX (1962), pp. 48f.

٢٥ ـ Schlumberger, Syria, 1960, pp. 258-264, L'Orient Hellénisé, pp. 198 — 201

هذه البلاد قبل مجيء الفرثيين[٢٦] • ويستند برأيه هذا على أدلة ضعيفة وغير مقنعة ، حيث يعتمد اساسا على نموذجين ، أولهما دمية فخارية وجـــدت في نمرود ومن المحتمل ان ترجع بتاريخها الى بداية القرن الثاني قبل الميــلاد ، وتمثل هذه الدمية امرأة تحمل طفلا على ذراعها وقد صورا بالوضعيه الامامية وكلاهما يحملقان في المشاهد [٢٧] • اما الدليل الثاني فعبارة عن طبعة ختـم وجدت في الوركاء ومن المرجح أنها تعود بتأريخها الى فترة حكم انطيوخوس الثالث وقد طبعت عليها صورة شخص واقف بوضعية شبه امامیــــة تعكس احدى الاساليب المألوفة التي اعتمدها الفنان الاغريقي • ويستنتج انفرنيزي أن الوضعية الامامية التي عملت بموجبها الدمية الفخارية تمثل امتزاجا بــين مبادىء الفن الاغريقي والفن الشرقي وانها ترجمة الشكل الغربي الى لغــة شرقية فنية • بالرغم من ان مناقشات انفرنيزي شيقة ولكنها لا تســتند الى ادلة مقنعة • والامثلة التي اوردها لم تضم نموذجا فنيا يتصف بتلك الحركة التي تميز الوضعية الامامية عادة في الفن الفرثي •

ويعترض روستوفتزيف على فرضية الاصل الاغريقي ويذكر انه اذا كان الفرثيون قد اخذوا الوضعية الامامية من الاغريق فان فناني تــدمر ودورا اعتمدوا الوضعيتين الامامية والجانبية في آن واحد في النحت والتصــوير • والحقيقة أن الفنانين حافظوا على قاعدة الوضعية الامامية •• ومنحوتة مرتن من الحضر تدلنا على اعتماد الاسلوبين ولكن بنطاق ضــيق واســتثنائي • ويناقش شلومبرجير هذا الاعتراض ويرى « ان اختلاف اسـتعمال الوضعية

---

٢٦ ـ Antonio Invernizzi, Mesopotamia, III — IV 1968 - 69, pp. 227 — 292.

٢٧ ـ D. and J. Oates, Iraq, XX (1958), pp. 121 f, p, 124, pl. XIXa

الامامية لا ينفي كونها من اصل واحد »[٢٨] ، ويشير أيضا الى ان الالتزام في تطبيق مبدأ الوضعية الامامية وبالتالي خلق « أشـكال للعرض » حتى في المناظر او المشاهد الروائية هو ، في الحقيقة ، تعبير عن اصالة الفن الفرثي • ومع ذلك نرى أن اعتراض روستوفتزيف جدير بالاعتبار حيث أن الوضعية الامامية لم تكن الوضعية الشائعة في الفن الاغريقي ــ الروماني قبـل القرن الاول قبل الميلاد • ومن الغريب أن يختار فنانو الشرق الادنى القديم وضعية غير مألوفة ويجعلوا منها وضعية اجبارية شائعة • ومن ناحية اخرى هنـاك اختلاف في استعمال الوضعية الامامية في الفن الاغريقي ــ الروماني والفـن الفرثي • ففي الفن الاغريقي ــ الروماني ، والى فترة متأخرة ، لم يصـور الاشخاص بوضعية امامية كاملة وانما التفتوا قليلا بحركة الى جانب واحد وبالتالي حافظوا ، الى حد ما ، على علاقتهم بالاشخاص الاخرين المصورين معهم • وهذا الوضع الامامي الجزئي الذي يأخذ فيه الاشـخاص الهيئة الطبيعية الهادئة يختلف عن الشكل الذي يصور فيه الاشـخاص بوضعية امامية جامدة وهم يحملقون في المشاهد والتي توضحت في منحوتات مـن دورايوروبس وتدمر والحضر • وهذا الاختلاف يفند نظرية الاصل الغربي للوضعية الاماميـة •

واذا اعتبرنا الفن احد المظاهر الحضارية المهمة للمجتمـع ورأينـا أن أسلوبه يعكس تطورات ذلك الفن ، فان الوضعية الامامية ، وهي السـمة البارزة للفن الفرثي ، ترتبط بالاحوال الدينية والحضاريـة والسـياسية والاقتصادية للمناطق الغربية من الامبراطورية الفرثية • فالقبائل العربية التي سكنت سورية ووادي الرافدين قد اعتبرت انتصار آلهتها انتصارا لها على

---

٢٨ ـ Schlumberger, Sria, 1960, p. 263.

الآلهة الاغريقية ـ السلوقية التي فشلت في تقديم الحماية لمتعبديها ، فلذلك طغى شعور بالثقة بين السكان الذين كانوا خاضعين للحكم السلوقي . وهذا الشعور القومي المرتبط بالمباديء الدينية والفلسفية التي تؤكد اهمية الفرد أدى الى دفع القبائل العربية الى تكوين علاقة قريبة مع آلهتهم من خلال أشكالها وصورها وبالتالي عاد فنان الشرق القديم الى تقديم الـه حامي أو منقذ فنحته بالوضعية الامامية . وبهذه الوضعية نحت الشخص المهم ، اذا كان الهـا أو متعبدا ، على التماثيل التدمرية الاولى(٢٩)

وخلاصة القول أن الوضعية الامامية قد ظهرت في الصحراء السورية ووادي الرافدين في القرن الاول قبل الميلاد واعتمدت بعد ذلك في النحت والتصوير بصورة دائمية حتى الفترة الساسانية . وقد فشـلت المحاولات السابقة لارجاع الوضعية الامامية اما الى الاصل الغربي أو الشرقي لعـدم وجود الادلة الآثارية التي تعكس اسلوب الفن الرسمي للدولة الفرثية ، غير ان العثور على منحوتة نوروزي التي نشرت صورها في الاونة الاخيرة هيأ لنا دليلا رسميا لتثبيت بداية استعمال الوضعية الامامية في ايران في القرن الثاني قبل الميلاد . وتتيجة التطورات الحضارية التي مرت بها الدولة الفرثيـة اصبحت الوضعية الامامية في النحت والتصوير تقليدا مهما وواسطة فعالة لايجـاد الصلة الروحية والدينية المباشرة بين الاشكال المصورة على اللوحات الفنية سواء كانت تمثل الهة أم بشرا وبين المشاهد .

---

٢٩ ـ M. Colledge, The Parthians, p. 149.

الادب العربي وطرائق تدريسه

الدكتور نوري حمودي القيسي
استاذ في كلية الاداب : جامعة بغداد

تشكل الدراسات الادبية رافدا حيا من روافد الثقافة ، ونبعا اصيلا من ينابيع اصولها المثمرة التي تمكن الفكر وتوجه البناء الانساني لانها تمثل الواقع ، وترسم ابعاد المستقبل وتثبت نوازع الانسان في مختلف الوان الحياة وتكشف عن تصوراته سلبا وايجابيا وقد قدمت الدراسات الادبية خلال امتدادها الزمني ومعالجاتها الموضوعية في كثير من الاحيان ، اشكالا من النماذج التي شاركت في دراسة الواقع الاجتماعي والانساني والثقافي ، الى جانب تصوير النزعات النفسية التي كانت تلوح من خلال التعامل الانساني والسلوك الاجتماعي وتحديد العلاقات وطبيعتها اليومية . وقد اصبحت هذه الدراسات مجالا من مجالات البحث في مختلف الميادين ، لانها عكست واقعا ملموسا ورسمت صورا انسانية واضحة ، وتجلت من خلالها الوان من النوازع .

وقد اقترنت الدراسات الادبية بتاريخ الادب واصبحت جزءً منه ، وارتبطت احداثها باحداثه، وصورها بصوره، وضاقت بينهما الحدود، وتعمقت الاسباب واتصلت الاشكال حتى خضعت الدراسات الى احداث التاريخ ، وتأثرت بوقائعه ، وحسبت في اطار سنواته وفي حدود عصوره وهي ظاهرة تحمل من خلالها الادب احكاماً قاسية ، وتعرضت فنونه لمقاييس غير محكمة ، واخضعت اتجاهاته لمنطق تاريخي بحت . وهي امور لايمكن تجاوزها اذا اردنا ان نعرض

لكل اتجاه ، او نقف عند كل تيار ، او نحدد خطوات كل مسار . لان هذه القوالب حشرت الادب في اطـر تقليديـة ضيقة ، واجبرته على أن يقـع في حدود هذه الاطر ويستجيب لكل ظاهرة يعكسها التاريخ ، وينطلق وفق مفاهيم ألزمته بهـا طبيعة الاحـداث .. فذابت كثير من اصوله في ملامح التقليد ، واندثرت اشكال فنونه في امتداد الزمن المفروض ، واختزلت شوامخ اعلامه في خضم الاعداد المقررة من نماذجه .. فعاشت النماذج الادبية ضعيفة مملة لكثرة تكرارها باهتة ذاوية لطول ماتناولتها الايدي، وتعاورت عليها الالسن، وتوالت عليها الشروح التقليدية المبتسرة . وبقيت العصور التاريخية اغلفة سميكة ، تحجب الرؤية من خـلالها ، وتموت قدره التجاوز فيها ، وتطبق بكل حدودها وتواريخها على النص الادبي لحصره في الفترة الزمنية ، وكأن الادب اقترن بالعصر ، ووقفت مشاعر الشعراء عند حدود الزمن ، أو انتهت بحدود قيام الدولة ، او اختلفت باختلاف الحـكم القائم ، ان تضييق دائرة العصور وربط الادب بالسياسة وألحاقه بالاحداث السياسـية وتوزيعه وفق اقسامها واشكالها يجعل الادب تابعاً للاحداث كما دفع الباحثين والدارسين الى التفتيش عن النص الملائم والاتجاه الموافق لتلك الاحداث محاولة لابراز صورة التأثر بها وتأكيد جانب الانقياد لاسبابها . فالسياسة في عرف هذا التقسيم هي المحور المحرك ، وهي الدافع الحقيقي للادب ، وان الادب هـو الصورة المعكوسة للجانب السياسي ،وهذا يفقد الادب حركته الاجتماعية، ويميت في اعماقه قدرة الانسان العربي المبدع الذي حددت عناصر تفاعله .ان احداث العصر السياسية لايمكن ان تمثل بالضرورة صورة الحياة الادبية ، وان محاولة وضع المقاييس الثابتة واضفاء صفة العصر رقيا وازدهارا ، تخلفا وانحطاطا على الادب لايمكن ان تقوم اساساً في تقييم الادب ، او تعطي الشكل المتميز له ، او تبرز القسمات الانسانية لحركة الشعر او النثر[1] .

---

(1) عالج الدكتور طه حسين هذا الجانب في كتابه ذكرى أبي العلاء ، وفي الادب الجاهلي ووقف عنده وقفه طويلة الدكتور شكري فيصل في كتابه القيم مناهج الدراسة الادبية في الادب العربي .

ان التمسك باستمرار هذه النظرية ، والانطلاق من مرتكزاتها في تحديد طبيعة ادب العصر ، وتثبيت خصائصه ، والحرص على حشر النصوص او تجميعها من اجل تأكيد هذه الحدود ، او تثبيت تلك الدوافع ، ادخل الادب في اطار التشخيص الضعيف ، والقى عليه اعباء النظرة التقليدية وقد ظلت اثار هذا المنهج تنحت النصوص نحتا ، وتبتسر الاعلام ابتسارا وتضيف الى العصر تراكمات الاحكام بعيدا عن التحليل ، وبمعزل عن النصوص التي يمكن ان تقدم للادب خطا جديدا ، وللحركة الفكرية زادا متميزا ، وللواقع الاجتماعي ابعادا انسانية تكشف عن طبيعة العلاقة الفردية او الجماعية ، فالحياة السياسية لا يمكن ان تكون ضابطا للتحرك الادبي في كل الاحوال واذا قدر لهذا المقياس ان يصبح في مرحلة او يحقق النجاح في حقبة من الزمن فانه لا يمكن ان يظل معيارا مستديما في التقييم ، واساسا مستمرا في تحديد عناصر الربط والنجاح ، والذي نعلمه ان واقع الحال يختلف اختلافا كليا عن هذه المقولة ، هذا اذا سلمنا بالتاريخ وباحكامه وضوابطه ونقوله ودراساته وفق المنطلقات القديمة ، او التصورات التي اصبحت موضع نقد حاد ، ومجال مناقشة واسعة • فالتاريخ بحاجة الى اعادة نظر ، وفي تقييم احداثه مجال واسع ، وفي تأكيد جوانبه حديث طويل •

ان المحاولات الاخيرة التي استهدفت دراسة التاريخ ، والآراء الكثيرة التي قيلت بشأنه والمعالجات التي وضعت الحدود الاساسية لما يجب ان يدرس منه ، وما يجب ان يبرز من احداثه ، وما يجب ان يؤكد عليه • تمثل التحرك الجديد الذي سيعطي لتاريخ الامة وجهه الحقيقي ، وتمثل التوجه الصائب في اليقظة الفكرية التي يجب ان يضطلع بها المفكرون والمثقفون في الربع الاخير من هذا القرن ، لتتمكن الامة من اعادة النظر في بناء كثير من مكوناتها التي بقيت ترسم لمسيرتها خطها غير الحقيقي ، وتوجه اجيالها الوجهة غير

الصائبة وتمكن في نفوسهم عوامل الضعف والتدهور والانحطاط ، وتغـذي روافد الانقسام ، ومسارب التمزق ، ان هذه المحاولات التي بدأت تأخذ مجالها في الوسط الجامعي ، وحجمها في عملية التأليف الواسعة في اطار المناهـج المدرسية المقررة لا يمكن ان تكون بمعزل عن دراسة الادب الذي ارتبـط بالتاريخ ، واشترك في كثير من احداثه عاملا مؤثرا ومتأثرا ، فاعلا ومنفعلا ، لتتمكن الدراسة الادبية ان تعيد لاصولها ما فقدته •

ان انتهاء تدريس الادب العربي وفق العصور انتهى الى التحجر والجمود وبالتالي الى الضعف الذي استبد بالادب حتى اصبح غير قادر على مواكبـة العصر ومسايرة الاحداث واخيرا الى العزلة التي يشعر بها طلبتنا وهم يرددون العصور ترديدا مملا غير قادر على ايجاد المخرج المناسب من دائرة الضغط التقليدي ، عصرا واعلاما ونماذج •

ليس من السهل علينا وضع اسس مدروسة جديدة في تدريس الادب ، او تهيئة اتجاه جديد يأخذ على نفسه استيعاب الادب العربي ، الذي امتد زمنه امتداداً عميقا واتسـعت رقعتـه اتسـاعا شـاسعا ، والاحالة به وبفنونه واعلامه واغراضه احاطة تلم بها الماما ، لان ذلك يعني الوقوف على كل ما قيل او نشر او كتب ، ويعني دراسته دراسة تمحيص وتأمل واستقراء الاحكـام استقراء منطقيا ، واستيعاب التيارات الادبية والاجتماعية والنفسية التـي صاحبت كل غرض ورافقت كل فن ، واثرت في اتجاه كل علم ، من اجـل استخلاص الصورة الواضحة ، والوصول الى الحكم الذي يحقق للادب صورته وللاديب طموحه الذي كان يريد ان يصل اليه •• ان هذه النظرة تمثل الطموح الحقيقي لما نريد ، والصورة التي يجب ان تكثف من اجلها الجهود ، والهدف الذي يجب ان يسعى اليه كل مثقف ومفكر واديب لتتمكن هذه الامة من اعادة النظر في مكوناتها الادبية اعادة موضوعية سليمة لتكون قادرة على فرز الواقع الادبي وتحديد الجوانب الانسانية التي يمكن ان تضعها موضع المرتكزات في البناء الادبي الجديد •

ان سيطرة النظرية المدرسية على المناهج الدراسية ، واستقطاب التأليف حول مفاهيمها وتوجيه مفردات المناهج الى الوجهة التي تؤكدها وتثبيت الاصول التي تبنتها جرت على الادب امورا كثيرة ، عانتها الاجيال ، وتحملت اعباءها قوافل الباحثين الذين اضطروا الى تحديد احكامهم من خلال المنطلقات المحددة وتقييم الاشكال الادبية وفق المقاييس المعروفة والمواصفات التي ظلت تدور في اطار الزمن المحدد والاشخاص المرسومين والاطر النقدية التي سلمت بها الاجيال لما قيل بشأن كل فن وشاعر وظاهرة ...

ان سيطرة النظرة المدرسية التي اكدت ربط الادب بالسياسة وانتهت اخيرا الى تفسيرات بعيدة في كثير من الاحيان عن واقع الحياة ، لم تكن النظرية الوحيدة التي سادت تدريس الادب او سحبت احكامها على كل جوانبه واتجاهاته وتياراته ، وانما استطاعت ان تبسط ظلا واسعا ، وامتدادا عريضا على جزء كبير من منشورات الادب ودراساته واننا نستطيع ان نؤكد انها قدمت بعض الحلول لتحديد المفاهيم وشاركت في تقريب الاسس التي استطاعت ان تمهد لكثير من الدراسات الادبية خلال الفترة التي عرفت بها وتأخذ دورها في التحليل والتحديد والتقييم .

لقد كان المجال مفتوحا امام ظاهرة دراسة جديدة تعتمد الفنون الادبية اساسا في تحديد نشأة كل فن وتطوره ، وما صاحبه من مظاهر وعلق به من اشكال جديدة محاولة للوقوف عند اقدم الفنون ــ وهو الشعر ــ لابراز معالمه الواضحة وبداياته الاولى وفنونه الشائعة وبعده النثر ثم الخطابة وهكذا تستمر عملية دراسة هذه الظواهر لتوثيق الصلة بين النصوص الادبية المتشابهة والمقاربة التي ابتعدت عن مجال الدراسة فاصبحت شبه منقطعة عن كل دارس . ان متابعة الظاهرة والسير في ركاب القصائد او المقطعات او

النماذج وفق التخطيط الذي يجمعها في اطار فن واحد ، او اتجاه موحد يتيح لكل هذه النماذج ان تقدم عطاءها وتثري البحث بفوائد جديدة ، ومشاعر صادقة ومنطلقات تعبيرية اصيلة او شكلية ، دلالات عميقة ، تعجز في كثير من الاحيان ان تقدمها النماذج المشهورة أو الشعراء الذين برزوا من خلال التقسيمات القديمة .

ان محاولة استقصاء الفن الادبي ومتابعة تطوره وما استجد فيه من متطلبات وعالجه من موضوعات ، وعكس فيه من اراء وعبر عنه من مشاكل او علاقات اجتماعية تمثل اتجاها آخر يوسع افاق البحث ، ويعمق تحليل النصوص ، وينوع الابعاد التي يتحرك في اطارها النص وقد استطاعت الدراسات الاخيرة والتحقيقات الواسعة لدواوين الشعر العربي التي جاوزت حدا لم تبلغه في عصر من العصور السابقة ان تغطي فترات زمنية عريضة ، وتقدم نماذج جديدة لم يسبق لها ان تنشر على شكل مجاميع ، وقد قدمت هذه الدواوين بدراسات وقفت عند الملامح التي برزت في شعر كل شاعر ..

ان دراسة الادب وفق المنظور النظري للفنون الادبية سوف يتجاوز بشكل حاسم ظاهرة العصر وحدوده ،وربما ستبتعد اسماء بعض الاعلام الذين ارتفعت اسماؤهم شوامخ بارزة وسيتجه الى كثير من المغمورين الذين انحسروا عن دائرة الضوء وعاشوا في زوايا النسيان ، لان العصر تجاوزهم لاسباب ، والادب اقفل ابوابه في وجوههم لدواع ، وربما يجد الدارس عندهم مالا يراه عند غيرهم ، ولعل الامر يدفع الباحثين الى الاستشهاد بنماذج عدى بن زيد العبادي اكثر من نماذج طرفة بن العبد ، وبتحليل شعر ابي دؤاد الايادي اكثر من تحليل شعر الحارث بن حلزة ، وبالانتفاع من شعر زيد الخيل الطائي اكثر من الانتفاع من شعر عبيد بن الابرص .

ان توحيد دراسة النصوص ومحاولة وضعها وضعا زمنيا مرتبا ، وتنسيقها تنسيقا يحدد الصورة الاولى وما اضيف اليها ، واللون الاول وما زيد عليه والصياغة التقليدية والابداع الذي زوق ابعادها ، او جدد مضامينها سوف يترك الاثر الكبير في متابعة الشكل الفني وتقدير الشاعر المبدع وتحديد الخطيب الاول ، وتثبيت اركان العمل الفني الاصيل • وفي ضوء هذه الحركة التي ستدفع الدارسين الى تقليب الصفحات الكثيرة ، واستخلاص الاشكال الموحدة ، والوقوف على الحالا تالتي تبدو عليها سمات التأثير او التأثر • تتركز نظرية دراسية واضحة ، وتنفرد خصائص اتجاه ادبي جديد يمكن ان يشارك الى حد كبير في تقديم نماذج غير النماذج التي الفناها والكشف عن واقع ادبي واجتماعي وفكري وسياسي غير متميز في النصوص الاخرى التي درست من خلال النظريةالمدرسية •• ومع هذا فان هذا التوجيه لا يعني ان دراسة الادب ستكون ملائمة لما نريد او متفقة مع الخط الفكري الذي نسعى اليه من خلال ملاحظاتنا •

ان هاتين المدرستين لا تشكلان الاصول الاساسية في توجيه دراسة الادب وانما هناك اتجاهات اخرى لا اريد الحديث عنها لانها تمثل محاولات غير مكتملة في التوجيه مثل دراسة الادب في ضوء خصائص نظرية الجنس • ودراسته في ضوء النظرية الثقافية ، ونظرية المذاهب الفنية والنظرية الاقليمية وكلها تنبثق من نوازع محددة • وتنطلق من حدود ثقافية غير مستوعبة لتجربة الادب العربي • وربما حددت ابعاد كثير منها بعيدا عن خصوصية الدوافع الحقيقية التي شاركت في العمل الادبي واثرت في اتجاهاته التي حددها الادباء فجاءت غريبة عليه غير مؤتلفة مع ظروفه واحواله •

ان مشكلة تدريس الادب لا تختفي وراء النظرية التقليدية التي التزمت بتحديد العصور او النظريات الاخرى التي اخذت على عاتقها الاندفاع وراء

كل اتجاه .. ولكن الواقع يختفي وراء امور كثيرة تتعلق بالاحكام النقدية التي اطلقت على الادب وعلى الشعر والشعراء ، فحددت الخطوات ، وحجرت الابداع ، واخضعت الامور الى مسائل اصبح تجاوزها امرا صعبا ، والتحدث بغيرها يشكل خروجا على المألوف ويمكن ان اسميه (خروجا على عمود الشعر) كما قيل فالاحكام التي رددها ابو عمرو بن العلاء بشأن النابغة وغيره ، وما قاله الاصمعي عن زهير واضرابه من الشعراء والمقاييس التي قيلت بشأن امرىء القيس وطبقته اصبحت امورا مسلما بها واحكاما غير قابلة للنقاش ، ومقاييس غير مقبولة في الواقع الدراسي او النقدي ، وقد دفع هذا الحرص والالتزام الى توجيه الاقوال في اتجاه النظريات التي جاءت على لسان ابي عمرو بن العلاء والاصمعي وابن سلام وابن قتيبة والمرزباني والعسكري وابن رشيق وغيرهم من اعلام النقد ..

ان هذه الاحكام لابد أن تأخذ دورها في المجال النقدي ولا بد ان تكون قائمة على اسس وجد فيها النقاد القدامى مجالهم في الانطلاق ، ولا بد للدارس من الوقوف عليها او التأكد منها ، ولكننا ايضا ملزمون بمتابعتها ، والتحقق من مطابقتها ، والانصراف الى معالجتها معالجة جديدة ، وتناولها تناولا شاملا يعطي هذه الاحكام سعة الامتداد وسلامة التقييم السليم ، وصحة التأكيد ..

فالاستاذ او المدرس ظل يؤمن بهذه المقولات ايمانا مطلقا وظل يدور في اطارها دورانا افقده قدرة المتابعة ، وسلب منه حق التثبت من مدى صحة هذه المقولات ، فنحن لم ندرس ديوان امرىء القيس او زهير او النابغة دراسة مفصلة ، محاولين الوقوف عند سلامة الاحكام التي قيلت بشأنهم ، ومتابعين الاراء التي وردت بحقهم ، ومتحققين من الظواهر الادبية او اللغوية او الفنية او النقدية التي وصفوا بها او اشتهروا بالتعبير عنها . وما يقال عن

هؤلاء يقال عن غيرهم وعن الاغراض التي عالجوها والفنون التي عرضوا لها ، والمعاني التي حددوا فيها ، واشكال البيان التي استخدموها ومن هنا كان جور الاحكام مفروضا ، وسيطرة الخضوع واقعة ، ومحاولة التجديد لازمة من هذا اللوازم التي ظل ادبنا يجر من ويلاتها اصناف الاضطهاد ، فوقع الشعراء في دائرة الضغط الزمني ، وحسبوا في مواقع الاحكام السريعة ، وقيدوا باغلال النقود الانية ، ودفعوا دفعا الى ارتداء اردية حملتها اليهم مقولة مقطوعة ، وحكم فرضته عوامل ، ومنطلق لم يكن لهم فيه يد ..

ان هذه النظرة الى النقد والادب تدفع الباحثين والدارسين الى ان يعيدوا النظرة في الاحكام ، فيعودوا الى الشعر يقرأون ابياته ويحللون احكامه ، ويدرسون الشعراء من خلاله ، ويستشفون الواقع من احداثه ، ويقيسون الاغراض من خلال معطيات المعاني التي زخرت بها القصائد بعيدين عن الاحكام التي تفرضها النوازع ، والمقاييس التي خلفتها التزامات العصور ، وثقافات الزمن السحيق ، ورواسب المدارس الادبية الضائعة .. وبعدها يقارنون الصورة بما قيل بشأنها ، والنتائج بما حدد لها ، لوضع الدراسة موضع التطبيق ، والتحليل موضع الاستئناس .

ان هذه الملامح تشكل الصورة الجديدة التي يجب ان تبرز ، والواقع الادبي الذي يمكن ان يعمم ، والشكل الحقيقي الذي يجب ان يسود لنعطي الطالب النص السليم والحكم الصائب ، والنقد الموضوعي ..

انني استطيع أن أؤكد ان الدراسات النقدية التي ابتلى بها النقد العربي الحاضر لم تكن الا صورا مكررة لنماذج قديمة والواح مماثلة لاشكال مضغتها العصور ، ولاكتها الاجيال ، وزخرت بها بطون الكتب ، فاعدناها بقالب عصري ، وكررناها في كتاب طبعت اوراقه على ورق ابيض ، وطويت صفحاته في غلاف مزركش .. اما الاراء فهي هي ، والاقوال كما قالها القدامى قبل مئات السنين .. لم تتابع ولم تناقش ولم يكتب لها ان تأخذ دورها في التطبيق .

ان هذا الجانب يوضح بعدا آخر من ابعاد المشكلة التي لا اريد ان اذهب ابعد في سردها لتكــون مجالا من مجالات الدراسة ، ودائرة من دوائر الاستقطاب الثقافي من اجل خلق المدرسة النقدية التي تستطيع ان تضطلع بمهمة العمل وفي اطار المنظور الادبي الصالح ..

لقد جرت هذه الاحكام على ادبنا مقولات خطيرة ، فــوصف الادب باوصاف بعيدة عن واقعه ، وصنف الشعراء في مجاميع غريبة ، فهذا شاعر احكمته الصنعة فاخضع لمدرسة معينة . وذلك شاعر مطبوع لم تستقطبه مدرسة عبيد الشعر فجرى على طبعه دون تكلف وهذا شاعر ضعف شعره في الاسلام لان الشعر في عصر الرسالة كانت له احكامه وهذا شاعر تكسب في شعره وامرؤ القيس سبق العرب الى اشياء ابتدعها ، واستحسنتها العرب ، واتبعته فيها الشعراء باستيقاف صحبه والتبكاء في الديار ورقة النسيب ، وقرب المأخذ وشبه النساء بالظباء والبيض .. الخ ـ والنابغة احسن اهل طبقتــه ديباجة شعر ، واكثرهم رونق كلام واجزلهم بيتا الى آخر هذه الاحكام التي ظلت تشق طريقها في اذهان الدارسين ، وتعمق دلالاتها في بحوثهــم دون متابعــة ..

انني احس بان امثال هذه الاحكام لابد ان تعاد في ضوء التناول الجديد ، وتقوم من خلال المحاكمة السليمة ، لتأخذ موقعها الشمولي ، ودرجتهـــا الصائبة ..

واذا حاولنا تجاوز الاحكام النقدية واجهتنا مسألة اخرى تخص الطريقة التي عولجت بموجبها دراسة الاغراض الشعرية وحددت بموجبها اتجاهات الشعراء ، فالمديح صورة للتملق والتكسب بموجبه تنعدم كرامة الانسان ، وتموت نزعة التطلع ، وتندفع شهوات الانتفاع الشخصي وفيه يتحول الشاعر

الى انسان تستملكه المادة ، وتهز مشاعره الاعطيات وفي ظل هذه الاحكام تتحول قصائد الشعراء العظيمة وجهودهم الانسانية الرائعة الى بضاعة رخيصة، سحقت فيها المشاعر ، وبيعت في موازينها الاحاسيس رخيصة ،وبعدها نريد من طلبتنا ان يحترموا ادبهم ، ويتعلقوا بنماذجهم ، ويلتزموا بالقيم التي حملها اليهم ادبهم العربي عبر مسيرته ..

والهجاء نموذج للسب والشتيمة ، ومجموعة من الاوصاف التي حاول الشعراء ان يلصقوها بخصومهم لانهم امتنعوا عن العطاء ، وكأن الشعراء كانوا يوظفون الشعر لسلب الناس اشياءهم وتجريدهم من خصائصهم ، واجبارهم على تقديم العطاء وكأن الشعر سلاح من اسلحة الارهاب التي تشهر امام كل انسان .

ان استمرار النظرة التقليدية الى شعر المديح والهجاء قد تركت اثارا سلبية في تقييم هذا الشعر وتحديد معانيه وتحليل مضامينه ، وقد دفعت الباحثين والدارسين الى ان يقفوا منه موقفا محددا ويتحركوا نحو نصوصه تحركا حذرا ، وقد ادى هذا الموقف الى اهمال قدرات شعرية كبيرة وترك مجاميع من النصوص اجهدت اجيال الشعراء نفسها عبر العمر الطويل للأمة لتقديمها ثمرة فنية ، وافكار انسانية ، ومجالات حملت القيم الاجتماعية والانماط السلوكية وحددت طبيعة العلاقات التي كانت تحرك العوامل الاساسية للمجتمع العربي عبر فتراته المختلفة .... ان اعادة النظر في اغراض المديح والهجاء وتحليل مضامينها وفق المفهوم الذي يعد المديح محاولة من الشعراء لرسم الصورة النموذجية والدعوة الى الالتزام بالمثل العليا التي تعارف عليها المجتمع وتحديد الأسس التي يجب ان يتصف بها الممدوح ، واشعاره بشكل غير مباشر للتوجه نحو القيم الحقيقية التي اصبحت جزء من

المرتكزات التي يعتمدها المجتمع ، وتسعى الى تحقيقها الامة ، وتتطلع الى الالتزام بها مجاميع البشر وجماهير الناس ، واستخدام الاسلوب التوجيهي ان هذه المحاولات التي كان الشعراء يحملون لواءها فينطلقون معبرين عن التطلع الانساني المتمثل في الحصيلة الشعرية المتكاملة التي كانت تاخذ الشكل الاعلاني الذي ينشره الشاعر في محفل رسمي او مجتمع عام او مجلس اخواني ، او مناسبة دينية او قومية استطاعت ان تشارك في تأكيد الوعي ، وتساهم في تثبيت المفاهيم العادلة التي ظلت الغاية الحقيقية لكل التطلعات وقد اكتسبت جانب الاحترام ، وصورة الالتزام لان الشعراء كانوا وما يزالون يمثلون القادة والرواد في المجتمع ، وان القصائد التي ينظمونها والمعاني التي يتطرقون اليها . والمفاهيم التي يطرحونها ، تمثل في كثير من الاحيان ضمير الامة الواعي ، وصورة النزوع الحقيقية ، ونموذج الدعوة التي تشتاق اليها النفوس ، وتتطلع اليها الجماهير .

ان قصيدة المديح كانت ترسم هذه الملامح ، وكانت تنشد هذا الواقع ، على الرغم من المبالغات التي تخالط الكثير منها ، والكذب الذي يشوب بعضها ، والمطامع الفردية التي كانت تدفع جانبا منها لكن الواقع التحليلي للقصيدة ، والمضمون الفكري الذي يتخلل الابيات كان يشكل الطموح المشروع للحياة ويصور النزوع الانساني الذي يساور النفوس ، ويرسم النموذج المنتظر للانسان الذي تريده هذه الجموع ويحدد ابعاد الحاكم الذي يجب ان يقود المسيرة او يحقق الفوز ، او ينشر العدالة ، ويأخذ بيد هذه الامة نحو الطريق الذي رسمته لنفسها وقد كانت ملامح الدعوة الى الاقتداء بابطال الامة واستلهام العدالة من رجالها الخالدين ، واستشهاد الشعراء بمواقف الصمود المنتزعة من التاريخ ، كانت دليلا من ادلة الارتباط الذي يدعو اليه هذا الغرض ولعل قصائد جرير والفرزدق والراعي وبشار وابي نواس وابي تمام

والبحتري والمتنبي وابي فراس والشريف الرضي والشعراء الاخرين الذين لم تدخل قصائدهم التي قالوها في المديح بسبب السياج الزمنـي المفروض وقيود المدرسة التقليدية ، تشكل المؤشرات الواضحة في اعادة النظر في الشعر العربي في ضوء مقولات جديدة ، وتناول مغاير ، وتحليل المضامين تحليـلا اجتماعيا ونفسيا مرتبطا بالواقع الاجتماعي والنفسي الذي كانت تعانيه الامة ، وتسعى اليه من خلال القنوات الشعرية السليمة والاحاسيس الفكرية التـي كانت تجد في الشعر مجالها الوحيد للتعبير .

اما الهجاء الذي اصطلح على تعريفه بفن الشتم والسباب ، او نقيض المدح كما كان يقول قدامة بن جعفر (توفي عام ٣١٠) فقد سار هذا الفن في اتجاهات ثلاثة ، الهجاء الشخصي والاخلاقي والسياسي . وقد اعتمد هذا الفن بشكل واضح على دقة الملاحظة والاسلوب اللاذع ، والذكاء المفرط والفطنة في تحديد النقص ، والسخرية الموغلة ، والقدرة على التماس الصور التي تتضح فيهـا العيو بالى جانب المهارة التي يستخدمها الشاعر في انتزاع الاشكال من القيم العصرية والتقاليد السائدة وقد استطاع الشعراء ان يستخدموه سلاحا مـن اجل الانتقام من خصومهم ، وفضح الممارسات اللااخلاقية واللاانسانية التي كان يرتكبها البعض ، وتجريد المهجو من القيم التي اعتمدها المجتمع وامنت بها الجماهير ، لاسـقاطه ، وابعـاده عن الموقع المحدد له ، والايغال في رسم الصورة الساخرة وتجسيد الشكل المزري للرذائل ، والصفات القبيحـة وابرازها ابرازا مشينا ، وتهجينها تهجينا مفضوحا ، لتعريتها وكشفها .

ان هذه المهمة التوجيهية ــ على الرغم من اخفاء بعض الدوافع وراء بعض صور الهجاء واتخاذ هذا الغرض في بعض القصائد وسيلة من وسائل الابتزاز والتهديد ، الا ان هذا لم يحل دون ظهور الصورة الاولى التي كان الشاعر

يريدها من قصائده ، ويسعى اليها من خلال توجيهه ويدعو الى تأكيدها من خلال صوره ومعانيه ، فالصورة التي تؤكد رسم القيمة المرذولة وتحدد ملامح الانزلاق الشائن ، وتجسد الصفة التي اجمع الناس على رفضها ، والموغلة في تقديم الشكل الذي يدعو الناس الى السخرية ، ودفعهم الى الاستهجان • ان هذه المهمة كانت عاملا موجها من عوامل الابتعاد عن مثل هذه الصفات ، او محاولة ناجحة من محاولات الكشف عنها بشكل اعلامي ، واعلان عام لكل الناس ليكونوا على علم بمثل هذا الانسان الذي يتصف بهذه الصفة ، وبهذه المجموعة التي اتخذت لنفسها مثل هذا الرداء ، وبهذه الفئة التي ادعت لها امرا لا تستحقه وليكونوا على علم بالصفات الخلقية او النفسية او الانسانية التي عرف بها فلان من الناس فكان مثار سخرية ، ومجال دعابة ، وصورة استنكار •

ان هذه الدعوات كانت تاخذ حجمها الاجتماعي في اوساط الناس ، وكانت تؤثر في توجيههم تأثيرا محسوسا ، حتى اصح الناس الذين يتعرضون لمثل هذا النقد امثولة لكل الناس وصورة مرذولة لهم وبهذا التوجيه تدرس قصائد الهجاء ، وتحلل المعاني ، وتثبت الصفات التي اتفق المجتمع على رفضها ، وامن الناس بضلالها ، وحددوا لهم موقفا منها ، وبهذا التوجيه يعاد النظر في دراسة هذا الشعر الذي استطاع الشعراء ان يعبروا من خلاله عن ذكائهم المفرط وقدرتهم الخلاقة ، وابداعهم الذي لا ينتهي الى حدود ، بهذا التوجيه يتمكن الدارسون من الوقوف على الجوانب الاجتماعية التي سادت العصر ، والقيم الاخلاقية التي آمن بها النَاس ، وحددوا علاقتهم من خلالها ••• وليقفوا على حركة العصر ، والعوامل الدافعة ، والاسباب المؤثرة في احداثه •

ان دراسة شعر الهجاء في ضوء هذا التصور ، وفي ظلال هذه المعاني سيعطي الادب صورة جديدة ، ويمنح رجاله ابعادا مغايرة ، ويكتب لفنه

خلودا اصيلا ، لانه كان شعر الحقيقة وصورة النقد ، وصوت الحياة الاجتماعية المتحركـــة .

وما يقال في المديح والهجاء يقال في الحماسة والفخر والغزل ، والاغراض الاخرى التي لم نجد لها صورة في اغراض الشعر العربي.ومن الغريب ان تركز المدارس الادبية على اغراض المديح والهجاء والغزل والخمريات والزهديات وتترك الجوانب الاخرى التي اشرقت فيها النفس العربية وتميزت فيها الصورة الادبية ، وتجلت من خلالها بطولة الشعب العربي ، المتمثلة في اغراض الفخر والحساسة والرثاء ... ومن الغريب ان تدرس تلك الاغراض في حــدود الصورة المعتمة ، وحدود المعاني الشاحبة ، واطار الجانب السلبي ، لتعكس الروح التي وقفت وراء الغرض الحقيقي وتميت روح التطلع الذي واكبت حركة الشعر عبر امتداده الطويل ، وخلال مسيرته الظافرة طوال اكثر من الف وخمسمائة سنة ، ان خلود الشعر العربي هذه الفترة ، وتداوله على السن ابنائه دون انقطاع وقدرته على حمل مطامح الامة ، ومشاعر الابناء ، والتزامه بالخط الفكري الواضح الذي رافق المسيرة واحتواءه لفكرها الخــلاق ، ورسالتها الانسانية ،ومبادئها الاصيلة يمثل الابداع الفني الذي مكن الشاعر من استيعاب هذه القناة ليصب فيها مشاعره ويسكب في روافدها عبقريته وابداعه، ويدفع الى اجياله القادمة تجربته وحكمته ادبا حيا وعطاء خيرا ، ونضجــا حضاريا متفتحا ..وقد بقيت هذه الادلة رمزا من رموز استمراره ، وصورة من صور خلوده . ولا يمكن ان يتناسب هذا الخلود مع تلك الصورة التــي حاول الدارسون ان يلصقوها بالادب ، ومع التفسيرات التي تركت شعراءه نهبا لاحكام قاسية ، وتفسيرات غير موضوعية ، ونقود لا تستند الى دراسة موثقة ، ان الدعوة قائمة الى اعادة النظر في دراسة اغراض الشعر الاخرى كالحماسة لتحليل مفاهيمها ، وتحديد مفهوم البطولة ، ورسم ابعاد التضحية

من خلال معانيها وفرز الصور الخالدة التي كانت تؤكدها ودراسة العوامل النفسية التي كانت تدخل عنصرا واضحا في الثبات ، وعاملا حاسما في النصر ، وقدرة خلاقة في الذود والإندفاع ، وتحليل العوامل الاجتماعية التي كانت تختفي وراء كل انتصار ، فتلزم المجتمع بتمجيد هذه القيم ، وتدفع الناس الى الاقتداء بها والسير في طريقها ، والدفاع عن صورها والانتصار لها ، وبالتالي تأكيد المثل التي يندفع من اجلها الانسان للتضحية ، ليصبح النموذج المقتدى والرائد الذي تهتدي به الاجيال . وقد ترك الشعر الحماسي اثاره الواضحة في الشعر العربي ، وشغل مساحات واسعة من القصيدة العربية . لأنه رسم الصورة التي يعتز بها الناس . وحدد الشكل الذي يستحق التضحية، ووضع الحدود التي دارت في اطارها المعاني وقد تخلل الشعر الحماسي كل الاغراض الشعرية واستخدم في معظم المجالات فالفخر والمديح والرثاء والغزل والوصف كلها اغراض تنازعتها ابيات الحماسة ، ودخلتها وفق الاشكال التي فرضت عليها وعبرت عنها او استخدمت فيها

ولابد ان تأخذ دراسة هذا الفن وما تضمنه من معانٍ بعد طرح جانب المبالغة وتوجيه الغرض توجيها اخلاقيا وتربويا وفكريا ، من اجل وضع الاهداف التي رسمها موضع الاقتداء ، ودراسة الاساليب التي اكدت روح التضحية والبذل والصمود والفداء ، دراسة موضوعية ، وتعميق المفهوم الانساني لهذه القيم من اجل ترسيخ معانيها ، وتاكيد الالتزام بها وغرسها في نفوس الدارسين قيما اجتماعية سامية ، واغراضا انسانية رفيعة .

ان معالجة اغراض المديح والهجاء والحماسة في هذا الاطار تمثل التوجه الذي يجب ان تتحرك فيه كل الاغراض الشعرية والتناول الذي يجب ان تتناوله منه لتعطي الوجه الاخر الذي ظل بعيدا عن الدراسة وكان مقصودا

لذاته ، وظل صورة غير مرئية ، وكان اساسا في التصور وقد حاولت معظم الدراسات ان تسير في الركب بلا مناقشة ، وتخضع للانصياع بلا تامل ، وتدور في الفلك بلا استيعاب ، حتى اصبحنا نشعر ان هذا الادب الذي كان القناة الاساسية الواسعة التي جرت فيها عواطف الامة ونضجت في محتواها افكارها وتجاربها ، اصبح مادة غير نافعة لا تحوي الا الغث ، ولا تضم الا الصورة الهزيلة ، ولا تعبر الا عن العاطفة الكاذبة فكان الشعر صورة للتملق، او نموذجا للسب والشتيمة ، او وعاء من اوعية العبث او وسيلة من وسائل التسلية اللامسؤولة هذه الصورة الباهته تركت ملامحها على دراسة الادب ، فكان النابغة الذبياني والاعشى وحسان في ظل هذا التفسير نماذج للتكسب المهين ، والاستجداء المذل ، وكان جرير والفرزدق والاخطل والراعي جوقة شتم وجحفل مسبة ومجموعة ابواق اختفت وراءها المزاعم الباطلة ، وكان عمر بن ابي ربيعة وجميل بثينة وكثير عزة وغيرهم ، ارتال عبث ، واسراب عاطفة حسية ضائعة وكان ابو تمام والبحتري والمتنبي ، طلاب مناصب وعشاق مراكز ، يدفعهم الطمع ، وتستثيرهم المواقع فعاشوا ذيولا لا تحركهم الا الهبات المادية ... وما يقال عن هؤلاء الاعلام يقال عن كل اعلام الشعر العربي الذين عبروا عن ضمير الامة، واخلصوا النية من اجل تاكيد وجودها شعرا انسانيا مشرفا ولكنه تحول على ايدي الدارسين الى صور باهته ، وانقلب في احكام النقاد الى قوالب حسية فارغة .

ان هذه الصورة الادبية الضائعة اصبحت تمثل التصور المصاحب لكل الدارسين والباحثين والطلبة وبقيت ارتال المدرسين والمعلمين تعيد هذه الاقوال في الصفوف والكتب وتنشرها في مجالات الدراسة وتؤكدها في كل حديث واستمرت الحلقة المفرغة بين طالب ومدرس ، ومدرس وطالب وباحث ومؤلف ،

وبقيت الصورة الزائفة تتعمق في المناهج الدراسية والتأليف على امتداد المناهج في الوطن العربي ولم نجد من يتحرك للحد من اندفاعها ، والوقوف عند تيارها والانتصار لحركة الحضارة العربية التي اكدت وجودها في كل مجال ، واثبتت قدرتها في كل حركة وبقى تاريخ الادب الحافل بكل جانب بائس ، هو الصورة السائدة وبقيت النماذج الادبية الهزيلة هي اللوحة التي ترتسم عليها امال الامة خلال مسيرتها ، وبقيت الاحكام النقدية المرتجلة هي المقاييس الضابطة والتقيمات السائدة من اجل تحديد المركز ، هي الاسس الموجودة •

هذه محاولة لتقييم المناهج الدراسية وصورة سريعة للواقع المدرسي ، والطريقة المتبعة في تدريس الادب الذي يعد الركيزة الاساسية التي تعتمدها الامة في تثبيت قيمها وتأكيد اصولها ، وتركيز مثلها من اجل بناء الانسان العربي وتعميق انتمائه ، ولا بد لنا ونحن نقدم هذه الآراء من طرح منهج جديد او محاولة جديدة تعيد الى الأدب وجهه المشرق •••••

ان اخفاق المدرسة التقليدية في تدريس الادب ، واخفاق الوصول الى توثيق الروابط بين النتائج الايجابية التي حققها الادب العربي عبر عصوره الطويلة وبين استيعاب الاجيال لهذهالنتائج ، كان بسبب عقمالوسيلةالمستخدمة في هذا الجانب ، وضآلة قدرتها على تحمل المشاعر الوجدانية التيحملها الادب والتجارب الانسانية التي مر بها الادباء وهم يخوضون الازمات الحادة ، ويتعرضون لاخفاقات تاريخية صعبة ، فالادب الذي تدرس بعض شوامخه لاسباب ، وتهجر اكداس الدواوين الاخرى التي شاركت في اعدادها تجارب الامة ، ومحاولات اجيال لايمكن ان يمثل الاصورة واحدة ، او وجها واحدا تبقى جوانبه الاخرى غير مضاءة ، وقد ظلت كل المدارس الادبية التي عالجت

تدريس الادب ـ على اختلاف اوجهها ، وتعدد اتجاهاتها ـ تلامس الظاهرة ملامسة سطحية ، وتعالج الظواهر معالجة شفافة .

وقد دفع ذلك كثير من الدارسين الى وضع مناهج جديدة ، وابتكار اسس حديثة لتغيير الطرائق المتبعة .. وانني اذ أقدم هذا المقترح فأنني ارى دراسته دراسة موضوعية والاحاطة بابعاده احاطة علمية شاملة من اجل وضعه موضع التنفيذ لتغيير الصورة ، وتبديل الوجهة التي سار بموجبها ادبنا العربي .. ومن اجل توثيق اواصر الصلة بين اجيالنا التي بدأت تدرك ان امتها امة عطاء ، وان شعبها شعب تضحية ، وأن ادباءها أدباء التزام ، وضعوا الكلمة موضعها المناسب ووظفوا الحرف توظيفاً موضوعياً من اجل اسعاد البشرية واغنائها بالتجارب الانسانية واضافة الاشكال الحضارية التي انتجتها عقول ابنائها ..

ان مهمة الادب لاتكمن في العصر الذي قيل فيه النص ولا تكمن في الاغراض التي عالجها وانما العلة تكمن في طريقة التناول التي درس بموجبها الادب ، والتحليل الذي فسر به ، والتوجيه الذي وجه اليه ، والتعليلات السلبية التي طبقت عليه ، وفي ضوء هذه المعطيات كتبت الدراسات وألفت الكتب ، واثقلت عقول الطلبة ، وأوغلت الافكار ايغالا مقصوداً حتى تركت آثاراً خطيرة ، ورسمت المناهج في مختلف المراحل لسد الابواب امام الافكار النيرة ، وحجب التفسيرات الايجابية التي تنطلق بين الفينة والفينة من الغيارى والحريصين على تراث الامة ، والمؤمنين بقدرتها الحضارية وقدرة ابنائها على العطاء ..

لابد لي ان احدد الطريقة التي ارى وضعها موضع التنفيذ وهذا التحديد يشمل دراسة القيم الاساسية التي اختزنها الشعر والجوانب الاخلاقية الكريمة

التي عبر عنها والصفات الخيرة التي اتصف بها من خلال الشعر العربي اجمعه ابتداء من العصر الذي سبق الدعوة الى العصر الحاضر وهذه العملية تستدعي جهودا مكثفة واعدادا غفيرة من الدارسين تحدد منهجا واضحا وترسم ابعادا متميزة ، وتهيء قوائم كاملة باسماء الدواوين الشعرية وكتب الادب والامثال والنوادر ، واللغة والمعجمات والتأريخ والجغرافية ومجاميع الشعر وغيرها مما احتجن نصوصا ادبية فالمرؤة وكرم الخلق وحماية المولى والجار والسعي في لم شمل العشيرة والدفاع عن الحمى والحنين الى الارض واعانة المحتاج واغاثه الملهوف واطعام الجائع واحترام القيم الاخلاقية وتأكيد روح الشجاعة وتسفيه رأي المنهزمين ، وتحبيب الموت من اجل العقيدة، وكل المثل الاخرى يمكن اعتبارها اساسا من الاسس التي يحلل بموجبها الشعر في باب المديح او الفخر أو الحماسة وكذلك الامر بالنسبة للمعاني التي تؤكدها الاغراض الاخرى مثل الرثاء والهجاء والاغراض الداخلية التي تشمل عليها القصيدة والمعاني التي يتطرق اليها الشعراء وهي في غالبها موضوعات لها خصائصها الاخلاقية الرقيقة ، ولها اهميتها في بناء الشخصية والمجتمع في مرحلة من مراحل التاريخ •

ان تحليل الشعر وفق المعاني وتجميع الخصائص التي تؤكدها بغض النظر عن العصر الذي قيلت فيه ـ مع مراعاة تطور الصيغ التي تلازمها عبر العصور ـ سوف يترك المجال مفتوحا امام جحافل جديدة من الشعراء حاولوا ان يشاركوا في بناء المجتمع وتطور احواله ورصد الظواهر الخيرة ولكنهم اغفلوا بسبب تجاوز الطريقة التي عولج بموجبها درس الادب وفي ضوء هذا التحليل تدرس مثلا ظاهرة الحنين الى الارض من خلال المقدمات الطللية لان الطلل يمثل الوطن المكاني للشاعر ، وان الحنين اليه والوقوف عنده ، وسفح العبرات في ثنايا نؤيه واحجاره ، ومحاولة تحديد الزمن الذي ابتعد الشاعر عنه مكرها ، تحدد لنا طبيعة المشاعر التي تنتاب الشاعر وهو يناجي ارضه ويسأل بضعة من نفسه ، كانت عزيزة عليه ، قريبة منه ولكن اكره على

الارتحال عنها • وأن هذه المشاعر التي تمثل الذروة العاطفية في القصيدة تحدد لنا صدق التجربة التي كان يتفاعل من خلالها الشاعر العربي وهو يقف حائرا فوق ارض تناثرت فوق احجارها صدق الاحاسيس وذابت فيحبات رمالها ارق العواطف ••••

ان حديث الطلل يقترن بشكل مباشر مع حديث الارض والحنين اليهـا والالتزام بالدفاع عنها وان كل جزء من معالجة الشعراء له ، وكل وقفة مـن الوقفات تمثل الصورة الانسانية التي تركت اثارها فوق حركات العواطف التي عبر عنها الشاعر • ان تناول هذا الموضوع لا يمكن ان يتم من خـلال التماس السطحي ، او الابتعاد عن المظاهر الحقيقية التي كانت تتركز في تعابير الشعراء او في الاساليب الوجدانية او الصيغ اللفظية التي تحمل دلالات المعاني وهم يتفاعلون بها او يتأثرون بمظاهرها •

ان هذه الاشارات توحي بعمق التناول الذي يجب ان تعامل به النصوص، والصبغة الانسانية التي تأخذ حجمها في هذا التناول لتستطيع النصوص اعطاء قدرتها الانسانية ، وايضاح ابعادها الوجدانية وان محاولة التدقيق في المعاني البارزة والدلالات الخافية التي يتلمسها الباحث وهو يحلل النصوص ويدقق اجزاءها ويربط بين كل ظاهرة لها مساس مباشر باطراف المشاعر الانسانية التي يتحسسها وهو يتحدث عن موضوع له صلة الوثيقة بوجودة واحساسـه ومشاعره ، تشكل الالتفاته الاولى التي يجب الاخذ بها في دراسة الادب ، لتأخذ اتجاهها الحقيقي ، وتحدد مساره الانساني الذي اريد له ان يأخذه في مسيرته الطويلة ومعالجته التي عرف بها وهو يؤدي مهمته باخلاص ويؤكد التزامه بوعي ••••

ومثل حديثنا عن الحنين الى الارض او الوطن والالتزام بالدفاع عنه ، يكون حديثنا عن الشجاعة وضروبها ، الشجاعة في قول الحق ، والجرأة في مواجهة الخصم ، والاعتراف بالخطـأ من اجـل معالجته ومجابهة الخصم ،

والاعتداد بالخصال التي تؤكد الصمود ، الشجاعة التي يندفع من اجلها الشاعر لحماية شرف القبيلة ، والذود عن حياضها ، والاستشهاد من اجلها ، ولابد ان يكون مفهوم القبيلة هو مفهوم القوم الذين ينتمي اليهم .. الشجاعة التي يسجل البطل من خلالها مضامين البطولة الفذة والتضحية النادرة ، والاقتـداء بالنموذج ، الشجاعة في استطابة الموت عند الحرب ،ولابد ان يقدم لنا الشعر في كل مرحلة مفاهيم جديدة ومعاني مستحدثة ترتبط بواقع الاحداث ، وتؤكد سلامة الاتجاه وتكشف للناس الصورة الحية التي يرون فيها الرجل الفذ الذي اخذ على عاتقه مهمة التضحية فانفرد بكل قوة ، وتقدم بكل ثقة يحمل اعباء الاندفاع ، ويلتزم باهداف ابناء قومه ليصبح صورة نموذجية ويحقق لابنـاء قومه آمالهم في النصر ، وطموحهم في الاعتزاز ، ان محاولة متابعة هذه المعاني من خلال قصائد الشعر ، ودراسة الصور التي تقدمها ، والاشكال التي تحددها والدلالات التي تؤديها ، ثم توحيد ذلك في دراسة موضوعية ، تحلل الواقع الاجتماعي الذي يمجد امثال هذه المعاني ، الى جانب التحليل النفسي الذي كان يدفع الناس والبطل الى اتخاذ هذا الموقف من خلال دراسة الجو النفسي العام والنتائج المترقبة ... ان هذه الدراسة والمتابعة للشعر ووفق هذا الاتجاه ابتداء من اقدم نص ، تشكل المرحلة الاولى لوضع القيم الانسانية التي عبـر عنها الشعر موضع الدراسة الحية ، واستجلاء الجوانب الاجتماعية التي كان الشعر يمثل القناة الحية لها . وفي ظل هذه الدراسات التي تستقرأ النصوص استقراء حيا ، وتنسق المعاني تنسيقا موضوعيا شاملا ، وتوحيد الاشكال التي كانت تمثل التطلع الحقيقي توحيدا خاضعا لمنهجية سليمة تستكمل عندنا لوحة فنية واضحة ، وتكشف دراسة اخلاقية متميزة يمكن في ضوئها تحديد الخطوط الادبية التي اخذت مسارها في كل فن ، وفرز الاشكال الادبية التي شاركت في البناء الحضاري لهيكل الحضارة العربية الاسلامية ..

ان استجلاء امثال هذه المعاني لا يمكن ان يعزل عن القيم الانسانية التي كانت تؤمن بها الامة وان محاولة دراستها من خلال الواقع العام الذي تحركت فيه هذه القيم تشكل الصورة الاساسية لتكامل وحدة الثقافة العربية . المرتبطة بواقع الاديب ومجتمعه ، وان محاولة تحليلها تشكل محاولة استجلاء قدرة النصوص على التعبير الصادق عن هموم المجتمع وتطلعات ابنائه المتمثلة في هذه النصوص ، لانها استطاعت ان تستوعب المشاعر الانسانية والعواطف القومية التي تحسستها طائفة الشعراء وتحركت في اطار التعبير عنها . وبالتالي اصبحت قادرة على تحمل الرسالة الانسانية التي آمنت بها هذه الامة . لقد زخر الادب العربي بمعطيات اخلاقية كثيرة وهي معطيات تشكل المرتكزات الحقيقية لبناء المجتمع لصلتها الوثيقة بكل جزء من اجزائه ، وان الكشف عن هذه المعطيات من خلال الدراسة الشاملة ، والمتابعة التحليلة الصائبة تشارك مشاركة انسانية في رفع الاعباء الثقيلة التي تحملها المجتمع ، وتنقية النفوس ، وتصفية العادات وانهاء التخلف الذي لازم كثيرا من اوضاع الناس .

فدراسة تحرير المرأة في الشعر العربي من خلال متابعة منزلتها الرفيعة ومكانتها المرموقة ومشاركتها في الجوانب الحياتية ، وتأكيد وجودها عنصرا فاعلا من عناصر الاستجابة لمتطلبات الحياة ودراسة النماذج الكبيرة التي خلدتها فضليات النساء في المجالات الواسعة ، تشكل الى جانب الايمان المطلق بسلامة مسيرة الامة ـ النظرة الرفيعة التي اضطلع بها المجتمع العربي قبل الاسلام من اجل تحرير النفس وانهاء العبودية ، والانتفاع من المرأة باعتبارها قوة فاعلة ومؤثرة وقادرة على الوقوف بوجه مصاعب الحياة ، لقد ترك الشاعر في هذا المجال صورا خالدة واشكالا حية ،وخلد اسماء الخالدات من النساء وهو يتحدث عنهن باحترام يفوق كل احترام وتقدير لايدانية تقدير .. وان تتبع الظاهرة وفق معطيات العصور تحقق النماذج السليمة لمسيرة الحركة الفكرية والحضارية والثقافية التي منحها الادب العربي للمرأة .

لقد حاول الشاعر من خلال تأكيد هذه القيم ان يحرر مجتمعه من كل صورة من صور التخلف ويطوره وفق الاشكال التي يريدها ليجعل هذا المجتمع قادرا على تحمل مسؤوليته في المسيرة القومية وقد دلل هذا الشاعر على تكامل النظرة لانه لم يبتعد في كل صورة عن واقعه ، ولم ينفصل عن مجتمعه ، وقد وظف نتاجه وابداعه من اجل اصلاح هذا المجتمع ورسم الاهداف التي كانت ترتسم في اذهان ابنائه • ومن هنا جاء ادبه وحدة متكاملة من حيث الفكرة والنظرة والمعالجة وقد حاول ان يشد بينها من خلال المشاعر المدركة ، والاحاسيس المعبرة •

ان وضع الخطوط العامة لهذا المنهج ، ورصد الظواهر التي تبرز من خلال المواقف القومية والانسانية ، وتحليل الصور التي تعبر عن الجوانب الاخلاقية الرفيعة المرتبطة بخصائص المجتمع العربي والمنبثقة من حاجاته الحقيقية تشكل الخط السليم لاعادة النظر في كل المناهج الدراسية التي عالجت الموضوع ، وان توحيد الجهود ، وتنسيق العمل من اجل اعادة النظر في الموروث الادبي الموثق ، تعطي هذا الموروث قدرته على العطاء ، وتؤكد هذه القدرة في نفوس الجيل الذي اصبح قادراً على استيعاب تراث امته النافع ، وتقبل عطائها الثر •

الستائر الجصية في الفن العربي اليمني
(العقود اليمنية)

دكتور غازي رجب محمد
قسم الآثار ـ كلية الآداب
جامعة بغداد

لقد ساعد موقع اليمن وثروته اضافة الى طبيعته الجغرافية على قيام حضارة راقية من اهم مظاهرها الاهتمام بالفن المعماري الذي بلغ اوج رقيه وتقدمه آنذاك هذا الفن الذي توارث خصائصه الابناء عن الاجداد على مر العصور فكان ينبوعا غزيرا للحضارة القديمة الخالدة ومفخرة من مفاخر امتنا العربية .

وقد برع الفنان المعماري اليمني في العصر الاسلامي ببناء البيوت والمساكن التي انفردت باسلوب تخطيطها وفن بنائها وزخارفها الرائعة التي ميزتها عن مثيلاتها في الاقطار الاسلامية الاخرى .

اما مواد بنائها فهي الحجر او اللبن او كليهما معا اضافة الى الطابوق ، وكانت صنعاء « طيبة المنازل بعضها فوق بعض الا انها مزوقة »(١)

فالمعمار اليمني استطاع ان يشكل من البيوت الطينية نماذج فنية قيمة بعد زخرفتها وتزويقها وكان جل اهتمامه منصباً على واجهات البيوت ونوافذها . والملاحظ في هذه المدينة وفي غيرها من المدن اليمنية ارتفاع مبانيها

---

(١) ابن رستة : الاعلاق النفيسة ص١٠٩ .

وتجاوزها لسبع او ثمان طبقات يخصص اعلاها لاستقبال الضيوف وللاجتماعات . والدور العلوي يشرف عادة على المدينة ومناظرها الطبيعية الخلابة التي تبعث في النفس البهجة والنشوة والانشراح ويسمى هذا المكان بـ « المنظر والمنظرة »[٢] ويسمى ايضا بـ « المفرج » الذي يمتاز بسعة نوافذه التي تتيح للجالسين التمتع بمباهج البر والجبال .[٣] ويطلق على هذا المكان احيانا اسم « الغرفة الكبيرة » لانها اكبر غرف الدار .[٤] واذا كان هذا المكان صغيرا سمي بـ « الجرف »[٥] وقد تطلق التسمية الاخيرة على النافذة الزجاجية الكبيرة ايضا .[٦] اما في حضرموت فانهم يطلقون على مثل هذه الغرفة اسم « محضرة » تفرش باحسن الرياش لاستقبال الضيوف والنزلاء .[٧]

ولم يقتصر بناء المفرج على الطبقة العليا من الدار بل ان بعضهم بناه مستقلا وبابواب واسعة في حدائق المسلمين ويطل مثل هذا المفرج عادة على نافورة محاطة بالازهار والورود واشجار العنب .[٨]

ويلعب المفرج دورا هاما في حياة المجتمع اليمني فهو غرفة استقبال الضيوف ومجلس القات واقامة الحفلات لذا ينصب اهتمام صاحب الدار عليه فيعتني بتأثيثه وتزيين جدرانه بالمفارش والاطباق المنقوشة وانية الصيني والبلور والنحاس .[٩]

---

(٢) الزبيدي : تاج العروس م٣ ص ٥٧٥ ، العظم : رحلة ص ٩٨ .

(٣) الواسعي : تاريخ اليمن ص ٣١٦ .

(٤) Rathjens, Jewish Domestic Architecture, p. 38.

(٥) الواسعي : ص ٣١٧ .

(٦) جوهر وايوب . اليمن ص ٨٢ .

(٧) اليافعي : تاريخ حضرموت جـ ٢ ص ١٢٧ .

(٨) زبارة : نشر العرف م١ ص ١٦٨ .

(٩) الواسعي ص ٣١٦ و ٣١٧ .

والاهتمام بالمفرج لم يقتصر على العامة بل تعداه الى الخاصة فالامام المتوكل مثلا بنى في بستانه مفرجا زين جميع جدرانه بالصيني واطلق عليه « منظر الصيني »[١٠] .

وعلى مدخل المفرج بصورة عامة باب ذو مصراعين عليه زخارف من الداخل فقط[١١] ويفتح في جدران المفرج كوى ونوافذ متعددة وتزين جدرانه بزخارف جصية وبصفين من النوافذ يعلو احدهما الآخر يمكن فتح السفلية منها عند الحاجة . اما العلوية فهي ثابتة مغلفة بالواح رقيقة من الرخام أو بستائر جصية مخرمة يزينها زجاج متعدد الالوان وهي التي تعني بحثنا هذا .[١٢]

وبيوت اليمن القديمة قريبة الشبه بالحصون الحربية لارتفاعها ولصغر نوافذها التي تستعمل عادة للدفاع ضد الهجمات اما بيوت القرى فهي مكونة من طابقين ومتلاصقة متراصة مع بعضها وجميع نوافذها وابوابها تطل على الداخل ولا يظهر منها شيء من الخارج فهي اشبه بالقلعة التي لايمكن الوصول اليها الا عن طريق واحد حتى ان المطل عليها من الخارج لا يرى غير جدران صماء .[١٣]

وفي حضرموت يضيقون النوافذ خوفا على انفسهم من هجمات الاعداء وكان بعضهم يجعل مشرف النوافذ على قمرة (شمسة) داخل الدار حتى لاتقع عيون الفضوليين على نسائه .[١٤]

---

(١٠) الواسعي ص ٧٢ ــ ٧٣ .

(١١) Rathjens, Op. Cit., pp. 33 f.

(١٢) ابونتي : مملكة الامام يحي ص ٤٨ ــ ٤٩ .

(١٣) هيلفريتز : اليمن ص ١١٧ .

(١٤) الشاطري : ادوار التاريخ الحضرمي جـ ٢ ص ٦٠ وحاشية ٣ .

وقد يكون الغرض من تضييق النوافذ تلطيف جو الدار وتخفيف حرارة الشمس المحرقة كما في الحديدة .[١٥]

وبتطور الذوق اليمني والفن العماري اصبح الميل شديدا لاستخدام نوافذ واسعة بعض الشيء في البيوت الحديثة مع الاحتفاظ بطابعها القديم والذي يسترعي الانتباه هو انخفاض اسفل النوافذ في الادوار العليا خاصة بحيث يستطيع الجالس فيها مشاهدة جميع المناظر المحيطة به دون عناء .[١٦]

وقد تزخرف الابنية من الخارج بنوافذ كاذبة لاعطاء البناء شكلا جميلا متناسقا خاصة في الجدران التي لا يحسن فتح نافذة فيها .

وعلى الرغم من تطور طريقة البناء في صنعاء الا انها ما زالت تحتفظ بطابعها الخاص المميز .

« ومن صنائع البناء ايضا ان تجلل الحيطان بالكلس بعد أن يحل بالماء ويخمر اسبوعا او اسبوعين »[١٧]

ويبيض اهل صنعاء بيوتهم من الداخل والخارج بما يسمونه « قص » و « قصة » وهو يشبه الكلس ويصنعونه من احجار خاصة تجلب من شبام الغراس[١٨] (سخيم)[١٩] وتحرق في افران خاصة ثم تطحن فتصبح جاهزة للاستعمال .[٢٠]

---

(١٥) كفافي : يوميات مهندس ص ٢١ : انظر العظم : رحلة ص ٣٢ ـ ٣٣ .

(١٦) ترسيسي : اليمن وحضارة العرب ص ٧٨ .

(١٧) ابن خلدون : العبر جـ ١ ص ٧٢٧ .

(١٨) الهمداني : الاكليل جـ ٢ ص ٣٨٤ .

(١٩) الاكليل جـ ٨ ص ١٠٤ .

(٢٠) يصنع الكلس في الحديدة بنفس الطريقة من بعض الحجارة البحرية التي تقذفها الامواج الى الشاطى (العظم : رحلة ص ٣١) ونورة المخا « سوداء مثل الماخالقة » (المقدسي : احسن التقاسيم ص ١٠٠) .

واكثر ما يكون في بيوت صنعاء من المؤذيات شيء من الكتان وهو البق ، وقد يعدم في البيوت المجصصة .[٢١] كما ان البيوت المسيعة بالقصة تكون باردة طيبة في فصل الصيف .[٢٢]

وللجص اليمني مزية التماسك والالتصاق النادرة فهو لا يطبع الالبسة ببياضه اذا اتكأ المرء عليه واذا ثبت فيه مسمار فلا يحدث شقوقا او تفتتا[٢٣] فاذا جصصت به الجدران اصبحت كأنها الفضة البيضاء الناصعة[٢٤] وتعود شدة تماسك هذا الجص الى الخيرة التي تخلط معه وما تحويه من مادة الغرة[٢٥] « وصنعاء تجد فيها البناء المتقن والجص الذي يبيض به المنازل قل ان تجد نظيره في غيرها »[٢٦] .

ويتركز التجصيص من الخارج حول نوافذ البناء وتبدو بيوت صنعاء وغيرها من بيوت اليمن كأنها كتلة قائمة اللون الا من بقع بيضاء حول الشبابيك . كما يرسم البناؤون زخرفة متصلة على شكل شريط مستطيل عند اتصال كل طابق بالذي يليه ويسمى هذا الشريط بـ « الحزام » . ومعظم بيوت حضرموت تطلى في كثير من الاحيان بالجير الابيض[٢٧] الذي قد يعكس الثروة التي يملكها الافراد في المدن اليمنية .[٢٨]

---

(٢١) الاكليل جـ٨ ص ١٠ ، الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٣٤٦ ، الرازي : تاريخ مدينة صنعاء ص ٢٠٣ .

(٢٢) الاكليل جـ ٨ ص ٩ـ١٠ ، صفة جزيرة العرب ص ٣٥٣ ، الرازى ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

(٢٣) الرازي ص ١٩٦ ، فايان : كنت طبيبة في اليمن ص ٩٥ ـ ٩٦ .

(٢٤) الرازى ص ١٩٦ .

(٢٥) صفة جزيرة العرب ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤ و ص ٣٥٣ حاشية ٥ .

(٢٦) الواسعي : البدر المزيل للحزن ص ٧ .

(٢٧) اليافعي : تاريخ حضرموت جـ ٢ ص ١٢٧ .

(٢٨) اليافعي : نفس المصدر جـ ٢ ص ١٤٥ .

وهناك بيوت عالية يرجع تأريخها الى قرون عديدة وهي ذات نوافذ صغيرة يغطيها لوح واحد او لوحين رقيقين من الرخام الشفاف المعروف في اليمن بأسم « القمرية » يسمح بدخول النور من خلاله دون السماح بالرؤية الواضحة « وتؤدى الرخامة لمعان الشمس الى القصة فتقبلها بجوهرها وبريقها »[٢٩] .

ولعل سبب تسمية هذه الالواح بالقمرى بياضها الناصع الذي تتميز به[٣٠] ولأن النور الذي ينفذ منها يكون ابيضا هادئا اشبه بضوء القمر كما ان الواح بعض النوافذ دائرية اشبه ما يكون شكلها بالقمر في ليلة التمام .[٣١] ويشير ابن دريد الى ان « البلق » « حجارة باليمن تضيء ما وراءها كما يضيء الزجاج »[٣٢] لعله يشير بهذا الى القمري .

ولعل الظروف السياسية في وسط وشمال اليمن وبرودة الجو فيها كانا السبب الرئيس للاقلال من النوافذ الحقيقية التي صغر حجمها ولكنهم اكثروا من النوافذ الثابتة المغطاة باستائر الجصية الجميلة وبالقماري .

وتعتبر صناعة القمارى من اختصاص مدينة صنعاء دون غيرها من بلاد العالم لان المرمر لم يستخدم كزجاج للنوافذ الا في هذه المدينة وفي بعض المدن اليمنية الاخرى .

ويجلب القمرى كاحجار كبيرة الى صنعاء من مكان يقال له شبام الغراس (الحرة) حيث يستخرج من مقالع عظمية من باطن الارض على بعد ثمانية امتار[٣٣] ثم يقطع الواحا رقيقة حسب الحاجة .

---

(٢٩) صفة جزيرة العرب ص ٣٥٣ ، ترسيسي : نفس المصدر ص ٥٢ .

(٣٠) تاج العروس جـ ٣ ص ٥٠٤ ـ ٥٠٥ ، الدميري حياة الحيوان جـ ٢ ص ٢٢٤ الرازي : مختار الصحاح (بيروت ١٩٧١) ص ٥٥٠ .
Lane, An Arabic - English Lexicon, Part 7, PP. 2562 - 2563.

(٣١) الواسعي : تاريخ اليمن ص ٣١٦ ،

(٣٢) ابن سيدة : المخصص السفر ١٠ جـ ٣ ص ٩٧ .

(٣٣) الويسي : اليمن الكبرى ص ٧٢ Scott, In the High Yemen P. 125.

ولعل استخدام الرخام للاضاءة يرجع الى اصول يمنية قديمة ربما وجدناها في قصر غمدان المرجح بناؤه من قبل (الى شرح يحصب الحميري) حوالي سنة ٢٥ ق٠م[٣٤] • فقد كان قلعة عظيمة بارتفاع عشرين سقفا كل سقفه على ارتفاع عشرة اذرع « وكان في اعلاه غرفة لها لهج وهي الكوى كل كوة منها بناء رخام في مقيل[٣٥] من الساج والابنوس وسقف الغرفة رخامة واحدة صفيحة • وقال آخر كانت الغرفة تحت بيضة رخام من ثمان قطع مؤلفة وذلك احرى لانهم كانوا يثقبون فيها السرج فترى من رأس عجيب ولا ترى فيها حمرة النار مع الرخامة المسطوحة »[٣٦] •

ومن الطبيعي ان لايتوقف الفن العماري عند هذا الحد من التطور وكان لابد من الخلق والابداع فكانت العقود الجميلة الملونة هي الامتداد لتطور القماري على مر الزمن لذا لانكاد نجد بيتا يمنيا حديثا تخلو نوافذه من العقود التي تضفى عليه رونقاً وبهاء •

وتتخذ العقود عادة شكلا دائريا او نصف دائري او المدبب ذو المركزين او المدبب ذو الاربعة مراكز وتركب في كل نافذة تقريبا وتعمل عادة من الجص الذي يقسم الى اشكال مخرمة هندسية ونباتية وحيوانية وكتابات عربية مطرزة بالزجاج الملون الذي يعكس الوانه على جدران وارضية غرف المنزل فيثير في النفس البهجة والانشراح •

والمجصصون هم صناع هذا الفن الرائع الفريد تنتقل اليهم مهنتهم بالوراثة وقد تخصصت عوائل مشهورة بهذا الفن خلال العصور المختلفة مثل بيت رسام والحيمي والهمداني والسلامي وسنهوب ومحمد اليمني ومن هؤلاء من كان يهودياً أمثال النداب وأبو السعود[٣٧] •

---

(٣٤) الاكليل جـ ٨ (برنستن ١٩٤٠) ص ١٩ •

(٣٥) هو ما يوضع فيه الباب بخشبة او الكوة بخشبها .

(٣٦) الاكليل جـ ٨ ص ٢٥ وانظر ص ٢٢ ــ ٢٤ ، معجم البلدان جـ ٦ ص ٣٠١ ــ ٣٠٢ .
Scott, Op. Cit., P. 219.

(٣٧) استنادا الى محادثة مع بعض المجصصين .

وبراعة المجصصين وابداعهم يظهر جليا واضحا لو علمت ان الالآت التي يستخدمونها بدائية وبسيطة لاتتعدى السكين للحفر والفرجال (بيكار) والمسطرة (جسكي) للرسم اضافة الى (بروة) و (مالج) للتسطيح ٠

فالفن العماري في اليمن ابتداءاً من العقود وانتهاءاً بالزخرفة على الجص والخشب يذكرنا بنماذج الزخرفة الموجودة في قصر الحمراء في الاندلس الامر الذي يجعلنا نؤكد على وحدة الحضارة العربية وامتزاجها والتعاون المشترك مع فناني اليمن لبناء قصور الاندلس ونظرة فاحصة الى الزخارف الجصية الموجودة في الجامع الكبير في زبيد مثلا وفي غيره من الابنية الاسلامية تؤيد هذا الانطباع ٠

ومن طريف ما يروى ان الوالي العثماني سنة ١٣١٤هـ أمر بقلع الابواب والطيقان من بيوت اهل صنعاء العاجزين عن دفع معونة مالية وهذا يدل على ارتفاع تكاليف العقود اليمنية ٠[٣٨]

وسمك العقود اليمنية يتوقف على مدى سعتها ويتراوح بين ٣ـ٥ سم واكثر العقود سمكا اكثرها مهارة ودقة ٠ والعقد اليمني يتكون على الاغلب من عقدين احدهما امام الآخر ويبعدان عن بعضهما حوالي ١٥ سم وتخريمات العقد الداخلي مسدودة بقطع زجاجية متعددة الالوان ، أما العقد الخارجي فتخريماته خالية من الزجاج او تغطى بزجاج ابيض شفاف ٠ ولعل سبب اضافة عقد خارجي هو وقاية العقد الاصلي من تراكم الغبار والرمال ومن تأثير الامطار كما ان العقد الخارجي مع العقد الداخلي ذو الزجاج المتعدد الالوان يعملان على عكس اشعة الشمس والتخفيف من حدتها ٠

والعقود اليمنية لاتخلو من الزجاج الملون كالاحمر والاخضر والاصفر والازرق والمفضل هما اللونين الازرق والاحمر بالنسبة للعقد الداخلي واللون الابيض بالنسبة للعقد الخارجي[٣٩] والتنوع في الوان العقد الواحد له اهمية كبيرة في ابراز العناصر الزخرفية المتعددة في كل عقد ٠

---

(٣٨) الواسعي : تاريخ اليمن ص ١٧٣ ـ ١٧٤ ٠

(٣٩) فايان : كنت طبيبة في اليمن ص ٩٣ ٠ Rathjens, Op. Cit., P. 42.

والى جانب العقود الرئيسة في المفرج تبنى شبابيك صغيرة ضيقة مرتفعة تجاورها وتغطى من الخارج في معظم الاحيان بستائر جصية مخرمة خالية من الزجاج وهي تشبه المزاغل تستعمل للتهوية وتسمى « الشاقوص » او « الشاروق »[٤٠] .

وعلى العموم فان الستائر الجصية تعلو شبابيك الطابق الاول او الطابق الثاني كما ان وجودها يعتمد على عدد النوافذ الموجودة في كل طابق بحيث تسمح بدخول اكبر كمية من الضياء والا تركت النوافذ بدون عقود .[٤١]

وقد اعتمد الفنان اليمني في هذا المضمار الزخارف النباتية والحيوانية والهندسية والكتابية ونلاحظ في الزخارف النباتية دقة تفكير الفنان ومهارته في الاداء وبراعته في الرسم والحفر فهو لم يعتمد على الاشكال التقليدية بل تعداها بحذق الى انسيابية التفريعات ورشاقتها التي تمتد وتجرى في اتجاهات مختلفة ومتقاطعة مع بعضها في اغلب الاحيان . وهي من نوع الزخارف التي تم تكوينها الاسلامي في القرن الخامس الهجري .[٤٢]

ومن العناصر التي اقبل عليها الفنان واهتم بزخرفتها وتلوينها وتزويقها واظهارها بأبهى حلة هي الاغصان واوراق العنب والزهرات والمراوح النخيلية وانصافها وغيرها .

« وينفرد العربي بخياله الهندسي الذي ينصب على الكتلة فيقسمها ويجزئها ويحولها الى خطوط ومنحنيات تتكرر وتتعاقب وتمتد الى ما لا نهاية . »[٤٣]

والزخارف تقوم اساسا على التكرار المتقن الذي لا يمل المرء من متابعته وقد استطاع الفنان ان يخلق من الجمع بين الاشكال النباتية والهندسية اشكالا

---

(٤٠) الالوسي : بلوغ المرام جـ٣ ص ٣٩٠ .

(٤١) ترسيسي ص ٧٨ . Rathjens, Op. Cit., PP. 16 f.

(٤٢) حسن : فنون الاسلام ص ٦٢٢ .

(٤٣) فكري « عوامل الوحدة في الآثار الاسلامية بالبلاد العربية » المؤتمر الثالث للآثار العربية ، فاس ١٩٥٩ ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٢٧٢ .

زخرفية لاحصر لعددها وتنوعها • ومن هنا ابتدعت اشكالا فريدة كانت عنصرا من العناصر الهامة في الزخرفة العربية الاسلامية وكالعادة لجأ الفنان العربي الى دمج الواقع بالخيال فقرن عناصر خيالية بالعناصر السابقة من اجل ملء كل جزء من اجزاء السطح المراد زخرفته •

فالكتابة العربية نبعت في الجزيرة العربية وهي تمثل الاصول العربية للفنون الاسلامية ووفرة الزخارف المخرمة جعلت الكتابة متصلة اتصالا وثيقا بجملة التصميم وكثير من العقود اليمنية اشترك الخط العربي في زخرفتها الى جانب الزخارف الاخرى •

ولدى فناني العقود اليمنية الحاليين اصطلاحات عديدة على انواع الزخارف المنجزة فوق عقودهم منها الزنجيري ـ نصف زنجيري ـ عقيق ـ نصف عقيق ـ جرايد ـ خواتم ـ زهرات ـ شجرى ـ حاشية رأس ونصف وغيرها من الأسماء التي يصعب حتى على الفنانين انفسهم تفسيرها في كثير من الاحيان •[٤٤]

وطريقة عمل العقود قديمة تقليدية فبعد ان يخمر الجص يعمل منه طبقة ذات سمك يتوقف على سعة العقد ورغبة طالبه وذلك فوق قاعدة خشبية وقبل ان تجف هذه الطبقة ترسم عليها الزخارف المطلوبة ثم تقطع الفراغات الموجودة بين الخطوط بآلات متنوعة كالتي ذكرتها آنفا •

وهذا النوع من العقود اكثر انتشارا في المناطق الوسطى والشمالية من اليمن ولعل سبب ذلك هو طبيعة المناخ المساعد لأقامة شبابيك ثابتة لا تفتح هذا اضافة الى ان طبيعة البناء اليمني يتطلب اضافة مثل هذه النوافذ لتزيد البهجة والضياء داخلها •

فالشبابيك الجصية المخرمة تعتبر سمة مميزة للمعمار اليمني وتعكس اجمل الأثر في النفس من الخارج عند اضاءة الغرف ليلا ومن الداخل اثناء النهار عندما تنفذ منها انوار مفرحة تنعكس الوانها على الجدران البيضاء •

---

(٤٤) محاورة شخصية مع احد الفنانين .

وامام بعض الشبابيك في البيوت اليمنية ما يشبه الصندوق يبرز عن الجدار حوالي ١٠ـ٢٠ سم يقوم مقام ما يعرف بأسم « مشربيات » ويبنى من الاجر او الحجر مزود بفتحات عديدة في واجهته واسفله يمكن منها مراقبة ما يجري امام باب الدار كما انها تعمل على تهوية الدار وادخال نور هادئة اليها اضافة الى حماية نساء الدار من الاعين الخبيثة .

وقد سدت النوافذ الكبيرة في العصر التركي بشبابيك زجاجية تتكون من صفاقتين داخل اطار يتصل بفتحة النافذة . والشبابيك الزجاجية من مميزات الفترة الاولى للحكم العثماني وهي تغطى بابواب خشبية صغيرة ذات مصراعين فوق كل شباك وهذه المصاريع مزخرفة بزخارف جميلة جدا يمكن رؤيتها من الخارج عند فتحها ومن الداخل عند اغلاقها .(٤٥) ويعلو الشبابيك الخارجية سقف خارجي مائل صغير يحميها من المطر . وقد استعيض احيانا عن هذه الابواب بستائر خشبية مشبكة على شكل قفص بارز يضيق كلما أرتفع الى اعلى(٤٦) . ولهذه المشبكات فائدتها العمارية في التهوية الدائمة وفي الأضاءة اضافة الى التخفيف من حدة الضوء الداخل الى البناء وقد عجز معماريو الغرب عن تفهم عمق الحلول العمارية في الشرق واقتباسهم لاشكالها دون جوهرها .

وصناعة الزجاج كانت معروفة قبل الاسلام في جنوب غرب الجزيرة العربية الا انها لم تستمر في القرون الاسلامية الاولى ولم تتجدد(٤٧) ، فقد استخدم الزجاج الفينيقي في الستائر الجصية التي زينت قصر الحير الغربي في بلاد الشام .(٤٨)

اما اقدم نماذج هندسية للستائر المخرمة في العصر الاسلامي فنجدها في جامع دمشق والتي يرتبط تأريخها بتأريخ بناء الجامع وهي من الرخام المفرغ

---

(٤٥) Rathjens, Op. Cit., PP. 17, 41-42.

(٤٦) الواسعي : تاريخ اليمن ص ٣١٦ Rathjens, Op. Cit., PP. 42-43.

(٤٧) Rathjens, Op. Cit., PP. 31 f.

(٤٨) عبدالحق « اسهام في دراسة الزجاج » الحوليات ١٩٥٥ ص ٨ـ٩ نقلا عن بهنسي « تكون الفن العربي » الحوليات ١٩٧٢ ص ٢٨ .

في اشكال هندسية غاية في الدقة والابداع تعكس مدى استهانة الفنان بالزمن والجهود في سبيل الوصول الى الكمال الفني .[٤٩]

واقدم الشبابيك الجصيـــة المخرمة في مصـر وجدت في جامع احمد بن طولون وهي خالية من الزجاج واغلب الظن ان ثلاثة او اربعة من الشـبابيك فقط يرتبط تأريخها بزمن تأسيس الجامع وبعض الشبابيك الأخرى تشبه احد الستائر الرخامية في جامع دمشق اذ ان زخارفها معمولة بالبيكار من دوائـر واجزاء دوائر وهذا الشكل لم يتكرر بعد القرن العاشر .[٥٠]

والستائر الجصية المخرمة بانواع الزخارف النباتية والهندسية والكتابية وجدت في جامع الازهر وجامع الحاكم وجامع الصالح طلائع آخر آثار العصر الفاطمي ولكن موهبة الفنان العربي وقدرته الخلاقة المبدعة لم تتوقف عنـد هذا الحد فقد استطاع بسمو ذوقه ورقة احساسه بالجمال ان يطور هــذه الستائر المخرمة باضافة قطع الزجاج الملون بما يتلائم مع ذوقه واحساسه الفني المرهف فابرزت القطع الزجاجية الملونة التي ملأت بها الاجزاء المفرغة مـن الستائر صورتها وعناصرها الزخرفية المختلفة ويرجع تأريـخ هذا التطور الى اواخر العصر الفاطمي .[٥١]

ويبدو ان ازدهار فن العقود المطرزة بالزجاج في اليمن كان مقترنـا بازدهاره في مصر خصوصا بعد ان تطورت العلاقات بين الفاطميين في مصـر والصليحيين في اليمن في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري .[٥٢]

وعلى الرغم من استمرار التقاليد الفاطمية في فنون الزخرفة في العصـر الايوبي الا ان خالقي حضارتنا العربية من الفنانين ابتكروا اساليب جديدة في

---

(٤٩) زكي محمد حسن : فنون الاسلام ص ٤١ و ٦٢٠ ، فريد شافعي : العمارة العربية م١ ص ٢١٥ .

(٥٠) فريد شافعي : العمارة العربية م١ ص ٢١٥ .

Creswell, Ashort Account of Early Muslim Architecture, P. 313.

(٥١) شافعي : نفس المصدر م١ ص ٢١٥ .

(٥٢) سرور : النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب (١٩٦٤) ص ٧٧ وما بعدها .

فن العقود فقد استخدموا قطعا من الزجاج الملون لملىء ستائر جصية مستدير الشكل اطلق عليها اسم (القمرية) كما استخدموا اشكالا اخرى تسمى بـ « الشمسية » . وفي قبة الصالح ايوب تتمثل لنا نماذج من هذه الشبابيك .(٥٣)

واغلب الظن ان اصطلاح الشمسية مشتق من « الشمسة » التي هي عبارة عن « حلية ضخمة كانت ترسل الى الكعبة في موسم الحج في صحبة قائد خاص لتعلق في وجه الكعبة وانها تشبه الشمس ولها اثنى عشر ذراع تشبه اشعة الشمس .. قصدا ليمثل عدد شهور السنة فموسم الحج يحل بعد مضي اثنى عشر شهرا اى سنة كاملة . والاهلة الموجودة في نهاية الاشعة تمثل الشهور القمرية الهجرية » .(٥٤)

وقد ازدهر فن العقود في العصر المملوكي وبالغ الفنان في العناية بحفرها وتطويرها بالزجاج المتعدد الالوان وعمد الى تصغير الوحدات الزخرفية وتطوير اشكالها .(٥٥) ونجد في مساجد هذا العصر وفي الخانقاه الجاولية نماذج من الشبابيك المصنوعة من الحجر المخرم المفرغ باشكال زخرفية وفي مسجد الظاهر بيبرس (١٢٦٦ ــ ١٢٩٦م) في القاهرة ستائر جصية مخرمة ذات اشكال هندسية وتفريعات نباتية باقية الى اليوم لتحدثنا عن نوابغ فنانينا وامجاد اجدادنا وعنايتهم بالكمال في جميع نواحي الحياة .(٥٦)

وفن تخريم الستائر الجصية والرخامية انتشر في مختلف انحاء العالم الاسلامي وما تزال امثلة منه قائمة الى اليوم في مصر والشام والعراق وشمالي افريقيا والاندلس وكذلك في الهند حيث اتجهت في القرن الرابع عشر الى صناعة التخريم الدقيق في ستائر النوافذ وغيرها كما هو واضح في تاج محل .(٥٧)

---

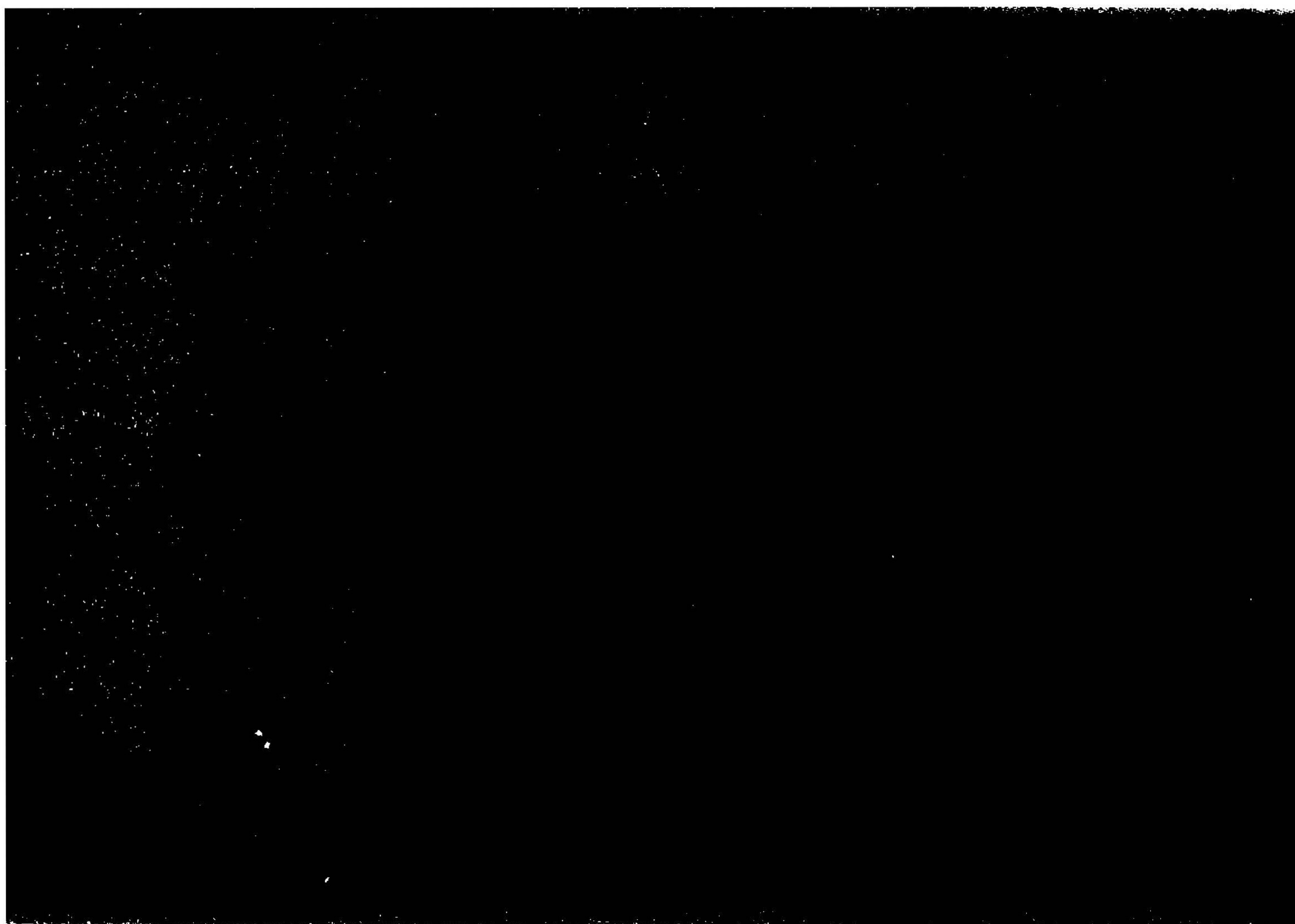
(٥٣) فكري : مساجد القاهرة جـ ٢ ص ٨٤ .

(٥٤) المقريزي : اتعاظ الخفا ص ١٤٠ حاشية ١ .

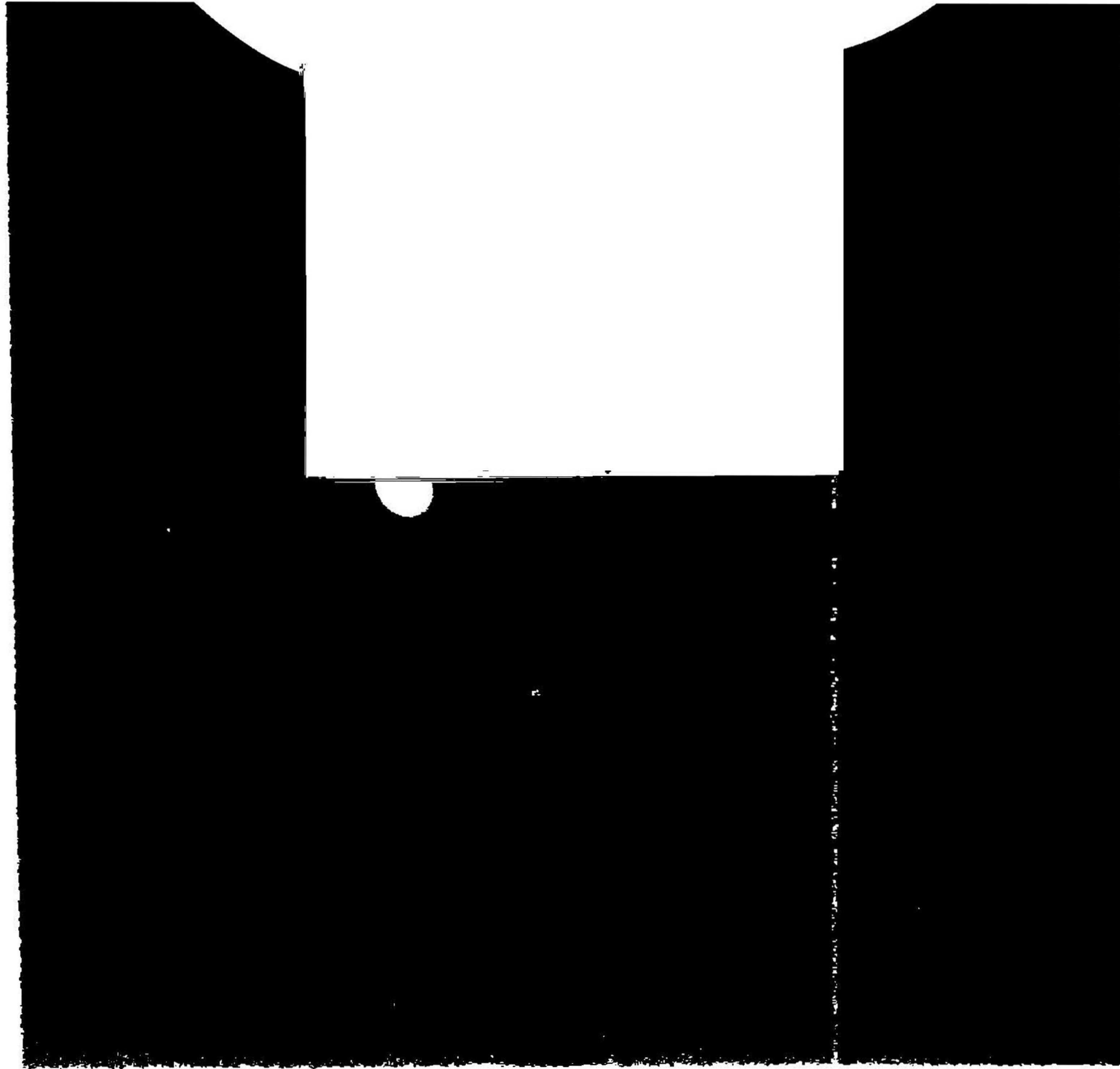
(٥٥) كونل : الفن الاسلامي ص ١١٠ .

(٥٦) ديماند : الفنون الاسلامية ص ١١٠ ، انظر ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١٤ ص ٢٩٨ .

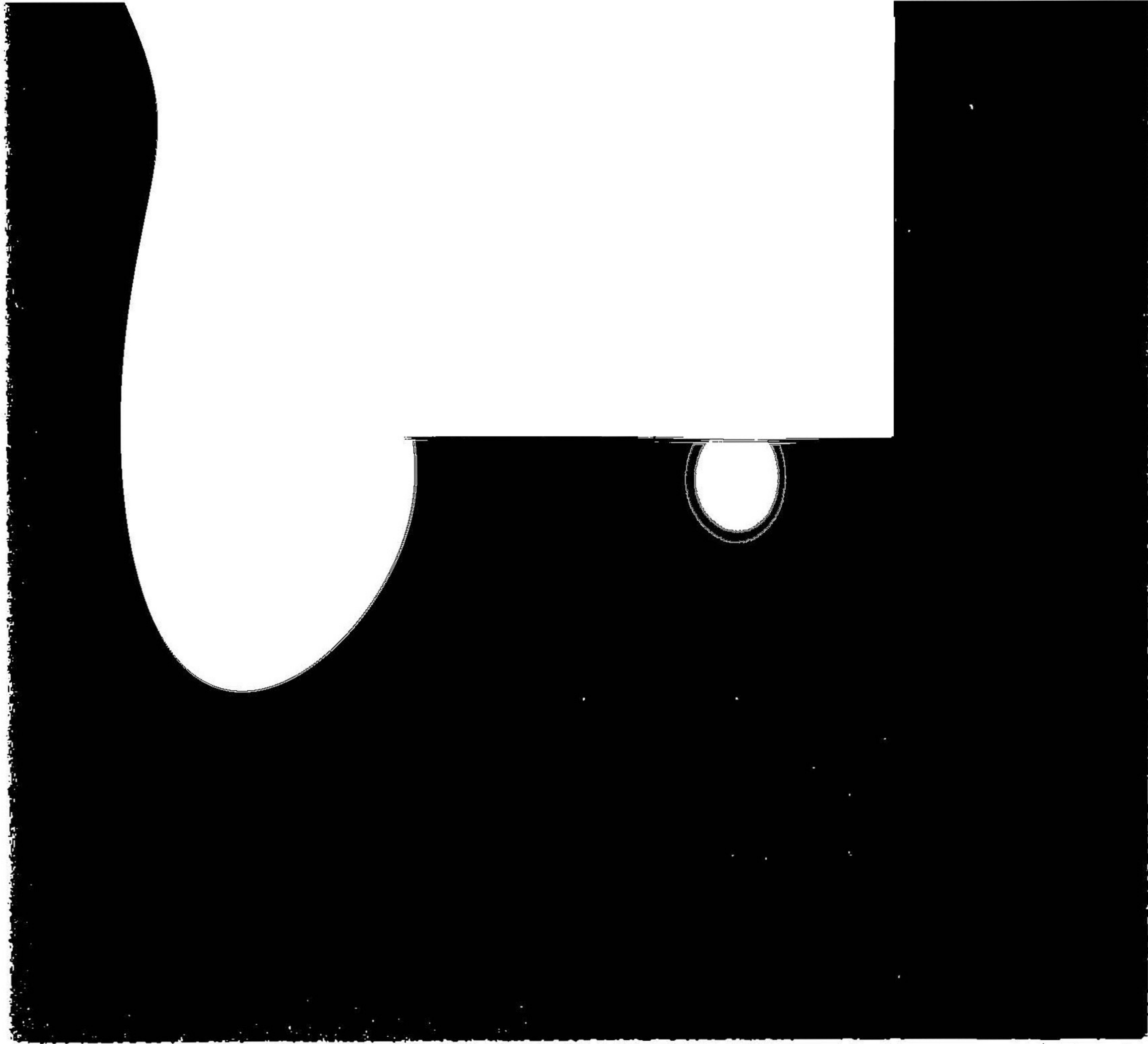
(٥٧) كونل : نفس المصدر ص ١٥٨ ، زكي محمد حسن فنون الاسلام شكل ٥٧٠ . **Rice, Islamic Art, Fig. 14.**



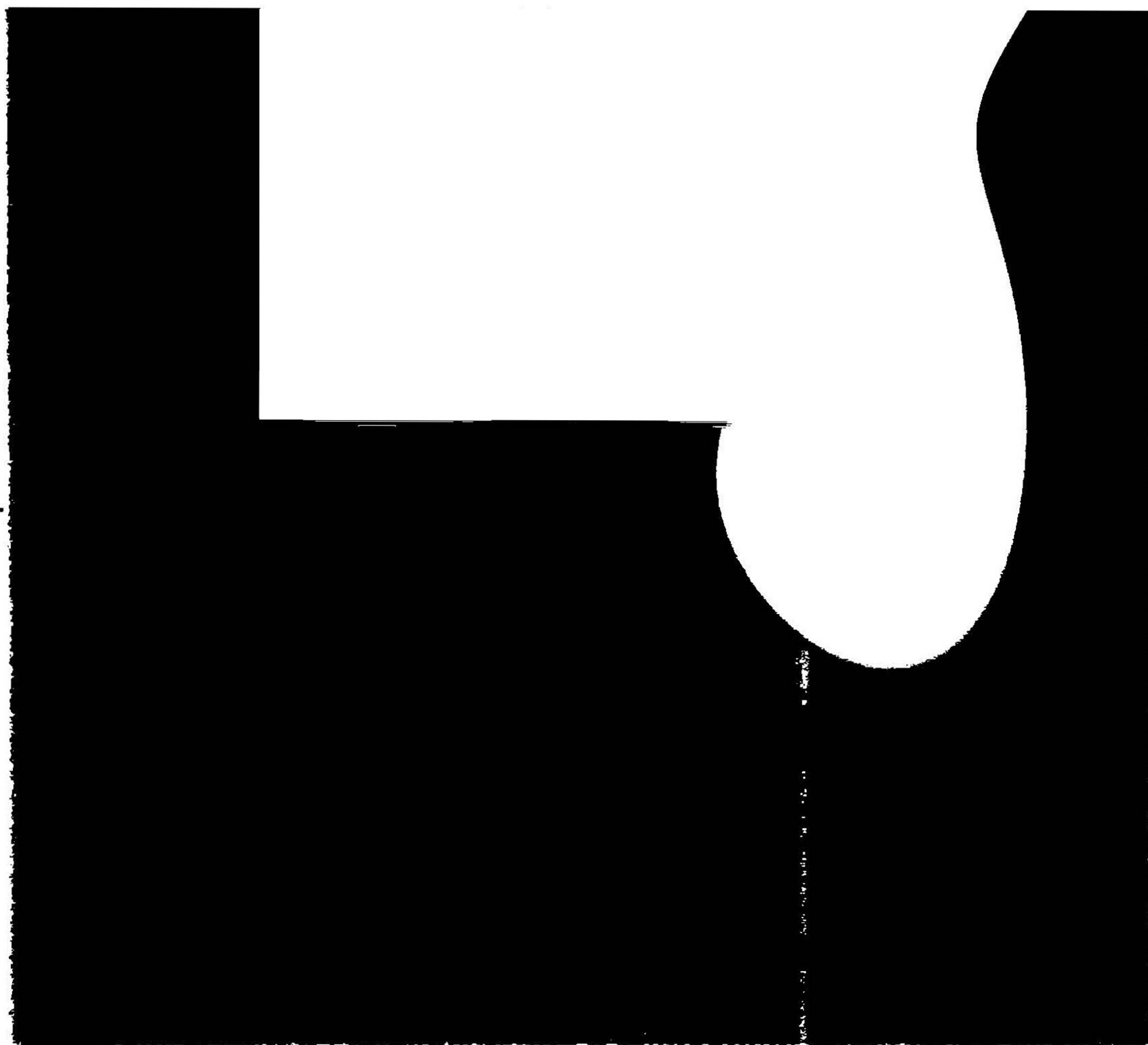
القسم العلوي من دار فيه ستائر جصية مخرمة وفتحات ضيقة جصص حول بعضهـا



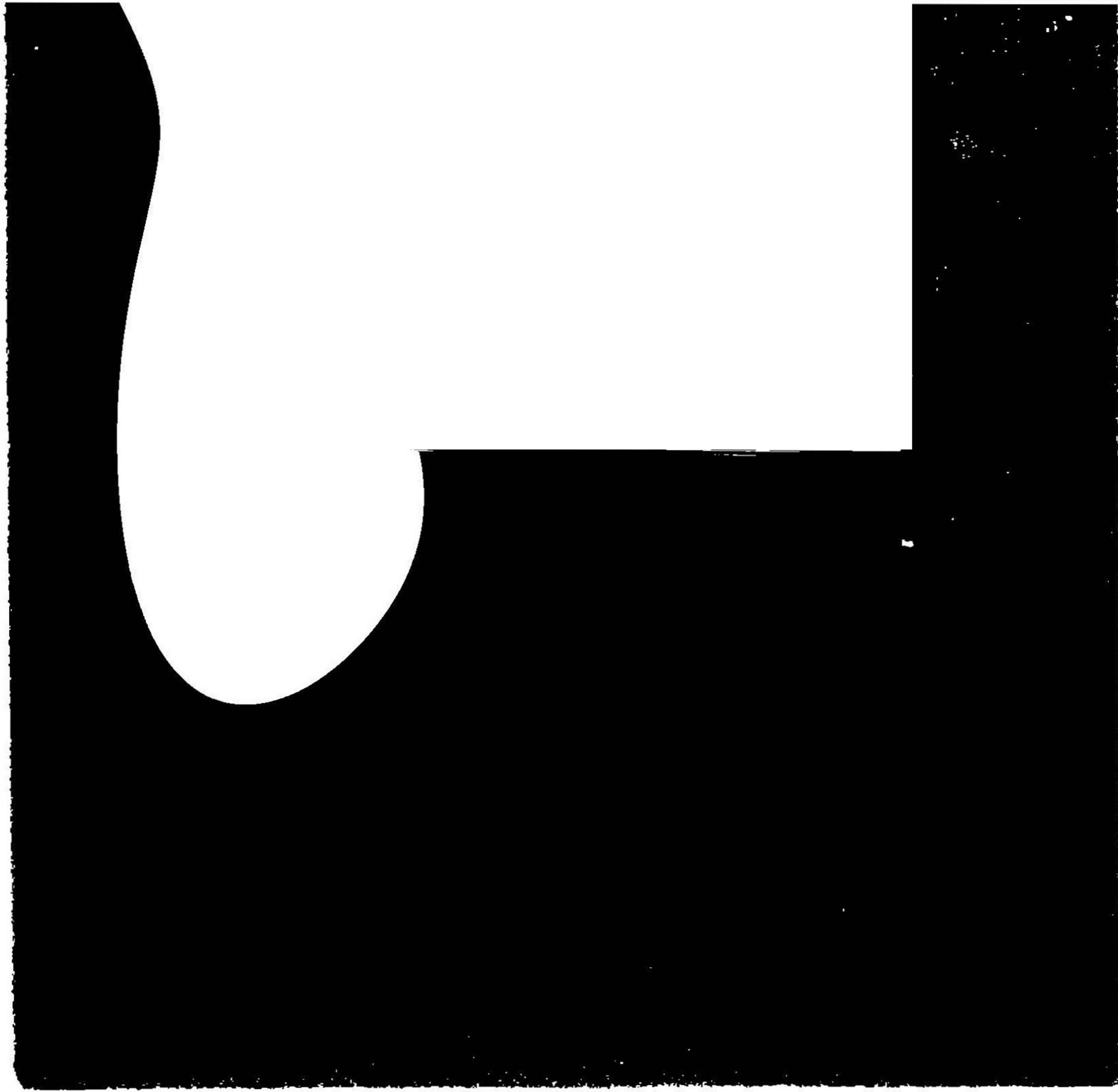
دار من خمسة طوابق في مدينة ثلا شمال صنعاء يظهر في جدرانها : ستائر جصية مخرمة ـ نوافذ مشربيتان ـ نوافذ كاذبة ـ المفرج في الاعلى



ستائر جصية مخرمة تطرز محراب المؤخرة ـ جامع الروضة



قمارى رخامية مستحدثة فوق مدخل رواق ـ جامع شباكه كوكبان



قماری رخامية فوق نافذة مستحدثة في اروقة جامع شباكه كوكبان

المراجـع

١ ـ ابن خلدون (عبدالرحمن)
كتاب العبر ط ٣ (بيروت ١٩٦٧)

٢ ـ ابن رستة (ابو علي) : الاعلاق النفيسة (بريل ١٩٦٧) .

٣ ـ ابن سيدة (ابي الحسن) : المخصص (بيروت)

٤ ـ ابن كثير (ابو الفدا) : البداية والنهاية (بيروت والرياض ١٩٦٦)

٥ ـ ابونتي (سلفاتور) : مملكة الامام يحي (القاهرة ١٩٤٧)

٦ ـ جوهر (حسن) وايوب (محمد) : اليمن (القاهرة)

٧ ـ حسن (زكي) : فنون الاسلام (القاهرة ١٩٤٨)

٨ ـ الدميري (كمال الدين) : حياة الحيوان الكبرى (بيروت)

٩ ـ ديماند (م . س .) : الفنون الاسلامية (القاهرة ١٩٥٨)

١٠ ـ الرازي (احمد بن عبدالله) : تاريخ مدينة صنعاء (صنعاء ١٩٧٤)

١١ ـ الرازي (محمد بن ابي بكر) : مختار الصحاح (بيروت دمشق ١٩٧١)

١٢ ـ زيارة (محمد بن محمد بن احمد) : نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الالف (القاهرة ١٣٥٩ ـ ١٣٧٧)

١٣ ـ الزبيدي (محمد مرتضى) : تاج العروس (بيروت)

١٤ ـ الشاطري (محمد بن احمد) : ادوار التاريخ الحضرمي (جدة ـ المكلا ١٩٦٢ ـ ١٩٧٢)

١٥ ـ الشافعي (فريد) : العمارة العربية في مصر الاسلامية (الهيئة المصرية العامة ١٩٧٠)

١٦ ـ العظم (نزيه) : رحلة في بلاد العربية السعيدة (القاهرة)

١٧ ـ فكري (احمد) : مساجد القاهرة ومدارسها ـ العصر الايوبي (القاهرة ١٩٦٩)

١٨ ـ فايان (كلودي) : كنت طبيبة في اليمن (بيروت ١٩٦٣)

١٩ ـ كونل (ارنست) : الفن الاسلامي (بيروت ١٩٦٦)
٢٠ ـ المقريزي (تقي الدين) : اتعاظ الحنفا (القاهرة ١٩٦٧)
٢١ ـ المقدسي (شمس الدين البشاري) : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (بريل ١٩٦٧)
٢٢ ـ الويسي (حسين بن علي) : اليمن الكبرى (القاهرة ١٩٦٢) .
٢٣ ـ الواسعي (عبدالواسع) : البدر المزيل للحزن (القاهرة ١٣٤٥)
٢٤ ـ تاريخ الاكليل جـ ٨ (بغداد ١٩٣١) .
٢٥ ـ الهداني (الحسن بن احمد) : الاكليل جـ ٨ (بغداد ١٩٣١)
٢٦ ـ صفة جزيرة العرب (الرياض ١٩٧٤) .
٢٧ ـ هيلفربتز (هانز) : اليمن من الباب الخلفي (بيروت ١٩٦١)
٢٨ ـ اليافعي (صلاح البكري) : تاريخ حضرموت السياسي (القاهرة ١٣٥٤ ـ ١٣٥٥)
٢٩ ـ ياقوت : معجم البلدان (القاهرة ١٩٠٦)

٣٠ ـ Lane, E. W.
An Arabic - English Lexicon (Beirut 1968).

٣١ ـ Rathjens, C.
Jewish Domestic Architecture in Sana (Jerusalem 1957)

٣٢ ـ Rice, D. T.
Islamic Art (London 1975)

٣٣ ـ Scott, H.
In the High Yemen (London 1942).

الجناية على ما دون النفس واحكامها
في الشريعة الاسلامية

محمود مطلوب احمد
استاذ مساعد في كلية الآداب
جامعة بغداد

يقصد بالجناية على مادون النفس قطع الاطراف وما يجرى مجراها ، وذهاب منافع الاطراف مع بقاء اعيانها ، والشجاج ، والجراح .

اولا : قطع الاطراف وما يجرى مجراها : كقطع اليد والرجل والاصبع والانف والظفر واللسان والذكر والانثيين والاذنين والشفة ، وفقء العين وقطع الاجفان والاهداب ، وقلع الاسنان وكسرها .

ثانيا : ذهاب منافع الاطراف : كذهاب السمع والبصر والشم والذوق والكلام والعقل والمشي .

ثالثا : الشجاج : الشجاج يختص بالرأس والوجه ، فاذا كان في غيرهما سمي جراحة .

والشجاج انواع :

١ ـ الخارصة : وهي التي تخرص الجلد ـ أي تشقه ـ ولا يظهر منها الدم .

٢ ـ الدامعة : وهي التي يظهر منها الدم ولا يسيل كالدمع في العين .

٢ ـ الدامية : وهي التي يسيل منها الدم .

٤ ـ الباضعة : وهي التي تبضع اللحم ـ أي تقطعه ـ

٥ ـ المتلاحمة : وهي التي تذهب في اللحم اكثر مما تذهب الباضعة فيه •

٦ ـ السمحاق : وهي التي تصل الى السمحاق ، والسمحاق : الجلدة الرقيقة التي بين اللحم وعظم الرأس •

٧ ـ الموضحة : وهي التي تقطع السمحاق وتوضح العظم •

٨ ـ الهاشمة : وهي التي تهشم العظم ـ أي تكسره ـ

٩ ـ المنقلة : وهي التي تنقل العظم بعد كسره ، اي تحوله من موضع الى آخـر •

١٠ ـ الآمة : وهي التي تصل الى أم الدماغ ، وهي جلدة تحت العظم فوق الدماغ •

١١ ـ الدامغة : وهي التي تخرق الجلدة التي تحت العظم وتصل الى الدماغ•

رابعا : الجراح والجراح نوعان : جائفة وغير جائفة • والجائفة كل جرح يصل الى الجوف •

والمواضع التي تنفذ الجراحة منها الى الجوف هي : الصدر والظهر والبطن والجنبان ، ولا تكون في اليدين والرجلين والرقبة والحلق جائفة لانه لا يصل الى الجوف • وروي عن ابي يوسف : ان ما وصل من الرقبة الى الموضع الذي لو وصل اليه من الشراب قطرة يكون جائفة لانه لا يفطر الا اذا وصل الى الجوف [1]•

حكم الجناية على ما دون النفس

يجب في الجناية على مادون النفس اما القصاص ، واما الدية كاملة ، واما ارش مقدر ، واما ارش غير مقدر •

اولا : القصاص :

الاصل في القصاص قوله تعالى : « وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجـروح

---

(١) ينظر : بدائع الصنائع جـ ٧ ص٢٩٦ .

قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون »[٢] .وقوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » [٣] . وقوله تعالى : « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم بـه »[٤] .

شروط القصاص :

يشترط في القصاص فيما دون النفس الامور التالية :

١ ـ ان يكون الجاني عاقلا وبالغا ، فلا قصاص على صبي ومجنون .

٢ ـ ان يكون الفعل عمدا ، فاذا لم يكن عمدا فلا قصاص فيه .

٣ ـ ان يكون المجني عليه مكافئا للجاني بحيث يقتل به اذا قتله ، فأما من لا يقتل بقتله فلا يقتص منه فيما دون النفس له كالمسلم مع الكافر والاب مع ابنـه .

٤ ـ ان يكون طرف المقتص منه مساوية للطرف المقتص به ، فلا تقطع اليد الصحيحة بالشلاء ولا كاملة الاصابع بناقصة الاصابع ولا اصبع أصلية بزائـدة .

ولا يشترط في ذلك التساوي في الصغر والكبر ، والصحة والمرض ، لان اعتبار ذلك يؤدي الى سقوط القصاص في جميع الحالات وهذا لايصح.

ويقطع الناقص بالكامل لانها دون حق المستوفي ، وقال الحنفية : ان كان العيب في طرف الجاني فالمجني عليه بالخيار ان شاء اقتص وان شاء اخذ ارش الصحيح ، لان حقه في المثل وهو السليم ، ولا يمكنه استيفاء حقه من كل وجه مع فوات صفة السلامة وامكنه الاستيفاء من وجه [٥].

---

(٢) سورة المائدة الآيـة ٤٥ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٩٤ .

(٤) سورة النحل الآية ١٢٦ .

(٥) ينظر : بدائع الصنائع جـ ٧ ص٢٩٨ .

وما ذهب اليه الحنفية هو الراجح ، لان القصاص من الناقص يكون المجني عليه قد استوفى اقل من حقه ، فيكون له الخيار فان شاء اقتص وان شاء اخذ الدية .وهذا كالذي يتلف على انسان شيئا مثليا جيدا فينقطع عن ايدي الناس ولم يبق منه الا النوع الرديء فهو بالخيار ان شاء اخذ الرديء وان شاء اخذ قيمة الجيد .

وكذلك لا تشترط المساواة في الذكورة والانوثة في القصاص ، فيقتص من الانثى للذكر ومن الذكر للانثى بدون رد شيء من الدية لان المساواة في الدية غير معتبرة . وعند الامامية يقتص للانثى من الرجل من غير رد حتى تبلغ الثلث ثم يقتص مع الرد[٦] .

وقال الحنفية : لاقصاص بين الذكور والاناث فيما دون النفس لان دية الانثى نصف دية الرجل[٧] .

وما ذهب اليه غير الحنفية والامامية هو الراجح ، وهو ان القصاص يجري بين الذكور والاناث فيما دون النفس ولا رد كما قال الامامية لقوله تعالى : « والجروح قصاص » فلم يفصل بين ذكر وانثى ، ولان القصاص يجري بينهما في النفس والطرف أقل من النفس .

ولا يشترط ايضا المساواة في عدد الجناة ، فاذا اشترك جماعة في قطع موجب للقصاص وجب القصاص على جميعهم كما في الجناية على النفس . وقال الحنفية : لاقصاص عليهم وعليهم الارش على عددهم بالسواء لان المماثلة فيما دون النفس معتبرة ولا مماثلة بين الايدي ويد واحدة لا في الذات ولا في المنفعة ولا في الفعل[٨].

وما ذهب اليه غير الحنفية هو الراجح لما روي ان شاهدين شهدا عند علي بن ابي طالب رضى الله عنه على رجل بالسرقة فقطع يده ، ثم

---

(٦) ينظر : شرائع الاسلام ج٤ ص ٢٧٩ .
(٧) ينظر : بدائع الصنائع ج ٧ ص ٣١٠ .
(٨) ينظر : المصدر السابق ص ٢٩٩ .

جاءا بآخر فقالا : هذا هو السارق واخطأنا في الاول فرد شهادتهما على الثاني وغرمهما دية الاول وقال : «لو علمت انكما تعمدتما لقطعتكما»[٩] . وهذا يدل على ان القصاص على كل واحد منهما لو تعمدا قطع يد واحدة . ولان الانفس تقتل بالنفس الواحدة فكذا الايدي تقطع باليد الواحدة لان حكم التبع حكم الكل .

وان ما ذهب اليه الحنفية يؤدي الى ان يشرك الجاني معه غيره اذا أراد ان يعتدي على احد لكي يتخلص من العقاب ، وفي هذا تفويت لمعنى القصاص وهو الزجر والردع .

٥ ـ الاشتراك في الاسم الخاص بين الطرفين : فلا تقطع يمين بيسار ولا يسار بيمين ، ولا اصبع بما يخالفه ، ولا أعلى باسفل ولا اسفل بأعلى .

٦ ـ أن يكون الاستيفاء ممكنا من غير زيادة لان دم الجاني معصوم الا في قدر جنايته ، فما زاد على الجناية يبقى على العصمة فيحرم استيفاؤه بعد الجناية كتحريمه قبلها . ومن ضرورة المنع من الزيادة المنع من القصاص لانها من لوازمه فلا يمكن المنع منها الا بالمنع منه . وعليه فلا قصاص في الساعد والعضد والساق والفخذ لعدم التمكن من ذلك بدون زيادة . روي ان رجلا ضرب رجلا على ساعده بالسيف فقطعها من غير مفصل فاستعدى عليه النبي صلى الله عليه وسلم فأمر له بالدية فقال : اني اريد القصاص ، فقال صلى الله عليه وسلم : « خذ الدية بارك الله لك بها »[١٠] ولم يقض له بالقصاص .

ويجري القصاص اذا كان القطع من مفصل الزند او المرفق او الكتف في اليد ، ومفصل الكعب او الركبة او الورك في الرجل ، لانه يمكن الاستيفاء من المفاصل بدون زيادة . وكذلك يجري القصاص في العين والجفن والانف والاذن والشفة والذكر واللسان والسن للسبب نفسه .

---

(٩) ينظر : المغني جـ ٩ ص ٣٧٢ .

(١٠) رواه ابن ماجة .

وقت القصاص فيما دون النفس :

لا يجوز القصاص في الطرف الا بعد اندمال الجرح سواء طلب ذلك المجني عليه او لم يطلب مخافة ان يفضي ذلك الى اتلاف النفس بالسراية ، لان الجرح اذا سرى الى النفس يصير قتلا فيكون المجني عليه قد استوفى غير حقه وبهذا قال الحنفية والحنابلة والمالكيةوالامامية والزيدية[11] • واستدلوا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا يستقاد من الجراحة حتى تبرأ »[12] •

وقال الشافعية والظاهرية : اذا طلب المجني عليه القصاص قبل اندمال جرحه أقدنا له في الحال لان القصاص من الطرف لا يسقط بالسراية فوجب ان يملكه في الحال[13] • واستدلوا بما روي عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده : ان رجلا طعن رجلا بقرن في ركبته فجاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : اقدني : فقال : « حتى تبرأ » ثم جاء اليه فقال : اقدني ، فأقاده ، ثم جاء اليه فقال : يا رسول الله عرجت ، قال : « نهيتك فعصيتني فابعدك الله وبطل عرجك » ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يقتص من جرح حتى يبرأ صاحبه[14] •

وما ذهب اليه غير الشافعية والظاهرية هو الراجح ، وهو ان القصاص لا يجوز في الطرف الا بعد ان يبرأ الجرح لان الرسول صلى الله عليه وسلم نهى ان يستقاد من الجروح حتى يبرأ المجروح • وان الجرح قبل اندماله لا يدرى اقتل هو ام ليس بقتل ؟ فينبغي ان ننتظر حتى نعرف حكمه ، فان برىء اقتص من الجاني في طرفه ، وان سرى الجرح الى النفس ومات المجني عليه اقتص من الجاني في نفسه •

---

(١١) ينظر : بدائع الصنائع جـ٧ ص ٣١٠–٣١١ ، والمغني جـ٩ ص ٤٤٦ – ٤٤٧ ، وبداية المجتهد جـ٢ ص ٤٤٤ ، وشرائع الاسلام جـ٤ ص٢٣٥ ، والبحر الزخار جـ٥ ص ٢٣٨ .

(١٢) رواه الدار قطني .

(١٣) ينظر : الام جـ ٦ ص ٤٧ ، والمحلى جـ١١ ص ٤٣ .

(١٤) رواه احمد والدار قطني .

وما استدل به الشافعية والظاهرية لا يدل على جواز القصاص في الطرف قبل اندمال الجرح وانما يدل على تحريم القصاص قبل الاندمال لان لفظ « ثم » يقتضي الترتيب فيكون النهي الواقع بعدها ناسخا للاذن الواقع قبلها

استيفاء القصاص فيما دون النفس :

يستوفي القصاص فيما دون النفس من كان عالما بذلك كالجراحين ، فان لم يكن لولي المجني عليه علم بذلك يؤمر بأن يستنيب عنه غيره ، وان كان له علم يمكن منه لانه احد نوعي القصاص فيمكن من استيفائه كالقتل .

وقال الشافعية : اذا قطع الرجل او جرح وطلب المجنى عليه ان يقتص لنفسه لم يجب الى ذلك ، وكذلك لا يخلى لولي له ولا عدو للمقتص منه ، ولا يقتص الا عالم بالقصاص عدل فيه ، وعلى السلطان ان يرزق من يأخذ القصاص ويقيم الحدود من سهم النبي صلى الله عليه وسلم من الخمس كما يرزق الحاكم (١٥) .

وما ذهب اليه الشافعية هو الذي نرجحه لان المجنى عليه او وليه اذا قام بالقصاص بنفسه فلا يؤمن مع العداوة وقصد التشفي من الحيف في الاستيفاء ، وربما يؤدي ذلك الى نزاع واختلاف فيدعي الجاني الزيادة في الاستيفاء وينكرها المستوفي . وأرى ان يقوم السلطان بتعيين من له علم وخبرة بالقصاص ويجرى له مرتب من بيت المال .

ولا يستوفى القصاص فيما دون النفس بالسيف ولا بآلة يخشى منها الزيادة كالقتل ، لان القتل انما يستوفى بالسيف لانه آلته وليس هناك شيء يخشى التعدي عليه . فيجب ان يستوفى ما دون النفس بآلة خاصة بشرط ان يتوقى فيها ما يخشى فيه الزيادة الى مكان لا يجوز استيفاؤه . فان كان الجرح موضحة مثلا فيستوفى بالموس او بحديدة معدة لذلك .

ولا يقتص من الجاني في الحر الشديد والبرد الشديد خوفا من عدم التئام الجرح فيموت الجاني فيجب ان يؤخر الى وقت آخر .

---

(١٥) ينظر : الام جـ ٦ ص ٥٢ .

سريان القصاص الى النفس :

اذا استوفى من له القصاص طرفا يجب فيه القصاص فمات الجاني بسراية الاستيفاء لم يجب عليه شيء وبهذا قال ابو يوسف ومحمد من الحنفية والحنابلة والمالكية والامامية والزيدية والشافعية والظاهرية ، وحجتهم في ذلك ان السارق اذا مات من قطع يده فلا شيء على الذي قطع يده وهذا مثله[١٦] .

وقال ابو حنيفة : اذا استوفى الطرف وسرى الى النفس ومات لا يجب القصاص لاجل الشبهة ، وتجب الدية في ماله لانه فوت نفسه ولا يستحق الا طرفه فلزمته ديته كما لو ضرب عنقه ، ولانها سراية قطع مضمون فكانت مضمونة كسراية الجناية[١٧] .

وما ذهب اليه غير ابي حنيفة هو الراجح لان الجاني مات من قطع مستحق ومقدر فلا تضمن سرايته كقطع يد السارق اذا مات منه . روي ان عمر وعليا رضى الله عنهما قالا : « من مات من حد او قصاص لادية له ، الحق قتله »[١٨] .

وكذلك على هذا الخلاف اذا سرى القطع الى ما دون النفس كما اذا قطع اصبع فسرى الى الكف .

عفو المجنى عليه عن القصاص :

يجوز للمجنى عليه ان يعفو عن القطع وذهاب منافع الطرف والشجة والجراحة اذا لم تسر ، وذلك لانه حقه وقد اسقط هذا الحق برضاه . فان سرت الجناية الى النفس فالعفو باطل عند ابي حنيفة وعلى الجاني الدية في ماله استحسانا وفي القياس يلزمه القصاص . وحجته في ذلك انه عفا عن غير حقه فلا يصح ، لان العفو اسقاط الحق ، فاذا صادف ما ليس بحقه كان باطلا ، وان

---

١٦ ـ ينظر : تحفة الفقهاء جـ٣ ص ١٢٨ ، والمغني جـ٩ ص ٤٤٣ ، وبداية المجتهد جـ٢ ص ٤٤٤ ، وشرائع الاسلام جـ٤ ص٢٢٩ ، والبحر الزخار جـ٥ ص ٢٤١ ، والام جـ ٦ ص ٥٤ ، والمحلى جـ ١١ ص ٢٤ .

١٧ ـ ينظر : تحفة الفقهاء جـ ٣ ص ١٢٨ .

(١٨) رواه سعيد .

المعتبر في الجنايات مآلها لا حالها . وعند ابي يوسف ومحمد : العفو صحيح ولا شيء على الجاني لان العفو اضيف الى الفعل كالقطع والشجة يراد به موجبه ، لان نفس الفعل لا يحتمل العفو وموجبه احد شيئين : ضمان الطرف ان اقتصر ، وضمان النفس ان سرى ، فيتناولهما فصار كالعفو عن الجناية او عن القطع وما يحدث منه او عن الشجة وما يحدث منها . ولان اسم القطع والشجة يتناول الساري والمقتصر لان القطع جنس وهما نوعـان فصارت السراية والاقتصار صفة له ولان العفو في الانتهاء كالاذن في الابتداء بدليل انه لو اقتصر فيهما جميعا لم يضمن شيئا ، والاذن في الابتداء بهذه الالفاظ يسقط ضمان السراية فكذلك العفو في الانتهاء[19] .

أما اذا قال المجني عليه للجاني : عفوت عنك عن الجناية أو الشـجة وما يحدث منها او عن القطع وما يحدث منه صح العفو عند ابي حنيفة ومحمد وابي يوسف ولا شيء على الجاني . وبهذا قال المالكية والحنابلة لانه اسقط حقه بعد انعقاد سببه فسقط كما لو اسقط الشـفيع حقه في الشفعة بعـد البيـع[20] .

وقال الامامية : اذا عفا المجنى عليه عن الجناية سقط القصاص والدية لانها لا تثبت الا صلحا ، ولو قال : عفوت عن الجناية ثم سرت الى الكف سقط القصاص في الاصبع وله دية الكف ، ولو سرت الى النفس كان للولي القصاص في النفس بعد رد ما عفا عنه[21] .

وقال الشافعية : اذا عفا المجنى عليه عن الجناية وما يحدث منها ثـم مات المجنى عليه سقط القصاص وكان على الجاني دية النفس في ماله[22] .

---

(١٩) ينظر : المبسوط جـ٢٦ ص ١٥٥ .
(٢٠) ينظر : المصدر السابق ، وبداية المجتهد جـ ٢ ص ٤٣٩ ، والمغني جـ٩ ص ٤٧٢ .
(٢١) ينظر : شرائع الاسلام جـ ٤ ص ٢٤١ ـ ٢٤٢ .
(٢٢) ينظر : الام جـ ٦ ص ١٣ .

وقال الظاهرية : اذا عفا المجنى عليه عن الجرح او عما يحدث عنه فعفوه عما يحدث منه باطل لانه لم يجب له بعد ، وعفوه عن الجرح صحيح لانه قد وجب له القود او المفاداة في الجراحة[٢٣] .

والذي نرجحه ما ذهب اليه الظاهرية ، وهو ان المجني عليه يصح عفوه عن القطع والجرح اذا لم يسر الى نفسه لانه قد وجب له فله الحق في اسقاطه . اما اذا سرى القطع او الجرح الى نفسه فلا يصح عفوه عنه لانه لم يملكه بعد ، وفاقد الشيء لا يعطيه ، وان العفو عن النفس حق للورثة وليس للمجنى عليه ، قال تعالى : « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا » .

القصاص في الاطراف ومنافعها :

يجري القصاص في الاطراف ومنافعها اذا كانت المماثلة بينها متحققة وكان الاستيفاء ممكنا لقوله تعالى : « وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون » .

١ ـ القصاص في العين :

ويجرى القصاص في العين لقوله تعالى : « والعين بالعين » ولانها تنتهي الى مفصل فيكون القصاص فيها ممكنا . وتؤخذ عين الصغير بعين الكبير وبالعكس ، ولا تؤخذ الصحيحة بالمريضة لعدم المماثلة ولان المجنى عليه يأخذ اكثر من حقه .

واذا فقأ الاعور عين الصحيح يجب عليه القصاص ، وان عفا المجنى عليه عن القصاص فله نصف الدية وبهذا قال الحنفية والشافعية والامامية والزيدية والظاهرية ، وحجتهم في ذلك قوله تعالى : « والعين بالعين » وان النبي صلى الله عليه وسلم جعل في العينين الدية فوجب القصاص ممن له

---

(٢٣) ينظر : المحلى جـ١ ص ٤٩١ .

واحدة او نصف الدية[٢٤] . وللمالكية في ذلك قولان : الاول : له القصاص ، وان عفا فله نصف الدية . والثاني : له دية كاملة[٢٥] . وقال الحنابلة : لا قود على الجاني وعليه دية كاملة ، واحتجوا بما روى عن عمر وعثمان رضي الله عنهما انهما لم يقتصا من الاعور ، ولان الجاني لم يذهب بجميع بصر المجنى عليه فلم يجز له القصاص منه بجميع بصره .

وما ذهب اليه غير الحنابلة والمالكية في قولهم الثاني هو الذي نرجحه وهو ان الجاني يقتص منه لان الله سبحانه وتعالى لم يفصل بين من له عين واحدة وبين من له عينين .فان عفا المجنى عليه عن القصاص فعلى الجاني نصف الدية لانه تسبب في تلف عين واحدة ، ولانه لو قلعها غيره لم يجب الا نصف الدية .

ولو فقأ الاعور عين مثله فعليه القصاص لتساويهما من كل وجه . وان فقأ عيني الصحيح فعليه القصاص ولا شيء للمجنى عليه غير القصاص ، فان اختار المجنى عليه الدية فله دية كاملة لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « وفي العينين الدية » .

واذا بقيت العين قائمة وذهب ضوؤها فقط فيقتص من الجاني باذهاب بصره فقط لان ذلك ممكن ولا تقلع عينه . روى ان اعرابيا قدم بحلوية له الى المدينة فساومه فيها مولى لعثمان بن عفان رضي الله عنه فنازعه فلطمه فذهب بصره فقال له عثمان : هل لك ان اضعف لك الدية وتعفو عنه ؟ فأبى ، فرفعهما الى علي رضي الله عنه فدعا علي بمرآة فأحماها ثم وضع القطن على عينه الاخرى ثم اخذ المرآة فأدناها من عينه حتى سال انسان عينه[٢٦] .

ولا قصاص في الاجفان والاهداب لانه لا يمكن استيفاء المثل فيها .

---

(٢٤) ينظر : بدائع الصنائع جـ ٧ ص ٣٠٨ ، والام جـ٦ ص ٥١ ، وشرائع الاسلام جـ ٤ ص ٢٣٦ ، والبحر الزخار جـ ٥ ص ٢٣٨ ، والمحلي جـ١٠ ص ٤٠٣ .

(٢٥) ينظر : بداية المجتهد جـ٢ ص ٤٦٠-٤٦١ .

(٢٦) المغني جـ٩ ص ٤٢٩ .

٢ ـ القصاص في الانف :

ويجرى القصاص في الانف لقوله تعالى : « والانف بالانف » ولان استيفاء المثل ممكن فيه • والذي يجري فيه القصاص هو المارن وهو مالان منه ، لان له حدا معلوما •

وكذلك يجري القصاص في بعضه ويقدر بالاجزاء لا بالمساحة لئلا يؤدي الى قطع جميع انف الجاني لصغره ببعض انف المجنى عليه لكبره ، فيؤخذ النصف بالنصف ، والثلث بالثلث وهكذا • ويؤخذ المنخر الايمن بالايمن ، والايسر بالايسر •وقال الحنفية : اذا قطع بعض المارن فلا قصاص فيه لتعذر استيفاء المثل(٢٧) •

وما ذهب اليه غير الحنفية هو الذي نرجحه ، لان القصاص ممكن في بعضه بالاجزاء فأصبح كما لو استوعب كل المارن •

ويستوي في القصاص الانف الصغير والكبير ، والاقنى والافطس ، والاشم والاخشم الذي لا يشم •

٣ ـ القصاص في الاذن :

ويجرى القصاص في الاذن لقوله تعالى : « والاذن بالاذن » ولان استيفاء المثل ممكن • وتؤخذ الكبيرة بالصغيرة ، واذن السميع بأذن الاصم، واذن الاصم باذن السميع وبأذن الاصم لتساويهما ، لان ذهاب السمع نقص في اعصاب السمع وليس في الاذن • وتؤخذ الصحيحة بالمثقوبة ، لان الثقب ليس بعيب وانما يفعل في العادة للاقراط للتزين بها • فان كان الثقب في غير محله او كانت مخرومة اخذت بالصحيحة ولم تؤخذ الصحيحة بها ، لان الثقب اذا انخرم صار نقصا فيها •

وان قطعت بعض الاذن فللمجنى عليه ان يقتص من اذن الجاني لانه يمكن تقدير الجزء المقطوع ، ويقدر ذلك بالاجزاء فيؤخذ النصف بالنصف والربع بالربع وهكذا •

---

(٢٧) ينظر : بدائع الصنائع جـ٧ ص ٣٠٨ .

٤ ـ القصاص في السن :

وفي السن القصاص لقوله تعالى : « والسن بالسن » ولان القصاص ممكن فيه لانه محدود بنفسه فوجب القصاص فيه • ويؤخذ الصحيح بالصحيح ، والمكسور بالصحيح لان المجنى عليه يأخذ بعض حقه •

ولا يقتص في السن الا من الذي سقطت رواضعه ثم نبتت • ولا قصاص في سن الصبي الذي لم تسقط رواضعه لانه يعود ، ولاقصاص فيما يعود • فان لم تعد في مدة يعود مثلها لزم القصاص • وكذلك في سن من سقطت رواضعه اذا قال اهل الخبرة انها تعود لا يقتص من الجاني في الحال وانما ينتظر المدة التي قررها اهل الخبرة ، فان عادت فلا شيء على الجاني ، وان لم تعد لزم القصاص •

ويقتص في بعض السن كما يقتص في كله ، فاذا كسر بعضه يبرد من سن الجاني مثله لان الرسول صلى الله عليه وسلم امر بالقصاص في سن الربيع التي كسرت سن الجارية ، ولان ما جرى القصاص في كله جرى في بعضه اذا كان ذلك ممكنا • اما لم يكن ممكنا فلا قصاص فيه كما اذا قرر اهل الخبرة بان القصاص في بعض السن يؤدي الى اتلاف الكل كأن يتفتت او يتصدع •

وتشترط المماثلة في الاسنان ، فلا يؤخذ ضرس بثنية ، ولا ثنية بضرس ، ولا سن في الفك العلوي بسن في الفك السفلي ، ولا سن في جهة اليمين بسن في جهة اليسار ، ولا اصلية بزائدة[٢٨] ، ولا زائدة بزائدة مع تغاير المحل ، فاذا كان للجاني مثلها في موضعها فللمجنى عليه القصاص فيها •

٥ ـ القصاص في اليد :

وفي اليد القصاص لقوله تعالى : « والجروح قصاص » • ويشترط لذلك ان يكون القطع من احد المفاصل كمفصل الكف او المرفق او الكتف

---

(٢٨) الزائدة : هي التي تنبت فضلة في غير سمت الاسنان وتكون خارجة عنها اما الى داخل الفم وأما الى الشفة .

لا مكان المماثلة • اما اذا لم يكن القطع من المفصل فلا قصاص فيه • فمن قطع يد آخر من الساعد او العضد فلا يقتص منه لان المماثلة لا تتحقق •

وتؤخذ اليمين باليمين ، واليسار باليسار ، ولا تؤخذ اليمين باليسار ولا اليسار باليمين لان كل واحدة منهما تختص باسم خاص •

وتؤخذ اليد الكبيرة باليد الصغيرة لان المماثلة لا تشترط في ذلك ، ولو اشترطت لسقط القصاص في جميع الحالات لانه لا تشابه بء اثنين في الكبر والصغر وهذا لا يصح •

وتؤخذ اليد الصحيحة بالصحيحة ، والشلاء بالشلاء ، لانهما متماثلتان في الصفة فجاء اخذ احداهما بالاخرى كالصحيحة بالصحيحة • ولا تؤخذ الصحيحةبالشلاء لان الشلاء لا نفع فيها فلا يؤخذ بها ما فيه نفع • وقــال الظاهرية : تؤخذ الصحيحة بالشلاء لان كل واحدة منهما مسمى باسم صاحبه فيؤخذبه[٢٩] • وما ذهب اليه الظاهرية لا نرجحه لان المماثلة بين العضوين شرط من شروط القصاص ولا مماثلة بين الصحيحة والشلاء لان الصحيحة ينتفع بها والشلاء لانفع بها ، فيكون استيفاء الكامل بالناقص وهذا لا يجوز • وتؤخذ الشلاء بالصحيحة لان في ذلك استيفاء بعض حق المجنى عليه ، فان شاء اقتص وان شاء اخذ الديــة •

ولا تؤخذ كاملة الاصابع بناقصة الاصابع ، فلو قطع شخص له خمس اصابع يد شخص له ثلاث او اربع لم يجب القصاص لناقص الاصابع في اليد لانها فوق حقه • ولو طلب المقطوع قطع اصابع القاطع بقدر اصابعه فهل يجاب الى طلبه ؟ قال الشافعية والحنابلة في احدى الروايتين : يجاب الى طلبه لانه أهون من قطع اليد كلها[٣٠] •

وارى أن المجنى عليه لا يجاب الى طلبه لانه لا مماثلة في ذلك ، وان حق المجنى عليه في اليد وليس في الاصابع • واما قولهم : انه أهون من قطع

---

(٢٩) ينظر : المحلى جـ١٠ ص ٤٠٣ ــ ٤٠٤ •

(٣٠) ينظر : الام جـ٦ ص٥٦ ، والمغني جـ٩ ص ٤٥٢ •

اليد كلها فهذايصح لو كان حق المجنى عليه في اليد واكتفى بقطع الاصابع فقط •

ويقتص في الاصابع ايضا اذا كان ذلك ممكنا بأن يكون القطع من مفاصل الانامل ، فاذا لم يكن من المفاصل فلا قصاص فيها لعدم امكان الاستيفاء بدون زيادة •

ويؤخذ كل اصبع بما يساويه في الاسم ، فيؤخذ الابهام بالابهام والسبابة بالسبابة ، والوسطى بالوسطى ، والبنصر بالبنصر ، والخنصر بالخنصر • ولا يؤخذ الصحيح بالاشل ، ويؤخذ الاشل بالصحيح • وكذلك لا تؤخذ الاصلية بالزائدة ، وتؤخذ الزائدة بالزائدة اذا كانت في محلها •

ولا قصاص في الاظافر لانعدام المساواة في ديتها لان دية الظفر غير مقدرة وانها معتبرة بالحزر والظن • وقال الشافعية والظاهرية : اذا قلع رجل ظفر رجل فسأل القود قيل لاهل العلم : هل تقدرون على قلع ظفره بلا تلف على غيره ؟ فان قالوا : نعم اقتص منه •[٣١]

وما ذهب اليه الشافعية والظاهرية هو الذي نرجحه لان الظفر محدد واستيفاء القصاص ممكن فيه بدون زيادة اللهم الا اذا كان الجاني مصابا بمرض عدم تخثر الدم فحينئذ لا يقتص منه خوفا من ان يؤدي ذلك الى نفسه •

٦ ـ القصاص في الرجل :

وفي الرجل القصاص لقوله تعالى « والجروح قصاص » • وحكم الرجل واصابعها حكم اليد واصابعها ، وقد بينا ذلك عند كلامنا عن القصاص في اليد •

٧ ـ القصاص في اللسان :

وفي اللسان القصاص لقوله تعالى : « والجروح قصاص » ولان له حدا ينتهي اليه فيمكن القصاص فيه • وكذلك القصاص في بعضه لان امكن

---

(٣١) ينظر : الام جـ٦ ص٥٥ ، والمحلى جـ١٠ ص٤٤٦ •

القصاص في جميعه فيمكن في بعضه كالسن والاذن ، ويقدر ذلك بالاجزاء ايضا لا بالمساحة لان الالسنة تتفاوت في الكبر والصغر . وقال ابو حنيفة ومحمد والزيدية : لا يقتص في اللسان لانه ينقبض وينبسط فلا يمكن استيفاء القصاص فيه بصفة المماثلة[٣٢] .

والراجح ان القصاص يجري في اللسان لانه له حد فيمكن استيفاء القصاص من نهايته بدون زيادة ، وان انقباضه وانبساطه لا يؤثران على ذلك . فاذا استوعب امكن استيفاء المثل فيه بالاستيعاب فيكون الجزاء مثل الجناية . ولا يؤخذ لسان الناطق بلسان الاخرس لانه افضل منه ، ويؤخذ لسان الاخرس بلسان الناطق اذا اراد المجنى عليه ذلك لانه اقل من حقه .

٨ ـ القصاص في الشفة :

وفي الشفة القصاص لقوله تعالى « والجروح قصاص » ولانلها حدا تنتهي اليه فيمكن معرفة القدر في الاستيفاء . وتؤخذ الشفة العليا بالشفة العليا ، والسفلى بالسفلى ، ولا تؤخذ العليا بالسفلى ، ولا السفلى بالعليا لعدم المماثلة .

٩ ـ القصاص في العظم :

لاقصاص في العظم لما روي عن عمر بن الخطاب وابن مسعود رضي الله عنهما انهما قالا : «لاقصاص في عظم الا في السن » [٣٣]. ولان القصاص يبنى على المساواة ، وان المساواة تتعذر في كسر العظم . وقال المالكية : القود في كسر جميع العظام الا الفخذ والصلب[٣٤] .

وما ذهب اليه المالكية لا يمكن الاخذ به لان المساواة لا تتحقق الا بالقطع من المفصل ، وان كسر العظم من غير مفصله يؤدي الى تصديعه وتفتيته ، وان الوصول اليه غير ممكن بدون ان ينال مما دونه كالجلد واللحم

---

(٣٢) ينظر : بدائع الصنائع جـ٧ ص ٣٠٨ ، والبحر الزخار جـ٥ ص ٢٣١ .

(٣٣) ينظر : تبيين الحقائق جـ ٦ ص ١١١ ـ ١١٢ .

(٣٤) ينظر : بداية المجتهد جـ٢ ص ٤٦٢ .

مما لا يعرف مقداره فيكون المجنى عليه بهذا قد استوفى اكثر من حقه وهذا لا يصح .

١٠ ـ القصاص في الذكر :

وفي الذكر القصاص لقوله تعالى : « ولجروح قصاص » ولان له حدا ينتهي اليه فيمكن القصاص بدون زيادة .

ويستوي في ذلك ذكر الصغير والكبير ، والشيخ والشاب ، والصحيح والمريض ، والخصي والعنين لثبوب اصل المماثلة بينهما ، ولانهما عضوان صحيحان فلا اعتبار لزيادة المنفعة فيهما . وقال ابو حنيفة ومحمد والزيدية : لاقصاص في الذكر اذا استوعب كله او بعضه لانه ينقبض مرة وينبسط اخرى فلا يمكن مراعاة المماثلة فلا يجب القصاص[٣٥] .

والراجح ما ذهب اليه غير ابي حنيفة ومحمد والزيدية ،وهو ان القصاص يجري في الذكر لان المماثلة في استيعابه ممكنة ، وان الانقباض والانبساط لا يمنعان من ذلك لان له حدا ينتهي اليه فتحصل المماثلة . وكذلك يجري القصاص في الحشفة اذا قطعت لان لها حدا معلوما فيمكن الاستيفاء بدون زيادة .

١١ ـ القصاص في الانثيين :

وفي الانثيين القصاص لقوله تعالى :« والجروج قصاص » ولان المماثلة ممكنة فيهما . فان قطع الجاني احداهما وقال اهل الخبرة : يمكن الاقتصاص منه مع سلامة الاخرى اقتص منه . وان قالوا : لا يؤمن من تلف الاخرى لم يقتص منه لان بذلك يكون استيفاء اثنين بواحدة وهذا لا يصح .

وتؤخذ اليمين باليمين ، واليسار باليسار ، ولا تؤخذ اليمين باليسار ، ولا اليسار باليمين .

---

(٣٥) ينظر : بدائع الصنائع جـ ٧ ص ٣٠٨ ، والبحر الزخار جـ٥ ص ٢٣٣ .

وقال الحنفية : لا يجب القصاص في الانثيين لان ليس لهما مفصل معلوم فلا يمكن استيفاء المثل[٣٦]. وهذا ما نرجحه لانه لا يمكن استيفاء المثل لعدم وجود حد معلوم لهما ، وربما يؤدي قطعهما الى تلف النفس ، او قطع احداهما الى تلف الاخرى فلا تتحقق المماثلة .

١٢ ـ القصاص في الشعر :

لاقصاص في شعر الرأس واللحية والشارب والحاجب اذا نبت او لم ينبت لعدم تحقق المماثلة بينهما . وقال الامامية : يثبت القصاص في الحاجبين وشعر الرأس واللحية ، فان نبت فلا قصاص[٣٧].

وما ذهب اليه غير الامامية هو الراجح ، وهو انه لاقصاص في الشعر سواء نبت او لم ينبت لانه لانص فيه ، وانه ليس بعضو او جرح حتى يمكن قياسه على غيره ، ولان محل الجناية غير معلوم فيصعب ضبطه فلا تتحقق المساواة فيه ، ولجواز ان يقع حلقه منبتا فلا يكون مثل الاول .

القصاص في منافع الاطراف :

لاقصاص في منافع الاطراف كالعقل والسمع والكلام والشم والذوق والجماع والشلل ، لان الجاني لا يمكن ان يضرب ضربا تذهب بهذه المنافع ، فلا يكون استيفاء المثل ممكنا فلا يجب القصاص .

ويجرى القصاص في ذهاب البصر فقط . وقد بينا ذلك عند كلامنا عن القصاص في العين .

القصاص في الشجاج :

لاخلاف بين الفقهاء في وجوب القصاص في الموضحة لقوله تعالى : « والجروح قصاص » ولانه جرح يمكن استيفاؤه من غير زيادة لانه ينتهي الى عظم .

---

(٣٦) ينظر : بدائع الصنائع جـ٧ ص٣٠٩ .

(٣٧) ينظر : شرائع الاسلام جـ٤ ص٢٣٦ .

اما الهاشمة والمنقلة والآمة فلا قصاص فيها لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لاقود في المأمومة ولا في الجائفة ولا في المنقلة [٣٨]. ولتعذر الاستيفاء فيها على وجه المماثلة ، لان الهاشمة تهشم العظم والمنقلة تنقله بعد الهشم من موضعه ولا قصاص في هشم العظم ، والآمة لا يؤمن فيها من وصول السكين الى الدماغ فلا يمكن استيفاء القصاص على وجه المماثلة فلا يجب . وقال الظاهرية : يجب القصاص في جميع الجراحات اذا كانت عمداً لقوله تعالى : « والجروح قصاص » فلو علم الله تعالى انشيئا من ذلك لايمكن فيه مماثلة لما اجمل لنا أمره بالقصاص في الجروح جملة ولم يخص شيئا ، ولو ان ربنا عزوجل اراد تخصيص شيء من الجروح بالمنع من القصاص في العمد لبينها لنا [٣٩].

وكذلك لاقصاص فيما دون الموضحة كالخارصة والدامعة والدامية والباضعة والسمحاق لانها جراحة لا تنتهي الى عظم فلا تؤمن فيها الزيادة . وذهب الامامية والظاهرية ومحمد من الحنفية الى وجوب القصاص فيما دون الموضحة لان استيفاء المثل ممكن ، فيمكن معرفة قدر عمق الجراحة بالمسمار، فاذا عرف قدره يعمل حديدة على قدره فتنفذ في اللحم الى آخرها فيستوفى منه مثل ما فعل[٤٠] .

والراجح ما ذهب اليه غير الامامية والظاهرية ومحمد وهو انه لاقصاص في الشجاج الا في الموضحة لانه يمكن استيفاء المثل فيها . اما غيرها فلا يمكن استيفاء المثل فيها بدون زيادة . وان وجوب القصاص فيها يؤدي الى تعذيب الجاني والتمثيل به وربما يؤدي به الى الموت او الى الشلل وهذا لا يمكن قبوله ولا يرضى به الشارع .

---

(٣٨) رواه ابن ماجة .

(٣٩) ينظر : المحلى جـ١٠ ص ٤٦١ .

(٤٠) ينظر : شرائع الاسلام جـ٤ ص ٢٣٤-٢٣٥ ، والمحلى جـ١٠ ص٤٦١ ، وبدائع الصنائع جـ ٧ ص ٣٠٩ .

القصاص في الجراح :

لا قصاص في الجراح مطلقا اذا لم يمت المجنى عليه سواء كانت جائفة أم غير جائفة لنهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن القصاص في الجائفة بقوله : « لاقود في المأمومة ولا في الجائفة ولا في المنقلة » . ولان استيفاء المماثلة فيها غير ممكن . فان مات المجروح منها وجب القصاص في النفس لانها صارت بالسراية قتلا . وذهب الظاهرية الى وجوب القصاص في جميع الجراحات[٤١] .

وما ذهب اليه الظاهرية لانرجحه للاسباب التي ذكرناها سابقا .

ثانيا : الديـة :

اذا تعذر استيفاء القصاص لسبب ما ، او كان الاعتداء خطأ وجبت الديـة .

وقد تكون الدية كاملة ، أو ارشا مقدراً ، أو ارشاً غير مقدر . ويسمى الارش اذا كان غير مقدر بالحكومة او حكومة العدل .

والحكومة : تقويم الجنايات والمتلفات ، وجزاء التي لم يشرع فيها تقدير معين ، وتفتقر الى عدلين فيلزم الحاكم الحكم بتقديرها[٤٢] .

وكيفية تقديرها ان يقدر المجنى عليه وكأنه عبد لا جناية به ثم يقوم والجناية به ، فما نقصته الجناية فله مثله من الدية ، مثال ذلك : ان قيمته وهو صحيح مائة وقيمته وهو مجنى عليه تسعون ، فتكون فيه عشر الدية .

وقال الكرخي من الحنفية : تقرب الجناية الى اقرب الجنايات التي لها أرش مقدر فينظر ذوا عدل من أطباء الجراحة كم مقدار هذه الجراحة بالنسبة الى التي لها ارش مقدر بالحزر والظن ؟ فيأخذ الحاكم بقولهما ويحكم من الارش بمقداره من ارش الجراحة المقدرة[٤٣] .

---

(٤١) ينظر : المحلى جـ ١٠ ص٤٦١ .
(٤٢) بدائع الصنائع جـ٧ ص ٣٢٤ .
(٤٣) المصدر السابق .

وما ذهب اليه الكرخي هو الذي نرجحه لان الانسان لا يمكن ان يقوم بمال سواء اكان صحيحا او مجنيا عليه ، ولان ذلك يؤدي في اغلب الاحيان الى وجوب الكثير في الجراحات البسيطة ، وقد يكون اكثر مما هو مقدر في الجراحات التي هي اشد منها كأن يكون نقصان شجة السمحاق مثلا في العبد اكثر من نصف عشر قيمته فلو اوجبنا مثل ذلك من دية الحر لكان في السمحاق اكثر مما وجب في الموضحة وهذا لا يجوز .

والتقويم لا يكون الا بعد برء المجروح من الجرح لان ارش الجرح المقدر يكون بعد البرء . فان لم تنقصه الجناية شيئاً بعد البرء فلا شيء على الجاني ، لان الحكومة وجبت لاجل جبر النقص ولا نقص بعد البرء .

ديـة الاطراف ومنافعها :

ما كان في البدن منها واحدا ففي قطعه الدية كاملة كالانف واللسان والذكر والظهر . وما كان منه زوجا ففي قطعهما الدية كاملة وفي قطع احدهما نصف الدية كالعينين والاذنين والشفتين واليدين والرجلين والحاجبين والاثنيين والثديين . وما كان منه اربعة في البدن ففيها الدية وفي كل واحد منها ربع الدية كالاجفان . وما كان منه عشرة ففيها الدية وفي كل واحد منها عشر الدية كالاصابع .

والاصل في ذلك ما روي عن ابي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن ابيه عن جده ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب الى اهل اليمن كتابا جاء فيه: « ان من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فانه قود الا ان يرضى اولياء المقتول ، وان في النفس الدية مائة من الابل ، وان في الانف اذا اوعب جدعه الدية ، وفي اللسان الدية ، وفي الشفتين الدية ، وفي البيضتين الدية ، وفي الذكر الدية وفي الصلب الدية ، وفي العينين الدية ، وفي الرجل الواحدة نصف الدية ، وفي المأمومة ثلث الدية ، وفي الجائفة ثلث الدية وفي المنقلة خمسة عشر من الابل ، وفي كل اصبع من اصابع اليد والرجل عشر من الابل ، وفي

السن خمس من الابل، وفي الموضحة خمس من الابل ، وان الرجل يقتل بالمرأة وعلى اهل الذهب الف دينار »[٤٤] .

وعن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده : « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى في الأنف اذا جدع كله بالعقل كاملاً ؛ واذا جدعت أرنبته فنصف العقل ، وقضى في العين نصف العقل ، والرجل نصف العقل ، واليد نصف العقل ، والمأمومة ثلث العقل ، والمنقلة خمسة عشر من الابل[٤٥] . ولان في قطع الاعضاء تفويت جمال كامل ومنفعة كاملة فيكون تفويتهما في معنى تفويت النفس .

١ ـ دية الأنف :

وفي الانف الدية اذا قطع مارنه ـ وهو ما لان منه ـ لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « وان في الانف اذا اوعب جدعه الدية » ولانه عضو واحد في الجسم فبقطعة تفويت الجمال والمنفعة . وفي قطع احد المنخرين نصف الدية . وفي الحاجز حكومة ، وذهب الامامية الى القول ان في الحاجز نصف الدية[٤٦] .

واذا قطع المارن مع القصبة ففيه الدية ايضا . وقال الشافعية والزيدية : في المارن الدية وفي القصبة حكومة لان المارن وحده موجب للدية فوجبت الحكومة في الزائد وهو القصبة[٤٧] .

والراجح ما ذهب اليه غير الشافعية والزيدية لقول الرسول صلى الله عليه وسلم « وان في الانف اذ اوعب جدعه الدية » فيشمل المارن والقصبة ، ولان الانف عضو واحد فلم يجب به اكثر من دية .

واذا قطع وذهب شمه فعلى الجاني ديتان لان الشم في غير الانف فلا تدخل احداهما بالاخرى .

---

(٤٤) رواه النسائي .

(٤٥) رواه احمد . ورواه ابو داود وابن ماجة ولم يذكرا فيه العين ولا المنقلة.

(٤٦) ينظر : المختصر النافع جـ٢ ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨ .

(٤٧) ينظر : الام جـ٦ ص ١٠٤ـ١٠٥ ، والبحر الزخار جـ٥ ص ٢٧٨ .

وقال الظاهرية : اذا قطع الانف خطأ فلا شيء فيه لانه لم يصح نص لا في القرآن ولا في السنة [48].

وما ذهب اليه الظاهرية لا يمكن قبوله لان النص قد صح وهو قول الرسول صلى الله عليه وسلم الذي ذكرناه ، وان قولهم هذا يؤدي الى ذهاب العضو هدر بدون مقابل وهذ لا يصح .

٢ ـ دية اللسان :

وفي اللسان الدية لقوله صلى الله عليه وسلم : « وفي اللسان الدية » ولانه عضو واحد في الجسم ، وبقطعه تفوت منفعة مقصودة وهو النطق ، فان الانسان يمتاز به عن سائر الحيوانات ، وبه من الله تعالى على الآدميين بقوله : « خلق الانسان علمه البيان »[49] . وكذلك تفوت مصالحه لانه لا يتمكن من اقامة مصالحه الا بالتفاهم بواسطته مع الغير ، فبواسطته تستخلف الحقوق وتدفع الآفات وتقضى به الحاجات ، وتتم العبادات في القراءة والذكر والشكر والامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وبقطعه يفوت الجمال ، روي ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الجمال فقال : « في اللسان » . ويقال : جمال الرأس في لسانه ، والمرء بأصغريه قلبه ولسانه . ويقال ما الانسان لولا اللسان الا صورة ممثلة أوبهيمة مهملة[50] .

وتجب الدية بقطع بعضه اذا منع الكلام ، لان الدية تجب لتفويت المنفعة لا لتفويت العضو ، وكذلك تجب الدية اذا ذهب الكلام بدون قطع .

فاذا ذهب بعض كلام المجنى عليه وقدر التكلم ببعض الحروف دون البعض الاخر تقسم الدية على عدد الحروف كلها فما قدر عليه من الحروف اسقط بحسابه من الدية ، وما لم يقدر عليه الزم الجاني بها . وقد روي

---

(٤٨) ينظر : المحلى جـ١٠ ص ٤٣٢ ـ ٤٣٣ .

(٤٩) سورة الرحمن الآية ٣ .

(٥٠) ينظر : المغني جـ٩ ص٦٠٤ .

دلك عن علي رضي الله عنه حيث قسم الدية على الحروف[٥١] وقيل : تقسم الدية على الحروف التي تتعلق باللسان وهي : التاء والثاء والجيم والدال والذال والراء والزاي والسين والشين والصاد والضاد والطاء والظاء والقاف والكاف واللام والنون والياء ، ولا تدخل الحروف الحلقية وهي : الهمزة والهاء والعين والغين والحاء ، والخاء ولا الشفوية وهي : الباء والفاء والميم والواو[٥٢] .

وفي لسان الاخرس اذا قطع حكومة ، وقال الامامية والحنابلة في احدى الروايتين : فيه ثلث دية[٥٣] .

والراجح ما ذهب اليه غير الامامية والحنابلة في احدى الروايتين لانه لم يرد نص في ذلك فيبقى كغيره من الاعضاء التي لم يرد بها نص فتجب فيه حكومة العدل .

واذا قطع لسان صغير لم يتكلم بعد لطفولته وجبت الدية لان الظاهر كماله . وقال ابو حنيفة : لا تجب فيه الدية لانه لسان لا كلام فيه كلسان الاخرس[٥٤] .

وما ذهب اليه ابو حنيفة لا نرجحه لان الغالب الشائع ان الالسنة ناطقة حتى يظهر خلاف ذلك ، وان ظاهره السلامة وانما لم يتكلم لانه لا يحسن الكلام بعد . وانه يختلف عن لسان الاخرس لان الاخرس قد علم انه غير قادر على الكلام فلم تجب في لسانه الدية .

واذا قلنا : لا تجب الدية في لسان الصغير لانه لم يتكلم بعد فهذا يؤدي الى القول انه لا تجب الدية في يديه لانه لم يتمكن من البطش بها ولا في رجليه لانه لم يتمكن من المشي بعد وهذا لا يصح ولم يقل به احد . وذهب

---

(٥١) ينظر : تبيين الحقائق جـ٦ ص١٢٩ .
(٥٢) ينظر : المصدر السابق .
(٥٣) ينظر : المختصر النافع جـ٢ ص٣٠٨ ، والمغني جـ٩ ص٦٠٩ .
(٥٤) ينظر : تبيين الحقائق جـ٦ ص١٢٩ ـ ١٣٠ .

الظاهرية الى انه لا يجب في اللسان شيء اذا كان عمدا الا القود والمفاداة لانه جرح ولا مزيد ، واما الخطأ فمرفوع بنص القرآن[٥٥] وقد رددنا قولهم عند كلامنا عن دية الانف .

٣ ـ دية الذكر :

وفي الذكر الدية لقوله صلى الله عليه وسلم : « وفي الذكر الدية » ولانه عضو واحد ، وفي قطعه تفويت منفعة مقصودة من الانسان وهي منفعة النسل . وكذلك في قطع الحشفة الدية لان تفويت المقصود يحصل بقطعها كما يحصل بقطع جميعه .

وتجب الدية في ذكر الصغير والكبير ، والشيخ والشاب سواء قدر على الجماع او لم يقدر .

وتجب الدية في ذكر الخصي والعنين وبهذا قال الشافعية والحنابلة في احدى الروايتين لان الجماع غير ميئوس منهما[٥٦] . وقال الحنفية والمالكية : لا تجب فيه الدية وانما تجب فيه حكومة لان المنفعة منه هي المقصودة فاذا عدمت لا يجب فيها دية كاملة[٥٧] . وعند الامامية تجب في ذكر العنين ثلث الدية[٥٨] . وقال الظاهرية : لا يجب شيء لانه لم يصح فيه نص ولا اجماع[٥٩] .

والراجح ما ذهب اليه الشافعية والحنابلة في احدى الروايتين وذلك لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « وفي الذكر الدية » ولم يفصل بين العنين وغيره ، ولانه عضو سليم في نفسه فتجب فيه الدية كذكر الشيخ . وما ذهب اليه الامامية لا يمكن الاخذ به لانه لم يرد نص بالثلث . وكذلك لا يمكن الاخذ بقول الظاهرية للسبب نفسه الذي ذكرناه عند كلامنا عن دية الانف .

---

(٥٥) ينظر : المحلى جـ١٠ ص ٤٤٣ .

(٥٦) ينظر : الام جـ٦ ص ١٠٦ـ١٠٧ ، والمغني جـ٩ ص٦٢٧ـ٦٢٨ .

(٥٧) ينظر : تبيين الحقائق جـ٦ ص١٣٥ ، وبداية المجتهد جـ٢ ص٤٥٩ .

(٥٨) ينظر : المختصر النافع جـ٢ ص ٣٠٩ .

(٥٩) ينظر : المحلى جـ١٠ ص ٤٥١ .

واذا اصيب الذكر وذهبت منفعته فقط ففيه الدية ايضا ، فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قضى لرجل على رجل باربع ديات بضربة واحدة على رأسه فأذهب عقله وسمعه وبصره ومنفعة ذكره[٦٠] .

٤ ـ دية الظهر :

وفي الظهر اذا كسر ولم ينجبر الدية لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « وفي الصلب الدية » ولان في كسره تفويت منفعة النسل . وكذلك اذا احدودب لتفويت جمال الانسان ، لان الجمال للانسان في كونه منتصب . وقد قيل في معنى قوله تعالى : « لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم »[٦١] اي منتصب القامة .

وقال الشافعية : ليس في كسر الصلب دية الا ان يذهب مشيه او جماعه فتجب الدية لتلك المنفعة لانه عضو لم تذهب منفعته فلم تجب فيه الدية . فان مشى معتمدا على أحد فعلى الجاني حكومة ، وان منع معه الجماع فعلى الجاني دية كاملة لا حكومة معها لان الجماع انما كان في العيب بالصلب[٦٢] .

وما ذهب اليه غير الشافعية هو الراجح لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « وفي الصلب الدية » ولانه عضو واحد ليس في البدن مثله في الجمال والمنفعة فوجب فيه الدية كما في غيره كالانف واللسان .

وان ذهب جماع المجنى عليه ومشيه وجبت ديتان لانهما منفعتان تجب الدية بذهاب كل واحدة منهما اذا انفردت ، فاذا اجتمعتا وجبت ديتان . وان جبر ظهره فعادت احدى المنفعتين وجبت دية واحدة فقط الا اذا نقصت المنفعة الاخرى فحينئذ تجب الحكومة لنقصها .

---

(٦٠) ينظر : المبسوط جـ٢٦ ص ٦٩ ـ ٧٠ .

(٦١) سورة التين الآية ٤ .

(٦٢) ينظر : الام جـ٦ ص ٧١ .

وقال الظاهرية : ليس في الصلب شيء في الخطأ لانه لم يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم نص ولا اجماع عليه ، وان الاموال محرمة الا ما اباحه نص او اجماع ، والخطأ مرفوع(٦٣) .

٥ ـ دية الاذنين :

وفي الاذنين الدية ، وفي احداهما نصف الدية لما ذكر البيهقي عن الزهري انه قرأ في كتاب عمرو بن حزم « وفي الاذن خمسون من الابل » ولقضاء عمر وعلي رضي الله عنهما بذلك(٦٤) . ولان الرسول صلى الله عليه وسلم قضى بالدية في كل اثنين في الانسان كالعينين واليدين والرجلين وفي احداهما بنصف الدية .

وقال المالكية في المشهور عندهم : لا تجب الدية في الاذنين الا اذا ذهب سمعهما ، فان لم يذهب ففيهما حكومة لان الشرع لم يرد فيهما تقدير ولا يثبت التقدير بالقياس(٦٥) .

والراجح ما ذهب اليه غير المالكية لما رواه الزهري ولقضاء عمر وعلي رضى الله عنهما بالدية ولا مخالف لهما فكان اجماعا . ولان ما كان في البدن منه عضوان ففيهما الدية كالعينين وفي احداهما نصف الدية ولان في قطعهما تفويت منفعة الجنس وجماله على الكمال وفي قطع احداهما تفويت نصف المنفعة ونصف الجمال .

واذا قطع بعض الاذن فبحسابه من ديتها ، ففي نصفها النصف ، وفي ربعها الربع وهكذا .

وتجب الدية في اذن الاصم اذا قطعت لأن السمع نقص في اعصاب السمع وليس في الاذن فلم يؤثر في ديتها .

---

(٦٣) ينظر : المحلى جـ١٠ ص ٤٥٢ .

(٦٤) سبل الاسلام جـ٣ ص ٢٤٧ .

(٦٥) ينظر : بداية المجتهد جـ ٢ ص ٤٥٨ .

واذا قطعت الاذنان وذهب سمعهما وجبت ديتان ، دية للاذنين ودية للسمع للسبب الذي ذكرناه . واذا ذهب سمع احداهما ففيه نصف الدية ، واذا ذهب السمع فقط ففيه الدية .

وذهب الظاهرية الى القول ان لا شيء في الاذنين الا القود او المفاداة في العمد لانه جرح ولا شيء في الخطأ في ذلك(٦٦) وقد رددنا عليهم سابقا .

٦ ـ دية الانثيين :

وفي الانثيين الدية ، وفي احداهما نصف الدية لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « وفي البيضتين الدية » ولان فيهما منفعة مقصودة وهي النسل .

وقال الامامية في احدى الروايتين : يجب في اليسرى ثلثا الدية لان الولد منها وفي اليمنى ثلث الدية . وروي مثل ذلك عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه لان النسل يكون منها(٦٧) .

والراجح هو ان في كل واحدة منهما نصف الدية لان النص لم يفصل بين اليسرى واليمنى . اما قولهم : ان الولد من اليسرى فلم يثبت ذلك في الطب . ولو سلمنا بذلك فلا اهمية له لان الاصابع والاجفان تتساوى دياتهما مع اختلاف نفعهما . ولان ما وجبت الدية في شيئين منه وجبت نصف الدية في احدهما .

وان ذهب النسل بدون قطع وجبت الدية ، وكذلك اذا قطعت وذهب النسل لم تجب الادية واحدة لان النسل نفعهما فلا تزاد الدية بذهابه معهما .

وقال الظاهرية : لادية في الانثيين لانه لا نص ولا اجماع في ذلك(٦٨) وقولهم هذا لا يؤخذ به للاسباب التي ذكرناها سابقا .

---

(٦٦) ينظر : المحلى جـ١٠ ص ٤٤٩ .
(٦٧) ينظر : شرائع الاسلام جـ٤ ص ٢٦٩ ، والمغني جـ٩ ص ٦٢٩ .
(٦٨) ينظر : المحلى جـ١٠ ص ٤٥١ .

٧ ـ ديـة الشفتين :

وفي الشفتين الدية لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « وفي الشفتين الديه » ولانهما عضوان ليس في البدن مثلهما ، وفيهما منفعة وجمال فانهما يقيان الفم والاسنان ويردان الريق وينفخ بواسطتهما ، ويتم بهما الكـلام لان فيهما بعض مخارج الحروف .

وفي كل واحدة منهما نصف الدية ، وفي رواية عن الامام احمد وعن الامامية ان في الشفة العليا ثلث الدية وفي السفلى الثلثين وقد روي ذلك عن زيد بن ثابت رضي الله عنه وبه قال سعيد بن المسيب والزهري ، لان المنفعة بالسفلى اكثر لانها تدور وتتحرك وتحفظ الريق والطعـام والعليـا ساكنـة لا تتحـرك[٦٩] .

والراجح ان في كل واحدة منهما نصف الدية لان النص لم يفصـل ، ولان كل شيئين وجبت فيهما الدية وجب في احدهما نصفها كسائر الاعضاء فلا يفضل أيمن على أيسر ، ولا أيسر على أيمن ، ولا أعلى على اسفل ، ولا أسفل على أعلى . ولا اعتبار لزيادة النفع .

وان شلت وجبت الدية لاتلاف منفعتهما ، وكذلك اذا تقلصتا فـلم تنطبقا على الاسنان ، أو استرختا فصارتا لا تنفصلان عن الاسنان لان ذلـك يعطل منفعتهما ويذهب بجمالهما . وان تقلصتا بعض التقلص وجبت الحكومة لان منافعهما لم تذهب بالكلية .

وذهب الظاهرية الى القول ان الواجب في الشفتين القود في العمد لانه جرح ، وأما في الخطأ فلا شيء لرفع الجناح عن المخطىء وتحريم الامـوال الا بنص او اجماع[٧٠] . وقولهم هذا لا يؤخذ به للاسـباب نفسها التـي ذكرناها سـابقا .

---

(٦٩) ينظر : المغني جـ٩ ص ٦٠٢ ـ ٦٠٣ ، والمختصر النافع جـ٢ ص ٣٠٨ .
(٧٠) ينظر : المحلى جـ١٠ ص ٤٤٦ .

٨ ـ ديـة اللحيين :

اللحيان : هما العظمان اللذان فيهما الاسنان السفلى ، ويقال لملتقاهمـا الذقن ، ويتصل كل واحد منهما بالاذن .

وفيهما الدية ، وفي احدهما نصف الدية لان فيهما نفعاً وجمالا وليس في البدن مثلهما فكانت فيهما الدية كسائر ما في البدن منـه شيئان . وان ضربا فأصبحا لا ينفتحان ولا ينطبقان وجبت فيهما الدية ، وكذلك اذا انفتحا ولم ينطبقا او انطبقا ولم ينفتحا لذهاب منفعتهما وجمالهما .

ولو قلعا منفردين عن الاسنان كلحيي الطفل أو من لا أسنان له وجبت الدية ، واذا قلعا بما عليهما من اسنان وجبت ديتهما ودية الاسنان . وذهب الشافعية والزيدية في احدى الروايتين الى ان لا شيء في الاسنان لان الجاني لم يجن على الاسنان وانما جنى على اللحيين وان كانت منفعة الاسنان قد ذهبت فتدخل ديتها في دية اللحيين كما تدخل دية الاصابع في دية الكف(٧١) .

والراجح ما ذهب اليه غير الشافعية والزيدية في احدى الروايتين وهو ان في الاسنان ديتها ، لان الاسنان واللحيين ينفرد كل واحد منهما باسم خاص فلا يدخل احدهما في الاخر بخلاف الاصابع والكف فان اسم اليد يشملهما ، وان الاسنان مغروزة في اللحيين وليست متصلة بهما والاصابع متصلة بالكف، وان اللحيين يوجدان قبل وجود الاسنان في الخلقة ويبقيان بعد ذهاب الاسنان في الشخص الذي يتقدم به العمر او الشخص الـذي قلعت اسـنانه بخلاف الاصابع والكف فانهما يوجدان سوية .

وذهب الظاهرية الى القول ان لا شيء في اللحيين بالخطأ ، وفيه القود في العمد . وقولهم هذا غير سديد للاسباب اتي ذكرناها سابقا .

٩ ـ ديـة العينين :

وفي العينين الدية لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «وفي العينين الدية» ، وفي الواحدة نصف الدية لانه ليس في البدن منهما الا شيئان ففيهما الدية وفي

---

(٧١) ينظر : الام جـ٦ ص ١١٠ ، والبحر الزخار جـ٥ ص ٢٧٩ .

الواحدة نصف الدية . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « وفي العين الواحدة خمسون من الابل »[٧٢] . ولانهما اكثر الاعضاء نفعاً وجمالا .

ولا فرق بين العين الصغيرة والكبيرة ، والصحيحة والمريضة ، واليمنى واليسرى ، وعين الصغير والكبير .

واذا فقئت عين الاعور الصحيحة ففيها دية كاملة وبهذا قال الحنابلة والمالكية والامامية لانها في حقه في معنى العينين ، ولان عمر وعثمان وعلياً وابن عمر رضي الله عنهم قضوا في عين الاعور بالدية[٧٣] .

وقال الشافعية والحنفية والزيديه : تجب في عين الاعور الصحيحة نصف الدية لان الرسول صلى الله عليه وسلم قضى في العين الواحدة بخمسين من الابل وهي نصف الدية ، وعين الاعور لا تعتبر اكثر من عين واحدة فيقتضي ان لا يجب فيها اكثر من ذلك[٧٤] .

وما ذهب اليه الشافعية والحنفية والزيدية هو الراجح لان النص لم يفصل بين الاعور والصحيح ، وان الرسول صلى الله عليه وسلم قضى في العين الواحدة بخمسين من الابل وهي نصف الدية . ولان ما كان في الانسان منه اثنان ففي احدهما نصف الدية ، وعين الاعور لا تعتبر اكثر من عين واحدة فيقتضي ان لا يجب فيها اكثر من ذلك .

واذا ذهب بصرهما ففية الدية ، وفي ذهاب بصر احداهما نصف الدية . وليس في اذهابهما بنفعهما اكثر من دية واحدة .

واذا قلعت العين القائمة التي لا تبصر ففيها حكومة لانه لم يرد فيها ارش مقدر .

---

(٧٢) رواه مالك في الموطأ .

(٧٣) ينظر : المغني جـ ٩ ص ٥٨٩ ـ ٥٩٠ ، وبداية المجتهد جـ ٢ ص ٤٦٠ ـ ٤٦١ ، والروضة البهية جـ ٢ ص ٤٣١ ـ ٤٣٢ .

(٧٤) ينظر : الام جـ ٦ ص ١٠٨ ، وتبيين الحقائق جـ ٦ ص ١٣٥ ، والبحر الزخار جـ ٥ ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ .

وقال الظاهرية : لا يجب شيء في العين بالخطأ لانه لم يصح نص في ذلك[٧٥] وقد رددنا قولهم هذا سابقا .

١٠ - ديـة الاجفـان :

وفي الاجفان الدية لان فيها جمالا ومنفعة ، وفي كل واحد منها ربع الدية لانها أربعة ، وما يكون من الاعضاء أرباعا وفيه الدية فيكون في كل واحد ربع الدية . وعند المالكية تجب فيها حكومة لانه لم يثبت تقديره عن النبي صلى الله عليه وسلم ، والتقدير لا يثبت قياسا[٧٦] .

والراجح ما ذهب اليه غير المالكية لانها أعضاء فيها جمال ظاهر ومنفعة كاملة ، فانها تحفظ العين وتقيها من الاذى ، وتفويت ذلك ينقص البصر وربما يؤدي الى العمى ، فبقطعها تفويت منفعة كتفويت المنفعة بقطع الانف واللسان والعـين .

وتجب الدية في قطع اجفان الاعمى لان ذهاب بصره في غير الاجفان فلم يمنع وجوب الدية في الاجفان كذهاب الشم لا يمنع وجوب الدية في الانف.

ولو قلعت العينان مع الاجفان وجبت ديتان ، لان الاجفان غير العينين فكل واحد منهما مختص باسم خاص وله فائدة خاصة .

وقال الظاهرية : لادية في الاجفان لانه لا حجة عندنا في قول احد دون كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والاموال محرمـة ، فلا يجب في الخطأ شيء لقوله تعالى :«وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به»[٧٧] . وقولهم هذا لايمكن الاخذ به للاسباب التي ذكرناها سابقا .

---

(٧٥) ينظر : المحلى جـ١٠ ص ٤١٩ .
(٧٦) ينظر : شرح الموطأ للزرقاني جـ٥ ص ١٥٠ .
(٧٧) ينظر المحلى جـ١٠ ص ٤٢٤ .

١١ ـ دية الاهداب :

ليست في الاهداب شيء مقدر وانما فيها حكومة . وقال الحنابلة والحنفية : تجب فيها الدية اذا لم تنبت ، وفي كل واحد منها ربع الدية لان فيها جمالا ونفعاً فانها تقي العينين وترد عنهما الاذى وتجملهما[٧٨] .

والراجح ما ذهب اليه غير الحنابلة والحنفية لانه لم يرد بها ارش مقدر ولا يمكن قياسها على غيرها لان نفعها أقل من باقي الاعضاء ، ولان الشعر ينقطع بنفسه ولا يتألم صاحبه لانه لا حياة فيه ، وانه ينبت ويكثر ويقل فلا يشبه باقي الاعضاء التي يجري فيها الدم .

ولو قطعت مع الاجفان فلا شيء فيها لانها تابعة لها ، ولان الشعر يزول تبعا لزوال الاجفان فلم تنفرد بالضمان .

وقال الظاهرية : لا شيء بأهداب العينين لعدم وجود نص[٧٩] .

١٢ ـ دية الحاجبين :

وفي الحاجبين الدية اذا لم ينبت الشعر لان فيهما اذهاب الجمال ، وفي احدهما نصف الدية . ولا فرق في كونها خفيفة او كثيفة ، جميلة او قبيحة ، لصغير او لكبير . وبهذا قال الحنفية والحنابلة[٨٠] .

وقال الشافعية والمالكية والزيدية : تجب فيهما حكومة لانه لم يرد بهما ارش مقدر[٨١] وذهب الامامية الى القول ان في شعر الحاجبين نصف الدية وفي كل واحد منهما نصف ذلك . وفي رواية عنهم : ان فيهما الدية كغيرهما من الانسان منه اثنان ، والقول الاول هو المشهور عندهم[٨٢] .وقال الظاهرية:

---

(٧٨) ينظر : المغني جـ٩ ص ٥٩٣ ، وبدائع الصنائع جـ٧ ص٣١٤ .

(٧٩) ينظر : المحلى جـ١٠ ص ٤٢٤ .

(٨٠) ينظر : المبسوط جـ٢٦ ص ٧٠ ، والمغني جـ٩ ص ٥٩٨ .

(٨١) ينظر : الام جـ٦ ص ١٠٨ ، وبداية المجتهد جـ٢ ص٤٥٨ ، والبحر الزخار جـ٥ ص ٢٧٧ .

(٨٢) ينظر : الروضة البهية جـ٢ ص ٤٣١ ـ ٤٣٢ .

لا يجب فيهما شيء في الخطأ لانه لم يصح نص ولا اجماع في ذلـك [٨٣] •
والراجح ما ذهب اليه الشافعية والمالكية والزيديـة للاسـباب نفسها التـي ذكرناهـا عند كلامنا عن دية الاهداب •

١٢ ـ ديـة اليديـن :

وفي اليدين الدية ، وفي احداهما نصف الدية لقضاء الرسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، ولان فيهما جمالا ومنفعة وليس في الجسم من جنسهما فكان فيهما الدية • وتستوي فيهما اليسرى واليمنى ، ويد الاعسر ويد غيره•

واليد التي يجب فيها نصف الدية هي التي تقطع من مفصل الرسغ ، لان اسم اليد يتناولها عند الاطلاق بدليل قوله تعالى : « السارق والسارقة فاقطعوا ايديهما »[٨٤] • وكان الواجب قطعهما من الرسغ •

واذا قطعت اليد من نصف الساعد وجبت نصف الدية وحكومة عدل ، نصف الدية في الكف والاصابع ، والحكومة في نصف الساعد ، لان الديـة تجب في قطع اليد من الرسغ فتجب في الزائد حكومة كما لو قطع ذلك بعد قطع الكف •

وذهب الحنابلة والمالكية الى القول انه لا يجب في ذلك اكثر من ديـة اليد لان المنفعة المقصودة في اليد من البطش والاخذ والدفع بالكف وما زاد يكون تابعاً للكف[٨٥] •

والراجح ما ذهب اليه الحنابلة والمالكية وهو ان لا يجب اكثر من نصف الدية في اليد سواء قطعت من الرسغ او من المرفق او من المنكب لان اسم اليد يتناول الجميع بدليل قوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وايديكم الى المرافق »[٨٦] • وفي العرف يسـمى

---

(٨٣) ينظر : المحلى ج١٠ ص ٤٣٠ ـ ٤٣١ •
(٨٤) سورة المائدة الآيـة ٣٨ •
(٨٥) ينظر : المغني ج ٩ ص ٦٢٠ ـ ٦٢١ ،وشـرح الموطأ للزرقـاني ج ٥ ص ١٥١ •
(٨٦) سورة المائدة الآيـة ٦ •

جميع ذلك يداً ، فاذا قطع الجاني اليد من فوق الرسغ فانه لم يقطع الا يــداً فلا يلزم باكثر من نصف الدية .

واذا قطعت اليد من الرسغ ثم قطعت بعد ذلك من المرفق وجب في القطع الاول دية اليد ، وفي القطع الثاني حكومة عدل .

واذا شلت اليد فقط وجبت ديتها لفوت منفعتها كما لو فقــدت العين بصرها وبقيت قائمة او خرس اللسان .

وقال الظاهرية : لا يجب شيء في اليد بالخطأ لان الخطأ مرفوع(٨٧) .

١٤ ــ ديــة الرجلين :

وفي الرجلين الدية ، وفي احداهما نصف الدية لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « وفي الرجل الواحدة نصف الدية » . وتستوى فيهما اليسرى واليمنى ، ورجل الاعرج ورجل الصحيح ، لان العرج ليس في القدم فلا يعد ذلك عيباً في القدم .

والرجل التي يجب فيها نصف الدية هي التي تقطع من مفصل الكعب لان اسم الرجل يتناولها عند الاطلاق بدليل قوله تعالى : « وامسحوا برؤوسكم وارجلكم الى الكعبين »(٨٨) .

واذا قطعت الرجل من الساق او من الركبة فهو على الوفاق والخلاف الذي ذكرناه في اليد .

وقال الظاهرية : لا يجب شيء في الرجل بالخطأ لان الخطأ مرفوع(٨٩) .

١٥ ــ ديــة الاصابع :

وفي كل اصبع من أصابع اليدين والرجلين عشر من الابل لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « وفي كل اصبع من أصابع اليد والرجل عشر من الابل » .

---

(٨٧) ينظر : المحلى جـ ١٠ ص ٤٣٨ .

(٨٨) سورة المائدة الآيــة ٦ .

(٨٩) ينظر : المحلى جـ ١٠ ص ٤٤٢ .

ولان في قطع الكل تفويت منفعة المشي والبطش ففيها دية كاملة ، ولما كان عددها عشراً فتقسم الدية عليها .

والاصابع كلها سواء فلا فرق بين الخنصر والبنصر والوسطى والسبابة والابهام لقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « هذه وهذه سواء[٩٠] . يعني الخنصر والابهام . وفي رواية انه قال : « دية أصابع اليدين والرجلين سواء عشر من الابل لكل اصبع »[٩١] . ولان الكل في المنفعة سواء فلاتعتبر فيها الزيادة . واليد اليمنى مع اليسرى سواء والرجل اليمنى مع اليسرى كذلك سواء .

وفي كل أنملة من الاصابع ثلث دية الاصبع الا الابهام ففي كل أنملة منه نصف دية الاصبع لان فيه أنملتين .

وفي الظفر حكومة عدل . وعند الامامية عشرة دنانير اذا قلع ولم يخرج او خرج اسود ، وان خرج أبيض ففيه خمسة دنانير[٩٢] وقال الظاهرية : لا شيء فيه بالخطأ لان الخطأ مرفوع[٩٣] .

والراجح ما ذهب اليه غير الامامية والظاهرية لانه لم يرد به توقيت ولا يمكن قياسه على غيره ، وكل شيء لم يرد به ارش مقدر وجبت به حكومة .

١٦ ـ دية الاسنان :

وفي كل سن خمس من الابل لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « وفي السن خمس من الابل » .

ولا يفضل سن على آخر في الارش لان الاسنان كلها سواء لقوله عليه الصلاة والسلام : « الاسنان سواء ، الثنية والضرس سواء »[٩٤] . وقوله

---

(٩٠) رواه البخاري .
(٩١) رواه الترمذي .
(٩٢) ينظر : النهاية للطبرسي ص ٧٦٨ .
(٩٣) ينظر : المحلي ج ١٠ ص ٤٤٦ .
(٩٤) رواه ابو داود وابن ماجة .

صلى الله عليه وسلم : « في كل اصبع عشر من الابل ، وفي كل سن خمس من الابل ، والاصابع سواء ، والاسنان سواء »(٩٥) ولان الكل في المنفعة سواء فلا يعتبر التفاوت فيها كالاصابع .

ولو قلعت كلها ففيها دية وثلاثة أخماس الدية لان عددها اثنتان وثلاثون سنا ، عشرون ضرسا واربعة انياب واربع ثنايا واربع ضواحك . فاذا وجب في الواحدة نصف عشر الدية فيجب في الكل دية وثلاثة أخماس الدية . وقال الامامية : فيها الدية فقط وتقسم على ثمانية وعشرين سناً ، اثنى عشر في مقدم الفم وهي : ثنيتان ورباعيتان ونابان ومثلها من اسفل ، وستة عشر في مؤخره وهي : ضاحك وثلاثة أضراس في كل جانب ومثلها من أسفل . ففي المقاديم ستمائة دينار حصة كل سن خمسون ديناراً وفي المآخر اربعمائة دينار حصة كل ضرس خمسة وعشرون ديناراً(٩٦) .

والراجح ما ذهب اليه غير الامامية لان الخبر ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم بايجاب خمس من الابل في كل سن فيجب العمل به ، وان الكل سواء فلا فرق بين ضرس وناب ، وبين متقدم ومتأخر .

وهذا في اسنان من سقطت اسنانه اللبنية ونبتت اسنانه الاصلية ، اما اذا قلعت اسنان الصغير الذي لم تسقط اسنانه اللبنية بعد فينتظر فان نبتت ففيها حكومة وان لم تنبت ففيها الدية .

واذا ضربت السن فاسودت او احمرت او اصفرت او صدعت ففيها الدية . وقال الشافعية والامامية وابو يوسف محمد : فيها حكومة(٩٧) . وقال الظاهرية : لا يجب شيء في سواد السن واخضرارها واحمرارها واصفرارها وصدعها وكسرها اذا كانت الجناية خطأ لان الخطأ مرفوع بنص القرآن

---

(٩٥) رواه ابو داود والنسائي وابن ماجة .

(٩٦) ينظر : شرائع الاسلام جـ٤ ص ٢٦٦ .

(٩٧) ينظر : الام جـ٦ ص ١١٣ ، وشرائع الاسلام جـ٤ ص ٢٦٦ ، وتحفة الفقهاء جـ٣ ص ١٣٩ — ١٤٠ .

والاموال محرمة بالقرآن والسنة فلا يجوز البتة ايجاب غرامة في ذلك[٩٨] .
والراجح ان فيها الدية لذهاب منفعتها وجمالها ، وذهاب منفعة العضو بمنزلة ذهاب العضو نفسه . ولان تغير لونها انما حدث نتيجة لاصابة جذورها ، واذا لم تكن قد سقطت بعد الجناية عليها مباشرة فهي طريقها الى السقوط ، فتجب فيها الدية كما لو كانت قد سقطت بعد الجناية مباشرة .

١٧ ـ دية ثديي المرأة :

وفي ثديي المرأة الدية ، وفي الواحد منهما نصف الدية لان فيهما جمالا ومنفعة فأشبها اليدين والرجلين والعينين . وفي قطع حلمتي الثديين الدية لذهاب منفعة الثديين بذهابهما كالاصابع مع الكف لان بواسطتهما يشرب الصبي اللبن ويرتضع منهما .

وقال المالكية : لا تجب الدية فيهما الا اذا ذهب اللبن[٩٩] . وقال الظاهرية : لا تجب الدية في الخطأ ويجب فيهما القود اذ كانت الجناية عمداً[١٠٠] .

والراجح ما ذهب اليه غير المالكية والظاهرية وهو وجوب الدية في ثديي المرأة وفي قطع الحلمتين سواء ذهب اللبن او لم يذهب لذهاب جمالهما ومنفعتهما .

١٨ ـ دية ثديي الرجل :

لا تجب في ثديي الرجل الدية بل تجب فيهما الحكومة لذهاب الجمال من غير منفعة . وقال الحنابلة : تجب فيهما الدية لان ما وجب فيه من المرأة وجب فيه من الرجل كاليدين ، ولانهما عضوان في الجسم يحصل بهما

---

(٩٨) ينظر : المحلى جـ١٠ ص٤١٧ .
(٩٩) ينظر : شرح الموطأ للزرقاني جـ ٥ ص ١٥٠ .
(١٠٠) ينظر : المحلى جـ ١٠ ص ٤٥٥ .

الجمال وليس في الجسم غيرهما من جنسهما فوجبت فيهما الدية[101] . وقال الظاهرية : لا يجب شيء في الخطأ ويجب القود في العمد[102] .

وما ذهب اليه غير الحنابلة والظاهرية هو الذي نرجحه وهو وجوب حكومة عدل في ثديي الرجل لانهما لا نص فيهما ولا يمكن قياسهما على ثديي المرأة لان في ثدييها جمالا لها ومنفعة لاولادها ، وفي ذهابهما شين عليها وهذا لا يحصل في ثديي الرجل لانه لا جمال له فيهما ولا منفعة ولا يعتبر ذهابهما شيئاً عليه .

١٩ ـ ديـة كسر العظـم :

وفي كسر كل عظم من الانسان غير السن حكومة لانه لا تقدير فيها . وقال الامامية : اذا كسر عظم من عضو ففيه خمس دية ذلـك العضو ، واذا كسر عظم فجبر على غير عيب كانت ديته اربعة اخمـاس كسره[103]

وقال الحنابلة : لا تقدير في العظام الا في الضـلع والترقوة والزند ، فيجب في الضلع بعير ، وفي الترقوة بعير ، وفي العظم الواحد من الزند بعير ، وذلك لقضاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه بذلك . وفيما عداها ففيها حكومـة عـدل[104] . وقال الظاهرية : لا يجب شي في العظام في الخطأ[105] .

والراجح ما ذهب اليه غير الامامية والحنابلة والظاهرية وهو انه لايجب في العظام ارش مقدر وانما يجب فيها حكومة عدل لانه لم يثبت بذلك نص ، ولان التقدير انما يكون بتوقيف او قياس صحيح وليس في هذا توقيف ولا قيـاس .

---

(١٠١) ينظر : المغني جـ ٩ ص ٦٢٣ ـ ٦٢٤ .
(١٠٢) ينظر : المحلى جـ ١٠ ص ٤٥٥ .
(١٠٣) ينظر : النهاية ص ٧٧٦ .
(١٠٤) ينظر : المغني جـ ٩ ص٦٥٥ ـ ٦٥٦ .
(١٠٥) ينظر : المحلى جـ١٠ ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤ .

٢٠ ـ دية شعر الرأس :

وفي شعر الرأس اذا لم ينبت الدية وذلك لقضاء علي بن ابي طالب رضى الله عنه ، ولانه أذهب الجمال فوجب فيه دية كاملة كأذن الاصم وانف الاخشم . وقال الشافعية والمالكية والزيدية : لا تجب فيه الدية بل تجب حكومة عدل لان ذلك زيادة في الآدميين ولهذا فانه ينمو بعد كمال الخلقة(١٠٦) .

وما ذهب اليه الشافعية والمالكية والزيدية هو الراجح لانه لم يثبت نص بوجوب الدية في شعر الرأس ، ولا مجال فيه للقياس فتكون فيه حكومة عدل ، ولان الشعر يحلق فلا تتعلق به منفعة .

٢١ ـ دية شعر اللحية :

وفي شعر اللحية اذا حلق ولم ينبت الدية لانه أزال جمالا على الكمال . وعند الشافعية والمالكية والزيدية فيه حكومة عدل(١٠٧) . وهذا ما نرجحه لانه لم يثبت فيه نص بوجوب الدية ولا مجال فيه للقياس كشعر الرأس ، ولانه لا جمال فيه ولا منفعة .

وفي شعر الشارب حكومة لانه تابع للحية فصار طرفا من اطرافها .

دية الشجاج :

ليس فيما قبل الموضحة من الشجاج ارش مقدر لان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يجعل فيها شيئا مقدرا فنجب فيها حكومة عدل اذا كان لها أثر باق من جرح او خدش لان الارش انما يجب بالشين الذي يلحق المشجوج بالاثر . وبهذا قال الشافعية والحنابلة والمالكية وابو حنيفة(١٠٨) وذهب أبو يوسف ومحمد من الحنفية الى وجوب الارش في الشجاج سواء ترك أثراً أو

---

(١٠٦) ينظر : الام جـ٦ ص ٧٢ ، وبداية المجتهد جـ٢ ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩ ، والبحر الزخار جـ ٥ ص ٢٨١ .

(١٠٧) تنظر : المصادر السابقة .

(١٠٨) ينظر : الام جـ٦ ص ٦٧ ، والمغني جـ٩ ص ٦٥٩ ، وشرح الموطأ للزرقاني جـ ٥ ص ١٥٢ ، وبدائع الصنائع جـ ٧ ص ٣١٦ .

لم يترك . فقال ابو يوسف : على الجاني حكومة الالم لان الشجة قد تحققت ولا سبيل الى اهدارها ، وقد تعذر ايجاب ارش الشجة فيجب ارش الالم . وقال محمد : على الجاني اجرة الطبيب لان اجرة الطبيب انما لزمته بسبب هذه فكأنه أتلف عليه هذا القدر من المال[١٠٩] .

وقال الظاهرية : لا يجب فيها شيء لانه لم يرد بها نص من القرآن او السنة وان الاموال محرمة[١١٠] . وقال الامامية : يجب في الخارصة بعير ، وفي الدامية بعيران ، وفي المتلاحمة ثلاثة ، وفي السمحاق أربعة لقضاء علي بن ابي طالب رضي الله عنه بذلك[١١١] . وقال الزيدية : يجب في الخارصة نصف بعير ، وفي الدامية بعير ، وفي الباضعة بعيران ، وفي المتلاحمة ثلاثة ، وفي السمحاق أربعة لقضاء على رضي الله عنه بذلك[١١٢] .

والراجح ما ذهب اليه محمد من الحنفية وهو وجوب اجرة الطبيب سواء تركت الشجة أثراً او لم تترك لان ما سيدفعه الى الطبيب من مال كان بسبب الشجة .واضيف الى ما ذهب اليه محمد ان على الجاني ان يدفع الى المجني عليه اضافة الى اجرة الطبيب تعويضا عن الضرر الذي لحق به نتيجة تعطله عن عمله بسبب بقائه في المستشفى للعلاج .

اما ما ذهب اليه ابو يوسف فلا يمكن قبوله لان الالم لا ضمان له ولا يمكن تقديره . وكذلك لايمكن قبول ما ذهب اليه الامامية والزيدية لانه لم يرد فيها توقيت من الرسول صلى الله عليه وسلم ولايمكن قياسها على الغير. وكل شيء لم يرد به توقيت ولايمكن قياسه على غيره تجب فيه حكومة .

---

(١٠٩) ينظر : بدائع الصنائع جـ٧ ص ٣١٦ — ٣١٧ .
(١١٠) ينظر : المحلى جـ ١٠ ص ٤٠٣ — ٤٠٤ .
(١١١) ينظر : شرائع الاسلام جـ ٥ ص ٢٧٥ .
(١١٢) ينظر : البحر الزخار جـ ٥ ص ٢٩٣ .

ويجب في الموضحة خمس من الابل لقول الرسول عليه الصلاة والسلام: « وفي الموضحة خمس من الابل » • وفي الهاشمة عشر من الابل لقول زيد بن ثابت رضي الله عنه ، ولانها شجة فوق الموضحة تختص باسم فكان فيها مقدر كالمأمومة • وقال الظاهرية : لا يجب فيها شيء في الخطأ لانه لا يوجد نص بذلك[113] •

وارى انه لا يجب فيها ارش مقدر لعدم وجود نص من الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولو كان فيها شيء مقدر لبينه عليه الصلاة والسلام كما بين ارش الموضحة والمأمومة والجائفة • والذي أراه انه يجب في الهاشمة خمس من الابل وهو ارش الموضحة مع حكومة عدل بكسر العظم •

ويجب في المنقلة خمسة عشر من الابل لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: « وفي المنقلة خمسة عشر من الابل » •

اما الدامغة التي تصل الى الدماغ فلم يقدر لها ارش لان الظاهر ان الذي يصاب بها لا يبقى على قيد الحياة فتجب حينئذ دية النفس ، او يفقد العقل فتجب دية العقل وهي دية كاملة لقول النبي عليه الصلاة والسلام : « وفي العقل مائة من الابل »[114] •

دية الجراح :

الجراح التي في سائر البدن ليس فيها ارش مقدر سوى الجائفة • والجائفة هي التي تنفذ الى الجوف ففيها ثلث الدية لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « وفي الجائفة ثلث الدية » • فان نفذت الى الجانب الآخر فهما جائفتان وفيهما ثلثا الدية • وقد روي عن ابي بكر الصديق رضي الله عنه انه حكم في جائفة نفذت الى الجانب الآخر بثلثي الدية وكان ذلك بمحضر من الصحابة ولم ينقل انه خالفه في ذلك احد منهم فيكون اجماعاً[115] •

---

(١١٣) ينظر : المحلى جـ ١٠ ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤ •
(١١٤) رواه البيهقي •
(١١٥) ينظر : بدائع الصنائع جـ ٧ ص ٣١٨ ـ ٣١٩ •

اما اذا لم ينفذ الجرح الى الجوف ففيه حكومة عدل ان بقي له أثر . وعند ابي يوسف يجب ارش الالم اذا لم يبق له أثر ، وعند محمد تجب اجرة الطبيب[116] .

وما ذهب اليه محمد هو الذي نرجحه للاسباب التي ذكرناها في دية الشجاج بالاضافة الى وجوب تعويض للمجنى عليه عن الايام التي تعطل بها عن عمله بسبب الجرح .

وقال الظاهرية : لا يجب شيء في الجراح اذا كان الفعل خطأ لان الخطأ مرفوع في القرآن والسنة ، وان الاموال محرمة[117] . وقولهم هذا لا يمكن الاخذ به للاسباب التي ذكرناها سابقا .

دية الانثى فيما دون النفس :

ودية المرأة فيما دون النفس على النصف من دية الرجل التي مر ذكرها، لان ديتها في النفس على النصف من دية الرجل فتتنصف في اطرافها ، ولان ميراثها وشهادتها بمنزلة النصف من الرجل فكذا في الدية . وبهذا قال الحنفية والشافعية والزيدية والظاهرية ، واستدلوا بما روي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي صلى الله وسلم انه قال : « دية المرأة نصف دية الرجل[118] .

وقال الحنابلة والمالكية والامامية : تساوي جراح المرأة جراح الرجل الى الثلث ، فان جاوز الثلث فعلى النصف من دية الرجل لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « عقل المرأة مثل عقل الرجل حتى يبلغ الثلث من ديته »[119] .

---

(116) ينظر : المصدر السابق ص ٣٢٤ .

(117) ينظر : المحلى جـ ١٠ ص ٤٠٤ .

(118) ينظر : تحفة الفقهاء جـ ٣ ص ١٥٠ ـ ١٥١ ، والام جـ ٦ ص ٩٢ ، والبحر الزخار جـ ٥ ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧ ، والمحلى جـ ١٠ ص ٤٤١ .

(119) ينظر : المغني جـ ٩ ص ٥٣٢ ـ ٥٢٢ ، وشرح الموطأ للزرقاني جـ ٥ ص ١٤٢ ـ ١٤٣ ، وشرائع الاسلام جـ٤ ص ٢٧٩ ، روى الحديث النسائي والدارقطني .

والراجح ما ذهب اليه الحنابلة والمالكية والامامية لما استدلوا به وهو النص ، ولما روي عن ربيعة الرأي انه قال لسعيد بن المسيب : كم في اصبع المرأة ؟ قال : عشر من الابل ، قلت : كم في اصبعين ؟ قال : عشرون من الابل، قلت : كم في ثلاث أصابع ؟ قال : ثلاثون من الابل ، قلت : فكم في أربع اصابع ؟ قال : عشرون من الابل ، قلت : حين عظم جرحها واشتدت مصيبتها نقص عقلها ؟ قال سعيد : أعراقي انت ؟ قلت : بل عالم متثبت او جاهل متعلم ، قال : هي السنة يا ابن اخي[١٢٠] .

وما استدل به الحنفية والشافعية والزيدية والظاهرية وهو قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « دية المرأة نصف دية الرجل » فيحمل على الدية الكاملة في النفس كما هو ظاهر اللفظ ، فيخصص فيما دون النفس بقوله عليه الصلاة والسلام : « عقل المرأة مثل عقل الرجل حتى يبلغ الثلث من ديته » .

ما تتحمله العاقلة من الدية فيما دون النفس :

لا تتحمل العاقلة في الخطأ فيما دون النفس من الدية الا اذا كان نصف عشر الدية فصاعدا ، اما اذا كان دون ذلك فهو في مال الجاني ، لان القياس يأبى التحمل لان الجناية حصلت من غيرهم ، وانما عرف ذلك بقضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بارش الجنين على العاقلة وهو نصف عشر الدية فيبقى فيما دون ذلك على أصل القياس ، ولان ما دون ذلك ليس له ارش مقدر بنفسه فأشبه ضمان الاموال فلا تتحمله العاقلة كما لا تتحمل ضمان الاموال . وبهذا قال الحنفية والامامية والزيدية[١٢١] .

وقال الشافعية : ان العاقلة ، تتحمل القليل والكثير من الارش ، لان العاقلة انما تتحمل الدية لتفريطهم في الحفظ والنصرة وهذا المعنى لا يوجب الفصل بين القليل والكثير[١٢٢] .

---

(١٢٠) رواه مالك في الموطأ .

(١٢١) ينظر : بدائع الصنائع جـ ٧ ص ٣٢٢ ــ ٣٢٣ ، وشرائع الاسلام جـ ٤ ص ٢٨٨ ــ ٢٨٩ ، والبحر الزخار جـ ٥ ص ٢٥٥ .

(١٢٢) ينظر : الام جـ ٦ ص ٩٨ .

وقال الحنابلة والمالكية : ان العاقلة لا تحمل ما دون الثلث ، فاذا كان أقل فيجب حالا في مال الجاني لانه بدل متلف لا تحمله العاقلة فكان حالا كالجناية على المال[123] .

وقال الظاهرية : لا تتحمل العاقلة من الدية الادية النفس في الخطأ وغرة الجنين ، لان النص صح بايجاب دية النفس في الخطأ عليها ، وكذلك صح بايجاب الغرة الواجبة في الجنين[124]

والراجح ما ذهب اليه الحنابلة والمالكية وهو ان العاقلة تتحمل الثلث فأكثر ، لان الدية انما وجبت على العاقلة لغرض التخفيف عن الجاني سيما وان الانسان معرض للخطأ وهو معذور فيه ، ولان الثلث كثير لقول الرسول صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبى وقاص رضي الله عنه عندما أراد أن يوصي بكل تركته : « الثلث والثلث كثير أو كبير » . ولا يتحقق الغرض من تحمل العاقلة الدية وهو التخفيف الا اذا اوجبنا على العاقلة هذا المقدار وهو الثلث. واما دون ذلك فيبقى في مال الجاني لانه ليس بالكثير ، وان الجاني في الغالب غير عاجز عن تحمله فيشبه ضمان الاموال فلا تتحمله العاقلة .

وتلزم العاقلة بدفع الثلث فما دونه في مضي سنة ، فان كان أكثر من الثلث فعليها ان تؤدي الثلث في مضي سنة وما زاد على الثلث تؤديه في مضي السنة الثانية الى الثلثين ، فما جاوز الثلثين فيؤدى في مضي السنة الثالثة .

---

(١٢٣) ينظر : المغني جـ ٩ ص ٤٩٤ ، وشرح الموطأ للزرقاني جـ٥ ص ١٦١ .

(١٢٤) ينظر : المحلى جـ١ ـ١ ص ٥٤ .

المصـــادر

١ ـ القرآن الكريم .
٢ ـ صحيح البخاري : دار احياء التراث العربي ـ بيروت .
٣ ـ صحيح مسلم : دار احياء التراث العربي ـ بيروت .
٤ ـ مسند الامام احمد بن حنبل ـ القاهرة .
٥ ـ سنن ابي داود : مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٣٧١ هـ ـ ١٩٥٢م
٦ـ المبسوط : السرخي ـ مطبعة السعادة ـ القاهرة ١٣٢٤ هـ .
٧ ـ سنن النسائي : مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٩٦٤ م .
٨ ـ سنن الترمذي : مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٩٣٧ م .
٩ ـ نيل الاوطار : الشوكاني ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦١ م .
١٠ـ الجامع الصـغير : عبد الرحمن السيوطي ـ مطبعـة مصـطفى البابي الحلبي ـ القاهرة .
١١ـ كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق : المناوي ـ مطبوع بهامش الجامع الصـغير .
١٢ـ سبل السلام : الصنعاني ـ دار احياء التراث العربي ١٣٧٩ هـ ١٩٦٠م.
١٣ـ تفسير النسفي ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة .
١٤ـ شرح فتح القدير : ابن الهمام ـ المطبعة الكبرى الاميريـة ـ القاهرة ١٣١٨ هـ .
١٥ـ بدائع الصنائع : الكاساني ـ القاهرة ١٣٢٨ هـ ـ ١٩١٠ م .
١٦ـ المبسوط : السرخي ـ مطبعة السعادة ـ القاهرة١٣٢٤ هـ .
١٧ـ تبيين الحقائق : الزيلعي ـ المطبعة الكبرى الاميرية ـ القاهرة ١٣١٣ هـ .
١٨ ـ تحفة الفقهاء : السمرقندي ـ دار الفكر ـ دمشق .
١٩ـ الاختيار لتعليل المختار : الموصلي الحنفي ـ القاهرة ١٣٧٠ ـ ١٩٥١م.
٢٠ـ الام : الامام الشافعي ـ كتاب الشعب ـ بيروت .
٢١ـ نهاية المحتاج : الرملي ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨ م .

٢٢ــ مختصر المزني ــ مطبوع بهامش كتاب الام .
٢٣ــ الاشباه والنظائر : السيوطي ــ مطبعة البابي الحلبي ــ القاهرة ١٣٧٨ هـ ــ ١٩٥٩ م .
٢٤ــ المغني : ابن قدامة ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت ١٣٩٢ هـ ــ ١٩٧٢ م .
٢٥ــ اعلام الموقعين : ابن قيم الجوزية ــ القاهرة ــ ١٣٨٩ هـ ــ ١٩٦٩ م .
٢٦ــ بداية المجتهد : ابن رشد القرطبي ــ القاهرة ١٣٨٦ هـ ــ ١٩٦٦ م .
٢٧ــ شرح الموطأ : الزرقاني ــ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ــ القاهرة ١٣٨٢ ــ ١٩٦٢ م .
٢٨ــ شرائع الاسلام : الحلي ــ مطبعة الآداب ــ النجف ــ ١٣٨٩هـ ــ ١٩٦٩م .
٢٩ــ شرح اللمعة الدمشقية : العاملي ــ مطابع دار الكتاب العربي ــ القاهرة .
٣٠ــ النهاية : الطوسي ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت ١٣٩٠ هـ ــ ١٩٧٠ م .
٣١ــ المختصر النافع : الحلي ــ مطابع دار الكتاب العربي ــ القاهرة .
٣٢ــ البحر الزخار : ابن المرتضى ــ مطبعة السنة المحمدية ــ القاهرة ١٣٦٨ هـ ــ ١٩٤٩ م .
٣٣ــ المحلى : ابن حزم ــ منشورات المكتب التجاري للطباعة ــ بيروت .

ادب العراق في العهد العثماني

د . علي احمد الزبيدي
الاستاذ في كلية الاداب ـ جامعة بغداد

(١) عصوره وأصوله ومصادر دراسته

بدأ العهد العثماني في العراق بانتصار السلطان سليمان القانوني على الصفويين واستيلائه على بغداد عام ٩٤١ هـ / ١٥٣٤ م . وقد دام حكم العثمانيين ما يقرب من أربعة قرون وانتهى بالاحتلال البريطاني للعراق وعاصمته بغداد سنة ١٣٣٥ هـ / ١٩١٧ م . ولم تنقطع تبعية العراق لدولة آل عثمان طيلة هذه الحقبة اذا استثنينا المدة القصيرة التي نجح الصفويون خلالها في استعادة بغداد وجزء من العراق اوائل القرن الحادي عشر للهجرة ١٠٣٢ ـ ١٠٤٨ هـ / ١٦٢٢ ـ ١٦٣٨ م اي في بداية الحكم العثماني . واذا استثنينا ايضا السنوات القليلة التي هجم خلالها الايرانيون كرة اخرى في عهد نادر شاه واستطاعوا احتلال بعض اجزاء العراق ومحاصرة بغداد ثلاث مرات والارتداد عنها خائبين ثم قيامهم بحصار الموصل حصارا فاشلا ايضا سنة ١١٥٦ هـ / ١٧٤٣ م

وكانت سياسة الدولة العثمانية وأساليبها البالية في الحكم ، وتوالى الاحداث السياسية والعسكرية والاجتماعية والدينية الخطيرة قد اربكت ارتباط العراق باسطنبول وانهكته واقلقت حكامه الجدد واجهزت على البقية الباقية من عمرانه ، ان كانت ثمة بقية حقا .. هذه الاحداث وغيرها جعلت كل

عصر من العصور العثمانية المتعاقبة يتسم بسمات خاصة تميزه عن غيره ، وهو أمر حدا بالمؤرخين الى تقسيما لعهد العثماني في العراق الى اربعة مراحل او أدوار أو عصور وهو تقسيم تاريخي أخذ به اغلب المختصين بالتاريخ العثماني في العراق أما الباقون او المخالفون فمنهم من جعل العصور العثمانية في العراق خمسة ومنهم من اختصرها الى ثلاثة • ومصطلح العصر افضل للاستعمال من لفظ الدور أو المرحلة لانه اكثر استعمالا وشيوعا في تاريخ الادب العربي •

لقد كان العصر الاول الذي ابتدأ بالفتح العثماني لبغداد سنة ٩٤١هـ مرحلة صراع عنيف بين العثمانيين الاتراك والصفويين الفرس ، وهو صراع جلب المصائب للعراق والعراقيين زيادة على ما نزل بهذه البلاد منذ سقوط بغداد (سنة ٦٥٦ / ١٢٥٨) بايدي المتوحشين المغول ، ثم خراب معظم ما اعيد اصلاحه خلال العصر الايلخاني والجلائري والتركماني (٦٥٦ ــ ٩٤١ هـ) مع العلم أن تلك الاصلاحات الطفيفة لم توقف عجلة تخريب العراق وبخاصة نظام الري بسبب الحروب التي استعرت بين قبيلتي القره قوينلو وآق قوينلو التركمانيتين وبين الثانية والصفويين الفرس الى أن نجح الشاه اسماعيل في الاستيلاء على بغداد سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٩م • ويجدر بنا ان لا ننسى ونحن نتحدث عن جرائم الغزاة الحلقات الدموية الاخرى من مسلسل التخريب والحرق والمحق وسفك الدماء وسائر الفظائع التي اقترفها تيمورلنك الذي احتل بغداد سنة ٧٩٥ هـ / ١٣٩٢ م حتى اذا استعادها منه الجلائريون سنة ٧٩٧ عاد فاحتلها ثانية عام ٨٠٣ هـ فدمرها واعمل السيف في اهلها بلا تمييز فكانت اكبر مذبحة عرفها تاريخ بغداد حتى قيل انه أمر كل فرد من مقاتليه ان يأتيه بعدد من الرؤوس فبنى ابراجا من الجماجم • ولم يستطع الجلائريون

اخراجه منها الا بعد خمس سنوات كانت كابوسا دمويا في تاريخ بغداد[١]
ولم تنقطع سيول الدماء بعد الاحتلال العثماني الاول ، فقد نجح الصفويون في احتلال بغداد ثانية سنة ١٠٣٢ هـ / ١٦٢٢ بعد حصار طويل حافل بالمآسي والدسائس والخيانات[٢] ثم حكموها حتى سنة ١٠٤٧هـ / ٦٣٧ ففيها تمكن السلطان مراد الرابع من استعادة بغداد التي اصبحت مدينة صغيرة يشيع فيها الخراب كما يشير السواح القلائل الذين زاروها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر[٣] وقد تم طرد الصفويين من العراق بعد معارك حامية الوطيس • وبقيت بغداد والعراق في حوزة العثمانيين طيلة القرون الثلاثة التالية اي حتى عام ١٣٣٥ هـ / ١٩١٧ •

ومن الطبيعي أن تختلف الازمان والاحوال في اثناء هذا العهد المديد ، وأن يتسم كل عصر منه بخصائص وسمات ولهذا قسمه المؤرخون الى خمسة أعصر على النحو الآتي :

١ ـ عصر النزاع الصفوي ـ العثماني ٩٤١ ـ ١٠٤٨ هـ / ١٥٣٤ ـ ١٦٣٨ م وقد أشرنا الى ابرز احداثه • ويتميز هذا العصر بضراوة الصراع التركي ـ الفارسي وطوله وكثرة وقائعه وحروبه وكوارثه ، وبالتهاب النزاع المذهبي ودمويته ، فالصفويون تعصبوا للمذهب الشيعي بعنف ، والعثمانيون

---

(١) انظر : جعفر خياط : صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة ، المقدمة ١١ ـ ١٣ وترجمته لكتاب : لونكريك : اربعة قرون من تاريخ العراق . وعباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين ج ٤ وتاريخ الادب في العراق جـ١ و ٢ . وقوائم المراجع في الكتب المذكورة .

(٢) للمزيد من التفاصيل انظر : عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين جـ ١ ، ٢ ، ٣ .

(٣) للمزيد من التفاصيل : انظر : بغداد سنة ١٥٧٣ ترجمة سليم طه التكريتي . مجلة المورد م/٥ ٤/٢ ١٩٧٦ واحوال بغداد في العصر العثماني / نورس / المورد م/٥ و ع/٣ ١٩٧٦ والاول تعريب لرحلة الطبيب الهولندي راولف .

وانظر : سعاد العمري : بغداد كما وصفها السواح الاجانب. بغداد ١٩٥٤.

تعصبوا للسنة وجعل كل منهما من المذهب واجهة وذريعة سياسية دينية لتوطيد سلطانه وتبرير حملات وجرائم تصفية الخصوم • وتضافرت السياسة والجهل والفقر والقحط والجوع والوباء وويلات الحرب وسيل البدع والطرق الصوفية على توسيع خارطة البؤس والتأخر والتمزق الديني والاجتماعي وتقوية العصبيات المحلية والقبلية والمذهبية لاضعاف العراق والاستحواذ على خيراته • حقا ان فرائص الانسان لترتعد هلعا وهو يقرأ اوصاف الكوارث التي حلت بالعراق ليطلع على الاحوال السياسية والاجتماعية ، أما الاحوال الثقافية فتتميز خلال العصر العثماني الاول بتدهور الادب وضعفه وعجزه حتى عن اللحاق بالعصور المتأخرة مع تخلفها وفقرها • وقد اقترن التدهور والضعف بتوسع نفوذ اللغة الفارسية بتأثير الصفويين ، واستمرار الغزو اللغوي التركي الذي بدأ منذ العصر المغولي ثم تغلغله في الميادين الادارية والاجتماعية والادبية بعد الاحتلال العثماني •. حتى أن الموجة التركية العثمانية نجحت في وقت مبكر في تخريج أجيال من الشعراء والادباء والمؤلفين العراقيين يقرضون الشعر ويكتبون النثر بالتركية الآذرية ، فكان لهم فضل وضع اسس ودعائم الادب التركي والتمهيد لمستقبله اللغوي والفني[٤] • واشهر اولئك الشعراء فضولي البغدادي وابنه فضلي وشمسي البغدادي وابنه عهدي الكاتب المؤرخ المشهور بكتابه (گلشن شعرا) الذي اورد فيه اسماء نحو أربعين شاعرا من شعراء بغداد الذين كانوا ينظمون بالتركية والفارسية والعربية في اواخر القرن العاشر الهجري[٥] • وفي هذا العصر ازدادت اهمية المراكز الثقافية العربية المهمة في المدن الكبيرة كالبصرة والنجف والحلة نتيجة لتمركز النفوذ السياسي والثقافي التركي في بغداد ، حتى ان البصرة اصبحت من اكبر مراكز الادب والثقافة العربية بفضل أسرة افراسياب التي حكمتها وراحت ترعى الشعراء والادباء العرب لاسناد سياستها الاستقلالية المناهضة للولاة

---

(٤) حسين نجيب المصري : تاريخ الادب التركي ، وكتابه : فضولي البغدادي

(٥) والعزاوي : تاريخ العراق ٤/١٣٣ ـ ١٣٨ وكلشن شعرا لعهدي البغدادي.

العثمانيين في بغداد[٦] • واسهم في هذا الازدهار العربي ايضا استمرار حكم المشعشعين في الحويزة وخوزستان • وكان هؤلاء يفيدون من الصراع الفارسي العثماني لابقاء امارتهم ويجتذبون الشعراء والادباء ويجزلون لهم العطاء[٧] • وقد انجبت منطقتهم كبار شعراء العصر كعبدعلي الحويزي وابن معتوق شهاب الدين الموسوي • ومن خصائص هذا العصر اندماج شعراء البحرين بشعراء العراق اقليميا وادبيا وفنيا لهذا الحقتهم المصادر بالعراقيين لانهم يؤلفون مجموعة واحدة متجانسة • ومن مشاهير شعراء وادباء العصر الذين اتصلوا بالامارات المذكورة وفرضوا شاعريتهم وشهرتهم والترجمة لهم في المصنفات المعنية بعصرهم : ابو الغنائم محمد الحلي ، وحسين بن كمال الدين الابرز الحلي ، ومحمد بن عواد الشهير بالهيكلي الحلي ، وعلي بن خلف الحويزي وهؤلاء هم الذين ترجم لهم ابن معصوم في (سلافة العصر)[٨] والمحبي في خلاصة الاثر ، وفي نفحة الريحانة[٩] • ولا ريب في أن تقدمهم على شعراء عصرهم وشهرتهم قد اوصلت اخبارهم الى كتاب التراجم والتواريخ من الشاميين والمصريين • وكان عبد علي الحويزي أشهرهم وأقدرهم على الشعر المتصنع المساير لذوق العصر ، وللحويزي اشعار بالفارسية والتركية وقيل (دواوين) وذلك امر له دلالاته المهمة في تأريخ آداب العصر ، ومن حسن حظ الحويزي ان كثيرا من شعره وبعض مؤلفاته قد وصلت الينا•ومنها مؤلفات في الادب والتاريخ والموسيقى والشعر الشعبي[١٠] •وقبيل هذا العصر انتهت موجة

---

(٦) وانظر : محبوبة : ماضي النجف وحاضرها . وعلي الخاقاني : شعراء الغري . وعن الحلة انظر : محمد علي اليعقوبي : البابليات. والخاقاني : شعراء الحلة والدكتور جواد علوش : صفي الدين الحلي ١١ و ٤١ .

(٧) محمد الخال : تاريخ الامارة الافرا سيابية (مطبوعات المجمع العلمي العراقى ١٩٦١) وهو قسم من كتاب (السيرة المرضية في شرح الفرضية) لعبد علي الحويزي .

(٨) انظر : جاسم حسن شبر : تاريخ المشعشعين (النجف ١٩٦٥) .

(٩) انظر : سلافة العصر : ٥٣٧ ــ ٥٦٢ وخلاصة الاثر .

(١٠) المراجع السابقة وانظر اغا برزك : الذريعة ٩/ ٦٩٠ ــ ٦٩١ رقم ٤٨٠٠ــ٣ ١٣٩ ــ ١٨٠ ونفحة الريحانة وهدية العارفين ١/ ٥٨٦ .

التأليف في النقد والبلاغة والبيان الى مد (ابديع) وتحولت الى ما يشبه (الوصفات) على الانماط التي تطالعنا في (خزانة الادب) لابن حجة الحموي و (معاهد التنصيص) للعباسي واضرابهما واستطاع المد البديعي أن يهيمن على اساليب التعبير الشعري والنثري فيقيدها ويجمدها ويحد من حركتها وحريتها الفنية ويحاصرها في دوائر ضيقة ويكبلها باغلال المحسنات اللفظية المصطنعة • وكان موج الشعر التعليمي قد امتد الى فنون الشعر والبلاغة ليجعل منها (محفوظات) ثم اعقبته القصائد التعليمية المعروفة بـ (البديعيات) فاحالت الشعر الى مقررات جافة وقوالب جامدة حاصرت الفن في ضرب من (الروتين) الذي يعتمد الحفظ والتلقين والتكرار والتطبيق الجاف • وسنفصل الكلام في هذا عند البحث في الفنون والاغراض والاساليب • وهنا يحسن ان نتذكر فنؤكد أن الحياة الادبية وبخاصة في العراق قد تأثرت تأثرا عميقا بالحروب والنكبات الكبرى التي تتابعت منذ سقوط بغداد وتوالت بعد ذلك في اثناء الصراع الصفوي ــ العثماني فتقلص النشاط الادبي والفكري بوجه عام وبدت الالسنة والاقلام وكأنها انشلت او تعطلت منتظرة انجلاء الجو السياسي والعسكري المدلهم • ومن مشاهير شعراء العصر اضافة الى من ذكرنا : عيسى بن حسين النجفي وقد ترجم له ابن معصوم وجمال الدين محمد بن عبدالله النجفي ، وعبدالرحمن الموصلي الشيباني وله ديوان في كوته وبرلين وياسين المفتي وحسن عبدالباقي وديوانه مطبوع ونصرالله الحائري وديوانه مطبوع ، وغرس الدين الخليلي وله ديوان مرتب على حروف المعجم واكثر قوافيه من الالفاظ المشتركة كالخال والعين ، ومن مشاهير الناثرين عبدالقادر البغدادي صاحب خزانة الادب والبديعي مؤلف الصبح المنبي ، والشاعر عبد علي الحويزي وابن الحكيم (حكيم زاده) وفتح الله الكعبي ومحمود الغرابي وياسين المفتي[١١] وكان جل اعتماد الثقافة الادبية واللغوية والدينية على الجوامع والمدارس الملحقة بها ، وخزائن كتبها ، اما اهتمام الحكام واولي

---

(١١) انظر مراجع الهامش (١) والعزاوي : تاريخ الادب ٢/٢٥١ وما بعدها

الامر بتشجيع العربية وادابها فقد انتهى امره أو كاد منذ قرون اي مذ اصبح الحكام والسلاطين والوزراء من الاعاجم • ولكن هؤلاء لاسباب دينية ودنيوية أكثر ما اهتموا بالجوامع والمدارس فظل الكثير منها قائما في عهود المغول والتركمان • ويقرر العزاوي اننا لا نستطيع ان نعد جديدا من هذه المؤسسات لهذا العهد «لأن الجوامع والمدارس والتكايا في بغداد لما قبل الفتح العثماني كثيرة جدا ، تدل على عناية الامة واتصالها بعقيدتها وثقافتها ، وكان عملها كبيرا في تحقيق الامرين : بث العقيدة وتأكيد الثقافة[١٢] » • «وغالب ماعملته الدولة تجديد ما اندرس من هذه المعاهد من الوقف (اي من اموال الاوقاف) فاكتسب بعضها اسما جديدا » ثم ذكر العزاوي جملة مما عمر وجدد كجامع الشيخ عبدالقادر ومدرسته ، والامام الاعظم ومدرسته وجامع الوزير ومدرسته وجامع الصاغة ومدرسته وجامع الكاظمين وتكية المولوية ، وتكيـة خضر الياس البكتاشية ، وجامع السراي ، وجامع جديد حسن باشا • : وهذه تضاف الـى ما كان قائما سابقا مثل مسجد قمرية ، والمدرسة المستنصرية ، والمدرسـة النجيبية ، ومدرسة السهروردي ، ومدرسة جامع الفضل ، وجامع مرجـان •• الخ ويؤكد العزاوي ان العراق فاق غيره في كثرة المدارس والعناية بهـا ، وان رغبة اهله في الثقافة هي التي ابقت عليها ، وانها « منبع الادب وأس العلوم ، ولولاها لمـا ثبتت او استقرت لنا ثقافة » • وقد فقد الكثير مما كان في خزائن المدارس والجوامع من كتب ومصنفات بسـبب الحرب والغزو والنكبات ، ولان الصفويين ومن ثم العثمانيين نقلوا اعدادا كبيرة منها الـى بلادهم • ومع هذا فقد حفظت آثار ادبية وعلمية كثيرة « ولم تنعدم او تزول ولا نزال لحد الان تتمتع بهذه الاثار ، وغالبها محفوظ في الجوامع والمساجد او لدى بعض الاسرات القديمة والحديثة »[١٣]

---

(١٢) العزاوي تاريخ العراق بين احتلالين ٤/٢٩٠ .
و ص ١٨٠ – ١٨٨ وسنذكرها مع المراجع الاخرى في الفصل القادم .
(١٣) نفسـه ٢٩١ .

٢ ـ العصر الانكشاري ١٠٤٨ ـ ١١٦٢ هـ / ١٦٣٨ ـ ١٧٤٩ م

وقد بدأ باستعادة السلطان مراد الرابع بغداد وابعاد الصفويين عن العراق وانتهى بابتداء حكم مماليك العراق • وتمتاز اوائل هذا العصر بفتور النزاع التركي ـ الفارسي وبسيطرة الانكشارية على الولاة واستبدادهم بالامر وعبثهم بالبلاد والمصالح وارتكابهم العديد من المظالم والجرائم والآثام ومن ابرز احداثه بروز قوة الايرانيين في اواخره بظهور نادر شاه وشنه هجمات متتالية على العراق ومحاصرته بغداد والموصل • وقد صمدت المدينتان في وجهه فباء بالفشل • ومما يميز هذا العصر فتور حدة العصبيات بتأثير سياسة نادر شاه المعتدلة التي تخلت عن التعصب المذهبي • وشهدت اواخر العصر البوادر التي مهدت لحكم المماليك أيام ولاية حسن باشا وابنه احمد باشا • وقد نجح هذان الواليان في حكم العراق ، وتوطيد الامن فيه ، وصد الهجمات الايرانية • وهما اللذان جلبا عددا كبيرا من المماليك الجركس والقفقاس وغيرهم وجعلا منهم قوة عسكرية ضاربة استطاعت ان تسيطر على العراق بعد وفاة احمد باشا •

ومن اهم احداث هذا العصر قيام ولاية الاسرة الجليلية في الموصل وكان عميدها واول حكامها حسين باشا الجليلي قد قام بدور مشرف في صد نادر شاه واحباط حصاره الشهير للموصل •

وكان لهذا الانتصار وقع عظيم في شعر العصر ونثره في الموصل وبغداد وهنا يجدر ان لا نغفل عن الثورات العشائرية العديدة في وسط وجنوب العراق لانها عبرت عن مشاعر العراقيين ومواقفهم من الحكم التركي وأكدت مقاومتهم المستمرة لمظالم الولاة • وكانت ثورة الخزاعل التي قمعها الوالي درويش باشا بوحشية وعنف اقوى واشهر تلك الثورات •

وفي المجال الثقافي شهدت اواخر العصر انتعاشا ادبيا وعلميا بتأثير عوامل عديدة اهمها رعاية الوالي حسن باشا وابنه احمد باشا للشعراء والعلماء ، وسياسة الجليليين الذين عنوا عناية كبيرة بالحركة العلمية والادبية فاسسوا المدارس وعمروا الجوامع وقدموا الهبات والاعانات للمؤلفين والمترجمين ووسعوا المكتبات .. الخ وكان بين الجليليين انفسهم ادباء وعلماء يستحقون الذكر . ولكن حذار ان تظن أن هذا التحرك الثقافي يعني ان الاحوال الاقتصادية والاجتماعية قد تحسنت ، فعجلة التدهور كانت ماضية في دورانها ، والمصائب والكوارث الصحية والاجتماعية والاقتصادية تتوالى آخذاً بعضها برقاب بعض ، وحملات القمع والعسف تتكرر ، واستبداد الانكشارية وتجبرهم وعبثهم يتفاقم ، واستهتار قادتهم وصنائعهم بمصالح البلاد والعباد يشتد وتزداد ضحاياه . وكان تتابع الولاة من الضعفاء وفاسدي الذمم والاخلاق خلال اشهر يدفعهم الى التهالك على الاطماع والانغماس في الملذات والارتشاء والنهب فينقل الحال من سيء الى اسوأ . ولم تتحسن الاحوال بعض التحسن الا في آخر العصر .

ان العصرين التاريخيين الاول والثاني مختلفان من الوجهة السياسية غير ان هذا الاختلاف لا اهمية له في تاريخ الادب فهما من هذه الناحية عصر ادبي واحد . ان مشاهير الشعراء الذين ذكرناهم ادرك معظمهم العصر الثاني الانكشاري أما انواع النتاج الادبي ومذاهبه وخصائصه ومستوياته وفنونه وموضوعاته فقد ظلت على ما كانت عليه ولم تسجل تحركا يستحق الذكر .وكانت احداث العصر الانكشاري في بغداد قد جمدت الحياة الادبية فيها واصابتها بالشلل والعقم فبدت متخلفة عن البصرة والموصل والنجف والحلة . ومن اشهر شعراء هذا العصر حسن عبدالباقي الموصلي (ت ١١٧٦ هـ) ونصر الله الحائري (ت ١١٥٨ هـ) وخليل البصير (ت ١١٧٦ هـ) صاحب الارجوزة الشهيرة التي سجلت بطولة الموصل في صد هجوم نادر شاه سنة

١١٥٥ هـ ، ومحمود الغرابي (١١٠٠ هـ) وجرجيس بن درويش الموصلي (ت ١١٤١ هـ) • وانجب العصر أيضا عددا من الناثرين والمصنفين سياتى ذكرهم عند دراسة العصور الادبية تفصيلا •

ومما يحسن التنبيه اليه هنا ان الحياة الادبية والفكرية في النصف الثاني من هذا العصر (بين اواسط القرن الحادي عشر واواسط الثاني عشر (للهجرة) كانت اوسع واغنى ، لان الصراع الصفوي العثماني قد شغل الناس ورجال الثقافة والادب بالمعارك والمصائب المتلاحقة • صحيح ان حركة التأليف في الاداب والعلوم ونظم الشعر والنثر لم تتوقف حتى خلال سنوات النزاع ، الا انها كانت ضعيفة ضيقة ، زد على هذا ان احداث العصر وكوارثه أضاعت اغلب الدواوين والمصنفات والوثائق حتى ليجد المؤرخ عَنَتاً كبيرا اذا اراد التوسع في الدراسة•ولم يقتصر الضياع علىالاثار العربية بل شمل الاثار التركية نفسها ، فالقسم الاعظم من الادب المكتوب بالتركية قد ضاع او توارى في الزوايا والخفايا • ومازال مؤرخو الادب العثماني يعترفون بأن الغموض يسود هذه المرحلة من تاريخ الادب التركي(١٤) • وثمة ظاهرة خطيرة المحنا اليها تميز اوائل هذا العصر عن اواخره • ففي اوائله كسبت الفارسية مجموعة من ادباء العراق واعقبتها التركية فكسبت عددا أكبر حتى رجحت كفة اللسان التركي وبخاصة في الشعر • اما في النصف الثاني اي قبيل عصر المماليك التالي فقد عادت كفة العربية الى الرجحان واستعادت نفوذها الادبي والعلمي وبخاصة في الموصل حتى « غلبت على ثقافة العهد فكانت لغة التأليف في شتى العلوم والمعارف ، اضافة الى كونها لغة الشعر والادب • ويوجد في خزائن الكتب الموقوفة والخاصة في مدينة الموصل عدد ضخم من المؤلفات الادبية والعلمية والدواوين ، كتبت او نظمت بلغة عربية جيدة

---

(١٤) انظر : حسين مجيب المصري : تاريخ الادب التركي ١٧٥ — ١٩٠ •

... الخ »[١٥] وقد استمر هذا الازدهار في عهد المماليك واسهم في ايقاظ الروح القومية والامال العربية[١٦]

وقد توالى على بغداد خلال العصر العثماني الاول اكثر من ثلاثين واليا كان اولهم سليمان باشا (٩٤١ - ٩٤٣هـ) وآخرهم بكر صوباشي (١٠٣١ - ١٠٣٢ هـ) الذي انتهت ولايتـه بالدسائس والخيانات التي سبقت احتـلال الصفويين بغداد كرّة أخرى في عهد الشاه عباس • وخلال السنوات الست عشرة التالية اي خلال الاحتلال الصفوي حكم بغداد ولاة ايرانيون • وبعد ان استعادها مراد الرابع سنة ١٠٤٨هـ تعاقب عليها نحو اربعين واليا عثمانيا حتى عهد المماليك الذي بدأ سنة ١١٦٢هـ / ١٧٤٨ • وكان اولهم كوچك حسن باشا الذي تولاها ثلاث مرّات اولها سنة ١٠٤٨هـ • وكان آخرهم كسريه لي الحاج احمد باشا (١١٦١هـ) اما اشهرهم فهو حسن باشا الذي ادخل نظام المماليك (١١١٦ - ١١٣٦هـ) وابنـه احمـد باشا (١١٤٩ - ١١٦٠هـ) وقـد مـر ذكرهما[١٧] •

٣ - عصر المماليك ١١٦٢ - ١٢٤٧هـ/١٧٤٨ - ١٨٣١

وكان اول من جلب المماليك حسن باشا وابنه احمد باشا كما مر بنا وقد عنيا بتدريبهم على الاعمال العسكرية والادارية حتى وصل بعضهم الى اعلى الرتب والمناصب ولكنهم لم يظهروا على مسرح الحكم الا بعد وفاة احمـد باشا • واول المماليك سليمان ابوليله ١١٦٢ - ١١٧٥ / ١٧٤٨ - ١٧٦١ م الذي تزوج ابنـة سيده احمد باشا وتولى الايالـه من بعـده • وبسليمان ابتدأ عهد المماليك في العراق ودام نحو ثمانين عاما توالى خلالها على بغداد اثنا عشر واليا آخرهم داود باشا الشـهير (١٢٣٢ - ١٢٤٧ هـ / ١٨١٦ ١٨٣١ م) وقد اجمع المؤرخون على أن احوال العراق في هذا العهد (باستثناء

---

(١٥) د . عماد عبد السلام : الموصل في العهد العثماني ٣٦٨ .

(١٦) نفسـه .

(١٧) انظر : دليل خارطة بغداد ٢٨٦ - ٢٩٥ (مطبوعات المجمع العلمي ١٩٥٨)

مدة ولاية داود باشا[١٨] كانت سيئة اذ تـوالت الاضطـرابات والفتن والدسائس والحروب الاهلية ومآسي الظلم والاستبداد والبطش الوحشي بالعشائر التي تعددت ثوراتها لتزايد الفقر والجور وتتابع غارات القمع ونهب الاموال • وكان المماليك قد وطدوا سلطانهم بعد ان بطشوا بالانكشارية وانصارهم فخلا لهم الجو وقويت شوكتهم حتى جنحوا الى الاستقلال والتمرد على الباب العالي • ودفعت الجرأة بعضهم الى الفتك بمبعوثي السلطان العثماني • ولكن بعضهم وبخاصة آخرهم داود باشا قام ببعض الاصلاحات التي ضاع اثرها في خضم المساوىء الاقتصادية والاجتماعية المتردية • ومع هذا فان سياسة المماليك الانفصالية دفعتهم الى رعاية بعض رجال الادب للدعاية لانفسهم ولتوطيد حكمهم المزعزع • غير ان هذه الرعاية جاءت متأخرة فلم تكن لها اهمية تذكر الا في عهد داود باشا آخر المماليك الذي كان هو نفسه مولعا ببعض العلوم •

ومن مميزات هذا العصر في العراق ازدياد قوة أسرة بابان التي تزعمت ثورات القبائل الكردية وفتحت الباب كالعادة لتدخل الايرانيين فتجددت الحرب وانهالت ويلاتها على شمال العراق وجنوبه • وازداد في هذا العصر ايضا تغلغل النفوذ الاوربي وبخاصة البريطاني تحت ستار التجارة وبتشجيع بعض ولاة المماليك انفسهم ليكسبوا سندا اجنبيا يدعم سياستهم المعاكسة لسلطة العاصمة العثمانية • والملاحظ ان الانتعاش الادبي والعلمي وبخاصة في العلوم الشرعية لم يكن نتيجةالسياسة المملوكية فقط بل ثمرة عوامل عديدة أهمها أزدياد احتكاك العراقيين بالحضارة الاوربية الجديدة وبالنهضة او اليقظة العربية الحديثة في مصر التي هزتها وغيرت احوالها الحملة النابليونية ثم ظهور محمد علي الكبير والاحداث السياسية والعسكرية المتعاقبة التي اثارتها حملاته على الشام وقلب الجزيرة العربية التي ظهر فيها

---

(١٨) انظر : عبدالعزيز نوار : داود باشا القاهرة، ودكتور يوسف عزالدين: داود باشا (بحث موجز) بغداد ١٩٧٧ ومراجعهما . وجعفر خياط : صور من تأريخ العراق . علاء نورس : حكم المماليك في العراق ، بغداد ١٩٧٥ .

الوهابيون وكان لهذه الاحداث اثار أو تأثيرات في حياة العراق والعراقيين كما كان للصراع بين المحافظين والمجددين في اسطنبول نفسها اصداء وآثار واضحة في العراق والولايات العثمانية القريبة ، ويجب ان لا نغفل ايضا امتداد النفوذ الانكليزي والفرنسي التجاري والعلمي المهتم بالآثار القديمة والاحوال الاجتماعية والجغرافية الاستكشافية لاسباب سياسية واقتصادية وغيرها • وقد بان هذا الانتعاش او الازدهار المتواضع في الآداب والعلوم الدينية في نتاج الشعراء والادباء والمشتغلين بالتأليف والتصنيف في العلوم العربية والاسلامية ، وفي بعض النزعات والمؤشرات التي اتجهت الى شيء من التجديد في بعض الافكار والموضوعات ومهدت للنهضة الادبية والفكرية التي ظهرت بوادرها القوية في العصر الثاني اي في القرن التاسع عشر ، وهي بوادر هيأت اسباب ودوافع ومقومات النهضة الادبية الحديثة في العراق[١٩] •

ومن مشاهير شعراء هذا العصر العشارى البغدادي (ت في حدود ١٢٠٠هـ) وقد طبع ديوانه محققا في العام الماضي ١٩٧٧ ، والشيخ محمد كاظم الازري (ت ١٢١١ هـ) وديوانه مطبوع والشيخ احمد النحوي وله ديوان وشعر كثير (ت ١١٣٨) والحاج محمد جواد البغدادي وله ديوان في خزانة العزاوي (ت بعد سنة ١١٦٣ هـ) والشيخ عبدالرحمن السويدي (ت ١٢٠٠ هـ) وله ديوان في خزانة العزاوي • ومحمد امين آل ياسين المفتي

---

(١٩) اكد الباحثون هذه الظاهرة انظر :

ابراهيم الوائلي : الشعر السياسي العراقى في القرن التاسع عشر (ط٢ بغداد ١٩٧٨)

د . يوسف عز الدين : الشعر العراقى اهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر (ط٣ بغداد ١٩٧٧)

د.محمد مهدي البصير : نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر

الاب لويس شيخو : الاداب العربية في القرن التاسع عشر (بيروت ١٩٢٤) وهو عرض قاصر

وانظر كتابي : المسرحية العربية في العراق (القاهرة ١٩٦٦) . الفصل ١و٢

واحلام فاضل : السيد حيدر الحلي . رسالة ماجستير . كلية الاداب .

وديوانه مجلد ضخم في خزانة العزاوى (ت ؟) وعبدالله آل ياسين المفتي ــ ابن محمد امين السابق ذكره ، وله ديوان في ٢٨٠ ورقة في خزانة العزاوي .. وقد ذكر العزاوي شعراء آخرين لم يعثر لهم على ديوان منهم من كثر شعره ومن قل كيحيى البغدادي (ت ١١٨٦ هـ / ١٧٧٢ م) وقاسم الرامي (ت ١١٨٦ هـ) وعبدالرسول الطريحي (ت ١١٨٦ هـ) وحسن الموصلي (ت ١٢٠٢ هـ / ١٧٨٧ هـ م) ومحمد امين الخطيب العمري (ت ١٢٠٣ هـ / ١٧٨٨ م) وصادق الفحام (١٢٠٤ هـ ١٧٩٠ م) والحاج سليمان الشاوي (١٢٠٩ هـ ١٧٩٤ م) ومحمد رضا ابن الشاعر احمد النحوي المذكور (١٢٢٦ هـ / ١٨١١ م) وعثمان بن سند (١٢٤٢ هـ / ١٨٢٧ م) وصالح السعدي الموصلى (١٢٤٥ هـ / ١٨٢٩) والحاج عثمان الجليلي (١٢٤٥ هـ / ١٨٢٩) وعلي علاءالدين الموصلي (١٢٤٧ / ١٨٣١ م) ومحمد جواد السيهابوش (١٢٤٧ هـ / ١٨٣١ م) ولاكثر المذكورين نتاج نثري اضافة الى الشعر ، وبعضهم من اصحاب البنود التي تولع بها فريق من شعراء العراق منذ اوائل العصر العثماني[٢٠] وكان العشاري من اشهر هؤلاء[٢١] . ولكن النثر كان له رجاله المجلون كالشيخ محمد مصطفى الغلامي (١١٨٦/١٧٧٢) مؤلف شمامة العنبر الذي أثنى عليه المصنفون العراقيون وغير العراقيين[٢٢] ، وعثمان الدفتري صاحب (الروض النضر) (١١٨٤ هـ / ١٧٧٠ م) والشيخ عبدالله السويدي مؤلف (النفحة المسكية في الرحلة المكية) و (حديقة

---

(٢٠) انظر : جميل الملائكة : ميزان البند.
وعبدالكريم الدجيلي : البند في الادب العربي ، (بغداد ، ١٩٥٩) .

(٢١) انظر : ديوان العشاري : تحقيق الدكتور عبدالسلام رؤوف ووليد الاعظمي . الطبعة الاولى (بغداد ١٩٧٧) .

(٢٢) مقدمة (شمامة العنبر) لاستاذنا الدكتور سليم النعيمي وهو الذي حقق الكتاب ونشره . وانظر عن محمد مصطفى الغلامي كتاب : العلم السامي في ترجمةالشيخ محمد الغلامي للاستاذ محمد رؤوف الغلامي ، وقد نشره وكتب مقدمته صديقنا الفاضل الطيب الخلق والذكر الاستاذ عبدالمنعم الغلامي رحمه الله وطبعه في الموصل سنة ١٩٤٢ م .

الزوراء في سيرة الوزراء) ومصنفات عديدة اخرى • وكالاديب المؤرخ عثمان بن سند البصري مؤلف كتابه المعروف في داود باشا (مطالع السعود في طيب اخبار الوزير داود) و (سبائك العسجد في اخبار احمد نجل رزق الاسعد) و (أصفى الموارد من سلسال احوال الامام خالد) ومن مشاهير الناثرين ايضا الحاج عثمان الجليلي ١٢٤٥هـ/١٨٢٩) وقد اشتهر بكتابه (الحجة على من زاد على ابن حجة)[٢٣] ولعله من اهم المصنفات في علم البديع والنقد المتقيد ببديعيات هذا العصر • وكان هؤلاء أي اعلام النثر في العراق يلتزمون بما يلتزم به كتاب العصور المتأخرة من تصنع بديعي وتأنق لفظي وسجع وازدواج وولع شديد بالتضمين ، ومن تكرار واعادة ودوران في دوامة فكرة واحدة لا يكادون ينفلتون منها • ولكنهم يمتازون بذخيرتهم اللغوية الغنية ، وبسعة اطلاعهم على التراث العربي القديم وتمسكهم بنماذجه ولاسيما المتأخرة وبخاصة في فن النثر المصنع • وقد رسّخ كل هذا طابعهم (السلفي) الغالب عليهم وشدهم اليه وجرّد مواهبهم واقلامهم من المقدرة على الابتكار والتجديد •

وهكذا نلاحظ أن عصر المماليك كان غنيا بشعرائه وكتابه بالقياس الى العصور المتأخرة السابقة ، وان احواله الثقافية اكثر سعة وحيوية ، وهذا ما اكده الذين اهتموا بعصر المماليك من اصحاب الدراسات التاريخية العامة والخاصة • ولكن اخبار شعرائه وكتابه قليلة لا تطرد مع كثرتهم وشهرة بعضهم وفي هذا يقول عباس العزاوي رحمه الله : ليس في الامكان الاحاطة بادباء عصر تكاثرت جهود اهليه وتوفرت للادب واتقانه ، وتنوعت ضروبه في المديح والارتزاق ، أو جاشت النفس به ، او كان للوسط مكانته للتأثير فيما هنالك من منظوم ومنثور ، فان الثروة العربية في الشعر تعددت فنونها ، وصارت توافق الاذواق المختلفة •• فلابد ان يظهر شعراء متوالون يزيدون في الثروة الادبية ••• ولكن دواوينهم فقدت او شعرهم

---

(٢٣) نشره الدكتور محمد صديق الجليلي وطبع في الموصل سنة ١٩٣٧ م •

الموجود لا يمثل حقيقته ولا يكون صفحة تجلو ماهيته .. » وانهى العزاوي كلامه الذي اسقطنا بعض عباراته لغموضها او زيادتها بفقرة انصفت شعر هذا العصر وانتقدت كتابا صغيرا عن شعرائه فقال : « وفي آخر عهد المماليك استقر الشعر ، وتمكن في بغداد ، وفي الاطراف ، ونال مكانة مقبولة كسائر فنون الادب ، ولم يخل من علاقة بين شعراء العراق ، او بينهم وبين بعض رجال الاقطار العربية ، وكلنا ثقة أن ينجلي الوضع الادبي من وجوهه المختلفة ، وتزول الفكرة السيئة التي ولدها كتاب (تذكرة الشعراء او شعراء بغداد وكتابها أيام داود باشا)[٢٤] . فالكتاب اصله كتب باللغة التركية ، وذكر بعض ادبائهم فترجم بلغة عامية ، وجعل له عنوان ضخم لاستهواء القراء فأفسد تاريخ الادب ، فهو لا يمثل الادب ولا الشعر في هذا العهد » . وراى العزاوي في هذا الكتاب صحيح لا مطعن فيه لان ما في الكتاب تافه لا خير فيه الا ان قلة المراجع والمعلومات والنصوص كانت بلا ريب سبب الاهتمام به وقيام الاب انستاس الكرملي بنشره[٢٥] . والان وقد مر ربع قرن على ظهور كتاب العزاوي تبدو شكواه من قلة مراجع ودواوين العصر المملوكي في العراق زائدة عن الحد ، فقد خفف من حدتها نشر بعض الدواوين ، والعثور على أخرى ، وطبع عدد من كتب التراجم والتاريخ ، وظهور بعض الدراسات التاريخية الحسنة ، ولاشك في أن القيام بدراسة ادبية شاملة لعصر المماليك أمر نحن في اشد الحاجة اليه فهو قريب جدا من عصرنا هذا ، وموقعه التاريخي في غاية الاهمية لانه غطى القرن الثامن عشر الميلادي وهو عصر الثورة الصناعية والاستعمار في اوربا ، وعصر تحرك العرب والترك والفرس للخروج من قرون التأخر والقهر والدخول في عصر اليقظة والنهضة والحضارة العصرية ، وقد كثر فيه النتاج الشعري والنثري

---

(٢٤) الكتاب من تأليف عبدالقادر الخطيبي الشهراباني ويقع في ١٠٨ صفحات وقد نشره الابانستانس الكرملي وطبع ببغداد سنة ١٩٣٦ . وراى العزاوي فيه في محله .

(٢٥) تاريخ الادب في العراق ٢/٣١٢ .

والتاريخي كثرة تجعل من دراسته ضرورة ادبية وجامعية لا مفر منهـــا •

٤ ـ عصر الحكم المباشر ١٢٤٧ ـ ١٢٨٩ هـ / ١٨٣١ ـ ١٨٧٢ م

وقد ابتدأ بانهيار حكم المماليك ونجاح السلطة العثمانية المركزية فـي استعادة سيطرتها على العراق • وكان اول ولاته على رضا اللاز الـــذي تغلب على داود باشا آخر المماليك واشهرهم ، بعد حصار قصير لبغـداد التي اجتاحها الفيضان ودهمها الطاعون خلال اشهر الحصار فاضطر داود باشا الى الاستسلام • وحكم العراق بعـــد علي رضا أحد عشـــر واليا على النحو الآتـــي :

١ ـ علي رضا اللاز ١٢٤٧ ـ ١٢٥٨ هـ / ١٨٣١ ـ ١٨٤٢ م

٢ ـ محمد نجيب باشا ١٢٥٨ ـ ١٢٦٥ هـ / ١٨٤٢ ـ ١٨٤٨ م

٣ ـ عبدالكريم نادر باشا ١٢٦٥ ـ ١٢٦٧ هـ / ١٨٤٨ ـ ١٨٥٠ م

٤ ـ وجيهي باشا ١٢٦٧ / ١٨٥٠ م

٥ ـ محمد نامق باشا ١٢٦٧ ـ ١٢٦٨ هـ / ١٨٥٠ ـ ١٨٥١ م

٦ ـ كوزل لكلي محمد رشـيد باشا ١٢٦٨ ـ ١٢٧٣ هـ / ١٨٥١ ـ ١٨٥٦ م

٧ ـ سردار اكرم عمر باشا ١٢٧٣ ـ ١٢٧٦ هـ / ١٨٥٧ ـ ١٨٥٩ م

٨ ـ سر كاتبي مصطفى نورى باشا ١٢٧٦ ـ ١٢٧٧ هـ / ١٨٦٠ م

٩ ـ احمد توفيق باشا ١٢٧٧ ـ ١٢٧٨ هـ / ١٨٦٠ ـ ١٨٦١ م

١٠ ـ محمد نامق باشا (ثانية) ١٢٧٧ ـ ١٢٧٨ هـ / ١٨٦١ـ١٨٦٧ م

١١ ـ تقيالدين باشا ١٢٨٤ ـ ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٧ ـ ١٨٦٨ م

١٢ ـ مدحت باشا ١٢٨٤ ـ ١٢٨٩ هـ / ١٨٦٨ ـ ١٨٧٢ م[٢٦]

---

(٢٦) د. مصطفى جواد واحمد سوسة : دليل خارطة بغداد ٢٩٣ ـ ٢٩٤ وقد اعتمد على تاريخ العراق للعزاوي .

وقد استفحلت اكثر المساوىء والشرور التي عرف بها العهد العثماني في هذا العصر باستثناء عهد المصلح الشهير مدحت باشا آخر ولاته • ويبدون ان اسطنبول آثرت سياسة الضغط الشديد في العراق خشية ظهور وال آخر مثل داود يطمح كما طمح الى ان يلعب الدور الخطير الذي قام به محمد علي الكبير في مصر والشام والحجاز • وكانت حملة نابليون انفاشلة خلال العقد الاخير من القرن الثامن عشر ثم قيام حكم محمدعلي الكبير بعدها في مصر قد نبهت الاذهان وأيقظت مصر من سباتها العميق ووضعتها على اعتاب العصر الحديث وهذا مما لا يريد العثمانيون حدوثه في العراق • وقد حثهم على تشديد قبضتهم عليه رغبتهم في الضغط على الحركة الوهابية التي سيطرت على وسط الجزيرة وراحت تشن الهجمات على جنوب وغرب العراق ولعلهم ارادوا أن يضعوا الوهابيين بين نارين محمد علي وجيشه القوي من الغرب ، وولاة العراق وجيشهم وانصارهم من العشائر العراقيه من الشرق •

وقد نفذ ولاة العراق هذه السياسة بشدة ولهذا اشتهروا بالقسوة والعجرفة والابهة والغرور واستخدام افظع الوسائل للبطش بالعشائر المتمردة أو الثائرة عليهم والفتك بابنائها ومصادرة اموالها • ولكن سياسة القمع هذه لم تحسم الأمور لان العشائر التي لم تطق مجابهة الجيوش المنظمة لجأت الى حرب العصابات فازداد تردي الاحوال الاقتصادية وفقد الامن تماما في خارج المدن • الا ان الحياة الادبية التي كسبت بعض الحيوية في عصر المماليك استمرت في حيويتها ونشاطها واستفادت من تشجيع بعض الولاة الراغبين في كسب التأييد المحلي بتقريب بعض اهل الادب والعلم • و كان غزو الوهابيين للمدن القريبة منهم كالنجف وكربلاء والحلة وعنفهم الشديد وموجة المحافظة التي أثاروها في الفكر الديني قد حرّك الشعراء والادباء ورجال الدين منذ عصر المماليك فظهر في هذا العهد نتاج كثير يدور في هذه الدائرة • ولعل اهم العوامل في استمرار نشاط الادب

والادباء التطور الحديث الذي راح يعم العالم ويدفع اواخر موجاته الى العراق متمثلة في بعض مظاهر المدنية الحديثة كالسفن البخاريّة والتراموای والتلغراف والمكاتب الطبية والتعليمية القليلة • وكان لمدحت باشا آخر ولاة العصر الفضل في ادخال الكثير منها • ففي عهده عرف العراقيون الصحافة والطباعة ونظم البريد وبعض المؤسسات الصحية ومجموعة من النظم الادارية والمالية والتشريعات القانونيه الحديثة • ولا شك في ان هذه العوامل وغيرها جعلت القرن التاسع عشر في العراق عصر يقظة ثقافية واجتماعية وادبية وان كانت مترددة ضعيفة • ولهذا وجدنا الدراسات المعاصرة ، على قلتها ، تتجه الى دراسة هذا القرن وادابه وتاريخه السياسي والاجتماعي لقربه منّا ، ولعلاقته بعصرنا الحاضر ، ولتوفر الكثير من نتاجه الشعري والنثري والتاريخي ، ولدوره المهم في تمهيد الجو للنهضة الادبية والفكرية والاجتماعية في عراق القرن العشرين • نقول (تمهيد الجو) لان هذا النتاج ، على الرغم من اصلاحات مدحت باشا التي لا يمكن اغفال اثرها ، لم يستطع تجاوز المستويات المنخفضة والاطر الضيقة او الصغيرة التي وقف عندها الفن الشعري والنثري طيلة العهد العثماني • فقد بقي يدور حول الموضوعات التقليدية في غير اصالة ، ولا اضافة او ابتكار ، وظل مقيدا في الاعم الاغلب بقيود الصنعة البديعية كما حددتها وفرعتها وجمّعتها (البديعيات) وشروحها منذ العصر المغولي • وهي التي احالت الفن في العهد العثماني الى زركشة وبهرجة لفظية رتيبة والاعيب خطية وسمعية متكررة • ولا نجد ضرورة في بسط احداث هذا العصر التاريخي القصير ، ولاسيما الادبية والثقافية لانها تندمج بالعصر الثاني لتؤلف عصرا ادبيا واحدا سندرسه تفصيلا ، ولان الاساتذة الذين اشرنا الى مؤلفاتهم وبخاصة الاساتذة محمد مهدي البصير وابراهيم الوائلي ويوسف عزالدين وغيرهم قد اسهبوا في وصف العصر باعتباره عصرا واحدا يغطي القرن التاسع عشر • وخير الكلام ما قل ودل •

٥ ــ العصر العثماني الاخير ١٢٨٩ ــ ١٣٣٥ هـ / ١٨٧٢ ــ ١٩١٧ م

وقد حدد المؤرخون بدايته بابعاد مدحت باشا من العراق ، ونهايتــه بالاحتلال الانكليزي لبغداد سنة ١٩١٧ م / ١٣٣٥ هـ . ويتميز هذا العصر باستمرار تدهور وانحلال الدولة العثمانية ووصول الارتباك السياسي الى العاصمة استامبول نفسها وتوالي المؤامرات والدسائس والاحـداث المثيرة فيها . ومن سـماته المهمـة ازديـاد تدخـل الدول الاوربيـة في شؤون الولايات العثمانية الغربية والشرقية . وكان العراق من اهم مسارح هــذا التدخل والتغلغل السياسي والاقتصادي لوقوعه على طريق الهند . وكانت الدول الاوربية على الرغم من اصطراعها فيما بينها تسعى لتقويض الدولــة العثمانية وتتحفز لاقتسام ممتلكاتها الواسعة واضطر العثمانيون الى التورط في الاحلاف والتكتلات الدولية للافادة من خلافات الــدول الكبرى حتى انجروا الى الحرب العالمية الاولى التي انتهت فيما انتهت بالقضاء التام على الدولة العثمانية[٢٧] .

وقد تأثر العراق بهذه الاحداث الكبيرة ، وهي كثيرة تجد تفاصيلها في كتب التاريخ الحديث . ولكن هذا التأثر كان سطحيا في احــوال العراق السياسية والادارية والاقتصادية ، الا انه كان عميقا بعض العمق في الحياة الادبية والثقافية نتيجة عوامل واسباب متعـددة كظهــور الحركــة الدستورية في تركيا نفسها وسعي دعاتها الى اكتساب تأييد الولايات ، وتزايد الوعي القومي العربي ، وظهور عدد من الحركات والجمعيات السرية العربية وتنافس الدول الكبرى في التقرب الى العـرَب بعامة والعراقيين بخاصــة لتحقيق مصالحهم واطماعهم متسترين وراء شعارات تحرير الشعوب ونشر الدمقراطية والدفاع المزعوم عن الحريات .. الخ ومن اهم دوافع تنشـيط

---

(٢٧) انظر موجز ذلك في : تاريخ الشـعوب الاســلامية لبروكلمان ، القرن التاسـع عشر .

الحياة الادبية والثقافية سرعة انتشار مظاهر الحضارة الحديثة وانـــدلاع الحرب العالمية التي ربطت حاضر العراق ومستقبله بالسياســـة الاوربية ــ (الغربية) وخططها وخدعها الظاهرة والخفية • وقد انتهى هذا العصر باحتلال الجيش الانجليزي والهندي لبغداد سنة ١٩١٧ وانتهى معه الحكم العثماني المديد الذي دام اربعـة قـرون من الزمان لعلها كانت اشد القرون ظلاما في تاريخ العـراق •

هذه هي العصور التاريخية العثمانية الخمســة في نظـر معظم المؤرخين الا أن بعضهم يجعلها ثلاثة أعصر بدلا من خمسة وعلى النحو الآتي :

١ ـ العصر العثمـــاني الاول ٩٤١هـ ـ ١١٦٢هـ / ١٥٣٤ ـ ١٧٤٩ م

٢ ــ عصر المماليك ١١٦٢ ــ ١٢٤٧ هـ / ١٧٤٩ ــ ١٨٣١ م

٣ ــ العصر العثماني الاخير ١٢٤٧ ــ ١٣٣٥ هـ / ١٨٣١ ــ ١٩١٧ م

ان هذا التقسيم اكثر ملاءمة لدراسة الحياة الادبية والثقافية اما التقسيم الاول فاشد دقة وانطباقا على احوال العراق السياسية • والتقسيمان كلاهما لا يصلحان لتحديد مطلع العصر الحديث في العراق لان هذا العصر الأدبي لا يبدأ سنة ١٨٣١م / ١٢٤٧ هـ ، فآدابنا ظلت مشـدودة الى اذواق وموضوعات ومعايير وفنون عصور التخلف حتى اواسط بل اواخر القرن التاسع عشـر • ولا يصح ايضا اعتبار سقوط بغداد بيد الانكليز سنة ١٩١٧ م / ١٣٣٥ هـ بداية العصر الحديث في الادب العراقي لان بوادر النهضة الادبية ظهرت قبل هذا التاريخ بسنين عديدة • ويمكن القول ان التقسيم الاول اقرب الى بداية الادب الحديث من الثانى لان اغلب مؤرخي الادب يجعلون من ولاية مدحت باشا (١٨٦٨ ــ ١٨٧٢ م) نقطة تحول ثقافي وسياسي واجتمـاعي في حيـاة العراق الثقافية •

العصور الادبية الثلاثة

لسنا بحاجة الى البحث عن الادلة لنثبت ان تقسيم العهد العثماني الى ثلاثة اعصر كما مر انسب وافضل لدراسة الحياة الثقافية والادبية للعصرين الادبيين العثمانيين الاول والثاني على الاخص ، لتشابه احوالهما واحداثهما وخصائصهما فنتاجهما الادبي والثقافي يتشابه من حيث الاغراض والموضوعات والاذواق واساليب التعبير والانشاء والتفكير ، لقد انشد هذا النتاج الى فنون البديع وسائر انواع المحسنات اللفظية والابجدية المعقدة . وكانت هذه الموجة قد شرعت تهيمن على الشعر والنثر منذ العصر العباسي الاخير ، حتى اذا سقطت بغداد وجاء العصر المغولي تبلورت او تجمدت وصارت كالوصفات الجامدة . ثم تناولها الشعر التعليمي عندما ظهرت (بديعية) صفي الدين الحلي واعقبتها بديعيات ابن جابر وعزالدين الموصلي وابن حجة الحموي وغيرهم التي اتخذت شكل المدائح النبوية لتوطيد نفوذ الاتجاه البديعي وضمان انتشاره وسيطرته على الاساليب الادبية . وكانت المدائح النبوية قد ظهرت في العصر العباسي الاخير بصورة القصيدة الطويلة قبل ظهور مدائح البوصيرى صاحب (نهج البردة) الشهير في مصر . وكان الشاعر البغدادي الاعمى الشهيد ابو زكريا الصرصري الذي قاتل سفاحي هولاكو بعصاه واستشهد ضاربا مثلا فذا للبطولة والمقاومة والفداء(٢٨) كان هذا الشاعر قد نظم المقطوعات والقصائد الطويلة في مدح الرسول (ص) قبل البوصيري بسنوات عديدة واكبر الظن انه لم يكن رائد هذا الغرض او الفن المدحي لان ظروف الحياة السياسية والاجتماعية والنفسية وما كابده المجتمع من فواجع وصدمات وهموم لاستمرار تردي الاحوال في العصر العباسي الاخير ، كان هذا وغيره من الدوافع والاسباب التي ترجح ظهور المدائح النبوية الطويلة في العراق قبل ظهورها في مصر عند البوصيري ، فالاتجاه

---

(٢٨) انظر : عبدالكريم توفيق العبود : الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة الى سقوط بغداد ٢٤٩ ـ ٢٥٦ .

الديني كان قويا في الشعر وقد توسع وسار في اتجاهات متعددة منذ القرن الرابع الهجري • وقد غفل دارسو المدائح النبوية عن هذه الحقيقة[٢٩] ولم ينتبهوا اليها لضياع اشعار ودواوين شعراء القرون العباسية المتأخرة التي لم يبق منها الا القليل كديوان الصرصري[٣٠] •

واذا تركنا جانبا الاغراض والفنون والاساليب وامعنا النظر في مواقف الادب والادباء من حيث علاقات تناجهم بالاحداث والاحوال والظروف والمساوىء ولاسيما مساوىء الحكم الاعجمي لاحظنا أن اغلبهم في معزل عن هذا كله وأن النتاج ليزداد بعدا عن مشاكل العصر كلما تقدمنا في العصر العثماني ، وطبيعي ان لهذا اسبابا ودوافع مختلفة ليس هنا موضع بحثها وتحليلها •

وقد فضل مؤرخ العهد العثماني وآدابه في العراق ، المرحوم الاستاذ عباس العزاوي منهج العصور العثمانية الثلاثة مؤكدا ان هذا التقسيم افضل لدراسة التاريخ العثماني في العراق ، ومع ان اكثر المؤرخين من المستشرقين والاتراك لا يرون هذا الرأي ، الا ان مؤرخ الادب في العراق لا يسعه الا توكيد وجاهة وصحة التقسيم الثلاثي الذي تبناه العزاوي ، ومن حقه ان نسجل له هذا الفضل على تاريخ الادب في هذه الفترة على الرغم من مخالفتنا اياه في بعض الاراء والتفاصيل نذكر منها : مدة تحديده العصر العثماني الاخير في الادب حتى سقوط بغداد سنة ١٩١٧ م / ١٣٣٥ هـ بحيث يتشابك هذا العصر ببداية العصر الحديث بصورة تؤدي الى الارتباك والحيرة ، وقد اشرنا الى هذا قبل قليل • ولعل من المفيد اعادة النظر في حدود العصر الثالث وتقسيمه بدوره الى عصرين أدبيين عثماني أخير وحديث •

---

(٢٩) المرجع السابق وانظر : المدائح النبوية لزكي مبارك وعصر سلاطين المماليك جـ ٦ و٧ لمحمود رزق سليم والمراجع التي مر ذكرها عن الادب في العصر المملوكي والعصر العثماني •

(٣٠) ديوان الصرصري . وعن مخطوطاته واماكن وجودها انظر : العزاوي تاريخ الادب في العراق ١/٣٠٧ ومنه نسخ في المجمع العلمي وخزانة المتحف العراقي •

اما العصر الادبي العثماني الاول فقد شهد احداثا سياسية خطيرة غيرت الخارطة السياسية في الشرق العربي وكان لها آثار عميقة في تاريـــخ الادب العربي والاسلامي في القرون المتأخرة • واهم تلك الاحداث الاحتلال العثماني لمصر والشام ثم العراق ولاسيما عاصمته بغداد • لان هذه المدينة ، على الرغم من النكبات والفواجع الهائلة التي توالت عليها قبل وبعــد فقدانهـــا مركز الصدارة السياسية والحضارية ، بقيت محتفظة بسمعتها وشهرتها ومكانتهـا العلمية التي خلدت احترامها في العالم الاسلامي • ويبدو أن الاحتلال العثماني قد اوجد ظاهرة جديدة لم يعهدها تاريخ الادب العربي من قبل ، وهي ظهور جيل او اجيال من الشعراء والادباء ينظمون ويكتبون باللغة التركية الاذرية القديمة ، اضافة الى اللغة الفارسية التي كانت فاشية منذ الاحتلال الصفوي للعراق وبغداد • وهكذا وجدنا الى جانب الشعر العربي والنثر العربي شعرا تركيا مبكرا عراقي النتاج ، عثماني النزعة والاتجاه ، وصار لعدد من الشعراء العراقيين منزلة رفيعة وشهرة واسعة في تاريخ الاداب الاسلامية الثلاثـة مثـل فضولي البغدادي ، وابنه فضلي ، وعهدي وروحي وشمسي وحكيـــم زادة وآخرين سيأتي ذكرهم عند دراسة العصر الاول بالتفصيل • وثمـة ظواهــر اخرى يبدو بعضها بعيدا عن منطق الاوضاع السياسية العامة ، ولكنها ــ في الحقيقة ــ ذات صلة وثيقة بالاحداث السياسية المحلية ، ومن هذه الظواهــر الانتعاش أو النشاط الادبي خلال مدة حكم آل افراسياب شبه المستقل في البصرة في العصـــر العثمـاني الاول ، والنشـــاط الادبـي المتزايـــد ولاسيما الشعري في الحلة والنجف وبغداد لاسباب دينية وقوميـة في فترات مختلفة ، والحركة الادبية والثقافية التي ازدهرت في الموصـل طيلـة حكـم الجليليين الذي بدأ في اواخره • ولا نعني بالازدهار هنا الا ازدياد النشاط وكثرة الشعر والشعراء وتوسع حركة التأليف بالقياس الى الركود العام الذي غلب على العهد العثماني • فالمعروف ان الادب العربي في هـذا العهـد ظـل منجرفا بموجات التقليد والمحاكاة واللجاجة في متابعة القدماء في غير ابـــداع

وتجديد . ولا أهميّة في نظرنا لظهور عـدد من الشخصيات اللامعة أو الاغراض المستحدثة التي انشغلت بزركشة القشر الخارجي للغة الشعر بالالاعيب الابجدية والخطية والهندسية بدلا من الاهتمام بمعنى الشعر وروحه مع العلم ان هذه الزركشة ظهرت قبل العصر العثماني ، وفي كتاب الزهرة لابي بكر محمد بن داود الاصفهاني باب يعرض نماذج من هذه الزركشة الشعرية الابجدية والهندسية وهو أمر يثبت ان بداياتها كانت في القرن الثالث الهجري[٣١] . ولعلها حين ظهرت لم تلفت نظر النقاد والمؤرخين في عصر ازدهار الشعر العربي فكانت وكأنها لم تكن ! صحيح ان قلة ضئيلة لم تخل من ظلال الابداع او الابتكار الا ان هذه القلة كانت طافية على سيول التقليد والعقم والصنعة البديعية واللفظية والخطية المعقدة فضاعت في التيار .

ومادمنا في صدد الحديث عن العصور التاريخية والادبية فيحسن أن نؤكد ان العهد العثماني قد اتسم بخصائص ومعالم اجمع المؤرخون والرحالة على انها اسوء ما ابتلى به العراق الذي كان له مركز الصدارة والحضارة قبل الاحتلال العثماني . صحيح ان العثمانيين غير مسؤولين عن الخراب الشامل الذي احدثه الاعصار الهمجي المغولي ايام احتلال بغداد وتدميرها سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ثم احتلالها واستباحتها وابادة اكثر سكانها كرتين أخريين من قبل السفاح تيمورلنك (عام ٧٩٥هـ ثم عام ٨٠٣ هـ) وأن اخلاف المغول من الايلخانيين وقبائل التركمان قد جلبوا كوارث عديدة اخرى اسهمت في التخريب ولكن المهم ان تعاقب الدول الاعجمية خلال القرون الثلاثة التي انتهت بالاحتلال الصفوي ثم العثماني سنة ٩٤١ ، ادى الى استمرار

---

(٣١) كتاب الزهرة ــ النصف الثاني ــ الباب السابع والثمانون ٢١١ ــ ٢١٦ لابي بكر محمد بن داود الاصفهاني تحقيق د. ابراهيم السامرائي و د . نوري القيسي (ط بغداد ١٩٧٥) وانظر هامش المحققين ص ٣١١ . وقد استغربا من وجود هذه الفنون الشكلية في القرن الثالث وحثا المختصين على تفسيرها . ولا استبعد ظهور فن كتابة الشعر بأشكال القصور وتطور فن العمارة والتزيين المعماري (الدكور) وتطور فن الفسيفساء ووصف البحتري تصور المتوكل شاهد على ذلك .

وتوسع الكارثة الحضارية الكبرى • صحيح ايضا أن العثمانيين لم يجلبوا كل الشرور والمساوىء التي اقترنت بحكمهم ، فبعضها كالخراب الشامل الذي التهم بغداد ومدن العراق ، وقضى على نظام الري ، وهجّر العلماء والادباء ، واباد الملايين من عرب واكراد العراق حدث وتكرر حدوثه خلال العهد المغولي ، وقل مثل هذا عن استفحال وازدياد الفتن المذهبية والتمزق الديني والقومي ، واضمحلال القوة العربية •• الخ ولكن العثمانيين الذين انفردوا بحكم العراق والعالم العربي نحو أربعة قرون كان بامكانهم القيام بشيء من الاصلاح لولا ان سياستهم فضلت ابقاء الحال على ما كانت عليه بل زادتها سوءا • ولم يجد العراق نفعا تعيين بعض الولاة المصلحين او وقوع بعض الاحداث الحسنة ، لان الفرص السعيدة من هذا القبيل كانت نادرة جدا • وهكذا بقى الطابع العام للحكم العثماني كما هو ، اهمال واستغلال وتسيب وولاة وحكام وقادة جهال غلاظ الاكباد هممهم اشباع الشهوات واكتناز الاموال ، عشرات تسوقهم اسطنبول واحدا اثر آخر بسرعة فائقة وفق سياسة مرسومة ، فلا يلبث الوالي عاما او بعض عام حتى يعزل او ينقل او يقتل ليأتي وال آخر • وكثرت المكائد والدسائس والمعارك بين الولاة انفسهم ، او بينهم وبين الجند الانكشاري والسباهي ، او بين هؤلاء جميعا وبين العشائر الثائرة والاهالي المظلومين • واشتد الجور والعسف والاضطهاد لجمع الضرائب الثقيلة العديدة وابتزاز الرشاوى بلا رادع من شرع او ضمير • وانتشرت الاوبئة والامراض الفتاكة تزهق ارواح عشرات الالاف كل عام تقريبا او تصمهم بالعاهات •• فطاعون اثر طاعون ، وهيضة بعد هيضة •• وجدري وزحار وانواع لا تحصى من الحميات والدمامل والبثور ، وحدث ولاحرج عن الامراض المتوطنة كما يسميها الاطباء كالبجل والقرع والبلهارزيا والملاريا وحبة بغداد وادواء الخبل والجنون •• الخ وفيضانات بل طوفانات هادرة مدمرة تجتاح البلاد كل عام تقريبا فتكتسح الارياف والقرى والمدن وتقضي على الزرع والضرع والعمران ، وسياسة (تتريك) فرضت اللغة التركية على الدواوين والمكاتب والاعمال حتى امست لغة الموظفين والمثقفين وسائر

المتعلمين بما فيهم شيوخ وطلاب المدارس الدينية والشعراء والادباء والعلماء لاضطرار هؤلاء الى تعلم لغة الحكام على الرغم من تمسكهم بالعربية ، وللضرورات احكام ...

ان بحثا ادبيا كهذا لا يحتمل زيادة التفصيل ، فقد اسهب المؤرخون في وصف مساوىء الحكم العثماني الطويل الذي عم الاقطار العربية ، ولكن غاب عنهم ان الحالة في العراق كانت اشد سوءا مما كانت عليه في مصر والشام لاسباب يطول شرحها . ولعل ما اوجزناه يمهد السبيل لدراسة معالم الحياة الادبية في بلادنا خلال تلك القرون العثمانية الاربعة ، ويسلط الاضواء على الدوافع والعوامل والظروف التي المت بادب هذا العصر وجعلته اكثر تأخرا وتخلفا من العصور السابقة حتى اعرض الباحثون عن دراسته دراسة تفصيلية لاسباب كثيرة رأيت ان لا اتناولها الا بعد ان نكون لانفسنا تصورا واضحا لعصور العهد العثماني في العراق واحداثها التاريخية والادبية ومواقعها المكانية والزمانية والنوعية بين عصور الادب العربي السابقة واللاحقة .

قلة الدراسات في أدب العهد العثماني في العراق

قد يقول قائل : ان العودة الى الشكوى من قلة الدراسات في ادب الاعصر العثمانية في العراق وفي الاقطار العربية الاخرى لا تخلو من مبالغة ، فنحن في سنة ١٩٧٩م ، وقد ظهرت خلال هذا القرن ابحاث ودراسات عربية واجنبية عديدة (ذكرها او سيأتي في هوامش هذا البحث) ، هذا فضلا عن نشر عدد من كتب التاريخ والتراجم التي تخص احداث واعيان القرون العثمانية الاربعة . ولا انكر ان هذا الاعتراض وجيه الى حد ما ، فبين ايدينا الآن عدد لا يستهان به من الدراسات الحديثة ، ومجموعة من المصادر القديمة ، تجعلنا اكثر معرفة باداب العرب في العصر العثماني . غير ان هذه الدراسات ما زالت قليلة بالقياس الى عمر العهد المديد وسعة الخارطة الجغرافية والاجتماعية التي تبعثر فيها . فحاجتنا ما زالت قائمة ، بل شديدة ، الى دراسات اكاديمية

وجماهيرية تزيح الستار عن خفايا هذه الحقبة ذات الاثار الخطيرة في حياتنا الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والدينية المعاصرة ، وفي ادابنا العربية الفصيحة والشعبية الحديثة • ويبدو ان المستشرقين قد ادركوا هذه الحقيقة التي كدنا نغفل عنها عفوا او قصدا ، لانهم عرفوا ، بحكم مصالح دولهم ، ان دراسة العصور المتأخرة تمهد السبيل لفهم الحاضر العربي والاسلامي وتفتح لهم المداخل للتغلغل السياسي والثقافي والاجتماعي في بنية المجتمع العربي وللنفوذ الى صميم حياته الادبية والفكرية •

اما نحن فلم نفهم ، ولم نع هذا ! فقد اهملنا العصور المتأخرة متأثرين بما شاع عن تخلفها وتدهورها فاسهمنا في ابقاء هذه الثغرة الواسعة في دراساتنا الحديثة ، فاذا بتاريخ الادب العربي في العهد العثماني ، ولا سيما في العراق ، يمسى حقبة يكتنفها الغموض ويسودها تعتيم كثيف • فمعارف اغلب مثقفينا وطلابنا تقف عند اواخر العصر العباسى • ومنهم من تقف معارفهم عند القرن الخامس الهجري حتى اذا انتهى العصر العباسي وسقطت بغداد سنة ٦٥٦ هـ ضاق علمنا بما جرى للادب والفكر بعد ذلك ، وطفرنا طفرة عريضة سجلت رقما قياسيا في طفر القرون ! طفرنا الى العصر الحديث • ولهذا التقصير اسباب تجادل فيها المتجادلون من اصحاب الدراسات العثمانية[٣٢] • لقد وقع العهد العثماني بين عهدين زاهرين فرضا احترامهما على الباحثين هما العصر العباسي والعصر الحديث فانزوى بينهما مشوها بعاهات التخلف ، مفتقرا الى عناصر القوة والاصالة عاجزا عن مقارنة القديم والتوصل الى جديد ، مثقلا بما نزل بالحياة العربية من آفات طمست اكثر معالمها الفكرية والادبية وطمرت الكثير مما يجب ان يكشف ، وان يدرس ويُفسَّر لفهم حاضرنا ، واكمال حلقات تاريخنا وتشخيص العلل التي أعاقت نهضتنا وتقدمنا • فكان أن اطلقت على العهد وادابه اوصاف نابزة كالفترة المظلمة ،

---

(٣٢) شكري فيصل في كتاب : الادب العربي في آثار الدارسين ٢٩١ (بيروت ١٩٦١) •

وعصر الانحطاط ، وعصر الانحدار ••• الخ • ومع ان بعض الباحثين تحفظ فاستحدث مصطلح (الدول المتتابعة)[٣٣] وبعضهم آثر الاحتفاظ باسم العصر العثماني عطفا على تسمية العصور السابقة ، الا ان تعدد النعوت اللامزة وسع ظاهرة الاعراض عن دراسته دراسة مفصلة • وقد أثار هذا حنق بعض الذين تقدموا لانجاز هذا الواجب العلمي فحملوا مبتدعي الاوصاف المذكورة تبعة اهمال العهد العثماني ومسؤولية الجور في الحكم عليه وعلى تراثه الادبي والفكري • وموقف هؤلاء لا يخلو من اندفاع ، لان عوامل ودوافع كثيرة تظافرت على احداث هذه الثغرة • فالاستاذ سيد كيلانى يحمل جورجي زيدان هذه المسؤولية لقوله عن العصر العثماني : « فسدت ملكة اللسان ، وجمدت القرائح ، واصاب الشعر ما اصاب سائر الاداب العربية في هذا العصر من الضعف والانحطاط ، لما استولى من الجمود على القرائح ، وتوالى على الامة من الذل في تلك الفترة المظلمة ، واصبح الكاتب او الشاعر انما يهمه تنميق العبارة بالجناس والتورية والسجع ••• الخ »[٣٤] ثم يضيف كيلاني على هذا الوصف قائلا : « فمن هذا نرى ان جورجي زيدان حكم على الادب العربي كله من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي ، ومن شمال العراق الى جنوب اليمن بأنه كان ادبا منحطا متكلفا لا اثر للحياة فيه • وتابع جورجي زيدان في هذا الحكم كل من جاء بعده من الكتاب الذين تعرضوا لهذا العصر • وقد صورت الكتب المدرسية العصر العثماني في صورة بشعة • فلا عجب ان سرى اعتقاد راسخ في الاذهان ، مضمونه ان العصر العثماني لا يستحق الدرس والبحث ، وانه خلو مما يصح ان يطلق عليه اسم الادب ، ولم ينجب من الشعراء من يستحق اسم الشاعر ، ولا من الكتاب من تجوز نسبته الى الكتابة • وترتب على هذا الحكم حكم آخر مضحك وقع الناس فيه ••• الخ » وعقب كيلاني قائلا انه لم يصدق هذه الاحكام ، ولم يأخذها

(٣٣) انظر : عمر موسى الباشا وكتابه : ادب الدول المتتابعة .

(٣٤) زيدان تاريخ آداب العربية ٢٩٣/٤ (الطبعة الجديدة باشراف شوقي ضيف) .

قضية مسلما بها لا تقبل الجدل والمناقشة ، بل راح يقرأ ويبحث ويستقصي بامعان ، فراعه ما اتضح له من فساد الاحكام التي اصدرها جورجي زيدان ومن تابعه • ثم يصف سيد كيلاني فصول كتابه ويذكر كيف تبين له بالادلة القاطعة مبلغ الخطأ الفاحش الذي علق بالاذهان عن اساليب الشعر والنثر في تلك الفترة • ثم يخلص الى القول : « وغني عن الاشارة ان الادب المصري في العصر العثماني لم يكن منحطا ولا ميتا كما قالوا • ولم يكن هم الشعراء والكتاب الجري وراء المحسنات اللفظية كما زعموا • بل كان ادبا حيا • له اهداف يسعى اليها ، واغراض يتجه نحوها ••• وان الشعر الكثير الذي قيل في وصف الحدائق والبساتين والبرك والدواليب ، ونهر النيل والخليج ••• والقصور والطيور ، لم يكن متكلفا مصنوعا ، بل هو شعر له طابع اصيل في الفن الشعري ، ينبض بالحيوية ، ويزخر بالعواطف الصادقة ، والاحاسيس الناطقة ، والمشاعر المتدفقة ••• الخ•• الخ وقد كرر كيلاني هذه المقولة المثقلة بالتعميم وأكد هذا الرأي في مواضع عديدة من فصول كتابه[٣٥] •

وينضم الى صف الكيلاني باحث آخر هو الدكتور بكري شيخ امين الذي قال في مقدمة كتابه (مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني) انه يحاول ان ينظر نظرة جديدة في شعر هذه الحقبة من تاريخ ادبنا العربي ليقومه تقويما جديدا يعتمد الدراسة الموضوعية ، والرصانة العلمية ، والاجتهاد الشخصي والابتعاد عن كل تأثر سابق او نظرة سريعة ، او هوى جارف ثم يقول : ويخيل الينا أنه ما من عصر من عصورنا الادبية اصابه من الظلم في الاحكام ، والاهمال في الدراسات ، ما اصاب هذا العصر وناله • والاكثر من هذا اعتقادنا الجازم ان هناك عملية خفية تهدف الى صرف الباحثين عن دراسة هذه الحقبة ، والاكتفاء بحكم سريع ظالم عليها ، ولسنا ندري لذلك سببا اللهم الا ان يكون هذا العصر هو الذي قاوم جحافل الغرب •• ودفع الوثنية التي

---

(٣٥) محمد سيد كيلاني : الادب المصري في ظل الحكم العثماني : المقدمة ٣ـ٧ الطبعة الاولى القاهرة ١٩٦٥ •

جاءت على سيوف التتار ورماحهم ، وملأ المكتبة العربية التي خوت بمصيبة بغداد وسواها ، بالتراث العربي الاسلامي المشرقين ، وأعاد الى النفس العربية عزتها وثقتها ، ويكفي سبب واحد من هذه ليشحن قلوب الشعوبيين والاعداء المبغضين ، والمارقين ، والمتحلين حقدا ضد العصر وآله وكل ما كان فيه .(٣٦)

ثم يتأسف شيخ امين بعد ذلك على تسـمية العصر بـ « عصر الانحطاط » استنادا الى اضطراب الاوضاع السياسية والاجتماعية وتهافت الحياة الفكرية لان الازدهار السياسي والادبي لا يطردان دائما ثم يشير الى انه اختار تسمية العصر بعصر المماليك والعثمانيين اسوة بتسمية الادب العباسي والامـوي والاسلامي وانسجاما مع هذا المبدأ ثم يؤكـد رفضه لكلمة « الانحطاط » ويثني على الدكتور عمر موسى الباشا لانه سمى كتابه عن ادب هذا العهـد بـ « ادب الدول المتتابعة » . ولو اكتفى شيخ امين بمشكلة التسمية وبتوكيد الحاجة الى دراسة العصر العثمـاني وتجنب الحماس في مقدمته لكان ذلك افضل لاسلوبه وانسب لبحثه الجيد فقد افترض وجود سياسة خفية تريد ان تظلم العهد العثماني وتبعد الباحثين عنه وتشحن قلوب الشعوبيين والمارقـين والمبغضين والمتحلين .. الخ .. هذا التصور لا وجه له ولا دليل عليـه فضلا عن ان العثمانيين قد اوجدوا شعوبية جديدة عندما تبنوا سياسة التتريك وفرضوا لغتهم على السياسة والادارة وحتى الادب ، وعملوا علـى حصر اللغة العربية في الدوائر الدينية وما يتصل بها من مدارس وجوامـع وربـط وتكايا . وليس هناك ابدا ما يدل على انهم اعادوا الى النفس العربية عزتها وثقتها والعكس هو الصحيح . ومع ان الدكتور شيخ امين قد اجاد في عرض اغراض الشعر التقليدية والمستحدثة السائدة في ادب العهد العثماني كالتاريخ الشعري بحساب الجمل والالغاز والاحاجي والتشجير وذوات القوافي والطرد والعكس ومحبوك الطرفين والشعر المكتوب باشكال هندسية كالـدوائر

---

(٣٦) د . بكري شيخ امين : مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني : المقدمـة ٥ـ٧ بيروت ١٩٧٢ .

والمثلثات ... الخ الا ان هذه المستحدثات لم تضف جديدا الى روح الفن الشعري فعامت على السطح وانحصرت في المخطوطات او على الجدران وافتقرت الى قوة الانتشار الجماهيري والخلود الفني ونود ان نؤكد ان اغلب هذه « المستحدثات » ظهرت قبل العهد العثماني وهو امر لم يغب عن الباحثين المعاصرين منذ اوائل هذا القرن . فقد اشار اليها المرحوم الرافعي[٣٧] ولم يغفلها الباحثون الذين لم يدفعهم اهتمامهم بالعصر العثماني الى التحمس لـه ورفعه الى مستوى أعلى . ثم ان ظاهرة تخلف الادب العربي واضحة منذ سقوط بغداد بل قبلها ، وان ما يقال عن العصر العثماني ينطبق على العصر المغولي الذي سبقه . بل ان ادب العصر المغولي كان اقرب الى مستوى العصر العباسي المتأخر لانه جاء بعده ولاسباب اخرى ذكر منها المرحوم الدكتور مصطفى جواد سبعة اسباب وشرح كلا منها شرحا موجزا[٣٨] . ان هذه الحقيقة وهي اتجاه الادب العربي الى الضعف، والتخلف عن النتاج الادبي السابق أكدها ايضا شكري فيصل عندما اعترض على تسمية زمان ما بعد سقوط بغداد بعصر الانحطاط والانحدار لاسباب بسطها ، كطول الفترة ، وكثرة وتنوع نتاجها الادبي والفكري ، وسعة حيزها المكاني لشمولها الوطن العربي كله ، ولبقاء الكثير من المؤلفات مخطوطا أو مفقودا ، ولخطأ الركون الى التعميم في الاحكام في مثل هذه الحالة ولان جهود الباحثين اتجهت في الغالب الى العصور السابقة والعصر الحديث ، ولرهبة البحث العلمي الذي يخص عصرا تكتنفه المشاكل المذكورة . ولم ينجر شكري فيصل الى خطأ وضع ادب العصر المغولي والعثماني على مستوى العصور السابقة او رفعه الى مكانة أعلى بل اكد تخلف نتاجاته الادبية والفكرية بوجه عام وحاول ان يشرح اسبابها من وجهة ادبية ونقدية . وتاريخية[٣٩] .

---

(٣٧) الرافعي : تاريخ آداب العرب ٣/ ٣٧٠-٤٤٧ (ط الثانية ١٩٤٠) .

(٣٨) د . مصطفى جواد : الادب العراقي في العصر المغولي مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد ٣ الجزء ٢ سنة ١٩٥٥ .

(٣٩) د . شكري فيصل : الادب العربي من سقوط بغداد حتى اوائل النهضة في كتاب : الادب العربي في آثار الدارسين ص ٢٩١/بيروت ١٩٦١ .

والحق ان رفض اي مصطلح او تسمية تاريخية تدل على الذم وتتصف بالتعميم وتثير الجدل الطويل او الخلاف العقيم شرط منهجي لا مفر منه • أما ان نجعل من هذه المسألة الصغيرة قضية كبيرة فكأننا نثير عاصفة في فنجان. فالباحثون المنصفون الذين لا يصح اتهامهم بالتأثر لسياسة خفية مزعومة او بالعصبية او الشعوبية يجمعون على ان الادب العربي منذ سقوط بغداد لا يرقى الى مستوى العصور السابقة ولا العصر الحديث ، وانه لم يضف فنونا وانواعا ذات قيمة فنية كبيرة ولم يوفق الى تطوير أو تغيير خطير ولم ينجب شخصيات ادبية تقترب من عبقريات بشار وابي نواس وابي تمام وابن الرومي والمتنبي وابي العلاء المعري ، او الجاحظ ، او ابي حيان •• الخ اعني شخصيات يخلد ادبها وتظل ماثلة في نفوس الادباء والناس على مر الاجيال• ومنذ نصف قرن حاول بعض مؤرخي الادب والفكر تشخيص هذه الظاهرة. اعني ظاهرة تخلف الادب في العصر المغولي ثم العثماني والكشف عن اسبابها •

ومن هؤلاء شوقي ضيف الذي قال وهو يتحدث عن الشعر في مصر والشعر العربي بوجه عام : « ويدخل العصر العثماني وتدخل مصر معه في ظلام قاتم فقد تحولت من مملكة مستقلة الى ولاية تابعة للدولة العثمانية ، وليت الامر وقف عند ذلك ، فقد سلبها سليم فاتحها خير ما فيها من ثروة علمية او فنية ، اذ اخذ معه كثيرا من التحف والكتب ، كما اخذ معه كثيرا من الادباء والعلماء والمهندسين واصحاب الصناعات الفنية ••• وقد أعوز مصر في هذا العصر العثماني الولاة والحكام الذين يعنون بالحركة العلمية والادبية ، فانطفأت المصابيح التي كانت مشتعلة في العصور السابقة • ولا نستطيع ان نقول ان الشعر انعدم في العصر العثماني ، فقد كان موجودا ، ولكنه وجود خير من العدم ، إذ اقتصر الامر على جماعة يقرؤون بعض القصائد المسبوقة وخاصة التي كانت قريبة من عصورهم ، ثم يعارضونها او يخمسونها او يربعونها ، فيأتون بنماذج لا روح فيها ولا جمال ، انما هي تقليد ركيك ضعيف • ومن أين ياتيها الروح او يأتيها الجمال ، وقد كانت

تصـــدر عن نفــوس مجــدبة ، لا تســتطيع ان تصنـــع شــيئا الا ان تجتر القديم هذا الاجترار الذي يحيله الى مربعات ومخمسات في اساليــب واهية ضعيفة . وليس من شك في ان الشعراء كانوا يحتالون على الــوان البديع يسلؤون بها شعرهم ، ولكنا نحس ان هذه الالوان اصبحت باهتة في ايديهم ، فقد فقدت مقدرتها القديمة على التلوين والتعبير . ولعل اهم شاعر ظهر في هذا العصر هو الشهاب الخفاجي ، وقد ترجم لنفسه في آخر كتابه بريحانة الالباء ، وترجم له المحبي[٤٠] وحكى شيئا من اشعاره ، وهي تدل على ما نقوله من ضعف الروح الادبية في هذا العصر وما اصاب الحياة الفنية مــن عقم وجمود ، وكذلك الشأن في عبدالرحيم العباسي صاحب كتاب (معاهــد التنصيص) فقد ترجم له الشهاب الخفاجي[٤١] وشعره غث ، وهو يدل بدوره على اجداب الحياة الفنية في هذا العصر ، فقد اسف الشعر ولم يعد من الممكن ان يعود الى الارتفاع والتحليق في اجواء الفن العليا ، الا اذا قدمت اليــه مجهودات شاقة ، وكأنما جفت في هذا العصر كل الينابيع الممكنة التي كانت تمد الشعر بأسباب الحياة ، فشاعت فيه الالفاظ العامية والتركية ، ويحــس الانسان كأنما اصيبت الاداة الفنية التي رأيناها في العصور السابقة بعطل شديد فعمّ الظلام وعمت الكآبة ، ولم يعد هناك الا جو خانق يشمل كل شيء ، وكأني بالمصريين اصبحوا لا يستطيعون التنفس ، فضلا عن ان يحيوا حياة فنية فيها فن وشعور وفيها حياة وجمال[٤٢] ويصف احمد امين حالــة الادب العربي بما يشبه اوصاف ضيف ، بل يذهب الى ابعد من ذلك فيقول: « يكاد يكون العلم والادب والفن قد انتهى في العالم العربي بانتهاء القــرن الخامس ، وربما وجد شيء في القرن السادس الهجري من الابتكار والتجديد . اما بعد ذلك ، من ابتداء القرن السابع الى النهضة الحديثة فيكاد يكــون ترديدا لما فات ، او تفريقا لمجتمع ، الا في القليل النادر » ويتساءل ان كانت

---

(٤٠) المحبى / خلاصة الاثر ٣٣١/١ هامش ضيف .

(٤١) الخفاجي / ريحانة الالباء ٢٤٨ هامش ضيف .

(٤٢) ضيف / الفن ومذاهبه في الشعر العربي ٤٠٦ ــ ٤٠٧ .

الولادة قـــد عقمت عن ولادة المبتكــر المحـــدد ، ثم ينفي هذا ويرجع الامر الى التربية والظروف ويذكر لذلك خمسة اسباب هي :

١ ـ غلبة العنصر الفارسي والتركي وتعصّبهم لثقافاتهم واتجـاههم الى الكتابة بلغتهم تعصبا لها بعد ان كانوا يكتبون باللغة العربية ولاسباب كثيرة اهمها عجمة الحكام والسلاطين والولاة • ويرى ان ازدهـــار العلم والادب في العصر العباسي بعد تغلب البويهيين الفرس والسلاجقة الترك كان بقـوة الدفع الطبيعي لان العلم والادب لا يموتان سريعا ولكن يحتضران في زمن طويل ، وهو الذي يفسر استمرار النهضة في القرنين الخامس والسادس على رأيـــه

٢ ـ انحسار نفوذ المعتزلة الذين يرجحون سلطان العقل ، واستفحـال نفوذ اهل النقل والمنهج النقلي الذي يعد لرواية الخلف عن السلف ولا يعـد للتجديد والابتكار •

٣ ـ هجوم التتر وتخريبهم ••• الخ

٤ ـ توسع وانتشار العصبيات المذهبية والطائفية

٥ ـ هبوط معنويات العلماء وفتور طموحهم وانتماؤهم الى حالة نفسية منهارة ادت ـ حسب رأيه ـ الى اقفال باب الاجتهاد[٤٣] •

كان هذا هو الرأي السائد في اوائل واواسط هذا القرن ، ولم يجد العديد من الباحثين في تاريخ الادب العربي من عرب او مستشرقين ما يدعو الى نفيه او انكاره على الرغم من توفر عدد غير قليل من المصادر المطبوعة والمخطوطة بعد ذلك •

---

(٤٣) احمد امين : ظهر الاسلام ٤/١٩١ـ١٩٥ (الطبعة الثالثة) .

والبحث يطول لو استشهدنا بأقوالهم لانها لا تخرج عما ذكرناه وقلما تتعدى الاسباب التي المحنا اليها • ومثل هذه الاحكام ليست مـــن قبيل التعميم الذي يتخطى الادلة التاريخية ويبتعد عن الموضوعية ، لانها احكام عريضة تقوم على استعراض ادب هذه العصور المتأخرة ومستوياتها الفنيـة ومنازل الشخصيات الادبية والعلمية ، ومدى ما حققوه من تجديد واضافة ثم مقارنة ذلك بما وصلت اليه عصور الازدهار السابقة وعصر النهضـــة الحديث • وطبيعي ان الحكم العام على عصر من العصور الادبية لا ينكــر وجود حالات خاصة او ظواهر ادبية او فنية يمكن ان تستثنى لاتصافها بشيء من الاصالة او التجديد او محاولة الانفلات من الموجة السائدة • كما لا ينكر اختلاف مراحل العصر عن بعضها فالادب في العصر العثماني الاول والثانــي أدنى مستوى من ادب العصر العثماني الاخير لقرب هذا من النهضة الحديثة • وربما كان الادب في العصر المغولي بين سقوط بغداد والخلافة العباســية سنة ٦٥٦ هـ والاحتلال العثماني سنة ٩٤١ اكثر ثراء من العصر العثماني كما يرى الدكتور مصطفى جواد • وسواء صح هذا ام لم يصح ، فان حماس المعنيين بالعصر المغولي او العهد العثماني لا يغير من الحقيقـــة التاريخيـة الادبية الكبيرة ، وهي ان الادب العربي كان في انحسار وتراجع وجــدب وجمود وعجز عن التطوير والتجديد • وانه تخلف كثيرا عن عصور الازدهار السابقة • وان هذا الحكم ينطبق على العصور المتأخرة كلها اي على العهدين المغولي والعثماني • وقد رفض الدكتور مصطفى جواد هو ايضـا اصطلاح (العصر المظلم) لاعتقاده ان الحياة الادبية في العصر المغولي كانت مستنيرة متحركة لعوامل خمسة ذكرها ولكنه تحفظ واحتاط فاعترف بضعف الادب في العصر المغولي وتخلفه عن العصر العباسي •

قال : فالادب العراقي العربي استمر في هذا العصر متماسكا متثاقلا ، واما الضعف الذي أصابه فلم يكن ممكننا التفادي منه لما ذكرنا من ان الدولة العباسية نفسها كانت تأخذ بضبعه (اي ترعاه في عهدها) ولان الاستعراض اي القتل العام اجتاح الادباء كما اجتاح غيرهم من الناس فقلوا قلة ظاهـرة .. على اننا لا ننكر ان ذلك الضعف اشتد بمرور الايام حتى بان سوء اثره في المظاهر الادبية دون الجواهر »(٤٤) والحق ان رأي استاذنا رحمـه الله ، أو الأسباب التي ذكرها لتحسين مركز ادب العراق في العصر المغولي ووضعه في منزلة او مستوى اعلى تخالف اجماع الباحثين على حالـة التـردي والضعف والعقم والجمود التي انحدر اليها . ولن يجدي نفعا الاستشهاد بالنشـاط الادبي في بعض مدن العراق كالحلة ، او في بعض الاسر مثل بني الجويني او اسرة نصير الدين الطوسـي الفلكي الـذي آثـر الدنيـا الفانيـة فخـدم هولاكو عـدو العرب والحضارة والانسانية وعدو الله ورسوله (ص) . وهو شخصية عني بامرها بعض المستشرقين والمتعصبين الطائفيين من القدماء والمعاصرين ولا ترفع العصر ايضا العناية بنتائج بعض الشعراء الكبار كصفي الدين الحلي ، بل ان الذين درسوا هذا الشاعر نفسه اكدوا تدهور الادب في العراق في عصره(٤٥) ولم يفتهم ما غلب علي صفي الدين الحلي نفسه من تصنع وكلف بالمحسنات والالاعيب اللفظية حتى ان شاعريته عجزت رغم قوتها الثقافية والفنية الظاهرة عن مقاومة موجات البديع المتصنع وفنون الشعر الباهتة فانجرفت مع الزبد الذي يذهب جفاء .

---

(٤٤) انظر بحث الدكتور مصطفى جواد : الادب العراقي في العصـر المغولي / مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد الثالث جـ ٢ / ١٩٥٥ م ص٣٠٩-٣٣١

(٤٥) انظر : الدكتور جواد علوش : صفي الدين الحلي ، بغداد ١٩٥٩ .
والدكتور محمود رزق سليم : صفي الدين الحلي . مصر ١٩٧١ . سلسلة نوابغ الفكر العربي رقم ٢٧ .

وما دام السياق قد اجتذبنا الى الكلام عن مكانة ادب العراق فلا ارتاب في ان الجدل الذي دار حول ادب مصر والشام سيكون أشد لو تسنى للمتجادلين البحث الجاد في آداب قطرنا العراقي . فالمعروف ان الحياة الادبية والعلمية والادبية في الشام ومصر كانت اوسع واغنى لاسباب كثيرة بسطها الباحثون ، فقد انقذ الله هذه الاقطار من همجية المغول وجاهلية اخلافهم وذيولهم من الايلخانيين والجلائريين وقبائل قره قوينلو وآق قوينلو خلال القرون الثلاثة الدامية السابقة للفتح العثماني . فمنذ سقوط بغداد وخرابها هاجر الى الشام ومصر وغيرها مئات العلماء والادباء ورجال الفنون هربا من وحشية المغول حاملين ما امكن حمله من كنوز التراث العلمي والادبي . ولم تصل الى الشام ومصر او تستقر فيها الموجات البشرية واللغوية الاعجمية من مغولية وفارسية وتركية . اما الفئات القليلة التي وصلت فقد استعربت ولم تحدث تغييرا يذكر في الادب واللغة والاجتماع . ولم تتعرض الشام ومصر منذ انتهاء الحروب الصليبية الى الكوارث الهائلة والحروب المستمرة الطاحنة ولم تدمر مدنها ويذبح الملايين من ابنائها كما حدث في العراق . ان فرائص الانسان لترتعد وجسده ليقشعر ويرتجف وهو يقرأ ما فعله السفاح هولاكو وعدو البشر تيمورلنك الذي امر جيشه بتعميم القتل في أهالي بغداد حتى ليروي المؤرخون انه بنى ابراجا من جماجم الرجال والنساء والشيوخ والاطفال . ولم تر مصر ولا عاصمة اخرى مثل هذه الفظائع والكوارث الهائلة . ولم يتمزق المجتمع في الشام والحجاز والمغرب ومصر كما تمزق في العراق بالعصبيات المذهبية والفتن الطائفية والمذابح والويلات التي نجمت عنها . نعم كان ابناء تلك الاقطار يعانون ما يعانون من فقر وفاقه ، وظلم وطغيان الزمر والشراذم الاعجمية الحاكمة ويكابدون الويلات والمجاعات التي تخلفها الحروب الخارجية والاهلية الناجمة من صراع المتصارعين والمتقاتلين على السلطة. ولكن الاحوال كانت بلاشك افضل من احوال العراق فمن الطبيعي ان تصبح الحياة الادبية والعلمية اوسع واغنى وان تزداد الفرص لظهور النتاج الشعري

والنثري والعلمي ، وان تتوفر المصادر المختلفة لمن يدرس ويؤرخ نتاج مصر والشام • اما الباحث في آداب العراق ، ولا سيما نتاج العهد العثماني فلا يكاد يجد ما يكفي من المراجع لدراسة الظواهر والشخصيات الادبية • وطبيعي ان ينتشر هذا الضرر في التواريخ والابحاث الادبية الحديثة • فما ان يصل مؤرخ الادب الى العراق حتى يحرر صفحات او فقرات ملخصا ما ورد في التراجم المبعثرة في سلافة العصر لابن معصوم ، والمكررة في خلاصة الاثر ونفحة الريحانه للمحبي ، معتمدا على التراجم القصيرة الهزيلة لعدد قليل من الشخصيات العراقية الواردة في امثال سلك الدرر للمرادي والكواكب السائرة للغزّي • ثم ينتقل بسرعة الى موضوع آخر وكأنه يتنفس الصعداء • ولم يسلم من هذا النقص والغموض حتى تاريخ الادب العربي للمستشرق الكبير بروكلمان على سعته ودقته واهتمامه الشديد بالمراجع(٤٦) • وهكذا بقي تاريخ الادب في العهد العثماني مجهولا او كالمجهول • ومع هذا فقد بذل بروكلمان جهدا مشكورا على الرغم من قلة المصادر وضآلة المادة فعني بالعصور التالية لسقوط بغداد وحاول أن يبين مراحل سيرها التاريخي • واهتم بالعهد العثماني وخص العراق بشيء من العناية • ويبدو ان هذه العناية تطرد قوة وضعفا مع توفر المراجع ولعل هذا سر اهتمامه بالحركة العلمية والادبية في الموصل اكثر من بعض المناطق الاخرى كالبصرة وبغداد كما لاحظ الدكتور عماد عبدالسلام عندما قال « ان بروكلمان قد جعل للموصل مكانا بارزا واستعرض اعمال طائفة كبيرة من ابنائها من العلماء والادباء والشعراء والمؤرخين والفقهاء ونوه ببعض آثارهم واشار الى مصادر دراستهم • ولكنه لم يحط بتراجم المؤلفين الموصليين بل ذكر طائفة منهم ، كما فاته وجود نسخ اخرى من المخطوطات التي ذكرها » ولهذا استدرك الدكتور عماد على

---

(٤٦) بروكلمان GAL (تاريخ الادب العربي) ٢/٢٥٩ طبعة برلين ١٩٠٢ •
وانظر : GIBB : History of Ottoman Poetry

بروكلمان في هذا الشأن فذكر عددا من الموصليين واشار الى آثارهم[٤٧] وهنا يحسن أن نضيف ان الشخصيات الموصليـــة التي اهتـم بهـــا بروكلمان والدكتور عماد اغلبها من القرن الثاني عشر والثالث عشر للهجرة • وهو زمـن حظى بعدد من المصادر المطبوعة والمخطوطة • اما القرن العاشر والحادي عشر فما زلنا تفتقر الى الكثير من المصادر المطبوعة والمخطوطة التي اهتمت بهما • وبروكلمان معذور لانه لم يطلع على ما طبع او عثر عليه بعد نشر كتابه الذي مرت عليه الان عشرات السنين • وقد اعترف بروكلمان بانه يجابه هذه الصعوبة كما اكدها الدكتور حسين مجيب المصري في الفصل الذي خصّ به ادب العراق في عصر الشاعر فضولي البغدادي اي القرن العاشر ، فقال : «نرى من الخير ان ننظر في بيئته الخاصة (يعني بغداد والعراق) ، وقبل ان نستمع الى فضولـي وهو يصف بيئته ، نذكر ما انعقد عليه رأي العلم في حقيقة حالها على وجــه الاجمال • فهذه البلاد التي ازدهر بها الادب على عهد الخلفاء ، قد دخلت من بعد في حوزة المغول والترك ، ورزحت تحت الشديد من تسلطهم • فبعـد ان خربت بغداد على يد هولاكو ، وخيم عليها البؤس ونكد العيش ؛ قـل من اهلها من تحركت همته الى الاهتمام بأية حركة فكرية او روحية • وقـد خلف الحكام المستنيرين جماعة من المغامرين الغرباء الذين كان معظمهم يجهل العربية ، فما اهتموا بشعر ولا التفتوا الى علم • فنحن لا نعرف من شعراء وعلماء هذا العهد الا القليل[٤٨] » وقد نقل المصري آراء فضولي في شعراء وادباء عصره ، وهي آراء تؤكد تخلفهم وضعفهم • ولسنا في صدد تقييـم احكام فضولي انما يهمنا توكيد قلة المصادر وشح المعلومـات وشـكوى المؤرخين وانعكاس ذلك كله فيما كتب عن ادب العراق في العهد العثماني ولا سيما عصره الاول • لهذا سنترك الان اقوال وآراء حسين مجيب عن فضولي

---

(٤٧) د. عماد عبـدالسلام رؤوف : اعلام التراث الموصلي في تاريخ الادب العربي لبروكلمان بحث مطبوع على الآلـة الكاتبة تكرم المؤلف باهـداء نسـخة منه الي •

(٤٨) حسين مجيب المصري : فضولي البغدادي ١٨١ •

ونقتصر على رأي باحث تركي يؤكد ما شكا منه بروكلمان . والباحث هو الدكتور عبدالقادر قره خان المشهور بابحاثه عن فضولي وشعراء عصره ، قال : « ان الوثائق والمتون المتعلقة بهؤلاء الشعراء (اي شعراء القرن العاشر والحادي عشر) محدودة الى اقصى الحدود ، وليس في ايدينا الا النزر اليسير منها . فكل ما لدينا من اشعارهم مختارات في كتب تراجم الشعراء ، ولا علم لنا بالاحوال التي تقلبت فيها حيواتهم ولا نوع ثقافتهم ، وحتى تواريخ تولدهم ووفاتهم بقيت في طي الخفاء . وغنى عن البيان والحالة هذه اننا نعجز عن ابداء الرأي في شعرهم . واذا قلنا شيئا عنهم فانما نقول مالا اساس له ولا صواب فيه . اما اذا قدر لنا فيما بعد ان نكشف الخفاء عنهم ، ففي هذا الحين فقط نقتدر على ان نقول شيئا »[٤٩] هذا القول غزير الدلالة لان القائل استاذ تركي جليل ، وخزائن تركيا غنية جدا بالمراجع والمخطوطات التي قد تلقي ضوءا على عصر فضولي البغدادي .

اما العراقيون الذين اهتموا بادب العهد العثماني وهم قلة ، فقد اكدوا جميعا شحة المعلومات وقلة المصادر ولا سيما المصنفات والدواوين الخاصة بالعصر العثماني الاول ، وشكا من ذلك حتى الذين تناولوا موضوعا صغيرا او شخصية ادبية واحدة كالاستاذ يعقوب سركيس في مقاله عن حكيم زادة[٥٠] . ومثله كثير . اما الذين انهمكوا في ابحاث شاملة فشكواهم أشد . وخير مثل لهؤلاء الباحثين المرحوم الاستاذ عباس العزاوي في كتابه (تأريخ الادب في العراق) فقد كرر في مواضع عديدة ملاحظاته عن المراجع وشكاواه من قلة مصادر العصر العثماني الاول . ولعل هذا هو الذي دفعه الى ان يملأ

---

(٤٩) عبدالقادر قره‌خان Fuzuli, Istanbul 1949 / فضولي/٦٢ (بالتركية) ذكره حسين مجيب المصري انظر مقالة عن فضولي : نفس المصدر وراجع د . حسين محفوظ : فضولي البغدادي وهو اول بحث قيم كتب بالعربية عن هذا الشاعر قبل كتاب حسين مجيب المصري المذكور وطبع بحث د . محفوظ في بغداد ١٣٧٨ هـ . ويمتاز البحث بكثرة مراجعه .

(٥٠) نشر اولا في مجلة الاعتدال العدد ١/السنة ٥ /١٣٥٧هـ ثم ادرج في كتابه: مباحث عراقية .

الفراغ بذكر اسماء الشعراء الذين ذكرهم اوليا جلبي في كتابه عن رحلته الشهيرة ، ثم الشعراء الذين ذكرهم (عهدي) في كتابه (كلشن شعرا) . وكل اولئك الشعراء تقريبا من الاتراك او البغادده والعراقيين الذين استتركوا فنظموا الشعر باللغة التركية الآذرية الشائعة آنذاك او بالفارسية وشهد لهم او لبعضهم بالتضلع في اللغة التركية او اعتبروا من شعرائها الاوائل . ولا علاقة لهؤلاء بالادب العربي في هذا العصر او غيره ، الا اذا وجدنا بينهم من نظم شعرا عربيا كالشاعر فضولي . ولا يصح ان نعدهم جميعا ، وبدفعة واحدة ، شعراء عربا وان كان بعضهم او جلهم من اهل بغداد او سكنتها . فالرحالة التركي اولياجلبي وعهدي البغدادي صاحب كلشن شعرا (حديقة الشعراء) يهتمان بالشعر التركي ولا يمكن ان نقحم من ذكراهم في شعراء العرب ونضعهم في مصاف شعراء العصر العثماني الاول كالشاعر الاديب عبدعلي بن ناصر الحويزي وشهاب الدين الموسوي المشهور بابن معتوق وامثالهما . وطبيعي ان هذه الملاحظة لا تقلل من قيمة كتاب العزاوي فمازال مرجعنا الاول عن ادب العراق في العهد العثماني وان كان حظ تاريخ الادب قليلا فيه لتكريسه فصولا طوالا عن اللغويين والنحويين والمؤرخين وغيرهم ويبدو انه يفهم الادب بالمعنى الواسع الشامل الذي نسميه اليوم تاريخ الثقافة .

وممن شكا من قلة المصادر من اصحاب الابحاث المفصلة الشيخ محمدعلي اليعقوبي في كتابه (البابليات) عن شعراء الحلة ، وسلمان هادي الطعمه في كتابه عن شعراء كربلاء وبعض جامعي التراجم كالشيخ علي الخاقاني والشيخ اغا بزرك صاحب الذريعة وكرر هذه الشكوى الذين قاموا بابحاث اكاديمية وهم قلة تعد على الاصابع نذكر منهم محمد حسن علي مجيد في رسالته (الشعر في الحلة) واحلام فاضل في رسالتها (السيد حيدر الحلي) وكلاهما نال بها درجة الماجستير من كلية الاداب بجامعة بغداد[٥١] .

---

(٥١) انظر الرسالتين وهما مطبوعتان على الآلة الكاتبة في مكتبة الدراسات العليا في كلية الآداب / جامعة بغداد .

لقد سقنا هذه الاسماء للتذكرة والتوكيد والتنبيه ، لاننا لا نكاد نجد شيئا مهما عن شعراء وادباء القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة • وتعليق الباحثين لهذه المشكلة ان العراق في ذلك العصر قد شغلته واذهلته كوارث الصراع الايراني ـ التركي ، فقد احتله الصفويون في بداية القرن العاشر بعد ان خاضوا حروبا شعواء ضد التركمان (قرة قوينلو) • ثم حاربهم العثمانيون وانتزعوا منهم بغداد التي وفق الصفويون الى احتلالها ثانية في عهد الشاه عباس الى ان طردهم منها السلطان مراد كما سبق بيانه • وخلال تلك المرحلة الدامية كانت الحروب وويلات الحصار وفواجع التخريب والتدمير والنهب والانتقام السياسي والمذهبي تسحق العراق وأهله الذين لم يكن لهم هم غير النجاة بارواحهم واولادهم واعراضهم واموالهم ، فانشلت الحياة الاجتماعية والعلمية والادبية وكانت الحياة الثقافية كلها في حال من الضيق والهزال يزيدان من سريان وانتشار الشلل الفكري والفني • ولعل اول ما يلفت أنظار الباحثين في اداب هذه المرحلة الاولى من حكم العثمانيين قلة تراجم العراقيين في مصادر الادب والتاريخ والتراجم المتأخرة المعنية بهذا العصر ، فكتاب (سلافة العصر) فيه ست تراجم لشعراء عراقيين وتسع تراجم للبحرانيين ، ولم يتجاوز المحبي هذا العدد في (خلاصة الاثر) ولا في (نفحة الريحانة) • وسنرى ان كتاب (نشوة السلافة) للشيخ محمد علي بشارة (وهو من العراقيين) وكان كتابه مفقودا ثم وجد ونشر ، هذا الكتاب يخيب الآمال لان استدراكه على السلافة جعلنا نأمل في المزيد من النصوص والتفاصيل عن شعراء العراق وهو ما لم نجده فيه • فالجزء الاول منه اختصار لتراجم اوردها صاحب السلافة والجزء الثاني قليل الفائدة مع انه يذكر نحو خمسين اديبا وشاعرا ، وعلة ذلك انه اقتصر على مختارات قليلة جدا من اشعارهم ، واعرض او عجز عن تقديم اخبارهم ولم يذكر تواريخ وفياتهم • وكان لنا امل في ان نجد ضالتنا في كتاب ضخم آخر اشار اليه الاستاذ عباس العزاوي وعثرنا على مخطوطته في خزانة

المتحف العراقي ، هو (كنز الاديب) للشيخ احمد بن درويش البغدادي (١٢٦٣ ـ ١٣٢٧ هـ) . ومع ان الكتاب يشير الى بعض الاحداث الطريفة ذات المغزى الاجتماعي المفيد للمؤرخ الحديث كظهور الدخان (التبغ وتدخينه) سنة ١٠١٢ هـ والتلغراف .. الخ الا اننا على الرغم من الفحص المنهك ، لمجيء المخطوطة في سبع مجلدات غير مرقمة ولا مفهرسة ، لم نجد فيها سوى اخبار واشعار قليلة هزيلة لشعراء وادباء من القرنين الثاني والثالث عشر الهجري أي من العصر العثماني الاخير او الثالث الذي يمتاز عن العصرين السابقين بتعدد مصادره المخطوطة والمطبوعة ووجود عدد مرض من الدراسات المعاصرة عن شعرائه وادبائه ولاسيما ما يدخل من سنيه في القرن التاسع عشر للميلاد . اما ادب القرون العثمانية السابقة فليس في (كنز الاديب)شيء مفيد عنها[٥٢] .

اما الدواوين فالمطبوع منها، والمخطوط الذي ينتظر التحقيق والنشر قليل جدا بالقياس الى عدد الشعراء ولهذا ينطبق على الادب في العراق ما ذكره الدكتور شكري فيصل عن عموم دواوين الشعر العربي في العهد العثماني فقد صرح في البحث الذي سبق ذكره انه جمع مائة بطاقة بأسماء مشاهير شعراء العصر ثم بحث عن دواوينهم المطبوعة والمخطوطة فلم يجد منها سوى خمسة وعشرين ديوانا[٥٣] ومشكلة ضياع دواوين الشعر وقلة ما وصل منها قائمة في جميع العصور السابقة ، ولنا بحث مسهب في هذا الموضوع نشرنا بعض فصوله[٥٤] واستطيع ان ازعم ان حظ العصور العثمانية افضل من العصور السابقة ففي خزائن الكتب في العراق عدد غير قليل من دواوين شعرائها ، مع ان الشعر العربي في هذا العهد يضلع وراء شعر العصور العباسية ويتخلف عنه بمسافات

---

(٥٢) كنز الاديب/خزانة المتحف العراقي / مخطوط .

(٥٣) شكري فيصل : المرجع نفسه ٥ .

(٥٤) انظر بحثنا دواوين الشعر العباسي مجلة كلية الآداب العدد ١٩٦٧/٨ .

فنية شاسعة ، ويمكن الزعم أن القليل الذي طبع من دواوين العصور العثمانية يكفي لدراسة خصائصه واتجاهاته وفنونه وموضوعاته ، ويمهد السبيل لدراسة ابرز او اشهر الشخصيات الشعرية ومع هذا لا يمكننا التغاضي عن فقدان ديوان شاعر كبير كعبد علي الحويزي وضياع قسم كبير من شعر شاعر مفلق كفضولي أمّا ديوان فضولي العربي الذي نشر في لينغراد اعتمادا على مخطوطة الديوان الفريدة الصغيرة فلا يزيد ما فيه عن خمسمائة بيت من الشعر. ان الحديث عن المصادر والمراجع قد يكون مملا للقارىء الاعتيادي ولكنه لا غنى عنه للباحثين والقراء النابهين ، وما قلناه عن نشوة السلافة وكنز الاديب لا يعني عدم وجود مصادر مخطوطة اخرى ، فقد ذكر اغا بزرك في الذريعة ، نقلا عن بعض المراجع ان للشاعر الاديب عبدعلي بن ناصر الحويزي كتابا في ادباء وشعراء عصره بعنوان (الغيث الهامع في ادباء الاقليم الرابع) ويعني بالاقليم الرابع العراق واقطار الخليج وبلاد فارس وقد ذكر الشيخ اغا بزرك ان هذا الكتاب موجود ، اما في برلين او في لندن[٥٥] وقد بحثنا عنه في فهارس مخطوطات برلين فلم نجد له ذكرا ، ولاحظنا ان بروكلمان لم يشر اليه في كتابه ولا في الملحق الكبير[٥٦] . أما ان الدكتور عماد عبدالسلام فيؤكد وجود المخطوط في لندن[٥٧]. واذا كانت مصادر العصر العثماني الاول قليلة فان مصادر العصرين العثمانيين الثاني والثالث احسن حالا واكثر عددا كما قلنا ، وقد تبين لنا ان خزائن الكتب في العراق تحوي كثيرا من المخطوطات والدواوين والمجموعات بعد أن تجمعت الآن عشرات الالاف منها في خزانة المتحف العراقي الا انها ما زالت تنتظر الفهرسه ، واملنا وطيد بان تتم في وقت قصير ليتحقق الهدف من جمعها قبل ان تتلفها الرطوبة وتأكلها

---

(٥٥) الذريعة ج ٩/ص٦٩٠ و ٦٩١ رقم ٤٨٠٠/٤٨٠١/٤٨٠٢ .

(٥٦) انظر بروكلمان : تاريخ الادب العربي والملحق ، فهارس اسماء الكتب والاعلام .

(٥٧) اشار الى ذلك الدكتور عماد في بحث معد للنشر . ولكنه اخبرني انه لم يعثر على المخطوطة في فهارس المتحف البريطاني .

الديدان . وقد قام عدد من المحققين والباحثين العراقيين بجهد مشكور لسد الفراغ بنشرهم وتحقيقهم لبعض مصادر الادب العثماني من كتب تراجم ودواوين . نذكر منهم السيد بحر العلوم ناشر كتاب نشوة السلافة[٥٨] والدكتور سليم النعيمي الذي قام بتحقيق ونشر كتابين من اهم مصادر الادب للقرنين الحادي عشر والثاني عشر هما كتاب (شمامة العنبر) لمحمد مصطفى الغلامي (ت نحو من ١١٦٨ هـ) وكتاب الروض النضر لعصام الدين العمري (١١٣٤ - ١١٨٤ هـ) والكتابان يمثلان حلقة من سلسلة المصنفات التي عنيت بتراجم الشعراء المعاصرين وتسجيل اشعارهم ابتداء بيتيمة الدهر .. الخ والدكتور النعيمي يشخص خصائص وعيوب الشمامة بكلام كرره في مقدمة الروض النضر قال : وصاحب الشمامة مثل من سبقه كصاحب الريحانة وغيره (يعني مصنفي القرون المتأخرة) حين يترجم للادباء فهو لا يذكر سني ولادتهم ووفاتهم ولا يكاد يذكر شيئا من أحداث حياتهم ، وانما يصف فضلهم وادبهم وشعرهم بنثر مسجوع تتساوق فيه اغلب اوصاف المترجم لهم ، ثم يورد شيئا من شعرهم ونثرهم في اغلب الاحوال ، وقد لا يذكر شيئا من ذلك لبعض من ترجم لهم . وقد يورد اشعار من سبق المترجم له في المعنى ويرد المعاني الى مبتكريها . وقد يستطرد فيذكر كثيرا من الفوائد الادبية ، وهو يذكر المصادر في احيان قليلة ويغفل ذكرها في اغلب الاحيان ، وكل ذلك يدل على اطلاع المؤلف على اشعار القدماء وثقافته الادبية الواسعة[٥٩] » وفي مقدمته لكتاب الروض النضر يكرر ملاحظته بالفاظ مرادفة ولكنه يؤكد عناية المؤلف بادباء العراق الذين حظوا بمائة واربعة عشر ترجمة . ثم يعقب الدكتور النعيمي على ما في الروض النضر والشمامة من فوائد ادبية بملاحظة مفيدة.

---

(٥٨) نشر السيد محمد بحر العلوم الجزء الاول من النشوة وطبع في النجف . تأريخ وانظر مقدمة د . سليم النعيمي لكتاب الروض النضر بتحقيقه ونشر المجمع العلمي العراقي بغداد ١٩٧٤ م .

(٥٩) انظر مقدمة د . سليم النعيمي لكتاب شمامة العنبر بتحقيقه ونشر المجمع العلمي العراقي بغداد ١٩٧٧ م

فيقول : ويظهر انه اعتمد في ذلك على اصحاب كتب البديع مثل ابن حجة الحموي والصلاح الصفدي وكتب تراجم الشعراء ينقل منها النص نقلا او يختصره اختصارا ، وهو يذكر المصادر في احيان قليلة ويغفل ذكرها في اغلب الاحيان ...

والكتاب في جملته سجل لشعر عدد كبير من الشعراء والادباء في العراق ونثرهم في القرن الثاني عشر الهجري . وهو مصدر مهم من مصادر الادب في هذه الفترة الغامضة من تاريخ العراق الادبي »[٦٠] والحق ان الكتابين من اهم المصادر وقيام استاذنا الكبير الدكتور سليم النعيمي بتحقيقهما ونشرهما عمل جليل جدير بالتهنئة والشكر الجزيل . زد على هذا انهما نموذج حسن للنثر العربي المصنع السائد في العصر العثماني ، نموذج يثبت ان مؤلفيهما من كبار كتاب العصر .

ان الحديث عن مصادر العصر ومراجعه يوجب علينا انجاز ما ذكره مؤرخه الاستاذ عباس العزاوي رحمه الله ، فقد صنفها في مقدمة الجزء الثاني من كتابه الى خمسة اصناف هي : كتب الجادة ، الاجازات ، مؤلفات العصر وما خلفه رجاله ، المجاميع الادبية ، الكتب التاريخية[٦١] . والاولى والثانية قليلتا الاهمية في دراسة النتاج الادبي ، ويمكن القول ان الصنف الخامس (الكتب التاريخية) كالكواكب السائرة ، وخلاصة الاثر ، وسلك الدرر ، وحديقة الزوراء ، ومطالع السعود ... وفهارس خزائن الكتب ، وكشف الظنون وذيوله ، لا تطرد اهمية كل نوع من انواعها المذكورة ، اذ تتفاوت معطيات ومواد كل منها وتختلف باختلاف نوع الكتاب ومنهجه ، حتى ان تراجم الكتاب الواحد تختلف احيانا فتطول وتقصر ، وتكثر اخبار او مختارات بعضها او تقل وقد تختفي تماما . وفائدة كتب التراجم المذكورة تكاد تقتصر

---

(٦٠) العزاوي : تاريخ الادب العربي العراق ٢/١١-١٢ .

(٦١) العزاوي المرجع نفسه ٢/١٧٨-١٨٠ .

على الدراسات العامة اما الدراسات التفصيلية ولا سيما التي تعنى بالشخصيات المهمة •• فحصيلتها من هذه الكتب قليلة محدودة • وللاستاذ العزاوي ملاحظات جيدة عن خصائص الشعر ، وعن مصادر العصر تتناثر في كتبه وهي التي تعنينا هنا لاننا نستفيد من هذه الملاحظات وغيرها عند الكلام عن خصائص الشعر او عند دراسة العصور العثمانية • لقد اكد العزاوي في مواضع عديدة مشكلة قلة المصادر وضياع الكثير منها ، ولم يفته ايضا اهتمام مصنفي تراجم القرون الثلاثة أو والاربعة ابتداء من القرن العاشر ، بشعراء العراق وادبائه ورجاله ، ولا ما يشوب هذه المصنفات من هنات اذ قال وهو يتحدث عن سلافة العصر : « وكان نهج صاحبها تابعا لما رآه في يتيمة الدهر ، وفي دمية القصر ، ولما اطلع على الريحانة (ريحانة الالباء) اعجب بها فذكر ما لم يذكر فيها ، او اورد مختار ما لم ينتحب من اهل المائة الحادية عشرة ، وزاد ما اغفله صاحب الريحانة فكتب سلافته فكانت موضحة ومكملة ، وفي كلتيهما لم يتعرض لادباء العراق (اظن انه تعرض ولكن بمقدار ضئيل) • اما الريحانة فأتمها المحبي في (نفحته) وجاء ابن السمان فاكملها • ونشوة السلافةامتازت بتراجم ادباء عراقيين ••

وهكذا جاء الروض النضر بمن عندنا ، وشمامة العنبر ، ومنهل الأولياء • ومجاميع عديدة مثل رحلة السويدي (النفحة المسكية) ، ونزهة الدنيا ، ومجموعة أحمد أغا ، ومجموعة السيد عمر رمضان ، وحديقة الورود وآثار ادبية اخرى ودواوين عديدة •• الخ

« وكل المؤلفات الادبية المذكورة تقطع بازدياد المادة الادبية وتكاملها ، والدواوين لا تحصى ، والمراسلات لا تعد ، والمنظوم والمنثور لا يحد ، والمنتجات وافرة ، فلا يقال ان الادب قد مات ، ولا الشعر ولا النثر ، او النثر اغفل امره ولم يبق له اثر الا في لغة العوام •••

« وعلى كل حال اذا كان قد جاءنا الادب العـــربي مفكك الاوصـــال والاطراف ، قليل المادة لم يكشف عن صحة حقه فقد لمنا متفرقـــه وجمعنا مشتته بالرغم من ان حالته في اضطراب . وقلة المجاميع والدواوين تصدق على اوائل العهد العثماني الاول ، والا فقد برز اوضح في العهود التالية ، وتوفرت مادته في ايام المماليك ومن بعدهم فالاثار كانت مطمورة ...

« نعم ان هذه تعد عصور مظلمة لانها لم تظهر فيها الاداب فائضة ، ولم تكن طامية السيل ، ولاقل حادث تندثر ، فهي عصور توقف لا عصور فيض ، واوقات جمود واهمال لا ازمان قدرة .. وبعضها اندثرت فيها الاثار وكادت تمحى ، او انها لا تزال في خفايا النسيان . ومهما كان الامر فقد خلف العراق في المنثور مادة لا يستهان بها »[٦٢] قال العزاوي هذا الكلام في معرض حديثه عن الادب العربي المنثور كما سماه اما الشعر فيحسن ان نورد له قولـــه :

« وعندما توالى الشعراء ، وكان امرهم غامضا في بدء هذا العهد خفى علينا تاريخهم ، وغاب الكثير من اسمائهم لقلة المصادر من جهة ، ومن جهـــة اخرى لم تشغلهم المطالب المهمة ولا المقاصد العالية فكل ما طرقوه لا يدل على سمو في الفكرة ، ولا على غرض جليل ولا (قيمة) علمية .. ولكن لا يهمل امرهم ، ولا يترك شأنهم ، وانما نرعى تاريخ مشاهيرهم باطراد ، ونلمس نمو الرأي والتقدم في الفكرة ورقة ... »[٦٣]

---

(٦٢) المرجع نفسه ٢/٢٤٧ .

(٦٣) نفسه .

History of Ottoman Paety
II, 259 GAL ⅛(8k
A. A. Karahan : Fuzuli 62 (Istanbul 1949)

وملاحظات العزاوي لها اهميتها ودلالتها البالغة ، فقد كان ــ رحمه الله ــ اكثر الباحثين معرفة بمصادر التاريخ والادب في العصور المتأخرة ، ودراساته على الرغم من افتقارها الى العرض المنهجي المنظم الحديث ، والنظرة الادبية والنقدية الشاملة ، ما زالت المرجع الاول لمن يهتم بهذه الحقبة الطويلة من تاريخ العراق ، فتراجمه الكثيرة ، ومصادره ، وهوامشه ، عظيمة الفائدة غزيرة المادة .

والعهد العثماني وثيق الصلة بالعصر المغولي (٦٥٦ - ٩٤١هـ) الذي يسمى في مصر والشام بعصر المماليك . والادب العربي في (عصر المغول والمماليك) هذا يبدو ــ كما في العصور السابقة واللاحقة ــ ادبا عربيا واحدا من حيث الاغراض والفنون والموضوعات والمعاني والافكار والاخلية والصور والاساليب والاوزان والقوافي ... الخ اما الطابع المحلي الذي يميز ادب اقليم عن اقليم آخر فلا تأثير له في البنية الفنية للشعر والنثر انما هو عائم على السطح متمثلاً في اسماء الاماكن والاعلام والاحداث المحلية والعلاقات السياسية وما اشبه . وكانت الامواج او الدوافع العامة التي تحكمت في الثقافة هي هي في مصر والشام والعراق وحتى في المغرب ، فادب ما بعد سقوط بغداد غلبت عليه موجة احياء التراث العربي الاسلامي الذي هدده الغزو المغولي والاعجمي والفرنجي بالفناء . وكان لكثرة المدارس وانتشارها الفضل الاكبر في ترجمة حركة الاحياء الى عمل مبرمج . وهذا سر كثرة كتب التاريخ العام والتراجم والمجموعات والمختارات والتلخيصات والشروح .. الخ لقد صار (الماضي) اي التراث العربي الاسلامي محور الاهتمام وقبلة الانظار والواجهة التي نشطت من ورائها النزعة العربية بعد ان غلب العرب على امرهم وتسلط عليهم الاعاجم . ومن شأن التوجه المستمر الى الماضي تقوية نفوذ (النماذج) الفنية القديمة ومضاعفة الرغبة في محاكاتها ومضاهاتها . واذا كانت الاعصر

العباسية قد تجاوزت المضاهاة والمحاكاة الى الابتكار والاصالة والتجديد على ايدي عباقرة الشعر والنثر كبشار وابن المقفع وأبي نواس والجاحظ او أبي تمام وابن الرومي والمتنبي وابي العلاء وأمثالهم فلأن تلك الاعصر كانت غنية بالحوافز والدوافع المساعدة على ذلك . اما في العصر المغولي والمملوكي والعثماني فقد زالت معظم تلك الحوافز وضعف ما لم يزل منها . فالحكام اعاجم والناس كلكلت عليهم العجمة والرطانة والامية والجهل ، والشعراء لم يبق بينهم محترفون متفرغون للشعر فهم اناس يزاولون مختلف الحرف ليقتاتوا منها اما الشعر فينظمونه ترفا او تملحا وتظرفا او مجاراة او منافسة او لمجرد قتل الوقت وملء الفراغ . وقد شرح مؤرخو الادب في العصور المتأخرة هذه الدوافع والاسباب والعوامل فلا موجب للاعادة والتكرار . انما الجدير بالذكر والتذكير ان عوامل الثقافة وخصائصها هي نفسها السائدة في العصر العثماني مع العلم ان هذا الاخير قد تخلف في فنون الادب الفصيح وفي مقدمتها الشعر . وطبيعي ان يحتم علينا هذا القاء نظرة عاجلة على ادب العصر المغولي وخصائص الشعر والنثر فيه وفنونهما واغراضهما ليتسنى لنا عرض ابرز الاغراض والفنون الشعرية والنثرية والخصائص الفنية الرئيسية السائدة فيهما ، ثم دراسة كل عصر من العصور العثمانية الثلاثة والوقوف على اهم موضوعاته وشخصياته وهو ما سنحاول انجازه وتقديمه للنشر في اقرب وقت ان شاء الله .

« علم الاجتماع الطبي : ماهيته ، تاريخه ومجاله »

ناهدة عبدالكريم حافظ
مدرسة مساعدة ـ قسم الاجتماع
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

أولا : ـ

ماهية علم الاجتماع الطبي :

لقد نمت خلال السنوات الاخيرة خصوصية علم الاجتماع الطبي باعتباره حقلا هاماً من حقول الاستقصاء بين العلماء السلوكيين • ومن الواضح ان هذا الحقل نفسه يضم عدة حقول ومجالات ومنظورات متنوعة ومداخل مختلفة ، اي ان حقل علم الاجتماع الطبي ليس بناءاً منفرداً ولكنه سلسلة من الخطوط تذهب بعدة اتجاهات في الوقت نفسه •(1)

لايوجد تعريف متفق عليه من قبل جمهرة العلماء والباحثين لعلم الاجتماع الطبي حيث يذهب العلماء والباحثون مذاهب مختلفة في تعريفهم لهذا العلم اذ يعرفه بعضهم بقوله :

« علم الاجتماع الطبي : هو ذلك الموضوع الذي يدرس طبيعة العلاقات الانسانية بين اعضاء الفريق الطبي الذي يعمل في المؤسسات الصحية في المجتمع من جهة ويدرس العلاقات الانسانية بين اعضاء الفريق الصحي والمرضى من جهة ثانية » • ، ونعني بالعلاقات الاجتماعية هنا الفعل ورد الفعل بين الشخص

(1) L. Mechanic D, Medical Sociology : A selective view (New York : The Free Press), P. I.

الذي لديه مهارة وكفاءة طبية (الطبيب أو الخبير في الطب) وبين الشخص الذي يحتاج الخبرة والكفاءة الطبية (المريض) .[٢]

هذا ويذهب بعضهم الاخر بالقول :

« ان علم الاجتماع الطبي هو العلم الذي يدرس التركيب ووظائف المؤسسات الصحية التي تشكل جزءاً مهماً من اجزاء البناء الاجتماعي » .

ونعني بالتركيب المؤسسات الصحية ، الادوار الاجتماعية التي توجد تلك المؤسسات والتفاعل بينها ، والعلاقات الاجتماعية المختلفة التي تربطها . وبالوظائف الاجتماعية للمؤسسات الصحية نعني الخدمات والواجبات ويعرف من قبل الاخرين : « بأنه العلم الذي يدرس المرض الاجتماعي . »[٤]

ونعني بالمرض الاجتماعي الاضطرابات التي تقع في اجزاء الانسان او أجزاء المجتمع ويمكن ان نضيف بأن المرض الاجتماعي هو ذلك الاصطلاح الذي يهتم بدراسات وأسباب المرض ونتائجه على المجتمع . ويذهب « داڤيد تاكت ـ "David Tuckett" الى ان المدخل السوسيولوجي لدراسة الصحية التي تقدمها تلك المؤسسات لابناء المجتمع .[٣]

السلوك المرضي يركز على معاني الاعراض المرضية كما يراها الفاعل (actor) وعلى المعايير والقيم التي تحيط بالمرض ، وعلى الفعل المناسب الذي ينبغي اتخاذه ازاء المرض ،[٥] ويوضح « تاكت » هذا التعريف بالاشارة الى ان المنظور السوسيولوجي المناسب للاستخدام في مجال الطب هو ذلك الذي يطلق عليه اسم المنظور البنائي (Structural) ، وبذلك يمكن تعريف

---

(٢) David H. Clark, Social therapy in psychiatry (London : Penguin-1974.) Book, PP. 12-13.

(٣) Ibid., PP. 31-33.

(٤) Duncan Mitchel, "Dictonary of Sociology" (London : Routledge & Kegan Paul, 1973), See the term : Social Pathology. Tavistock Publications, 1976), P. 23.

(٥) Tuckett D, An Introduction to Medical Sociology (London: Tavistock Publications, 1976), p. 23

علم الاجتماع الطبي - من هذه الزاوية بكونه : ذلك العلم الذي يدرس العناصر المشتركة في المواقف التفاعلية ، فالتفاعل بين المريض والطبيب اذا درس من الزاوية البنائية سينطوي على تجريد للعناصر المشتركة في كل هذه المواقف، ومن ثم يمكن بناء نموذج (Model) لهذا التفاعل • كذلك يمكن من هذه الزاويـة تحليل عمل الطبيب باستخدام مصطلح آخر هو نظريـة الدور (role theory) ، وهذا يعني ان مهنة الطبيب تتضمن عمل اشياء معينة، واداء وظائف محددة ، اما المصطلح الثالث المهم الذي يدخل كعنصر أساس في التعريف ، فهو مصطلح الفعل الاجتماعي (Social action) الذي يرتكز الى قيم ومعايير معينة توجه ذلك الفعل ،[٦] وفي ضوء هذه المعطيات يمكن تعريف علم الاجتماع الطبي بكونه : ذلك الفرع التطبيقي من فروع علـم الاجتماع الذي يستخدم منظوراً بنائياً ، يجرد العناصر الاساسيـة التي تميز الموقف التفاعلي بين المريض والطبيب » •

وتحدد دور الطبيب والمريض باعتبارهما فاعلين اجتماعيين يوجه فعلهما نسق من القيم والمعايير الاجتماعية •

ويلاحظ ان « تاكت » في تعريفه يستند الى معطيات علم الاجتماع ككل مستفيداً في ذلك من وجهات نظر « ماكس ڤيبر » و « دوركهايم » وغيرهما ، وهو يبدأ كتابه في علم الاجتماع الطبي يفصل عن علم الاجتماع كعلم ، ليؤكد الصلة الوثيقة بين علم الاجتماع الطبي وبين علم الاجتماع بفروعه المختلفة •

واذا كان بعض الباحثين يعـرّف الرعاية الطبية ، باعتبارها تطبيق للمعرفة والاساليب العلمية لحل المشكلات الفسيولوجية والعاطفية للانسان ،[٧] فإن من الممكن القول ان علم الاجتماع الطبي : هو تطبيق للمعرفة والاساليب التي

---

(٦) Ibid., PP. 11-12.

(٧) William A, Glaser, "Medical care : Social aspects," In International Encyclopedia of the Social Sciences, 1968, the Macmillan Company, Vol. 10, P. 93.

توفرها فروع علم الاجتماع المختلفة لفهم السياق الاجتماعي للمرض ، للمساعدة على حل تلك المشكلات الفسيولوجية والعاطفية .

ومن المهم ان نشير بعد هذه التعاريف الى اقتراح « روبرت شتراوس » وقد وضعه تمييزاً بين علم الاجتماع ـ في الطب ـ (Sociology in Medicine) وعلم اجتماع الطب (Sociology of Medicine) .

يوصف علم الاجتماع في الطب بكونه محاولة لتطبيق المفاهيم السوسيولوجية ومعان علم الاجتماع وتقنياته في سبيل تفسير المشكلات الطبية والاجتماعية والنفسية التي تعني بها مهنة الطب وممارسوها ، وفي هذا السياق فإن المعرفة السوسيولوجية تقدم للمعرفة الطبية أساساً لوضع حلول لما يعتبر مشاكل جوهرية .

أما علم اجتماع الطب فإنه يثير اسئلة حول العاملين الطبيين ومؤسساتهم وتنظيماتهم والعلاقات فيما بينهم . اي استخدام المنظورات السوسيولوجية في الطب يشبه استخدام هذه المنظورات في مجالات العمل والتربية وغيرها .

يهتم علم الاجتماع في الطب بموضوعين متمايزين لكنهما متكاملين أيضاً ويمكن الاشارة اليهما فيما يلي :

آ ـ ايكولوجيا واسباب المرض : (Ecology and Etiology of Disease)

لقد درس الباحثون ، حتى قبل ظهور علم الاجتماع كحقل متميز من حقول المعرفة ، كيف ان انتشار وتوزيع الامراض يرتبط بمواقع الافراد ومنزلاتهم في المجتمع . ففي مقالته عن الارضية التاريخية للامراض الصناعية والمهنية يشير « هنري سايجرست » الى انه في مصر واليونان القديمتين كان هناك اهتمام بامراض معينة ، او بأعراض ضعف القدرة المرتبطة بمهن معينة . لقد اصبحت هذه الدراسات أكثر انتظاماً في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ومع نمو علم الاجتماع تعاظمت الانشطة في دراسة توزيع ومحددات المرض بين الناس من خلال ما يدعى بالابدميولوجيا .

ب ــ التنوع في الاتجاهات والسلوك ازاء الصحة والمرض :

وتنصب هذه الدراسات على تنوع الاستجابات وانماط السلوك ازاء مشكلات الصحة والمرض والموضوعات التي تتناولها هذه الدراسات عديدة، ومثالها المعلومات العامة عن الامراض ، والتعريفات التي تتناول المريض ، والتصورات الشائعة حول قطاعات معينة من السكان فيما يحتاجونه من النواحي الصحية •

اما علم اجتماع الطب (Sociology of Medicine) فهو يعني بمشكلات اخرى ، وتتصل الاسئلة التي يحاول الاجابة عليها بتقاليد علم الاجتماع وفي علم الاجتماع التنظيمي ، أما اهم الموضوعات التي يتناولها علم اجتماع الطب فأهمها عمليات زج الشباب في مهنة الطب وعمليات تدريب الاطباء وعلاقات الاطباء بغيرهم ، من الزملاء والمرضى وعلاقاتهم باسرهم والمنظمات الصحية كالمستشفيات وأخيراً التنمية الصحية للمجتمعات المحلية•[٨]

وهكذا نجد ان علم الاجتماع الطبي قد تطور بصورة حثيثة خلال السنوات الاخيرة ويمكن القول ان علم الاجتماع قدم مساهمات غزيرة للطب، وهو يعد بمساهمات اخرى في المستقبل •

لقد كان لعلماء الاجتماع صلات وطيدة مع الاطباء والممرضات ، واولئك الذين يقابلون المرضى او المتصلين بالاطباء •

وقد نما علم الاجتماع حتى الآن كياناً مميزاً من الموصوعات ، وأضاف للنظرية الاجتماعية العامة اضافات ثرية بل انه دخل الى موقع يستطيع ان يكون فيه مساهماً فعالا في اتخاذ القرار الطبي •[٩]

---

(٨) Kendall P. L. and G. G. Reader, Contributions of Sociology to Medicine, In H. E. Freeman & others (ed.), **Handbook of Medical Sociology** (New Jersey : Prentice-Hall, 1972), PP. 1-2.

(٩) Ibid., P. I.

ثانيا : ـ

تاريخ علم الاجتماع الطبي وصفته الحاضرة :

لاشك ان علم الاجتماع لم يكن غريباً على البايولوجيا ، ولم تفتقر تصوراته حول المجتمعات الى الاحساس بالتشابه بين المجتمع وبين الكائن الحي من حيث النشأة والحياة والموت ، والاصابة بالمرض ، ومواجهة المعوقات فللانسان طبيعة بايولوجية وطبيعة اجتماعية ولكن من الواضح انه بدون الطبيعة البايولوجية لن تكون هناك طبيعة اجتماعية .[10] وقد أثرت النظرية التطورية ، الداروئية في علم الاجتماع تأثيراً كبيراً تنج عنه اتجاه العديد من رواد هذا العلم نحو الاخذ بنوع من المماثلة العضوية بين المجتمع والكائن الحي كما هي الحال في كتابات « هربرت سبنسر » .[11]

وقد كرست اعمال « باجوت » و « جميلوفتش » و « سمول » و « سمنر » وغيرهم اتجاهات الداروئية الاجتماعية .[12]

وقبل ذلك كان ابن خلدون قد ربط بين بعض العوامل الايكولوجية وبين الصحة والمرض في فصل من فصول مقدمته كتبه تحت عنوان « في اختلاف احوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من آثار في ابدان البشر واخلاقهم . كما انه اشار الى ان حاجة الحواضر والمدن الى الطب أكثر من حاجة البادية اليه بحكم ظروفها الاجتماعية والبيئية .[13]

غير ان الربع الاخير من القرن التاسع عشر شهد مولد الطب الاجتماعي، ويعود الفضل في ذلك الى نخبة من الاطباء ذوي الآراء والمبادىء الاجتماعية.

---

(١٠) Clinard M, Sociology of Deviant Behavior (New York : Rinehart, 1968, P. 55.

(١١) راجع وجهات نظر سنسر في كتاب نيقولا تيماشيق ، **نظرية علم الاجتماع: طبيعتها تطورها** ترجمة د . محمد عودة وآخرين ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٤ ص (٧٣) .

(١٢) نفس المصدر السابق ، ص ٩٩ وما بعدها .

(١٣) ابن خلدون ، **المقدمة** (القاهرة : المكتبة التجارية) ص ٨٧ ص ٤١٥ .

ومن الدراسات التي لايمكن اغفالها في هذا الصدد كتاب الدكتور « أرماند جوزيف ماين » وهو خلاصة ثلاثين سنة من الدراسة للاحوال الصحية والاقتصادية والاجتماعية للشعب البلجيكي ويضم الكتاب أربعة أقسام ، يركز الاول على البيئة الجغرافية والثاني على اسباب الوفيات والامراض المسببة لها ، أما القسم الثالث فقد أفرده للبحث في العوامل المجتمعية المؤثرة في تلك الامراض من مناخ وتغذية واسكان ومستوى اقتصادي وادمان الخمر ، بينما يركز القسم الرابع على التدابير الاجتماعية التي يمكن ان يؤخذ بها لعلاج المشكلات الصحية والمرضية ٠

وفي سنة ١٩١١ ظهر مؤلف « الدكتور الفرد جروتمان » (الباثولوجيا الاجتماعية) ، وفيه حدد المؤلف الاسس الاجتماعية لأي دراسة علميه لمجتمعيه المرض على النحو التالي :

أولا : ان أهمية المرض من الوجهة الاجتماعية تتحدد بمدى انتشاره وتكرار حدوثه في المجتمع ٠

ثانياً : انه يلزم الاحاطة بالكيفية التي يحدث بها المرض في المجتمع ٠

ثالثاً : ان التداخل بين المسببات المرضية والعوامل الاجتماعية يمكن اقتفاء أثرها في النواحي التالية :

١ ـ العوامل المهيئة او الممهدة لظهور المرض ٠

٢ ـ العوامل المباشرة في الاصابة بالمرض ٠

٣ ـ المؤثرات المختلفة في سير المرض ونتائج مكافحته وعلاجه ٠

رابعاً : لاترجع أسباب الامراض الى العوامل المجتمعية فحسب بل الى ان للامراض نتائج اجتماعية أيضاً ٠

خامساً : في حالة الامراض التي لها أهمية مجتمعية يجب ان يؤخذ في الاعتبار فاعلية العلاج الطبي ـ الاجتماعي الشامل في ايقاف حدة المرض وانتشاره ٠

ومن اضافات « جروتمان » الاخرى انه رأى تمكينـاً للاطباء من اداء دورهم على هـذا النحو التربوي والاجتماعـي لزوم ادخال مادة الصحـة الاجتماعية في دراسـة الطب على ان تشـمل هذه المادة جوانب احصائيـة وانثروبولوجية وتربوية وسوسيولوجية واقتصادية مع التركيز على التحليل السوسيولوجي للمشكلات الصحية .[14]

ان الاهتمام بالمرض ودور الطبيب ازاء المريض وصور الوقاية والعلاج تطورت بتأثير تطور بعض الحقول الاجتماعيـة والانسانيـة فعلى المستوى القانوني نظمت وتحددت المسؤولية الجنائيـة للاطباء ،[15] كذلك وضحت الصلة بين الامراض النفسـية والحضارة ، وقدم الانثروبولوجيون وعلماء النفس التحليلي ، وجهات نظر وتصورات أسهمت في تغيير الكثير من الافكار الخاطئـة التي سادت لسـنوات طويلـة . وقد ذكر « فروجـو » حقـل الابدميولوجيا الحضارية بأن العلل العقلية والنفسية تتنوع بتنوع الظروف الحضارية للمصابين بها ، ولوحظ ان الاشـكال التي تظهر بها هذه العلل في الحضارات التي درست في المجتمعات الواقعة خارج حدود المدنية الغربيـة تختلف عن اشـكالها التي تتميز بها في مجتمعـات الغرب ، بل بدت بعض الامراض التي عثر عليها الاثنوغرافيون في مجتمعات بدائية متعددة ، كمـا لو كانت جديدة لم يسبق ان رآها المحللون النفسيون الغربيون ، والصحيح ان هذه الامراض وغيرها لاتمثل اصنافاً جديدة بل هي حالات سايكولوجية تعبر عن التركيب الاثنولوجي للجماعات التي وجدت فيها رغم انها في نفس الوقت تحمل خصائص مرضية مشـتركة تظهر في المصابين بها في المجتمعات الغربية أيضاً .[16]

---

(١٤) د . عبدالمنعم نور ، مصدر سابق ص ١٤ ــ ١٥ .

(١٥) راجع حول ذلك : د. مصباح محمد محمود « مسؤولية الاطباء الجنائية » بحث مقدم الى مؤتمر المسؤوليـة الطبية ، جامعـة فاريونس ، ليبيا ، ١٩٧٨ .

(١٦) د . قيس النوري ، **طبيعة المجتمع البشـري في ضوء الانثروبولوجيـة الاجتماعية** (النجف : مطبعة النجف ، ١٩٧٢) ، ص ، ٢٧٩ .

من جانب آخر انعكس الاهتمام بالمتغيرات والجوانب الاجتماعية للصحة والمرض على الخدمة الاجتماعية ، وهي كما تسمى أحياناً ، علم الاجتماع التطبيقي ، وقد مهدت عدة خطوات لظهور الخدمة الاجتماعية الطبية ، اهمها الحركة التي ظهرت في انكلترا عام ١٨٨٠ للعناية بمرضى العقول عقب خروجهم من المستشفيات ، وكذلك الحركة التي تزعمها « تشارلز لوك » لتأكيد أهمية العمل الاجتماعي في مجال المرض القائم على أساس دراسة حالة المرضى وحاجاتهم . وفي سنة ١٩٠٤ شرعت احدى مستشفيات نيويورك بارسال ممرضات زائرات الى منازل المرضى لمدهم بالارشادات والنصائح . وفي سنة ١٩٠٥ أنشىء قسم الخدمة الاجتماعية في مستشفى (ماساشوستس) العمومي وكان ذلك بداية بدء العمل بها كمهنة وكمجال منظم .(١٧)

لقد تغيرت الآن صورة الاهتمام بعلم الاجتماع الطبي . ويذكر «تاكت» انه قد مضت سنوات قليلة منذ ان اصبح تلامذة الطب في بريطانيا يدرسون علم الاجتماع كمادة اجبارية . وخلال السنوات القليلة المارة أيضاً اصبح من الشائع سواء بالنسبة للاطباء الجدد او بالنسبة للاطباء القدامى ان تكون لهم ثقافة سوسيولوجية .

ويذكر « تاكت » ان هناك الان حوالي ٥٥٠٠٠ ألف دكتور مستخدمين في الخدمات الصحية الوطنية ، نصفهم تقريباً يعمل في المجتمعات المحلية ،

---

(١٧) د . محمد عبدالمنعم نور ، **الخدمة الاجتماعية الطبية والتاهيل** (القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة) ص : ١٦ . كذلك راجع حول تاريخ الخدمة الاجتماعية وتطورها : **الرعاية الاجتماعية للمعوقين** ، عطيات عبدالحميد ناشد وآخرون ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٩ ص ٩١ ـ ٩٦ . كذلك راجع **الخدمة الاجتماعية طرقها ومجالاتها** ، عدلي سليمان واسماعيل رياض ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٧٢ ، ص ٣٩٨ . كذلك راجع حول الخدمات الصحية والصحة العقلية .

Ferguson E. A, Social work, New York : Lippincott, 1975), P. 277.

معظمهم من الممارسين العموميين ، والقليل منهم في الادارة الطبية وفي الخدمات الاجتماعية والثقافية ، والاقل في الانشطة الصناعية •[١٨]

ومع هذا التطور السريع والواسع ، يمكن القول ان في كل قطر نلاحظ نوعاً من الارتباط بين بعض المتغيرات الاجتماعيـــة كالطبقـة والوضـــع التعليمي وغيرهما ، وبين الرعاية الطبية ،[١٩] بحيث يمكن القول ان لعلـم الاجتماع الطبي جذوره التاريخية التقليدية في كل مجتمع •

ثالثا : ــ

مجال علم الاجتماع الطبي :[٢٠]

يهتم العلم الاجتماعي بالعلاقات الانسانيـة المتداخلـة بين الاشخاص والجماعات ، كما يهتم بالاختلافات الشخصيـة ، وادراك الناس لظروفهم الداخلية والخارجية وردود أفعالهم ازاءها • اي ان العلم الاجتماعي لا يعني بالاعراض المرضية ((Pathological)) بحد ذاتها ، وليس بالمرض ذاته• واذا نظرنا الى الطب نجد انه دعي احياناً باسم العلم الاجتماعي ايضاً ، كمـا اشار « Virchow » او كما ذكر « هندرسن "Henderson » ، ان الممارسة الطبية هي علم اجتماع تطبيقي ولكن ذلك لا يعني انه ليس علماً يقوم على اساس فسيولوجي ، والواقع ان الطب كيان من المعرفة مركب مـن عدة حقول فهو تطبيق للمعرفة والمهارات والاتجاهات ذات الاثر المفيد في علاج المرض •[٢١]

---

(١٨) Tuckett, Op. Cit., P. 4.

(١٩) Medical care : Social Aspects, **Op. Cit.**, P. 94.

(٢٠) اعتمدنا في هذا العرض بصورة رئيسة على كتاب « دافيد ميكانك » عن علم الاجتماع الطبي المشار اليه آنفاً في صفحات سابقة ، بالاضافـة الى مصادر اخرى اشرنا اليها .

(٢١) Kendal P. L. and G. G. Reader, **Contributions of Sociology to Medicine**, In H. E. Freeman & others (ed.), **Handbook of Medical Sociology** (New Jersey : Prentice-Hall, 1972), PP. 1-2.

وكما ان الطب ينظر الى المرض باعتباره حالة انحراف نسبي عن معيار معين هو الصحة ، فان وجهة النظر السوسيولوجية تتجه غالباً الى استخدام مفاهيم مثل الانحراف (Deviance) والوصمة (Stigma) • ويشير علماء الاجتماع الى الانحراف باعتباره « مشكلات اجتماعية » أو « باثولوجيا اجتماعية » • وأحد أسباب هذا الاتجاه ان القدرة على تشخيص نوع من السلوك يعرف اجتماعياً باعتباره منحرفاً يساعد على تحديد المعايير التي يمكن ان تكون مرشداً لسلوك الاسوياء • ومن هنا اعتبر « بارسونز » دور المريض دوراً انحرافياً •[٢٢]

ولكي تكون الصلة بين مفهومي الانحراف والمرض في علم الاجتماع الطبي أكثر وضوحاً نشير الى دراسة اجراها « فريدسون » ، ابتدأ الباحث بثلاث افتراضات :

آ ـ ان الانحراف ظرف يعزى ، وهذا العزو قد يقوم أو لا يقوم على معوق فسيولوجي ، اذ ليس كل الناس المعوقين يسمون كذلك ، أو يتصرفون كمعوقين • ان « فريدسون » يشير بذلك الى التنوع التاريخي والحضاري •

ب ـ حين يصبح الانحراف دوراً فانه يتضمن عملية الوصم (Labeting)

جـ ـ حين يصبح الانحراف ثانوياً (Secondary) فانه يلاحظ عموماً كمشكلة اجتماعية •[٢٣]

ويلاحظ ان «فريدسون» في حديثه عن المرض والعوق يستعير مفاهيم علماء اجتماع السلوك المنحرف •

فقد كان « ادوين لمرت Lemert » في كتابه (الباثولوجيا الاجتماعية) قد ميز بين ثلاثة اشكال من الانحراف ، الانحراف الاولي ، وهو انحراف بسيط لا يؤدي الى اعادة تنظيم للاتجاهات الخاصة بالذات والادوار

---

(٢٢) Ibid., P. 7.

(٢٣) Kendal & Reader, Op. Cit., P. 8.

الاجتماعيـة ، والانحراف الثانوي الذي يعني السـلوك المنحرف والادوار المرتبطة به والتكيف ازاء المشكلات الظاهرة والكامنة التي يثيرها رد الفعل المجتمعي ازاء الانحراف • ثم الانحراف الهامشي (Marginal) الذي يتضمن مواجهة الشخص موقف اختيار دور واحد من دورين يعرضا له دون ان يستطيع تكييف وتنظيم حياته على أساس واحد منهما[٢٤] في ضوء ذلك التصور نستطيع القول ان التعرض للبرد والاصابة ببعض اعراضه البسـيطة التي لا تستدعي ان يغير الشخص المريض من نمط حياته وادواره هو تعبير عن الانحراف الاولي • اما تحول تلك الاعراض الى حالة مرضية أكثر شدة مثلا كالتدرن الرئوي ، حيث يظهر الناس ردود فعل معينة ازاء المريض تصمه في النهاية بكونه معدياً ، ويضطر الى تغيير ادواره الاجتماعيـة او بعضها ، كأن يترك العمل ليرقد في المستشفى ، او يعاني من العزلة الاجتماعية فان من الممكن التعبير عنها باعتبارها ، انحرافاً ثانوياً •

مـن جانب آخر لابد ان نشـير هنا الى ان هناك علوماً اخرى اهتمت بمفهوم المرض ، ذلك ان علماء النفس والعياديين النفسـيين وضعوا معايير صلدة لتقييم السـلوك سـلباً وايجاباً يؤدي الالتزام الاعمى بها الى اعتبار السلوك اينما يقع سوياً أو شاذاً أو عاقلا أو غير كاقل • هذا ومن جهة اخرى ظلت نسبة ليست صغيرة منهم تنظر للاضطرابات النفسية كحالات ناتجة من خلل فسيولوجي معين في المخ او في الجهاز العصبي •[٢٥]

ان علم الاجتماع الطبي يتناول مجالات عديدة متداخلة قد لاترد منفردة في دراسات هذا العلم الا انها كما سنلاحظ من العرض التالي تتمايز عن بعضها نسبياً سواء في المشكلات التي تنطوي عليها أو في مصادر معلوماتها :

---

(٢٤) Lemert E., Social Pathology (New York : McGraw-Hill, 1951), PP. 75-77.

(٢٥) د • قيس النوري ، مصدر سابق •

١ ـ العلاقات بين اعضاء الفريق الصحي والمرضى :

ان أحد مجالات علم الاجتماع الطبي هي دراسة العلاقة الانسانية ، بين أعضاء الفريق الصحي والمرضى ، ان علم الاجتماع الطبي يهتم اهتماماً متزايداً خصوصاً في المجتمعات الصناعية المعقدة بجانب العلاقات الانسانية بين أعضاء الفريق الصحي والمرضى • فهذه العلاقات ينبغي ان تكون علاقات ايجابية تأخذ بعين الاعتبار الجانب الانساني للمريض ودوره الاجتماعي الذي يحتم على اعضاء الفريق الصحي في المجتمع رعايته والاهتمام به وقت مرضه • كما ان اعضاء الفريق الصحي لايستطيعون القيام بواجباتهم دون تكوين علاقات انسانية جيدة مع المرضى لان عملية التفاعل بين عضو الفريق الصحي كالطبيب أو الممرضة والمرضى هي عملية أساسية في الخدمات الطبية التي يقدمها المجتمع لابنائه ، فالممرضة مثلا بحكم عملها الانساني وواجباتها التي تقدمها الى المرضى من ابناء المجتمع او بحكم اتصالاتها المتكررة مع الاطباء وبقية أعضاء الفريق الصحي الذي تعمل معه يجب ان تكون اجتماعية بطبعها ومزاجها وشخصيتها أي عندها القابلية على تكوين العلاقات الاجتماعية الطيبة مع الاخرين بكل سهولة وبوقت قصير والتعامل معهم بطيب ورقة وانسانية مهما كانت مراكزهم وخلفياتهم الاجتماعية ومهما كانت عناصرهم وأديانهم وميولهم واتجاهاتهم الفكرية والسياسية • واجتماعية الممرضة تعني أيضاً تواضعها وعدم تكبرها على الناس وميلها نحو تقديم شتى انواع المساعدات الى الاخرين • خصوصاً المرضى الذين تشرف عليهم وتتولى رعايتهم • واجتماعية الممرضة تعني كذلك قابليتها على التداخل والتفاعل مع الناس واندفاعها نحو الدخول وسط الجماعات الصغيرة والكبيرة ولعب الدور القيادي في التأثير على فعالياتها ونشاطها ، وعدم انعزالها عن المجتمع والجماعات والافراد لان انعزالها وانطوائها نحو نفسها سوف لا يخدم الاهداف الانسانية النبيلة لمهنة

التمريض ، ولا يمكنها من اداء واجباتها الصحيــة والاجتماعيــة للمريض او المؤسسة الصحية التي تعمل فيها .[٢٦]

وهنا يمكنــا القول انه بجانب المرضة هناك طبيب وهناك صيدلانــي ومســاعد المختبر والمحلل ، الذين يكونون الفريق الصحي وهؤلاء جميعــاً تربطهم علاقات اجتماعية انسانية مع المرضى المراجعين .

والغاية من دراسة هذه العلاقات هي التعرف على طبيعتها فاذا كانت سيئة فان فاعلية المؤسسات الصحية في المجتمع لا تكون بالمستوى المطلوب لذا يجب على علماء الاجتماع الطبي تحسين وتطوير العلاقات الاجتماعية بين اعضاء الفريق الصحي من جهة وبين اعضاء الفريق الصحي والمرضى من جهة اخرى . وهنا تستطيع المؤسسة الصحيــة القيام بعملها وواجباتها في المجتمع بحيث يجلب هذا تطوير المؤسسات الصحية ومعالجة المرضى معالجة مجدية تساعدهم على التخلص من المرض اولا ثم اشغالهم الادوار الاجتماعية التي من خلالها يقومون بتقديم الخدمات التي يحتاجها المجتمع ثانياً .

٢ ــ توزيع واسباب المرض :

اهتم السوسيولوجيون فترة طويلة بدراسة توزيع الامراض بين السكان والعوامل الكامنة وراء ذلك . ان الادبيات الســوســيولوجية حول توزيع المرض تهتم غالباً بمتغيرات معينة مثل العمر والجنس والطبقــة الاجتماعيــة (المهنة والدخل) . غير ان الاهتمام بالاتجاهات وانماط السلوك والعمليات الاجتماعية الاكثر تعقيداً لم يكن كبيراً .

٣ ــ الاتجاهات الاجتماعية والحضارية ازاء المرض :

يتركز الاهتمام هنا على كيفية ادراك وتعريف واستجابة الناس للمرض او لأعراضه ، واستجابتهم ازاءه باختلاف الجماعات الاجتماعية والحضارية .

---

(٢٦) الدكتور احسان محمد الحســن وسهام بطرس مراد ، **صفات المرضــة الجامعيــة ، بحث ميداني** : يكشــف الصفات السيكولوجيــة والمهنيــة والاجتماعية والتربوية التي ينبغي تواجدها في المرضة الجامعية .

لقد لاحظ الانثروبولوجيون ان فهم طبيعة النظام الحضاري السائد في المجتمع ضروري لمعرفة ما اذا كان للسلوك الذي يسلكه الفرد المنتمي لذلك المجتمع سلوكاً عاقلا سوياً ام شاذاً •[٢٧]

٤ ـ الجوانب الاجتماعية والحضارية للرعاية الطبية :

تركز هــذه الموضوعات على العلاقات بــين المختص والمريض وتأثير خصائصهما على تلك العلاقات ، وبالتالي فان هذه الموضوعات تتناول عمليات الاتصال والتأثير والادوار الاجتماعية • ان أحد الافكار النظريه المهمة التي ترشد البحث والتحليل في هذا السياق تصور « بارسونز » حول دور المريض والتفاعل بينه وبين المختص اي (الطبيب) •

٥ ـ الباثولوجيا الاجتماعية :

ويهتم علم الاجتماع الطبي أيضاً بدراسة الباثولوجية الاجتماعية ونعني بالباثولوجيا الاجتماعية حالة الشذوذ عن الصحة الاجتماعية اي صحة الحياة الاجتماعية • ومن أمثلة الباثولوجيا الاجتماعية ، الجريمة والجنوح وتناول المسكرات والمخدرات والتسول والبغاء ، وهناك من يعتقد بأن حركات المعارضة والاصلاح هي ظواهر اجتماعية وباثولوجية وذلك لتأثيرها السيء في ظاهرة الاستقرار والهدوء •

والعالم الذي يعتقد بهذه الفكرة هو البروفسور البلجيكي « لمرت Lemert » ، الذي يذكر في كتابه (الباثولوجيا الاجتماعية) بأن جميع الحركات الراديكالية والاصلاحية والفوضوية التي اجتاحت اوربا هي حركات تتميز بالصفة الباثولوجية التي تؤثر في جسم المجتمع كما يؤثر المرض في جسم الانسان • ان اصطلاح الباثولوجيا الاجتماعية هو اصطلاح مستعار من العلوم الباثولوجية غير ان استعماله يشير الى الافكار الوظيفية التي يحملها العالم

---

(٢٧) د • قيس النوري ، مصدر سابق ، ص ٢٧٢ •

لدى الكتابة عنه والغاية من استعماله هي شرح طبيعته السلوكيــة الشــاذة المريضة التي تميز بعض الافراد والجماعات في المجتمع •[٢٨]

٦ ـ الوفيات :

لقد كان لهذا الموضوع أهمية كبيرة بالنسبــة للسوسيولوجيين الذين تتوفر لديهم اهتمامات ديمغرافية • وقد اهتم علماء الاجتماع الطبي ، ضمن السياق الاكبر لاهتمامهم بموضوع الوفيات ، بالتغير في انماط الوفيات والاثار الاجتماعية للوفيات •

أما أهم المتغيرات التي تبحث في هــذا الســياق فهي (الجنس والعمر والرس والمنزلات الاجتماعية والاقتصادية) •

٧ ـ تنظيم الممارسة الطبية :

ويهتم هذا الحقل بالتنظيم الفريد للممارسات الطبيــة واختلاف الانظمة الطبية في الزمان والمكان • وتتضمن هذه الدراسات مقارنات بين صيغ وعلاقات الرعاية الطبية التي تظهر في السياقات التنظيمية المختلفة •

ومن الدراسات التي يمكن الاشــارة اليها في هذا الصدد • دراســة فريدسون التي تضمنت مقارنة بين هول الضغوط التي يتعرض لها الممارسون الطبيون في السياقات التدريبية ، ان المقارنات الطبية في الزمان والمكان توفر بيانات هامة توسع من الاطار العلمي للنظرية وتحرر علم الاجتماع من صيغة المحلية الضيقة •

٨ ـ علم اجتماع في المهن العلاجية : Sociology of the Healing - occupation

يقع هــذا الحقل ضمن المجال الواسع لدراســة المهــن والتخصصات المختلفة ، وهو يتعامل مع التنظيم الاجتماعي والعلاقات القائمة بين الجماعات

---

(٢٨) قاموس علم الاجتماع ، تعريب الدكتور احسان محمد الحســن (تحت الطبع) راجع مصطلح (المرض الاجتماعي (Social Pathology .
وكذلك راجع :
كتاب لمرت المشار اليه سابقاً : (Social Pathology)

المهنية المختلفة • ومن أكثر هذه الدراسات انتشاراً تلك التي تتناول مهنة التمريض • وقد ازدادت في هذا الصدد موضوعات مثل التنشئة الاجتماعية ، والاحترام الاجتماعي ، والمنافسة ، والتخصص والايديولوجية وغيرها •

فمن المعروف ان للمهن المختلفة درجات مختلفة من الاحترام الاجتماعي، كما وانها ترتبط بتوزيع القوة في المجتمع ، ففي مجتمعنا مثلا ما زالت مهنة التمريض تواجه موقفاً اجتماعياً سلبياً يعيق الاقبال على هذه المهنة من قبل الاناث برغم ان هناك حاجة متعاظمة الى هذه الاختصاصات وبرغم الامتيازات المادية الكبيرة التي تقدم للممرضات • كذلك فان هناك مواقف اجتماعية متنوعة ازاء الاختصاصات الطبية المختلفة ، فالموقف الاجتماعي من الطبيب العقلي ليس مساوياً تماماً في خصائصه للموقف الاجتماعي من طبيب العيون • كذلك فان المنافسة بين اختصاصات معينة قد تخلق حالة من عدم الثبات في الانشطة المطلوبة • ان مثل هذه الدراسات يمكن ان تكون ذات نتائج تطبيقية هامة تخدم في تخطيط السياسة الصحية في المجتمع •

٩ ــ علم اجتماع في المستشفى : (Sociology of the Hospital)

ويعتبر هذا الحقل أساسياً في علم اجتماع التنظيم ، وهو يهتم بعدد من المتغيرات المستقلة والمعتمدة ، كالتكنولوجيا والبيروقراطية والسلطة واتخاذ القرارات وتقسيم العمل •

١٠ ــ التنظيم الصحي للمجتمع المحلي :

وينصب الاهتمام في هذا المجال على العلاقات النامية بين المؤسسات والوكالات والاجهزة الصحية المختلفة في المجتمع المحلي سواء الخاصة منها والعامة من حيث التنسيق او التعارض في وظائفها •

ان هذا الحقل يعني بدراسة السبل التي تتحقق منها الاهداف والبرامج التي تتوخاها التنظيمات المختلفة وتوزيع انشطتها داخل المجتمع المحلي ، والطرق التي تنمو وتتغير بواسطتها هذه المؤسسات ان لهذا الموضوع اهمية خاصة في الاقطار النامية حيث تتميز المجتمعات المحلية بخصائص محددة وتتعدد فيها من مراحل النمو المنظمات الطبية •

١١ ـ التغير الاجتماعي والرعاية الصحية :

تتميز الدراسات في هذا المجال بخاصية تاريخيــة تتداخل مع المجالات الاخرى ، ومن أمثلة هذه الدراسات نمو تخصصات طبية معينة والتغير في القيم ، وتغير خصائص وسمات التنظيم الصحي •

لقد كانت دراســة التغير الاجتماعي قد حظيت باهتمام مبكر في علــم الاجتماع ابتداء مــن كونت ، وقد كان البعد التاريخي واضحـاً في أعمال « دوركهايم » و « ماكس ڤيبر » ممن اعتبروا المعطيات التاريخية ضرورة لا غنى عنها من الجوانب المنهجية والمعرفيــة لعلم الاجتماع • ان دراسة التغير الاجتماعي في مجال الرعاية الصحية ، وخصوصاً التغيرات في الرعاية التقليدية توفر فرصة مفيدة لتعميق اتجاهات دراسة التغير ، كما انها توفر أساساً هاماً لمعرفة تغير انماط الرعاية الصحيــة ، وتأثيراتها ، خصوصاً وان بعض هــذه الانماط تظل قوية التأثير حتى مع ظهور انماط جديدة مستحدثة •

١٢ ـ الثقافة الطبية :

اعطى السوسيولوجيون اهتماماً كبيراً لعلم اجتماع الثقافــة الطبيــة بالقيــاس الى اهتمــامهم بعلم اجتمــاع الثقــافة الســوسيولوجية (Sociology of Sociological education) ان العمل في هذا المجال يقع ضمن الاهتمامات التقليديــة لعلم الاجتماع وخصوصــاً في موضوعات التنشــئة والتدريب المستمرين في مجال التخصص الطبي • ومن اهم الدراسات في هذا الصدد دراسة « مرتون » وزملاؤه حول (التلميذ الطبيب) ودراسة « بيكر » وزملاؤه وعنوانها « اولاد يرتدون الابيض » •

وفي هذا الحقل الثقافــة الطبية ينصب الاهتمام في سـياق الادبيات السوسيولوجية العامــة على موضوعات مثل التخصص والاختيار والمواقف التي تنطوي على خطر ، وعلى القيم الاجتماعية وعلى الاثار العامة للثقافــة الصحية • انهذه الثقافة من حيث مضامينها وانماطها تختلف من مجتمع لاخر، وبالتالي فان دراستها تفسح مجالا للمقارنات المثمرة وخصوصاً بين الانظمــة الاجتماعية المختلفة •

١٣ ـ الصحة العامة : (Public Health)

وهو مجال تقليدي قديم في الطب نما من خلال الحركات الاصلاحية في القرن التاسع عشـر ، وقد كان في مراحلـه المبكرة يركز على تحسين ظروف المصابين بخلل عقلي ، وعلى الامراض الوبائية • اما في السنوات الاخيرة فقد اصبح هذا الحقل أكثر اهتماماً بموضوعات مثل الاخطار على البيئة والتلوث•

ان هذا الحقل جعل علم الاجتماع أكثر عملية وفائدة لأن مجال الصحة العامة يستهدف احداث تغيير في بيئة الناس وفي انماط الصـحة والمرض ، ولذلك فان موضوعات تقليدية ، في علم الاجتماع مثل ، الاثار الاجتماعيـة والتغيرات التنظيمية والاجتماعية ، قد اصبحت أكثر أهمية في مجال الصحـة العامة • ان هذا الحقل يتفاعل في الواقع مع المؤشرات الصحية الحديثـة في المجتمع المعاصـر ، وخصوصاً بعد ان اصبح التلوث ، ومعضلـة الفضلات الصناعية من المشكلات الصحية الخطيرة التي تهدد بيئة الانسان •

١٤ ـ التوتر والمرض :

ازداد اهتمام عالم الاجتماع وعالم النفس الاجتماعي بمصـادر التوتر الاجتماعي في التنظيم والحياة الاجتماعية ، والعلاقة بين التوتر الاجتماعي وبين الامراض • وقد نشأ عن ذلك تعاون مثمر بين السوسيولوجيون والاطباء في دراسة تأثر التوتر على ظروف وتنوع الامراض •

ويمكن القول ان هذا الحقل أخذ أبعاداً واسعة من خلال دراسة الدوافع وارتباطها بالتوتر نتيجة عدم ارضاءها • كما وانه اكتسب أهمية خاصة مـن خلال الافتراضات التي تشير الى ان التوترات تؤثر في القدرات الاجتماعية والمهنية والفسيولوجية للانسان في عصر تزداد فيه الضغوط ويتعرض الانسان الى مصادر توتر عديدة •

١٥ ـ الطب العقلي الاجتماعي :

لقد أصبح هناك ادراك متزايد بأن العوامل الاجتماعية ، ذات اهمية في التأثير في نمو الظروف المهنية لظهور أمراض معينة • اضافة لذلك وبغض النظر

عن اسباب المرض ازداد الادراك بأن بالامكان تحديد الضعف وعدم القدرة عن طريق التأثير في البيئة • ويعتبر هذا الحقل جديداً وهو حركة اجتماعية لرعاية المرضى العقليين ، وتحاول هذه الحركة ان تصحح وجهات النظر الخاطئة حول المرض العقلي من خلال ربطه بالبيئة الاجتماعية • ومن اشهر الدراسات التي يمكن الاشارة اليها تلك التي جرت في مدرسة شيكاغو وتناولت توزيع الامراض العقليـة المختلفة على مناطق المدينـة ، والربط بينها وبين المناطق المتخلفة •

١٦ ـ السياسة الصحية :

لقد نمت الرعاية الصحية على أساس التعاون بين الوحدات الحكومية والتنظيمات الطوعية والافراد • ان السياسات الطبية ، والسياسات العامة التي تتصل بالصحة تتداخل مع السياق الاجتماعي ، ومن الضروري فهم هذه العملية ، اذا[٢٩] أردنا ان نفهم كيف تنمو النظم الصحية والسياسات الصحية

وهناك ملاحظات عديدة حول المجالات او الحقول الرئيسـة في علم الاجتماع الطبي والمشار اليها آنفاً :

١ ـ ان هذه المجالات ليست مستقلـة ، عن بعضها بعضـاً بل هي تتداخل بشكل واضح سواء على المستوى النظري ، او على المستوى البحثي •

٢ ـ تتميز بعض هذه المجالات بالحداثة بينما تمتد جذور بعضها الآخر الى الاهتمامات الكلاسيكية في علم الاجتماع •

٣ ـ ان تنوع هذه المجالات يدلل على ان علم الاجتماع الطبي يتميز بكونه علماً تتداخل في اطاره اهتمامات علوم اخرى ، اذ بالاضافة الى الطب نجد إن هذا العلم لا يستغني عن تصورات الانثروبولوجيا ، والطب العقلي ، والتحليل النفسي • كما ان صلته بفروع علم الاجتماع الاخرى تبدو واضحة هي الاخرى، وفي مقدمة هذه الفروع علم اجتماع السلوك المنحرف وعلم اجتماع التنظيم •

(٢٩) Mechanic D, **Medical Sociology : A Selective view** (New York : The Free Press, 1973), PP. 5-9.

٤ – ان المجالات المشار اليها تعتمد على منظورات منهجية عديدة اذ بالاضافة الى الملاحظات الموثوقة ، هناك ايضاً الخبرات الاكلينكية الفنية والدراسات الميدانية والتجارب المعملية ، وتقارير المستشفيات والمؤسسات الطبية الاخرى ، والبيانات الاحصائية .

خلاصة واستنتاجات :

لاشك ان لعلم الاجتماع الطبي دوره الهام في تحقيق المهام الاساسية للانشطة الطبية سواء في وقاية الانسان من المرض او في انجاح العمليات والجهود العلاجية .

ويصبح هذا الدور أكثر أهمية في مجتمعنا حيث التوسع الكبير في انشطة الخدمات الصحية في الريف والحضر ، وحيث تتنوع المؤسسات الطبية (الصحية) وتضمر ، وان لم تختفي كلياً ، الممارسات التقليدية لما يسمى بالطب الشعبي .

لقد أصبح علم الاجتماع الطبي في الدراسات الجامعية مادة شائعة ومهمة في اقطار كثيرة من العالم ، وانشأ السوسيولوجيون اقساماً لهذا العلم في المدارس الخاصة بالتمريض وكليات الطب . كما اصبح علماء هذا العلم اكثر اندماجاً في الدراسات الطبية العليا مما أثر في مضمون وفلسفة الثقافة الطبية ، وساعد في اشتراك السوسيولوجيين الفعّال في وضع السياسات الصحية .

ان هذه الاهمية المتعاظمة لعلم الاجتماع الطبي تبرر الى حد كبير تدريسه كمادة متميزة في اقسام الاجتماع ، وادارة المستشفيات . كما وتبرر قيام مراكز البحوث بدراسة موضوعاته وتعميق اتجاهاته ومنظوراته البحثية والمنهجية وتوضيح اطره المعرفية .

في ضوء ما تقدم يمكن القول ان علم الاجتماع الطبي ، هو أحد الفروع التطبيقية الهامة من فروع علم الاجتماع ، وهو عبر منظوره البنائي ، يدرس صيغ المواقف التفاعلية بين المريض والطبيب ، والسياقات الاجتماعية للامراض الجسدية والنفسية ، كما يدرس بناء ووظائف المؤسسات الصحية ، التي هي

جزء من البناء الاجتماعي ، بالاضافة الى اهتمامه بدراسة العلاقات الانسانية داخل هذه المؤسسات •

لقد تطور علم الاجتماع الطبي تطوراً سريعاً خلال السنوات الاخيرة ، إلا ان علم الاجتماع حتى قبل ان يظهر علم الاجتماع الطبي كفرع متميز ، استفاد من علم البايولوجي كثيراً من خلال تشبيهه للمجتمع بالكائن الحي • وقد استفاد « باجوت » و « جميلوفتش » و « سمول » و « سمنر » من الاتجاهات الدارونية في مجال علم الاجتماع ، كما نقل علماء مدرسة شيكاغو مصطلح الايكولوجيا من علم الحياة • وقد انعكس الاهتمام بالمتغيرات والجوانب الاجتماعية للصحة والمرض على الخدمة الاجتماعية ، ومهدت كظهور الخدمة الاجتماعية الطبية منذ مطلع هذا القرن •

ان علم الاجتماع الطبي يتناول مجالات عديدة لعل أهمها توزيع وأسباب الامراض المختلفة ، والاتجاهات والمواقف الاجتماعية والحضارية ازاء المرض، والجوانب الاجتماعية والحضارية للرعاية الصحية ، وصيغ التفاعل بين الممارسين وأعضاء الفريق الطبي وبين المرضى وذلك بهدف وضع نماذج بنائية لذلك التفاعل • كذلك فان علم الاجتماع الطبي يهتم بدراسة الباثولوجيا الاجتماعية ، اي حالة الانحراف عن الصحة ، كما ويدرس الوفيات ، ونظم الممارسة الطبية ، والمهن العلاجية المختلفة ، والعلاقات الاجتماعية في المستشفيات ، والمؤسسات الصحية في المجتمعات المحلية ، والعلاقة بين التغير الاجتماعي والرعاية الصحية ، بالاضافة الى دراسة الثقافة الصحية ، والصحة العامة ، والسياسة الصحية والعلاقة بين التوترات النفسية والمرض •

ان علم الاجتماع الطبي رغم تقدمه الحثيث ، ما ازل كغيره من فروع علم الاجتماع الاخرى تعاني من مشكلات عديدة لعل أهمها غموض مصطلحاته ومفاهيمه الرئيسة ، وضعف صلته بالنظرية السوسيولوجية العامة ، وتداخله غير المحدد مع بعض فروع علم النفس •

المراجع باللغة الانكليزية

Clinard M, **Sociology of Deviant Behavior** (New York Rinehard, 1968).

David Clark, **Social therapy in Psychiatry** (London : Penguin book 1974).

Duncan Mitchel, "Dictionary of Sociology" (London : Routledge & Kegan Paul, 1973).

Ferguson E. A, **Social work** (New York : Lippincott, 1975).

Freeman and others (ed.,), **Handbook of Medical Sociology** (New Jersey : Prentice - Hall, 1972).

Horton P. & Leste G. R, **The Sociology of Social Problems** (New York : The Free Press, 1970).

Lemert E., **Social Pathology** (New York : McGraw - Hill, 1951).

Mcdonagh E. C. & Simpson, J. (ed.,) Social Problems persistent & challenge (New York : Rinehart, 1965).

Mechanic D, **Medical Sociology : A Selective** view (New York : The Free Press, 1973).

Tuckett David, **An Introduction to Medical Sociology** (London : Tavistock Publications, 1976).

William A. Glaser, "Medical Care : Social aspects", In International Encyclopedia of the Social Sciences, Vol. 10, The Macmillan Company & The Free Press, 1968.

المراجع باللغة العربية :

ابن خلدون ، المقدمة (القاهرة : المكتبة التجارية) .

الدكتور احسان محمد الحسن وسهام بطرس ، صفات المرضة الجامعية ، (بحث ميداني) .

الدكتور احسان محمد الحسن ، قاموس علم الاجتماع (تحت الطبع) ، (تعريب) .

الدكتور قيس النوري ، طبيعة المجتمع البشري في ضوء الانثروبولوجيا الاجتماعية (النجف : مطبعة الآداب في النجف الاشرف ١٩٧٣) .

د . محمد عبدالمنعم نور ، الخدمة الاجتماعية الطبية والتأهيل (القاهرة : مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٧١) .

د . مصباح محمد محمود ، « مسؤولية الاطباء الجنائية » ، بحث مقدم الى مؤتمر المسؤولية الطبية ، ليبيا ، ١٩٧٨ .

عطيات عبدالحميد ناشد وآخرون ، الرعاية الاجتماعية للمعوقين (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٩) .

د . عدلي سليمان واسماعيل رياض ، الخدمة الاجتماعية طرقها ومجالاتها (القاهرة : مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٧٢) .

عودة محمد وآخرين (ترجمة) ، نظرية علم الاجتماع : طبيعتها وتطورها (القاهرة : دار المعارف بمصر ١٩٧٤) .

جوانب من التأثير العربي في اللغة الاسبانية

بقلم : د. حكمة علي الاوسي
قسم اللغة العربية
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

اتم العرب فتح شبه جزيرة ايبيريا كلها خلال اقل من اربع سنوات . فقد بدأ الفتح في رجب سنة ٩٢ هـ وانتهى في اوائل سنة ٩٦ ، وتمت لهم خلال هذه السنوات القلائل السيطرة التامة على هذه الجزيرة الممتدة الاطراف ، بسرعة وصفت من قبل بعض الباحثين بانها تشبه سرعة البرق[(١)]، وبجرأة وسهولة نادرتين . ولقد حيرت هذه الظاهرة دائما مؤرخي العصور الوسطى ، ولا تزال حتى اليوم تبدو لبعض المتخصصين حدثا غير معتاد ، وظاهرة خارقة لطبائع الاشياء ، حتى لقد اضطر بعضهم ، في معرض تفسير اسبابها ، الى ان يطلق عليها تعبير « معجزة تاريخية »[(١)] .

وهناك ظاهرتان اخريان تبدوان غريبتين ايضا وخارجتين عن المعتاد والمألوف الاولى هي ظاهرة انتشار اللغة العربية وسمات الحياة العربية الاسلامية انتشارا سريعا وواسعا حتى لقد غطت شبه الجزيرة الشاسعة خلال قرن وبعض قرن بعد الفتح العربي . وربما كانت هذه الظاهرة تفقد مبررات غرابتها وخروجها عن المألوف المعتاد لو كان تعداد العرب الذين دخلوا ، مع

---

(١) Ernesta Barker: "Las cruzadas". En: "El legado del Islam", Madrid, 1947, p. 54. Levi-Provençal: "Espana Musulmana . . . ", Madrid, 1957, t. IV, p. 3.

مشيرا في الهامش الى كتاب :

F. Lot: "Les invasiones barbares", Paris, 1937, p. 14.

وانظر ايضا : حسين مؤنس : فجر الاندلس ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص١١٨ .

الفتح وبعده ، الى شبه الجزيرة ، يشكل نسبة كبيرة بالقياس الى السكان الاصليين فيها . ولكن الثابت ان اعداد صرحاء العرب الذين دخلوا الجزيرة لا يمكن ان يتجاوز باي حال من الاحوال الثلاثين الفا .

وحتى لو ذهبنا مع محاولة الدكتور حسين مؤنس في حل هذه « المعضلة التاريخية » كما دعاها ، اذ استخرج معدلا لنسبة التكاثر العربي يكون بمقتضاه لكل فرد عشرة ابناء ، لما تجاوز عدد الجنس العربي في جزيرة الاندلس ٣٠٠ الف ، بعد ـ عشرين سنة من دخولهم اليها ـ ؛ وهذا التقدير لايقدم تفسيرا كاملا لهذه الظاهرة وان كان يجعلها ادخل في باب الامكان[٢].

اما الظاهرة الثانية فهي هذا الازدهار الثقافي والعلمي الباهر والسريع والذي ظهرت بواكيره في اواسط المائة الثالثة للهجرة اى بعد قرن ونصف تقريبا من دخول العرب الى الاندلس . وتتجلى مظاهر هذا التقدم العلمي المبكر في جملة من الشخصيات والاحداث العلمية مثل آراء ابي عبدالرحمن بقي بن مخلد (توفي سنة ٢٧٣ او ٢٧٦ هـ ـ ٨٨٩ م) الفقهية التي كونت مذهبا خاصا به لم يتبع فيه مذهب المالكين ولا الشافعيين . وكان فيه «متميزا لا يقلد احدا »[٣] ، وآراء ابي عبيدة مسلم بن احمد بن ابي عبيدة البلنسي

---

(٢) راجع : حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦ .

(٣) انظر عنه : المقري نفح (ط . محيي‌الدين عبدالحميد) ٣/٢٧٤ . وابن عذارى : البيان المغرب ٢/١٦٣ ـ ١٦٤ (بيروت ١٩٤٨ ـ ١٩٥٠) والذهبي : سير اعلام النبلاء ، الجز الاول ، تحقيق د. صلاح‌الدين المنجد . ذخائر العرب (١٩) والجزء الثالث تحقيق : ابراهيم الابيارى ، القاهرة ١٩٥٧ ، ٣/١ و ١٥ و ٤٤ و ٤٦ و ٢٧٦ و٢٨٨ و ٢٩١ و ٣٦١ و ٣/٢٩٩ و ٣٤٧ . والحميدي : جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس ، تحقيق : محمد بن تاويت الطنجي . القاهرة ١٣٧١ هـ ، ص ١٢ . والسيوطي : طبقات المفسرين (ليدن) رقم (٢٥) وحسين مؤنس : شيوخ العصر في الاندلس ، القاهرة ١٩٦٥ ص ٤٥ ـ ٤٦ ومحمود علي مكي : دراسات عن التيارات الثقافية المشرقية في الاندلس (بالاسبانية في صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد . المجلدان ١١ و ١٢ ، ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤) ص ٣٣ ـ ٣٦ . وحكمة علي الاوسي : فصول في الادب الاندلسي ... (بغداد ١٩٧٤) ص ٤٦ و ٥٠ .

(توفي سنة ٢٩٥ هـ) المعروف بصاحب القبلة ، في تقرير كروية الارض ودورانها في فلك لها مرسوم ، وابتكارات عباس بن فرناس وتجاربه العلمية الرائعة [٤] ، واختراع الموشحات من قبل مقدم بن معافى القبري (من شعراء القرن الثالث الهجري) ، واستحداث الاراجيز التاريخية من قبل يحيى بن الحكم الغزال (١٥٦ــ٢٥٠ هـ) وابن عبد ربه (٢٤٦ــ٣٢٩ هـ) ، وآراء ابن مسرة الفلسفية التي تعتبر بداية التفكير الفلسفي الاصيل في الاندلس الاسلامي [٥] .

وفي محاولة تفسير هذا التقدم العلمي الباهر وهذه الاصالة العلمية المبكرة يعزو معظم المؤرخين الاسبان،وبحماس وتعصب ، هذه النهضة الفكرية تحت ظل الحكم العربي الاسلامي الى ما يرونه من تقدم ثقافي وعلمي وفني يقولون انه شمل نواحي الحياة المختلفة في المجتمع الاسباني خلال العصر القوطي ، لذلك فان البلاد الاسبانية ،في نظرهم ،كانت سائرة في طريق النهوض من قبل مجيىء العرب اليها وانها كانت ستصل حتما الى حالة ازدهار علمي ونهضة شاملة كهذه التي نراها في ظل الحكم العربي الاسلامي خلال القرن الثالث الهجري وما بعده . اذن فالفضل في هذا لا يرجع للعرب وحدهم ، وانما يعود جانب كبير منه ، في نظر هؤلاء ، الى البيئة الثقافية الخصبة التي كانت تتمتع بها البلاد ليس في عهد القوط الغربيين فحسب بل منذ عهد الفينيقيين والقرطاجنيين ثم الرومان الوثنيين من بعدهم ، واتصلت هذه الخصوبة الثقافية بعد انتشار المسيحية في شبه الجزيرة وبقيت معالم مضيئة منها الى عهد القوط الغربيين الذين قوض الفتح العربي حكمهم وصبغ البلاد

---

(٤) انظر عن تفاصيل ابتكاراته وتجاربه العلمية : حكمة الاوسي : المرجع المذكور ص ١١٣ — ١١٤ .

(٥) انظر : پالينثيا : تاريخ الفكر الاندلسي ، ترجمة د . حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٣٢٦ .

بالصبغة العربية الاسلامية الى جانب الصبغة اللاتينية الرومانية التي كانت طاغية من قبل [٦] •

والواقع اننا لا نملك ، حتى الان ، اى دليل تاريخي يؤيد هـذا الرأي الموغل في المبالغة والتعصب ، وان المنصفين من المؤرخـين الاسبان انفسهم يميلون الى الرأي القائل بان الحالة الاسبانية قبل الفتح العربي لا مجـال لمقارنتها بما وصلت اليه البلاد تحت الحكـم العربي من تقـدم وازدهـار عظيمين [٧] •

يؤيد هذا اننا لا نجد لتلك البقايا الثقافية القديمة المفترضة اثرا يذكر في الثقافة العربية في الاندلس • ولم يكن هذا الازدهار العلمي والفكـري والثقافي العام الذي شاع في ربوع الاندلس العربي الا امتدادا لاصوله ، ونسغا صاعدا من جذوره العريقة العميقة في المشرق • وان تيارات الثقافـة العربية الاسلامية المشرقية هي التي طغت لوقت طويل على الغرب الاسلامي، عامة ، والاندلسي ، خاصة ، قبل ان تظهر اشعاعات العطاء الفكري الاصيل في اسبانيا الاسلامية •

---

(٦) انظر : حسين مؤنس : فجر الاندلس ص ٢٤ ـ ٢٥ والفصل الاول من الدراسة « اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية » ، التي اعـدت باشراف مركز تبادل القيم الثقافية في الشعبة القومية لليونسكو فـي الجمهورية العربية المتحدة بالتعاون مع منظمة الامم المتحدة للتربيـة والعلوم والثقافية (اليونسكو) ، القاهرة ١٩٧٠ ص ٣٢ ، والفصـل الاول هذا بقلم د. سهير القلماوي و د. محمود علي مكي وسأحيل اليه بهذا الاختصار : القلماوي • وراجع ايضا :

Manuela Manzanares de Cirre: "Arabistas espanoles del siglo XIX." Madrid, 1972, p. 140.

وقد احال الى :

F.J. Simonet: "De la influencia del elemento indígena en la civilizcion arábiga hispana", "La ciudad de Dios", IV, 1870, pp. 5-14, 92-101.

(٧) حسين مؤنس : فجر الاندلس ص ٢٥ •

ولقد احتفظ لنا المقري في كتابه الجليل « نفح الطيب » باخبار الاندلسيين الذين رحلوا الى المشرق طلبا للعلم وما جاءوا به معهم عند العودة من معارف وعلوم عكفوا على اشاعتها بين الاندلسيين ، واخبار اولئك المشرقيين الذين وفدوا على الاندلس بما كان معهم من معارف وعلوم وكتب في مختلف فروع المعرفة من لغة وادب ودواوين شعر وعلوم قرآنية وعلوم رياضية وجغرافية وفلكية وطبيعية [٨] ... الخ فكان ذلك كله العناصر الاساسية لتكوين القاعدة العلمية والفكرية والثقافية في المجتمع الاندلسي .

ومما لا شك فيه ان ما امتاز به الفكر العربي من سماح وانفتاح على كل عطاء حضاري تسنى له الاتصال به ، كان له ابعد الاثر في هذا التقدم والنضوج الفكري السريع الذي شهدت به للفكر العربي الاندلسي كل الدراسات الموضوعية المتخصصة . يضاف الى ذلك كله اصالة التراث العربي ومتانة اسسه الفكرية ونضج اللغة العربية واستقرارها على قمة عالية من التطور والمرونة والمطاوعة لاستيعاب كل عطاء فكري ونتاج حضاري ، الشيء الذي جعلها ، بحق ، لغة الاتصال العلمي ، خلال العصور الوسطى ، منذ القرن الثامن الميلادي حتى القرن الثالث عشر . ولقد فاقت اللغة اللاتينية ، في هذا الشأن ، بمراحل كبيرة [٩] . بل ان بعض الباحثين يقرر أن العربية عميدة اللغات جميعا منذ قرون لا تحصى [١٠] .

---

(٨) راجع الباب الخامس والسادس من كتاب نفح الطيب عن هذه الرحلات العلمية .

(٩) راجع في هذا :

F. Codera: "Estudios críticos de historia árabe espanola" (seguda serie), T. VIII, Madrid, 1917, pp. 3-4.

(١٠) "El legado del Islam", 2 ed., Madrid, 1947, p. XI.

انتشرت اللغة العربية في الاندلس انتشارا سريعا وواسعا بين الاسبان المعايشين للعرب ولم يكن قد مضى على الفتح العربي نصف قرن من الزمن. ويبدو ان ظاهرة استعراب الاسبان كانت تسبق دخولهم الى الاسـلام في اغلب الحالات ، فكان عجم الاندلس يختلطون بالعرب فيأخذون عنهم لغتهم واسلوب حياتهم ، وكانوا ، في نفس الوقت ، يحتفظون بحريـة تامـة في ممارسة شعائرهم الدينية المسيحية ، ثم كان يسلم من يشاء ذلك شيئا فشيئا. ولدينا نصوص لاتينية معاصرة تثبت هذا وتبين ان قسما كبيرا من المثقفين المسيحيين في قرطبة كانوا راضين من اوضاعهم الاجتماعية تمام الرضا ، وان كثيرا منهم كانوا ينضمون الى الجيش العربي وان آخرين كانوا يتولون مهاما في بلاطات الامراء العرب تدر عليهم عوائد مجزية . وكانوا يقلدون العرب في كل شيء ، ويقبلون على اللغة العربية والادب العربي بنهم ، ويحتقرون اللغة اللاتينية وآدابها ايما احتقار [١١] بل ان لدينـا ما يبين ان الاسـبان المستعربين من سكان الثغور الجبلية البيرينية ، مثلهم مثل المسيحيين الذين كانوا مستقلين في بامبلونه وسكان برشلونه التي كانت تابعة للعرب ، كانوا جميعا يؤيدون الحكم العربي تأييدا قويا ويفضلون ان يكونوا في ظل الاسلام على ان يخضعوا للفرنسيين المسيحيين[١٢] .

---

(١١) R. Dozy: "Historia de los musulmanes de Espana", Barcelona, 1954, I. pp. 260-61. Julian Ribera y Tarrago: "Disertaciones y opusculos", Madrid, 1928, T. I, p. 28. "The Cambridge histrory of Islam", Vol. II, p. 851.

حسين مؤنس : فجر الاندلس ٤٢٤ و ٤٢٨ والقلماوي : ص ٣٢

(١٢) R.M. Pidal : "La Chanson de Roland y el Neotradicionalismo", Madrid, 1959, p. 185.

على ان اللغة العربية الفصحى لم تكن هي اللغة الوحيدة المستعملة بين الاندلسيين . فمنذ القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) او الثالث الهجري على الاكثر ، حتى القرن التاسع (الخامس عشر الميلادي) كانت هناك الى جانب العربية الفصحى لهجات اعجمية دارجة فيها عناصر من الايبيرية والعربية ، ولكن الغالب عليها كان الطابع اللاتيني . وكانت هناك ازدواجية لغوية بين عامة الشعب الاندلسي المكون من خليط من العناصر المختلفة . فلم تكن العربية الفصحى لغة الادب والفكر للمسلمين الاندلسيين فقط بل كانت ايضا لغة الثقافة والادب للمسيحيين الاسبان المعايشين للعرب وللمثقفين منهم خاصة .

وكان في هذا المجتمع الاندلسي ذي العناصر القومية المختلفة ، الى جانب العربية الفصحى ، اللاتينية الفصحى وكان مجال استعمالها ضيقا ، اذ كانت لغة الطقوس الدينية ، وفي احيان قليلة لغة ادبية في بعض المناطق القليلة .

والى جانب هاتين اللغتين الفصيحتين كانت هنالك لغتان دارجتان هما العربية الاندلسية الدارجة ، واللاتينية الدارجة وهي التي كانت تعرف بالروماثية والتي تطورت عنها اللغة القشتالية او الاسبانية . وكانت هاتان اللغتان الدارجتان مستعملتين في الشؤون اليومية بين العرب والاسبان الاندلسيين على السواء . ولدينا شواهد تاريخية ثابتة على هذا من ابرزها ديوان ازجال ابن قزمان ، ونص لابن حزم الاندلسي عن لغة احدى القبائل العربية التي كانت تسكن في ضواحي قرطبة (١٣) .

---

(١٣) انظر : ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٤٤٣ (الطبعة الثالثة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧١) .

J. Ribera : Ibid, p. 34.

وانظر : بروفنسال : حضارة العرب في الاندلس (الترجمة العربية) ص ٧٦ — ٧٧ .

وعن طريق هذه المعايشة الاجتماعية والثقافية المتصلة ، وما نتج عنها من ازدواجية لغوية كونت الطابع المميز للاندلس العربي ، كانت عملية التأثير والتأثر والتبادل الثقافي والفكري تتم على نطاق واسع وعميق . وساعد على ذلك ، بطبيعة الحال ، ان العرب الذين دخلوا الى الاندلس لم يجلبوا معهم عوائلهم العربية من المشرق ، بل كانوا رجالا محاربين ، وحينما استقر بهم المقام كان من الامور الطبيعية ان يتخـذوا لهم ازواجـا من بين النسـاء الاسبانيات ، فكانت عملية التزاوج هذه ، وما نتج عنها من تكاثـر نسبة المولدين : اي ابناء العرب من امهات اسبانيات ، من العوامل القوية في صبغ المجتمع الاندلسي بالطابع العربي الرومانتي ، اذ كان الجيل الناشيء عن هذا التزاوج يستمد من امهاته ما كان بينهن من ثقافة شعبية متوارثة عن الاجيال الايبيرية السابقة ، ويستمد من آبائـه العرب ما تزخـر به لغتهم الفصحى والعامية الاندلسية من مفاهيم وتراث وتقاليد وعادات اجتماعيـة وآداب وتعاليم دينية ... الخ .

ومما لاشك فيه ان التأثير العربي الثقافي والفكري والادبي في المجتمع الاسباني الوسيط وفي مجتمع البروفنسال ، ثم انتشاره عن هذين الطريقين الرئيسين الى سائر انحاء اوربا ، كان يتم عن طريق النقل الشفهي قبل ان تتيسر له امور النقل عن طريق الترجمة التحريرية المنظمة . فاذا تجاوزنـا الحديث عن امور هذا التأثير في اسبانيا حيث كان تأثيرا يوميا متصلا على مدى اجيال طويلة ، « فانه من الصعب على اي باحث (كما يقرر جوستن سميث) ان يشك في عمق التأثيرات العربية في الشعب البروفنسي الذي كان جارا لهذا الشعب العربي الذكي البارع ذي الثقافة المصفاة والمتفوقة ، وذي الروحية المتألقة العالية ، بما طبع الفكر البروفنسي الحساس وذي القابليـة السريعة لتقبل التأثير ، بالطابع العربي ، ثم بما لوّن انتاجـه الادبي بنفس

الالوان »[١٤] ، خصوصا اذا ما تذكرنا ان كلا من العرب والبروفنسال كانوا يعبرون الحدود باستمرار ، فكان الشعبان والمجتمعان على اتصال دائم ببعضهما .

والى جانب هذه التأثيرات العربية في المجالات الاجتماعية والفكرية والثقافية بعامة ، تقرر الدراسات نواحي اخرى من التأثيرات في ميادين العلوم والاداب والفنون والفلسفة والتصوف ،والتصنيف والتبويب العلميين، والمعاجم والدراسات اللغوية ومعاجم الرجال والبلدان وتاريخ السير .. الخ، والانتقال في مجال البحث العلمي في العلوم الطبيعية والطبية من نطاق البحث النظري الى اساليب التجريب العلمي وتطوير المعرفة العلمية الموضوعية[١٥] الشيء الذي يعتبر نقلة نوعية حاسمة تشكل حدا فاصلا بين عصرين في تاريخ التقدم العلمي ، واعتماد اسلوب الاجتهاد في الفكر الديني المستمد اساسا من التوجيهات القرآنية في الحث على اعمال العقل والتدبر في الشؤون الدينية والدنيوية على السواء ، كما في الآيات : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم واتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » (البقرة / ٤٤) ، ولقد ترددت الآيات التي فيها حث الناس على أن « يعقلوا » اكثر من اربعين مرة . وقوله تعالى « وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » (الحشر / ٢١) ، وقد ترددت الآيات التي تحث الناس على أن « يتفكروا » سبع عشرة مرة .

---

(١٤) Justin H. Smith: "The troubadours at home", New York & London, 1899, Vol., I, pp. 330—331.

H.A.R. Gibb : "El legado del Islam", 2 ed., Madrid, 1947, pp. 253, 255.

وانظر عن انتقال التأثير العربي عن طريق النقل الشفهي : القلماوي ص ٢٤ و ٢٩ و عبدالواحد لؤلؤة : «ملامح عربية في بواكير الشعر الانكليزي». في مجلة « آفاق عربية » السنة الثالثة ، العدد (٢) ، تشرين اول ، ١٩٧٧ ، ص ٨٧ و ٩٥ .

(١٥) R. Taton : "History of science. Ancient and medieval science . . . ", New York, 1963, p. 395.

وقوله تعالى « أفلم يدّبروا القول ام جاءهم مالم يأت آباءهم الاولين » (المؤمنون / ٦٨) ، وقد وردت اربع آيات في الحث على التدبر ، وما كفله الاسلام ، ولا سيمافي الاندلس ، من حرية التعبير عن الاراء الدينية ووضعه حدا للاضطهادات التي كانت تمارس باسم الدين ، اذ ترك المسلمون من شاء من المسيحيين ان يظل على دينه حرا في ان يفعل ما يشاء ، فلم يعد للبابوية ولا لرجال الدين مجال لملاحقة من يخالف راي الكنيسة ، فاضطروا الى الاخذ باسلوب المجادلة ومحاولة الاقناع ومناقشة الاراء المطروحة ، وهذا يخالف تماما ما كان يجرى من قبل اذ كان مصير من يخالف الرأي الرسمي للكنيسة والمجامع الدينية القتل والتشريد والسجن . كان لهذا كله ، تأثيره الواضح في ظهور العديد من الاراء المخالفة للكنيسة خلال عصور الحكم الاسلامي[١٦] . ولقد ذهب سيمونيت وبعض الباحثين الآخرين الى القول بان « كل ما ظهر بين نصارى الاندلس خلال العصور الاسلامية من آراء مخالفة لرأي كنيسة روما انما كان اثرا من آثار الاسلام في نصارى الاندلس » [١٦] . ولكن د . حسين مؤنس لا يرى ان ذلك كان لازمة ضرورية نتيجة ما اتاحه الاسلام من حرية فكرية ودينية [١٧] .

كان لكل هذا ، اي : للتأثيرات العربية في ميادين العلوم المختلفة ، ولاسلوب الاجتهاد في الفكر الديني ، وضمان حرية التعبير عن الاراء الدينية والعقائدية وللتسامح العجيب الذي اشاعه الحكم العربي الاسلامي في المجتمع الاندلسي ، والذي « لا تكاد الازمنة الحديثة تعرض مثيلا له علينا » كما يقرر ذلك حتى رينان ، تأثير عميق ، دون شك ، لا على الفكر الاسباني حسب ، بل على مجمل القضايا الفكرية والثقافية لاوربا العصور الوسطى وعصر النهضة ايضا [١٨] .

---

(١٦) حسين مؤنس : فجر الاندلس ص ٤٧٣ ــ ٤٨٦ .

(١٧) نفس المرجع ص ٤٨٦ ــ ٤٨٧ .

(١٨) انظر : القلماوي ص ٢٥ ، ورينان : « ابن رشد والرشدية » ، نقله الى العربية : عادل زعير ، القاهرة ، ١٩٥٧ ص ٢٥ .

واذا كان تحديد مواطن التأثير العربي قد تم في كثير من المجالات العلمية (١٩) والادبية واللغوية ، فان تحديد ذلك في القضايا الروحية والعقائدية وامور الفكر عامة لتكتنفه الكثير من الصعاب في العثور على النصوص التي تعينه بدقه ، وان كان هناك شبه اجماع بين الباحثين الموضوعيين على حقيقته . ذلك ان التيارات الروحية ليست من الاشياء التي يمكن ان يقال عنها انها تكتسب او لا تكتسب ، كما هو الشأن في الاموال

---

(١٩) اكتفي بالاشارة هنا الى بعض الدراسات الغربية عن التأثير العلمي العربي في اوربا واسبانيا ، واضافات العرب الى المعرفة العلمية ، اذ ان الخوض في هذا الموضوع ليس من اهتمام دراستنا هذه . انظر في ذلك :

1. Louis Viardot : "Histoire des Arabes et des Mores d'Espagne". Paris, 1851, Tome II, pp. 167—225.
2. Justin H. Smith "The Troubadours at home". New York & London, 1899, Volume II.
3. Charles Singer and others : "A history of technology", Volume II, "The mediterranean civilizations and Middle Ages . . ." Oxford, 1956.
4. S. P. Scott : "History of Moorish Empire in Europe". Philadelphia & London, 1904, Three volumes.
5. Rene Taton : "History of science. Ancient and medieval science" New York, 1963.
6. Filding H. Garrison : "An introduction to the history of medicine" 2 ed. Philadelphia & London, 1917.
7. Paul Kunitzsch : "Arabische sternnamen in Europa". Wiesbaden, 1959.
8. F. Wüstenfeld (Editor) : "A history of technology". Göttingen, 1848.

(فيه توضيح موثق للتأثير العربي في اوربا في كل المجالات العلمية والصناعية) .

9. James Westfall thompson & Edgar Nathaniel Johnson : "An introduction to medieval Europe 300—1500" New York, 1937.

او الامراض او الاخبار [٢٠] اذ لا يمكن ، في مجالات العلوم الروحية اثبات شيء بشكل قاطع بات ·[٢١] ·

ان في تراثنا القومي الكثير من المبادىء العلمية وقواعد السلوك الاجتماعي التي تنظم الحياة الاجتماعية وترتقي بها ، نراها اليوم تكون اساس الحياة العلمية والاجتماعية لاوربا المعاصرة خاصة ، والدول المتقدمة عامة ، ولا نكاد تتبين لها اثرا في سلوكنا الاجتماعي او العلمي ، اليوم ، وان كانت تتردد في المناسبات ، على السن بعض الاساتذة والمصلحين الاجتماعيين على شكل اقوال مأثورة او احاديث نبوية او حكم مرشدة · وليس سهلا على البحث العلمي الاجتماعي ولا على الدراسات الفكرية المقارنة ان تتبين اصول الكثير من هذه الافكار او ان تحدد روافد تسربها من موطن او من حضارة الى اخرى ، وتعين ما طرأ عليها من تعديل او تحريف باضافة نافعة او نقص مخل ·

فمن المفاهيم العلمية في تراثنا ما لا يزال يشكل مبادىء علمية معتمدة في اسس التفكير العلمي العام ، وما كان ولا يزال ذا اثر فعال في تطوير المعرفة العلمية في مختلف مجالاتها · وكثير من هذه المفاهيم لا نزال نردده دون ان نفهم له معنى مؤثرا في السلوك · من ذلك مثلا : هذه الاحاديث النبوية الشريفة : « اطلب العلم من المهد الى اللحد » و « اطلب العلم ولو في الصين » و « كن عالما او متعلما ولا تكن الثالثة فتهلك »[٢٢] ·

---

(٢٠) Karl Vossler : "Algunos caracteres de la cultura espanola", 4 ed., Madrid, 1962, p. 102.

(٢١) R.M. Pidal : "Poesía árabe y poesía europea", 4 ed., Espasa-Calpe, Madrid, 1955, p. 68.

(٢٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ ، ٢/٢٩٤ ·

وليس هناك في مبادىء العلوم القديمة ولا الحديثة اروع ولا انفع من هذا المبدأ العلمي البسيط في مبناه الخطير في معناه ، والمتمثل في هذا الحديث النبوي الشريف : « لا يزال الانسان عالما ما طلب العلم ، فاذا ظن انه قد علم فقد جهل »[٢٣] • وهذا هو المبدأ العلمي المعتمد بين العلماء في كل الدنيا، اليوم ، اذ ليس هناك حد للعلم يقف عنده علم العلماء •

ولا ينبغي ان نردد هذه الاحاديث النبوية لصدورها عن نبي نجله ، بل لما فيها من مبادىء علمية مقررة اكدتها خبرات الانسان وعلمه عبر التراث العلمي العالمي للانسانية •

واحب ان اشير ، بايجاز ، الى مبدئين اثنين يتعلقان بضبط السلوك وتقويمه وصولا بالحياة الاجتماعية الى مستوى متقدم ، ومبدئين اثنين يتعلقان بطريقة الحصول على الحقائق العلمية الثابتة • اما المبدأ الاول الذي يضبط السلوك ، فيتمثل في الآية القرآنية « ولكم في القصاص حياة ••• »[٢٤] على الا نفهم من « القصاص » معنى العقاب الجائر الذي لا يصدر عن حكمة وتعقل ، بل نفهم منه الحساب القضائي الذي يزن المخالفات الاجتماعية بموازين علمية قانونية تصنف المخالفة تحت انواع متدرجة : من مخالفة الى جنحة الى جناية متعددة الانواع والدرجات بحسب خطورتها على الكيان الاجتماعي ، ويترتب على ذلك تدرج انواع العقوبات على حسب درجات الخروج على قواعد النظم الاجتماعية ، فلا تعاقب المخالفة بعقاب الجناية ولا تحاسب الجناية بحساب المخالفة او الجنحة •

ونفهم من «القصاص» في مجال الاعمال الادارية نظاما متسلسلا متدرجا من الروادع الانضباطية تشتد وتعظم بحسب شدة المخالفة وعظمها • بهذا يردع المخالف والجانح والجاني والمجرم عند حدود مقررة ، ويكون عبرة لمن يراوده اثم بجنوح او جناية او جريمة • وبهذا يطمئن الانسان المستقيم

---

(٢٣) نفس المصدر ٢/٢٠٩ •

(٢٤) سورة البقرة ، الآية (١٧٩) •

على حقوقه ومستقبله وحياته فيزداد نشاطه في خدمة واجبه ومجتمعه ، فينتفع المجتمع بذلك ايما انتفاع وتنفتح امامه سبل التقدم والحياة الكريمة .

ان هذا مبدأ عام واساس في مبادىء الضبط الاجتماعي ، لا يمكن بدونه ان تقوم لمجتمع حياة . ولن تجد دولة متقدمة ، على اختلاف النظم الاجتماعية ، الا وجدت هذا المبدأ الرائع ملتزما في اسس نظامها ، ومطبقا على افراد شعبها دونما تمييز ، فهم متساوون امامه كاسنان المشط . وهو ملتزم ومطبق بقدر كبير من الحزم العادل في الشارع حيث يسعى الناس لامور حياتهم اليومية ، وابرز ما يظهر هنا في قواعد المرور والحرص على تطبيق النظام على المخالف لها . وهو ملتزم في المعمل حيث يكون الانتاج المنضبط عامل قوة وتقدم وازدهار للشعب وللدولة على السواء . وهو ملتزم في المدرسة والمعهد والجامعة حيث يكون النظام عامل دعم للعلم ، وارتقاء للفكر ، واغناء للثقافة والمجتمع .

اما المبدأ الثاني فهو المتمثل في الآية القرآنية التي تجعل العمل المقياس الوحيد للتفاضل بين الناس دونما اعتبار لحسب ولا نسب ولا نشب ولا التفات الى جنس او لون او شكل :«ان اكرمكم عند الله اتقاكم»[٤٢٤] . بهذا تتكاتف جهود كل العاملين من افراد المجتمع لخدمته والارتقاء به .

اما المبدأ الاول المتعلق بطريقة من طرق الحصول على الحقائق العلمية ، فنراه في الطريقة التي اعتمدها عباس بن فرناس (توفي سنة ٢٧٤ هـ ـ ٨٨٥ م) حينما اراد ان يثبت عمليا ما توصل اليه نظريا من امكان طيران الانسان في الجو اذا ما كيف جسمه بموجب القوانين الفيزيائية التي تجعل الطائر يطير . فأجرى تجربة علمية بنفسه وطبقها على نفسه بعد ان كيف جسمه بما جعله كجسم الطائر ، واختار مكانا معينا للقيام بالتجربة الفريدة، فصعد على مرتفع من الارض عال وقذف بنفسه الى الجو امام خلق كثير ،

---

(٤٢٤) الحجرات (١٣) .

فنجحت التجربة بان استطاع التحليق مدة وطار في الجو الى مسافة بعيدة . فكان اول انسان يطير فعلا ، بعد ان كان الطيران حلما من احلام الانسانية، تنسج حوله الاساطير وتخترع الحكايات عن طيران السحرة والساحرات على مكنسة او بساط . فسن ، بذلك ، ابن فرناس ، سنة علمية لها اهميتها البالغة في التقدم العلمي ، تلك هي سنة اجراء التجارب العلمية على النفس. او ليس هذا نفسه هو ما فعله كرستوفر كولومبس في حقل الاكتشـافات الجغرافية ، بعد ستة قرون من تجربة ابن فرناس ؟[٢٥] ولابد ان نذكر هنا مغامرات الاخوة المغرورين ، واعتقادهم بوجود ارض في غرب بحر الظلمات ومحاولاتهم العلمية الاستكشافية الرائدة التي كادت تكلفهم حياتهم ، وقـد اكتشفوا ، فعلا ، بعض الجزر في خضم هذا المحيط الرهيب . ويعتقـد بعض المتخصصين في جغرافية القرون الوسطى « ان هذه الرحلة ربما ساهمت في الحث على الرحلات المتأخرة التي قام بها الملاحون الاوربيون في المحيط الاطلنطي »[٢٦] . ولقـد سبقهم ، في هذا ، رجل من اهل الاندلس يدعى « خشخاش » ، اذ قام بمغامرة ناجحة في هذا البحر المحيط فغاب فيه مدة ثم عاد بغنائم كبيرة ، « وخبره مشهور عند اهل الاندلس »[٢٦] .

اما المبدأ العلمي الثاني فقد سنه ابن فرناس ايضا حينما صنع نموذجا آليا للسماء بظواهرها الطبيعية المختلفة من شمس وقمر ونجوم وليل ونهار وغيوم ، ورعود وبروق ومطر ، فوضع بذلك سنة علمية بالغة الاهميـة في شرح الحقائق العلمية وتقريبها الى الاذهان . وهذا ما نـراه ، اليوم ، في ادوات التجارب المختبرية المتنوعة التي لا تستغني عنها مدرسة ولا جامعة(*)

---

(٢٥) انظر : حكمة الاوسي : فصول في الادب الاندلسي ، بغداد ، ١٩٧١ ص ١١٣ ـ ١١٤ والمصادر المذكورة في الهوامش

(٢٦) انظر تفاصيل ذلك في : اغناطيوس كراتشكوفسكي : تاريخ الادب الجغرافي العربي . نقله الى العربية : صلاح الدين عثمان هاشم . القسم الاول ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ١٣٦ ـ ١٣٧ .

(*) انظر : حكمة الاوسي : فصول في الادب الاندلسي ص ١١٣ ـ ١١٤

فهل كان لهذه السنن والمبادىء العلمية في تراثنا العربي الاسلامي اثر في الفكر العلمي الاوربي الوسيط ، انتقل الى الاوربيين عن طريق الترجمة المنظمة او الفردية او عن طريق اتصالهم العلمي المباشر بحضارتنا وتراثنا ومعاهدنا العلمية في الاندلس ، التي كانوا يرسلون اليها البعثات المنظمة ، كما نفعل نحن اليوم ، للاغتراف من العلوم والعودة بما يحصلون عليه لتدريسه في مراكزهم العلمية التي كانت مبتدئة آنذاك ، والافادة منه في تقويم المفاهيم وتأسيس المبادىء العلمية واغناء الذهن والثقافة ؟

لا احد يستطيع ان يقرر ، ولا ان ينفي ، ذلك بطريق القطع العلمي البات وان كان هناك اجماع بين الباحثين العلميين الموضوعيين على ان العرب كانوا اساتذة للاوربيين في كل شيء ، وان اوربا العصور الوسطى اخذت عن العرب كل شيء من العلوم والفنون والاداب والصناعات والافكار الفلسفية والصوفية وآداب السلوك ، وروح الفروسية ، واحترام المرأة ، والحب العفيف الطاهر (**) ... الخ ثم طورت ما اخذت واضافت اليه وبنت على ذلك كله حضارتها وتكنولوجيتها المعاصرتين .

(**) انظر في ذلك :

1. "The Cambridge history of Islam", Vol. II, p. 851-868.
2. "Justin H. Smith : "The Troubadours at home", II, pp. 201. 286, 328—331.
3. Aziz Ahmed : "A history of Islamic Sicily", At Edinburgh, University Press, 1975, Chapter XI.
4. S.P. Scott : Op. cit., Vol. III, pp. 2—3, 516—533
5. Louis Viardot : op. cit., II, pp. 167—168.
6. Karl Vossler : "Algunos caracteres de la cultura espanola", Madrid, 1962, pp. 93—95, 133—116
7. James Westfall Thompson & Edgar Nathaniel Johnson : op. cit. pp. 153 ff.

لقد كان الاب خوان اندريس (في القرن الثامن عشر) اول من اشار الى الاثر العربي في الثقافة الاسبانية ، خاصة ، والاوربية عامة . ولكنها كانت اشارة سريعة وقصيرة . وكان معذورا في ذلك اذ لم يكن هنالك من المراجع الا فهرس المخطوطات العربية في مكتبة الاسكوريال ، الذي وضعه ميخائيل الغزيري اللبناني الاصل ، في مجلدين بعنوان : « المكتبة الاسكوريالية العربية الاسبانية » ونشره سنة ١٧٧٠ م .

فقد الف الأب اندريس كتابا بالايطالية بين سنتي ١٧٨٢ و ١٧٩٨ وسماه « اصول الادب عامة وتطوراته وحالته الراهنة » ، ثم ترجم الى الاسبانية باسم :

((Origen, Progreso y estado actual de toda la literatura))

---

8. **Juan Vernet Ginés : "Los musulmanes espanoles". Ed. Barcelona, 1964.**

9. **Angel Gonzalez Palencia : "Influencia de la civilizacion árabe". Madrid, 1931.**

10. **Charles Singer & others : "History of technology". Vol. II, pp. 198-199, 284-86, 355-56, 369-72, 614-616, 678-80, 731-56, 766.**

11. Otto Spies : "Orientalische kultureinflusse im abendland". **Baitrage zum geschicht-sunterricht. Quellen und unterlagen für die hand des Lehrers" (Albert Limbach) Branschweig.**

(لم يتسن لي ان اراجعه ، بل قرات عرضا له في : صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، المجلدان السابع والثامن . مدريد ١٩٥٩ ــ ١٩٦٠ ص ٣٧٧ وقد ترجموا عنوانه هكذا : « الاثار الثقافية الشرقية في الحضارة الغربية . مراجع ومواد للدرس ») .

12. **Arnald Steiger : "Funcion espiritual del Islam en la Espana medieval", Revista del Instituto de estudios islámicos en Madrid, Vol. VI, Madrid, 1958. pp. 41—57.**

وهو بحث بعنوان : « الدور الروحي للاسلام في اسبانيا العصور الوسطى » ، نشر في : صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، المجلد السادس ، ١٩٥٨ ، العددان ١ ــ ٢ ، وانظر ملخصا له بالعربية ص ٣٢٢ ــ ٣٢٨) .

اكد فيه : « ان الفضل في قيام الدراسات الطبية في اوربا يرجع الى ما كتبه العرب » و « ان قيام التأليف العلمي في اوربا (في الطب والرياضيات والعلوم الطبيعية) مرجعه الى العرب » ، وذكر الكثير من العلوم التي درسها الاوربيون على الاساتذة العرب ونقلوها عنهم الى اوربا ، من ذلك : علم العدسات والجبر وعلم الحساب والارقام العربية والكيمياء والفلك ومبدأ الشك ... الخ .

اما عن التأثير العربي في اسبانيا خاصة فقد اشار هذا الاب اليسوعي ، الذي فصل من جماعة اليسوعيين وطرد من اسبانيا الى حقيقة في غاية الاهمية ، وقد اثبتها البحث العلمي فيما بعد ، كما اثبت غيرها من حقائق التأثير العربي في اوربا مما اشار اليه خوان اندريس ، وهي الازدواجية اللغوية في الاندلس ، واقبال الشبان الاسبان على تعلم اللغة العربية ، تعلقا بها واقتناعا بفضلها وتفوقها .

وفي مجال الشعر قرر « ان الشعر الاسباني انما نشأ ــ اول امره ــ تقليدا لشعر العرب ... وان اختلاط النصارى والمسلمين كان من الطبيعي ان يدفع الاول الى تقليد الاخرين ... وان صور هذا الشعر العربي وقوالبه كانت حرية بان تنتقل الى بروفنسا عن طريق الصلات المتبادلة بين الفرنسيين والاسبان ــ نصارى ومسلمين ــ وتجوال الشعراء المنشدين المعروفين بـ « التروبادور » فنشأ الشعر البروفنسي على اساس من الشعر العربي » ، ثم يقرر « ان هذا الشعر البروفنسي انما ينتسب الى العرب اكثر مما ينتسب الى اليونان واللاتين » .

ويؤكد « ان قواعد التقفية التي اتبعها الشعر العربي ــ اسبانيا كان او بروفنسيا ــ واساليب صياغة الشعر الحديث ونظمه انما هي مأخوذة عن العرب ، ويصدق ذلك خاصة عن الشعر البروفنسي الذي أثر بدوره في الشعر الايطالي » . وذهب الى « ان موسيقى التروبادور وآراء الفونسو العالم في

هذا الفن عربية كلها ، وكذلك اللون القصصي المعروف بالفابليو (الخرافات (Fabliaux والحكايـات والقصص ترجع في مناشئها الى اصـول عربية »[٢٧] •

والف ايضا : « رسائل في الموسيقى العربية » اوضح فيها بعض هذه الاراء وطورها • كانت هذه الاراء التي قال بها الاب خوان اندريس تعتمد على الاستنتاج والحدس والفهم العميق للظروف العلمية والثقافية التي كانت سائدة في اوربا وبين العرب في العصور الوسطى ، ولم يتيسر له الاعتمـاد على شيء من آثار الاندلسيين اذ لم يكن قد نشر شيء منها آنذاك •

على اننا نجد ، اليوم ، لدينا حصيلة ثمينة مما نشر محققا من التراث العربي والاسلامي ، عامة ، والاندلسي ، خاصة ، ودراسات علمية موثقـة ومتخصصة في كل جوانب المعرفة وتاريخها ، اثبت بها المستشرقون وعلمـاء متخصصون ما قرره خوان اندريس من جوانـب التأثـير العربي العلمـي والفكري والادبي والفني والاجتماعي في الحضارة الاوربية بعامة والاسبانية بخاصة [٢٨] • بل ان البحث العلمي الحديث قد كشف من حقائق التأثير العربي هذا اكثر مما ذهب اليه خوان اندريس •

اما عن المسالك التي انتقل منها التأثير العربي الى اوربا ، فاولها واهمها هو الاندلس ، حيث استقرت دولة العرب والاسلام فيه ثمانية قرون متصلة تخللتها فترات قوة وضعف واتساع وانحسار الا انها كانت ، في كل الاحوال، رافدا زاخرا من العطاء العربي العلمي والفكري والروحي للنهضة الاوربية وللحضارة الانسانية جميعا • ولم ينته هذا العطاء الحضاري الثر بانتهاء الحكم العربي في اسبانيا حين سقوط مملكة غرناطة آخر قواعد العروبـة

---

(٢٧) آنخل جنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الاندلسي . نقله عن الاسبانية : د. حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٥٣٣ ــ ٥٣٦ . وحكمة الاوسي : فصول في الادب الاندلسي ص ١٥١ ــ ١٥٢ .

(٢٨) انظر : Manuela M. de Cirre : op. cit., p. 37.

والاسلام فيها سنة (٨٩٧ هـ=١٤٩٢ م) ، بل لقد استمر رفده حتى اوائل القرن السابع عشر الميلادي ممثلا في « الموريسكيين » وهم العرب والمسلمون الذين بقوا في اسبانيا ، وارغموا على اعتناق المسيحية[٢٩] • وما كان لهذا التأثير ان ينقطع ، بعد ذلك ، لو لم يتقرر طرد جماعات كبيرة منهم الى شمال افريقيا • فعانت اسبانيا ، بسبب ذلك ، اضطرابا عاما ونقصا خطيرا في الخدمات الاجتماعية والعلمية والثقافية ، كان سببا مهما من اسباب تخلفها عن ركب النهضة الاوربية فيما بعد ، كما يرى بعض الباحثين •

اما المسلك الثاني للتأثير العربي في اوربا فكان جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا • فقد خضعت هذه المنطقة للحكم العربي من سنة (٢١٢ هـ=٨٢٧ م) حتى استيلاء النورمنديين عليها سنة (٤٨٤ هـ=١٠٩١ م) فمارست الحضارة العربية الاسلامية فيها تأثيرا مشابها لما جرى في اسبانيا ولكن على نطاق اضيق [٣٠] •

والمسلك الثالث لهذا التأثير هو بلاد الشام ابان الحروب الصليبية التي اتصلت قريبا من قرنين (منذ سنة ٤٩٠ هـ=١٠٩٧ م) حتى (٦٩٠ هـ = ١٢٩١ م • فقد وجد الصليبيون انفسهم فجأة وجها لوجه امام شعب قد قطع اشواطا طويلة في الحضارة والرقي • فشرعوا يفيدون مما يرون ويقتبسون الكثير من الفنون والعلوم والصناعات • واكثر ما افادوا كان في ميادين الفنون الحربية والصناعة واساليب التجارة والزراعة ، وفن العمارة ، وتأثيرات

---

(٢٩) انظر : اغناطيوس كراتشكوفسكي : دراسات في تاريخ الادب العربي . منتخبات . ترجمة عن الروسية . دار النشر « علم » . موسكو ١٩٦٥ ، ص ٥٥ • و :

Ribera : ((Historia de la música árabe medieval y su influencia en la espanola)), Madrid, 1927, pp. 269, 265.

(٣٠) انظر : احسان عباس : العرب في صقلية . دار المعارف بمصر ، ١٩٥٩ ، ص ١٥٧ ــ ١٦٢ • و رينان : ابن رشد والرشدية ، ص ٢١٥ .

اجتماعية مختلفة . اما في المجال الثقافي والعلمي فلم يكن للحروب الصليبية الا تأثير ضئيل ومحدود . ذلك لان اهتمام الصليبيين كان منصبا على الامور الحربية قبل اي شيء آخر [٣١] .

ان التبادل الثقافي بين الاسلام والمسيحية ، الذي بدأ في عصر الامارة في قرطبة ، استمر يتوسع بوساطة المستعربين الاسبان وعناصر من اليهود ، خلال عصور الحكم العربي ، ثم آتى احسن ثماره ، حين اخذ هذا الحكم بالتقلص والاضمحلال ، ولدينا معلومات عن ترجمات من العربية الى اللاتينية جرت في قطلونيا ، منذ القرن العاشر الميلادي فما بعد . وخلال النصف الاول من القرن الحادي عشر كانت برشلونة موطنا لاول مترجم ، في تلك الايام ، نستطيع ان نتثبت من هويته ، هو افلاطون التيفولي Plato of Tivoli ، بين سنتي ١١١٦ و ١١٣٨ م ، قام بترجمة كتب من العربية والعبرية في علم الفلك والتنجيم ، بضمنها جداول البتاني الفلكية . وكان يساعده في ذلك يهودي اندلسي هو ابراهام برحيا المشهور بـ « صاحب الشرطة » . وخلال هذه الفترة اصبحت طليطلة مركزا لنشاط الترجمات العلمية بعد ان احتلها الاسبان سنة (٤٧٨ هـ=١٠٨٥ م) ، فكانت منارا هاديا للعالم اللاتيني كله . وفي الحقيقة اننا لا نعرف الا القليل عن ذلك الدور الذي قام به مطران طليطلة رايموندو (١١٢٦ ــ ١١٥٢ م) في تأسيس وادارة حركة الترجمة المنظمة هذه والتي عرفت فيما بعد بمدرسة المترجمين الطليطليين . ولا نعرف شيئا كثيرا ، كذلك ، عن الطريقة التي كانت تتم بها اعمال الترجمة والعلاقات التي كانت بين مختلف المترجمين ، وهل كان لهذه المدرسة تنظيم اداري وبناء خاص تمارس اعمالها فيه ، أو لا . وفي اغلب الاحتمال ان القائمين بالترجمة

---

(٣١) انظر في هذا :

"The Cambridge history of Islam", Vol. II, p. 852-53

Enresto Barker: "Las cruzadas". En: "El legado del Islam", p. 72—82.

والقلماوي ٢٨ ــ ٢٩ .

الاوائل لم يكونوا يعرفون العربية اطلاقا ، حينما جاءوا الى طليطلة للقيام بهذه المهمة الخطيرة . فكانوا يستعينون بعلماء من المستعربين واليهود ممن كانوا يعيشون في طليطلة . فكان هؤلاء يترجمون النصوص العربية الى الاسبانية الدارجة حرفيا ، ثم يضعها مترجمو هذه المدرسة في اللغة اللاتينية. ثم تطورت اعمالهم ومعرفتهم بالعربية ، شيئا فشيئا ، حتى استطاعوا ان يعتمدوا على انفسهم في ذلك (٣٢) .

ولقد تمت ، بجهود مترجمي هذه المدرسة ، ترجمة امهات المؤلفات العربية في « الرياضيات والفلك والطب والكيمياء والطبيعة والتاريخ الطبيعي وما وراء الطبيعة وعلم النفس والمنطق والسياسة ، ومنها «اوركانون» ارسطو وشروح المسلمين عليه ، او مختصراتهم له ، وهي شروح ومختصرات جليلة وضعها فلاسفة مسلمون من امثال الكندي والفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد . وترجمت عن العربية ، كذلك ، مؤلفات اقليدس وبطليموس وابقراط ، بشروح اعلام الفكر الاسلامي عليها كالخوارزمي والبتاني وابن سينا وابن رشد والبطروجي ومن اليهم » . ان عمل رايموندو هذا في تأسيس هذه المدرسة الخطيرة ورعايته لجماعة المترجمين والكتاب فيها ، « كان حدثا حاسما له ابعد الاثر في مصير اوربا » كما يقول اليرنست رينان (٣٣) .

وبعد قرن من الزمن اكمل الملك الفونسو العالم (١٢٢١ ــ ١٢٨٤ م) ما بدأته هذه المدرسة الطليطلية من اعمال النقل العلمي الرائعة ، فجمع في بلاطه مجموعة ممتازة من العلماء من كل الاجناس والاديان : من مسلمين ويهود وقشتاليين وايطاليين ، اذ تضافرت جهودهم بحرية واسماح لتسبغ

---

(٣٢) "The Cambridge history of Islam", II, pp. 852-54.

وانظر عبدالرحمن بدوي : دور العرب في تكوين الفكر الاوربي . بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ٦ ــ ١٢ . وبالينثا : تاريخ الفكر الاندلسي ص ٥٣٦ ــ ٥٤٠ .

(٣٣) بالينثيا : تاريخ الفكر الاندلسي ٥٣٧ . ورينان : ابن رشد والرشدية ص ٢١٤ .

على عطائهم العلمي صفة شمولية سامية . وكان يشرف بنفسه على اعمال الترجمة ويصحح لغتها . وانشأ ، بمعاونة الرقوطي الفيلسوف العربي ، معهدا علميا في مرسية ، ثم نقله الى اشبيلية حيث اقام معهدا آخر للبحث ومدرسة للغة اللاتينية والعربية كان اساتذتها من العلماء المسلمين الذين كانوا يدرسون الطب والعلوم المختلفة (٣٤) .

ولم تكن اهتمامات الفونسو العالم مقتصرة على ترجمات الكتب والدراسات العلمية فحسب ، بل اهتم الى جانب ذلك بالجوانب الدينية ايضا، فأمر بان يترجم الانجيل والقرآن الى الاسبانية . وشاعت في عصره كتب عربية في الحكم والالغاز والقصص ذات المغزى الحكمي ، وقد انتشرت في ثناياها آراء الفلاسفة العرب وحكمائهم . فترجم بامره كتاب « كليلة ودمنة» و « قصص السندباد » وكتاب « مختار الحكم ومحاسن الكلم » للمبشر بن فاتك (٣٥) . وتنتشر في ثنايا كتابه « التاريخ العام لاسبانيا » Cronica general de Espana كثير من المواد العربية تاريخية واسطورية . وترجمت بامره كتب في العاب شرقية من ضمنها كتاب الشطرنج Juegos de ajedrez امر بترجمتها لأجل أولئك الذين لم يكونوا يستطيعون ممارسة العاب اخرى رياضية ، كالنساء « اللواتي لم يكن يمتطين الخيول وكن حبيسات في البيوت ... »(٣٦) .

---

(٣٤) José García Lopez : "Literatura espanola". Barcelona, 1959, p. 49.

(٣٥) حققه وقدم له وعلق عليه : د. عبدالرحمن بدوي ، ونشره المعهد المصري للدراسات الاسلامية في مدريد ، ١٩٥٨ .

(٣٦) José García Lopez : op. cit., pp. 52, 54.

وراجع : بالينثيا : تاريخ الفكر الاندلسي ص ٢٨ و ٥٧٣ ــ ٥٧٦ .

ولقد كان لاعمال النقل العلمي المنظمة هذه اثر عميق في تغذية الفكر والدراسات الادبية والعلمية في اسبانيا ، خاصة ، والدول الاوربية عامة ، الشيء الذي ساهم مساهمة فعالة في نقل اوربا كلها من ركود العصور الوسطى الى حيوية عصر النهضة واليقظة العلمية والفكرية الشاملة التي تميز بها ٠

الدراسات التي تناولت موضوع التأثير العربي

ان موضوع التأثير الحضاري العربي في الثقافة الاوربية موضوع ذو نواح متشعبة بتشعب فروع المعرفة العلمية وجوانب الحضارة الانسانية ٠ ولقد فطن اليه اول من فطن أفراد من علماء الغرب سمت انفسهم عن نزعات التعصب الديني ودرن الاهواء والمسلمات المسبقة ، فصدروا عن ضمير علمي اصيل وعبروا ، باسلوب علمي قوي ، عما اقتنعوا بانه حقيقة من حقائق التأثير الحضاري العربي في الحضارة الغربية ابان عصر النهضة ٠

وكان من الطبيعي ان يتصدى لهذا الموضوع ، ايضا ، من كان في نفوسهم مرض من الباحثين غير الموضوعيين الممتلئة نفوسهم بالاحقاد الدينية والعنصرية والتعصب الاعمى ضد العرب والاسلام ٠ فكان من ذلك ان برز بين الدراسات التي تناولت موضوع التأثير العربي هذا ، اتجاهان مختلفان ومتخالفان : الاول ، وقد بدأ منذ القرن الثامن عشر في كتابات الاب خوان اندريس التي اشرنا اليها فيما سبق ، وهذا الاتجاه يرجع الى العرب كل تقدم علمي وادبي حققته اوربا في عصر النهضة ، على تنوع فروع العلوم والآداب واتجاهات الفكر والثقافة العامة ٠ ويعمد اصحاب هذا الاتجاه الى الدراسات العلمية العميقة والموثقة لاثبات ذلك ، فانتجت جهودهم هذه الكثير من الابحاث الرصينة والمبرأة من الغرض والهوى ، قرروا بها حقائق التأثير العربي ومشاركة العرب العلمية والادبية والثقافية الفعالة في ارساء اسس النهضة الادبية والعلمية في اوربا ثم في العالم اجمع ٠

اما الاتجاه الثاني فكان يعتمد الاسلوب العاطفي والانشائي ويفيد من منزلة الكاتب الاجتماعية ليحاول ان ينفي عن العرب كل فضل او مشاركة في تقدم علمي او ابداع ادبي ، ملتمسا لعوامل النهضة الاوربية جذورا واسبابا بين بقايا الحضارات القديمة التي سبقت الحضارة العربية الاسلامية كالاغريقية والرومانية والمسيحية • ولقد فشل اصحاب هذا الاتجاه ، عامة ، في اعتماد الطريقة العلمية في البحث بما فيها من اسلوب التحليل والتوثيق العلميين • بل اننا لنجد الكثير من باحثي هذا الاتجاه ، حينما تلزمه حقائق البحث العلمي الموثقة التي يعرضها باحثو الاتجاه الاول ، ولا يجد احدهم محيصا عن التسليم بها ، يحاول ان يلجأ الى طريقة اخرى للتقليل من شأن الدور العربي في صنع الحضارة الانسانية ، فيقرر ان العرب لم يكن لهم ابداع حضاري ولا اضافة علمية او ادبية الى التراث الانساني ، وانما ينحصر دورهم ، في التاريخ الحضاري ، في مجال محدود جدا ذلك هو عملية حفظ التراث العلمي والفكري الاغريقي والروماني ونقله الى اوربا دونما اضافة اصلية ، او تطوير لما نقلوا من تراث قديم •

بل ربما اعترف بعض هؤلاء انفسهم بفضل العرب الكبير على الانسانية جمعاء ولكن باسلوب غير مباشر ، يتجنب فيه التصريح الواضح والتحديد الواجب • وكأنه يحاذر ، في ذلك ، ان يبدو في آرائه تناقض مع ما سبق ان قرره من نفي لاي فضل او دور عربي ، او ربما لجأ الى هذا الاسلوب الملتوي خشية أن يتهم في مجتمعه بالتعاطف مع العرب • وهو لا يريد ان تلصق به تهمة كهذه لاعتبارات اجتماعية او سياسية او غير ذلك مما لا صلة له بالموضوعية العلمية •

على ان الرأي العلمي الغالب بين الباحثين الغربيين المعروفين برصانتهم ودقة ابحاثهم يعترف بالتأثير العربي الاسلامي الفعال ، والدور المبدع

للحضارة العربية ، في الفكر العلمي والثقافي لاوربا العصور الوسطى[٣٧] •
ولهؤلاء الباحثين العديد من الابحاث العلمية الممتازة التي تشرح بالتفصيل مساهمات الحضارة العربية في بناء صرح الحضارة العالمية المعاصرة • وان هذه الابحاث ليمكن ان تفيد منها في تفنيد الدعايات المنظمة ، في الغرب ، لغرض الاساءة الينا ، وتشويه تاريخنا ، وطمس اى معلم من معالم دورنا العلمي الباهر في البناء الحضاري •

واذا كان المنكرون الاوائل ، في بدايات الدراسات الاستشراقية ، لفضل العرب الحضارى ، مدفوعين باسباب وعوامل دينية وعنصرية وسياسية ، فان في العالم الغربي اليوم حملة مغرضة واسعة ومنظمة تنظيما علميا دقيقا • وفي متناولها كل مستحدثات فنون الدعاية وتكنولوجيتها ، واساليب الحرب النفسية وامكاناتها مكرسة لتشويه صورة العربي في اذهان الشعوب الغربية وتشويه التاريخ العربي والاسلامي ، والاستهزاء بكل ما قررته الابحاث من دور علمي عربي اصيل وعميق الاثر في اوربا • بل ان الاخطر من هذا كله يكمن في حركة واسعة ، تديرها وتغذيها مؤسسات صهيونية خبيرة ، غرضها السلب التدريجي لفضائل الدور الحضاري العربي في تراث الانسانية وعزوه الى العنصر العبراني او اليهودي • ولقد خطت هذه الحركة خطوة كبيرة في هذا السبيل ، اذ استطاعت ان تفرغ كلمة « ساميين » من دلالتها العلمية الثابتة وهي : مجموعة شعوب تشترك في خصائص معينة ولها لغات تربط بينها من اواصر القربى ما يجعلها من عائلة لغوية واحدة ، ويبرز الشعب العربي والشعب العبراني من بين هذه المجموعة السامية ، استطاعت الدعاية الصهيونية المهيمنة على وسائل الاعلام السياسية والثقافية ، ان تسلب هذا

---

(٣٧) اكتفي هنا بالاحالة الى مجموعة اقوال الباحثين الغربيين في الحضارة الاسلامية والتي اثبتها الاستاذ جلال مظهر في مقدمة كتابه : « حضارة الاسلام واثرها في الترقي العالمي » ، القاهرة ، ١٩٧٤ . علما بان هناك الكثير جدا من آراء الباحثين الاخرين ، في نفس الموضوع يمكن ان تذكر ايضا •

المضمون من كلمة او مصطلح « ساميين » وتقصره في اذهان الشعوب الغربية، عامة ، على اليهود فقط ، ولا يدخل العرب في مضمونه هذا المشوه ، وذلك عن طريق اختراع مصطلح « معاداة السامية » الذي صار له معنى « معاداة اليهودية » • ويفهم منه الذهن الغربي غير المطلع على حقائق التاريـخ ان السامية بكل مالها من مساهمات حضارية وفضائل ، انما هي « اليهودية » فقط • بل هي ، على وجه التحديد ، اليهودية الصهيونية لا غير •

فنحن ، ازاء هذا ، امام حركة سلب واستيلاء عنصرية مغلفة تغليفـا ثقافيا هي في الواقع ذراع من اذرع الاخطبوط الصهيوني الطوا ل• هدفها ، ضمن الاستراتيجية العامة للصهيونية ، سلب المنجزات التاريخية والحضارية العربية ، جنبا الى جنب مع عملية سلب الاوطان العربية والاستيلاء عليهـا وتشريد شعوبها وطمس معالم كيانهم الحديث ، مع محاولة طمس معالم تراثهم الحضاري القديم •

انني أرى من الوسائل الفعالة في التصدى لهـذه المحاولات الخبيثة والخطيرة ، انّ نعمد الى كتب اولئك الباحثين والمستشرقين الاعلام من ذي الضمير العلمي الملتزم ، فنتفق مع من له حقوق طبعها ونشرها ، فنعيد نشرها بلغتها الام ، وبطبعات شعبية زهيدة السعر ، لتساهم في وقف هذه الحركة المضادة وتكشف زيفها الدعائي ببسطها العلمي الموثق ، وباسلوبهـا الذي يفهمه ابناء لغتها ويستوعبونه ويتأثرون به • فلا يمكن مخاطبة العقل الاوربي الا بعقل ومنطق اوربي ، ولا يمكن كسب ثقة الشعوب الاوربية ببحث يعرض فيه عربي او شرقي او مسلم فضائل حضارته ، وبنفس القـوة التي لبحث يحقق فيه مستشرق اوربي او غربي مسيحي منجـزات الحضـارة العربية الاسلامية • لان ذلك الباحث العربي سينظر اليه على انه مادح نفسه بكل ما لمديح النفس من مضمون كريه ينفر ولا يجذب ، ويضعف ثقة الاخرين ولا يقويها بما يقول مهما كان ما يقوله موثقا وموضوعي العرض •

ولقد نجح العرب في تصحيح بعض الصور المشوهة التي طبعتها عنا الدعاية الاستعمارية والصهيونية في اذهان الشعوب الغربية ، عن طريق المؤتمرات والندوات الثقافية والعلمية ، وعن طريق الانتاج السينمائي المشترك مع فنانين وفنيين غربيين ، وانهم لقادرون على ان ينجحوا نجاحا لا يقل عن ذلك ، عن طريق الاشتراك الثقافي المخطط مع المؤسسات والافراد الذين يملكون حقوق طبع الدراسات العلمية الموضحة والمؤكدة للعطاء الحضاري العربي ضمن تراث الانسانية المتنامي .

منذ بدايات القرن الماضي اخذت دراسات المستشرقين تتابع في موضوع الحضارة العربية واسرارها وعوامل القوة والضعف فيها ، وجوانب الاصالة والابتكار فيما انتجته من الاراء والمبتكرات ، وتحديد ما اخذت عن الحضارات الاخرى السابقة لها ومقدار ما اضافته الى المعرفة الانسانية في جوانبها الفكرية والعلمية المختلفة ، وما احتفظت به ، للمسيرة الحضارية الانسانية ، دونما اضافة او تطوير .

فكان من ذلك كله مكتبة علمية متنامية فيها الكثير من الدراسات الموضوعية الرصينة ، التي اجمعت على اصالة الحضارة العربية الاسلامية في اخذها العلمي الدقيق ، وعطائها الثر الوفير . فعبدوا ، بذلك ، طرقا كانت وعرة المسالك ، وارسوا مناهج كانت بالعلم حاجة لان ترسى وتتبلور . وكانت جهودهم ، في هذا ، فردية ، اول الامر ، ثم اتجهت ، اضافة الى الجهود الفردية ، الى العمل العلمي الجماعي المنظم يتعاون فيه فريق من العلماء من ذوي التخصصات المختلفة في جوانب الحضارة العربية والاسلامية .

ولم تكتف هذه البحوث بدراسة الجوانب الادارية والاجتماعية والفلسفية والفكرية ، عامة ، من جوانب هذه الحضارة ، بل تناولت ايضا المجالات العلمية كالرياضيات والطبيعيات والفلك والطب والكيمياء ، وغير ذلك من العلوم التجريبية التي كان للعرب فيها اضافات واسعة وتطوير كبير .

واذ ان هذه الدراسة متجهة الى تحديد التأثير العربي في الجوانب اللغوية من الثقافة الاسبانية وما يقرره ذلك من حقائق التأثير الحضاري العربي العام ، في اسبانيا ، فانني سأقتصر ، هنا ، على ذكر مجموعة من الدراسات الغربية اولا ، ثم التي كتبها باحثون عرب ثانيا ، بهدف اعطاء فكرة عامة ، واساسية ، عن مدى الاهتمام الذي حظيت به حضارتنا ، لدى الباحثين الغربيين . واذ اننا لا يمكننا ان نتحدث عن التأثير العربي في الثقافة الاسبانية دون ان نتناول بالضرورة ، جوانب هذا التأثير في الثقافة الاوربية، ايضا ، لما بينا سابقا ، وما هو ثابت تاريخيا ، من ان اسبانيا العربية انما كانت معبرا علميا وثقافيا ، وقاعدة فكرية صلبة للحضارة العربية ، اعتمد عليها الاوربيون ابان العصور الوسطى وعصر النهضة ، في الامدادات العلمية والادبية والفكرية عامة ، لذلك سيرد ، ضمن هذا العرض السريع لمصادر ومراجع دراسة التأثير الحضاري العربي في اسبانيا ، مصادر تهتم بمظاهر هذا التأثير في اوربا ايضا .

ولقد قسمت هذه المصادر والمراجع بحسب الموضوعات التي تتناولها بالبحث ، ما امكن ، وان كانت هناك مراجع تتداخل وتتسع مواضيع بحوثها بما يجعلها تشمل معظم جوانب الحضارة العربية وتأثيراتها المختلفة في اسبانيا واوربا على السواء .

وعلى هذا فان هذه المراجع تقع ضمن ثلاثة مواضيع ، هي : التأثير العربي في اللغة ، والتأثير في الشعر ، والتأثير في القصة . وسأدون ، فيما يأتي ، مجموعة من مراجع كل موضوع ، باللغات الاوربية ، مرتبة حسب التسلسل الزمني ، مع بعض الملاحظات النقدية او التعريفية المختصرة ، على كثير منها ، ثم اتبع المراجع الاوربية بالمراجع العربية .

اولا ـ مراجع عن التاثير العربي في الاسبانية وفي بعض اللغات الاوربية الاخرى :

لعل اول من بحث في هذا الموضوع ، باللغة الاسبانية ، هو : فرانثيسكو مارتينث مارينا :

1. Francisco Martinez Marina : "Catálogo de algunas voces castellanas puramente arabigas . . .", en "Memorias de la Real Academia de la Historia", IV (mentioned in al-Andalus, XXVII, Fasc. I, 1962, p. 155).

« فهرست لبعض الالفاظ القشتالية ذات الاصل العربي المحض » .
نشره سنة ١٨٠٥

2. R. Dozy et le Dr. W.H. Engelman: "Glossaire des mots espagnols et portugais dérivés de l'arabe". Seconde edition, Leyde, 1869. Nouvelle impression, Beirut, 1974.

دوزي وانكلمن : « معجم الكلمات الاسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية » . وكانت الطبعة الاولى منه قد اصدرها انكلمن سنة ١٨٦١

3. L. Eguilaz: "Glosario etimologico de Las palabras espanolas de origen oriental", Granada, 1886.

ل . ايكيلاث : « معجم اشتقاقي للكلمات الاسبانية ذات الاصول الشرقية »

4. Oliver Asín, J. : "Origen árabe de "rebato", "arrobda" y sus homonimos". Madrid, 1928.

اوليفرآسين : « الاصل العربي لـ (ريباتو) و (اروبدا) والالفاظ التي تجانسها » . مدريد ١٩٢٨ .

5. Levi-Provençal, E. : "La civilizacion árabe en Espana". Argentina, 1953.

ليڤي پروفنسال : « الحضارة العربيـة في اسبانيا » • وقـد ترجمه : ذوقان قرقوط بعنوان : « حضارة العرب في الاندلس » ونشـر في بيروت ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بدون تاريخ ويبدو المترجم في عمله هذا متمكنا من الفرنسية ، ولكنه غير ملم بالدراسات الاندلسية بشكل كاف • ويظهـر على اسلوبه ضعف ، احيانا ، ربما بسبب عدم المامه بالموضوع ، كما يظهر في الصفحات ٧٨ و ١١٢ و١١٧ وفي الصفحات ١٩ و ٢٤ و ٣٢ و ٦٩ و ٧٠ و ٧٦ و ١٤٥ • والكتاب ، في الاصل ، ثلاث محاضرات عامة القيت في آذار ١٩٣٨ في الجمعية الجغرافية الملكية ، في القاهرة ، وبرعاية كلية الاداب ــ الجامعة المصرية • وقد الحق بها عند نشرها قائمة بالمصادر والمراجع في غاية الاهمية ، مع ملاحظات نقدية موجزة لمعظم هذه المراجع • وقد تناول فيهـا الحضارة العربية الاسلامية في معظم جوانبها وبين تأثيراتها العميقة في الفكـر الاوربي • واشار في الصفحات ١٠٥ و ١٠٦ ــ ١١٠ الى جوانب مهمة من التأثير العربي في المفردات الاسبانية والبرتغالية والقطلانية • يتميز الكتاب ، كمعظم كتابات المؤلف ، بالدقة والموضوعية •

6. M. Asín Palacios : “Contribución a la Toponimia árabe de Espana”. II ed., Madrid - Granada, 1944.

آسين پلاثيوس :

« مساهمة في تحديد اسماء الاماكن العربية الاصل في اسبانيا » • درس في المقدمة الجهود السابقة في هذا الحقل وابدى ملاحظاته النقدية الخبيرة فيها

7. L. Seco de Lucena : “De toponimia granadina”. Al-Andalus, IX, 1944, X, 1945, XVI, 1951, XII, 1952, XXI, 1956.

لويس سيكو دي لوثينا :

« في اسماء الاماكن الغرناطية » • وله نفس الموضوع في « منوعـات دراسات عربية وعبريـة » جـ ٢ /١٩٥٣ و جـ٤ /١٩٥٥ و جـ٦ /١٩٥٧ ، وفي مجلة « تمودا » جـ ٣ ، تطوان ١٩٥٥ و جـ ٤ ، ١٩٥٥ (عن نجيب العقيقي: « المستشرقون » ٣ / ص ٦٠٨)

8. Cesar E. Dubler : "Los nombres árabes de materia médica en la obra del doctor Laguna". Al-Andalus, XVI, 1951.

ثيسار دوبلر : « الاسماء الطبية العربية في كتابات الدكتور لاگونا »

9. Américo Catro : "La realidad histórica de Espana". México, 1954; y 5 ed., 1973.

أميريكو كاسترو : « الحقيقة التاريخية لاسبانيا » •

تكلم فيه على التأثير العربي الاسلامي في اسبانيا وفي الاسبان عامة ، وخصص الصفحات ٢١١ـ٢٢٣ للتأثير اللغوي والاسلامي في اللغة الاسبانية• وخصص الفصل السابع للحديث عن التأثير العربي في الحياة الاسبانية العامة، وفي بعض تعابير الحياة اليومية وفي العادات الاسلامية الباقية بين الاسبان حتى العصر الحديث •

10. Olivr Asín, Jaime : "Soborbal" en el Aljarafe de Sevilla". Al-Andalus, XXIV, 1959.

او ليڤر آسين : « تحقيق اصل كلمة (سوبوربال) في اشبيلية » .

"Las dos Almuzaras", Al-Andalus, XXVII, 1962.

Al-Andalus, XXIX, 1964.

« التعبير العربي « الف مرة ومرة » في الاسبانية » •

11. J. Vernet : "Antroponimos de etimologia árabe en el Lavante espanol : ensayo metedologico".

خوان بيرنيت خينس : « القاب اسبانيـة ذات اصـل عربي في شـرق الاندلس • دراسة منهجية » في صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد• المجلدان (١١ و ١٢) ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤ • راجع خلاصة لهذا البحث ، بالعربية، في ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥ • والبحث بالاسبانية ص ١٤١ ـ ١٤٧

12. José Pedro Machado:

خوسيه بدرو ما چادو :

أ ـ « تعليق على بعض الصيغ في معجم تاستنس »

ب ـ « دخول المصطلحات العربية في اللغة البرتغالية »

جـ ـ « اثر العرب في المعجم البرتغالي (المجلد حرف ع) (عن : نجيب العقيقي : المستشرقون ٢ / ٦١٢)

13. J. de Sauza :

الاب جان دي صوصه :

« الالفاظ البرتغالية المشتقة من العربية » ط • لشبونة ١٧٨٩ (عن : المستشرقون ٢/٦١٨) •

دافيدلوبس :

14. David Lopes

« اسماء الاماكن العربية في البرتغال » في (٤٤٠) صفحة ، باريس ١٩٠٢ (عن المستشرقون ٢ /٦٢٠) •

باول كونتش :

15. Dr. Paul Kunitzsch :

« آثار التراث العربي في اللغة الالمانية » • مقال غير موثق • نشر باللغة العربية في : مجلة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، المجلد (١٦) ١٩٧١

16. Dr. Sigrid Hunke : "Allahs Sonne uber dem abendland unser arabisches erbe Deutche verlags-anstalt." Stuttgart.

وقد ترجم بعنوان :

زغريد هونكه : « شمس العرب تسطع على الغرب : اثر الحضارة العربية في اوربا » ترجمة : فاروق بيضون وكمال الدسوقي • بيروت ١٩٦٤

في الكتاب بيان عام للتأثير العربي الحضاري في اوربا • وفي الفصل الاول حديث عن الاسماء العربية الاصل في لغة الحياة اليومية الالمانية ، وعنوانه : « اسماء عربية لحاجات غربية » •

ثانيا : مراجع عن التأثير العربي في الشعر الاسباني والاوربي :

1. G.J. Adler : "The poetry of the Arab of Spain". New York, 1867.

أدلر : « شعر العرب في اسبانيا » : محاضرة القاها في جامعة مدينة نيويورك مساء يوم ٢٨ آذار ١٨٦٧ ، قرر فيها ان هناك شواهد على التأثير العربي المباشر على الشعر الاسباني القديم أو القشتالي في العديد من المقطعات الشعرية الشعبية الاسبانية التي ظهر انها اعادة كتابة للزجل والموشحة .

2. M. Amari : "Storia dei Musulmani di Sicilia". 1868—72. (Mentioned in : "El legado del Islam", p. 252—53)

اماري : « تاريخ مسلمي صقلية »

3. Justin M. Smith : "The Troubadours at home". Vol., II, New York & London, 1899.

جوستن سميث :

« التروبادور (او الشعراء الجوالون) في موطنهم »

لا يعترف بالتأثير العربي المباشر على شعر التروبادور ، ولكنه يقرر انه كان تأثيرا فعالا لا يمكننا ان نقيسه بمقياس محدود ، او ان نكتشفه ؛ ولكننا يمكننا ان نحسه كما نحس بالعطر ص ٣٣١ .

4. Prof. Mackail : "Lectures on poetry". 1911, pp. 97, 125. (Mantioned in : "El legado del Islam" p. 251—52).

5. Prof. Leo Wiener : "Contributions towards a history of arabic-gothic culture". Vol., I, New York, 1917. (Mentioned in : "El legado del Islam" p. 241).

6. K. Burdach : "Über den ursprung der mittelälterlichen minnesangs" En la S.B. Preuss. Akadr. Wiss., 1918 (Mentioned in "El legado del Islam" p. 244).

بورداخ :

« حول أصل اغاني الحب في العصور الوسطى »

7. S. Singer : "Arabische und europäische poesie im Mittelälter". En la Abh. Preuss. Akad. Wissenschaften, 1918. (Mentioned in : "El legado del Islam" p. 254)

سنجر : « الشعر العربي والشعر الاوربي في العصور الوسطى »

8. J. M. Millas Vallicrosa : "Influencia de la poesía popular hispano-musulmana en la poesía italiana. "Revista de Archivos, . . . etc., 1920—1921. (Mentioned in : "El legado del Islam" p. 253).

خوسيه ميللياس فاليكروسا :

« تأثير الشعر الشعبي الاندلسي في الشعر الايطالي »

9. G. Cesareo : "Lo origini della poesia lirica e la poesia siciliana sotto gli Suevi". 1924, (Mentioned in : "El legado del Islam" p. 252—53).

شيزاريو : « اصل الشعر الغنائي والشعر الصقلي تحت حكم السويف»

10. Fitmaurize-Kelly : "A new history of spanish literature". 1926. (Mentioned in : "El legado del Islam" p. 249).

11. University of Oxford : "The legacy of Islam". Oxford, 1931.

12. Nykl, A. R. :

نيكل : « الشعر العربيفي الاندلس عام ١١٠٠ » . في :

مجلة الاندلس (عن : « المستشرقون » ٣ / ١٠١٥)

نيكل : « اثر العربية الاندلسية في الشعراء الجوالين » في : « النشرة الاسبانية » ١٩٣٩ (عن نفس المرجع) .

13. Nykl, A. R. :

14. Nykl, A. R. : "Histpano-arabic poetry". Baltimore, 1946.

15. R. Menendez Pidal : "Poesía juglaresca y Juglares. Aspectos de la historia literaria y cultural de Espana". 1 ed., 1942. 2 ed., 1945. Argentina.

پيدال : « الشعر الخوكلاري والشعراء الخوكلار • مظاهر من التاريخ الادبي والثقافي الاسباني » يقرر پيدال في مواضع متعددة من هذا الكتاب القيم ، التأثير العربي في الشعر الاسباني منذ زمن اختراع الموشح على يـد مقدم بن معافى القبري ، في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) • (انظر: ص١٦ و ٢٥ و ٢٦ و ٤٠ و ٤٦ و ٨٢ ــ ٨٣ و ••• الخ)

16. R.M. Pidal: "Poesía árabe y poesía europea". 1 ed. Madrid, 1941. **2 ed., Madrid, 1955.**

« الشعر العربي والشعر الاوربي » • يبدو پيدال في هذا الكتاب مترددا فيما يخص موقفه من التأثير العربي في الشعر الاسباني والاوربي • فبينما هو يؤكد ان الشعر العربي والاوربي لابد من تأثر احدهما بالاخر ، وان الزجل القشتالي (الاسباني) من تأثير عربي ، وان الشعر الغنائي البروفنسي لا يمكن ان يكون قد ولد دون تأثر مهم بالشعر الغنائي العربي الاندلسي ، نـراه ، بعد هذا كله لا يستطيع القطع باصل الموشح • (انظر ص٥٢ ص٦٦ و ٦٩ و ٧١ و ٧٦ على التوالي • ويقول ليفي بروفنسال عن هذا البحث : ان پيدال « يقرر فيه ، باستعجال كثير ، احكاما حول موضوع معقد للغاية » • انظر « الحضارة العربية في اسبانيا » النص الاسباني ص ١٨

17. R. M. Pidal : "Espana, eslabón entre la Cristiandad y el Islam". Madrid, 1956.

« اسبانيا حلقة اتصال بين المسيحية والاسلام » •

ترجم هذا البحث الى العربية ، بالعنوان المذكور ، الاستاذ لطفي عبد البديع ، ونشر في « مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية » مدريد ، العدد الاول ، السنة الاولى ، ١٩٥٣ • ص١ ــ ٢٤ • يؤكد بيدال فيه أن الشعر الغنائي البروڤنسي حينما ولد في البلاطات الشعرية البروفنسية تعرض لتأثير شعري عربي قوي في جانبين : في بحر من ابحره الشعرية ، وفي مفهوم الحب العفيف ص ١٩ •

18. Henri Pérès : "La poésie arabe d'Andalusie et ses relations possibles avec la poésie des Troubadours". L'Islam et l'Occident. Cahiers du Sud, 1947 pp. 107—130.

هنري بيريس :

« الشعر العربي الاندلسي وعلاقاته المحتملة لشعر التروبادور » .

19. E. Levi-Provencal : "Islam d'Occident"

« الاسلام في المغرب والاندلس » ، بهذا العنوان ترجمه الى العربية : د . السيد محمود عبدالعزيز سالم والاستاذ محمد صلاح‌الدين حلمي . ونشر في القاهرة ضمن سلسلة (١٠٠٠ كتاب) رقم ٨٩ ، علوم انسانية ، رقم ٣٥ ، ١٩٥٦ .

وهو مجموعة ابحاث تباعدت بينها المسافة الزمانية والمكانية ، وتنوعت موضوعاتها ، ولكنها كلها تتعلق بتراث الاسلام في المغرب والاندلس . ويهمنا منها ، هنا ، الفصل الاخير وهو : « الشعر العربي في اسبانيا والشعر الاوربي في العصور الوسطى » .

20. ———— : "Les vers arabes de la chanson V de Guillaume IX d'Aquitaine". In "Arabica", mai, 1954.

« الابيات الشعرية العربية في الانشودة الخامسة لغليوم التاسع أمير أكيتانيا »

21. M. Maurice Morere : "Influence de l'amour cortois hispano-arabe sur la lyrique des premiers Troubadours". Discours prononcé par . . . , Imprimerie administrative Melun m, 1972.

موريس مورير : « تأثير الحب العفيف الاندلسي على الشعر الغنائي للتروبادور الاوائل » .

ثالثا : مراجع عن التأثير العربي في القصص الاوربي ، وفي الادب عامة :

1. Miguel Asín Palacios : "La escatología musulmana en la Divina Comedia". Madrid, 1919.

ميگيل آسين پالاثيوس : «قصة المعراج الاسلامية في الكوميديا الالهية»

اثبت في هذه الدراسة المقارنة التأثير العربي القوي في الكوميديا الالهية ، وقد توثقت نظريته هذه كليا بعد اكتشاف ترجمة لقصة عربية عن المعراج النبوي ، كانت قد ترجمت الى القشتالية ، والى اللغتين اللاتينية والفرنسية ، في القرن الثالث عشر الميلادي .

2. E. García Gómez : "Un cuento árabe, fuente comun de Abentofáil y de Gracián". Revista de Archivos, . . . , Madrid, 1926.

غرسيه غومس : « قصة عربية هي اصل مشترك لابن طفيل وگراثيان » .

3. Cerulli, Enrico : "Il patranuelo di Jaun Timoneda e l'elemonto arabe nella novella italiana e spagnola del Rinascimento". I, "Atti della Accademia Nazionale dei Lincei". Anno CCCLII-1955. Memorie classe di Scienze morali, serie VIII, Vol. VII, Fasc. 3, paginas 81—181.

شيروللي : « خرافة خوان تيمونيدا والعنصر العربي في الرواية الايطالية والاسبانية في عصر النهضة » انظر عرضا ونقدا له في :

4. Al-Andalus, XXII, 1957, Fasc. 1, pp. 243—247.

شيروللي : « قصة المعراج والاصل العربي الاسباني للكوميديا الالهية » (الفاتيكان ٩٥٩) (عن « المستشرقون » ١/٣٩٤)

5. Antonio Pastor : "The idea of Robinson Crusoe," 1930, The Gongora Press, Wtford.

انتونيو باستور :

« فكرة روبنسن كروزو »

6. H.A.R. Gibb : "Literature". The legacy of Islam. Oxford. 1931.

7. ——— : "Islam literature" In the Encyclopaedia of Islam.

8. ——— : "The influence of Islamic culture on medieval Europe" Bulletin of the John Rylands Library, XXXVIII, 1955.

9. Menéndez y Pelayo :

منندث بيلايو : « دراسة عن الاثر السامي في الادب الاسباني »

(نشر بعد وفاته ، في : « مجلة النقد الادبي » ، مدريد ، ١٩٤١) (عن: « المستشرقون » ٢ / ٥٨٧)

10. Gabrieli, Francesco :

گابر يلي :

« اثر الف ليلة وليلة في الثقافة الاوربية» (عن : المستشرقون ١ /٣٩٥)

11. بايرون سمث : « الف ليلة وليلة والادب الانكليزي في القرن الثامن عشر » • مجلة « الابحاث » جـ ٢ •

12. Elías Téres : "Sobre el "vuelo" de Abbas Ibn Firnas". Al-Andalus, XXIX, 1964, Fasc. 2, pp. 365—369.

الياس تيريس : « حول طيران عباس بن فرناس » • اثبت في هذا المقال القصير أن قصة طيران ابن فرناس قد انتقلت الى الادب الشعري القصصي الاسباني •

13. Fernando de la Granja : "Tres cuentos espanoles de origen árabe". Al-Andalus, XXXIII, 1968, pp. 123—141.

فرناندو دي لاگرانخا : « ثلاث قصص اسبانية من اصل عربي »

14. ——— : "Dos cuentos arabes de ladrones en la literatura espanola del siglo XVI". Al-Andalus, XXXIII, 1968, pp. 459—469.

«قصتان عربيتان عن اللصوص في الادب الاسباني للقرن السادس عشر»

15. ——— : "Origen arabe de un famoso cuento espanol". Al-Andalus, XXIV, 1959, pp. 319—332.

« الاصل العربي لقصة اسبانية شهيرة » •

16. ——— : "Cuentos arabes en la "Floresta espanola" de Melchor de Santa Cruz". Al-Andalus, XXXV, Fasc. 2, 1970. pp. 381—400.

« قصص عربية في كتاب « أيكة اسبانية » لملشور دي ساتتاكروث »

17. ——— : "Nuevas notas a un episodio del lazarillo de Tormes" Al-Andalus, XXXVI, 1971, Fasc. 1, pp. 223—237.

« ملاحظات جديدة على حادث في قصة « لاثار يلليودي تورميس » بين في هذا المقال ان نصا قصصيا عربيا قصيرا على شكل نكتة او فكاهة انتقل الى الادب الاسباني واستخدم في عدة نصوص منها نص في قصة من قصص الصعاليك هي قصة « لاثاريلليو دي تورميس » •

ثالثا : دراسات وابحاث عربية عن التأثير العربي في الثقافةالاسبانية والاوربية (عرض نقدي موجز) :

١ ـ عمر فاخوري : « آراء غربية في مسائل شرقية » • الطبعـة الاولى : دمشق ١٩٢٥ الطبعة الثانية : بيروت ١٩٥٥ •

كتاب قيم جدا • فيه طائفة من ابحاث غربية مترجمـة ، مع بعض التعليقات ، تتناول قضايا اسلامية عربية ، وما يهمنا منها هو ان نشير الى بحث الكاتب الفرنسي اندره بلسور بعنوان : « محمد وداتني • آراء المستشرق بالاسيوس » وهو عن التأثير الاسلامي في الكوميديا الالهية • ص ٣٧ ـ ٧٠ وبحث الكاتب الفرنسي شـارل سـومان : « الغزالي وديكارت » ص ٧٥ ـ ٨٣ بين فيه اثر الاول في الثاني • ولولا بحث : « ا • رينه وسليمان بن ابراهيم عن : « الشرق في نظـر الغرب » في نقد اساليب مستشـرقي الفرنج ، لما ذكرتـه هنا ، بين « دراسات وابحاث عربية » •

٢ — الدكتور قسطنطين زريق : محاضرة بعنوان « الحضـارة العربية » في مجلة « الابحاث » آذار ١٩٤٩ ، ج (١) •

فيها حديث شامل عن التأثير العربي في الحضارة الغربية عامة ، ويعتمد في بيان ذلك على شواهد من اللغة •

٣ — الدكتور لطفي عبد البديع : « التروبادور غرسيه فرنندث • البيئـة الاسلامية في حياته وشعره » • في صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية في مدريد • المجلد الثاني — العدد ١ — ٢ ، ص ٨٥—٩٢ •

فيه حديث سريع عن التأثير العربي في شعر الاسـبان والتروبادور في العصور الوسطى • ثم يقارن مقطوعات غرسية فرنندث بنظائرها من الشعر العربي • والمقال ، على قصره ، مهم لان فيه بيانا لجانب من التأثير العربي في هذا الشاعر • على ان الباحث يشير في ختام بحثه الى « ••• ان الامر لا يستلزم ان يكون الينبوع العربي هو وحده مصدر التأثير بل يتعلق بتيار سرى الى بيئات التروبادور ، الى جانب تيارات اخرى ••• » ص ٩٢ • ولكن الباحث لم يوضح ما المقصود بهـذا التيـار والتيارات الاخرى ، ولم يحل الى مراجعه في ذلك ، على خطورة هذا الحكم واهمية النتائج العلمية والتاريخية التي تترتب عليه •

٤ — ساطع الحصري : « آراء واحاديث في اللغة والادب » • بيروت ١٩٥٨، ص ٥٩ — ٦٠ و ١٨٠ — ١٨٤ •

وليس قصد المؤلف في هذه الصفحات اقامة بحث عن هذا الموضـوع الدقيق والعميق ، وانما هو عرض مفيد لبعض جوانب التأثير العربي الباقية حتى اليوم في اللغة الاسبانية •

٥ — احمد امين : « قصة الادب في العالم » • القاهـرة ١٩٦٠ ، ج (٢) ، القسم الاول ، ص ٧٤ •

اشارة سريعة جدا الى جانب من جوانب التأثير العربي في الاسبانية •

٦ ـ جلال مظهر : « مآثر العرب على الحضارة الاوربية »، ١٩٦٠ ٠

« اثر العرب في الحضارة الاوربية » ، ١٩٦٧ ٠

« الحضارة الاسلامية اساس التقدم العلمي الحديث » ، ١٩٧٠ ٠

في هذا الكتاب الاخير جمع المؤلف عناصر المواد والمعلومات المختلفة التي عرضها في الكتب السابقة ونقحها واضاف اليها الكثير عن هذا الموضوع الذي درس فيه مجالات التأثير العربي في ميادينها الادبية والعلمية المختلفة ٠

٧ ـ الدكتور حكمة علي الاوسي والدكتورة بتول سعيد العلاف :

« مفردات اسبانية عربية الاصل » ٠ طبع على نفقة جامعة بغداد ، بغداد ، ١٩٦٢ ٠

٨ ـ الدكتور خالد الصوفي : « تأثير اللغة العربية في اللغة الاسبانية » ، في مجلة « المعرفة » العدد السابع ، دمشق ، ايلول ١٩٦٢ ٠

٩ ـ عباس محمود العقاد : « الثقافة العربية اسبق من ثقافة اليونان والعبريين » ٠ سلسلة المكتبة الثقافية (١) القاهرة ، بدون تاريخ ٠

« اثر العرب في الحضارة الاوربية » ، القاهرة ١٩٦٣ ٠

في الكتابين هذين عرض ممتاز لموضوعات مهمة من مواضيع التأثير العربي في اوربا ٠ يعتمد في معظمه على مصادر اوربية ، ولكنه نادرا ما يحيل الى تلك المصادر بتفصيل واف ومحدد ٠

١٠ ـ الدكتور عبدالرحمن بدوي : «دور العرب في تكوين الفكر الاوربي»، بيروت ١٩٦٥ ٠ كتاب مهم جدا في هذا الموضوع اذ يتناول بالبحث المستفيض المسائل الاساسية في قضايا التأثير العربي في اوربا في مختلف المجالات ٠

١١ ــ بقلم نخبة من الاساتذة العرب ، وباشراف مركز تبادل القيم الثقافية في الجمهورية العربية المتحدة ، بالتعاون مع اليونسكو :

« اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية » ، القاهــرة ١٩٧٠ • وهي مجموعة ابحاث متخصصة بحثت في التأثير العربي والاسلامي في مختلف نواحي المعرفة ومن بينها الشعر والقصة والموسيقى • باسلوب علمــي رصين ودقيق •

١٢ ــ الدكتور الطاهر احمد مكي : « ملحمة السيد : اول ملحمة اندلسية كتبت في اللغة القشتالية » ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ •

وهي دراسة ممتازة وترجمة جميلة لاول واقدم اثر من آثــار الادب الاسباني • الا ان ما ينقص هذا العمل العلمي القيم هو عــدم ذكره المصادر والمراجع في الهوامش • وما يهمنا هنا هو الفصل الثالث عشر بعنوان « تأثيرات عربية في الملحمة » ، ص٢٣٢ ــ ٢٥٦ •

١٣ ــ عدلي طاهر نور : «كلمات عربية في اللغة الاسبانية » ، القاهرة ١٩٧١•

١٤ ــ الدكتور محمود مكي : « عمدة سلمية والحياة حلم لكالديرون » في « تراث الانسانية » (٥) ، بدون تاريخ ، ص ١٧٩ــ٢١٠ •

في الصفحات ٢٠٥ ــ ٢٠٨ موضوع عن : « مصادر « الحياة حلم » واصولها العربية المحتملة » •

١٥ ــ ابو فارس : «مصطلحات اجنبية اصلها عربي » ، في مجلة « اللسان العربي » المجلد التاسع ، الجزء الاول ، الرباط ، ذو القعدة يناير •

ذكر في اقل من صفحتين حوالي ثلاثين كلمة فرنسية ، واعطى ما رجح انه اصل عربي لها ، وهو في تحديده لهــذا الاصــل يرجح ويظن او يعتمد على قاموس لاروس •

وقد عقب على هذا الموضـوع الدكتور معروف الدواليبي بنفس العنوان : « مصطلحات اجنبية اصلها عربي » ، في مجلـة « اللسـان العربي » المجلد الثالث عشر ، الرباط ، ١٩٧٦ ، ص ٩٣ اي في صفحة واحدة فقط ، علق فيها على كلمة واحدة هي Roder الفرنسية ، والتي سبق ان قرر ابو فارس انها من العربية « راد الدابة » • ويؤيده د • الدواليبي في اصلها العربي ولكنه يرى انها اقرب الى كلمة «راض» و « روض » ولا ادري لماذا اطلق الاثنان كلمة « مصطلحات » وحديثهما على مفردات ذات اصل عربي محتمل •

١٦ ــ الياس قنصل : « كلمات عربية في اللسان الاسباني » في مجلة «اللسان العربي » ، المجلـد الحادي عشـر ، الجـزء الاول ، الرباط ١٩٧٤ ، ص ١٨٢ ــ ٢٠٢ •

وهو دراسة جيدة لهذا الموضوع تنتهي بقاموس بالمفردات الاسبانية ذات الاصل العربي وما يقابلها بالعربية ، من ص ١٨٨ ــ ٢٠٦ ، ويبدو ان المنهج الذي أقتفـاه انه درس حتى الكلمـات التي قرر الباحثون الاوربيون والاسبان انفسهم انها عربية الاصل ، منذ زمن طويل ، ولم يكن له مبرر لذلك ، في نظرنا • ثم انه لم يشر الى اية دراسة سابقة او معجم اسباني للاصول والاشتقاق وهذا نقص في الدراسة •

١٧ ــ عبدالعزيز بن عبدالله : « معجم الاصول العربية في اللغات »

(الكلمات العربية في اللغة الفرنسية) ،

في مجلة « اللسان العربي » ، المجلـد (١١) ، الجـزء الثالـث ص ٢٢٨ ــ ٢٦٦ •

استعرض في هـذا المعجم المقارن « كـل المفـردات الـواردة في قاموس Littré مستخلصا الكلمـات الفرنسـية المقتبسـة من العربية والتي لم يسبق ان اشير الى مصدرها » ، (انظـر : مجلة « اللسـان العربي » ، المجلد الثالث عشر ١٩٧٦ ١٩٧٦ ص ٣٧) ، وهنـا تكمن اهمية هذا العمل العلمي • ويعمل الاستاذ عبدالعزيـز ابن عبدالله في عمل مشابه للكلمات العربية في اللغة الانكليزية •

١٨ ــ جيمس بيتار وحبيب سلوم : « اثر اللغة العربية في الانجليزية » ، في مجلة « اللسان العربي » ، المجلد الثالث عشر ١٩٧٦ ص ٣٧ ــ ٦٤ • والمؤلفان من عرب المهجر المقيمين في كندا • ولم يبينا المصـادر التي اعتمدا عليها ولا منهجهما في استقصاء الاصول •

١٩ ــ محمد عبدالله عنان : « الاثار الاندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال »، القاهـرة ١٩٦٢ ، ص ٤٤١ ــ ٤٤٣ • ذكر هنا طائفـة من الكلمـات الاسبانية عربية الاصل • وليس هو ببحث ولا دراسة عن الموضوع • وللمؤلف قائمة بـ « الاعلام الجغرافية والتاريخية الاندلسـية باللغتين الاسبانية والعربية ، مرتبة على حروف المعجم » ، مطبعة المعهد المصري للدراسات الاسلامية ، مدريد ١٩٧٦ ، وليست هي بحثا في الاصول العربية لهذه الاعلام ، وانما هي سرد منظم لها ، سـواء كانت عربية الاصول ام لا •

٢٠ ــ الدكتور عبدالواحد لؤلؤة : « ملامح عربية في بواكـير الشـعر الانكليزي » ، في مجلة « آفاق عربية » ، السنة الثالثة ، العدد (٢) ، تشرين الاول ١٩٧٧ ، ص ٧٩ ــ ١٠١ •

وهو بحث ممتاز يتبنى نظرية التأثير العربي في نشوء الشعر الاوربي ويلخص بمهارة « النظرية العربية » و « النظرية الاوربية » في هـذا

الموضوع ، مع نظر نقدي اصيل ، واطلاع واسع على معظم المصادر الاوربية الاساسية عن الموضوع ، وباللغات الانكليزية والالمانية والفرنسية والايطالية والاسبانية • اما المراجع العربية فلم يعرض لها كما ينبغي • واكتفى مما يتطلبه مضمون عنوان البحث بالصفحتين الاخيرتين فقط •

٢١ ـ الدكتور نوري سودان : « حول (الصلة بين العربية والالمانية) اوهام لغوية » في مجلة « المورد » ، المجلد السادس ، العدد الاول ١٩٧٧ • مقال مهم وغني بالمصادر •

٢٢ ـ الدكتور ضياء الدين حمودي : « الحضارة العربية والادباء الانكليز» ، في مجلة آفاق عربية ، السنة الثالثة ، العدد (١٢) ، اب ـ ١٩٧٨ ، ص ٩٤-١٠١ •

فيه بيان مختصر جدا لملامح من التأثير العربي الثقافي في انكلترا خاصة ، واوربا ، عامة • والمقال غني بمصادره ايضا •

(للبحث صلة)

دراسات في آثار الشرق القديم
وتأثيراتهـا على المناطق المجـاورة

الدكتور وليد محمود الجادر
جامعةبغداد ـ كلية الاداب

لموقع الشمال الافريقي خصوصية هامة ذلك هو اتصال المنطقة المباشر بالبحر المتوسط من الشمال واتصاله بامتدادات هذا البحر حتى مناطق جنوب غرب اسيا . كذلك تبرز أهمية الموقع باتصال رقعة كبيرة من شمال افريقية بالصحراء التي اثبتت الادلة الاثرية انها لم تكن صحراء مقطوعة كما تبدو بالنسبة للعديد من الناس ، بل انها كانت بعد انحسار التجمعات السكنية عن المعيشة فيها تدريجيا ابتداء من اواخر عصر البلايستوسين في حدود ١٢الف سنة من الان مجرد ممرات توصل الجماعات التي سكنت في شمال افريقيا بسواحل افريقيا الشرقية والجزيرة العربية . وكان البحر الاحمر ممرا شبه بري خلال هذه الفترة من عصر البلايستوسين ايضا .

وتوضح الدراسات الحديثة دور الهجرات من جنوب غرب اسيا خاصة تلك التي ساهمت في تكوين اكثر من تيار ثقافي في شمال افريقيا ، وتظهـر أهمية دراســة الصحراء في تاريخ شمال افريقيا بشكل عام بكونها تحتوي على جزء كبير من جغرافية المنطقة وترتبط بها اقتصاديا وطبيعيا ، علمـا بأن مساحة هذه الصحراء تبلغ حوالي ٢ر٦ مليون كـم^{٢} .

ترجع معظم اجزاء شمال افريقيا الى اقدم الكتل القارية المتميزة بكونها صلبة ومستقرة ماعدا بعض الاجزاء منها في الاقسام الشمالية الغربية التي مازالت معرضة الى تحركات ارضية بفعل تكوينها الحديث نسبيا الـذي يعاصر تكون تضاريس جبال الالب(١) •

وتوجد في اراضي هذه المنطقة مرتفعات مختلفة تتراوح بين ٨٠٠ـ١٢٠٠م تتخللها طرق سهلة نسبيا للمواصلات • ويعرف كذلك اصطدامها بعوائـق تضاريسية بين الساحل الشمالي وداخل القارة ، ومع ذلك فيمكن الاتصال عن طريق الممرات بين كل اجزاء المنطقة والسودان من خلال مايعرف بالفجوج •

والملاحظ ان السلاسل الجبلية في شمال افريقيا تتسم بالكثافة الشديدة خلال انحدارها نحو الصحراء(٢) •

والمعروف ان سلاسل جبلية تتفرع وتنحدر باتجاهات مختلفة ممـا يعرف بعـقدة الاطلس التي يزيد ارتفاعها على الثلاثة الاف متر ، وتنحدر هذه التفرعات بشكل خاص باتجاه الجنوب الغربي والجنوب الشرقي • ونحـو الشمال الشرقي تتفرع مجموعتان من السلاسل الجبلية ، تعرف الشمالية منها

---

(١) Ch. A Julien. Histoire de L' Afrique Blanche. que sais - Je.? Paris. 1966. P. 7.

(٢) في الصحراء تتميز ثلاثة مظاهر تضاريسية مختلفة هي الحمادة : وهي الهضبة الصخرية المغطاة بصخور جيرية في الغالب ،وتكون عارية من التربة في الغالب ، والرق : وهو السهل الصخري الذي ملأته السيول الجارفة بالرواسب الصخرية ، ثم العرق : وهوالسطح الواسع من الارض المغطاة عادة بكثبان رملية تشبه امواج البحر وتنتشر مثـل هـذه الظـواهر في مساحات واسعة من الصحراء ، وفي الجزائر مثلا هناك مايعرف بالعرق الشرقي الكبير الذي يمتد من الحدود الجزائرية التونسية الى المنخفض الواقع بين هضبة تادمايت والمنيعة ، ثم ما يعرف بالعرق الغربي الكبير الذي يبدأ من بني عباس غربا حتى هضبة المنيعة شرقا •

بالاطلس البحري[3] والاخرى بالاطلس الصحراوي وبينهما تعرف هضبة الشطوط • والى الجنوب من هذه السلسلة السفلية ، قياسا بالشمالية القريبة من الساحل ،تمتد مجموعة من المنخفضات التي توفر مجالا للعديد من الواحات المنخفضة التي تصل احيانا الى حوالي الثلاثين مترا تحت سطح البحر ، والواحات معروفة في اجزاء عديدة ومتناثرة في الصحراء الكبرى وما زالت مواطن للاستقرار على نطاق واسع في شمال افريقيا حتى ان مدنا عديدة نشأة حديثا بجوارها وحواليها •

والمعروف انه اضافة الى هذه الواحات ، فان الاودية التي تنعم بامطار غزيرة تخزن في باطنها كميات كبيرة من المياه التي يمكن استخراجها عن طريق الابار والفوجارات ، وتحاط عيون المياه المستخرجة من باطن الارض على اعماق مختلفة بسياج صخري يسمونه الغدير او الافلمام عند الطوارق ، وهي طريقة كان قد اشار اليها ابن خلدون[4] وما زالت متبعة لحد الان •

ويستطيع سكان الصحراء احيانا في بعض المناطق الحصول على المياه من تحت التربه وعلى عمق بسيط جدا لايتعدى حفرة صغيرة ويسمون هذه العملية بالعقلة او التيلماس او الاينكور •

وبعكس ذلك يتطلب الحصول على الماء في مناطق اخرى من الصحراء النزول الى عمق ٧٥م واحيانا الى الف متر كما هو الحال في منطقة ورگلة

---

(٣) هناك مجموعة الكهوف التي تمتد على طول الساحل المغربي باتجاه المحيط الاطلسي مثل كهوف مغارة العالية واشقر ودار السلطان والخنزيرة وجبل ارحود القريب من اسفي ، ولقد حدثت مثل هذه التجاويف الصخرية بسبب تعرية مياه المحيط لبعض اجزاء الكتل الصخرية المتاخمة للساحل ولقد وجدت البعثات الاثرية بعض هذه الكهوف وهي تحوي على طبقات اثارية تشير الى سكنى هذه المواقع لفتراة غير قصيرة تقارن بسكنى التجمعات السكنية في كهوف جنوب غرباوربا خلال العصر السلوتري بكافة ادواره •

(٤) جورج غير ستر (ترجمة خيري حماد) الصحراء الكبرى • بيروت ١٩٦١ ص١١٢ •

والف وخمسمائة متر كما في توكرت ، وحسب التقديرات يبلغ حجم الخزان المائي حوالي ١٢/٠٠٠ مليار متر مكعب ويمتد لمسافة تفوق النصف مليون كم٢[٥]

وتتيجة لطبيعة تكوين واتجاهات التضاريس الارضية وبشكل خاص في المناطق التي تكون فيها مثل هذه التضاريس حاده ان تكونت هناك اخاديد عميقة مجوفة اصبحت اقرب الى الانهار ، وتكون هذه ضمن التضاريس المتجهة من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي والتي يعود تكوينها الى الفترة الثالثة من العصور الجليدية[٦] .

ولاتزال مصادر المياه وفيرة حتى يومنا هذا في المناطق الجبلية والساحل الطويل للشمال الافريقي او المغرب الكبير ، وتتراوح الامطار مابين ٤٠٠ ـ ٦٠٠ ملم على طول هذا الساحل وتزيد على ٨٠٠ ملم على المنحدرات الشمالية لجبال الاطلس وعلى هضبة مراكش .

وينبع من عقدة الاطلس الكبرى مجموعة من الانهار تتجه نحو الشمال الشرقي لتصب في البحر المتوسط ومثل ذلك نهر مولاوي ، كذلك يوجد نهر شليق ويساهم هذا في تخزين حوالي اربعة ملايين مترا مكعبا ، ونهر ماجردة في تونس الذي اقيمت عليه ثلاثة سدود لتوفير مزيد من المياه للاراضي الصالحة للزراعة التي تبلغ مساحتها نحوا من ١٣٠ الف فدان[٧] .

ومن مجموعة التضاريس المرتفعة الاخرى مرتفعات الحجار التي تضم عددا من الهضاب الوعرة التي تعرضت لعوامل التعرية فأزالت الكثير من

---

(٥) الطاهر عدواني : دراسة للحضارة في عصور ماقبل التاريخ بالصحراء الجزائرية وخاصة اثناء العصر الحجري الحديث ، رسالة نال بها المؤلف درجة الماجستير من جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٤ ص ٢٠-٢١ .

(٦) Ch. A. Julien. Ibid, P. 7.

(٧) د . محمد ابراهيم حسن : دراسات في جغرافية ليبيا والوطن العربي ، الجامعة الليبية ، ١٩٧٢ ص٩-١٠ .

صخورها السطحية • وتكون جبال هذه المنطقة شديدة الانحدار مكونة بين سلاسلها وديانا حادة ايضا ، ويرى البعض انها محفورة بفعل مياه السيول خلال الزمن الجيولوجي الرابع أي خلال الفترة المطيرة في هذه المنطقة[٨] •

كذلك تدل بقايا مجاري الانهار المؤقتة والشبكة الضخمة من القنوات المتصلة على غزارة المياه الناجمة عن الامطار النازلة خلال الفترات المطيرة في الصحراء وتميز في وادي ساورا مثلا مجموعة من بقايا المجاري توصل الى منطقة العرق الغربي الكبير •

والى الشرق من هذه المجموعة الجبلية ، تغطي مجموعة مرتفعات تبستي، المجاورة لمجموعة جبال الحجار ، مساحة يقرب قطرها من ٣٨٠كم ، وهذه مجموعة قريبة من مجموعة جبال اخرى تمتد الى الشرق والجنوب الشرقي من جبال الحجاز وباتجاه الشرق مثل جبل العوينات والجلف الكبير وجبل السودا بجنوب طرابلس • والواقع ان الامر بالنسبة لهـذه المجموعـة من المرتفعات التي تكشف عن ارض بلورية تمتد من الغرب الى الشرق ، وتضم ايضا طبقة رسوبية قليلة السمك ، ويبدأ ارتفـاع الارض احيانا بشكل كبير مثل ارتفاع منطقة الامير كوزي ، (Koussi ، ٣٤١٥م والارتفاع الاخر المعروف في منطقة الحجار وتبستي • وتنحدر من هذه المرتفعات مجموعات من الاودية الجافة بعضها من مرتفعات الحجار وتتجه الى حوض تابيلات ويلحق بها المجموعة التي تتجه نحو الجنوب وتنتهي الى منخفض تتوسطه بحيرة تشاد وهذه مجموعة هي التي كانت تصرف مياه نهر النيجر الاعلى قبل حدوث الاسر النهري عند مدينة تمبكتو ، ومثـل تحويل ميـاه النيجر نحو الجنوب بدلا من فيضانه في دلتا الصحراء[٩] •

---

(٨) د • يسرى الجوهري • شمال افريقيا • الاسكندرية ، ١٩٧٦ ص ١٩ •

(٩) McBurney. C. B. M. The Stone age of Northern Africa. Pelican book, 1960 P. 73.

Huzayyin S. A. Changes in Climate, Vegetation and human

←

اما بالنسبة للواقع المناخي فان طرق البحث العلمي الحديث والمنهجية في علم الاثار اضافت تحديدات مفيدة جدا اصبحت معها نتائج البحث في فترة ما قبل التاريخ في المنطقة ذات ابعاد علمية جديدة . لقد افاد الباحثون من الطرق العلمية الجديدة في سبيل تحديد الفترات الزمنية وطبيعة الظروف المناخية خلال العصور ماقبل التاريخية ومن ذلك استخدام طريقة تحليل الرواسب من المياه وبقايا الحيوانات والنباتات وغبار الطلع في اماكن وجوده وبالذات في مناطق شمال افريقيا حيث اجريت دراسات الباحثين : فان كامبو ، M. Van Campo وكينية ، Ph. Guinet وبوشير ، F. Beucher [١٠] .

وتوضح نتائج تحليل بقايا النباتات المتفحمة صورة نموذجية عن المساحات الكبيرة من الاراضي المزروعة في عصور ماقبل التاريخ ، وتتغير بقاع هذه الاراضي تبعا لتغير المناخ وبطبيعة الحال فان مثل هذا التغير المناخي يؤدي الى انتقال وهجرة الحيوانات ايضا .

كذلك فان من نتائج الاختبارات الخاصة بمناخ مايعرف بالمرحلة الايبروموريسية (أو الايبروموريطانية) (المعروفة ايضا بمرحلة الثقافة الوهرانية) والمحددة زمنا بين الالف الرابع عشر والعاشر ق . م ، كما يرى في ذلك العديد من الباحثين ، فانها كانت تتميز في بداية المرحلة بارتفاع

---

adjustment in the Sahara - Arabian belt with a special reference to Africa, in Man's role in changing the Face of the earth, edit. Thomas. Chicago. 1956.

د . يسرى الجوهري . نفس الصدر السابق ص١١ .

وجدت فؤوس من الحجر من الفترة الاشولية في بعض هذه الاودية مثل وادي ساورا ووادي مردوم في طرابلس وفي وادي ازاوه ، Azawa وجدت بقايا تماسيح وفرس النهر مطمورة في الكثبان الرملية المتحجرة والتي طمرت بعد تكوينها احد القنوات او الاودية .

(١٠) M. Couvert. Variations Paleoclimatiques En Algerie. in : LIBYCA. Tome : XX. 1972, P. 45.

نسبي في درجات الحرارة بشكل أوجد معه ظروفا جديدة للجماعات الساكنة بشكل مؤقت في بعض المناطق المنخفضة من الجبال غير البعيدة عن البحر .

كذلك وجد ان تبدلا تدريجيا في المناخ قد حدث بعد ذلك وامتد هذا التبدل لعدة قرون كانت خلاله درجات الحرارة في ارتفاع متزايد حتى فترة الالف العاشر ق.م حيث تبدأ معدلات درجات الحرارة بالارتفاع بشكل بطيء وصولا حتى الالف التاسع ق.م .(١١)

كذلك كشفت الدراسات الخاصة بالتكوينات الارضيـــة والطبقات الرسوبية في منطقة الحجار عن بقايا نبات الفستق (Ephedra و Pistacia) من فترة ما يعرف بالاپيپاليولثك ، (Epipaleolithique) وهو التعبير للتسمية الخاصة بفترة العصر الحجري الوسيط .

وحسب اختبارات (C.14) وجد ان زمن هذه المرحلة في هذه المنطقة يعود الى حوالي ٧٩٢٥+١٣٠ق.م .

ووجدت ايضا بقايا شجرة الاثل والـ Menacantha و Cernulaca بكثرة وذلك من فترة احدث زمنا وفي نفس المنطقة من الحجار حيث ارخت بنفس الطريقـة (C. 14) بـ : ٦١٥٠+١٥٠ق.م . كذلك يوضح بقايا الطلع

---

(١١) نفس المصدر السابق ص : ٤٨ .

كذلك يلاحظ بانه قد تم العثور على رسوبات من العصر المطير في مرتفعات تاسيلي ، شمال منطقة جبال الحجار وكذلك في منطقة وادي مردوم في شرق طرابلس الليبية ، ونعرف عن تخلل فترات المطر والعصر المطير لمراحل جفاف بعـد تراجع الموجات الباردة نحو الشمال ، وكان هذا الجفاف تدريجي احيانا ومفاجئا في بعض اقسام الصحراء ، والمفاجيء هنا جـاء على مرحلتين يحدد الباحثون المرحلة الاولى منه بعد فترة البلايستوسين اي منذ حوالي ١٢ الف سنة والاخر حدد خلال الالف السادس ق.م .

النباتي من جنس نباتات مناطق السهوب ، الاستيبس ، من فترة ٥٩٣٠+١٥٠ ق.م[١٢] .

واكتشفت في مواقع قريبة من منطقة حاسي مسعود الواقعة في الصحراء الجزائرية بقايا حيوانية امكن تشخيصها بانها بقايا عظام لظبي كبير الحجم ، وكذلك لزرافة وسلحفات وغزال ، علما بان الوسط الطبيعي لمثـل هـذه الانواع من الحيوانات يكون في المناطق السهوبية التي تنمو فيها الشجيرات الصغيرة الحجم والمتوسطة ومنهـا الطرفة او الاثل كما اسلفنا ذكر ذلك .

وكذلك عثر في موقع قريب من منطقة حاسي مسعود ايضا على بقايا غزلان وابقار وبقايا طير بحجم الصقر وبقايا اسماك وقواقع وكل ذلك اضافة الى العثور على بقايا بقرة بالقرب من مدينة وركله وحدد تاريخها من فترة ٦١٥٠+١٥٠ ق.م[١٣] .

ويلاحظ من خلال البحوث الخاصة بالبيئة والمناخ في شمال افريقيا في الفترة اللاحقة لفترة نهاية الالف السابع ق.م هذه ، وجود فترة رطوبة وحالة نصف جفاف " Semi aride "،حدثت خلال العصر الحجـري الحديث ، ويوصف المناخ بعد هذه الفترة بانه كان اميل الى الجفاف . لقد اعتمدت هذه الملاحظات السابقة على تحليل غبار الطلع وتحليلات الغرين وخاصة في منطقتي الحجار وحاسي مويلة في الصحراء[١٤] ويرى الباحث الفرنسي كزيل ،

---

(١٢) Brezillon, M. et Chavaillon. N. Un Habitat néolithique Près d'Hassi Messaoud. Paris. 1966.

كذلك انظر مقررات المؤتمر الافريقي السادس والخاص ببحوث ماقبـل التاريخ والمنعقد في داكار عام ١٩٦٧ (البحث الخاص بتحديد تواريـخ مواقع العصر الحجري الحديث في الصحراء الكبرى) .

(١٣) Aumassip. G. Neolithique Sans Poterie de la region de L'oued Mya. Alger. 1972.

(١٤) Aumassip. G. Civilisations Préhistoriques des régions Sahariennes. (6e Cong. Panaf. de Préh) Dakar. 1969.

(Guezel) وهو من المتخصصين في دراسات متنوعة خاصة بشمال افريقيا خلال عصور ماقبل التاريخ ، ان مناخ الصحراء في حوالي فترة الالف الخامس ق٠م ٠ كان حارا وجافا ، بينما كانت مناطق الجبال في اقسام عديدة من الصحراء ماتزال وافرة الامطار خلال نفس الفترة[١٥] ٠

والمعروف ان بعض مناطق شمال افريقيا ومعظم مناطق الصحراء كانت ذات « حساسية » مناخية منطلقا من الالف السادس ق٠م ولفترة حوالي الف سنة لاحقة ، وحسب تذبذب الاوضاع المناخية فان الصحراء اخذت شكلها المعروف اليوم بعد هذه الفترة ويرى الدكتور عبدالمنعم ابو بكر حدوث تغير مناخي حدث خلال حدود فترة الالف السادس ق٠م في منطقة الشمال الافريقي ويرى في ذلك قلة في الامطار وميل المنطقة الى الجفاف ، ونتج عن ذلك هجرة التجمعات السكانية باتجاه المناطق القريبة او المتاخمة للصحراء ، ويحدد وادي النيل ، حسب رأيه ، أهم مراكز الجذب لهذه التجمعات السكانية المهاجرة ويرى الدكتور عبد المنعم ايضا بان مياه النيل كانت مشجعة لجذب ومن ثم استقرار هذه الجماعات التي استقرت بفعل توصلها الى الزراعة فيما بعد

وخلال نفس الفترة ، أي فترة الالف السادس ق٠م ، تم الكشف عن مستوطنات سكانية اخرى في ليبيا ،ق توصلت الى معرفة صناعة الفخار وذلك

---

(١٥) Guezel. S. Des Groupements Végeteaux du Massif de la Tefedeste, Sahara Occidental.
Trav. inat. Rech. Saharienne. Tome. 15 (1957) P. 73 - 63.

(١٦) Robert Raikes. Water. Weather. and Prehistory. London. 1967. P. 122. Ch. A. Julien. Ibid, P. 6.

ان المزيد من الجفاف وقلة الامطار المتساقطة في اية بقعة من الصحراء الكبرى كانت تؤدي دائما وحتى الان الى هجرات سكانية باتجاه مصادر المياه وتوفر اسباب المعيشة ومن ذلك ماحدث قبل حوالي ست سنوات في النيجر عندما هاجر مايقرب من ٥٠ الف شخص باتجاه الشمال وخاصة باتجاه الجزائر ٠

في منطقة الجبل الاخضر ، وهذا يدل دون شك على وجود الاستقرار السكاني في هذه المنطقة معاصرة لاستقرار تجمعات اخرى في وادي النيل .[١٧] والمعروف عن منطقة الجبل الاخضر انها كانت خصبة خلال هذه الفترة وهي ماتزال كذلك حيث تحتفظ بغطاء نباتي من بقايا الفترات المطيرة . والمعروف ان هذا الغطاء النباتي في منطقة الجبل الاخضر هو جزء واستمرار ... للغطاء النباتي المغطي لمناطق الحجار وتبستي حيث تتوفر فيها نباتات تنتمي الى مجموعة النباتات الخاصة بمناطق البحر المتوسط .

وتتوضح اهمية منطقة الجبل الاخضر من الناحية الجغرافية بالاضافة الى ظروفها المناخية والطبيعية الملائمة ، في انها صارت خلال هذه الفترة محطة طبيعية ملائمة ربطت التجمعات السكانية لجزئي المغرب اي الشمال الافريقي الغربي والشرقي واصبحت بالتالي منطقة استقرار ملائم للمهاجرين من مناطق جنوب غرب اسيا ايضا .

وكشفت التنقيبات الاثرية والدراسات المرتبطة بها عن بقايا عظام حيوانية في هذه المنطقة ، اضافة الى مناطق اخرى من شمال افريقيا والتي تعود بقايا العظام فيها الى حيوانات من اصل اسيوي ، واخرى من اصل اوربي . ومن هذه البقايا الحيوانية الاسيوية الاصل الغزلان والدببة والاغنام. هذا اضافة الى انتشار مجموعات النباتية الخاصة المعروفة بنسبتها الى مجموعة نباتات البحر المتوسط والتي كانت تغطي المنطقة الممتدة من جبال اطلس وهضبة ومرتفعات الحجار التي مازالت خلال هذه الفترة تحتفظ بانواع باقية من نباتات نفس منطقة البحر المتوسط اضافة الى نباتات خاصة بمناطق السودان المعروفة باتصالها الطبيعي واتصالها البشري خلال الهجرات بمنطقة الحجار[١٨] .

---

(١٧) من وقائع المؤتمر السادس للاثار العربية في ليبيا . القاهرة ، ١٩٧٣ . ص ٤٧٠ .

(١٨) MCBurny. C. B. M. Ibid. P. 70.

ووقائع المؤتمر الاثاري في ليبيا . القاهرة ، ١٩٧٣ .

ونورد في ادناه بعض الاستنتاجات التي توصل اليها الباحث الفرنسي هنري لوت ، (H. Lohte) المتخصص بعصور وفنون ماقبل التاريخ في شمال افريقيا والصحراء والذي يقترح ، اعتمادا على دراساته التي اجراها في المنطقة ان هناك مناطق في الصحراء الحالية كانت بين فترتي الالف الثامن والخامس ق٠م تتمتع بمناخ معتـدل ولكنه اكثر ميلا الى الجفاف ، كذلك ظلت مناطق واسعة اخرى تتميز بانتشار النبات والحيوان فيها ، وان التجمعات السكانية خلال هذه الفترة كانت على العموم تعتمد في اقتصادياتها علـى الصيد[١٩] • ويحدد هذا الباحث ايضا فترة الالف الخامس وحتى الثالث ق٠م بانها كانت ملائمة اقتصاديا للتجمعات السكانية • كما ويذكر استمرار اعتماد التجمعات السكانية هذه على الصيد بالدرجة الرئيسية اضافة الـى ممارسة الرعي [٢٠] •

لقد وجد باحثون اخرون ان ارتفاع درجات الحرارة قد حدث في بداية مرحلة العصر الحجري الحديث وان انتقالا للنباتات قد حدث تبعا للواقع المناخي المتغير ويشبهون هذا الانتقال والهجرة قد حدث قبل فترة الانتقال والهجرة للحيوانات[٢١] •

كذلك امكـن رصد فترات جفاف مستمرة او متلاحقة ابتداء من فترة منتصف الالف الرابع ق٠م وخاصة في مناطق فزان والمنطقة الوسـطى من الصحراء ، وكذلك رصد تغييرات في طبيعة النباتات وكذلك في حركات الهجرة الخاصة بالرعاة في سبيل البحث عن مناطق اكثر ملائمة • كما وتؤخذ في نظر الاعتبار عند دراسة المناخ والتغييرات الطبيعية الرسوم التي تركها فنانـو

---

(١٩) A La découverte des Fresques du Tassili : édit. Arthaud. Paris. 1958.

(٢٠) Ibid. and : Jean, Mazel. Énigmes du Maroc. édit, R. Laffont, Paris, 1971. P. 29-30.

(٢١) M. Couvert. Ibid. P. 45-48.

الفترة هذه والتي تتضمن موضوعات خاصة باشكال الماشية وقطعانها والرعاة المختصين في مناطق فزان والسودان •(٢٢)

ان اختبار علميا لكل معطيات منطقة هضبة الحجار توضح بالنتيجة تتابعا متدرجا يوضع بشكل متسلسل التبدلات المناخية وتنائج تلك التبدلات الحاصلة في هذه المنطقة المهمة من الصحراء الكبرى ، ففي دراسة مهمة للباحث الفرنسي دفيلير ، (C. Devillers) (٢٣) وجد ان الطبقات الارضية تتابع بالشكل التالي :ـ

« عرق رملي ثم طبقة من طين اخضر بسمك نصف متر ، ثم طبقة من رمال بيضاء ثم طين اخضر متماسك يحتوي على بقايا عظمية وادوات حجرية سمجة الصنع • كذلك بقايا حيوانية في الطبقات غير الرملية ومنها بقايا عظام فيلة ذات حجـوم كبيرة يصفها دفيلير بانها ضخمة جدا ، كذلك بقايا عظام فرس النهر ووحيد القرن وحمار الوحش والغزلان وبقايا التماسيح والطيور وعلى سطح الموقع عثر على بقايا ترجع الى فترة العصر الحجري الحديث ومنها ادوات فخارية وسهام مصنوعة من العضم • »

ويستنتج من خلال البحوث الميدانية المشابهة التي قامت بها الباحثـة المعروفة كاتون تومبسون ، (Caton Thompson)، وذلك في الاجزاء الغربية

---

(٢٢) انظر التوسع : د • فوزي فهيم جاد الله :

« بين ليبيا والسودان في العصور القديمة » طرابلس ـ ليبيا • ١٩٧١ (القاهرة ١٩٧٣) ص ٤٠ ، كذلك انظر عن انتشار التجمعات السكانية بفعل الجفاف باتجاه وادي النيل والسودان • • •

Arkell. A. J. History of The Soudan. London. 1955. PP. 28, 34.

(٢٣) Les depôts quaternaires de L'erg tihodaine Sahara Central, Congrs prehis. de France. XIII. Paris. 1950. P. 276-278.

كذلك انظر التفاصيل الخاصة بانطمار مثل هذه الحيوانات من هذه الفترة نتيجة الجفاف كما يقترح : د • يسرى الجوهري : شمال افريقيا : دراسة في الجغرافية التاريخية والاقليمية : بيروت ١٩٦٨ ص ٣٧ •

من منطقة وادي النيـل (منطقة البحيرات الخارجة وفي منطقة الفيوم) انـه بعـد انتهـاء فترة الجفاف الكبير الواضح ، الاول بعد فترة البلايستوسين ، ان مياه احدى البحيرات قد ارتفعت بشكل واضح خلال فترة العصر الحجري القديم الاعلى . كما وجدت هذه الباحثة ، من خلال اختباراتها في مناطق اخرى في الصحراء الافريقية الجنوبية الغربية ، ان تغييرات مناخية حدثت خلال فترات الجفاف ومن ثم اعتدال المناخ ثانية[٢٤] ، وان تلك التغييرات تستمر بين الاعتدال والتذبذب في المنطقة حتى فترة العصر الحجري الحديث .

لقد مهدت طبيعة هذه الظروف الناخية المتغيرة الى انتشار التوسـع السكاني خلال فترة العصر الحجري الحديث وبشكل خاص في الاقسـام الجنوبية الشرقية من الصحراء الكبرى وهي الاقسام المعروفة بالصحراء الليبية وحتى الاقسام الشرقية من وادي النيل[٢٥] ، والمنطقة الاخيرة هذه كانت مشجعة على الاستيطان في الفترة اللاحقة اي فترة عصر الاسرات الاولى في مصر وحتى زمن السلالة السادسة .[٢٦]

وتوضح بقايا الاثار في مناطق غرب النيل ، حيث مناطق الواحـات ، امكانية المعيشة المستمرة بالقرب من هذه المقرات المائية ، ومن هذه البقايا

---

(٢٤) Raymond Furon. Manuel de Préhistoire Générale. Paris. Payot. 1958. P. 241.

Sandford. K. S. Problems of The Nile Valley. Geogr. Rev. New York. 1936. P. 67. 76.

(٢٥) لقد امكن لهذه الجماعات امكانية رعي الحيوانات والصيد ولفترات غير قصيرة انظر للتوسع في ذلك :

Butzer. K. W. Cambridge Ancient History : 1, 2 (1965) P. 36.

(٢٦) نفس المصدر اعلاه وكذلك :

Butzer. K. W. "Environment and Human ecology in Egypt during Predynastic and Early Dynastic Times". in : Bull. Soc. Géogr. d' Egypt. 32 (1959) 39-87.

الاثرية الادوات الحجرية المكتشفة والتي توضح تدرجا واستمرارية في اتخاذ هذه الاماكن مناطق استقرار مستمر ابتداء من نهايات فترة البلايستوسين وحتى بداية الاسرات في مصر ، أي لفترة تزيد على خمسة الاف عام نزل خلالها مستوى سطح احدى البحيرات اكثر من اربعين مترا •[٢٧] ويؤكد الباحث كلارك ، (D. Clark) في دراسته الموسومة[٢٨] « جذور ماقبل التاريخ للمدينة الافريقية » بان انتشار نباتات البحر المتوسط باتجاه اطراف الصحراء خلال هذه الفترة واعتماد اقتصاديات التجمعات السكانية القريبة من الانهار والبحيرات في هذه المناطق ومناطق جنوب الصحراء على صيد الاسماك والقواقع اضافة الى ان ملائمة مثل هذه المواقع وتوفر المعيشة فيها قد احدث تطورا حتى في نوعية الادوات التي اصبح بعضها يصنع من المعدن بدلا من الحجر •

لقد عثر ايضا على بقايا من نباتات اشجار وشجيرات مثل الاثل والاكاسيا والجميز ، (Sycomores) ، في اطراف الصحراء الجنوبية الغربية هذه بالقرب من امتدادات مياه الانهر وخاصة في مناطق الخوالد ودير طاساء وامكن تحديد فترات نمو مثل هذه المجموعات من النباتات والاشجار بين دور البدارى وفترة الاسرة الرابعة •

لقد تأكد مثل هذا التحليل من دراسة تفاصيل اثار الاسرتين الخامسة والسادسة وخاصة من خلال المنحوتات البارزة من قبور سقارة ومقابر دير الجيزاوي ومن منطقة ابو صير في معابد ساحور وتبين هذه المجموعات من المنحوتات البارزة ارضيات متنوعة من مناطق الصحراء التي تنبت في بعض اقسامها اشجار الاكاسيا والجميز ومجموعات من النباتات الغضة التي تنمو في ظروف تتوفر فيها المياه •

---

(٢٧) Alimen. H. The Prehistory of Africa. London. 1957. P. 87.

(٢٨) J. Desmond Clark. "Prehistory Origins of African Culture". in : Papers in African Prehistory, Edited by J. D. Fage R. A. Oliver. Great Gritain. Cambridge. 1970. P. 18-19.

ان مثل هذه المجموعة لابد وان تنمو معها وبنفس ظروفها المناخية نباتات عديدة اخرى تستلزم بشكل عام نسبة مشابهة من الظروف المناخية والمياه الكافية .[٢٩] هذا اضافة الى معرفة التجمعات السكانية في الاقسام الشمالية الشرقية من افريقيا زراعة الحبوب بتأثير توسع انتشاره من مناطق جنوب غرب اسيا منذ الالف الخامس ق.م ومعرفته ايضا من جانب سكان الغيوم المستوى A المحدد بواسطة اختيار (C. 14) من حوالي ٤٣٠٠ ق.م وان مثل هذا الانتشار في معرفة زراعة الحبوب قد توسع في وادي النيل وباتجاه الساحل الى برقة في ليبيا ويتضمن ذلك مناطق الواحات الشرقية بالنسبة للصحراء .[٣٠]

ان بقايا حيوانات المنطقة هذه وخاصة منطقة الواحات الواقعة غربي النيل ومناطق مجاورة واقعة في الصحراء الشرقية كانت توضح امكانية معيشة

---

(٢٩) قام كل من (Caton - Thompson) و (Gardner, E. W.) بدراسة ظروف هذه المنطقة من الناحية الطبيعية ، فوجدا مجموعات كبيرة من المواد الاثرية التي طرحها نهر النيل ، بفعل فيضاناته الكبيرة السابقة الى مسافات وصلت حتى الاراضي الليبية من جانب الساحل ، ولقد وجدت اثار لتجمعات سكانية بشكل يوضح هذا الوجود لهذا السكن . وعن الطبيعة المناخية واختلافاتها المتدرجة والحادة خلال الفترات المطيرة وفترات الجفاف انظر :

The Aterian Industry : its Place and Significance. in : The Pala. thic. Royal Anthr. Institute. London. 1947.

(٣٠) J. Desmond Clark. Ibid. P. 27.

ان مثل هذه البيئة المفضلة مكنت صيادي اواخر العصر الحجري المتوسط بوسائلهم المتطورة من استحصال الطعام من اعمار الصحار الى درجة لم تكن ممكنة من قبل فاصبحت هذه التجمعات قادرة على تبني زراعة الحبوب الغذائية وتدجين الحيوانات والمخلفات الحضارية لجماعات العصر الحجري الحديث والمتوسط في جنوب الصحراء ، من موريتانيا في الغرب الى الخرطوم في شرق النيل تشير الى طريقة في الحياة تعتمد على صيد الحيوانات والاسماك .

هذه الحيوانات خلال فترة العصر الحجري الحديث في الاقسام الصحراوية الان،وتوضح الاشكال المحفورة والمرسومة بالالوان على الصخور في الصحراء اليوم انواعا مختلفة من هذه الحيوانات مثل الفيلة والكركدن الافريقي والزرافة والبقر الوحشي الافريقي والوعل وانواعا من الغزلان والخراف والقردة والقطط الكبيرة والضباع والنعام .... كذلك فان التجمعات السكانية في كل المناطق الواقعة تقريبا في مناطق غرب النيل وخاصة في اطراف واحات الخارجة والداخلة ومنطقة عوينات ، وتبستي الشرقية والغربية كانت غير معزولة عن بعضها البعض ويحتمل اكثر من ذلك ان يكونوا من جنس واحد [٣١] .

وبين فترة عصر السلالة الاولى والرابعة في مصر بدأت بعض هذه الحيوانات تختفي وتنتقل الى مناطق اكثر ملائمة ،وكان انتقال هذه الحيوانات مثل الكركدن والفيل والزراف باتجاه وسط وجنوب افريقيا .

وتشير الوثائق الهروغليفية من عصر الدولة القديمة الى المجاعات التي حدثت جراء انخفاض مستوى نهر النيل ، كذلك تتميز الفترة المحددة بـ ٢٣٥٠ق.م وما بعدها في انها كانت غير مشجعة اقتصاديا ويمكن مقارنة ظروفها المناخية بالمناخ الحالي في مصر اليوم[٣٢] .

ومن المعروف ان الاختلافات الفصلية في مناطق السهوب بشكل عام تمثل ظاهرة مناخية عامة ، وكانت الصحراء الكبرى ضمن هذه المناطق ، ويكون تحرك البشر وكذلك الحيوانات والنباتات ايضا تابعا للتغير المناخي فيها وخاصة عندما يكون مثل هذا التغير حادا .

---

(٣١) Butzer. K. W. Cambridge Ancient History, 1. 2. 1965 P. 35-36.

(٣٢) Ibid. P. 37.

Butzer, K. W. Bull. Société de Géogr. d Égypte. 33 (1960) P. 5-36.

تاريخ الآثار بحلقات الاشجار

بقلم
الدكتور تقي الدباغ
استاذ بكلية الآداب
جامعة بغداد

بعد الانتهاء من التنقيبات في المواقع الاثرية تتراكم امام المنقبين مجموعات ضخمة من مواد اثارية تستلزم بالاضافة الى وصفها ورسمها وتصويرها وتفسير اهميتها تحديد تاريخها تحديدا مطلقا او نسبيا وتحديد تاريخ المادة الاثرية بالسنوات او بالنسبة لما هو اقدم او احدث منها يتبعه تنظيم جدول بتسلسل الادوار الزمنية للحضارات في قطر او اقليم معين ومثل هذا التنظيم يسهل عادة مهمة العاملين في الاثار بوجه عام للتعرف على الحدود الزمنية لكل حضارة ولكل مادة اثرية يعثرون عليها .

وطرق تأريخ الاثار كثيرة في هذه الايام وعلى الرغم من كثرتها يمكن جمعها في صنفين يشمل الصنف الاول طرق التاريخ المطلق وهي طريقة بوتاسيوم اركون وطريقة الكربون الرابع عشر الاشعاعي وطريقة حلقات الاشجار والطريقة الاولى تسجل تاريخ الاثار بملايين السنوات أي انها تحدد زمن الاثار مهما كان موغلا في القدم والطريقة الثانية تعين تاريخ المادة الاثرية في حدود الثمانين الف سنة الماضية اما الطريقة الثالثة فترجع بنا الى الوراء لغاية عام ٩٠٠٠ قبل الميلاد ولو ان تطبيقاتها العملية في الوقت الحاضر تقف عند عام ٥٩ قبل الميلاد . اما الصنف الثاني فيشمل طرق التاريخ النسبية

مثل الطريقة الجيولوجية والطريقة الكيمياوية والطريقة النباتية وطريقة المقارنة بالانواع وطريقة تعاقب الطبقات وطريقة تخمين حجم الانقاض الاثرية وفي جميع حالات الصنف الثاني يقدر تاريخ الاثار والادوار الحضارية تقديرا بالنسبة لما هو اقدم او احدث منها وهكذا يستطيع منقب الاثار ان يعطي فكرة عامة عن تاريخ الموقع الاثري وتاريخ محتوياته دون ان يحدد ذلك التاريخ تحديدا دقيقا بالسنوات •

ان طرق التاريخ المطلق ومعظم طرق التاريخ النسبي وثيقة الصلة بالعلوم الطبيعية(١) وتستلزم تعاون علماء الجيولوجي والنبات والحيوان والكيمياء والفيزياء مع علماء الاثار • وسيتناول هذا البحث طريقة التاريخ بحلقات الاشجار بشيء من التفصيل لانعدام ماكتب عنها باللغة العربية تقريبا لحد الان ولان استخدامها في الوطن العربي ممكن • اما الطرق الاخرى فستشرح بمثل هذا التفصيل في وقت اخر •

ان تاريخ الاثار بواسطة حلقات الاشجار يتم بمقارنة حلقات النموذج الاثري المصنوع من الخشب بجدول او تقويم يضم حلقات اعمدة خشبية او مواد خشبية سالمة او محترقة معروفة العمر والزمن وهناك انواع من الاشجار تتميز فيها حلقات سنوية متتالية تختلف في عرضها باختلاف موسم فصل النمو • ان هذه الطريقة تعطينا اكثر التواريخ دقة بالمقارنة مع الطرق الاخرى ولكن استخدامها يقتصر على مناطق معينة من العالم تتوفر فيها اشجارطويلة العمر توجد فيها حلقات كثيرة وحيث بقيت فيها اخشاب قديمة زمنا طويلا في باطن المواقع الاثرية دون ان يصيبها التلف • وافضل طريقة مناسبة من حيث توفر الظروف الطبيعية والبشرية الملائمة هي جنوب غرب امريكا وشمال المكسيك وقد تم استخدام حلقات الاشجار في هذه المنطقة بنجاح تام لتاريخ الاثار المستخرجة من مستوطنات الهنود الحمر وفي السنوات الاربعينية من

---

١ — Zeuner, F. Dating the Past, London, 1946, P. v.

هذا القرن نجح المهتمون بهذا الموضوع في تنظيم تقويم خاص بحلقات اشجار مؤرخة قبل الاهتداء الى استخدام طريقة الكربون الرابع عشر الاشعاعي التي اصبحت تطغى على الطرق المفضلة الاخرى في تاريخ الاثار • وقد ازدادت في السنوات الاخيرة اهمية التاريخ بحلقات الاشجار للتأكد من دقة التواريخ المستنبطة من استخدام طريقة الكربون الرابع عشر المشع ولا يقصد من هذا القول التقليل من اهمية التاريخ بحلقات الاشجار فقد تبين في عام ١٩٧٢ ان حلقات الاشجار استخدمت في تاريخ ١٥٠٠ حالة(٢) •

ان حلقات الاشجار التي تمثل نمو محيط الشجرة الذي يتسع سنة بعد اخرى تختلف في عرضها باختلاف فصل النمو فعرض جدار الحلقة يكون واسعا في الفصل الذي تسقط فيه امطار غزيرة ويكون رفيعاً في الفصل الذي يقل فيه سقوط الامطار وهكذا تتابع الحلقات المختلفة في عرضها حسب موسم النمو وهذه الحلقات هي التي تعتمد ويسترشد بها عنـــد تحديد تاريخ الاثر الخشبي المستخرج من الموقع الاثري • ان الاشجار والاعمدة الاولى التي استخدمت في وضع تقاويم الحلقات هي اشجار او اعمدة خشبية صنوبرية من نوع دوكلاس وهذا النوع من الاشجار ينتشر في جنوب غرب امريكا وتبقى عادة نامية مدة طويلة • والحلقة الواحدة في الشجرة تدل على سنة واحدة من عمرها اذا كان فصل النمو فصلا واحدا وعدد الحلقات في الشجرة يدل على عمرها بالسنوات على اساس ان كل حلقة تنمو في كل سنة ويمكن حساب عمر الشجرة النامية باخذ نموذج منها دون قطعها وقد استمر البحث عن الاشجار النامية والمقطوعة في العصور القديمة مدة طويلة حتى تم في الاخير تنظيم تقويم بالحلقات المقارنة لكل منطقة وبمتابعة نمو اشجـــار الصنوبر من هذا النوع في العصور القديمة تبين انها لم تكن تنمو في الفترة التي سبقت عام ٥٩ قبل الميلاد ولكن الباحثين وجدوا في عام ١٩٦٠ نوعا من

٢ ـ Brennan, L. Beginer's Guide to Archaeology, Pensylvania, 1973, P. 139-140.

الاشجار الصنوبرية ذات الهلب ينمو في غابات الجبل الابيض في جنوب شرق كليفورنيا في مجموعات عائلية تتألف من اجيال عديدة وقد اندهش المعنيون بدراسة التاريخ بواسطة حلقات الاشجار حين وجدوا اسلافا لهذه الاشجار متمثلة في الاعمدة الخشبية تصل في زمنها الى ٩٠٠٠ سنة مضت(٣) ويعتقد ان هذه الاعمدة الخشبية تساعد على وضع جدول مقارن بحلقات الاشجار يرجع في قدمه الى سنة ٧٠٠٠ قبل الميلاد وهذا القدم في التاريخ يساعد على التأكد من دقة اختبارات الكربون الرابع عشر على الاثار المستخرجة من المناطق التي تتوفر فيها الاخشاب المقطوعة • ومن الناحية الثانية لايمكن الاستفادة من اخشاب هذه الاشجار لتاريخ المواد الاثرية التي تستخرج من مواطن الهنود الحمر بامريكا لان مثل تلك الاخشاب الصنوبرية لم يعثر عليها مع المواد الاثرية التي صنعها الانسان(٤) •

وعلى الرغم من الدراسات السابقة في موضوع حلقات الاشجار فان اهميتها في تاريخ الاثار ظهرت في اوائل هذا القرن • ان حلقات الاشجار كما ذكرنا تنمو نموا طبيعيا بمعدل حلقة واحدة في السنة الواحدة ويشير عددها في الشجرة المقطوعة الى عمرها عندما قطعت ويمكن بواسطتها معرفة تاريخ العمود الخشبي اوالمادة الثرية الخشبية التي تظهر في المستوطنات الاثرية بشكل معقد وذلك بمطابقة الحلقات المجهولة التاريخ مع الحلقات المعلومة التاريخ من حيث الشكل والعدد ولاحتساب تاريخ الاخشاب القديمة يجب توفر تقويم خاص بحلقات الاشجار يشمل اكبر عدد من حلقات الاعمدة الخشبية القديمة مرتبة حسب التسلسل المعكوس اعتبارا من تاريخ حديث لشجرة معلومة الى تاريخ قديم لشجرة اقدم عهدا وهكذا(٥) •

---

٣ _ Brennan, L. Beginer's Guide to Archaeology, Pensylvania, 1973, P. 140.

٤ _ Hester, T.; Heizer, R.; and Graham, J. Field Methods in Archaeology, California, 1975, P. 262-263.

٥ _ انظر الشكل _ ١

ولتنظيم مثل هذا التقويم لابد من توفر الشروط التالية[٦] .

١ ـ وجود اشجار تنمو فيها حلقات سنوية واضحة في فصل نمو معين تنمو فيه الشجرة على ان يعقب فصل النمو فصل جفاف تقف فيه عملية النمو ولذلك تكون حلقة الشجرة واضحة وتظهر مميزة في المقطع العرضي للشجرة. ويلاحظ ان بعض الاشجار لاتظهر فيها هذه الميزة فاشجار النخيل مثلا ليس لها حلقات واشجار الحمضيات لها اكثر من حلقة سنوية واحدة[٧] . ان احسن الاشجار التي تتوفر فيها هذه الظاهرة هي اشجار الصنوبر بمختلف انواعها[٨]

٢ ـ نمو الشجرة يجب ان يكون معتمدا على عامل مناخي واحد كالامطار مثلا ويشترط ان يتم سقوطها في فصل واحد فاذا كانت كمية الامطار الساقطة اثناء نمو الشجرة ثابتة ظهر التجانس في عرض الحلقات واذا تغايرت مقاديرها اختل تجانسها فتصبح عريضة اذا كثرت ورفيعة اذا قلت والتجانس في سمك الحلقات يساعد الباحث في تحديد تاريخ الشجرة او القطعة الخشبية اذ يستطيع بواسطته ان يمز نفس النموذج للحلقة في شجرتين او ثلاث او خمس او اكثر في نموذجين او ثلاثة او خمسة او اكثر من النماذج الخشبية الاثرية وحلقة الشجرة المؤرخة تعطي نفس التاريخ لحلقة مماثلة في اشجار او اخشاب اخرى[٩] .

---

٦ ـ Bannister, B. Dendrochronology, in Science in Archaeology, Edited by Don Brothwell and Eric Higgs, Bristol, 1969, P. 193-194.

٧ ـ Robbins, W. and Rickett, H. Botany, New York, 1949. P. 91.

٨ ـ Bannister, B. and Smiley, T. Dendrochronology. Geochronology, University of Arizona Bulletin, Vol. XXVI, No. 2, 1955, P. 180.

٩ ـ Douglass, A. Precision of Ring Dating in Tree Ring Chronologies. Laboratory of Tree-Ring Research Bulletin, No. 3, University of Arizona Bulletin, 1946, P. 16.

٣ ــ استيطان الانسان القديم في منطقة الموقع الذي يراد تاريخ اثاره واستعماله للاخشاب بكثرة وخصوصا في اعمال البناء لان تنظيم التقويم او جدول الحلقات يحتاج الى نماذج وافرة من حلقات الاشجار ولحسن الحظ توفرت هذه الظاهرة في مستوطنات الهنود الحمر في القسم الجنوبي الغربي من الولايات المتحدة الامريكية حيث عاش هؤلاء في غابات صنوبرية تصلح اشجارها للتاريخ واستعملوا الكثير منها في بناء مساكنهم الامر الذي يسر مهمة الباحثين في تنظيم تقاويم وجداول الحلقات بنجاح منقطع النظير •

٤ ــ جودة حالة الاخشاب القديمة غير التالفة او المتفحمة الباقية في المواقع الاثرية فالحلقات الناقصة النمو والمنكسرة الحافات لاتفيد ويجب استبعادها • ان هذه الجودة تعين الفاحص على تمييز الحلقة الواحدة عن غيرها • ان الاخشاب القديمة تبقى سالمة لقرون طويلة ولا تبلى ولا تتلف في المستوطنات الجافة كالكهوف والمواقع الاثرية المنتشرة في المناطق الحارة • اما الاخشاب المتفحمة فغالبا ماتكون اعمدة لسقوف احترقت وسقطت على ارض المستوطن وبقيت في حالة جيدة تحت اكوام الانقاض والتراب المنهال عليها وتبدو حلقاتها واضحة للعيان اذا كانت سالمة ولا تبدو كذلك اذا تفتتت او تحولت الى رماد •

ان استخراج الاخشاب القديمة والمتفحمة ونقلها الى مختبرات الفحص والتحليل والدراسة يتطلب عناية خاصة والمنقبون الاثاريون يضعونها فيمحلول البارافين والكازولين لكي تتماسك ثم يشدونها بالخيوط ويلفونها بالقطن ضمانا لسلامة وصولها الى المختبرات ويذكرون عنها المعلومات الضرورية مثل اسم الموقع وتاريخ التنقيب •

وفي المختبر تجري عملية تسوية سطوح الاخشاب القديمة او المتفحمة بالات خاصة لتوضيح الحلقات ثم تفحص بعدسة مكبرة ثم تطابق حلقات القطعة الخشبية المجهولة التاريخ مع حلقات مشابهة لها في قطعة خشبية

معلومة التاريخ ثم ترسم على ورقة بيانية وتطابق مع حلقات التقويم ويستخرج تاريخ القطعة الخشبية القديمة[١٠] • والجدير بالذكر ان اقدم تاريخ يمكن الحصول عليه بطريقة حلقات الاشجار هو عام ٥٩[١١] قبل الميلاد • ترد اقدم الاشارات للتفكير بحلقات الاشجار في كتابات ثيوفراستوس الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد وكانت الدراسات المستمرة لعلماء النبات مفيدة جدا لفهم نمو حلقات الاشجار ومجالات استخدامها غير ان العالم الفلكي دوكلاس هو اول من ادرك اهمية حلقات الاشجار لمتابعة تعاقب ازمان الاثار وتحديد تاريخها • بدأ دوكلاس اختباراته على حلقات الاشجار في سنة ١٩٠١ عندما كان يبحث عن وسيلة يستخدمها لدراسة كلف الشمس وبعد عشرين سنة من التجارب ادرك اهمية الحلقات في الاشجار لتاريخ الاثار القديمة وكان انذاك قد امضى عشرة سنوات في دراسة تاريخ اثار الهنود الحمر من قرية بونيتو وقد اتخذ من تجاربه أساسا لتثبيت تاريخ اربعين قرية اخرى جرت فيها الحفريات في جنوب غرب امريكا وكانت طريقته في حساب تاريخ الاثار رجعية اذ تبدأ من الازمان الحديثة الى الازمان القديمة وهكذا الى الوراء في بطون عصور قبل التاريخ •

ان تاريخ الاثار بحلقات الاشجار يعني استخدام الحلقات مقياسا لتحديد الزمن وينحصر الاهتمام بهذا الموضوع فيالوقت الحاضر في مجالات علمالاثار ولكن الحلقات تساعد ايضا على فهم الاحوال المناخية التي كانت سائدة في البيئات القديمة عندما كانت تنمو فيها الاشجار التي تستخدم الان لتقدير عمر الاثار وتاريخ الادوار الحضارية ويتضح من هذا ان الفائدة الثانية من دراسة حلقات الاشجار لها صلة بعلم المناخ غير ان الكثيرين يفضلون حصر هـذه الفائدة بعلم الاثــار •

---

١٠ ـ Honigmann, J. The World of Man New York, 1959, P. 43.

١١ ـ Bannister and Smiley, 1955, P. 193.

ان حلقات الاشجار تكون واضحة في المقطع العرضي لمعظم الاشجار حيث يمكن تمييز الطبقات المتعاقبة للجزء الخشبي منها وكل طبقة تنمو نتيجة الذبذبات المناخية التي تحصل في البيئة اثناء فصول السنة والحلقة السنوية الواحدة تتألف من قسم داخلي له جدران عريضة ذات لون فاتح وقسم خارجي له جدران سميكة ذات لون غامق وينتهي هذا القسم بحافة حادة •

وفي المناطق التي تستخدم فيها حلقات لاغراض التأريخ نلاحظ نوعين منها تكون الحلقات في النوع الاول متجانسة العرض نسبيا وغالبا ما يقل عرضها كلما كبرت الشجرة ويتغير عرض الحلقات في النوع الثاني حتى عندما يقل عرضها مع استمرار نمو الشجرة ويطلق المهتمون بالموضوع على هذا النوع مصطلح الحلقات الحساسة وهي تفيد اكثر من غيرها لتاريخ الاثار • ان حلقات الاشجار الحساسة المتعاصرة النمو في ظروف معينة تبين تشابها قويا مع بعضها فالنماذج العريضة والرفيعة في الشجرة الواحدة تطابق مثيلاتها مطابقة تامة في شجرة اخرى[١٢] والتاريخ المقارن الذي يعتمد على هذه الظاهرة يمكن تحديده عند تمييز نفس النموذج من الحلقات في اشجار مختلفة وهذا التاريخ المقارن هو جوهر عملية تاريخ الاثار بالحلقات وتبرز في طريقة التاريخ المقارن بحلقات الاشجار مسألتان مهمتان الاولى في المناطق التي تتواجد فيها اشجار حديثة نامية قابلة للمقارنة وهذه الاشجار يمكن استخدامها لضبط عملية التاريخ واذا استخدمت بشكل جيد تم الحصول على تقويم جيد لمجوعة من الحلقات والثانية تشير الى نماذج الحلقات الموجودة في الاشجار التي تتأثر بعامل واحد او اكثر من عامل واحد من عوامل الطبيعة وهذا العامل او هذه العوامل قد تتعرض للتذبذب بين سنة واخرى ومع ذلك فان الحلقات تساعد على استقراء نمو مشابه في الاشجار ضمن منطقة جغرافية معينة • وعلينا ان لانفترض بان الاحوال

١٢- انظر الشكل -٢

الطبيعية المسؤولة عن نمو الحلقات في الاشجار هي نفسها دائما في كل زمان ومكان كما انه لايجوز لنا الافتراض بان التاريخ المقارن بحلقات يمكن استخدامه في جميع انحاء العالم لان اشجارا معينة تنمو في بيئة معينة هي وحدها تصلح لهذا الغرض ولايمكن استخدام التاريخ بالحلقات الشجرية في مناطق منفصلة عن بعضها انفصالا جغرافيا تاما .

وقبل الاقدام على استخدام الحل قات الشجرية لتاريخ الاثار في ايـة منطقة من المناطق يجب التأكد من توفر الظروف المناسبة لنمو الحلقات ولسوء الحظ ترتبط هذه الظروف بالمناخ في معظم الحالات ولذلك لاتكون عالمية في طبيعتها بل اقليمية . وينبغي التأكد من وجود اعداد كبيرة من حلقات الاشجار في الاخشاب القديمة او المتفحمة ذات العلاقة بالمستوطنات الاثرية التي يراد تحديد ازمانها كما ينبغي التأكد من استخدام تلك الاخشاب في عصور قديمة وخصوصا استخدام الاعمدة الخشبية في اعمال البناء ويجب ان تكون تلك الاخشاب او المواد الاثرية المصنوعة من الاخشاب سليمة وهناك مناطق كثيرة في العالم يتعذر فيها الاعتماد على حلقات الاشجار لمعرفة زمن الاثار لان سكانها القدماء لم يستعملوا الاخشاب على نطاق واسع في العصور القديمة او ان ماتركوه من الاخشاب والاثار تلف ولم يبق له اثر . ان المواد الخشبية التي تصلنا من وسط جاف هـي المصدر الرئيسي لتنظيم جداول وتقاويم حلقات الاشجار .

واذا كانت نماذج حلقات الاشجار (الاشجار النامية والاعمدة الخشبية المطمورة في باطن الموقع الاثري) متوفرة في اقليم معين وقابلة للمقارنـة والتطابق في الشكل والعدد فان التاريخ ممكن وبهذه الطريقة ينظم التقويم الذي يحوي حلقات شجرية من ادوار زمنية متسلسلة تبدأ من الحديث المعروف التاريخ الى القديم المجهول التاريخ وهذا القديم المجهول التاريـخ يتحدد زمنه بالتطابق مع الحلقات المعروفة التاريخ وبهذه الطريقة المضنية يتم

تنظيم التقويم او الجدول المقارن ويستغرق تحضيره زمنا طويلا واذا وضع التقويم سهلت معرفة تاريخ حلقات النماذج الاثرية المجهولة التاريخ بالتطابق مع حلقات التقويم الذي ثبتت فيه تواريخ الادوار الزمنية •

ان اهم شيء في تنظيم تقويم حلقات الاشجار هو وضوح الحلقة الشجرية وهذا الوضوح لايكون تاما الا بعد دراسة المقطع العرضي للب الشجرة (او العمود الخشبي القديم او المادة الاثرية الخشبية) أو لنصف قطرها • وكان الحصول على المقطع العرضي للشجرة النامية صعبا في الماضي اما الان فقد ابتكرت الات حديثة جيدة يمكن بواسطتها ان نحصل على مقطع عرضي واضح للشجرة النامية وللنماذج الخشبية المتحفية والمواد الخشبية المستخرجة من مواقع الاثار ومن اهم تلك الالات الازميل المزود بمنشار مدور الشكل[١٣] • وهناك طرق خاصة بجمع الاخشاب المحترقة المتفحمة من المواقع الاثرية افضلها وضع النماذج الخشبية في محلول الكازولين المشبع بالبارافين لحفظها لحين وصولها الى المختبر وعلى المنقب الاثاري ان يبذل عناية خاصة لمنع تلف او تكسراو تشويه الحلقات وهناك وسائل اخرى تستخدم لحفظ النماذج ولكن فائدتها اقل ويجب الاهتمام بالاثار الدقيقة والثمينة كما يجب ذكر المعلومات والملاحظات عن طبيعة الاقليم والبيئة التي تؤخذ منها نماذج حلقات الاشجار •

والخطوة الثانية التي تلي الحصول على المقطع العرضي هو تسوية سطوح المقاطع العرضية تسوية تامة ليسهل تمييز تركيب الحلقات وتسلسلها المتتابع • ان الاخشاب المتفحمة والبالية يمكن تسوية سطوح مقاطعها العرضية بشفرة حادة اما الاشجار النامية فتسوى سطوح مقاطعها العرضية بالات حادة تقطع اجزاء رقيقة جدا من الاشجار كما يمكن استخدام الورق الرملي

---

١٣ – Bannister, 1969, P. 195.

لهذا الغرض وهناك الات خاصة تقوم مقام الورق الرملي[١٤] • وبعد تسوية السطوح تميز الحلقات الكاملة النمو وتطابق مع حلقات التقويم او الجدول المتألف من حلقات اشجار مؤرخة تاريخا رجعيا • أما الحلقات الكاذبة التي ليس لها محيط كامل فلا تمثل نموا تاما في فصل كامل ولذلك يجب اسقاطها من الحساب •

ان جميع طرق تاريخ الاثار بحلقات الاشجار تستخدم حلقات الاشجار النامية وحلقات الاعمدة الخشبية والمواد الخشبية الاثرية وقد تعدد المختصون في هذا الباب مثل سمايلي وستبس وهول وبانستر غير ان اشهرهم هو دوكلاس[١٥] الذي تستخدم طريقته في الوقت الحاضر بنجاح على نطاق واسع • وتعتمد هذه الطريقة على الاشجار الحساسة التي تتوفر فيها الحلقات الرفيعة والعريضة مما يسهل تمييزها ومطابقتها مع سجلات التقويم وتتم مقارنة الحلقة بالاخرى بالاستذكار واحتساب عرض الحلقات ومطابقة الرسوم البيانية وعندما يجد منقب الاثار نفسه في مكان لم يألفه من قبل فان الاعتماد على الرسم البياني يكون مفيدا واساس هذه الطريقة هو وجود شكل بياني بعرض الحلقات المميزة المجهولة التاريخ ثم مقارنة هذا الشكل بشكل بياني اخر معروف تاريخ حلقاته فان وجد تطابق تام في محتويات الشكلين والرسمين عرف تاريخ الحلقات المؤشرة في الرسم الاول وامكن تنظيم تسلسل تاريخي للادوار الزمنية المحلية لذلك المكان • وقد ابتكرت عدة وسائل لقياس عرض الحلقات في نصف قطر الشجرة وبعد الحصول على مجموعة كافية من القياسات يمكن تنظيمها في جدول خطوط بيانية ثم مقارنة هذه الخطوط البيانية بخطوط بيانية اخرى معلومة التاريخ بواسطة النظر ومطابقة الاحصاءات وتعتمد النتيجة على دقة استخدام الطريقة •

---

١٤ _ Hall, E. Tree Ring Bulletin, Vol. 12, No. 4, 1956, P. 26-27.

١٥ _ Douglass, A. Climatic Cycles and Tree Grouth, Vol. I, 1919, Garnegi Institute of Washington, Publication, No. 289.

وعندما استخدمت حلقات الاشجار لتاريخ الاثار لاول مرة في جنوب غرب امريكا كانت طرق البحث قد اعدت في معظم الاحوال لتلائم حالة المواقع الاثرية في تلك المنطقة وبمرور الزمن استخدمت القواعد العامة لهذه الطريقة لتاريخ الاثار حيثما وجدت اشجار ومواد خشبية اثرية تصلح للتاريخ بواسطة الحلقات كبعض الاقطار الاوربية والاسيوية لان حلقات الاشجار ذات صفة طبيعية عامة وان اختلفت قليلا في الشكل •

واذا عرف تاريخ حلقات عمود خشبي او مادة خشبية وجدت في موقع اثري فان اهميته بالنسبة للمواد الاثرية الاخرى التي تستظهر في الموقع تختلف من حالة لاخرى فقد تكون هذه الاهمية مباشرة في بعض الاحيان او غير مباشرة في احيان اخرى ولذلك يواجه المنقبون مشاكل متعددة في تحديد العلاقة الزمنية بين تاريخ النموذج (الحلقات) والمواد الاثرية التي يراد تاريخ زمنها فيحدث بعض التعقيدات في تفسير التاريخ الذي تدل عليه الحلقات ويمكن تصنيف تلك التعقيدات في الحالات التالية : ـ

١ ـ اذا كان تاريخ الحلقات يسبق تاريخ المادة الاثرية المكتشفة لان الحلقات استحصلت من شجرة ماتت او قطعت قبل استعمالها من قبل سكان الموقع الاثري •

٢ ـ اذا كان تاريخ الحلقات يسبق تاريخ المادة الاثرية لان الحلقات استحصلت من نموذج خشبي استعمل قبل صنع تلك المادة •

٣ ـ اذا كان تاريخ المادة الاثرية المكتشفة يسبق تاريخ الحلقات لان النموذج الخشبي استعمل بعد صنع تلك المادة ولتوضيح ذلك نقول تم الحصول على تاريخ لحلقات عمود خشبي استخدم في بناء سقف غرفة قديمة ثم استخدم هذا العمود الخشبي لتاريخ زمن بناء السقف ففي هذه الحالة تكون العلاقة مباشرة بين النموذج الخشبي (العمود) والمادة الاثرية (البناية)

واذا استخدم تاريخ هذا العمود الخشبي لتقدير زمن الغرفة التي وضع العمود الخشبي في سقفها فستكون العلاقة غير مباشرة •

وهناك عقدة اخرى قد تحدث عند استعمال عمود خشبي من بيئة غريبة عن بيئة الموقع الاثري غير ان هذه الحالة تمثل مشكلة اثارية بحتة يمكن حلها بالطرق الاخرى وقد يحدث التعقد في تقدير التاريخ عند استخدام اعمدة خشبية مستعملة في زمن سابق لتسقيف المباني واستعمال الاعمدة الخشبية القديمة في اعادة بناء السقوف شيء مألوف على نطاق واسع في المباني القديمة فبدلا من ان يقطع الناس اشجارا جديدة بجهود شاقة يستخدمون الاعمدة الخشبية القديمة وبالرغم من ان تاريخ حلقات العمود الخشبي القديم تاريخ صحيح الا ان ربط هذا التاريخ بالمبنى الجديد امر مغلوط لان العمود الخشبي يعود لتاريخ اقدم •

ومن الامور المعقدة الاخرى في طرق التاريخ بحلقات الاشجار استخدام الاشجار المتساقطة بتأثير الرياح أو الاعمدة الخشبية المخزونة لفترة طويلة او قصيرة في بناء السقوف وفي جمع هذه الحالات لايركن الى تاريخ الاثار الموجودة في المباني استنادا الى تاريخ تلك الاعمدة الخشبية • ومن الجدير بالذكر ان استخدام الاعمدة الخشبية القديمة في مباني احدث عهدا يزداد في المناطق التي يقل فيها نمو الاشجار •

وقد تنسب تواريخ حلقات اشجار من اعمدة خشبية بنيت في سقف غرفة لتاريخ الاواني الفخارية والمواد الاثرية الاخرى التي يعثر عليها في تلك الغرفة ومن المحتمل ان يكون بناء تلك الاعمدة قد تم قبل صنع الاواني الفخارية والمواد الاثرية الاخرى بعدة قرون وفي هذه الحالة يكون تاريخ الاعمدة الخشبية والغرفة صحيحا ولكن استخدام هذا التاريخ لتحديد زمن محتويات الغرفة قد يكون مضللا ومثل هذا التحفظ قد يظهر عند استحصال

حلقات من بقايا اعمدة سقوف محترقة يعثر عليها بين انقاض الموقع الاثري وقد يستخدم تاريخ هذه الحلقات لتحديد زمن مواد بنائية لاحقة . والاخشاب المتفحمة التي يعثر عليها في مواقد المباني الاثرية قد يستحصل من حلقاتها تواريخ احدث من العناصر المعمارية التي ترتبط بها . ويظهر التعقيد ايضا عند تاريخ المباني القديمــة المرممة فقد يستبدل سقف غرفة بعد مضي عدة قرون على بناء السقف الاصلي باعمدة خشبية جديدة وفي هذه الحالة تمثل الحلقات المستحصلة من اعمدة السقف الجديد زمن الترميم وليس زمن بناء الغرفة ومن الممكن ان تظهر حالات معقدة متعددة من انواع مختلفة في ان واحد فاذا كثرت هذه الحالات يفضل عدم الاخذ بالتاريخ الذي يشير اليـــه النموذج الخشبي .

وتفيد حلقات الاشجار في استنتاج الاحوال المناخية ولكن استخدامها الشائع في الوقت الحاضر ينحصر في معرفة ازمان الادوار القديمة واحسن مثال لهذا الاستخدام كما قلنا في السابق هو اليوم في جنوب غرب امريكــا الشمالية ففي هذه المنطقة يوجد مختصون يهتمون بدراسة حلقات الاشجار من اقاليم جغرافية متعددة ولذلك توفرت تقاويم تتفق مع احوالها الطبيعية واطول التقاويم يرجع الى عام ٥٩ قبل الميـلاد . ان مختبر ابحـاث حلقات الاشجار في جامعة اريزونا بمدينة توسون يعتبر اهم مركز في الولايات المتحدة الامريكية لجمع حلقات الاشجار والاعمدة الخشبية القديمة مـن اقاليم جنـوب غرب القارة الامريكية الشـمالية . ويضـم هذا المختبر في الوقت الحاضر ١٢٥٫٠٠٠ نموذجا اثريا جمعت من ٢٠٠٠ موقع من مواقع الهنود الحمر التي تعود لعصور قبل التاريخ وقد تم تاريخ ١٠٫٠٠٠ نموذج اثري حتى الان[١٦] ان احسن من بحث موضوع حلقات الاشجار واهميتها

---

١٦ — Bannister, 1969, P. 201.

في تاريخ الاثار وتنظيم التقاويم للادوار الزمنية هو دوكلاس[١٧] وسمايلي[١٨] وستبس[١٩] وبانستر[٢٠] ٠

ولقد أصبحت الادوار الزمنية المتسلسلة لمنطقة جنوب غرب امريكا في عصور قبل التاريخ واضحة ومفهومة الان بفضل الجهود المكثفة التي بذلت في بحث حلقات الاشجار ٠ وبفضل هذه الجهود استخدمت طرق التاريخ بحلقات الاشجار في اماكن امريكية اخرى مثل ألسكا ومسسيبي وجنوب داكوتا ونبراسكا ومكيسكو الجديدة كما استخدمت في اقطار اخرى تتوفر فيها الظروف المناسبة مثل انكلترة والنروج وروسيا وسويسرا واليابان[٢١] ٠

ويظهر ان اقطار الشرق الاوسط يمكن اعتبارها منطقة ممتازة لتاريخ الاثار وتنظيم الجداول بالادوار الزمنية المتتابعة من حلقات الاعمدة الخشبية والاشجار التي كانت ولاتزال تنمو في هذه الاقطار ومن الاخشاب التي شاع استيرادها للبناء او اعادة البناء في العصور القديمة ٠ والدراسات الحديثة التي اجريت على حلقات الاشجار في تركية ومصر تشير الى ان التاريخ المقارن بحلقات الاشجار ممكن في مناطق معينة في هذين القطرين[٢٢] والمعروف ان اشجار البلوط والصنوبر والجوز والصفصاف والاشجار الاخرى تتميز فيها حلقات الاشجار بوضوع لانها تتمتع بفصل نمو واحد

---

١٧ – Douglass, 1946.

١٨ – Smiley, T. Laboratory Bulletin, No. 5, 1951, University of Arizona.

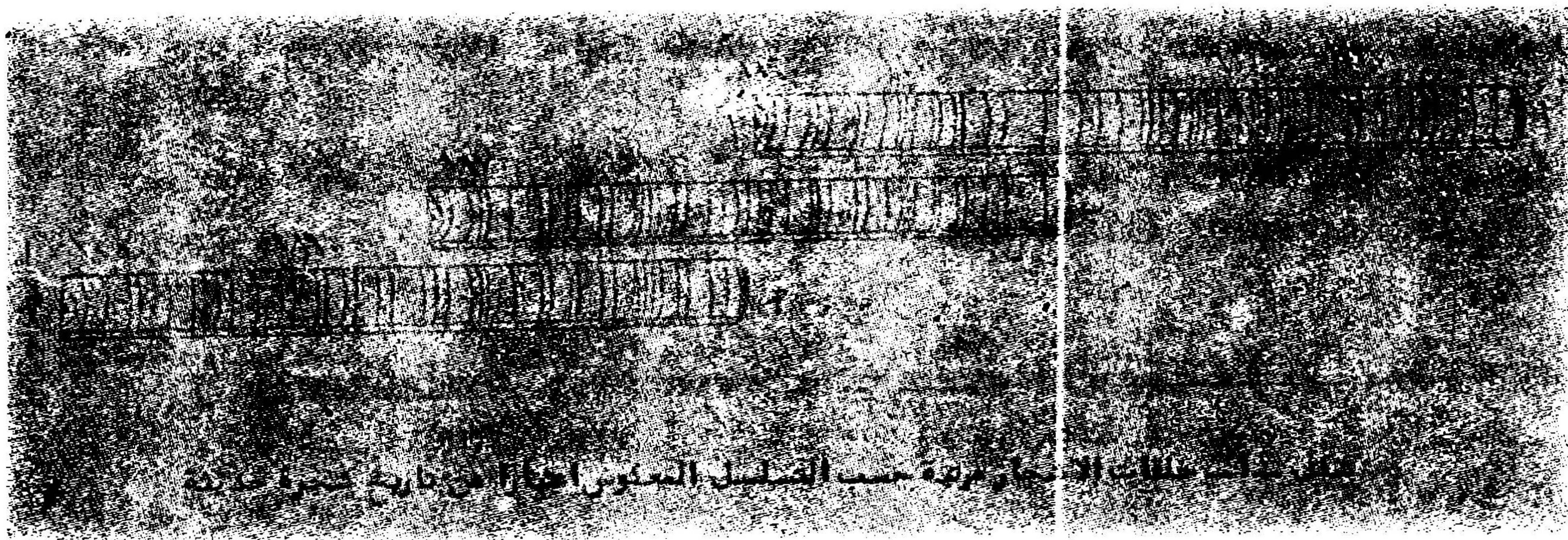
١٩ – Stubbs, S. and Bannister, B. Laboratory of Tree Ring Research Bulletin, No. 6, 1953, University of Arizona.

٢٠ – Bannister, 1969, P. 202.

٢١ – Bannister, 1969, P. 202.

٢٢ – Bannister, 1969, P. 202.

يعقبه فصل جفاف كبقية اقطار حوض البحر المتوسط وقد نمت هذه الاشجار منذ القدم في العراق وسورية والاردن وفلسطين ولبنان والاقطار العربية الاخرى في الشمال الافريقي ومن الممكن استخدام حلقاتها ومطابقتها بحلقات الاعمدة الخشبية والنماذج الاثرية المصنوعة من الخشب غير التالف او المتفحم التي يعثر عليها في مواقع الاثار لتنظيم تقاويم تبدأ من العصور الحديثة الى العصور القديمة • ان هذا الموضوع يتطلب جهودا شاقة وزمنا طويلا من قبل المعنيين بادارة التنقيبات الاثرية ومن قبل المختصين بالاثار القديمة في الوطن العربي ومن المؤكد ان تتكلل الجهود بالنجاح •



[illegible] حلقات الأشجار مرتبة حسب التسلسل [illegible]

[illegible]

الهوامش والمصادر

١ — Zeuner, F. Dating the Past, London, 1946, P. v.

٢ — Brennan, L. Beginer's Guide to Archaeology, Pensylvania, 1973, P. 139-140.

٣ — Brennan, L. Beginer's Guide to Archaeology, Pensylvania, 1973, P. 140.

٤ — Hester, T.; Heizer, R.; and Graham, J. Field Methods in Archaeology, California, 1975, P. 262-263.

٥ — انظر الشكل ـ ١

٦ — Bannister, B. Dendrochronology, in Science in Archaeology, Edited by Don Brothwell and Eric Higgs, Bristol, 1969, P. 193-194.

٧ — Robbins, W. and Rickett, H. Botany, New York, 1949, P. 91.

٨ — Bannister, B. and Smiley, T. Dendrochronology. Geochronology, University of Arizona Bulletin, Vol. XXVI, No. 2, 1955, P. 180.

٩ — Douglass, A. Precision of Ring Dating in Tree Ring Chronologies. Laboratory of Tree-Ring Research Bulletin, No. 3, University of Arizona Bulletin, 1946, P. 16.

١٠ — Honigmann, J. The World of Man, New York, 1959, P. 43.

١١ — Bannister and Smiley, 1955, P. 193.

١٢ — انظر الشكل ـ ٢

١٣ — Bannister, 1969, P. 195.

١٤ — Hall, E. Tree Ring Bulletin, Vol. 12, No. 4, 1946, P. 26-27.

١٥ — Douglass, A. Climatic Cycles and Tree Grouth, Vol. I, 1919, Carnegi Institute of Washington, Publication, No. 289.

١٦ — Bannister 1969, P. 201.

١٧ — Douglass, 1946.

١٨ — Smiley, T. Laboratory Bulletin, No. 5, 1951, University of Arizona.

١٩ — Stubbs, S. and Bannister, B. Laboratory of Tree Ring Research Bulletin, No. 6, 1953, University of Arizona.

٢٠ — Bannister, 1969, P. 202.

٢١ — Bannister, 1969, P. 202.

٢٢ — Bannister, 1969, P. 202.

خرائط ابن حوقل في كتابه صورة الارض

الدكتور فلاح شاكر اسود
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

اسمه وحياته :

ابو القاسم محمد بن علي ابن حوقل البغدادي ثم الموصلي ، رحالة وجغرافي ركز اهتمامه على الخارطة ، عاش في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) . ولد في بغداد ، ولم يتوفر عن حياته الكثير من المعلومات ، وقد ذكر انه ترك بغداد في رمضان عام ٣٣١هـ (٩٤٣م) ، وتجول في مشرق العالم الاسلامي ومغربه قرابة ثلاثين عاما ، وكان الهدف من رحلته دراسة البلاد والشعوب ورسم خرائط توضيحية لها ، بالاضافة الى الكسب عن طريق التجارة ، وقد شاهد كل ما كتبه عدا الصحراء الافريقية الكبرى التي لم يشاهد منها الا جزءا قليلا[١] .

---

(١) تلاحظ المصادر التالية

أ ـ اسماعيل باشا البغدادي ، هدية العارفين اسماء المؤلفين والمصنفين المجلد ٢ ط ٣ طهران ١٩٥٧ ص ٤٣

ب ـ محمد ثابت فندي وآخرون ، دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الاول ، العدد الاول ، القاهرة ١٩٣٣ ص ١٤٥

جـ ـ زكي محمد حسن ، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، دار المعارف ، مصر ١٩٤٥ ص٣٩

د ـ الدكتور عبدالرحمن حميدة ، اعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم ، دمشق ١٩٦٩ ص ١٦٩

هـ ـ الدكتور شاكر خصباك ، في الجغرافية العربية ، مطبعة دار السلام ، بغداد ١٩٧٥ ص ٣٧٣

ويذكر كراتشوفسكي ان اصله من نصيبين بالجزيرة وهدفه فضلا عن التجارة : التحقق بنفسه من اقوال الجغرافيين الذين قرأ مصنفاتهم ، وربما كان في الحقيقة داعيا سياسيا ، وانتظم تجواله في افريقيا الشمالية والاندلس وزار نابلي وبالرمو وعرف العراق وايران وجزء من الهند ، وتبرز ميوله السياسية عند حديثه عن اهل الاندلس في العصر الاموي حيث يقدم صورة سلبية عن شجاعتهم ونظامهم الحربي والاداري،وقد ابدى دهشته في احتفاظهم باستقلالهم دون ان يخضعوا ، لحاكم من حكام المشرق الاسلامي ، مما شجع المستشرق الهولندي دوزي على اتهامه بانه جاسوس للفاطميين واعتبره ليقي بروفنسال من عملاء العباسيين او الفاطميين[٢] .

ولا يمكن قبول هذه التهمة لان ابن حوقل لم يقتصر على الجوانب السلبية عند حديثه عن الاندلس ، وانما ذكر كثيرا من الجوانب الايجابية ، مما يدل على موضوعيته وصدقه عند الحديث عن اي ظاهرة جغرافية .

سبب تأليف كتاب صورة الارض

قال ابن حوقل « وكان مما حضني على تأليفه وحثني على تصنيفه ، وجذبني الى رسمه اني ازل في حال الصبوة شغفا بقراءة كتب المسالك ، متطلعا الى كيفية البين بين الممالك في السير والحقائق ، وتباينهم في المذاهب والطرائق ، وكمية وقوع ذلك في الهمم والرسوم ، والمعارف والعلوم والخصوص والعموم، وترعرت فقرأت الكتب الجليلة المعروفة والتواليف الشريفة الموصوفة ، فلم اقرأ في المسالك كتابا مقنعا ، ومارأيت فيها رسما متبعا ، فدعاني ذلك الى تأليف هذا الكتاب واستنطاقي فيه وجوها من القول والخطاب واعانني عليه تواصل

(٢) كراتشكوفسكي ، اغناطيوس يوليانوفتش ، تاريخ الادب الجغرافي العربي ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم القسم الاول ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٦٣ ص ٢٠٠ و ٢٠٤

السفر ، وانزعاجي عن وطني مع ما سبق به القدر ، لا ستيفاء الرزق والاثر ، والشهوة لبلوغ الوطر .... »[٣] .

وقال « وكان اكثر ما حداني على هذا الكتاب وتأليفه على هذه الصورة اني كنت في حال الحداثة شغفا باخبار البلدان والوقوف على حال الامضار كثير الاستعلام والاستنجاد لسافرة النواحي ووكلاء التجار وقراءة الكتب المؤلفة ... »[٤]

يتضح مما سبق بان اسباب التأليف هي

١ ـ شغفه في صباه بقراءة كتب المسلك والممالك

٢ ـ قصور هذه الكتب في رأيه عن الايفاء بالغرض المطلوب آنذاك ، وعدم صحة الرسوم التي تحويها .

٣ ـ تنافر اقوال الذين سألهم من المسافرين والتجار وتناقض حكاياتهم .

٤ ـ رغبته في السفر وقدرته على تحقيق هذه الرغبة وتحمل الاخطار حتى سلك وجه الارض رغم ما اصابه من الانزعاج عن مفارقة الوطن .

الموضوعات التي يشملها الكتاب

١ ـ بيان صفة اشكال الارض ومقدارها في الطول والعرض ، واقاليم البلدان ، والغامر والعامر من جميع بلدان الاسلام . وبذلك تكون دراسته تشمل سطح المنطقة وموقعها اي انه جمع كل ما يحتاج اليه دراسة الاقليم .

٢ ـ لم يتبع تقسيم الارض الى الاقاليم السبعة وانما جعل لكل اقليم قطعة افردها تصويرا وشكلا لبيان وضع ذلك الاقليم ، ثم ما يحيط به من الاماكن والبقاع ، وما فيها من المدن والاصقاع والانهار والبحار ، وما يحتاج الى معرفته من جوامع ما يشتمل عليه ذلك الاقليم من وجوه الاموال والجبايات والاعشار والخراجات والمسافات في الطرقات ، وما فيه من المجالب والتجارات.

---

(٣) صورة الارض ص ١٠

(٤) نفس المصدر ص ٢٨٣

وقد قال ابن حوقل في ذلك « وقد عملت له كتابي هذا بصفة اشكال الارض ومقدارها في الطول والعرض ، واقاليم البلدان ومحل الغامر منها والعمران من جميع بلاد الاسلام ، بتفصيل مدنها وتقسيم ما تفرد بالاعمال المجموعة اليها ، ولم اقصد الاقاليم السبعة التي عليها قسمة الارض ... »(٥)

٣ ـ القى الضوء على تاريخ الامم والدول التي كتب عنها ، ووضع الروابط التاريخية بين الدول العربية المختلفة ، وابرز شخصيتها الثقافية عند حديثه عن العلماء ومجالسهم والمدارس والتكايا وغيرها .

٤ ـ تصوير هذه الاقاليم التي لم يذكرها احد ممن شاهدهم ، وذكر المدن والجبال والانهار والبحار والمسافات والمعلومات الاخرى بخلاف ما ورد لدى غيره بشكل متفرق يتعذر على من اراد تقصي المعرفة في تلك الكتب ، وقد ذكر بشكل خالي من التعصب للبلدان والقبائل كما كان جاريا في وقته .

وقد قال في ذلك « ان الغرض في كتابي هذا تصوير هذه الاقاليم التي لم يذكرها احد علمته ممن شاهدها ، فاما ذكر مدنها وجبالها وانهارها وبحارها والمسافات فيها ، وبعض ما انا ذاكره فقد يوجد في الاخبار متفرقا ، ولايتعذر على من اراد تقصي شيء من ذلك من سافرة اهل كل بلد ، وان كانت المتعصبة للبلدان والقبائل جارية على خلاف ما توخيته ... »(٦)

وبذلك يكون جانبا مهما من الكتاب قد خصص لرسم الخرائط للاقاليم التي زارها وكتب عنها .

المنهج الذي اتبعه ابن حوقل في تأليف الكتاب ورسم الخرائطه

١ ـ الاستفادة من المصادر العلمية التي سبقه اصحابها في تأليفها والتي تشمل نفس الموضوع ، فقد افاد من كتاب ابن خرداذبة وكتاب الجيهاني ، وتذكرة ابي الفرج قدامة بن جعفر . وبذلك يكون امينا من

---

(٥) صورة الارض ص ١٠

(٦) نفس المصدر ص ١١

الناحية العلمية ممن استفاد منهم وقال في ذلك « وكان لا يفارقني كتاب ابن خرداذبة وكتاب الجيهاني وتذكرة ابي الفرج قدامة بن جعفـــر ، واذا الكتابان الاولان قد لزمني ان استغفر الله من حملهما واشتغالي بهما عن ما يلزمني من توخي العلوم النافعة والسنن الواجبة(٧) .

٢ ـ اعتماده اسلوب الدراسة الميدانية وهو من الاساليب العلميـة المتبعة في الوقت الحاضر ، لاكمال ما نقص من المعلومات ، وتصحيح خرائط من سبقه ، والحصول على معلومات جديدة لا تتوفر في المصادر السابقة، وقد اتبع في ذلك عدة جوانب .

أ ـ استقاء المعلومات من ذوي الخبرة ، وقد وردت اشارات كثيرة الى ذلك تختار منها ما يلي « وسمعت ابا الحسن محمد بن عبـدالوهاب التل موزني ، وكان رجلا قد اناف على مائة سنة ، ثابت الفعل صالح الادب يقول ، سيرت من كمخ وهي مدينة الروم صالحة القدرة عامرة على بريد الملك الى القسطنطينية مائة وستة وثمانين بريدا »(٨) .

ب ـ تدقيق المعلومات التي يرويها من يسألهم وتمحيصها دون اخذها على علاتها ويتضح ذلك مما يلي « كنت في حال الحداثة شغفا باخبار البلدان والوقوف على حال الامصار ، كثير الاستعلام والاستخبار لسافرة النواحي ووكلاء التجار وقراءة الكتب المؤلفة فيها ، وكنت اذا لقيت الرجل الذي اظنه صادقا واخاله بما اسأله عنه خبيرا عالما فاجد عند اعادة الخبر الذي اعتقد فيه صدقه ، وقد حفظت نسقه وتأملت طرقه ووصفه اكثر ذلك باطلا ،

---

(٧) صورة الارض ص ٢٨٤

(٨) نفس المصدر ص ١٧٧ ـ ١٧٨

وارى الحاكي باكثر مما حكاه جاهلا ثم اعاود الخبر الذي التمسه منه والذكر يسمع الذي استوضعته واطالع معه ما صدر مع غيره في ذلك بعد رويّة ، واجمع بينها وبين حكاية ثالث بالعدل والسوية ... »[٩]

جـ ـ الاطلاع والمشاهدة . وقد تحقق له ذلك نتيجة سفره المتواصل ورغبته في تحقيق المعلومات التي كتبها واوردها ضمن مؤلفة ، وقد اشار الى ذلك كثيرا عند تحدثه عن مختلف المواضع ، ففي حديثه عن المغرب قال « هذه صورة المغرب ومكان كل عمل ومدينة منها وموقعها من شمالها وجنوبها وشرقها وغربها حسب ما ادت الاستطاعة اليه ووقفت بالمشاهدة والخبر الصحيح بالمفاوهة عليه ... »[١٠]

وقال عند حديثه عن الزابين في اقليم الجبال ما يلي « ويعرفان بالزابين وكأنهما وان كان من الجبال يخرجان فليسا منها لانها من الدجلة يفرعان وفيها يقعان ، ورأيتهما جميعا ومخرجها من جبال الجزيرة وتلقاء اذربيجان الى نواحي الموصل »[١١] .

د ـ الحصول على المعلومات من اهل المنطقة لانهم اصدق من يروي المعلومات الصحيحة ، والدقيقة ، وقد ذكر في حديثه عن المغرب ما يلي « هذه جملة احوال المدن المشهورة والمراسي والقرى المعروفة على نحو بحر المغرب من حد برقة على البحر المحيط ، مما انتهيت اليه وادركته بالعيان او اخذته عمن نشأ فيه ... »[١٢]

---

(٩) نفس المصدر ص ٢٨٣

(١٠) صورة الارض ص ٦٩

(١١) نفس المصدر ص ٣١٥

(١٢) نفس المصدر ص ٨٣

مخطوطات الكتاب(١٣)

١ ـ مخطوطة خزانة السراي العتيق باسطنبول تحت رقم ٣٣٤٦ ، واوردها بروكلمان تحت رقم ٢٢٤٧ ، وقد نسخت عام ٤٧٩هـ/١٠٨٦م ؛ وقام بنسخها علي بن الحسن بندار يوم الثلاثاء من شهر رجب من العام المذكور ، وقد احتوت على الخرائط .

٢ ـ مخطوطة خزانة ليدن وهي مستنسخة عن نسخة اسطنبول عام ١٣٢٥ ، وبعد كل فصل تركت صفحة بيضاء للخارطة الموجودة ، ولا توجد ورقة بيضاء بعد فصل اسبانيا وصقلية ، مما يدل على عدم وجود خارطة لهما عند ابن حوقل ، وترك الاوراق بيضاء ، مما يوضح عدم قدرة الناسخ على رسم الخرائط ، وهو احد الاسباب التي ادت الى ضياع تراثنا من الخرائط .

٣ ـ مخطوطة خزانة اكسفورد (بودلينا) تحت رقم ٩٦٣ وقد تركت اوراق الخرائط بيضاء كذلك .

٤ ـ مخطوطة ايا صوفيا تحت رقم ٢٥٧٧ ، واوردها بروكلمان تحت رقم ٢٩٣٤ عن كتاب ابن حوقل عام ٤٥٩هـ .

---

(١٣) تلاحظ المصادر التالية

١ ـ كارل بروكلمان ، تاريخ الادب العربي ، ترجمة يعقوب بكر ورمضان عبدالتواب ، دار المعارف ، القاهرة ج ٤ سنة ١٩٧٥

٢ ـ صبري محمد حسن ، الجغرافيون العرب ، ج١ ، مطبعة القضاء ، النجف ١٩٥٩

٣ ـ د. فيليب حتي واخرون ، تاريخ العرب ج١ دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ، بيروت سنة ١٩٥٠

٤ ـ ابن حوقل ، المسالك والممالك ، منشورات دهغويه

٥ ـ نفس المصدر منشورات كرامر ودار الحياة البيروتية

٦ ـ كراتشكوفسكي ، مصدر سابق ص ٢٠٥

٥ ـ النص المختصر الموجود في المكتبة الاهلية بباريس تحت رقم ٢٢١٤ وقد اطلق عليه دهخويه عند استعماله اسم الموجز الباريسي وهو مختصر النسخة الاستنبولية المذكورة ويوجد فيها عدة اضافات عن الفترة الواقعة بين سنتي ٥٣٤/٥٨٠هـ • (١١٣٩/١١٨٤م) • وهذه الاضافات ترجع الى الشخص الذي قام بالاختصار • وقد عرفت في منتصف القرن الثاني عشر ، وقد اضيف اليها خارطة النيل المأخوذة من خرائط الخوارزمي •

وذكر ميللر عدة ارقام للفهرس العربي في باريس وهي ٢٢١٥ لابن حوقل في ٢٥٦ صفحة مأخوذة من مسودة لايدن ، ورقم ٢٢١٦ الذي يتضمن ٥٦ صفحة تخلو منها المخطوطة السابقة ، والرقم ٢٢١٧ يحتوي على جدول جغرافي لمخطوطة ابن حوقل المرقمة ٢٢١٥[١٤] •

واعتمد دهخويه على نسخة ليدن ونسخة خزانة اكسفورد ، وطبعها ضمن المكتبة الجغرافية في الجزء الثاني من نشريات جغرافي العرب المطبوعة في ليدن سنة ١٨٧٣ باسم الممالك والمسالك ، وتقع في ٤٠٦ صفحة خالية من الخرائط ، وقد ترجمت على يد السير وليم اوسلي الى الانكليزية عام ١٨٠٠م •

ونشر الطبعة الثانية المستشرق الالماني فون كرامر J. H. Kramers في مجلدين في ليدن سنة ١٩٣٨/١٩٣٩ باسم صورة الارض ، لاقدم مخطوطة يرجع تاريخها الى مائة عام من تأليف الكتاب •

وطبعت دار مكتبة الحياة البيروتية الجزئين تحت اسم صورة الارض وقد ضمهما مجلد واحد وهي النسخة الاستنبولية الموجودة في السراي العتيق ، وقد احتوت على اثنين وعشرين خريطة •

---

(١٤) كونارد ميللر ــ الخرائط العربية (باللغة الالمانية) ص ٢٠

وبذلك اصبحت لدينا ثلاثة نصوص لابن حوقل وهي

١ ـ النص الموجود في النسخة الاستنبولية

٢ ـ النص الموجود في الطبعة الاولى والتي نشرها دەخويه •

٣ ـ النص المختصر •

يتضح مما سبق بان مسودات كتاب ابن حوقل وردت تحت اسمين هما المسالك والممالك وصورة الارض ، وكلاهما مقبولان ، فالاسم الاول لان اكثر الكتب التي الفت في هذا الباب في فترة ابن حوقل تحمل هـذا الاسم وهي كتاب المسالك والممالك للسرخي وكتاب المسالك والممالك للبكري الاندلسي وكتاب المسالك والممالك للجيهاني وكتاب المسالك والممالك لابـن خرداذبة ، وكتاب المسالك والممالك للمراكشي ، وكتاب المسالك والممالـك للمهبلي المشهور بالعزيزي ، وكتاب المسالك والممالك للاصطخـري • وان كتاب ابن حوقل خصص جزء مهم منه في معالجة الطرق والمسافات بين المدن بنفس الاسلوب التي عالجها اصحاب كتب المسالك والممالك •

اما الاسم الثاني فيعود الى ان كتاب ابن حوقل يحوي مجموعة مـــن الخرائط للاقاليم التي عالجها ، وان المتن هو تفسير لهذه الخرائط الواردة فيه •

وقد رفع ابن حوقل المسودة الاولى الى سيف الدولة الحمداني المتوفي عام ٣٥٦هـ/٩٥٧م ، وترجع المسودة الثانية الى حوالي ٣٦٧هـ/٩٧٧م[١٥]

الخرائط التي يتضمنها الكتاب :

القسم الاول

١ ـ صورة الارض ، توجد في الصفحتين ٣ب ، ٤ظ من الاصل

٢ ـ صورة ديار العرب توجد في ص ٧ ب من الاصل

---

(١٥) كراتشكوفسكي ، مصدر سابق ص ٢٠١

٣ ـ صورة بحر فارس ، ص ١٤ ظ من الاصل

٤ ـ صورة المغرب القسم الاول في ص ١٩ ظ من الاصل

القسم الثاني في ص ١٩ ظ و ٤٠ ظ من الاصل

الاندلس وصقلية ـ لا توجد لهما خرائط لانهما داخلة ضمن صورة المغرب

٥ ـ مصر في ص ٣٩ب ، ٤٠ ظ من الاصل

٦ ـ صورة نهر النيل وقد رسمت في الورقة ١٣ب من النسخة الباريسية (النص المختصر)

٧ ـ صورة الشام في ص ٤٩ ب من الاصل

٨ ـ صورة بحر الروم في ص ٥٧ ب من الاصل

٩ ـ صورة الجزيرة في ص ٦١ ظ من الاصل

١٠ ـ صورة العراق في ص ٦٨ ب من الاصل

القسم الثاني

١١ ـ صورة خوزستان ، في ص ٧٣ب من الاصل

١٢ ـ صورة فارس ، في ص ٧٥ ب من الاصل

١٣ ـ صورة كرمان ، في ص ٨٧ ظ من الاصل

١٤ ـ صورة السند في ص ٩٠ ظ من الاصل

١٤ ـ صورة السند في ص ٩٠ ظ من الاصل

١٥ صورة ارمنية واذربيجان والران في ص ٩٣ من الاصل

١٦ ـ صورة الجبال في ص ٩٨ من الاصل

١٧ ـ صورة الديلم وطبرستان في ص ١٠٢ ظ من الاصل

١٨ ـ صورة بحر الخزر في ص ١٠٥ ظ من الاصل

١٩ ـ صورة مفازة خراسان وفارس في ص ١٠٨ ظ من الاصل

٢٠ صورة سجستان في ص ١١١ ظ من الاصل

٢١ ـ صورة خراسان في ص ١١٤ ب والصفحة ١١٥ ظ من الاصل

٢٢ ـ صورة ما وراء النهر ، وتوجد في نسخة ابن حوقل المحفوظة في خزانة ايا صوفيا باستنبول ، وقد وجدت هذه الخريطة في نسخة كتاب الاصطخري المحفوظة في خزانة مدينة هامبورغ •

تفصيل الخرائط في كتاب صورة الارض :

١ ـ خريطة صورة الارض

وقد اطلق عليها صورة جميع الارض ، وهي تمثل شكل العالم المعروف، وتوضح الفكرة السائدة لدى العرب بان الارض كروية الشكل ، وان الماء محيط بها من جميع جهاتها ويسمى البحر المحيط ، وتوضح هذه الخريطة مكان كل اقليم من الاقاليم التي ذكرها في الكتاب ، واتصال هذه الاقاليم مع بعضها وسعتها وصورتها وموقعها ، وموضع كل مدينة من المدن التي تجاورها ، لمعرفة موقع كل اقليم ومكانه •

وقد قسم الصورة الى قسمين هما

١ ـ البر الشمالي : وهي المنطقة الباردة التي يكون اهلها بيض

٢ ـ البر الجنوبي : وهي المنطقة الجنوبية الحارة التي يكون اهلها سود يزدادون سوادا كلما ابتعدنا نحو الجنوب

والحد الفاصل بين القسمين هو الخط الممتد من الشرق من الخليج الذي يأخذ من البحر المحيط بارض الصين الى الخليج الذي يأخذ من هذا البحر المحيط من ارض المغرب بين الاندلس وطنجة ، وبذلك يبدأ من بحر الصين قاطعا بلد الهند ، ثم يستمر وسط مملكة الاسلام حتى ارض مصر والمغرب ، وهذا القسم كله معمور •

اما مابين الشمال والجنوب فتبدأ من ساحل البحر المحيط شمالا ، الى ارض ياجوج وماجوج [١٦] ثم تمر على ظهر ارض الصقالية (روسية الحالية) فتقطع ارض البلغار الداخلة (منطقة الفولكا الوسطى) والصقالبة ، ويستمر حتى الشام وارض مصر والنوبة ، ثم يمتد الى البرية الواقعة بين بلاد السودان وبلاد الزنج [١٧] حتى تنتهي الى البحر المحيط جنوبا • وهذا القسم ليس كله معمور ، فالمعمور منه يمتد على مسافة ٤٢٠ مرحلة بين ارض ياجوج وماجوج والبحر المحيط من الشمال وبين براري السودان اما المنطقة الواقعة بين أرض ياجوج وما جوج والبحر المحيط من الشمال وبين براري السودان والبحر المحيط من الجنوب فهي قفر خراب ولا يعرف مسافتها لانها شديدة البرد •

وتحتوي الخريطة على اراضي اربعة اقاليم هي

١ ـ اراضي مملكة الاسلام

ويحدها من الشرق ارض الهند وبحر فارس ، ومن الغرب مملكة السودان على البحر المحيط وما يتصل بها ، ومن الشمال بلاد الروم وما يتصل بها من الارض واللان والران والسرير والخزر (شعوب تسكن حول الساحل الشمالي الغربي لبحر قزوين) والروس والبلغار والصقالبة وطائفة من الترك وبعض مملكة الصين • ومن الجنوب بحر فارس (المحيط الهندي)

---

(١٦) فكرة لا يمكن تدقيقها ويعتقد انها اراضي السهوب الاوربية التي تمتد من الصين الى البحر الاسود

(١٧) كل الامارات والمدن المتناثرة على الساحل الافريقي الشرقي من مقاديشو الى جنوب سفالة جنوب موزمبيق اليوم •

٢ ـ مملكة الروم

وقد كتبت في الخارطة (بلد الروم) ويحدها من الشرق بلاد الاسلام ومن الغرب والجنوب البحر المحيط ، ومن الشمال حدود الصين •

٣ ـ مملكة الصين

وقد كتبت كذلك (بلد الصين) ، ويحدها من الشمال والشرق والغرب البحر المحيط ، ومن الجنوب مملكة الاسلام والهند • ويدخل ضمن حدودها سائر بلدان الترك وبعض التبت وتمتد في ارض التغزغز وخرخيز وكيماك والغزية والخرلخية[١٨] وضم اليها ياجوج وماجوج •

٤ ـ مملكة الهند

ويحدها من الشرق بحر فارس (المحيط الهندي) ، ومن الغرب والجنوب بلاد خراسان ومن الشمال مملكة الصين ، ويدخل فيها السند وقشمير وطرف من التبت •

---

(١٨) التغزغز : في اغلب الظن الترك الشرقيون في المنطقة المعروفة حاليا كازاخستان

خرخيز : (قرقيز) قبيلة من قبائل الترك بدأت في منغوليا ثم هاجرت الى تركستان

كيماك : من القبائل التركية الكبرى التي سكنت وسط اسيا وغرب سيبيريا

الغزية : قبيلة الغوز التي ينتمي اليها السلاجقة والعثمانيون وهي اكثر القبائل ارتباطا بالاسلام

الخرلخية : (قبيلة قارلوق) اول قبيلة تركية تدخل الاسلام وينتمي اليها القراخانيون ملوك تركستان الشرقية

وتضم الخريطة بحرين يتصلان بالبحر المحيط ، من بحر فارس (المحيط الهندي) وبحر الروم (البحر المتوسط) وفي الداخل بحر الخزر الذي لايتصل باي منهما ، وكذلك بحيرة خوازم (ارال) وبين البحر المحيط وبحر الروم خليج يصل بينهما يمر على ظهر بلد الصقالبة ويقطع ارض الروم على القسطنطينية .

وتحتوي الخريطة مجموعة من الانهار اهمها نهر النيل الذي يصب في بحر الروم ، وقد اخطأ ابن حوقل في جعل منابعه من الشرق . وانهار اتل (الفولغا) ونهر الرس (نهر اراكس) ونهر الكر (رافده كوره) التي تصب في بحر الخزر ، ونهر جيحون الذي يصب في بحيرة خوارزم ونهر صهلان الذي يصب في بحر فارس .

وقد نفى ابن حوقل ما كان متفقا عليه بين العلماء المتخصصين بمسالك الارض وعلم الهيئة في صفات الارض بانها مصورة بشكل طائر تمثل فيه البصرة ومصر الجناحين ، ويمثل الشام الرأس والجزيرة الجؤجؤ واليمن الذنب ، فقال ان كان ذلك صحيحا فان فارس وسجستان وكرمان وطبرستان واذربيجان وخراسان ليست من الارض[١٩] وبذلك يكون معرفة ابن حوقل اكثر اتساعا ممن سبقه في صفة الارض وما تحويه من الممالك . شكل رقم ١ .

---

(١٩) صورة الارض ص ١٨٩

شكل رقم (١)

٢ ـ صورة ديار العرب

وهي تغطي الجزيرة العربية التي جعلها اقليما واحدا ، وابتدأ بها لوقوع الكعبة فيها ومكة ام القرى ، ولتوسطها للاقاليم ، وتحتوي على الجبال والمدن والطرق وما يجاورها من الانهار التي تصب في بحر فارس (المحيط الهندي) ، ويمتد هذا البحر من عبادان وينتهي الى عمان ثم ينعطف على سواحل مهرة وحضرموت وعدن حتى ينتهي على سواحل اليمن الى جدة ويمتد الى مدين حتى أيله (ايلات) وهذا الجزء يطلق عليه بحر القلزم (البحر الاحمر) ، وبذلك تكوّن حدود البحر حوالي ثلاثة ارباع حدود ديار العرب وهي من الشرق والجنوب وقسم من الغرب ، وما بقي من الغرب فتمتد من ايلة الى بالس فجعلها من الشام ومن بالس الى عبادان يمثل الحد الشمالي ، والمنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات .

وضمت هذه الخريطة ديار العرب بشكل يقرب كثيرا الى خريطة شبه الجزيرة العربية الحالية ، وقد رسم نهر النيل الى الغرب من البحر الاحمر وكتب عليه نواحي مصر واعمالها والصعيد الاعلى (موقع مصر) ومساكن البجة واعمال دنقلة وعلوه (موقع السودان الحالي) ، ورسم بحر القلزم (البحر الاحمر) وداخله مجموعة من الجزر وهي سنجلة وسواكن وباضع وزيلع ، وعلى ساحله الشمالي والشرقي والجنوبي مجموعة من المدن عددها ١٦ مدينة ، وفي وسط الصورة مدينة مكة المكرمة يحيط بها مجموعة من الجبال المتلاحقة كجبال تهامة وقعيقعان وابوقبيس وجبل الفرع ، والى الجنوب منها مدينة الطائف ، وتوجد ضمن الخريطة مجموعة من الطرق رسمت بشكل خطوط مستقيمة . شكل رقم ٢ .

شكل رقم (٢)

٣ ـ البحار

أ ـ صورة بحر فارس (المحيط الهندي)

يخرج من الجهة الشرقية للبحر المحيط ، وهو اكثر طولا واتساعا من غيره ، حيث يمتد حسب مفهوم ابن حوقل من حدود الصين الى البحر الاحمر، وتقع عليه التبت والهند وكرمان وفارس وخوزستان ، ويدخل منه خليج نحو العراق يسمى (بحر البصرة) فقد ذكر « واما بحارها فالبحر الاعظم معروف باسمها لان بحر البصرة الى اقصى عمل الهند يعرف ببحر فارس[٢٠]

ويحيط بشبه الجزيرة العربية ، ثم يتصل ببحر القلزم (البحر الاحمر) ، وتقع داخله مجموعة من الجزر هي سوباره وسربزة وسرنديب (سيلان) ، وعند ساحله الاسفل شمال الصحراء الواقعة بين الزنج والحبشة جـزيرة قنبلا ، وفي خليج البصرة جزر لافت وخارك وفي الخليج بـين ديار العـرب وساحل البجة جزر دهلك وباضع وسنجلة ، وقد وضع على سواحله عدد من الموانيء .

وطبقا لذلك فان بحر فارس هو المحيط الهندي ، ويتفرع منه عدد من البحار والخلجان تمثل بحر العرب والخليج العربي الاحمر . شكل رقم ٣ .

والقلزم (البحر الاحمر) هو الذي يحاذي اليمن ، وقد حدد طوله وعرضه بالمراحل والايام ، ويتسع في بعض المناطق ويضيق في اخرى ، وفيه جبال كثيرة تعيق بالملاحة ، نسميها في الوقت الحاضر الشعب المرجانية ، لا تستطيع السفن ان تقطعه الا بطرق معروفة او الاهتداء بربان ويكون السير

---

(٢٠) صورة الارض ص ٢٣٧



شكل رقم (٣)

بالنهار • وبين القلزم وميناء ايلة (ايلات) مكان يعرف تباران ، وهو اخبث ما في البحر من الاماكن • نطلق عليه الان مضائق تيران ، والمرور فيها صعب بسبب الشعب المرجانية الا من مسالك محدودة ، كما ذكر ابن حوقل ، والى الجنوب من اليمن وبمحاذاة عدن يسمى بحر الزنج وهو بحر مظلم متسع ويشمل بحر الزنج المحيط الهندي الموازي لساحل افريقية الشرقي •

ب ـ صورة بحر الروم (البحر المتوسط)

ويتصل بالبحر المحيط من الغرب بين الاندلس وطنجة ، وهو اكثر استقامة واستواء من بحر فارس ، ويتسع ويعرض حتى يصل ارض مصر والشام ثم ينعطف الى بلدان الروم (اسيا الصغرى وارمينيا) ، والارض التي تقع عليه متصلة بحيث ان المرء اذا سار من طنجة باتجاه الشرق متبعا سواحل البحر سوف يدور على جميع بحر الروم ويصل الى الاندلس لايمنعه مانع الانهر يصب فيه • وتقع على هذا البحر جبال كثيرة في بلد الروم عند ساحله الشمالي ، وعدد من الجزر بين صغيرة وكبيرة منها جزء معمورة واخرى غير معمورة فالقسم الاول اكبرها جزيرة صقلية ثم قبرص واخريطش (كريت) وميرقه ، ومن الجزر غير المعمورة جزيرة مالطة •

وقد رسم البحر الاسود الى الشمال بشكل شريط مائي يصل بين بحر الروم والبحر المحيط وكتب في الوسط عند الخليج اسم القسطنطينية ، ومن هذا التحديد يتضح ان ابن حوقل قد اجاد كثيرا في اعطاء صورة جيدة وصحيحة عن البحر المتوسط (شكل رقم ٤) •

شكل رقم (٤)

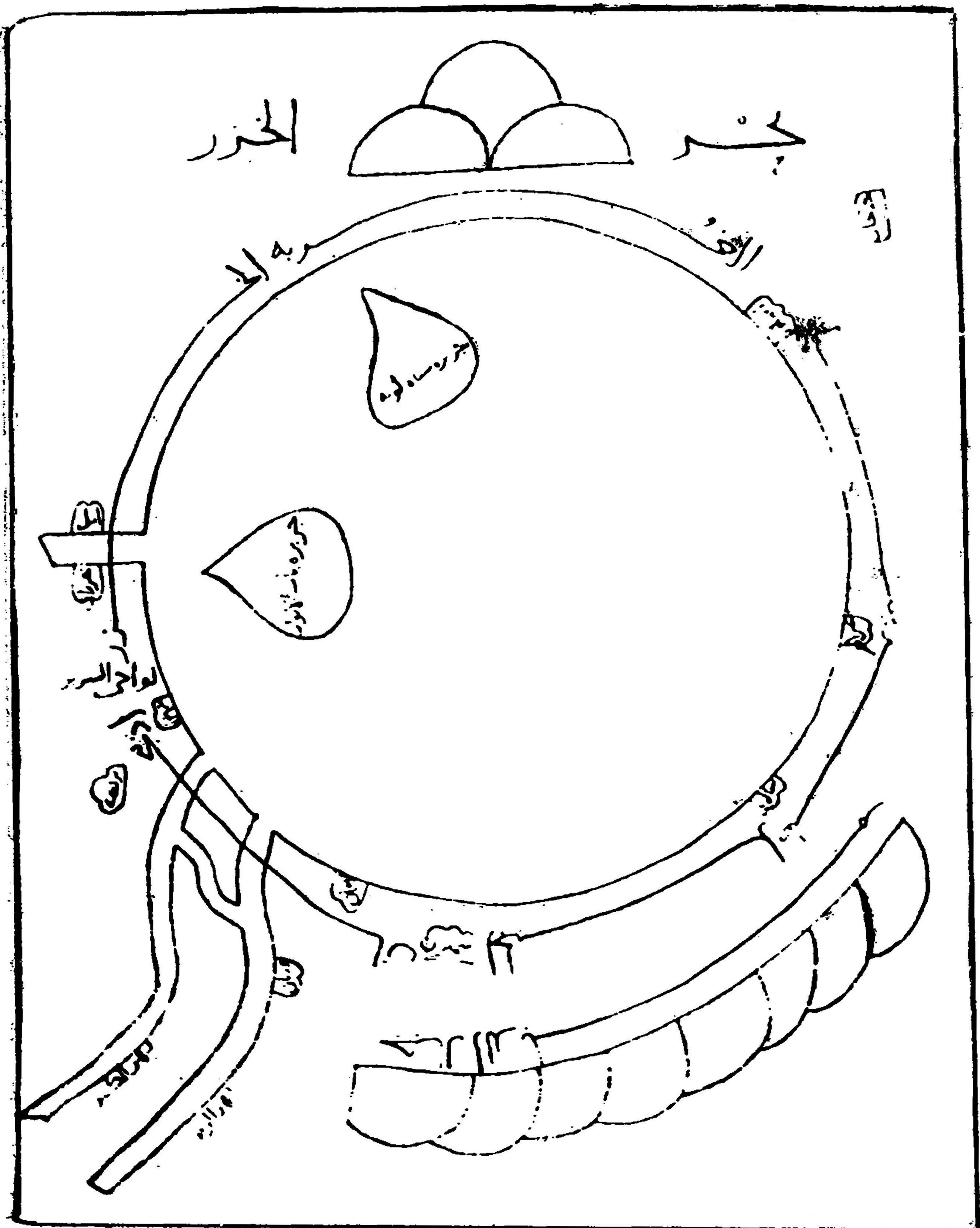
ج ـ بحر الخزر (بحر قزوين)

رسمه على شكل دائرة تحيط به المناطق التي تقع حوله وهي الغزية والخزر واذربيجان والجبل وطبرستان • وتصب فيه ثلاثة انهار هي اتل (الفولغا) ونهر الرس (اراكس) ونهر الكر الذي يتصل بنهر الرس (وهو رافد نهر اراكس المسمى نهر كوره) • ويجري نهر اتل من الروس وبلغار ويصب في بحر الخزر وتصب فيه روافد من جانبه الشرقي تخرج من ناحية خرخير وتجري فيما بين الكيماكية والغزية ، ثم يجري الى الغرب على ظهر بلغار ، ثم يعود نحو الشرق حتى يصب في بحر الخزر •

ويحده من الشرق قسم من الديلم وطبرستان وجرجان ، وقسم من الصحراء الواقعة بين جرجان وخوازرم • ومن الغرب الران وحدود السرير وبلاد الخزر وقسم من صحراء الغزية ومن الشمال صحراء الغزية ، ومن الجنوب الجبل والديلم •

وفي داخله جزيرتان رسمت بشكل مثلث ضلعه الاسفل منحني وهما جزيرة سياه كويه وجزيرة باب الابواب ، وتحيط به سلسلتان من الجبال تسمى احداهما جبال الديلم ، ولايوجد حاجز يمنع السائر على ساحله عدا الانهار التي تصب فيه ، وهو لا يتصل بغيره من البحار •

وبذلك يكون ابن حوقل قد ذكر المعلومات الخاصة به بشكل جيد ، ولكنه لم يستطع ان يرسم لنا الشكل الحقيقي لبحر الخزر الممتد بشكل مستطيل من الشمال الى الجنوب • شكل رقم ٥



شكل رقم (٥)

٤ ـ صورة المغرب وبلد الروم

وقد رسم ابن حوقل بحر الروم (البحر المتوسط) بشكل مكبر ، وما يقع على سواحله بثلاث خرائط متكاملة تشمل الاولى الجزء الشرقي من البحر المتوسط وما تقع عليه من الاراضي في الشمال وهي بلد الروم (اسيا الصغرى وارمينيا) ، ومن الشرق حدود الشام وحدود الثغور ، ومن الجنوب المنطقة الممتدة من الاسكندرية حتى سرت والتي تشمل قسما من مصر وليبيا ، ويظهر فيها مصب نهر النيل وجزيرة قبرص واقريطش (كريت)

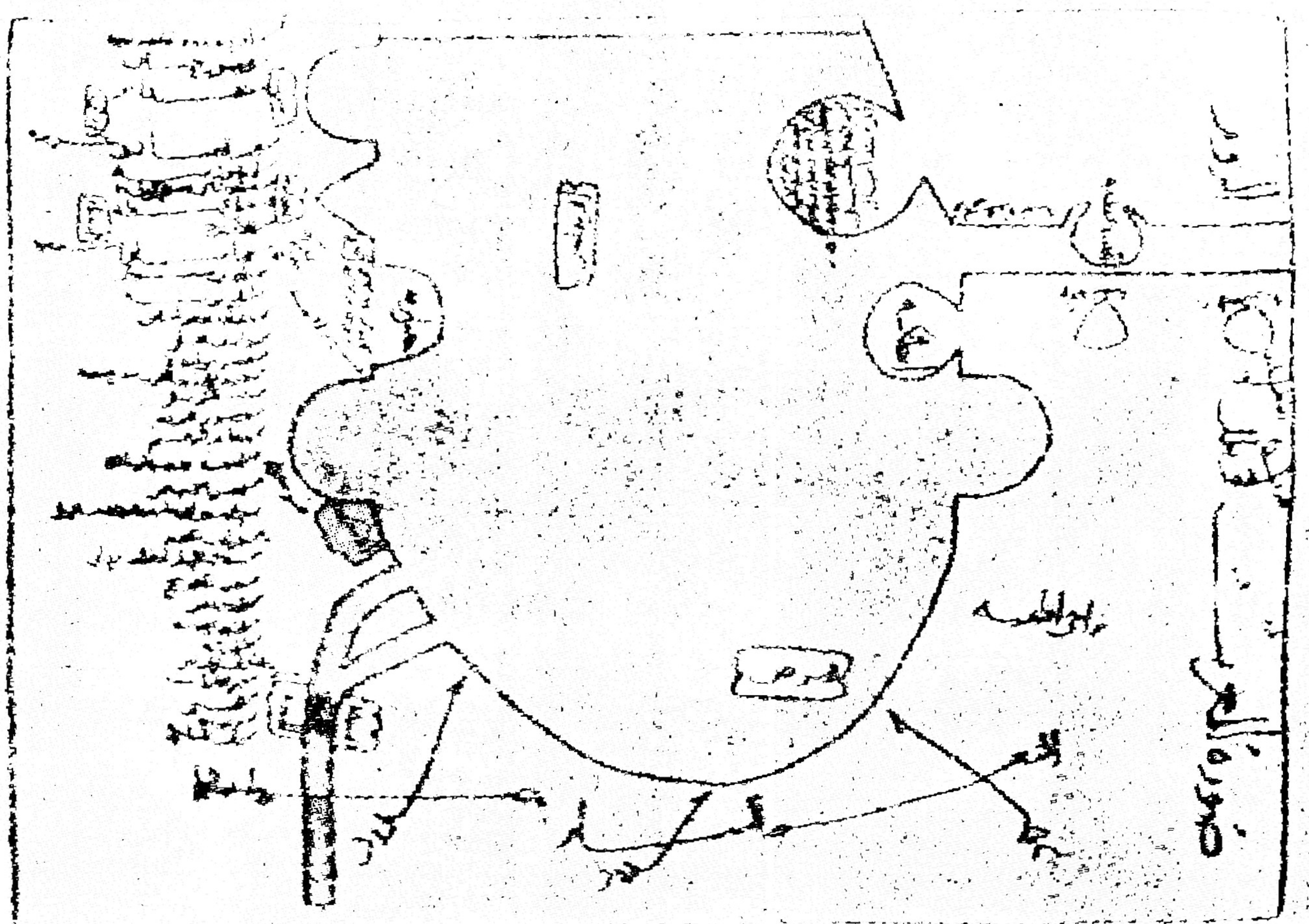
والقسم الاوسط يشمل المنطقة الممتدة من القيروان الى المهدية اي (تونس والجزائر) وقد رسم المدن الساحلية والطرق التي تقطع المنطقة من جميع جهاتها ، ويظهر فيها جبلي نفوسة واوراس ، ومجموعة من الجزر هي مالطة وقوسره وصقلية وسردينيا وقرشقة والى الشمال ارض قلورية (ايطاليا) .

اما القسم الثالث فهو عبارة عن بقية المنطقة وتشمل المغرب واسبانيا ، ويظهر فيها مجموعة من المدن الساحلية والانهار .

وبهذا فان الخريطة تمثل عند جانبها الغربي الارض الممتدة من مصر وبرقة الى افريقية . وناحية تنس [٢١] الى سبتة وطنجة ، وفي جانبها الشرقي بلد الروم من حدود الثغور الشامية الى القسطنطينية الى نواحي رومية (روما) وقلورية (ايطاليا) والانكبردة (سهل لمبارديا) ، والافرنجة (فرنسة) وجليقية (شمال غرب اسبانيا) ، وقد وضع مجموعة من الطرق تبدأ من القيروان نحو المدن التي تقع على الساحل او في الداخل ، ومجموعة من الطرق داخل اسبانيا . شكل رقم ٦ .

---

(٢١) ناحية تنس : مدينة كبيرة كانت تقع على الساحل الشمالي لبحيرة المنزلة الحالية في مصر



شكل رقم (٦)

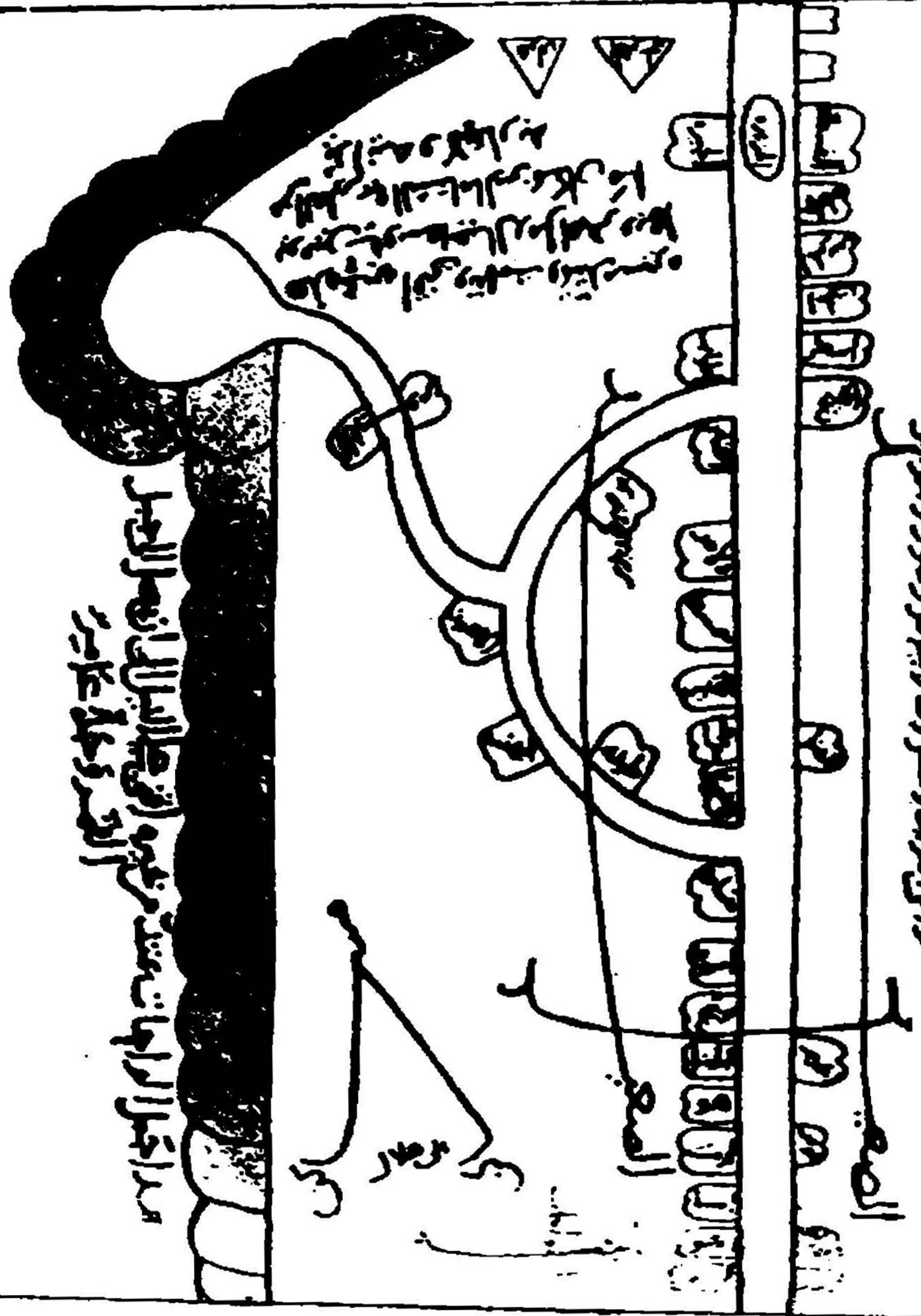
٥ ـ صورتان مصر ونهر النيل

وجد في الكتاب صورتان احداهما لمصر والاخرى لنهر النيل ، فالصورة الاولى تتكون من خريطتين لمنطقة واحدة ، يمثل القسم الاول الصعيد من اسوان حتى الفسطاط والجيزة ، ويظهر فيها بحر القلزم (البحر الاحمر) الى الشرق وسلسلة جبل المقطم التي تقع بين بحر القلزم ونهر النيل ، وسلسلة الجبال الغربية التي اطلق عليها جبال الواحات التي تمتد من بحيرة اقني على النيل حتى جبل القمر حيث منابع نهر النيل • اما القسم الثاني فيختص بالدلتا حيث ينشطر نهر النيل الى قسمين عند مدينة شطنوف (قرية بمحافظة المنوفية شمال نقطة التفرع) احداهما شرقي الى تنس واعمال دمياط هو فرع دمياط • والاخر غربي اخذا الى رشيد من ساحل الاسكندرية اضافة الى التفرعات التي تغطي الدلتا والمدن التي تنتشر فيها وبذلك تمثل مصر والشمال الشرقي من السودان • شكل رقم ٧ •

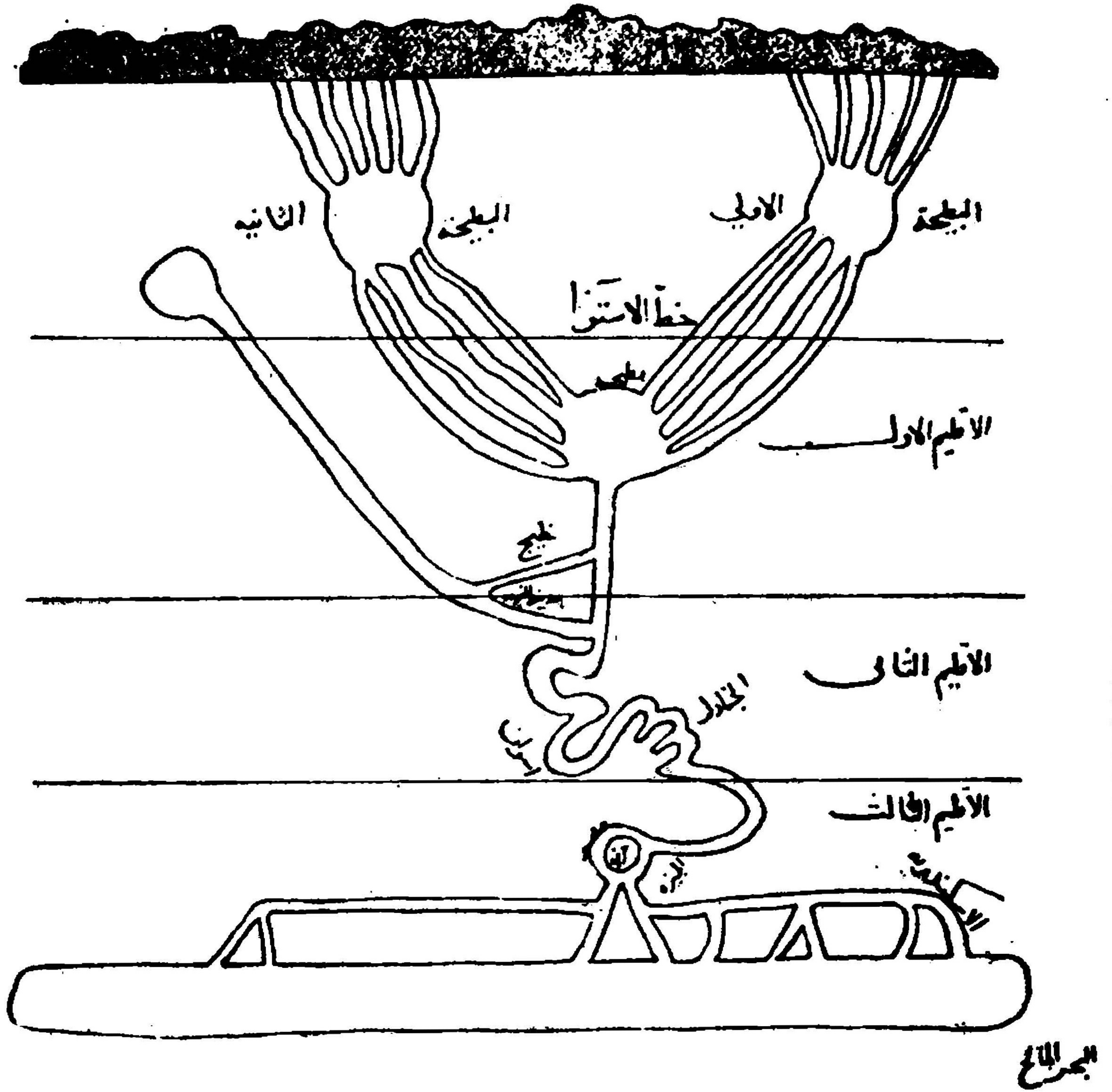
اما الخريطة الثانية فهي احدى خرائط الخوارزمي ، التي وجدت في كتاب ابن حوقل منقولة من النسخة المختصرة الموجودة في باريس النص الثالث من النصوص التي توفرت عنه شكل رقم ٨ •

٦ ـ صورة بلاد الشام

وقد حددها من الغرب ببحر الروم (البحر المتوسط) ، ومن الشرق البادية من ايلة الى الفرات ، ثم الى حد الروم ، وشماليها بلاد الروم ،وجنوبها حد مصر وتيه اسرائيل حتى رفح ، وبذلك تكون الخريطة قد شملت سورية في الشمال ولبنان في الوسط وفلسطين في الجنوب والى الشرق الاردن • وتقع الى الشرق من الساحل سلسلة جبلية تبدأ من الشمال بجبال اللكام ثم السماق وبهراء وهي جبال سورية وجبال لبنان الشرقية والغربية ، وجبال طورسينا التي تشمل جبال فلسطين وهضبة شبه جزيرة سيناء • وذكر فيها المدن الساحلية والداخلية بشكل صحيح ، ويصب في البحر اربعة انهار ، مع

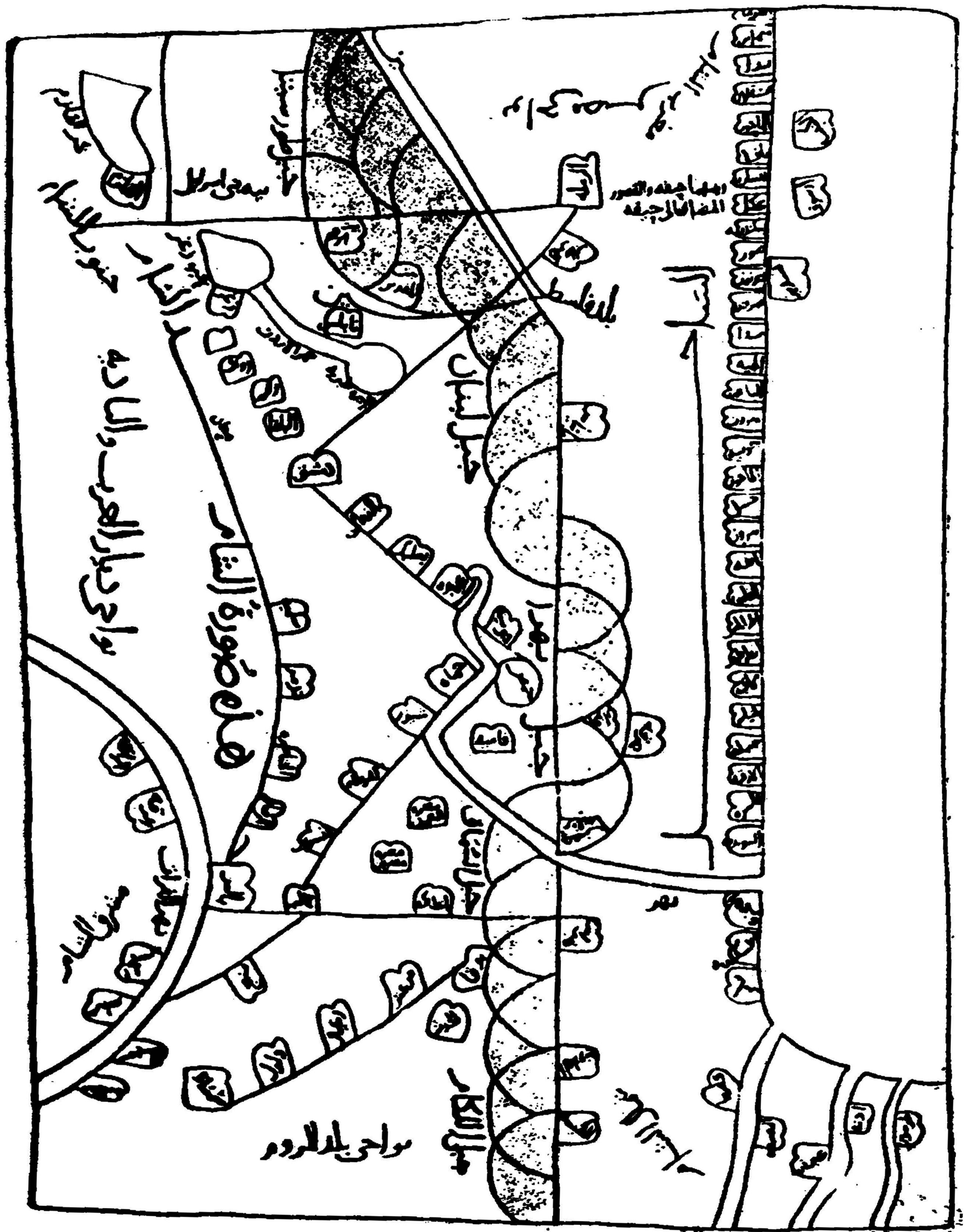


شكل رقم ٧


جبل القمر
البطيحة
الاولى
البطيحة
الثانيه
خط الاستوا
بطيحة
الاقليم الاول
خليج
الاقليم الثاني
الجنادل
الاقليم الثالث
البحر المالح

شكل رقم ٨

مجموعة من الطرق كالطريق بين حلب ودمشق والطريق بين انطاكية وحلب ونابلس على الفرات ، والطريق من حلب الى حمص • شكل رقم (٩)



شكل رقم ٩

٧ ـ صورة العراق

وتشمل المنطقة التي تمتد من تكريت في الشمال الى عبادان في الجنوب ، وعرضه من القادسية الى الكوفة ، وبغداد الى حلوان •

وقد رسم بحر البصرة يصب فيه من الوسط نهر دجلة ، يحده من الشمال الشرقي اذربيجان ومن الشرق الجبل وخوزستان •

ويصب في نهر دجلة اربعة روافد اثنان منها تقع خارج حدود العراق ، والاثنان الاخران داخل العراق ، يعرف النهر الاخير النهروان ، وقد رسمت بشكل خطين متوازيين ملتوية التواءات حادة بشكل زاوية قائمة ومن الاسفل يتفرع نهر المعقل الذي يصب عند عبادان ويجري بشكل قوس يخرج منه نهر الايلة الذي يصب في نهر دجلة وتقع عليه مدينة البصرة • وعلى يمين البصرة تقع بطائحها وقد رسمت بشكل دائرتين ويتفرع من دجلة نهر فرع يصب في هذه البطائح •

ويوازي نهر دجلة من الشمال نهر الفرات الذي ينتهي في منطقة بطائح الكوفة ولا يصل مصبه الى الخليج ، ويتشعب عدة شعب اثنان منهما يصبان في نهر دجلة عند بغداد هما نهر الصراة ونهر عيسى (الصقلاوية حاليا) وهذا يوضح بان نهر الفرات كان متصلا بنهر دجلة عند موقع مدينة الصقلاوية الحالية ، وان السهل الرسوبي الممتد حتى رأس الخليج قد تكون بعد ذلك • ثم نهر صرصر ونهر الملك حيث يجتمع هذين الفرعين ويصبان في دائرة تمثل بطائح الكوفة واطلق عليها سواد الكوفة • وسمى القسم الجنوبي سواد واسط ، وبهذا المفهوم فان العراق حسب تعريف ابن حوقل يشمل القسم الرسوبي الاسفل الذي سمي السواد • شكل رقم ١٠

شكل رقم ١٠

٨ ـ صورة فارس

وتشمل المنطقة التي يحدها من الشرق كرمان ومن الغرب خوزستان ومن الشمال الصحراء الواقعة بين فارس وخراسان وبعض حدود اصفهان ، ومن الجنوب البحر • وبهذا التحديد فانها تشمل مقاطعة فارس التي تشغل الاجزاء الجنوبية من ايران المطلة على الخليج العربي والواقعة بين الاحواز ومكران •

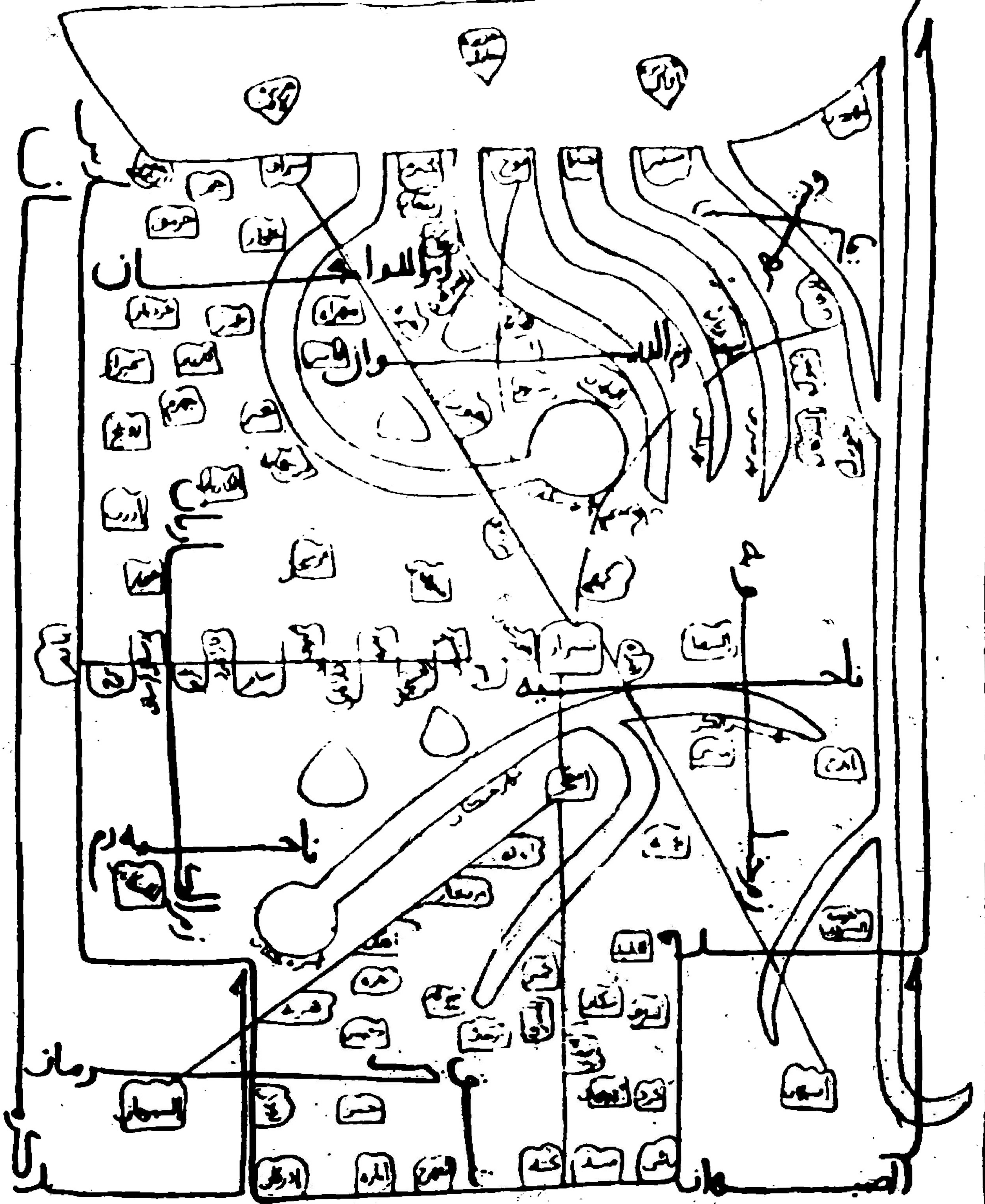
وقد صور فيها مجموعة الانهار التي تجري فيها وتصب في البحر والانهار الداخلية ، ومجموعة البحيرات ، وعدد كبير من المدن ، وذكر ابن حواقل بانه لم يصور فيها اي رستاق لانتشاره وكثرته ، كما لم يصور فيها اي جبل لانه ليس بفارس بلد الا وبه جبل ورغم كثرة المدن الموضوعة في هذه الخريطة فانه يذكر بانه لم يستطع ان يصور الا المدن الكبيرة التي فيها منبر مشهور •

وهناك مجموعة من الطرق تتفرع من مدينة شيراز نحو سيراف ويزد والسيرجان والسرمتان وجروم كرمان • شكل رقم ١١

٩ ـ صور كرمان

وتمثل هذه الخريطة المنطقة التي تحدها من الشرق ارض مكران والصحراء الواقعة بين مكران والبحر وغربيها ارض فارس ، وشماليها صحراء خراسان وسجستان (صحراء دشت او الصحراء المالحة الكبرى وصحراء لوط) وجنوبها بحر فارس ، وبهذا التحديد فانها تشمل المنطقة التي تشغلها الاجزاء الجنوبية الشرقية التي تشرف على ساحل البحر العربي ضمن ايران والباكستان

وتوضح الخريطة بان ليس فيهذه المنطقة نهر كبير او بحيرة عدا بحر فارس وخليجه ، وانها قليلة العمارة على عكس منطقة فارس •



شكل رقم ١١

وفي الركن الجنوبي الغربي منطقة جبلية تتكون من سبعة جبال هي جبال الكبت والبلوص وتحتوي على نواحي رويست والاخواش ورستاق الروذران ، ثم مجموعة اخرى من السلاسل الجبلية هي الفضة وجيرفت ، ويتفرع منها جبال البارز •

وتحتل مدينة سيرجان مركز قصبة كرمان ، يتفرع منها شبكة من الطرق في كل الاتجاهات الى جيرفت والفهرج وخبيص وزرند واناس والرباط وتارم وكل هذه الطرق تمر بمجموعة من المدن • شكل رقم ١٢

١٠ ـ صورة السند

تمثل هذه الصورة المنطقة المحصورة من الشرق ببحر فارس ومن الغرب كرمان وصحراء سجستان (صحراء لوط) ، ومن الشمال بلاد الهند ، ومن الجنوب الصحراء الواقعة بين مكران والقفص •

وتظهر في هذه الخريطة جزء من البحر يصب فيه نهر مهران (السند) الذي ينبع من الجبال التي تنبع منها بعض روافد نهر ميجور (اموداريا) ، وتصب فيه ثلاثة روافد ، تنبع من خارج المنطقة ، اول هذه الروافد بدون اسم، والثاني نهر السندروذ والاسفل نهر الحبذور • وقرب المصب يتفرع منه فرع بشكل قوس يعود للالتقاء بالنهر الرئيسي مرة ثانية • وهناك مجموعة من الطرق تربط المدن المختلفة • شكل رقم ١٣

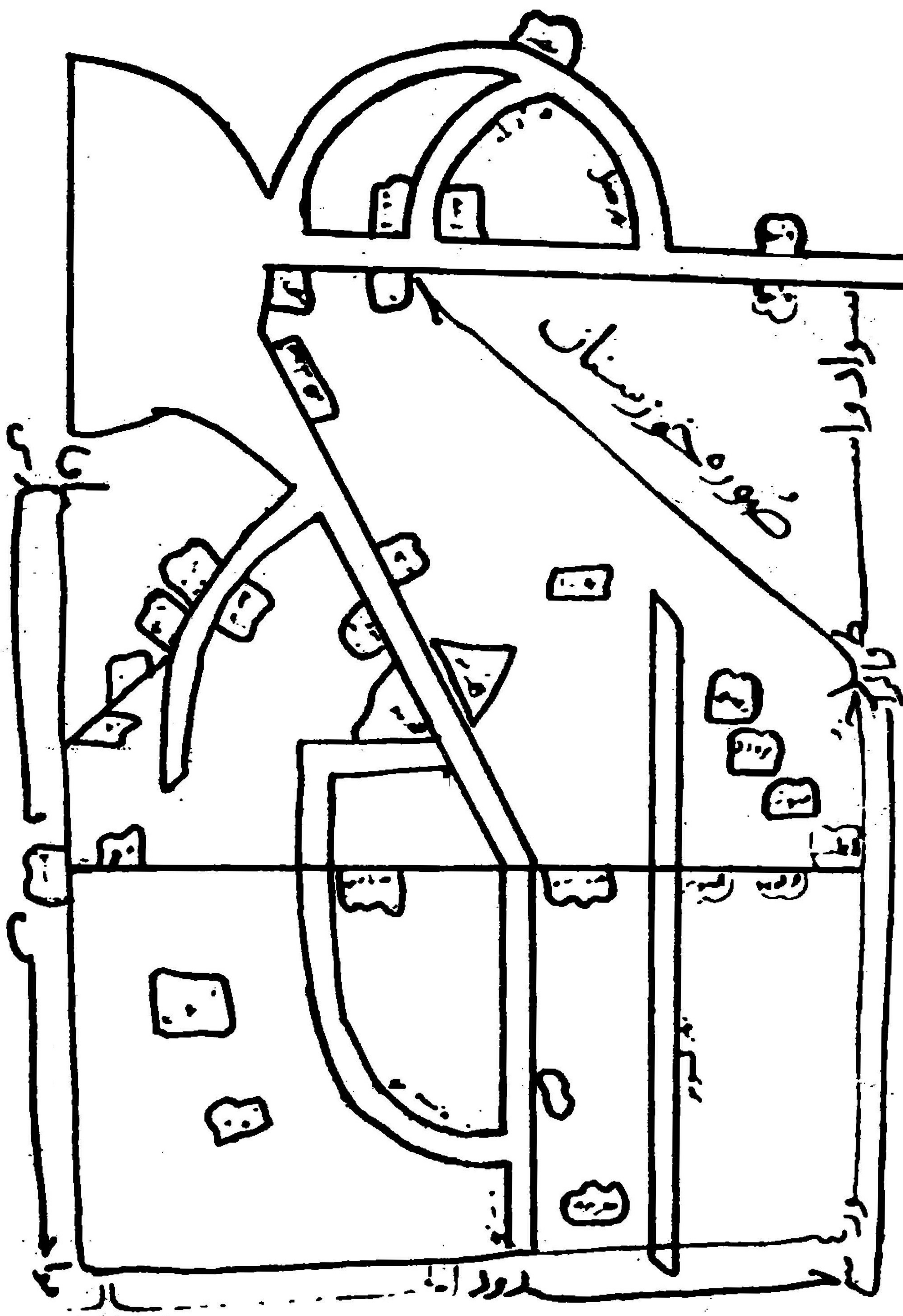
١١ ـ صورة خوزستان

توضح الخريطة بانها ارض سهلية ، وتخلو من كتابة الاتجاهات كما ورد في الخرائط الباقية ، وقد رسم فيها خليج البصرة يصب فيه نهر دجلة والى الشرق منهمنطقة خوزستان •

ويجري فيها نهران احدهما الى الشمال وهو نهر السوس (الكرخة) الذي ينبع من منطقة الجبال وينتهي في داخل المنطقة • والنهر الثاني الكبير هو نهر تستر (الكارون) الذي ينبع من منطقة الجبال ويصب في بحر البصرة قرب نهر دجلة • ويتفرع منه فياقسامه العليا نهر المسرفان شكل رقم١٤

شكل رقم ١٢

شكل رقم ١٣



شكل رقم (١٤)

١٢ صورة الديلم وطبرستان وما يليها

وتشمل الجزء الذي تحتله بلاد الاسلام من بحر الخزر (بحر قزوين)، وتمتد سلسلة جبلية عند نهاية المنطقة تشمل جبال الديلم وبلاوستان وقارن وروبج ، ينبع منها نهر يتجه نحو الشمال حيث يصب في بحر الخزر • وتحتوي المنطقة على طبرستان ونواحي الجبل ونواحي اذربيجان

وعند مقارنة هذه الخريطة مع خريطة بحر الخزر يتضح ما يلي

١ ـ لم يذكر نهري الرس والكر (نهر اركس وروافده نهر كوره) رغم انه ذكر المدن التي تقع قريبا منها ، فالنهران يقعان بين مدينتي الباب وموقان (سهل موغان) وكلاهما موجودة في خريطة الديلم ولايوجد اي اثر للنهرين رغم ان هذه الخريطة مكبرة عن خريطة بحر الخزر ، ولابد ان تكون اكثر تفاصيلا •

٢ ـ ذكر نهرا بدون اسم لا يوجد له اثر في صورة بحر الخزر • وهذا النهر هو من الانهار الكبيرة في ايران ويسمى سفيدرود ورغم ذلك لم يذكر لنا اسمه • شكل رقم ١٥

١٣ صورة مفازة فارس (صحراء فارس)

تقع بين كرمان ومكران والسند والهند ، وقد رسمت بشكل مستطيل الشكل احد اضلاعه مقوس وكتب عند حدودها الخارجية كرمان فارس من الشرق وقوهستان ونواحي سجيستان من الغرب • ورسم مجموعة من المدن تصل بينها شبكة من الطرق • وفي داخل الخريطة منطقة خالية عدا سلسلتين من الجبال هما جبال سياه وجبال كركس • ويتصل بهذه الصحراء عند طرفها الشمالي الغربي بحيرة داخلها مدينة رزنج واعلى منها كتب مفازة سجستان والملتان (مدينة على نهر الهندوس) •

جبال بادوستان وقارن ورونج
هذا ما يلي الاسلام من بحر الخزر
صورة الجبل وطبرستان وما يليها
ناحية

شكل رقم (١٥)

وكتبت اسماء الطرق بشكل موازي لامتداد الخطوط التي ترمز لها وهـي •

١ ـ الطريق الجديد من كرمان الى خراسان ، ويبدأ من سبيج الى نقطة في خط الحدود الاخر

٢ ـ طريق خبيص من حدود كرمان الى خراسان بين خبيص وقرية سلم•

٣ ـ طريق السرور (طريق زاور) بين زاور وقاين

٤ ـ طريق يزد بين يزود وكرى

٥ ـ طريق نابين بينها وبين خراسان

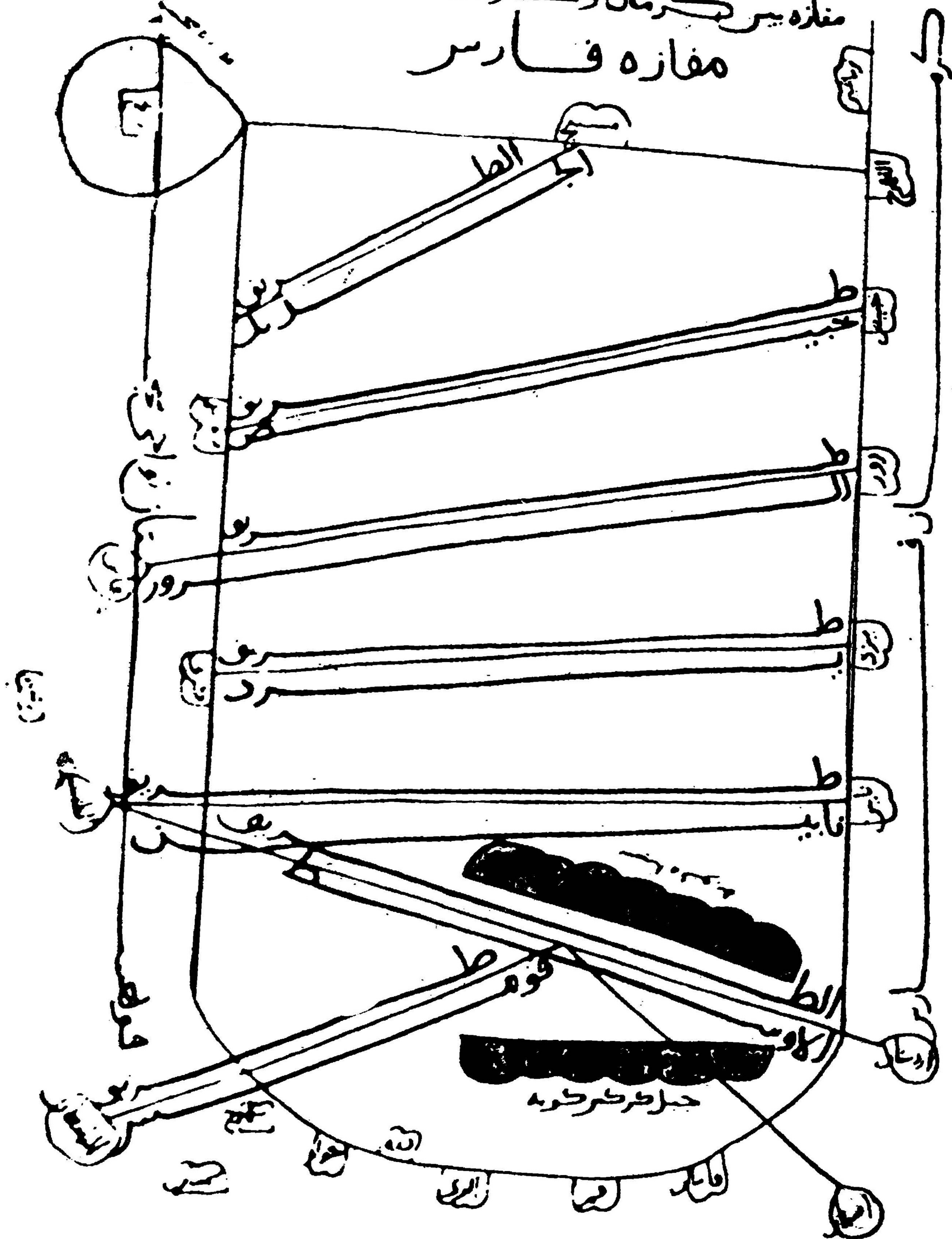
٦ ـ الطريق الاوسط بين اردمتان والطبسين ، ويتفرع منه طريقان احدهما الى الدامغان كتب عنده طريق قومس والاخر الى اجهان • وطريق قومس لا يسلك الا عند الضرورة وهذه الطرق هي المعروفة دون ان يهمل طريقا مسلوكا غير ما ذكرته • شكل رقم ١٦

١٤ ـ صورة سجستان

تمثل المنطقة التي يحدها من الشرق الصحراء الواقعة بين كرمان ومكران والسند وسجستان ، وقسم من عمل الملتان ، ومن الغرب خراسان وقسم من الهند ، ومن الشمال الهند ومن الجنوب الصحراء الواقعة بين سجستان وكرمان وهي بذلك تمثل اغلب افغانستان الحالية •

والمنطقة سهلية خالية من المرتفعات تقطعها شبكة مائية تبدأ من الشمال بنهر هيل منه رسمه دون ذكر اسمه حيث يلتقي بنهر آخر ينبع من سلسلة جبلية صغيرة ، حيث يتكون مجرى واحد يصب في بحيرة زرة ، ويتفـرع منه عدد من الفروع تغطي المنطقة •

وتحتوي الخريطة مدن قليلة وطرق محدودة ، مما يوضح بانها منطقة زراعية قليلة السكان • شكل رقم ١٧



شكل رقم (١٦)

صورة سجستان

شكل رقم (١٧)

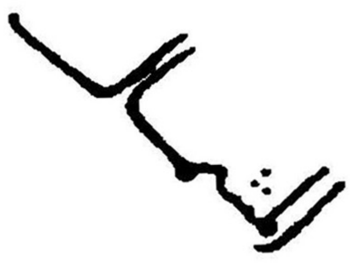
١٥ ـ صورة الجبال

تمثل المنطقة المحصورة من الشرق بصحراء فارس واصبهان وشرقي خوزستان ، ومن الغرب اذربيجان ومن الشمال الديلم وقزوين والري ، ومن الجنوب العراق وبعض خوزستان ، وتحيط بها الجبال من جميع جهاتها . وتقع في داخل المنطقة مصايف ومشاتي قبائل الاكراد . وبذلك فان هذه الصورة تشمل الاراضي التي تحادد العراق من الشمال الشرقي ، وهي المنطقة التي تزاول فيها بعض العشائر الكردية الساكنة في محافظات السليمانية واربيل ودهوك والتأميم رحلات فصلية منذ القدم في المناطق الايرانية القريبة من الحدود العراقية للاستفادة من المراعي داخل الاراضي الايرانية والعراقية .

ومن همدان تتفرع مجموعة من الطرق الى اصفهان وخوزستان والري وحلوان وتخلو المنطقة من البحيرات والانهار . شكل رقم ١٨

١٦ ـ صورة الجزيرة

تشمل المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات وهي ديار ربيعة وديار مصر ، ومنبع نهر الفرات من بلد الروم ، ويجري بشكل قوس يصب فيه رافد الخابور من الشمال وينتهي بمجموعة من الفروع هي نهر سورا والملك وصرصر وعيسى وفرعه الصراه . وعلى الجانب الايمن منه يقع نهر دجلة الذي رسمه بشكل خط مستقيم ، وتصب فيه مجموعة من الروافد من الاعلى الى الاسفل هي ساتيدما (بطمان) وسريط (بولان) والزرم (الخابور) والزاب الكبير والزاب الصغير . ويتفرع منه من الجهة اليمنى نهر الاسحاقي وهو نهر قديم يمتد من تكريت حتى عكركوف ويروي منطقة واسعة وتعود تسميته الى العهد العباسي . ورسمه ابن حوقل يتشعب من جنوب تكريت باتجاه الغرب حتى يصب في نهر الصراه الذي يسحب المياه من نهر الفرات ويصب في دجلة عند بغداد . شكل رقم ١٩



صورة الجبال

شكل رقم (١٨)

شكل رقم (١٩)

١٧ ــ صورة ارمينية واذربيجان والران

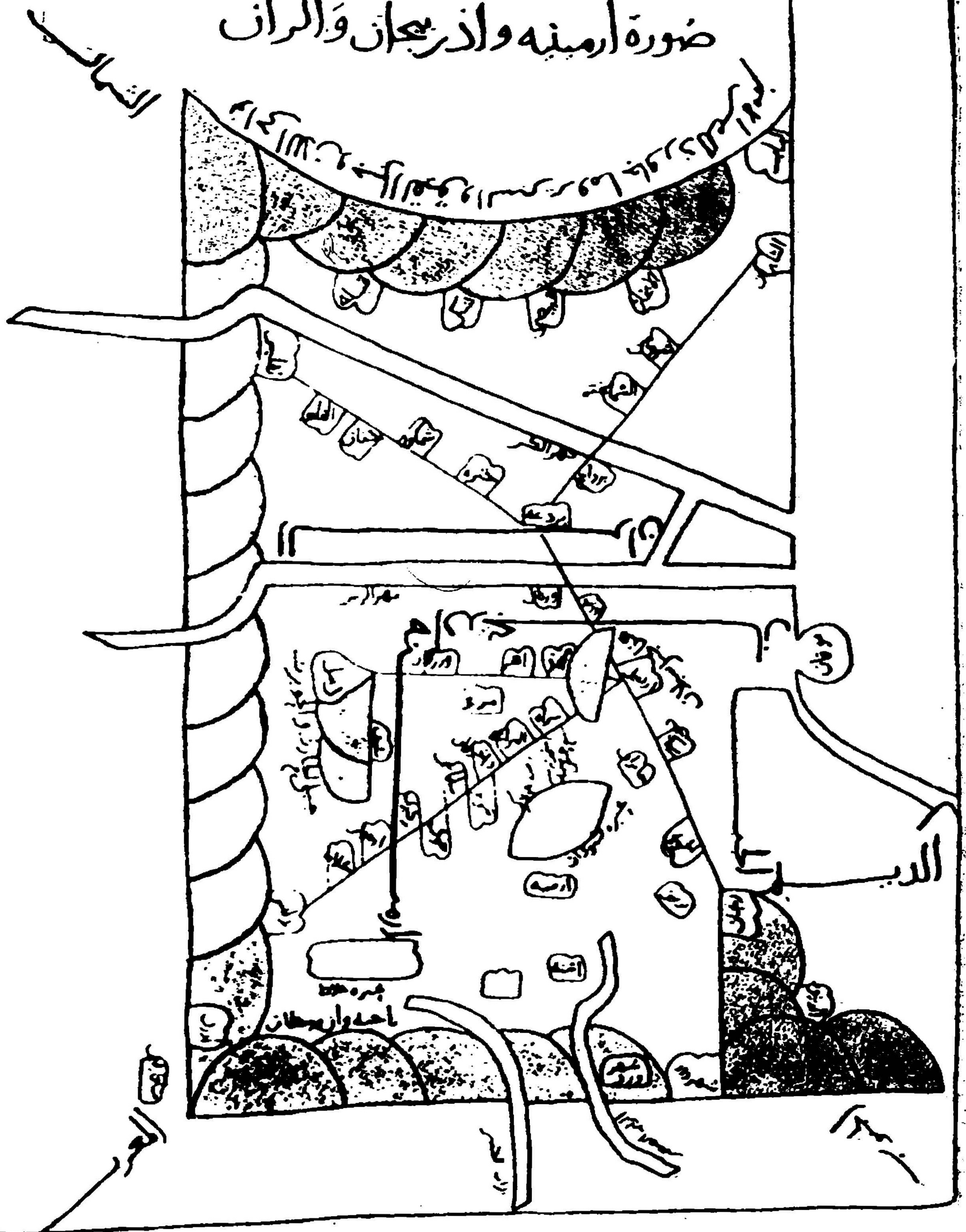
تمثل المنطقة التي تحيطها الجبال من ثلاث جهات بشكل متصل ، ومن الشرق البحر ، وتنبع من سلسلة الجبال نهران هما نهر الرس ونهر الكر (نهر اراكس ورافده كوره) اللذان يصبان في البحر ، ويفصل نهر الرس (اراكس) بين منطقة الران الى الشمال ومنطقة ارمينية واذربيجان والجبل والديلم الى الجنوب • ويتضح منابع نهري الزاب الكبير والزاب الصغير من روافد نهر دجلة ويتمثل في المنطقة بحيرتان هما بحيرة كبوذان (بحيرة اورمية) بين ارمينية والجبل قرب منابع الزاب الصغير ، والاخرى عند الركن الجنوبي الغربي بشكل مستطيل هي بحيرة خلاط (بحيرة وان) قرب منابع الزاب الكبير حيث تقع ناحية وان ووسطان •

وبذلك فان الخريطة تمثل المنطقة التي يحدها من الشمال اللان وجبال القبق ومن الجنوب العراق وقسم من الجزيرة ، ومن الشرق الجبال والديلم وغربي بحر الخزر ومن الغرب حدود الارمن واللان وقسم من الجزيرة •

وتمثل مدينة برذعه مركز المواصلات حيث يتشعب منها مجموعة من الطرق • شكل رقم (٢٠)

١٨ ــ صورة خراسان

وقد رسمت بشكل خريطتين تكمل احداهما الاخرى • وقد رسم من الجنوب نهر كبير (هيلمند) ينبع من سلسلة جبال الباميان (وسط افغانستان)، وقد رسمها بشكل دائرة منتظمة ويصب في بحيرة زره (في الجنوب الغربي من افغانستان عند الحدود المشتركة مع ايران) واسفلها بحيرة اصغر منها داخلية الموقع لا يصب فيها نهر تقع في داخلها مدينة زرنج ، والى الشرق منها



شكل رقم (٢٠)

سلسلة جبلية دائرة الشكل اصغر حجما هي جبال الغور ، ينعطف منها نهر نحو الاسفل ليلتقي بنهر اخر قادما من الباميان نحو الشمال ، ويكون الالتقاء قرب مدينة هراة ويلتقي بهما رافد اخر عند مدينة بوسنج ، ويمثل هذا الجزء نواحي اسفزار وقوهستان وطوس .

والى الشمال مجموعة من المدن تربطها شبكة من الطرق تحتل مدينة نيسابور المركز الذي يتشعب منه مجموعة من الطرق .

ومن جبال الباميان يتفرع نهر اخر باتجاه الشرق يلتقي في نهر رئيسي يسمى في قسمه الاعلى نهر خرباب وفي قسمه الاسفل نهر جيحون (اموداريا) يصب في بحيرة خوارزم (ارال) تصب فيه اربعة روافد . شكل رقم (٢١)

١٩ صورة ما وراء النهر

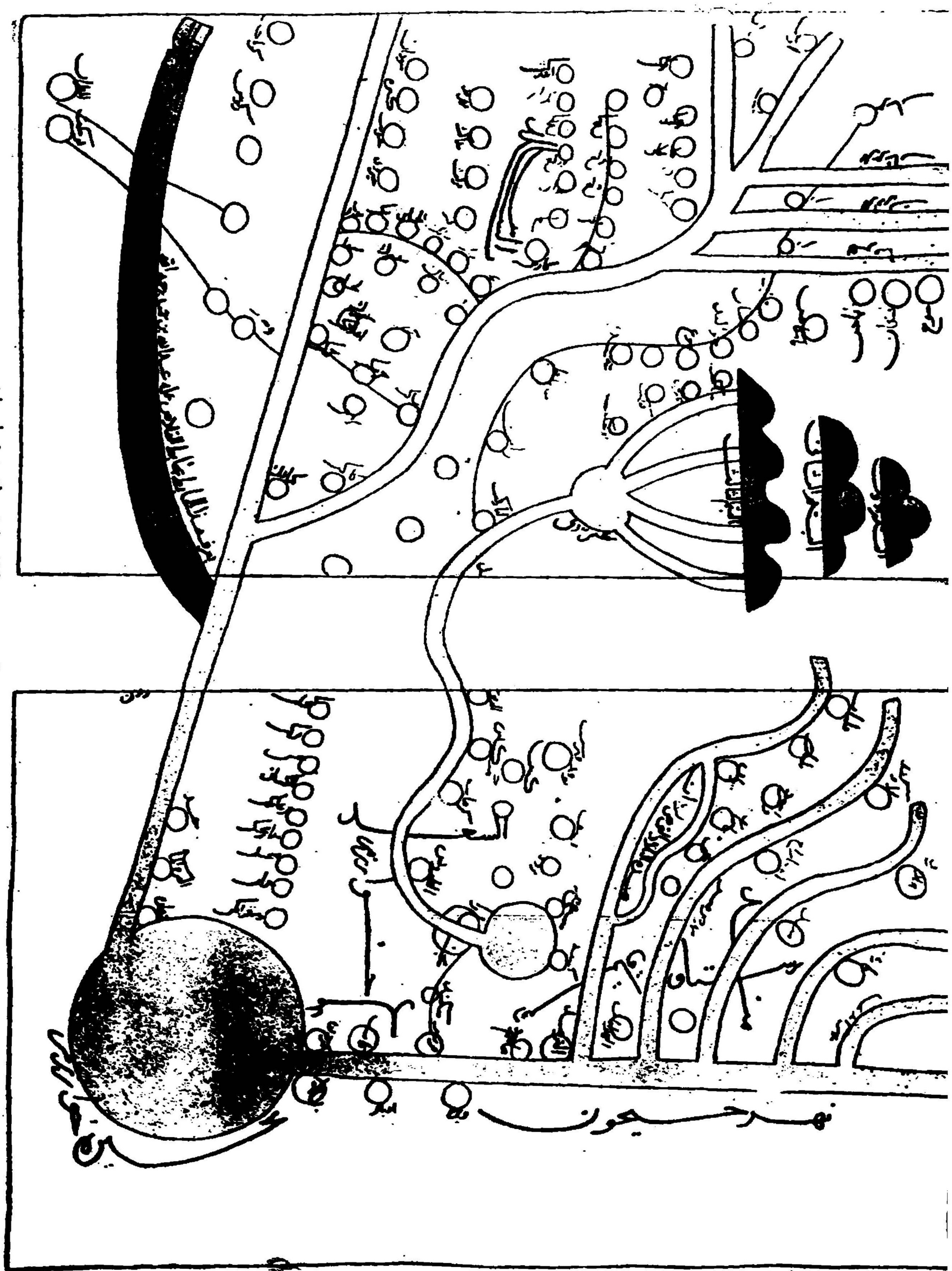
تغطي الخريطة الاراضي المحيطة بنهري سيحون وجيجون (سرداريا واموردراريا) والتي تقع في تركستان الكبرى وتشمل جمهوريات تركستان وازبكستان وقرغيزيه وتاجكستان ورسم عند ركن الخريطة جزء من بحيرة خوارزم (ارال) يصب فيها نهر جيجون ، وفي وسط الخريطة اربعة سلاسل جبلية مرتبة بعضها فوق بعض ينبع منها ستة روافد تلتقي وتكون نهرا يجري نحو الجنوب . ثم ينعطف نحو اليمين حتى يصب في بحيرة نجارا ، والى اليسار توجد خمسة انهار تجري بصورة عمودية وتصب في نهر واحد يلتقي مع النهر الذي يصب في بحيرة خوارزم (ارال) . شكل رقم (٢٢)

صورة خراسان

شكل رقم (٢١)

شكل رقم (٢٢)

وقد وجدت خارطة اخرى لمنطقة ما وراء النهر من كتاب الاصطخري



شكل رقم (٢٣)

مزايا خرائط ابن حوقل

من تحليل خرائط ابن حوقل يتضح انها تتميز بالمميزات التالية •

١ ـ وضع الشمال عند اسفل الخريطة مجاراة للتقليد العربي الجاري آنذاك ، مع بقاء الخريطة محتفظة بصحتها •

٢ ـ رمز للاتجاهات بكتابة اسمائها الاربعة وهو الشمال والغرب والجنوب والشرق وهو تقليد في رسم الخرائط العربية القديمة على خلاف العادة الجارية في الوقت الحاضر ، بوضع رمز يشير الى اتجاه الشمال فقط ، ومنه تعرف الاتجاهات الباقية ، دون الحاجة للاشارة اليها •

٣ ـ لكل خريطة عنوان يحمل اسم المنطقة التي تمثلها الخريطة ، ولم يراع عند كتابة الكلمات داخل الخريطة ان تكون مع مستوى النظر لسهولة قرائتها ، وهذا يتطلب تقليب الخريطة بعدة اتجاهات ، وقد يكون ذلك نوعا من انواع الفن المستعمل لتزيين الخريطة وتجميلها آنذاك •

٤ ـ استعمل الالوان في رسم الخرائط • وقد ورد نص في خريطة خراسان يؤكد ذلك حيث ذكر قرب نهر جيجون ما يلي « وقد تقدم ذكر هذا الرمل وكيفية انبساطه على وجه الارض واتصال بعضه ببعض واختلاف الوانه واصباغه وهو بهذه الناحية بهذا اللون »[٢٢] ، ولم ترد اي اشارة في الكتاب عن ذلك ، ويبدو ان التلوين كان من صميم عمل الخرائط العربية دون الحاجة الى ذكر ذلك •

٥ ـ الخرائط مرسومة بناء على الاجتهاد الشخصي المستند على السمع والاستفار والمشاهدة ، واتخذ المواقع مراكز لتعيين الاتجاهات مما مكنه من رسم خرائط صحيحة الاتجاه والموقع ، وان التحديد الصحيح لهذه الاماكن يدل على الوضوح العلمي لدى ابن حوقل •

---

(٢٢) صورة الارض ص ٣٦٠

٦ - لم تستعمل الخرائط مقياس الرسم كما تحويه الخرائط الحديثة ، واقتصر دور الخريطة على توضيح الموقع الصحيح والاتجاه الصحيح ، اما المسافات فيحويها متن الكتاب ، وقد حاول بقدر الامكان ان تكون هذه المسافات صحيحة حتى تخدم المسافرين .

٧ - لم تعتمد الخرائط على اساس فلكي من حيث تقسيم الاقاليم السبعة المعروفة سابقا ، او استعمال المسقط الاسطواني البسيط الذي استعمله الجغرافيون العرب الذين سبقوه . وانما اعتمدت على اساس اقليمي جديد بافراد خريطة لكل منطقة ، بحيث لا يمكن الاستغناء عن الخريطة لفهم المتن الموجود ، او الاستغناء عن المتن لفهم ما موجود بالخريطة ، لان الخرائط صممت على اساس المعلومات الموجودة في الكتاب ، وهو اسلوب علمي حديث .

٨ - لا تكمل الخرائط بعضها بعضا ، اي اننا لا نستطيع ان نجمع خرائط اقاليم الاسلام مع بعضها لتحصل على خريطة واحدة تمثل المنطقة التي يغطيها الكتاب .

٩ - الاشارات التي وضعت للمدن اتخذت شكل مربع يكون في احد اضلاعه جزء صغير مقعر نحو الداخل ، ويكون كبر المربع وصغره يوضح كبر المدينة وصغرها .

١٠ - طرق المواصلات رسمت بشكل خطوط مستقيمة بين المدن ، واتخذ مدينة مركزية تتشعب منها كل الطرق في المنطقة .

١١ - الجبال رسمت بشكل انصاف دوائر ، واذا كانت بشكل سلاسل فانها ترسم كذلك بشكل انصاف دوائر تلتقي عند المركز ، وصغر هذه الاقواس او كبرها يمثل ضخامة الجبال وارتفاعها .

١٢ - اتخذت البحيرات اشكال مختلفة بين مستطيل او مثلث او دائري غير منتظم .

١٣ ـ الحدود توضح بكتابة كلمتين مثل حد العراق او حد الجزيرة ، وتحيط كتابة هاتين الكلمتين بالمنطقة المراد تحديدها ، وتمتد كلمة حد على اغلب المنطقة ، حيث تكتب بشكل خط طويل بين حرفي الحاء والدال (حد) يغطي اغلب الحدود .

١٤ ـ رسمت الانهار بشكل خطوط مزدوجة تلتقي عند المنبع ، وتبقى مفتوحة عند المصب ، وهناك فرق بين الانهار الصغيرة والكبيرة ، او بين فروع النهر والمجرى الرئيسي وهو ما جرت عليه العادة في الوقت الحاضر عند رسم الخرائط ، وترسم الوديان مثل الانهار بشكل خطين ولكن متصلين من الطرفين عند المنبع والمصب .

اتفق الباحثون على عدم اصالة كتاب صورة الارض لابن حوقل ، لانه اتبع نفس اسلوب الاصطخري في كتابه المسالك والممالك من حيث ترتيب المواضيع واقتصاره على ذكر صفات بلاد الاسلام •

واعتبر قسم من الباحثين ان صورة الارض نسخة من كتـــاب الاصطخري نشرها ونسبها الى نفسه ، واعتبره القسم الاخر بانه نسخة منقحة، واستندوا في ذلك على النصوص التي اقتبسها ابن حوقل دون تفسير مما جعل الكتابين متشابهين •

ولدى تدقيقي للكتابين اتضح ان ابن حوقل نقل كل كتاب المســالك والممالك للاصطخري ، واضاف اليه ما يعادل ٨٥ صفحة ، او بما يمثل ربع الكتاب ، وجاءت هذه الاضافات بشكل اضافات طفيفة لبعض الفصول وهي صورة الارض وديار العرب والشام والعراق وخوزستان والسند والجبال والديلم وطبرستان وبحر الخزر وما وراء النهر • وهناك فصـول اضاف اليها اضافات كبيرة وهي بحر فارس ومصر وبحر الروم والجزيرة وارمينية واذربيجان والران ، وفصولا اخرى نقلها كما هي دون ان يضيف لها شيئا وهي المغرب والاندلس وصقلية وفارس وكرمان ومفازة خراسان وفارس وسجستان وخراسان •

وانني ارى بان ابن حوقل عند تجواله قد سجل الملاحظات عن الاماكن والبلدان التي زارها وقد وجد ان كتاب الاصطخري بعد اطلاعه عليـــه

صحيحا بمعلوماته ، فاقتبسه مضيفا اليه ما وجده بحاجة الى الاضافة حتى يصبح كتابا متكاملا وخصوصا ان اصالة ابن حوقل لم تبرز في كتابه وانما بخرائطه التي تخص العالم الاسلامي ارضه وبحاره ، بحيث نستطيع ان نقول انها تكون اطلسا متكاملا لهذه المناطق غنيا بمعلوماته ، دقيقا بتفاصيله . وقد اعترف الاصطخري بمكانه ابن حوقل في هذا الباب فطلب منه اصلاح خرائطه ، وهذه شهادة من الاصطخري بمنزلة ابن حوقل العلمية وقدرته على تحقيق ما اراد ، فاصلح منه اكثر من شكل وعزاه اليه . وقد قال ابن حوقل حول ذلك ما يلي «لقيت ابا اسحق الفارسي وقد صور هذه الصورة لارض السند فخلطها ، وصور فارس فجودها ، وكنت قد صورت اذربيجان التي في هذه الصفحة فاستحسنها والجزيرة فاستجادها ، واخرج التي لمصر فاسدة وللمغرب اكثر خطأ وقال : قد نظرت في مولدك واثرك وانا اسألك اصلاح كتابي هذا حيث ضللت فاصلحت منه غير شكل وعزوته اليه ، ثم رأيت ان انفرد بهذا الكتاب واصلاحه وتصويره اجمعه وايضاحه ، من غير ان الم بتذكرة ابي الفرج وان كانت حقا باجمعها وصدقا من سائر جهاتها ، وقد كان يجب ان يذكر منها طرقا في هذا الكتاب لكن استقبحت الاستكثار بما تعب فيه سواي ونصب فيه غيري[٢٣] .

وبهذا فان خرائط ابن حوقل التي يحويها كتابه تمثل الاصالة العربية، والابداع العلمي ، والجهد القيم لهذا الرحالة الذي لم ينصفه الكثيرون ، والذي افنى عمره في تجواله من اجل العلم والتوصل الى الحقيقة .

---

(٢٣) صورة الارض ص ٢٨٤

المصــادر

١ ـ اسماعيل باشا البغدادي ، هدية العارفين اسـماء المؤلفين والمصنفين ، المجلد ٢ ط ٢ طهران ١٩٥٧

٢ ـ ابن حوقل ، صورة الارض ، منشورات دار الحياة البيروتية

٣ ـ ابن حوقل ، المسالك والممالك ، منشورات ده غويه

٤ ـ ابن حوقل ، صورة الارض ، مطبعة بريل ، ليدن ١٩٣٨

٥ ـ زكي محمد حسن ، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٤٥

٦ ـ الدكتور شاكر خصباك ، في الجغرافية العربية ، مطبعة دار السـلام ، بغـداد ١٩٧٥

٧ ـ صبري محمد حسن ، الجغرافيون العرب ، ج١ مطبعة القضاء ، النجف ١٩٥٩

٨ ـ الاصطخري ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبدالعال الحسين ، دار القلم ، القاهرة ١٩٦١

٩ ـ الدكتور عبد الرحمن حميدة ، اعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات مـن اثارهم دار الفكر ، دمشق ١٩٧٥

١٠ـ الدكتور فيليب حتي وآخرون ، تاريخ العرب ج ١ ، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ، بيروت ١٩٥٠

١١ـ كارل بروكلمان ، تاريخ الادب العربي ، ترجمـة يعقوب بكر ورمضـان عبدالتواب ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٥

١٢ـ كراتشكوفسكي ، اغناطيوس يوليانوفتش ، تاريخ الادب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، القسم الاول ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٥

١٣ـ كونارد ميللر ، الخرائط العربية (باللغة الالمانية) نسـخة مصـورة ، شتتكارت ١٩٢٧

المنظمات المهنية والشعبية ودورها في تنفيذ خطة التنمية

الدكتورة فوزية العطية ـ قسم الاجتماع
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

الدكتور عادل عبدالحسين شكارة ـ قسم الاجتماع
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

الفصل الاول

العوامل الاجتماعية التي ساعدت على ظهور المنظمات وتطورها

المقدمة

تعتمد البلدان الاشتراكية والدول النامية على المنظمات الاجتماعية (المهنية والشعبية) في تنفيذ خطط التنمية الى حد كبير ، وتقدم لها الاحتياجات الرئيسية التي تساعدها على القيام بدورها من اجل تطوير مبادراتها في تنمية المجتمع ، وتطوير احواله . كما تقوم المنظمات الاجتماعية (المهنية والشعبية) بدورها في المساهمة الجادة في تنفيذ خطط التنمية ، وفق مجالات اختصاصها بتوفير الاسس الفعالة الكفيلة ، فياجتذاب الجماهير ؛ للمشاركة فينشاطات هيئات الدولة وفيتنفيذ خطط التنمية القومية وتسهم في تنمية القدرات البشرية والقوى العاملة وتحسين مستويات معيشتهم . وقد نص قانون خطة التنمية القومية في القطر العراقي للسنوات ١٩٧٦-١٩٨٠ على ضرورة دعوة المنظمات والاتحادات المهنية والجماهيرية للمشاركة في وضع الصيغ الكفيلة لتوسيع دورها في المشاركة المستمرة لتنفيذ خطة التنمية [١] .

ان عملية الانتاج والتنمية تتحقق في حدود علاقات بين الجماهير بحسب المواقع التي تتبوأها والمراكز التي تشغلها ، وهو ما يسمى بعلاقات الانتاج الاجتماعي • وعلاقات لها صلة مباشرة بين الانسان والتنمية وتسمى ادوات الانتاج •

ان عملية الانتاج ذات طابع اجتماعي ، فالجماهير خلال عملية الانتاج يدخلون في علاقات محدودة من اجل النشاط المشترك ولتبادل انتاج عملهم • وهذه العلاقات اما ان تكون علاقات استغلال الانسان للانسان كماهي الحال في المجتمعات الطبقية ، العبودية والاقطاعية والرأسمالية ، واما ان تكون علاقات تعاون ومساعدة متبادلة وخلق مجتمع اشتراكي موحد يسعد فيه الناس كماهي الحال في المجتمعات الاشتراكية والمجتمعات النامية التي تسعى الى خلق المجتمع الاشتراكي •

ان نشوء نظام اجتماعي يتوقف على مستوى تطور القوى المنتجة اولا ، وعلى طبيعة العلاقات الانتاجية السائدة ثانيا • وان هذا التطور ينبثق عن سلامة المسيرة التي تسلكها المنظمات المهنية في ظل الانظمة التي تعيش فيها •

فالمنظمات الاجتماعية الجماهيرية (المهنية والشعبية) في الاصل هي جمعيات تضم عدداً من العاملين بأجر ، يتوخون حماية شروط عملهم او تحسينها بيد ان الحركة النقابية بعد تطورها بنتيجة تطور المجتمعات البشرية والانظمة الاقتصادية والاجتماعية القائمة فيها ، اخذت تطالب باقامة نظام اجتماعي ، يتجاوز نظام العمل المأجور ، ويسمح باقامة الديمقراطية ، ويسعى الى مناهضة الاستغلال الاجنبي وقد بدأ دورها يؤثر تأثيرا فعالا في جميع جوانب حياة الناس ونشاطهم ، لانها بدأت تشارك في بناء الدولة والاقتصاد والثقافة من خلال سعيها في زيادة الانتاج وتحسين نوعيته •

ولغرض التعرف على الظروف والعوامل التي دعت الى انبثاق المنظمات الاجتماعية (المهنية والشعبية) لابد لنا من العودة بشكل سريع الى المراحل المختلفة التي قطعتها المجتمعات البشرية ونمط العلاقات الانتاجية وتطورها وظروف حياة الطبقات العاملة فيها للوقوف على هذه المسيرة •

اولا ـ في المجتمعات الطبقية

لقد مرت الانسانية عبر حياتها ونضالها بمرحلة المجتمع الطبقي الذي كانت العبودية (المجتمع العبودي) تمثل المرحلة الاولى فيه ، حيث اعقبتها مرحلة الاقطاع التي انتهت بالرأسمالية .

فقد استخدم المجتمع العبودي العبيد الذين كانوا في الغالب من أسرى الحرب للعمل في الزراعة والمناجم وترميم الطرق والخدمة في البيوت وزركشة القماش ودبغ الجلود واصبح العمل العبودي يمثل المظهر الاعتيادي للعمل .

والى جانب ملكية السيد للعبيد مباشرة ، فقد وجد تجار العبيد في هذه الاعداد الكبيرة مجالا لسد الاحتياجات والتعويض عن الايدي العاملة في المواسم الزراعية . ولقد وجد في مصر القديمة واثينا عقود ايجار الاشخاص (افراد وجماعات) . ومن الطبيعي ان تختلف ظروف العمل العبودي من بلد الى بلد لانها ظروف ترتبط بالدين والعادات والتقاليد والقيم السائدة بها وقد بدت القسوة والعنف في تعريفات افلاطون وارسطو والشريعة الرومانية في تعريف العبد ، حيث اعتبر متاعا وابيح للسيد قتله . اما مصر الفرعونية والديانة المسيحية ، فقد كانت نظرتها رحيمة تمشيا مع طابع الاصلاح الاجتماعي والشعور الانساني وان لم يبلغ ذلك مضمون ومحتوى النظام العبودي . ولم تلغ الدعوات الاصلاحية الصراع بين السادة والعبيد حيث بلغ ذروته في ثورة سبارتكوس[1] في روما القديمة .

---

(١) : (سبارتكوس مصارع روماني هرب ومعه ٧٨ عبدا من رفاقه ، داعيا العبيد الى الثورة ، فتجمع حوله اكثر من سبعين الف رجل) استمرت ثورته ثلاث سنوات وقد ادى انقسام جيشه الى حزبين متنازعين الى انهزامه وقتله وصلب اعوانه .

وشهد المجتمع المصري عددا من ثوراتهم وانتفاضاتهم • وقد عالجت الشريعة الاسلامية مسألة العبيد معالجة سمحة فالغت مفاهيم الرق وساوت بين البشر • واكدت مفهوم الانسان من خلال النصوص القرانية والاحاديث الدينية والتطبيق الحقيقي لمبادىء الشريعة •

وقد وجد الى جانب العمل العبودي في المجتمعات العبودية القديمة (العمل الحر) حيث عرفته المجتمعات اليونانية والرومانية والمصرية القديمة وقد صاحب العمل الحر الطوائف والجمعيات التي كانت ترعى اعضاءه وتحافظ على سر مهنتهم •

ولم يعد انتاج العمل العبودي كافيا لسد احتياجات الدولة والطبقات الحاكمة ،فقد ادت الصعوبات الفنية والاقتصادية والصراعات الطبقية والحروب الداخلية والخارجية الى ميلاد نظام جديد هو (المجتمع الاقطاعي) ،الذي سادت فيه العلاقات الانتاجية الجديدة ، وقد عرفته مصر القديمة وقد تمثلت بدايته بتحول كثير من الفلاحين الاحرار ، بعد تخليهم عن املاكهم ، ليفوا بديونهم الى اقنان مشدودين الى الارض • كما شهدت الامبراطورية الرومانية في مراحلها الاخيرة نوعا جديدا من نظام القن • حيث يمتلك السيد من يقوم بخدمته وبامكانه بيعهم واستبدالهم بسواهم • والى جانب رقيق الارض وجدت انواع اخرى من العمل ، ففي جانب المعامل التابعة للاقطاعي الاوربي ، وجد اقنان الصناعة لانتاج ماتستهلكه اسرة السيد •ولم يحل هذا النظام دون وجود بعض الصناع الاحرار في القرية •

كما وجد نوع آخر من العمل الزراعي عرف صاحبه بالمزارع • وهو الشخص الذي يعهد اليه بعض ملاكي الارض بزراعة اراضيهم وسمى في اوربا (بالمزارع العام) وفي الشرق العربي (بالملتزم)[٢] وكان هؤلاء الوسطاء مصدرا من مصادر القهر ونشر الرعب في الريف للحصول على اكبر قسطٍ من الريح •والى

---

(٢) : عبدالمنعم الغزالي الجبيلي ـ تاريخ الحركة العمالية والنقابية في العالم ومنشورات مكتبة النهضة ، بغداد بيروت ـ ص١٣ .

جانب المزارع وجد الفلاح الذي يقوم بزراعة الارض مقابل حصته من الريع ، وقد ظل هذا الفلاح يعيش في حالة بؤس ، ويحرم من المساهمة في تملك الارض او استئجارها .

وانتشر في المدن الكبرى ، العمل الصناعي الحر ، مارسه رجال احرار تكتلوا في احياء خاصة بهم وكونوا فيما بينهم اشكالا خاصة من التنظيم اصحاب الحرفة ، وكانت الحرفة تضم صاحب العمل والعمال معا . وكان لهذه الطوائف ، التي عرفت في الشرق بأسم الطائفة الحرفية ، قوانين خاصة حازمة وكانت كل طائفة مغلقة دون الطوائف الاخرى وكانت الطائفة تضم ممارسي الحرفة كافة . وقد انحصر العمل الصناعي داخل اطار هذه الطوائف . وقد نظمت الطوائف جميع شروط العمل بشكل دقيق . وكانت تقف بوجه التجار وسيطرتهم وتحكمهم ، خاصة بعد ان اصبح التجار اسياد المدن الكبرى الجديدة التي ظهرت في العصور الوسطى .

وفي الوقت الذي كانت اوضاع الحرفيين الاقتصادية والاجتماعية سيئة انتعش التجار خاصة على أثر حاجة الاقطاعيين المتزايدة الى المال ليواجهوا حياة البذخ ومظاهر الترف التي عاشوها ، واصبحت سمة من سماتهم ؛ وليمولوا الحروب المحلية مما ادى الى اعتمادهم على التجار . ومن الطبيعي ان تتطور وتزدهر بعد الاكتشافات الجديدة للطرق ، التي ادت الى ظهور صناعات جديدة، تقوم على نظام المصنع ، الذي يموله التاجر من الصناعات التي اقتضتها الظروف الجديدة ودعت اليها الحاجات الآنية الامر الذي مهد لظهور الصناعة الرأسمالية.

وقد ادى ازدهار التجارة وتقدمها في القرن السادس عشر وتراكم رؤوس الاموال الى تغيرات عميقة في ظروف الانتاج . ووجدت صناعات جديدة مثل الصناعات الحربية وصناعة النسيج والطباعة وغيرها . وقد ادى هذا التطور الى ضرورة وجود العمل الحر الى جانب العمال المأجورين الذين لا يملكون وسائل الانتاج .

لقد نادت البرجوازية ، الطبقة الجديدة المالكه لوسائل الانتاج،الى تحرير العمال من نظام الطوائف ، الذي كان حائلاً دون الانتاج على نطاق واسع.وان صوتها ظل يمثل المرحلة التي عاشتها من اجل تحقيق المطامح الانية لهذه الطبقة التي تخلصت من نظام الاقطاع ومن نظام الطوائف الحرفية .

ان تقويض الروابط الاقطاعية بين السيد والقن ، استبدل بروابط سيطرة جديدة بين رب العمل (مالك وسائل الانتاج) ، والعمل لقاء اجر لا يتناسب مع الجهد المبذول والطاقة المستهلكة .

وهكذا فأنه مع ظهور الرأسمالية ، ظهرت قوى جديدة ، فرضتها طبيعة المرحلة واوجدتها العوامل الجديدة التي شاركت في تطوير المجتمع ومن الطبيعي ان يبدأ الصراع بين هاتين الطبقتين لتعارض مصالحهما . ولقد انشأت الطبقة العاملة في صراعها ضد الرأسمالية نقاباتها التي كانت تشكل حجر الاساس في تقدمها ونضالها من أجل الحرية (شأنها شأن المؤسسات البرجوازية التي تعمل من أجل التحرر من الاقطاع) .

وقد كانت ظروف العمل داخل الورش والمعامل قاسية ورهيبة ، حيث تصل ساعات العمل في بعض المعامل الى (١٨) ساعة يوميا اضافة الى انخفاض الاجور وتدهور الاوضاع المعيشية والصحية . الامر الذي ادى الى ضرورة ايجاد منظمات تعمل على تحسين هذه الظروف .

وقد كانت فكرة القائمين على هذه الجمعيات لا تخرج عن كونها مؤسسات يمكن ان تلبي حاجات العمال وتقدم لهم ماهم في حاجة اليه ، ولكن سرعان ما ادركت هذه الجمعيات ان حاجة العمال لا تقتصر على بعض المواد الغذائية والملابس وتحسين الاوضاع تحسينا شكليا بل انهم في حاجة الى ممارسة حقوقهم كاملة وفي مقدمة هذه الحقوق الممارسة الديمقراطية واطلاق الحريات النقابية وكبح جماح الاستغلال الذي يمارسه الرأسماليون ضدهم .

ثانيا ـ مراحل التنمية الاجتماعية وظهور المنظمات المهنية والشعبية

تمثل المنظمات المهنية (النقابية) جمعيات دائمية تضم عددا من العاملين بأجر وكانت غايتهم ، حماية شروط عقد عملهم وتحسينها • وقد ظلت هذه المرحلة سائدة الى ان استطاعت هذه المنظمات ان تحقق جزء من مهماتها وتوفر لمنتسبيها بعض المكاسب • ومن الطبيعي ان تبدأ هذه النقابات بمطالبة الانظمة القائمة بايجاد نظام اجتماعي اخر يتجاوز نظام العمل المأجور وتسعى الى اقامة ادارات ديمقراطية •

لقد ادى انتشار المفاهيم الديمقراطية الى خلق تنظيمات متوسطة بين الفرد والدولة ،ديمقراطية الجماهير المنظمة فيالنقابات والتعاونيات والجمعيات • وقد ظهرت الحركة النقابية في بداية الامر في بريطانيا وكان ذلك على شكل جمعيات عمالية • واتخذت النقابات في المجتمعات الاشتراكية شكل منظمات تربوية تسعى الى اجتذاب وتعليم وادارة العمال • وقد ظلت هذه المرحلة سائدة الى ان استطاعت هذه المنظمات ان تحقق جزء ، من مهماتها وتوفر لمنتسبيها بعض المكاسب • وقد بدأ دورها يزداد فعالية بتطور الاحداث حتى اخذت تساهم في حل قضايا بناء الدولة والبناء الاقتصادي والثقافي •

اما المنظمات الشعبية ، فهي المنظمات الاجتماعية التي تساهم في تربية الجماهير واجتذابها في بناء المجتمع الجديد ، وتنفيذ خطط التنمية القومية ، واعداد جيل متطوريدافع عن الوطن والامة • وذلك مثل منظمات الشباب والطلبة والنساء والطلائع •

وقد اتخذت الحركة النقابية صورا مختلفة عبر مراحل تطورها والتي يمكن تقسيمهاالى ثلاث مراحل متميزة هي :

١ ـ المرحلة التي سبقت الحرب العالمية الاولى •

٢ ـ المرحلة التي عقبت الحرب العالمية الاولى وحتى الحرب العالمية الثانية

٣ ـ المرحلة التي اعقبت الحرب العالمية الثانية وحتى اليوم •

المرحلة الاولى :

تعتبر بريطانية من الدول الاولى التي شهدت ظهور الحركة النقابية ،حيث تشكلت جمعيات عرف اصحابها بامتهان الحرف اليدوية قبل الثورة الصناعية وظهور المصانع بنحو نصف قرن • وكانت الدوافع لتشكيل هذه الجمعيات دوافع محافظة لا ثورية • اذ كانت تطالب بصيانة الانظمة التقليدية ضد ارباب العمل ، الذين اغرتهم النظرية الجديدة للاقتصاد الحر ، كان الغرض من هو ضم العاملين بأجر ، مقابل ظهور الرابطات التي تضم ارباب العمل •

وفي اواخر القرن الثامن عشر انتشرت الاضرابات بين عمال نسيج يوركشاير ولانكشاير مما ادى الى ان يبرم الملك عام ١٧٩٩ نصا منع بموجبه كل تكتل من اي نوع الامر الذي ادى الى حدوث الاضطرابات والتمرد وعمليات تخريب الالات كما جرى في مقاطعة الميدلاند عام ١٨١١[٣]

وفي عامي ١٨٢٥ و١٨٢٦ الغي المنع القانوني للتكتلات ورخص للجمعيات العمل ، وقبلت المفوضات الجماعية وهكذا نال العمال البريطانيون حق التجمع قبل الفرنسيين بمايزيد على نصف قرن •

وفي الحقل القومي قامت اغلبية النقابات ، التي تشمل حرفة واحدة اوصناعة واحدة بتوحيد جهودها لتشكيل نقابة قومية اوبتأسيس اتحاد قومي للنقابات العمالية • وكانت الاجهزة الثلاث الاساسية هي : المؤتمر السنوي «الجهاز التشريعي» واللجنة التنفيذية الجهاز الاداري وامانة السر «الجهاز التنفيذي » • وكانت اللجنة التنفيذية احيانا تتخذ قرارات هامة ، وكان عليها استشارة المؤتمر أو اللجوء الى الاستفتاء •

---

(٣) : اوفران جورج ، ترجمة مهاة فرح الخوري ، الحركة النقابية في العالم ، مطابع وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي ١٩٦٧ ص٢ .

وحين تطورت شروط العمل نتيجة للتقدم العلمي والتقني في اوربا تأثرت التنظيمات النقابية في الاقطار الاوربية الاخرى بالحركة البريطانيه الا ان انتشار المفاهيم الاجتماعية والسياسية الجديدة ادى الى ان تتخذ اشكالا اخرى في فرنسا والمانيا ، أثرت بدورها في التنظيمات النقابية في البلدان المجاورة .

وفي فرنسا كان التاريخ النضالي للعمال قد سجل اول اضراب في عام ١٥٣٩ عندما اضرب عمال الطباعة لمدة اربعة اشهر مطالبين بتحسين ظروف العمل وزيادة الاجور ، وكذلك عمال النسيج سنة ١٦٨١ واضرابهم عام ١٦٩٧ الذي استمر شهرا كاملا . وقد استمرت الحركة العمالية تخوض تجربتها من اجل خلق الارضية الصلبة التي يمكن ان يقوم عليها كيان نقابي واسع لبناء منظمات عمالية ، ترسي قواعد العمل النضالي والكفاحي وترسم الصورة لممارسة النضال اليومي .

وقد اخذت التعاونيات بالانتشار من عام ١٧٩١ وحتى عام ١٨٤٠ بشكل متفاوت بين السرية والعلنية . وكان الحذر يمنعها من الوقوف موقف الخصومة من ارباب العمل وقد ازدهرت هذه المنظمات في الاوساط التي احتفظت بتقاليد حرفية متينة . ويمكن اعتبار عام ١٨٦٠ عام ظهور الغرف النقابية .

ومنذ عام ١٨٨٠ اخذ النقابيون الثوريون ينتقدون الرأسمالية والدولة واصبح الاضراب هو السلاح الرئيسي .

وفي عام ١٩٠٦ في مؤتمر اميان اتفق الاصلاحيون والثوريون على ابعاد السياسية عن النقابة ، لكي تسنح الفرصة امام العمال كافة ،على اختلاف ارائهم ومذاهبهم بالدخول الى التجمع الاساسي لكي تتمكن من تحقيق التحول الاجتماعي .

اما الاتحاد القومي لنقابات العمال فقد تأسس عام ١٨٨٦ • وعملت الحركة العمالية الفرنسية على توحيد قواها ، فنشأت الاتحادات المحلية والاقليمية والتي كانت بمثابة نقابة عامة ، بعضها على اساس الحرفة ، والبعض الاخر على اساس الصناعات • اما اتحاد بورصات العمل فقد اعلن في مؤتمر سانت اتيان في عام ١٨٩٢ • وتأسس الاتحاد العام للعمل عام ١٨٩٥ • وفي مؤتمر مونبيليه عام ١٩٠٢ دمج الاتحادات •

اما في المانيا فقد ولدت النقابات بين عام ١٨٣٠ ـ ١٨٧٠ الا ان التقسيم السياسي في المانيا اخر تطورها •

لقد ادى اشتراك الطبقة العاملة في الصراع ضد الاقطاعية الالمانية الى انبثاق النقابات في المناطق الصناعية وكان طابعها الاساسي ، انها نقابات حرفية ، مثل نقابات عمال الدخان والطباعة •

وقد سجل عام ١٨٤٨ تاريخ ولادة الحركة العمالية وبدء تشكيل النقابات حيث نظم ستيفان بورن Stephane Born مؤتمر العمال الاول ووضع برنامج نصف نقابي ونصف سياسي وأسس اخوية عمالية جمعت ٢٥٠ نقابة[٤] ، وتكون هذا المؤتمر على اساس النضال من اجل حل المشاكل العمالية عن طريق تشكيل اللجان المشتركة مع اصحاب الاعمال الاانها انحلت في عام ١٨٥٤ وقد ضعفت المنظمات العمالية واخذ العمال يتجمعون في جمعيات للتثقيف العمالي تعارض وترفض تدخل الدولة • وقد دعم هذه الحركة البرجوازية،الاحرار والتقدميون في الحزب الوطني•وفي الوقت نفسه تأسست الرابطة العمالية العامة وكانت غايتها انشاء تعاونيات انتاجية تدعمها الدولة •

---

(٤) : عبدالمنعم الغزالي ـ المصدر السابق ـ ص١٠٦ •

وقد حدد المؤتمر النقابي المنعقد بمناسبة المؤتمر الاشتراكي في غوتا مبدئين : الاول يفرض ابقاء السياسة بعيدة عن النقابات ، والثاني يفرض التزام العمال ادبيا بالانضمام الى الحزب الاشتراكي ، الذي يمكنه ايجاد وضع الاقتصادي وسياسي جديد للكادحين • وذلك في محاولة تقسيم العمل بين الحزب الذي كان يسعى لكسب السلطة ، وبين الحركة النقابية التي تحاول تحسين ظروف المعيشة •

ومنذ اواسط القرن التاسع عشر بدأت الاتصالات بين عمال مختلف الدول ، وخاصة بين عمال فرنسا وانكلترا ، لغرض تكوين منظمة عمالية دولية توحد الجهود النقابية وتبلور الفكر الاشتراكي العمالي ، وتضع الخطط لتوحيد الطبقة العاملة في مختلف البلدان خاصة الصناعية منها والتي بدأ النظام الرأسمالي فيها يتجه نحو الاحتكار ، وقد اثمرت الجهود عن عقد المؤتمر الاول في ١٩٦٤/٩/٢٨ في قاعة سانت مارتن في لندن والذي سمى فيما بعد بأسم (الاممية الاولى)[٥] •

وقد نشطت الحركة العمالية عقب عقد المؤتمر ، كما ان العديد من هذه الحركات التزم بالفكر الاشتراكي الذي يقر الصراع الطبقي واقامة سلطة العمال محل السلطة البرجوازية[٦] •

اما في الولايات المتحدة الامريكية فقد اندلعت ، في اواخر القرن الثامن عشر الاضرابات لدى عمال الطباعة والخشب في فيلادلفيا • وتشكلت في نيويورك نقابة عمال الطباعة ، كما تشكلت في بالتيمور نقابة عمال الخياطة • الا ان الحركة النقابية لم تنتظم الا بعد فترة حيث تشكلت نقابات حرفية اقلقها ادخال الآلة التي ادت الى انتشار العطالة من جهة ، وزيادة عدد المهاجرين الفائضين باجور زهيدة من جهة اخرى • وفي عام ١٨٨١ عقد في بيتسبرغ بناء على مبادرة ـ اتحاد عمال الطباعة ـ مؤتمر ضم مائة مندوب ، اسس اتحاد

---

(٥) : الحركة النقابية مؤسسة الثقافة في وزارة العمل والشؤون الاجتماعية دار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٩٧٤ ص٢٦ •

(٦) : الحركة النقابية ـ المصدر السابق • ص ٢٦ •

النقابات ورابطات العمال المنظمة الذي اصبح فيما بعد بأسم الاتحاد الامريكي للعمل وقد اعلن الاتحاد المذكور اضرابا عاما في اول ايار ١٨٨٦ اشترك فيه ٣٥٠ الف عامل وكان مركزه الرئيسي في شيكاغو حيث كان للجناح اليساري في النقابات نفوذ كبير •

الا ان عمل الاتحاد الامريكي للعمل لم يرض كافة العمال ، الامر الذي ادى الى ظهور جمعية ـ العمال الصناعين في العالم ، عام ١٩٠٥ وكانت تضم خمسين الف منتسب ، اغلبهم عمال من اصل ايطالي واسباني ينتقلون باستمرار من حرفة الى اخرى ومن مدينة لاخرى •

لقد سعت النقابات منذ بدء ظهورها ، لاقامة اتصالات دولية ، لاسيما بين عمال الحرفة الواحدة • ففي مؤتمر عقد في كوبنهاكن عام ١٩٠١مثلت اثنتا عشرة حركة • وفي عام ١٩٠٢ تأسس في شتوتغارت في المانيا ـ المكتب المركزي الدولي للمؤسسات المركزية النقابية الوطنية ـ وفي عام ١٩١٣ قرر مؤتمر زوريخ تبني اسم ـ الاتحاد النقابي الدولي[٧] •

المرحلة الثانية :

لقد تحولت الحركة النقابية في دول الغرب عن عملها المباشر واخذت تسعى من أجل الحوار المباشر مع السلطة • وقد اصبحت المنظمات النقابية منظمات جماهيرية بعد ان كانت محصورة بأقلية محدودة قبل الحرب •

فالاتحاد العام للعمل الفرنسي الذي كان يضم في عام ١٩١٤ ، ٦٠٠ ألف منتسب من اصل ١٥ مليون عامل بأجر ، اصبح في عام ١٩٢٠ يضم مليوني منتسب • وفي بريطانيا ارتفع عدد النقابين من اربعة ملايين في عام ١٩١٥ الى ثمانية ملايين في عام ١٩٢٠ • وفي الولايات المتحدة الامريكية ارتفعت الانتسابات الى اتحاد العمل الامريكي من مليونين وعشرين الف منتسب في عام ١٩١٤ الى اربعة ملايين وثمان وسبعون الف عامل عام ١٩٢٠[٨] •

---

(٧) : لوفران جورج ـ المصدر السابق ص ٥٤ .

(٨) : لوفران جورج ـ المصدر السابق ص ٦٦ ـ ٦٧ .

اما في روسيا فقد ادت الحركة النقابية التي ظهرت في اواخر القرن التاسع عشر الى العمل السياسي •ففي ايار ١٩٠٥ تشكلت في ايفانز وفي تشرين في سان بيترسورغ اول ، مجالس السوفيات للمندوبين العماليين ، الذين طالبوا بتشكيل حكومة مؤقتة والدعوة الى عقد اجتماع مجلس تأسيسي واقامة نظام ديمقراطي •وهكذا اصبحت النقابات مراكز ثورية • ولكي لاتتحول الحركة النقابية الى حركة حرفية ضيقة اخضعت للحزب السياسي مع الموافقة على انضمام عمال غير حزبين الى النقابة ولم يفرض على النقابات الطابع السياسي •

وفي تموز ١٩٣٠ كلف المؤتمر السادس عشر للحزب الشيوعي النقابات بالعمل على زيادة الانتاج ومحاربة البيروقراطية ، وافهام العمال بأن العمل في دولة اشتراكية يتطلب اساليب تختلف عن الاساليب المتبعة في الدول الرأسمالية وفي هذا الاطار لا تستطيع الاضطرابات ان تجد لها مكانا وكل محاولة اضراب او تعطيل عمل يعد عملا تخريبيا • وقد وجه النشاط النقابي نحو زيادة الانتاج وتحسين النوعية خلال ساعات العمل المحددة وتحسين احوال العمال في المعمل وتوفير الضمانات الاجتماعية والمكتسبات والتوجيه السياسي ومدارس الاعداد النقابي

ان المنظمات النقابية في الدول الاشتراكية تكاد تتطابق مهامها مع مهام الحركات السياسية المنتمية لها بالاضافة الى انها تتحمل قسطا كبيرا من الاعباء والمهمات الملقاة على كاهل حركاتها واحزابها السياسية ، وتجد نفسها في موقع المخطط والمنفذ مع السلطة الاشتراكية لشؤون المجتمع •

ولم يأت نشوء وتكون الجمعيات العمالية الاولى في هذه البلدان اعتباطا بل كانت نتيجة للنهضة الصناعية وتطور وسائل الانتاج ، وانتصار البرجوازية على الاقطاع ، وقيام انظمة رأسمالية ، وشاركت بشكل فعال في تنشيط التجارة والاستفادة من الاختراعات الجديدة ،في زيادة الطاقة الانتاجية واستغلال اكبر عدد ممكن من العمال في الانتاج لحسابها ، ونقلت الصناعة من الورش والمعامل الصغيرة الى بناء المعامل الواسعة التي اصبحت تستوعب اعدادا كبيرة من

العمال ، مما هيأ الظروف المناسبة والطبيعية لنشوء طبقة عاملة قوية تمتاز بكثرة عددها والشعور بالمصلحة المشتركة •

وقد دفع الاحساس بالاستغلال والاضطهاد الطبيعي ، الذي تمارسه البرجوازية ضد العمال ، بالعناصر الواعية الى تصور صيغ متعددة للخلاص من ذلك • وتمثل هذا التصور في تعدد وجهات النظر التي طرحت لمعالجة الاوضاع القائمة والفقر المدقع والحالة البائسة التي تعاني منها طبقة العمال • وهذا مما دفع العمال في كل انحاء العالم الى الاندفاع من اجل المشاركة في الثورات والانتفاضات التي قامت في انحاء العالم دفاعا عن حقوقهم ومحاولة لتغيير الاوضاع القائمة واجبار السلطات على الاعتراف بوجودهم النقابي •

المرحلة الثالثة :

كان العالم النقابي حتى الحرب العالمية الاولى مصنفا الى ثلاثة اتجاهات هي : نقابات العمال البريطانية او الاتجاه الذي يتقبل النظام الرأسمالي ، ويعتبر ان المشاكل العمالية البريطانية او الاتجاه الذي يتقبل النظام الرأسمالي ويعتبر ان المشاكل العمالية يمكن ان تعالج وتحل في اطاره ، وكان شعاره (لاسياسة في النقابات) والاتجاه الثاني ممثل في الاتحاد العام للعمل الفرنسي ، الذي تطور على يد سوريل في فرنسا ، ويمثل الاتجاه الفوضوي ، الذي يرتكز على فكرة ضرورة نضال الطبقة العاملة ضد الاحتكارات الرأسمالية الاانهم يرفضون العمل السياسي ويؤكدون على ضرورة استخدام سلاح الاضرابات وحركات التمرد • اما الاتجاه الثالث فهو ممثل في الـ A.D.G.B وتركزت دعوته على الدعوة الى تكوين النقابات الصناعية لشن الصراع ضد الاحتكارات الرأسمالية ، وحاربوا نظرية حياد النقابات • ودعى الطبقة العاملة الى تأسيس حزب قوي مسلح بنظرية قادرة على مواجهة الرأسمالية واقامة الاشتراكية •

اما بعد الحرب فقد برز تياران اساسيان ، هما النقابات الامريكية ، والنقابات السوفياتية . الاولى تمثل طموحات النظم الرأسمالية والامبريالية ، والاخرى تمثل طموحات الشعوب .

ان عدم الانتماء السياسي لبعض نقابات الغرب أو انتمائها الى حركات يمينية ومحافظة ادى الى بلورة جملة من الظواهر السلبية وظهور البيروقراطيات النقابية ، وقد اصبحت بعض القيادات النقابية ادوات طيعة بيد النظام .

وفي البلدان النامية عموما ، والوطن العربي خصوصا ، الذي يتميز بخصائص تختلف عن مميزات الدول الصناعية ، حيث يعاني من التجزئة والتبعية الاقتصادية والتخلف الصناعي وانتشار الجهل والامية ، تطرح مهام اضافية على عاتق الحركة النقابية ، تفرض عليها الاندماج والتفاعل مع كافة القطاعات الاخرى في المجتمع من اجل التحرر من السيطرة الاستعمارية والتخلص من الاحتكارات الاجنبية .

وفي مرحلة التنمية الاقتصادية والاجتماعية يرتفع دور واهمية المنظمات المهنية والشعبية وهي تجتذب الجماهير بشكل اوسع فاوسع الى حل قضايا بناء الدولة والبناء الاقتصادي والحضاري .

ان المنظمات المهنية والشعبية في البلدان الاشتراكية تجمع في عملها بين العمل والتعليم والمعيشة في كل واحد . وتؤثر تأثيرا فعالا في جميع جوانب حياة الناس ونشاطاتهم ، وتشارك في انتخاب هيئات سلطة الدولة ووضع القوانين الخاصة والعمل والمعيشة والثقافة وفي برمجة الاقتصاد الوطني وتتمتع بحق المبادرة التشريعية ومن مهمات هذه المنظمات اجتذاب مختلف الفئات الجماهيرية على نطاق واسع الى جانب الدولة والانتاج والمجتمع ، خصوصا فئة النساء نظرا لطبيعة الاوضاع الاجتماعية والحضارية الخاصة بهن .

وتشترك المنظمات المهنية في البلدان الاشتراكية بنشاط واسع في الرقابة على مقياس العمل والانتاج والاستهلاك كما تشترك في تخطيط وتنسيق اجور العمال والمستخدمين وفي وضع نظم دفع اتعاب العمال والقواعد التي تخص المكافات مسترشدة بالفكر الاشتراكي ، بدفع اتعاب العمل حسب كميته ونوعيته •

وتعني النقابات عناية دائمة بتحسين ظروف العمال ، وتحسين ظروف عملهم ومعيشتهم • وتعقد مع ادارات المؤسسات اتفاقيات وعقودا حول وقاية العمل والتكنيك الوقائي وتراقب التقيد بتشريعات العمل •

وقد احيل في البلدان الاشتراكية الى النقابة ، النظر في نزاعات العمل ، ولا تتمكن الادارة من فصل اى عامل دون موافقة النقابة او اللجنة النقابية المحلية •

وتدير لنقابات شؤن التأمين الاجتماعي للدولة وتقدم الاعانات في حالات العجز المزمن والمؤقت وتراقب نشاط هيئات الضمان الاجتماعي وتشترك في تعيين المعاشات وتنظيم صناديق المساعدة وتدير دور الاستجمام والمصحات ودور الراحة[٩] •

---

(٩) : ميركوروف المنظمات الاجتماعية في الاتحاد السوفيتي دار التقدم-موسكو ١٩٦٤ ص٢٣ ـ ٣٥ •

الخــــاتمة

وتكتسب النقابات اشكالا خاصة تتلاءم مع النقابة وطبيعة الاعضاء الذين ينتمون اليها ، فنقابات العمال لها منتسبوها الذين يتميزون بالخصائــص والاحوال وطبيعة العمل الخاصه بهم ونقابات المهنيين والمهندسين والاطباء والزراعيين والمحامين وغيرهم لها طبيعتها التي تتلائم مع ظروف كل فئة ،وتعمل من أجل وضع العاملين في اطار الاتجاه العام الذي تسعى اليه الدولة • ومن الطبيعي ان تختلف مهمات النقابات والمنظمات في الدولة الاشتراكية عنها في الدول الرأسمالية الى جانب الاختلاف الذي تمارسه هذه النقابات والمنظمات في الدول النامية • وفي العراق تتحمل هذه المنظمات والنقابات مهمات اساسية تتمثل في انجاز هــذه المهمات واستيعاب الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والثقافية المعاصرة ، بعيدة عن القوالب الفكرية الجاهزة محاولة الاستفادة من تجربتها وخصوصية واقعها عن طريق دراسة هذا الواقع وتشخيص اسباب التخلف ودراسة ظواهر التعويق وتنمية القــدرات تنمية علمــية موضوعية وايجاد كل مامن شأنه تقوية العلائق الاجتماعية ومحاولة تبادل الخبرات والتجارب والسير جنبا الى جنب مع خطط الدولة الرامية الى اعادة بناء الانسان وتكوينه فكرا وثقافة وغرس القيم الاصيلة التي نشأت عليها الامة وتأكيد روح التفاني والتضحية ، والاعتزاز بتراث الامة وقدرتها على مجابهة التحدى والدفاع عنهــا في كل مجال • ولابد ان تنطلق النقابات في مجالاتها المتعددة بما يتناسب مع طبيعتها لتأكيد الخط العام الذي تنبثق من خلال ، مهمات اعضائها وما يمكن ان يقدموه في هذه المجالات لتنهض قادرة على مواكبة مسيرة الثورة وتقدمها بما يحقق للمجتمع طموحه واهدافه ••